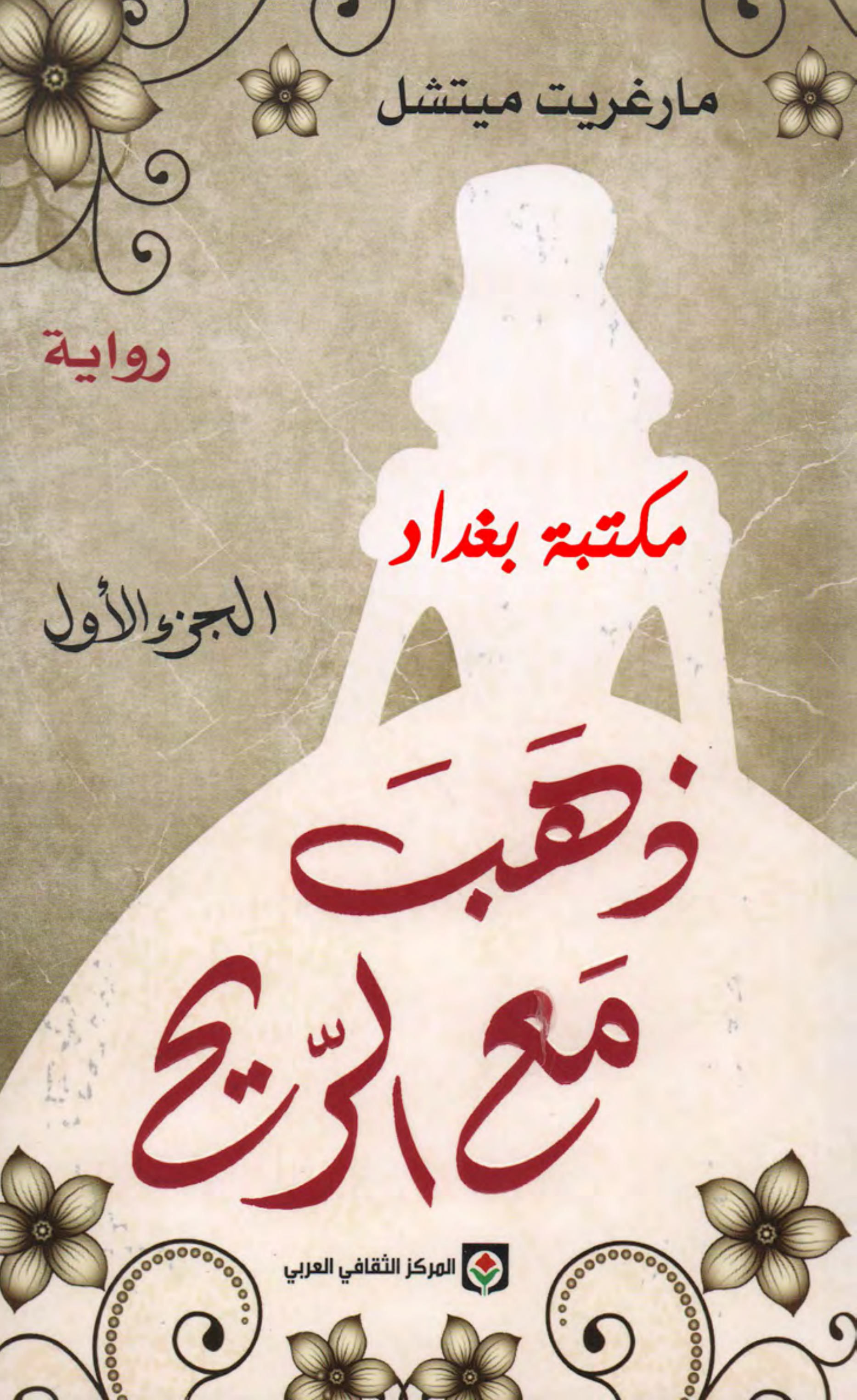

مارغريت ميتشل
رواية
مكتبة بغداد
الجزء الأول
ذهبَ مَعَ الرّيح
المركز الثقافي العربي

مارغريت ميتشل

ذهب مع الرّيح

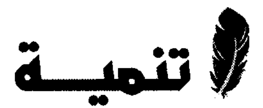
رواية

الجزء الأول

ترجمة:

أحمد زكي العرابي   فؤاد ترزي





الكتاب

ذهب مع الرّيح

تأليف

مارغريت ميتشل

ترجمة

أحمد زكي العرابي وفؤاد ترزي

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-825-1

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مكتبة تنمية

القاهرة ـ مصر

19 شارع هدى شعراوي من شارع

طلعت حرب - وسط البلد - القاهرة

محمول: 00201004367744

هاتف: 23926249 / 00202

Email: khaled_tanmia@hotmail.com

Facebook: tanmiabookstore

القسم الأول

1

لم تكن سكارلت أوهارا بالفتاة الجميلة، ولكن قلّما كان الرجال يدركون ذلك حين كانت تفتنهم بسحرها الأخّاذ كما افتتنت توأمَي آل تارلتون. كانت تعابير وجهها مزيجاً عميقاً من ملامح أمها الرقيقة، ابنة الساحل الأرستقراطية، الفرنسية الأصل، والملامح القوية لوالدها الإيرلندي المتورد الوجه. أما عيناها فكانتا خضراوين شاحبتين لا تشوبهما صفرة، تلمعان بنظرات نافذة كالسياط، في طرفيهما قليل من الزيغ، وفوقهما حاجبان أسودان غليظان مائلان إلى الأعلى ومشكلين خطاً منحرفاً مثيراً في بشرة وجهها البيضاء بياض زهرة الماغنوليا[1]، تلك البشرة التي يقدّرها نساء الجنوب كثيراً ويحرصن على المحافظة عليها من شمس جورجيا، بالقبّعات والحجب والقفازات.

وبعد ظهر ذلك اليوم المشرق من أيام أبريل سنة 1861، بدت سكارلت رائعة وهي تجلس بصحبة التوأمين ستيوارت وبرنت تارلتون، في ظلال الرواق المعتدل البرودة، في تارا، مزرعة والدها. كان ثوبها الجديد الأخضر، المخيط من الموسلين المزهر، ينشر يارداته الاثنتي عشرة من القماش المواج من طوق كشحيها، ملائماً كل الملائمة

---

(1) نوع من الزهور العطرية سميت باسم مكتشفها عالم النبات الأميركي بيتر ماغنول (1715-1738) - (المترجمان).

خفّيها المراكشيين الأخضرين، اللذين جلبهما لها والدها مؤخراً من أتلانتا. كان هذا الثوب يُبرز بشكل دقيق تام خصرها البالغ محيطه سبع عشرة بوصة، أنحل الخصور في الولاية. كما أن قميصها المُحكم القياس كان يُبرز ثديين ناضجَيْن جداً بالنسبة إلى عمرها الذي لم يتجاوز ستة عشر ربيعاً.

ولكن، على الرغم من الحشمة التي توحي بها تنورتها الفضفاضة، والوقار الذي يبينه شعرها المجموم برفق في شبكة خلف رأسها، والكسينة التي تنبعث من يديها الصغيرتين البيضاوين، المثنيّتين داخل حجرها، وعلى الرغم من كلّ تلك المظاهر، لم تكن حقيقة نفسها لتخفى: فالعينان الخضراوان في وجهها العذب كانتا تنمّان عن الصخب، عن التصلب في الرأي، عن النهم في الحياة، تلك الأمور التي تغاير تماماً سلوكها المحتشم. أما تعليل ذلك فيعود إلى أن خُلُقها كان وليد إرشاد والدتها الرحيمة وتأديب مربّيتها الأكثر صرامة... أما عيناها فلم تكونا لتعكسا سوى خصائص فطرية نابعة من ذاتها هي.

كان كلّ من التوأمين يجلس إلى أحد جانبيها، مسترخياً على كرسيه، يخزر بنظره إلى نور الشمس، وهو في غمرة الحديث والضحك، من خلال نظارات طويلة مزركشة، بينما ساقاه الطويلتان، الغارقتان في جزمتين تبلغان الركبتين، والغليظتان من جرّاء ركوب الخيل، تشابكتا باستخفاف ظاهر. كانَ كلّ منهما قد بلغ التاسعة عشرة من العمر، ذا قامة تبلغ ستة أقدام وبوصتين، مديد العظام، قوي العضلات، لوّحت حرارة الشمس وجهه، وكسا رأسه شعر بنّي أحمر، أما عيناه فمرحتان تشوبهما نظرات الكبرياء، وقد ارتدى كلاهما معطفين أزرقين متماثلين، وسروالي سواري بلون الخردل. وخلاصة القول أنهما كانا شديدي التشابه كقرنَي نبتة القطن.

خارج الرواق، كانت شمس الأصيل تبدو مائلة في الساحة وهي

تغمر بأشعتها المتلألئة أشجار الدكود[1] التي كانت بمثابة كتل متراصّة من الزهور البيضاء على بساط مخضوضر ناضر.

وكان حصانا التوأمين مربوطين في الممر الخارجي، حيوانان ضخمان أحمران كشعر صاحبيهما، تتنازع حول قوائمهما مجموعة من الكلاب العصبية الهزيلة التي كانت ترافق ستيوارت وبرنت حيثما ذهبا. وعلى مسافة قليلة، يضطجع جرو مرقّط بالسواد، معتزل صحبه اعتزال الأرستقراطي، مغلف المخالب، ينتظر بفارغ صبر انصراف سيِّديه إلى البيت لتناول العشاء.

وبين هذه الكلاب وذينك الحصانين والتوأمين، كانت تقوم صلة متينة، أقوى من علاقة الرفقة الدائمة، فقد كانوا جميعاً في صحة جيدة، فارغَي البال، ناعمَي الحال، رشيقَي الحركة، ذوَي معنويات عالية، أما الشابان فكانا شديدَي البأس كالحصانين اللذين يركبانهما، شديدي البأس، خطيرَين، ولكنهما رغم ذلك، حسنا المعشر مع أولئك الذين يعرفون كيف يعاملونهما.

ولنعُد إلى الثلاثة الجالسين في ظلال الرواق، فهؤلاء، رغم أن كلاً منهم وُلد وترعرع في رغد حياة المزارع حيث يُعتنى بالطفل اعتناء فائقاً منذ مولده، لم تكن تنطق وجوههم بالخمول أو الخنوثة، بل كانوا يمتلئون حيوية ونشاطاً ويقظة، كأولئك القرويين الذين يقضون حياتهم في البرّية، لا يُجهدون عقولهم بمحتويات الكتب المضجرة، إلا قليلاً جداً.

لقد كانت الحياة في مقاطعة كلايتون في ولاية جورجيا الشمالية، لا تزال حديثة العهد، فجّة خشنة، إذا ما قيست بالحياة في أوغستا أو

---

(1) نوع من الشجر ذو زهر أبيض وأحمر يعقد في الخريف ثمراً شبيهاً بثمر التوت - (المترجمان).

سافانا أو شارلستون. وكان أبناء الجنوب، الذين هم أعرق مدنية وأكثر اتزاناً، ينظرون بازدراء إلى الجورجيين الشماليين، إلا أن فقدان طرائف الثقافة الكلاسيكية عند هؤلاء، لم يكن ليثير في نفوسهم أي شعور بالعار، إذ كان يُشترَط في الرجل عندهم أن يكون حاذقاً في الأمور التي تهمّهم والتي كانت تنحصر في إنتاج الجيد من القطن، والمهارة في ركوب الخيل، والدراية بالرماية، ثم الرقص بخفة ورشاقة، ومعاملة السيدات بكياسة، وتبادُل أنخاب الشراب مع الآخرين بأدب واحترام.

وفي كلٍّ من هذه الأمور، كان التوأمان متفوّقين بارزين كبروزهما فيما شُهِرا به من عجزهما عن تعلّمهما أي شيء تحتويه دفّتا كتاب. إذ على الرغم من أن عائلتهما كانت تملك من المال والخيل والعبيد أكثر ممّا تملكه أي عائلة أخرى في المقاطعة، فإنّ أبناءها كانوا أقلّ تعلماً من معظم أبناء جيرانهم الكريكرز[1] الفقراء.

ولهذا السبب عينه، كانا التوأمان في ذلك المساء من أبريل مسترخيَيْن في ظلال الرواق في تارا. فلم يكن قد مضى على طردهما إلا زمن يسير من جامعة جورجيا، رابع جامعة تفصلهما خلال السنتين الأخيرتين. أما أخواهما الكبيران: توم وبويد فقد تركا الجامعة وعادا إلى البيت إذ رفضا البقاء في مؤسسة لم ترحِّب بشقيقيهما التوأمين، اللذين اعتبرا موضوع طردهما الأخير مجرد فكاهة رائعة. وأيّدتهما سكارلت في هذه النظرة، سكارلت التي لم تفتح كتاباً منذ غادرت أكاديمية فايتفيل للإناث، في السنة المنصرمة.

- «أنا أعرف أنكما لا تحفلان بقضية فصلكما من الجامعة، وكذلك توم. ولكن ما شأن بويد؟ إنه نوعاً ما مندفع إلى التحصيل

(1) اسم لفئة من الفقراء البيض تسكن بعض الأجزاء الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة - (المترجمان).

العلمي ولقد انتزعتماه من جامعات فرجينيا، وألاباما وكارولاينا الجنوبية، وهاكما الآن تضطرانه إلى ترك جامعة جورجيا، وإذا ما سارت الأمور على هذه الوتيرة، فلن يستطيع إتمام دراسته أبداً».

– «ها، في استطاعته دراسة القانون في مكتب القاضي بارملي، هناك في فايتفيل»، أجاب برنت دون اكتراث. «هذا بالإضافة إلى أن موضوع الجامعة لم يعد ذا بال، إذ كان علينا على كل حال الرجوع إلى البيت قبل نهاية الفصل الدراسي».

– «لماذا؟».

– «الحرب، أيتها الوزة! الحرب قد تندلع في أي يوم، وأنتِ بالطبع لا تتوقّعين بقاء أيّ منا في الجامعة والحرب قائمة على قدم وساق، أليس كذلك؟».

– «أنت تعرف أن الحرب لن تقع»، أجابت سكارلت منزعجة. «وإنما هي مجرد أحاديث. كيف لا، وفي الأسبوع الماضي بالذات أخبر آشلي ويلكس ووالده أبي أن وكلاءنا المفاوضين في واشنطن سيصلون إلى... إلى اتفاق ودّي مع السيد لينكولن حول مسألة التحالف. وعلى كلّ حال فالشماليون خائفون جداً منا بحيث إنهم لن يحاربوا... لن تقع حرب... لقد سئمت الحديث عنها».

– «لن تقع حرب!»، صاح التوأمان ساخطين، كما لو أنهما طُعِنا خلسة. ثم أردف ستيوارت قائلاً:

– «كيف لا... ستنشب الحرب حتماً يا عزيزتي... قد يكون الجنود الاتحاديون خائفين منا، ولكن بعد أن طردهم الجنرال بورغارد من قلعة صمتر، رمياً بالقنابل، أول أمس، لن يكون أمامهم إلا أن يحاربوا، أو أن يُحجموا موصومين بالجبن أمام العالم بأسره... أما التحالف...»، وهنا قاطعته سكارلت بَرِمة جزعة:

– «إذا تفوّهت بكلمة حرب، مرة أخرى فقط، فسأدخل البيت

وأغلق الباب من خلفي... فأنا لم أتضايق من كلمة ما في حياتي كما من كلمة «حرب»، اللهم إلا إذا كانت تعني «الانفصال»[1]... إن أبي يتحدث عن الحرب في الصباح، وعند الظهر، وفي الليل... وكذلك الرجال الذين يأتون لزيارته، جميعهم يتصايحون وهم يتحدثون عن قلعة صمتر... وحقوق الولايات وإيب لينكولن... حتى قد بلغ بي الضيق أشده، لو أستطيع أن أصرخ في وجوههم... ثم إن هذا الوضع عينه، هو ما يتحدث عنه الشبان أيضاً... عنه وعن فرقتهم العسكرية القديمة... حتى خلت جميع حفلات الربيع هذا العام من روح المرح والبهجة... فلم يكن للشباب من حديث... سوى حديث الحرب... إنني مسرورة جداً لأن ولايتنا جورجيا قد أرجأت عملية الانفصال إلى ما بعد عيد الميلاد، وإلا لأفسدت جميع حفلات العيد... احذرا... إذا ما ذكرتما كلمة «حرب» مرة ثانية فسأدخل البيت!».

كانت سكارلت تعني ما تقول، إذ لم يكن في وسعها احتمال حديث لا تكون هي مَداره الرئيس، مع ذلك حين كانت تتحدث وهي منفعلة كانت تبتسم معمّقة غمازتَيْ وجهها عن عمد، مرنّقة أهدابها القاسية السوداء ترنيق الفراش لأجنحته. وكما أرادت، وقع الشابان تحت تأثيرها، فأسرعا يعتذران عن إغضابها، دون أن يقلل موقفها اللامبالي من تقديرهما لها، بل إنما الحقيقة أن هذا التقدير لها قد زاد في نظرهما... فالحرب كانت من شؤون الرجال، لا النساء، الأمر الذي جعل موقفها شاهداً بليغاً على أنوثتها.

---

(1) الانفصال عن اتحاد الولايات الجنوبية الإحدى عشرة، ذلك الانفصال الذي حدث سنة (1860-1861) فكان سبباً في إثارة الحرب الأهلية - (المترجمان).

وهكذا بعد نجاح مناورتها في إبعادهما عن موضوع الحرب المزعج، عادت تتحدث باهتمام عن وضعيهما الحالي:

- «وماذا قالت والدتكما عنكما وقد طُردتما هذه المرة؟».

وعلت وجهيهما أمارات القلق، إذا تذكّرا موقف والدتهما في المرة السابقة، يوم أُعيدا إلى البيت، منذ ثلاثة أشهر، بطلب من جامعة فرجينيا.

- «حسناً»، أجاب ستيوارت... «لم يُتَح لها بعد أن تقول شيئاً، فلقد غادرنا البيت برفقة توم في الصباح الباكر ولمّا تكن قد استيقظت، أما توم فقد انزوى في بيت آل فونتين، وأما نحن فقد جئنا إلى هنا».

- «ألم تقل شيئاً عند وصولكم إلى البيت ليلة أمس؟».

- «لا، فقد حالفنا الحظ أمس، إذ اتفق قبل وصولنا أن كان الحصان الفحل الجديد، الذي اشترته والدتي من كنتاكي، في الشهر الماضي، قد جيء به إلى داخل البيت، فدبَّ الهرج واختلط الحابل بالنابل... يا له من وحش كبير... إنه حصان فذّ يا سكارلت... ينبغي أن تخبري والدك أن يحضر حالاً ويراه... لقد نهش قطعة لحم من سائسه وهو في طريقه إلى البيت، كما أنه داس زنجيَّين من رقيق والدتي ذهبا للقاء القطار في جونسبورو، وقبل وصولنا إلى البيت، كان قد قلب الاصطبل رأساً على عقب، وكاد يقتل ستروبري، أقدم خيول والدتي، وعندما دخلنا البيت، كانت أمي قد خرجت إلى الاصطبل تحمل له كمية كبيرة من السكّر لتهدئته وتغذيته، وبينما كان العبيد يتعلقون بالعوارض الخشبية وقد نفرت عيونهم ذعراً وهلعاً منه، كانت أمي تتحدث إلى الحصان كما لو كان إنساناً وهو يأكل من يدها. ليس في الدنيا من يُحسن معاملة الحصان كوالدتي... وما إن رأتنا وهي على تلك الحالة، حتى قالت:

- «باسم الإله. . . ماذا أتيتم تعملون في البيت ثانية. . . أنتم الأربعة؟ إنكم أسوأ من طاعون مصر».

ولكن حدث عندئذٍ أن بدأ الحصان يصهل ويشبّ، فأردفت مسرعة:

- «اخرجوا من هنا، ألا ترون عزيزي الكبير هائجاً؟ سأمرّ بكم جميعاً غداً صباحاً».

وهكذا هرعنا إلى النوم، وفي هذا الصباح أسرعنا بالخروج، لئلا تتمكن من ضبطنا، تاركين بويد يتدبر الأمر معها».

- «وهل تعتقدان أنها ستضرب بويد؟»، سألت سكارلت، التي كانت كبقية سكان الولاية، لم تألف أسلوب القصاص القاسي العنيف، الذي كانت السيدة الصغيرة تارلتون تتبعه مع أبنائها الكبار، فتُحمّلهم الغلال التي تنقل بالعربات على ظهورهم، إذا ما اقتضت الضرورة ذلك.

كانت بياتريس تارلتون امرأة شغالة، فبالإضافة إلى كونها مسؤولة عن مزرعة القطن الكبيرة، ذات المئة زنجي، والثمانية أطفال، فإنها أيضاً كانت تشرف على أكبر مزرعة لتربية الخيول في الولاية. وكأن ذلك قد جعل منها إنسانة حادّة الطبع، تثور بسرعة، عند زلات أولادها الأربعة المتكررة، ورغم أنها كانت تمانع جَلد أي حصان أو عبد، فإنها كانت تعتقد أن ضربة توجّه بين الفينة والأخرى إلى أحد أبنائها لم تكن لتؤذيه أبداً.

- «طبعاً إنها لن تضرب بويد، ولم يحدث أن ضَربته كثيراً، لأنه أكبرنا سناً وأكثرنا ضآلة»، قال ستيوارت ذلك فخوراً بقامته الطويلة البالغة ستة أقدام وبوصتين، ثم أردف: «هذا ما دعانا إلى أن نُبقيه في البيت، ليوضح لها الأمور. . . يا للّه الجبار. . . يجب أن تكفّ والدتنا

عن ضربنا! لقد بلغنا التاسعة عشرة وبلغ توم الحادية والعشرين، ومع ذلك فهي تُعامِلنا كأننا في السادسة من العمر».

- «وهل ستمتطي والدتك حصانها الجديد إلى حفلة الباربكيو[1] عند آل ويلكس غداً؟».

- «إنها تريد امتطاءه، غير أني أعتقد أن ذلك خطر جداً، وعلى كل حال، لن تدعها الوصيفات تفعل ذلك، إذ أعلنّ عن عزمهن على أن يجعلنها تذهب بالعربة، ولو إلى حفلة واحدة، كما تفعل باقي السيدات».

- «أرجو ألّا تمطر غداً»، قالت سكارلت، ثم تابعت القول: «فمنذ أسبوع والمطر يتساقط كل يوم، وليس من أسوأ حفلة باربكيو عندما تتحول إلى وليمة ضمن الجدران».

- «ها... ستصفو السماء غداً وتشتد الحرارة كأيام يونيو»، أجاب ستيوارت، «انظري إلى الغروب، لم أرَ غروباً أشد احمراراً منه، ومن الممكن دائماً أن يتنبأ المرء بما سيكون عليه الجو من لون الغروب». فنظر ثلاثتهم نحو الأفق القاني، عبر فدادين القطن الشاسعة، المحروثة حديثاً، والتي تخص جيرالد أوهارا والد سكارلت.

وأحسّ الجميع أن دفء نهر أبريل أخذ ينجزر متحولاً إلى برودة خفيفة، ولكنها منعشة، بعد أن راحت الشمس تغيب وراء التلال عبر نهر فلنت، وقد شيبت أضواؤها بلون قرمزي.

كان الربيع قد أقبل مبكراً في تلك السنة، تصحبه زخات مطر خاطفة دافئة، وتفتّح مفاجئ لأزهار الدراق الوردية، ولأشجار الدكود،

---

(1) نوع من الحفلات الأميركية التي تقام عادة في العراء ويجري خلالها شواء اللحم وأكله - (المترجمان).

التي رقشت بأزهارها النجمية البيضاء مستنقع النهر القاتم، وسفوح التلال البعيدة. وكانت عملية الحراثة قد أوشكت على الانتهاء، فبدت أثلام أرض جورجيا الحمزاء التربة والحديثة الحراثة أشدّ احمراراً من جرّاء وهج الغروب الدموي اللون. أما رؤوس الأثلام الرملية، في تلك الأرض الندية الجوعى التي كانت تنتظر قلبها استعداداً لبذار القطن، قد بدت وردية اللون، بينما تلوّنت جوانب الأثلام المظللة بألوان قرمزية وحمراء زاهية وقانية، وكذلك ظهر بيت المزرعة المبيض المَبني من الآجر كجزيرة قائمة في بحر أحمر هائج، بحر من التموّجات اللولبية والهلالية المحدودبة، التي تتحجر فجأة، في اللحظة التي ترتطم بها وقممها الوردية بالصخور متحولة إلى رشّاش من الزبد، فهنا في جورجيا الشمالية، لم يبقَ وجود لتلك الأثلام الطويلة المستقيمة التي يشاهدها المرء عادة في مزارع الساحل، إذ بدلاً من ذلك، أصبحت أرض جورجيا الشمالية ذات التلال المنخفضة المتماوجة تُحرث بملايين من الخطوط المنحنية، حفاظاً على التربة الغنية من الانجراف إلى قيعان الأنهار.

تلك كانت صفات هذه الأرض الحمراء الوعرة، أجود أراضي القطن في العالم، تصطبغ بلون الدم بعد كل زخّة مطر، وتنفث الغبار القرميدي أثناء الجفاف، أرض بهيجة ببيوتها البيضاء، بحقولها المحروثة الآمنة، بأنهارها الصفراء البطيئة الجريان، ولكنها في الوقت ذاته أرض المتناقضات، أرض ضياء الشمس الأقوى تلألؤاً، وأرض الظلال الأشد كثافة، فأراضي المزارع المستأصلة أشجارها، وحقول القطن الممتدة أميالاً، تستقبل الشمس المعتدلة الدافئة بصدر رحب وثغر بسّام، بينما هنالك، عند أطرافها، تنتصب الغابات العذراء، مظلمة باردة حتى في أحر أوقات الظهيرة، تنتصب بكتلها الكثيفة، وأشجارها السامقة، غامضة الأكناف، توحي بقليل من الشؤم، فكأنّ

أشجارها الصنوبرية الهادرة مع صوت الرياح ترتقب في صبر مديد مديد، كأنها تتوعد بتنهّداتها الخافتة: «حذار... حذار... لقد غيّبناك مرة، وباستطاعتنا فعل ذلك مرة أخرى».

وطرقَ مسامعَ الثلاثة الجالسين في الرواق صوتُ حوافر البغال، تتخلّله جلجلة سلاسلها المعدنية، وتخترقه ضحكات الزنوج الحادة المستهترة وهم عائدون مع البغال من الحقول. ثم تهادى صوت والدة سكارلت الناعم، إيلين أوهارا، صادراً من داخل البيت، داعياً الزنجية الصغيرة، التي كانت تحمل حقيبة المفاتيح، والتي أجابت بصوت طفلي زاعق: «لبّيك يا سيدة»، وفي الوقت ذاته كان يسمع وقْعُ أقدام متجهة فوق الطريق الخلفية إلى مطبخ المزرعة، حيث ستوزع إيلين الطعام على الفعلة العائدين إلى البيت. وعندما راح بورك، خادم المائدة في تارا، يعدّ مائدة العشاء، علت قرقعة الصحاف الصينية، جنباً إلى جنب، مع صليل الأدوات الفضية، وما إن طرقت هذه الأصوات مسامع التوأمين، حتى أدركا أنّ وقت مغادرتهما إلى البيت قد حان، ولكنهما كانا متوجّسَيْن من مواجهة أمهما، فتوانَيا داخل الرواق، يتوقعان بين اللحظة والأخرى أن تدعوهما سكارلت لتناول العشاء.

- «انتبهي يا سكارلت»، قال برنت، «فيما يتعلق بالغد، لن يكون غيابنا وعدم علمنا بحفلة الباربكيو والرقص سبباً يمنعنا من الرقص الكثير مساء. أنت بالطبع لم تعديهم جميعاً... أليس كذلك؟».

- «نعم! وعدتهم... إذ كيف يمكنني أن أعرف أنكم جميعاً عائدون إلى البيت، لم يسعني المغامرة والبقاء كزهرة مهملة بانتظار قدومكما».

- «أنت زهرة مهملة؟»، وانفجر الاثنان بقهقهة مدوّية، ثم أردف برنت: «يا حلوتي، ينبغي أن تمنحيني رقصة الفالس الأولى، وتكرسي

الرقصة الأخيرة لستيوارت، كما ينبغي أن تتناولي العشاء معنا، ومن ثم سنجلس على مصطبة الدرج، كما فعلنا في حفلة الرقص الأخيرة، ثم نستدعي مامي[1] جنسي لتنبئنا عن حظوظنا».

- «أنا لا أحب نبوءات مامي جنسي، فأنتما تعلمان ما قالته من أني سأتزوج بشاب ذي شعر أسود فاحم وشارب أسود طويل، في الوقت الذي أمقت فيه هذا النوع من الرجال».

- «إنك تحبّين ذوي الشعر الأحمر، أليس كذلك يا حلوتي؟»... قال برنت مكشراً عن أسنانه، ثم أردف: «والآن... هلمّي، عدينا بكل الرقصات وبالعشاء معنا».

- «إذا ما وعدتنا بذلك، فسنخبرك بسرّ». قال ستيوارت.

- «ماذا؟»، صاحت سكارلت، وقد أثارتها العبارة كطفلة غريرة.

- «الأمر الذي سمعناه في أتلانتا أمس يا ستيوارت؟ إذا كان ذلك فاذكر أننا قطعنا على نفسينا عهداً بعدم إفشائه».

- «حسناً... الآنسة بيتي أخبرتنا».

- «الآنسة مَن؟».

- «أنت تعرفينها، ابنة عم آشلي ويلكس، التي تعيش في أتلانتا، الآنسة بيتي بات هاملتون... عمّة تشارلز وميلاني هاملتون».

- «أعرفها، ولم أعرف عجوزاً أغبى منها في حياتي».

- «على كل حال، أمس ونحن في أتلانتا ننتظر القطار الذي سيقلّنا إلى البيت مرّت بعربتها أمام المحطة، فأوقفَتْها لتتحدث إلينا، وأخبرتنا أن نبأ خطوبة سيُعلن في ليلة الغد، أثناء حفلة الرقص عند آل ويلكس».

---

(1) لقب يطلق على المرأة الزنجية التي تعتني بأطفال العائلة الأميركية البيضاء في ولايات أميركا الجنوبية، والكلمة تعني الأم في الأصل - (المترجمان).

- «ها... عندي علمٌ بذلك»، قالت سكارلت بلهجة تنمّ عن الخيبة... «ابن أخيها، ذلك الأحمق تشارلي هاملتون، على هوني ويلكس... كل إنسان يعرف منذ سنين أنهما سيتزوجان ذات يوم، رغم أن تشارلي يُظهر نوعاً من الفتور نحو هذا الأمر».

- «هل تعتقدين أنه أحمق؟»، سأل برنت... «ولكنكِ تركته في عيد الميلاد المنصرم يهمس في أذنك كثيراً».

- «لم أستطع التهرّب منه»، أجابت سكارلت هازّة كتفيها دون اكتراث... «أعتقد أنه شاب في غاية التخنّث».

- «ومع ذلك، فليست خطوبته هي التي ستعلن»، قال ستيوارت وهو يشعر بالظفر، «إنها خطوبة آشلي على شقيقة تشارلي، الآنسة ميلاني».

وابيضّت شفتا سكارلت شحوباً، رغم أن وجهها لم يمتقع لونه. كانت كمَن يتلقّى ضربة مذهلة دون سابق إنذار، فلا يدرك في اللحظات الأولى التي تلي الصدمة حقيقة ما حدث، ولذا احتفظ وجهها بطمأنينة وهي تحملق في ستيوارت، ممّا حَدا به، وهو الذي لم يعتَد تحليل الأمور، إلى الاعتقاد أن النبأ لم يُثِر فيها أكثر من الدهشة والاهتمام الشديد.

- «وأخبرتنا الآنسة بيتي أيضاً أنهم كانوا قد قرّروا إرجاء الخطوبة حتى السنة القادمة نظراً إلى أنّ الآنسة ميلاني ليست في صحة جيدة، ولكن أحاديث الحرب المتوترة جعلت كلاً من أفراد العائلتين يعتقد أنّ من الأفضل إتمام الزواج حالاً، ولذا تقرّر إعلان الخطوبة في مساء الغد، أثناء فترة العشاء. والآن يا سكارلت، لقد أطلعناك على السرّ، فواجبك إذن أن تعدينا بتناول العشاء معنا».

- «طبعاً، سأتناوله معكما».

- «وبكل الرقصات؟».

- «كلها».
- «إنك لحلوة رائعة! أراهن أنّ الشبان الآخرين سيجيشون جنوناً».
- «دعهم يجنّون»، قال برنت... «فباستطاعتنا تدبير أمرهم... انتبهي يا سكارلت.. اجلسي معنا أثناء حفلة الباربكيو صباحاً».
- «ماذا؟».
وكرر ستيوارت التماسه، فأجابت:
- «طبعاً».

وتبادل التوأمان نظرات فرح تشوبها بعض الدهشة، إذ رغم أنهما كان يعتبران نفسيهما المرشحين المحظيَّين للزواج بها، إلا أنه لم يتفق لهما أن نعما بمظاهر هذه الحظوة بمثل هذه السهولة، إذ كانت قد عوّدتهما على الترجّي والاستعطاف وهي تُعرض عنهما، دون أن تنبس بلا أو نعم، كانت تضحك إذا ما عبسا، وتتجالد إذا غضبا، فما بالها الآن تَعِدُهما عملياً بكل غدها... بالجلوس إلى جانبهما في حفلة الباربكيو، بكل الرقصات (وقد حرصا على أن تكون جميعها من رقصات الفالس) وبالعشاء... إن هذه المكاسب لتعوِّض عن خسارة فصلهما من الجامعة.

وهكذا راح التوأمان، وقد أفعمت نفسيهما حماسة الظفر، يتوانيان ويستطردان في التحدث عن الباربكيو والرقص، وعن آشلي ويلكس وميلاني هاملتون، يقاطع كل منهما الآخر، ويبدعان الفكاهات ويضحكان من جرّائها، ملمِّحين بصراحة بدعوتهما للعشاء. ومضى وقت ليس باليسير قبل أن ينتبها إلى أن سكارلت لم يكن لها ما تقوله غير القليل، وأن جو الجلسة قد تغيّر نوعاً ما، ولكن كيف؟ هذا ما لم يعرفه التوأمان، وكل ما لحظاه أن حرارة الأصيل البديعة المحببة قد غادرتهم، وأن سكارلت تعير حديثهما قليلاً من انتباهها، رغم إجاباتها

الصائبة. وعندئذٍ، وبعد تحسّسهما ذلك الشعور الذي لم يفهما كنهه، والذي حيَّرهما وأزعجهما، جاهدا للاستمرار في الجلوس برهة قصيرة، ثم نهضا مكرهين، وكل منهما ينظر إلى ساعة يده.

كانت الشمس قد هبّت عبر الحقول الحديثة الحَرث، وأخذت أشجار الغابات الباسقة خلف النهر، تلُوح سوداء للوهلة الأولى، بينما غدت سنونوات المداخن تندفع سريعة كالسهام عبر الساحة، أما الدجاج والبط والديوك الرومية، فكانت تتخطر وتتهادى هائمة وهي في طريق عودتها من الحقل.

وصاح ستيوارت: «جيمس».

وما هي إلّا ثوانٍ حتى اندفع شاب طويل أسود، يناهزهما سناً، مسرِعاً حول البيت، ثم خارجاً إلى حيث رُبط الحصانان. كان جيمس هذا خادمهما الخاص، يرافقهما حيثما ذهبا، كالكلاب تماماً. لقد كان في البدء زميل اللعب في طفولتهما، ثم قُدِّم لهما هدية في عيد ميلادهما العاشر. وما إن رأته كلاب التوأمين، حتى نهضت من فوق التراب الأحمر، ووقفت تنتظره متوقعة قدوم صاحبيها اللذين انحنيا وصافحا سكارلت، قائلين إنهما سيكونان في انتظارها في بيت آل ويلكس، في ساعة مبكرة من الصباح. ثم اندفعا فوق الممشى مسرعين، وامتطيا حصانيهما، يتبعهما جيمس، وانحدرا خبباً في الطريق الواسع المكتنف بأشجار الأرز من كلا جانبيه، وهما يصرخان لسكارلت ويلوّحان لها بقبّعتيهما.

وعندما انتهى التوأمان من الدوران حول منعطف الطريق المغبرة التي حجبتها عن تارا، أوقف برنت حصانه تحت لمة من أغصان الدكود وتَبِعَه ستيوارت، بينما انسحب الخادم الأسود بعد خطوات قليلة خلفهما. وما إن شعر الحصانان باسترخاء عنانيهما، حتى مدّا عنقيهما إلى الأسفل يجزان عشب الربيع الطري، بينما ربضت الكلاب الصبورة

ثانية فوق التربة الحمراء الناعمة، تتطلع بشوق إلى سنونوات المداخن المحلقة في ثنايا الغسق المتجمِّع.

وتكلم برنت، ووجهه العريض الذي ينمّ عن الذكاء ينطق بالحيرة ويشوبه قليل من السخط، قال:

– «انتبه، ألم يتراءَ لك كما لو أنها كانت تريد دعوتنا إلى العشاء؟».

– «ظننت أنها سوف تفعل ذلك، وقد انتظرتُ حتى تنطق بالدعوة، ولكنها لم تفعل، ماذا تستنتج من ذلك؟».

– «لا شيء، إنما يبدو لي كأنها كانت ترغب في ذلك، ولا سيما أن هذا يوم عودتنا الأول، وهي لم ترنا منذ أمد، كما أنّ في جعبتنا الكثير لنُخبرها به».

– «والذي ظهر لي أنها كانت مسرورة للغاية، عندما رأتنا قادمين».

– «هذا ما اعتقدته أيضاً».

– «ومن ثم، قبيل نصف ساعة فقط، انتابها نوع من السكينة كما لو أنّ صداعاً أصابها».

– «لقد لاحظتُ ذلك، ولكني لم أعِره أيّ اهتمام آنذاك، ما الذي آلمها في اعتقادك؟».

– «لا أدري، هل تعتقد أننا تلفَّظنا ببعض ما أفقدها صوابها؟».

وفكَّر الاثنان برهة.

– «لا أظن ذلك، هذا بالإضافة إلى أن سكارلت حين تفقد صوابها، يدرك ذلك كل إنسان، فهي لا تكبح جماح غضبها كما تفعل بعض الفتيات».

– «نعم، وهذا ما أحبه فيها، فهي لا تراوغ متجلِّدة حاقدة، إذا ما ثارت وفقدت أعصابها، وإنما تصارحك بالأمر... ولكن لا بدَّ أننا

ارتكبنا عملاً أو قلنا شيئاً، جعلها تلوذ بالصمت وتبدو كأنها مريضة، وفي وسعي أن أقسم إنها سُرّت بزيارتنا، وإنها كانت تريد دعوتنا إلى العشاء».

- «ألا تظن أن فصلنا من الجامعة ربما كان سبب ذلك؟».

- «يا للجحيم! لا! لا تكن أحمق. فقد ضحكت كعادتها عندما أخبرناها بقضية الفصل، وفوق ذلك، إن سكارلت لا تعلق على التعلم من الكتب أهمية أكثر ممّا نعلق نحن».

ثم التفت برنت وهو فوق سرجه، ونادى السائس الزنجي:

- «جيمس!».

- «سيدي؟».

- «هل سمعت عمّا كنا نتحدث والآنسة سكارلت؟».

- «لا يا سيدي برنت، كيف خطر لك أن تفكر أني أتجسّس على الناس البيض؟».

- «تتجسّس! يا إلهي! أنتم السود تعرفون كل ما يدور حولكم... أيها الكذاب... لقد رأيتك بأم عيني تتسكع حول زاوية الرواق وتجلس القرفصاء خلف شجرة الياسمين، بجانب الحائط. والآن، هل سمعتنا نتفوّه بشيء يمكن أن يُفقد الآنسة سكارلت صوابها، أو يؤذي شعورها؟».

ونتيجة هذا الالتماس أحجم جيمس عن الإمعان في التظاهر بعدم استماعه إلى الحديث، فقطّب جبينه وقال:

- «لا يا سيدي، لم ألحظ أنكما تحدّثتما بأيّ أمر يمكن أن يثيرها، بل ظهر لي أنها كانت مسرورة برؤيتكما، كما لو أنها افتقدتكما قبلاً، وقد بقيت مَرِحَة كطائر مغرِّد، إلى أن رحتما تتحدثان عن السيد آشلي والآنسة ميلي هاملتون، وعن زواجهما، عندئذٍ سكتت كعصفور حلّق الباز فوقه».

فتبادل التوأمان النظرات، وأطرقا رأسيهما بالموافقة دون إدراك.
ثم قال ستيوارت:
- «جيمس على صواب، رغم أنني لم أستطع إدراك السبب. . .
يا إلهي! إن آشلي لا يعني شيئاً بالنسبة إليها، إنه مجرد صديق، فهي ليست متيَّمة به، وإنما هي متيَّمة بنا نحن».
فأطرق برنت موافقاً، ثم قال:
- «ولكن هل تظنّ أنّ من المحتمل أن لا يكون آشلي فد أخبرها أن خطوبته ستعلن ليلة الغد، فثارت عليه لعمله ذاك، وهي صديقته القديمة التي يجب إخبارها قبل أي شخص آخر؟ البنات يعلقن أهمية كبيرة على معرفة أنباء كهذه قبل غيرهن».
- «حسناً، ربما كان الأمر كذلك، ولكن ماذا لو لم يخبرها أن خطوبته ستتم غداً؟ فالمفروض أن يبقى الأمر سراً ومفاجئاً، وللرجل الحقّ في أن يحتفظ بأمر خطوبته دون ضجيج، ونحن، هل كان لنا أن نعلم بالأمر لو لم تفشه عمة الآنسة ميلي! كان ينبغي لسكارلت أن تعرف أنه سيتزوج بميلي ذات يوم، كيف لا . . . فنحن نعرف ذلك منذ سنين. إن أفراد آل ويلكس وآل هاملتون يتزوجون دائماً ببنات أعمامهم، ولذلك، فكل إنسان كان يعرف أنه من المحتمل أن يتزوجا يوماً ما، تماماً كما ستتزوج هوني ويلكس من شقيق الآنسة ميلي، تشارلي».
- «حسناً، لقد سلّمت بهذا الرأي، ولكن آسف لأنها لم تدعُنا إلى العشاء. وأقسم لك إني لا أرغب في الذهاب إلى البيت والإصغاء لأمي وهي تسترسل في موضوع طردنا، ألا تشعر كما لو أنها المرة الأولى التي نُطرد فيها؟».
- «من الممكن أن يكون بويد قد هدّأ ثائرتها الآن، فأنت تعرف أيَّ محدث بارع هو ذاك الشقي، وكيف ينجح دائماً في تهدئة ثورتها».
- «حقاً، في إمكانه ذلك، ولكنه يستغرق وقتاً طويلاً، فعليه أن

يداور ويداور، حتى يضطرب الأمر على ماما، وتستسلم طالبة منه أن يوفّر صوته للتدرب على المرافعات القضائية، وأظن أنه لم يتسنَّ له الوقت إلى الآن حتى ينتهز المبادرة الطيبة، إذ إنني على يقين من أن ماما ما زالت مضطربة الفكر حول الحصان الجديد، بحيث إنه لن يتاح لها أن تتحقق أمر عودتنا إلى البيت إلا عندما تجلس لتناول العشاء مساء اليوم، وتشاهد بويد، وما إن يشارف العشاء على النهاية حتى تكون قد ثارت وأخذت تنفث النار حانقة غضبى، ولن تسنح الفرصة أمام بويد قبل العاشرة ليلاً كي ينبئها بأنه لم يكن من المشرّف لأي منا أن يستمر في الجامعة، بعد الأسلوب الفظ الذي اتّبعه العميد في حديثه مع كلينا، فإذا تمّ لبويد ذلك، فلن ينجح في قلب وجهة نظرها، وتبديل موقفها، حتى تثور على العميد ثورة ناقمة، بحيث تسأل بويد لماذا تقاعس عن إطلاق النار عليه... لن ينجح بويد في بلوغ تلك النقطة المطلوبة قبل أن يكون الليل قد انتصف... لن نتمكن من الذهاب إلى البيت إلا بعد منتصف الليل».

وتبادل التوأمان النظرات الكئيبة. كانا لا يخافان الخيول البرّية أبداً، وكانا يتعمّدان الشغب والمشاجرات وإثارة سخط الجيران، ولكنهما رغم ذلك كانا يخافان للغاية من تعنيف أمهما ذات الشعر الأحمر، ومن أكياس المحاصيل التي لا تتورع عن جعلهما يحملانها.

- «حسناً، لنذهب رأساً إلى بيت آل ويلكس»، قال برنت، ثم أردف: «سيسرّ آشلي والبنات إذا ما تناولنا العشاء معهم».

وبدا على ستيوارت أنه غير مرتاح للفكرة كثيراً.

- «لا. لا تدعنا نذهب هنالك، فهم الآن في هرج ومرج، استعداداً للباربكيو غداً، هذا بالإضافة إلى...».

- «ها، لقد نسيت ذلك»، قال برنت مسرعاً. «لا، لا تدعنا نذهب هنالك».

وهمزا حصانيهما وسارا صامتين لبرهة قصيرة، وقد كست وجنتي ستيوارت حمرة الانفعال، فحتى الصيف الماضي كان مستمراً في معاشرة إنديا ويلكس بموافقة عائلتيهما واستحسان أهل المقاطعة جميعاً، أولئك الذين اعتقدوا أن مسكنة إنديا وغنى نفسها يمكن أن يؤثرا في ترويض خُلُقه، الأمر الذي كانوا يرجون حدوثه بلهفة، وبأي ثمن. وكان من المحتمل أن يستمر ستيورات حتى نهاية الشوط لولا أنّ برنت لم يكن راضياً، إذ رغم مودّته لإنديا، كان يراها في منتهى السذاجة والاستكانة، أي إنه بكل صراحة، لا يمكن أن يقع في حبّها، كي يتمكن من الحفاظ على رفقة ستيورات. وكانت هذه المرة الأولى التي تتنافر فيها ميول التوأمين، حيث استاء برنت لاهتمام أخيه بفتاة لا يراها هو جديرة بالاعتبار أبداً.

واتفق بعدئذٍ، في الصيف الماضي، أثناء محاضرة سياسية داخل حديقة من أشجار السنديان في جونسبورو، أن أُعجِبَ كلا التوأمين فجأة بشخص سكارلت أوهارا. كانا يعرفانها منذ سنين، فمنذ عهد الطفولة كانت زميلة اللعب الحميمة، نظراً إلى مقدرتها الشبيهة بمقدرتهما على ركوب الخيل وتسلق الأشجار. أما الآن فقط غدت شابة يافعة، بل غدت أروع فتيات الدنيا سحراً وتأثيراً، الأمر الذي أذهلهما.

ولاحظا للمرة الأولى، كيف تتراقص عيناها الخضراوان، وكم تبدوان عميقتين غمازتا وجهها أثناء الضحك، ثم تينك اليدين، كم هما صغيرتان، وكذلك قدميها، وهذا الخصر النحيل الجميل. وسَرَّها هي ملاحظاتهما الذكية، فاسترسلت في قهقهة مرحة مدوية، بينما ظنَّ التوأمان أنها تعتبرهما شابين بارزين، فأطلقا لنفسيهما العنان، كاشفين عن حقيقتهما.

كان ذلك اليوم يوماً بارزاً في حياتهما، وفيما بعد، عندما كانا يسترجعان أحداثه وأحاديثه، كانا دوماً يتساءلان كيف لم ينجحا في

اكتشاف مفاتن سكارلت قبل ذلك اليوم. ولكنهما لم يتوصّلا إلى الجواب الصحيح، ذلك الجواب الذي سينحصر في أن سكارلت نفسها كانت قد عزمت على التصدي لهما بمفاتنها في ذلك اليوم. إذ لم يكن في مقدورها، بدافع من طبعها الأصيل، أن تحتمل رؤية إنسان متيّم بفتاة غيرها، وكانت رؤية إنديا ويلكس بصحبة ستيورات أثناء المحاضرة أكثر ممّا تستطيع طبيعتها الضاربة السكوت عنه، ولم تكتفِ بفتن ستيوارت وحده، بل تصدّت لبرنت أيضاً بمهارة وإتقان غمر مفعولهما كلا التوأمين.

والآن، لقد وقع الاثنان في حبها، وتدنّت إلى الحضيض من تفكيرهما مكانة كلٍّ من إنديا ويلكس وليتي مونرو اللوفجوية، التي كان برنت يعاشرها بشيء من العاطفة القلبية. ولكن، ماذا سيفعل الخاسر إذا ما اختارت سكارلت أحدهما؟ هذا ما لم يكترث له التوأمان إذ اعتقدا أنهما سيجتازان تلك العقبة في حينها، والمهم أنهما في الوقت الحاضر، مقتنعان أيما اقتناع بأن يكونا على وفاق مرة ثانية، حين يهيمان بفتاة واحدة، لا سيما أن لا أثر للتحاسد بينهما. وهكذا كان، وقامت العلاقة بين الثلاثة، تلك العلاقة التي أثارت اهتمام الجيران، ولكنها أقلقت والدتهما التي لم تكن لتحبّ سكارلت، والتي قالت لهما مرة:

- «سيخدمكما الحظ تماماً، إذا ما رضيَت تلك الفتاة الخبيثة بأحدكما. ومن يدري، فربما قبلت كليكما معاً، وفي هذه الحالة ستضطران إلى السفر إلى يوتاه إن قَبِلكم آل مورمون، الأمر الذي أشكّ فيه... كل ما أخشاه ويزعجني هو أن تستبدّ بكما الخمرة ذات يوم، ويدبّ بينكما الحسد على تلك الدمية الصغيرة، الخضراء العينين، ذات الوجهين، فتطلقا النار على بعضكما، ومهما يكن من أمر، فقد لا تكون تلك الفكرة سيئة أيضاً».

ومنذ يوم المحاضرة، أضحى ستيورات يشعر بالضيق أثناء وجود إنديا، لا لأنها أنّبته أو لمّحت بالإشارة أو بالعين إلى معرفتها بتحول وداده المفاجئ، لا، إنها لم تفعل ذلك، فقد كانت على جانب كبير من الاتزان، وإنما لأنه كان يشعر بالإثم والقلق وهو معها. كان يعرف أنه هو الذي أوقعها في حبه، ويعرف أنها لا تزال تحبه، وكان يحسّ في أعماق قلبه أنه لم يتصرف تصرف السيد المحترم. والواقع أنه كان لا يزال يعزّها للغاية، ويحترمها لتربيتها الصالحة الرصينة ولعلمها. إنها دائماً شاحبة، لا تثير الإعجاب، دوماً على وتيرة واحدة، فأين هي سكارلت ذات الفتنة الوضاءة المتجددة أبداً! إنك تعرف دائماً أين أنت وأنت مع إنديا، بينما تقف مشدوهاً منبهراً وأنت مع سكارلت، ورغم أن هذا يكفي أن يذهل الإنسان ويحيّره، إلا أن له سحره وفتنته.

- «إذن، دعنا نذهب إلى منزل كيد كالفرت ونتناول العشاء هنالك، لقد سمعت سكارلت تقول إن كاثلين قد عادت من شارلستون، ربما كان في جعبتها بعض الأخبار التي لم نسمع بها عن قلعة صمتر».

- «ليس ذلك من دأب كاثلين. إنني أراهنك على أنها لا تعرف حتى عن وجود القلعة خارجاً في الميناء، وتعرف أقل من ذلك بكثير عن أنها كانت ملأى بالجنود الاتحاديين قبل أن أخرجناهم بالقنابل. إنّ كل ما تعرفه لا يتعدى حفلات الرقص التي حضرتها والعشاق المعجبين الذين اجتمعوا حولها».

- «حسناً، من المبهج سماع مغامراتها. لنتّخذ مأوى نتوارى فيه حتى تكون ماما قد أوت إلى فراشها».

- «لا بأس، ليكن ذلك، فأنا أحب كاثلين، وهي مسلّية، كما أحب أن أسمع عن كارو رت، وبقية الجماعة في شارلستون، ولكن، ليلعنني الله إذا كان في وسعي أن أظلّ جالساً طوال وجبة طعام أخرى، مع تلك الشمالية، زوجة أبيها».

- «لا تقسُ عليها كثيراً يا ستيورات، فهي تقصد خيراً».

- «أنا لا أقسو عليها، إنما أشفق عليها، ولا أحب من الناس مَن أشعر بالشفقة من أجلهم، ثم إنها تحوم وتضج كثيراً، محاولة أن تأتي بالصواب لتُشعرك أنك في بيتك الخاص، ولكن الذي يحدث هو أنها تفعل العكس تماماً قولاً وعملاً. إني أضيق بها ذرعاً. إنها تعتقد أن الجنوبيين برابرة متوحشون، فقد صرَّحت بذلك لماما، إنها تخاف الجنوبيين، وكلما تكون في زيارتهم، يظهر عليها الفزع حتى الموت، فأتصوّرها دجاجة هزيلة رابضة فوق كرسي، وقد برقت عيناها ببريق الفزع والجُبن واستعدّت للقفز والزعيق، عند أدنى حركة تصدر من أحد الحاضرين».

- «لا بأس. ولكن ليس في إمكانك أن تلومها على ذلك، أفلَم تطلق النار على ساق كيد؟».

- «كنت مخموراً وإلّا لما أطلقتُها»، أجاب ستيورات. «ثم إن كيد نفسه لم يكنّ لي أي شعور بالعداء، وكذلك كاثلين وريفورد والسيد كالفرت، فقط تلك الشمالية، زوجة الأب، التي صرخت قائلة إني بربري متوحش، وإن الناس الطيبين لا يأمنون على أنفسهم في جوار الجنوبيين غير المتحضرين».

- «ومع ذلك، لا يمكنك أن تلومها، فهي شمالية، وليست على خُلِق حسن، وعلاوة على هذا فقد أصَبْتَ لها كيد، وهو ابن زوجها».

- «يا للجحيم، ليس في ذلك ما يبرر إهانتي، أنت ابن شرعي لماما، فهل ثارت يوم أصابك طوني فونتين في ساقك؟ لا، إن كل ما فعلته هو أنها استدعت الطبيب العجوز فونتين ليضمّد الجراح، واستفسرت منه عن مدى الألم، ثم قالت إنها تعتقد أن الخمرة قد أفسدت رجولة طوني، تذكر كم كان أثر ذلك الموقف في طوني، الذي كاد يجن».

وانفجر التوأمان في الضحك، ثم قال برنت باستحسان محبَّب:

- «إن ماما كورقة اللعب، فبإمكانك أن تعتمد عليها دائماً لعمل الشيء الصائب، دون أن تجرح شعورك أمام الناس».

- «نعم، ولكن من المحتمل جداً أن تجرح شعورك أمام أبيك وأمام البنات، وذلك عندما نعود إلى البيت هذه الليلة»، أجاب ستيورات مكتئباً. ثم تابع:

- «انتبه يا برنت، أظن أنّ النتيجة ستكون عدم سفرنا إلى أوروبا، فأنت تذكر أن أمّنا قالت إنه إذا ما طُردنا من كلية أخرى فستحرمنا من رحلتنا العظيمة».

- «يا للجحيم... لن نبالي... أليس كذلك؟ وماذا هنالك ما يستحقّ الرؤية في أوروبا؟ أنا أراهن أنه ليس باستطاعة أولئك الأجانب أن يُرونا شيئاً لا نملك نظيره هنا، في جورجيا، أراهن أنّ خيلهم ليست سريعة كخيلنا وأن بناتهم لسن جميلات كبناتنا، كما أني أعرف تمام المعرفة أنهم لا يملكون ويسكي الجويدا الذي يروق والدنا».

- «يقول آشلي ويلكس إن عندهم الكثير جداً من المشاهد الطبيعية والموسيقى. ولقد أحب آشلي أوروبا، فتراه دائم التحدّث عنها».

- «حسناً، أنت تعرف طبيعة آل ويلكس، هؤلاء، إنهم مولعون إلى حدِّ الغرابة بالموسيقى والكتب والمناظر الطبيعية، وتعزو والدتك ذلك إلى أنّ أجدادهم قد قَدِموا من فرجينيا. وتقول إن الفرجينيين يعلّقون أهمية كبرى على مثل هذه الأمور».

- «في استطاعتهم الحصول عليها... أعطني حصاناً جيداً للركوب، وخمراً جيداً للشرب، وفتاة رائعة للمعاشرة، وأخرى غبية للتفكهة، وعندئذٍ في إمكان كل إنسان أن يتمتع بما في أوروبا... ماذا يهمنا من خسارة الرحلة؟ ولنفترض أننا في أوروبا الآن، والحرب

مقبلة، فلن نستطيع العودة سريعاً... إنني أفضّل كثيراً أن أذهب إلى الحرب على أن أذهب إلى أوروبا».

- «وهكذا أنا... في أي وقت كان ذلك... اسمع يا برنت، عرفتُ أين يمكننا الذهاب إلى العشاء، دعنا نركب عبر المستنقع إلى مقر إيبل ويندر، ونخبره أننا نحن الأربعة قد عدنا إلى البيت ثانية، وأننا على استعداد للتدرب».

- «تلك فكرة صائبة»، صاح برنت متحمساً، «وهنالك يمكننا أن نسمع جميع أخبار الفرقة، ونكتشف أي لون قد قرروه نهائياً للبذلات الرسمية».

- «إن كان كَلَون بذلات المتطوعين، فليلعنني اللّه إذا التحقت بالفرقة، إذ أشعر كأني مخنَّث بتلك السراويل الحمراء الفضفاضة، وهي بمنظر أشبه ما تكون بسراويل النساء الصوفية الحمراء».

- «هل تقصدان الذهاب إلى بيت السيد ويندر؟ إذا كنتما تنويان ذلك فلن تحصلا على عشاء كافٍ»، قال ذلك جيمس، ثم تابع: «فقد توفي طباخهم، ولم يبتاعوا آخرَ جديداً، بل أحضروا عاملة مطبخ فاشلة، وقد أخبرني الزنوج أنها أسوأ طباخة في كل الولاية».

- «يا إلهي العظيم... ولماذا لم يبتاعوا طباخاً آخر؟».

- «كيف يستطيع رجل أبيض حقير فقير أن يشتري حتى زنجياً واحداً...؟ إن أمثاله لم يملكوا نقوداً لشراء الرقيق، في أحسن أحوالهم».

كان في في صوت جيمس ما ينمّ عن ازدراء صريح، فقد كانت منزلته الاجتماعية مضمونة، نظراً إلى أنّ آل تارلتون يملكون مئة زنجي، وككل عبيد المزارعين الكبار، كان يزدري المزارعين الصغار الذين لا يمكلون إلا القليل من الرقيق.

- «سأضربك حتى أسلخ جلدك، لما تلفظت به»، صاح ستيوارت

بعنف، «إياك أن تدعو إيبل ويندر بالأبيض الحقير، فرغم أنه فقير، إلا أنه ليس حقيراً، وليلعنني اللّه إن أنا سمحتُ لأي إنسان، أسود أو أبيض، بالحطّ من شأنه. . . فليس في كل الولاية رجل أفضل منه، وإلا فلماذا إذن انتخَبَتْه الفرقة قائدها؟».

- «أنا شخصياً لم أستطِع فَهم ذلك. غير أنه يبدو لي أنّ عليهم أن ينتخبوا جميع الضباط من السادة الأغنياء، بدلاً من الحقيرين المُعدمين».

- «إنه ليس حقيراً، هل تقصد مقارنته بالبيض الحقيرين حقاً أمثال آل سلاتري؟ إيبل ليس غنياً كما يجب، فهو مزارع صغير، وليس مزارعاً كبيراً، وإذا ما فكر الشباب ملياً بشخصه وانتخبوه قائداً، فليس من حقّ أي عبد أن يتحدّث بحماقة عنه. إن الفرقة تعرف ما تُقدم عليه».

كانت فرقة الفرسان هذه قد شُكِّلت منذ ثلاثة أشهر، في اليوم نفسه الذي انفصلت فيه ولاية جورجيا عن الاتحاد. ومنذ ذلك الوقت، والمجندون الجدد يستنفرون للحرب، أما منظمتهم فلم تكن قد أُطلق عليها اسم بعد، ليس ذلك لنقصٍ في المقترحات، فكلّ شخص كان يحمل فكرته الخاصة حول هذا الموضوع، ويكره التنازل عنها، كما كان كل منهم ينفرد برأيه في لون البذلات وطريقة تفصيلها. وكان لكلٍّ من الأسماء المقترحة الآتية مؤيدون: «سنانير كلايتون البرية»، «آكلو النيران»، «فرسان جورجيا الشمالية»، «متطوعو الزواف[1]»، «حملة البنادق» (ورغم أن الفرقة كانت ستُسلّح بالمسدسات، بالسيوف، وبخناجر بووي[2] وليس بالبنادق)، «أشاهب كلايتون»، «الدماء

(1) جندي ينتمي إلى فرقة المشاة ترتدي اللباس المراكشي - (المترجمان).
(2) نسبة إلى مخترعها القائد جون بووي سنة 1826 - (المترجمان).

والرواعد»، «القساة المتأهبون». واستمر الناس يطلقون على المنظمة اسم «الفرقة» إلى أن استقرّت الأمور. وعلى الرغم من الاسم الرنان الذي اختير أخيراً، إلّا أن الجنود اشتهروا حتى آخر أيام خدمتهم بالاسم البسيط «الفرقة».

كان الضباط ينتخبهم الجنود انتخاباً، إذ لم يكن في الولاية مَن يمتاز بأية خبرة عسكرية، اللهم إلّا نفر قليل من الذين تمرّسوا بحربَي المكسيك والسيمينول[1]. هذا إلى أن جنود الفرقة سيهزأون بقائد متدرب لم يكونوا هم أنفسهم يحبونه ويثقون به. وعلى الرغم من أن جميع الجنود أبناء آل تارلتون الأربعة، وأبناء آل فونتين الثلاثة، إلا أنهم رفضوا انتخابهم آسفين، نظراً إلى أن الأربعة الأول سريعو السكر، كثيرو العربدة، بينما يتصف الثلاثة الآخرون بطبع نزق، فتاك. وقد انتخب آشلي ويلكس عقيداً لأنه أحسن راكب خيل في الولاية، ولأنه رُجِيَ من عقله الرصين أن يحافظ على بعض مظاهر النظام في الفرقة، كما عُيّن ريفورد كالفرت ملازماً أولاً لحب الجميع له، أمّا إيبل ويندر، المزارع الصغير، وابن أحد صيادي المستنقعات، فقد اختير ملازماً ثانياً.

كان إيبل رجلاً ثاقب الفكر، عملاقاً وقوراً، أميناً، ذا قلب رحيم، يكبُر زملاءه الشباب سناً، ويوازيهم أو يفضلهم سلوكاً أمام السيدات. وقد خلت الفرقة إلّا من قلة من أمثاله، محدثي النعمة، ممّن توصل معظم آبائهم وأجدادهم إلى الثروة من طبقة المزارعين الصغار. على أن إيبل، علاوة على ميزاته السابقة، كان أمهر رماة الفرقة، كان رامياً مصيباً حقاً، بمقدوره أن يقتلع عين سنجاب من مسافة خمس

---

(1) قبيلة هندية حمراء كانت تسكن حول شبه جزيرة فلوريدا في أميركا الشمالية - (المترجمان).

وسبعين ياردة، وكذلك كان يَخبر كلّ ما يتعلق بحياة البرية كإضرام النيران أثناء المطر وتتبع الحيوانات لاكتشاف منابع الماء، الأمور التي جعلت الجنود ينحنون إقراراً بجدارته الحقيقية، ولكن انتخابه قائداً كان يعود قبل كل شيء لحبهم له. وتقبَّل إيبل شرف القيادة باتزان ووقار، دونما غرور مقيت، كما لو كان هذا المنصب هو ما يستحقه حقاً. على أنّ زوجات المزارعين وعبيدهم لم يستطيعوا التغاضي عن حقيقة كونه غير عريق النسب، حتى بعد أن استطاع رجالهم ذلك.

وفي بداية الأمر، جنّدت الفرقة من أبناء المزارعين دون استثناء، كلّ يؤمّن لوازمه: حصانه، سلاحه، عدّته، بذلته، وتابعه. ولمّا كانت فئة المزارعين الكبار قليلة في مقاطعة كلايتون الفتية، وفي سبيل حشد فرقة قوية كاملة، كان من الضروري استنفار مجندين آخرين من بين أبناء المزارعين الصغار، وصيادي الغابات والمستنقعات وفقراء الجنوب الشرقي وفي حالات قليلة جداً بعض البيض الفقراء، شريطة أن يكونوا فوق مستوى طبقتهما. وقد كان هؤلاء متلهّفين إلى قتال أهل الشمال كجيرانهم الأغنياء، إذا ما اندلعت الحرب. ولكن مشكلة المال الحسّاسة برزت إلى الميدان، فالقليل من المزارعين الصغار يملك خيلاً، إذ كانوا يقومون بأعمالهم الزراعية بمساعدة البغال التي لم يكن لديهم ما يفيض عن حاجتهم منها أكثر من أربعة. ولم يكن في إمكانهم الاستغناء عن بغالهم في سبيل الحرب، حتى في حالة قبولها في الفرقة. أما الفقراء البيض فكانوا يعتبرون أنفسهم في بحبوحة، إنْ مَلَك أحدهم بغلاً واحداً، كذلك جماعة الغابات، وسكان المستنقعات، الذين لم يكونوا يملكون خيلاً ولا بغالاً إذ كانوا يعتمدون في معيشتهم اعتماداً كلّياً على نتاج أراضيهم، وعلى ما قد تجلبه لهم مغامرات الصيد. وكانوا يتخذون من المقايضة قاعدة لأعمالهم، ولذلك قلّما يرى أحدهم طوال السنة، مبلغ خمسة دولارات نقداً. فطبيعي إذن أن

يكون ثمن البذلات والخيول بعيداً عن متناول أيديهم، ومع هذا فقد كانوا عزيزي النفوس في فقرهم، كعزّة المزارعين في غناهم، يرفضون أي شيء ينمّ عن روح الصدقة من جيرانهم الأغنياء. وهكذا، مراعاة لشعور الجميع، وحباً في جعل الفرقة تبلغ منتهى قوّتها، تبرَّع كل من والد سكارلت أوهارا، جون ويلكس، بك مونرو، جيم تارلتون، هيو كالفرت، وفي الواقع، كل المزارعين الكبار في الولاية، عدا أنغوس ماكنتوش، تبرعوا بكلفة تجهيز الفرقة تجهيزاً تاماً، رجالها وخيلها، وتمّ ذلك بأن تعهّد كل من المزارعين الكبار تجهيز أبنائه وعدداً معيّناً من الجنود الآخرين. وقد روعي في تنفيذ هذه التعهدات أن يتسلم الأعضاء الفقراء العدة، خيولاً وبذلات، دون أي مساس بكرامتهم.

كانت الفرقة تجتمع مرتين كلّ أسبوع في جونسبورو للتدريب أولاً وللصلاة من أجل أن تبدأ الحرب ثانياً. ولم تكن الترتيبات قد تمّت بعد، لتأمين العدد المطلوب من الخيل، فراح الذين يملكون عدداً منها يقومون بما ظنّوه مناورات فروسية في الساحة، خلف بناء المحكمة، يثيرون العجاج الكثيف ويزعقون بأصوات جشاء راعدة، ويلوّحون بسيوف الحرب الثورية، التي كانت قد انتُزعت من جدران غرف الضيافة[1]، بينما لجأ أولئك الذين لم يتسلموا خيولهم بعد إما إلى الجلوس فوق الحاجز الحجري أمام مخزن بولارد، يراقبون زملاءهم، ويمضغون التبغ ويثرثرون بحكايات الهوى، أو إلى قضاء الوقت في مباريات الرماية، إذ إن أحداً منهم لم يكن بحاجة إلى تعلّم هذا الفن، فمعظم الجنوبيين ولدوا والبنادق في أيديهم، كما أن حياتهم التي يقضونها في رحلات الصيد جعلت منهم جميعاً رماة بارزين.

---

(1) غُرف خاصة تُلحق ببناء السكن وتُجهّز بأدوات الفروسية والتسلية المختلفة لتأمين متعة الزوار - (المترجمان).

وتسلَّم كل مجنّد عدة متنوعة من الأسلحة النارية التي تدفقت من بيوت المزارعين ومساكن الصيادين: بنادق صيد السناجب الطويلة (التي يعود تاريخها إلى يوم عبر المهاجرون جبال الليغاني[1] للمرة الأولى)، بنادق دك قديمة، استُخدمت في مطاردة الكثير من الهنود في أول عهود جورجيا، مسدسات فرسان استُخدمت عام 1812 في حربَي السيمينول والمكسيك، مسدسات مبارزة مطلية بالفضة، مسدسات جيب من نوع درنجر[2]، بنادق صيد من ذوات الماسورتين، وبنادق إنجليزية جميلة الصنع، ذات مقابض من خشب نفيس لماع.

كانت نهاية التدريب تتمّ في صالونات جونسبورو، فبسقوط الليل كان ينشب كثير من المنازعات، التي كان الضباط يكافحون بحزم لمنع الإصابات الناجمة عنها حتى جاء جنود الشمال الاتحاديون ليوقعوها بهم فيما بعد. وأثناء إحدى هذه المشاجرات الدامية أصاب ستيوارت تارلتون كيد كالفرت في ساقه، كما أصاب طوني فونتين ساق برنت. وكان التوأمان في ذلك الوقت قد فُصلا من جامعة فرجينيا حديثاً، والفرقة لا تزال في طور التنظيم فالتحقا بها متحمّسين، ولكن بعد إصابة برنت المذكورة التي كان قد مضى عليها شهران، اضطرتهما والدتهما للالتحاق بجامعة الدولة مشدِّدة أوامرها عليهما بالبقاء. وهناك أحسّ التوأمان بمرارة خسارتهما لذة التدريب العسكري، واعتبرا مشاركة زملائهما في الركوب والصراخ وإطلاق النار تعويضاً كافياً لضياع تعلمهما.

- «حسناً، هلمّ بنا نعبُر إلى بيت إيبل»، اقترح برنت. «نستطيع أن نصل هناك في وقت قصير، إذا ما عبرنا أسفل نهر آل أوهارا، ومن ثم مراعي آل فونتين».

---

(1) سلسلة جبال تقع شرق الولايات المتحدة - (المترجمان).

(2) نسبة إلى مخترعها الأميركي درنجر سنة 1850 - (المترجمان).

- «ولكننا لن نحصل على شيء نأكله، عدا لحم السناجب، وبعض الخضار»، قال جيمس معارضاً.

- «أنت لن تحصل على شيء البتّة، لأنك ستذهب إلى البيت، وتخبر ماما أننا لن نتناول العشاء برفقتها».

- «لا، لن أذهب»، صاح جيمس هلعاً، «لا لن أذهب، فإنه لا يروقني تعنيف السيدة بياتريس أكثر ممّا راقكما، فهي ستسألني كيف سمحت لكما أن تطردا مرة أخرى، وثانياً، لماذا لم أعُد بكما إلى البيت هذه الليلة، كي تتمكن من تأنيبكما، وبعد ذلك ستربض فوقي، كما تربض البطة فوق بقة يونيو، وسأُلام على كلّ الأمور السيئة التي لي علم بها... إذا لم تأخذاني معكما إلى بيت آل ويندر فسأنام في الغابة وربما قبض الحراس عليّ، إنني أفضّل كثيراً أن يأخذني الحراس على أن أكون في قبضة السيدة بياتريس وهي ثائرة».

نظر التوأمان إلى الفتى الأسود المصمم، بارتباك وسخط.

- «سيكون في منتهى الحمق إذا ما سمح للحراس بأخذه، الأمر الذي سيدفع ماما إلى تأنيبنا طوال أسابيع أخرى. أقسم إنّ هؤلاء العبيد أكثر إزعاجاً من الآخرين، حتى إني أعتقد بعض الأحيان أنّ دعاة تحريرهم على صواب».

- «ليس من الحكمة والعدل أن نَدَع جيمس يواجه ما نأبى نحن مواجهته، فعلينا إذن أن نصطحبه معنا، ولكن اسمع (وأدار وجهه نحو جيمس)... أيها الأسود الأحمق الوقح، إذا ما تبجّحت أمام عبيد ويندر ملمِّحاً بأننا نأكل الفراخ المشوية ولحم الخنزير المقدد، بينما هم لا يملكون إلّا الأرانب ولحوم السناجب، فسوف أخبر ماما، ولن ندعك تذهب إلى الحرب معنا».

- «أتبجح؟ أأنا أتبجح أمام العبيد الرخيصين؟ لا يا سيدي، إن أخلاقي أرفع من ذلك. ألم تهذّبني السيدة بياتريس كما هذبتكما؟».

- «ولكنها لم تنجح في مهمتها مع أيّ منا نحن الثلاثة»، أجاب ستيوارت.

- «هلمّ بنا. . . دعنا نبدأ المسير».

وامتطى صهوة جواده الأحمر الضخم، وهمزه من كلا جانبيه، فقفز بسهولة من على السياج المتصدع، إلى حقول مزرعة جيرالد أوهارا الطرية التربة. وتبعه برنت وخلفه جيمس الذي أمسك بقربوس الحصان وعُرفه لأنه لم يكن يرغب في قفز الحواجز، رغم أن حواجز كثيرة أعلى من هذا الحاجز كان قد تخطاها في سبيل اللحاق بسيّدَيه.

وبينما كانوا يشقّون طريقهم عبر الأثلام الحمراء، منحدرين على جانب التلة نحو أسفل النهر، وقد تبلد الظلام من حولهم، خاطب برنت شقيقه صائحاً:

- «اسمع يا ستيوارت، ألم يظهر لك كما لو أنّ سكارلت كانت ستدعونا إلى العشاء؟».

- «ما زلت أعتقد أنها كانت تريد ذلك»، أجاب ستيوارت، «لماذا تظن. . .».

2

ظلّت سكارلت، بعد وداع التوأمين، واقفة في مكانها من الرواق في تارا، حتى غاب عن أذنيها الصدى الأخير لوقْع حوافر حصانيهما المنطلقين بسرعة الريح، ومن ثم عادت أدراجها إلى كرسيها، وكأنها تسير نائمة، بل كان وجهها قد تيبّس ألماً. كانت تحسّ بألم حقيقي في فمها من جرّاء الابتسامات العريضة التي اصطنعتها كي تمنع التوأمين من اكتشاف سرّها.

جلست منهكة، حاشرة إحدى ساقيها تحتها، بينما راح قلبها ينتفخ من هول المأساة، حتى أحسّت بصدرها يضيق به. كان يخفق خفقات ضئيلة غريبة لم تألفها. وكانت يداها باردتين. وقد هدّها الشعور بوقع الكارثة، وارتسمت على وجهها أمارات الحيرة والألم. حيرة الطفلة المدللة، التي لم تعتَد غير طلب ما تريد، والتي هي الآن، وللمرة الأولى، تواجه منغّصات الحياة.

آشلي يتزوج ميلاني هاملتون!

آه لا يمكن أن يكون هذا النبأ صادقاً! إنّ التوأمين مخطئان، إنهما يقومان بإحدى دعاباتهما... لا يمكن لآشلي... لا يمكن له أن يحبّها... لا أحد يمكنه أن يحبّ فتاة صغيرة كالفأرة مثل ميلاني.

واسترجعت سكارلت في ذاكرتها بكلّ ازدراء صورة قوام ميلاني النحيف كقوام الطفل، وشكل وجهها الوقور المشابه لشكل القلب،

والساذج سذاجة مطبقة، ثم ذكرت كيف أن آشلي لم يستطع رؤيتها منذ شهور، فهو لم يذهب إلى أتلانتا أكثر من مرتين بعد الحفلة التي أقامها في بيته في تولف أوكس، السنة الماضية. . . لا، لا يمكن أن يكون آشلي يحبّ ميلاني. . . لأنه. . . - وهي لا يمكن أن تكون مخطئة - لأنه كان يحبها هي. . . هي سكارلت، كانت الفتاة التي أحبّها آشلي. . . إنها تعرف ذلك!

وسمعت وقْع خطوات مربّيتها الثقيلة تهزّ أرض القاعة، فأسرعت تمدّ ساقها المنثنية تحتها، محاولة أن تعيد السكينة إلى قسمات وجهها المنفعل. . .

ولم يكن الشكّ ليساور المربية أن شيئاً قد حدث، وهي تعتقد أنها تسيطر على آل أوهارا جميعهم، جسماً وروحاً، وأن أسرارهم هي أسرارها، بحيث إن أيّ بادرة غموض كانت كافية لتثير ثائرتها فتقتفي الأثر دونما رحمة، كالكلب السلوقي. وكانت سكارلت تعرف من خلال التجارب، أن مامي (المربية) إذا لم تُشبع فضولها في الحال، فسترفع القضية إلى إيلين، وعندئذٍ ستضطر سكارلت إلى التصريح بكل شيء لوالدتها، أو إلى اختلاق كذبة مرضية.

وما هي إلا ثوانٍ حتى برزت مامي خارجة من القاعة: امرأة عجوز ضخمة الجثة، بعينَي فيل صغيرتين، ولكنهما ذكيتان. أفريقية نقية، ذات لون أسود لماع، كرّست دمها حتى آخر نقطة منه لخدمة آل أوهارا، فهي دعامة إيلين، وباعثة اليأس في نفوس بناتها الثلاث، ومصدر الرعب لبقية الخدم. ورغم كونها سوداء، فإن طابع تصرفاتها وشعورها بالكبرياء كانا على مستوى تصرفات أسيادها وكبريائهم، إن لم يكونا على مستوى أعلى منه.

وقد تمّت تنشئة مامي في غرفة نوم سولانج روبيلارد، والدة إيلين أوهارا، امرأة فرنسية باردة الطبع، أنيقة متعجرفة، لم تكن لتُجنّب أياً

كان من أولادها أو خدمها عقابها العادل، إذا تجاوز حدود اللياقة. واعتنت مامي بتربية إيلين، ثم رافقتها عندما تزوجت من سافانا إلى البلاد الشمالية.

كان أسلوبها في التربية يقوم على أنّ مَن تحبه، لا بدَّ من تأنيبه وقصاصه، ولمّا كان حبها لسكارلت واعتزازها بها عظيمين، كان من الطبيعي أن تكون عملية إيقاع العقوبات مستمرة.

- «هل ذهب السيدان؟ كيف لم تسأليهما البقاء للعشاء، يا آنسة سكارلت؟ لقد أخبرت بورك أن يهيّئ طبقين إضافيين لهما... أين أخلاقك التي بها تتخلقين؟».

- «آه، لقد تعبت جداً من سماع حديثهما عن الحرب، حتى أحسست أني لن أستطيع احتمال ذلك خلال العشاء، ولا سيما إذا ما شاركهما بابا بصوته المدوي وهو يتحدث عن السيد لينكولن».

- «ليست أخلاقك بأحسن من أخلاق خادمة فاشلة، رغم ما بذلته والسيدة إيلين في سبيل تقويمك. وها أنت الآن تجلسين دون شالك، وهواء الليل يلذعك، كم من مرة أخبرتك عن احتمال إصابتك بالحمى من جرّاء الجلوس في هواء الليل، دون وضع شيء على كتفيك! هيا إلى البيت يا آنسة سكارلت».

ولكن سكارلت قبل أن تجيب أعرَضَت بوجهها عن المربية بإهمال مقصود، حامدة اللّه لأنّ انشغالها بموضوع الشال لم يمكّنها من ملاحظة حقيقة وجهها المضطرب.

- «لا، أريد أن أجلس هنا، وأراقب غروب الشمس، فهو منظر ممتع جداً. أسرعي وأحضري الشال... أرجوك يا مامي. سأظل جالسة هنا حتى يجيء والدي».

- «إن صوتك يُشعر كما لو أنك مصابة بزكام»، قالت مامي مرتابة.

- «لا، لست مصابة»، أجابت سكارلت متذمّرة. . . «اذهبي وأحضري الشال».

وتهادت مامي نحو البيت، وسمعتها سكارلت تنادي بصوت ناعم الخادمة في الطابق العلوي: «روزا. . . اقذفي لي بشال الآنسة سكارلت»، ثم بصوت أعلى: «تلك الزنجية التافهة. . . حيثما تكون لا تفيد أحداً. . . عليّ أن أصعد وأحضره بنفسي».

وسمعت سكارلت أنين السلّم، فنهضت من كرسيها بخفة، إذ كانت تعرف أن مامي حال رجوعها ستعود للمحاضرة حول انتقاص سكارلت لكرم الضيافة، وليس بمقدورها تحمّل أيّ هذيان حول مسألة تافهة كهذه في الوقت الذي ينفطر فيه قلبها أسى. وقفت، حائرة، متردّدة، أين يمكنها الاختباء ريثما تخفّ حدة الألم في صدرها؟ وعنّت لها فكرة بعثت في قلبها شعاعاً من الأمل: لقد ذهب أبوها بعد ظهر ذلك اليوم إلى تولف أوكس، مزرعة آل ويلكس ليحاول شراء دلسي، زوجة خادمه بورك السمينة، التي كانت رئيسة الخدم، والقابلة في تولف أوكس. وكان بورك، من يوم زواجه بها منذ ستة أشهر، يلحّ على سيده جيرالد - ليل نهار - كي يبتاعها، حتى يتمكن الاثنان من العيش معاً في مزرعة واحدة، فلما انهارت مقاومة جيرالد، ركب إلى تولف أوكس بعد ظهر ذلك اليوم ليحاول شراءها:

من المؤكد - فكرت سكارلت - أن بابا سيعرف إذا كانت هذه القصة المرعبة صحيحة أم لا. حتى ولو لم يسمع شيئاً بنفسه هذا المساء، فربما يكون قد لاحظ أمراً، أو تحسَّس حركة غير عادية عند آل ويلكس، فإن استطعت رؤيته على انفراد قبيل العشاء فقد أكتشف الحقيقة - التي لن تكون إلا مجرد دعابة عادية سخيفة من دعابات التوأمين.

وحانت عودة والدها جيرالد وأدركت أن عليها أن تقابله حيث يلتقي الممشى الخارجي بالطريق العام. وبالفعل، نزلت الدرجات

الأمامية بتؤدة، وهي تتطلع من فوق كتفيها، لترى ما إذا كانت مامي تراقبها من نوافذ الطابق العلوي. وعندما لم تلمح الوجه العريض الأسود، المعمم بعمامة بيضاء كالثلج، يرمقها مستنكراً، من خلال الستائر المتهدلة، جمعت أطراف تنورتها المزهرة الخضراء، وانطلقت فوق الممر تجاه الممشى الخارجي، مسرعة بقدر ما يسمح لها خفّاها الصغيران الموثقان بالشريط.

كانت أشجار الأرز القائمة المنتصبة على جانبي الممشى المحصوصب، تلتقي قممها مشكِّلة قوساً يظلل الرؤوس، محوِّلاً الممشى الطويل إلى نفق معتم. وحالما وصلت سكارلت إلى تحت أغصان الأرز الكثيفة، أدركت أنها أصبحت بمأمن من مراقبة النوافذ، فخفَّفت من خطوها السريع وهي تلهث لأن مشدّها كان ضاغطاً عليها لدرجة لا تسمح بركض طويل المدى، ومع ذلك استمرّت في المشي بالسرعة الممكنة، حتى تجاوزت الممشى على عجل، وخرجت من الطريق الرئيس، ولم تقف إلّا بعد أن دارت حول منعطف تفصل لمة من الأشجار فوقه، بينها وبين البيت.

جلست فوق جذمور من الشجر، تنتظر والدها، محمرّة الوجه، سريعة التنفس. ومضى موعد قدومه، ولكنها سُرَّت لتأخره، كي تجد متسعاً من الوقت، يهدأ خلاله تنفسها اللاهث، وتسكن انفعالات وجهها المضطرب لئلا تأخذه الظنون.

وفي كل لحظة، كانت تتوقع سماع وقْع حوافر حصانه، ومن ثم رؤيته ينهب سفح الرابية نهباً، بسرعته الخطرة المعتادة... ومرت الدقائق، ولم يظهر أثر لجيرالد، فسرّحت نظرها في عمق الطريق تبحث عنه، والألم يتفاقم في قلبها مرة ثانية.

– «آه، لا يمكن أن يكون ذلك الخبر صادقاً، لماذا لم يأتِ؟».

وطافت بعينيها فوق الطريق المتعرجة التي بدت حمراء كالدم بعد

إمطارة الصباح، واستمرّت في تفكيرها، تقتفي وجهة الطريق، منحدرة معها على جانب التلة... إلى نهر فلنت البطيء الجريان... إلى المنخفضات الراكدة المياه... ثم صعوداً على التلة الثانية... وأخيراً إلى مزرعة تولف أوكس... هناك حيث يعيش آشلي... هذا كلّ ما كانت تعنيه الطريق بالنسبة إليها في هذه الدقائق... إنها طريق إلى آشلي... إلى البيت الجميل ذي الأعمدة البيضاء الذي يتوّج قمة الرابية، كهيكل يوناني قديم.

- «آه... آشلي! آشلي!...».

فكَّرت وقلبُها يخفق أسرع من قبل، ثم أحسَّت أن شيئاً من الحيرة والمحنة اللتين هدّتاها هدّاً بعد سماع ثرثرة التوأمين، قد انزاح مستقراً في أعماق رأسها، وحلَّت مكانه تلك الحمى التي تمكَّنت من خلالها سنتين، وقد يبدو غريباً الآن أن آشلي لم يكن ليبدو لها خلال نشأتها الأولى بمثل هذا التأثير والجاذبية. ففي أيام طفولتها كانت تراه يغدو ويروح دون أن تعيره اهتماماً. ولكن منذ سنتين، منذ ذلك اليوم الذي عاد فيه من رحلته الرائعة إلى أوروبا التي استغرقت ثلاث سنوات، وجاء لزيارتها وتقديم احترامه لها، منذ ذلك اليوم أحبّته وشغفت به، هكذا تماماً، على هذه الصورة البسيطة.

كانت يومئذٍ تقف على الشرفة الأمامية، عندما أطلّ في أول الممشى الطويل، راكباً حصانه، لابساً ثوباً واسعاً رمادي اللون، تتوسطه ربطة عنق سوداء تلائم قميصه ذا الكشكش كلّ الملاءمة... وحتى هذه اللحظة... تستطيع أن تتذكر كل قطعة من ثيابه، حذاءه اللامع، رأس الميدوسا[1] المنقوش داخل يتيمة على دبوس ربطة عنقه،

---

(1) حيوان أشبه بالأفعى في أساطير الإغريق، قيل إنّ كل من شاهد لهيب عينيه، ينقلب حجراً - (المترجمان).

قبّعته المصنوعة من قش بناما والتي كانت في يده حالما شاهدها. . .
ثم ترجل ودفع زمام فرسه إلى زنجي صغير، ووقف مصعّداً نظره نحوها، فاتحاً عينيه الرماديتين الناعستين، فتحة واسعة مبتسمة، بينما انعكسنت أشعة الشمس متلألئة على شعره الأشقر فبدا كقبّعة من الفضة البراقة. . .

وقبل أن يصعد الدرجات القليلة بخفة، بادرها بقوله: «وهكذا غدوتِ شابة يا سكارلت!»، ثم انحنى مقبّلاً يدها. . . وصوته (لن تنسى أبداً كيف قفز قلبها من موضعه، عندما صافح صوته أذنيها) وئيداً. . . رناناً. . . موسيقياً. . . كما لو أنها المرة الأولى التي تسمعه يتكلم فيها. . . وفي تلك اللحظة، أحسَّت أنها تريده، تريده هكذا، دون تكلُّف ودون تعليل، تريده كما تريد الطعام من أجل الأكل، والخيل من أجل الركوب، والسرير الناعم لتضطجع بجسدها عليه. . .

وها قد مضت سنتان، وهو يرافقها في جولاتها في أنحاء القاطعة. . . إلى حفلات الرقص، إلى صيد السمك وشوائه، إلى النزهات القصيرة، إلى جلسات المحاكم القضائية. . . كل ذلك دون أن يكون مكثراً، كالتوأمين تارلتون أو كيد كالفرت، أو ملحاحاً كشبان آل فونتين الذين هم أصغر منه سناً. ورغم ذلك كان لا يمرّ أسبوع دون أن يأتي لزيارتها في تارا.

بيْد أنه لم يحدث أن فاتحها بحبه، ورغم أن عينيه الرماديتين الصافيتين لم تلمعا بذلك البريق الحادّ الذي عرفته سكارلت جيداً في عيون غيره من الرجال، فقد عرفت، مع ذلك، أنه يحبها. وهي لا يمكن أن تكون مخطئة في هذا الأمر، فالغريزة التي هي أقوى من المنطق، والمعرفة المكتسبة من التجارب، دلّتاها على أنه يحبها. وكثيراً ما لاحظته عندما لم تكن عيناه ناعستين، أو شاردتين، ينظر إليها بحنان واكتئاب، الأمر الذي كان يحيّرها. . . إنها تعرف أنه يحبها. . .

ولكن لماذا لم يصارحها بحبه؟ ذلك ما لم تستطِع فهمه. . . على أن هناك أموراً أخرى حوله، لم تفهمها أيضاً. . .

كان أنيس المعشر دائماً ولكنه كان شارداً. . . ناكفاً. . . ولم يكن أحد يستطيع معرفة ما يدور في خلده، وخصوصاً سكارلت، ففي ذلك الحي الذي اعتاد فيه كل إنسان أن يصرِّح بما ينتاب تفكيره، في الدقيقة ذاتها، كان آشلي ينفرد بخاصية الكتمان المغيظ. كان كغيره من الشبان، بارعاً في كل فنون اللهو المعروفة في المقاطعة كالصيد، والرهان، والرقص، والسياسة، ولكنه كان يمتاز عنهم جميعاً بأنه أمهرهم في ركوب الخيل، وبأن هذه النشاطات الممتعة، لم تكن كل هدفه في الحياة، إذ انفرد بين الجميع بهواه للكتب والموسيقى، وبتعشّقه نظم الشعر.

آه. . . لماذا هو كذلك؟ جميل رائع في شقرته، ممتع لطيف في معشره، مثير مزعج في حديثه عن أوروبا وعن الكتب والموسيقى والشعر والأمور الأخرى التي لا تروقها أبداً. . . ولكنها مع ذلك، شديدة الرغبة فيه؟ وليلة بعد ليلة بعد أن تكون قد جلست معه على الشرفة الأمامية، نصف المظلمة، كانت سكارلت تشرد على سريرها تائهة وهي تتخبط الساعات الطوال، لتعلل نفسها، أخيراً، بأنه لا بد مفصح في المرة القادمة عن حبه لها. وتأتي المرة القادمة، وتروح، وتكون النتيجة لا شيء. . . لا شيء سوى الإحساس بعاطفتها العارمة الدفاقة نحوه، تتضخم طاقة وتتسعّر لهيباً.

إنها تحبه وتريده، ولكنها لا تفهمه. . . لقد كانت ساذجة صريحة كهذه الرياح التي تهبُّ على تارا، وكالنهر الأصفر الذي يدور حولها، ولم يكن في مقدورها حتى آخر أيام حياتها أن تفهم حقيقة أمر معقد. وها هي الآن وللمرة الأولى في حياتها تواجه نفسية «معقدة».

ذلك أن آشلي كان سليل فئة من الرجال، الذين كانو يشغلون

أوقات فراغهم في التفكير، لا في العمل، في نسج الأحلام التي لا تمتّ إلى واقعهم بصِلَة، فكان لذلك يجوس داخل عالم روحاني، أجمل من جورجيا بكثير، ولا يعود إلى دنيا الواقع إلّا على مضض، كان ينظر إلى الناس نظرة مجرّدة، لا يشعر نحوهم بحب أو كراهية، ينظر إلى الحياة دون أن يشغف بها، أو ينفر منها، لقد رضي بالدنيا وبمكانه فيها دون تبرّم. فكان كلما تأمّلها هزّ كتفيه وانكفأ إلى كتبه وموسيقاه... وعالمه الأفضل.

والذي لم تدركه سكارلت بعد، هو كيف قُدِّر له أن يأسر قلبها، في الوقت الذي لا يتفق عقله وعقلها. إن نفسيته الغامضة المغلقة ذاتها لتثير فضولها، فتغدو كالباب وقد فقَدَ مفتاحه وقفله. وكأن هذه الأمور المتعلقة بشخصه، والتي لم تفهم كنهها أيضاً، تدفعها إلى حبه أكثر فأكثر، وكذلك غزله الممتع الفريد، المتحفظ الحذر، لا يعمل إلا على تقوية إصرارها على أن تحتفظ به لنفسها، ولم تشكّ أبداً في أنه سيصارحها بحبه يوماً ما، وهي الفتاة الصغيرة جداً، المدلّلة كثيراً، بحيث لم تذُق طعم الهزيمة أبداً... والآن ها هو النبأ المفزع ينزل عليها كالصاعقة... آشلي سيتزوج ميلاني!... لا يمكن أن يكون هذا النبأ صحيحاً!! كيف يكون صادقاً وهو الذي قال لها في الأسبوع الماضي، أثناء عودتهما من فيرهيل معاً، وقت السحر: «سكارلت، عندي خبر لك على درجة كبيرة من الأهمية، بحيث لا أدري كيف أنقله إلى مسامعك». فأطرقت بعينيها إلى الأرض، مدّعية الحشمة، بينما خفق قلبها بسرور طافح إذ ظنت أنّ اللحظة السعيدة فد أزفت، ولكنه أردف: «لنرجئ ذلك لوقت آخر، فلقد اقتربنا من البيت، ولم يبقَ متسع من الوقت... آه... ما أجبنني يا سكارلت». وهمز حصانه وانطلق وإياها في سباق صعوداً إلى التلة، حتى بلغا تارا.

وبينما سكارلت جالسة فوق جذمور الخشب، تفكّر في كلماته

الأخيرة هذه، وقد انتشت روحها غبطة وحبوراً، إذ خطر لها فجأة تفسير آخر. . . معنى جديد خفي. . . لعله نبأ خطوبته ذلك الذي قصد أن يخبرها به. . . آه. . . لو يصل والدها الآن! فهي لم تعُد تحتمل سياط الشك لحظة أخرى، وتطلَّعت، وقد عيل صبرها، نحو الطريق، مرة ثانية، ولكن بصرها، للمرة الثانية، ارتدّ خائباً.

وغابت الشمس وراء الأفق، وتحوَّلت حمرة الوهج الدامي، في طرف الدنيا، إلى لون القرنفل الفاتح، وتغيَّر لون السماء فوق، من زرقة خالصة إلى زرقة مخضوضرة بديعة كلون بيض أبي الحن، ودون أن تشعر، غمرها سكون الغسق الريفي السماوي، بينما زحفت العتمة الظليلة فوق البقاع الشاسعة، منتزعة من الأثلام الحمراء، والطريق القانية لون الدم السحري، مُحيلة إياها إلى مجرد أرض بنّية. وهناك في المراعي عبر الطريق كانت قطعان البقر والخيل والبغال تقف ساكنة، برؤوسها المشرئبة فوق الحاجز المتصدع، تنتظر مَن يسوقها إلى الاصطبلات حيث تتناول عشاءها. كانت هذه البهائم تمقت ظلال الأدغال القاتمة التي تكتنف جدول المرعى ولذلك نصبت آذانها لسكارلت، كأنها تعلن عن تقديرها لزمالة الإنسان.

في ظلال ذلك الضوء الباهت الغريب، بدت أشجار الصنوبر الباسقة القائمة في مستنقع النهر، والتي تتوهج اخضراراً خلال ضوء الشمس، بدت سوداء تطاول السماء الشاحبة، كأنها صفّ منتظم من العمالقة السود، يحجبون بأقدامهم المياه الصفراء البطيئة الجري، وعلى التلة الرابضة وراء النهر، راحت مداخن منزل ويلكس الطويلة البيضاء، تغيب شيئاً فشيئاً في ظلمة أشجار السنديان الكثيفة المحيطة بها، فلم يبقَ ما يدل على وجود ذلك المنزل في ذلك الموضع، إلا نقاط ضوء بعيدة متناهية في الصغر صادرة من مصابيح العشاء.

وغمر سكارلت أريج الربيع الدافئ الندي، تشوبُه رائحة الأرض

المحروثة البليلة، والنباتات الخضراء النامية التي شقَّت طريقها إلى سطح التربة حديثاً.

ولكن ذلك الغروب، وهذا الربيع، وتلك النبيتات الخضراء الناجمة حديثاً لم تُثِر في نفس سكارلت أي إعجاب، لقد تقبَّلت مظاهر جمالها كأيّ شيء عادي، كالهواء الذي تتنفسه، والماء الذي تشربه، فهي لم تكن تعي أي معنى للجمال إلّا في وجوه النساء، في الخيل، في الثياب الحريرية، وفي أمثال هذه من الأشياء المحسوسة، ومع ذلك فإن منظر الضوء الباهت الساكن فوق مزارع تارا، المعتنى بها، أوحى ببعض الطمأنينة لفكرها المضطرب، كانت تحب هذه الأرض كثيراً، تحبها، دون علمٍ منها، حباً يعادل حبها لوجه أمها، وقد انعكست عليه أنوار المصابيح خلال الصلاة.

ومضت الدقائق، ولم يظهر فوق الطريق الساكنة المتعرجة ما ينبئ بقدوم جيرالد، فإذن كان عليها أن تنتظر وقتاً آخر، فإنّ مامي ستبحث عنها حتماً ثم تسوقها زجراً إلى البيت، ولكنها، وهي تحدّق جاهدة في الطريق المظلمة، سمعت وقْع حوافر عند أسفل تلة المرعى، وشاهدت الخيل والأبقار تتفرق فزعة. . . لقد كان جيرالد أوهارا قادماً عبر الطريق بأقصى سرعته.

وصعد التلة مخباً الفرس قيد للأوابد، سلهب، ضليع، فظهر لها من بعيد، كصبي يمتطي حصاناً ضخماً يتناثر شعره الأبيض الطويل جلياً خلفه، وهو يحثّ فرسه الخطى بسوطه وصيحاته المرتفعة.

ورغم شعورها المفعم بالقلق، راحت تتأمله بفخر ينمّ عن ودّ، فقد كان فارساً بارعاً حقاً. ثم أخذت تحدِّث نفسها:

«إني لأستغرب استمراره في القفز فوق الحواجز وهو محتسٍ خمراً. . . ولا سيما بعد تلك السقطة في هذا المكان بالذات، السقطة

التي كُسِرت من جرّائها ركبته في السنة الماضية. إن المرء ليعتقد أنّه قد اتّعظ، خصوصاً بعد وعده لأمي، مقسماً أن لا يعود إلى القفز ثانية».

لم تكن سكارلت تشعر بالرهبة من والدها، بل كانت تحس أنه أقرب إلى عصرها وروحها من شقيقاتها، فعملية القفز فوق الحواجز وإخفاء الأمر عن زوجته، كانت تشعره بكبرياء صبياني، وبمرح آثم، يجاري سرورها بخداعها لمربيتها. ونهضت من مقعدها تودّ مراقبته.

كان الحصان الضخم قد بلغ السياج. فجمع نفسه وحلّق قافزاً دون أيّ عناء، كأنه عصفور، بينما كان راكبه يصيح متحمساً، ضارباً الهواء بسوطه، وخصلات شعره الأبيض تتطاير خلفه. وعندما وجّه عنان فرسه نحو الطريق، مربتاً على عنقه تربيت الرضا والاستحسان، لم يلحظ أنّ ابنته كانت واقفة في ظلال الأشجار... بل راح يخاطب حصانه باعتزاز وبعبارة بانت فيها آثار لهجة مقاطعة ميث الإيرلندية، رغم انقضاء تسع وثلاثين سنة على مجيئه إلى أميركا، «وليس في المقاطعة مَن يضاهيك، ولا في الولاية»، قال ذلك وأسرع يسوّي شعره ويرتب قميصه المضطرب، ويعدل رباط عنقه الذي كان قد شطّ منحرفاً خلف إحدى أذنيه.

وأدركت سكارلت أن هذه الترتيبات السريعة يجريها والدها ليقابل زوجته، بهيئة سيد محترم عاد رصيناً على فرسه، إثر زيارة لأحد جيرانه، كما أدركت أيضاً أنه منحها الفرصة التي تريدها للبدء بالحديث دونما كشف لغايتها الحقيقية وعلى حين غرة أرسلت ضحكة عالية في الفضاء، فجفل جيرالد، كما أرادت وعرف شخصها، فَعَلَتْ وجهَه المورد نظرةٌ هادئة متحدية، ثم ترجّل عن حصانه بصعوبة لتصلّب ركبته، ومشى نحوها بتثاقل بعد أن أرخى العنان، ثم ابتدرها بقوله وهو يقرص وجنتها:

- «حسناً يا آنستي، كنت تتجسسين عليّ إذن، وكما فعلت شقيقتك سولين في الأسبوع الماضي، ستخبرين أمك بمّا ارتكبت».

كانت نبرة السخط بادية في صوته الخافت الأجش يشوبها شيء من المجاملة، ولكن سكارلت اندفعت نحوه، تريد تركيز ربطة عنقه، وهي تحرّك لسانها بين أسنانها لإغاظته، وفي الحال، هبّ في وجهها زفير تنفسه القوي وهو يعبق برائحة ويسكي بوربون، يشوبها قليل من عطر النعناع، وكانت تلازمه أيضاً رائحة التبغ الممضوغ، والجلد الحسن التزييت، والخيل، تلك الروائح التي كانت تقرنها دائماً بوالدها وتحبّها في الرجال الآخرين، بدافع غريزي:

- «لا، يا بابا، لست ثرثارة نمّامة كسولين»، أكّدت له ذلك، ثم وقفت مقابله موقف الناقد، تتأمل ملابسه بعد أن أعيد ترتيبها.

كان جيرالد رجلاً صغير القامة، يجاوز قليلاً خمسة أقدام طولاً، ولكنه مع ذلك كان ثقيل الجذع، غليظ العنق، بحيث إن مظهره وهو جالس، يجعل الذين لا يعرفونه يعتقدون أنه أضخم جسماً. وكان جذعه الغليظ يتكئ على ساقين متينتين قصيرتين تنتعلان أبداً أجود ما يمكن الحصول عليه من الجزمات الجلدية، وتستقران فوق الأرض متباعدتين، كساقي صبي متبختر صغير... ورغم أن معظم صغار القامة، المتظاهرين بالرزانة مع الناس، مثيرون للضحك عادة، إلا أن جيرالد كان محترماً أبداً، كالديك الصغير الشرس، يفرض احترامه في باحة الحظيرة، فلم يكن لأحد أن يجازف حتى بمجرد التفكير في أنّ شخص جيرالد أوهارا صغير مضحك.

وكان جيرالد قد بلغ الستين من العمر، وكان شعره الجعدي الخشن أبيض كالفضة، ولكن وجهه الذكي خلا من التجاعيد، وعينيه الصغيرتين الزرقاوين الحادتين كانتا تفيضان شباباً وحيوية، وتنمّان عن طبيعة إنسان مطمئن، لم يقدح زناد تفكيره يوماً بمشاكل أكثر عوصاً ممّا

تقتضيه عملية سحب الورق في لعبة البوكر. أمّا وجهه فقد احتفظ بسماته الإيرلندية الأصلية رغم طول المدة التي انقضت على نزوحه: مستدير شديد الحمرة، أنف قصير، فم عريض، وملامح تنمّ عن روح حربية.

على أن جيرالد كان يخفي وراء ما كان يبدو عليهِ من نزوع إلى القتال، أرق القلوب جمعاء، فلم يكن ليحتمل رؤية عبد يتألم من جرّاء توبيخ، بغضّ النظر عن مدى استحقاقه له، أو سماع هريرة تموء أو طفل يبكي، ولكنه كان يخشى للغاية انفضاح أمر ضعفه هذا، غير عالم أنّ كلّ مَن يقابله، يكتشف طبيعة قلبه الحنون، خلال الدقائق الخمس الأولى من مقابلته فقط، ولو قدِّر له معرفة ذلك، لقاسى زهوه الأمرّين، إذ كان يرغب كثيراً في الاعتقاد بأنّ الجميع يطيعونه هلعين، وهو يصدر أوامره بأعلى صوته، ولم يدُر في خلده أبداً أنّ صوتاً واحداً كان يُطاع في المزرعة، ذلك هو صوت زوجته إيلين الرقيق، ولم يكن ليقدّر له معرفة ذلك إذ كان كلّ مَن في المزرعة، من إيلين إلى أغبى عامل زراعي، قد اشترك في مؤامرة خفية كريمة تهدف إلى جعله يعتقد أنّ كلمته عندهم هي بمثابة القانون.

وكانت سكارلت أقل الجميع تأثراً بهياجه وزئيره، فهي ابنته الكبرى، ولمّا كان يدرك أنه لن ينجب أبناء آخرين بعد الثلاثة المدفونين في مقبرة العائلة، راح يعاملها معاملة الندّ للند، الأمر الذي سرَّها كثيراً، ولقد كانت أكثر شبهاً به منها بشقيقاتها الصغيرات، فكارين التي سُميت يوم ولادتها كارولين إيرين كانت ناعمة حالمة، بينما كانت سولين، المعمَّدة باسم سوزان إيلينور، تزهو بكياستها وسلوكها الشبيه بسلوك السيدات، وفوق ذلك فقد كانت تربط سكارلت بوالدها اتفاقية كتمان مشتركة، تقوم على أن يكتفي جيرالد بتأديب سكارلت بنفسه وبشدّة، وأن يخفي الأمر عن زوجته وعن المربية،

وذلك في حالة اكتشافها تقفز فوق السياج، بدلاً من السير نصف ميل لبلوغ البوابة، أو في حال رؤيتها تجلس في وقت متأخر، مع أحد المتيَّمين، على الدرجات الأمامية، وبالمقابل تمتنع سكارلت عند رؤية جيرالد يقفز حاجزاً، بعد الوعد المقدس الذي قطعه لزوجته، أو عند اطّلاعها على مقدار خسارته في لعبة البوكر، الأمر الذي كانت تكتشفه دائماً من أحاديث الناس في الولاية، تمتنع عن ذكر ذلك أثناء العشاء، كما كانت تفعل سولين بطريقتها الماكرة، والساذجة في الوقت نفسه.

وكانت سكارلت ووالدها يقنع كلّ منهما الآخر بأن الإفضاء بأمور كهذه إلى إيلين لن يفيد سوى إيذائها. وليس هناك ما يدعوهما لخدش إحساسها الرقيق.

* * *

وفي الضوء الباهت، نظرت سكارلت إلى والدها، فأحسّت، دون أن تعرف السبب، بالعزاء في حضرته، فقد كان في شخصه مزيج من الحيوية والواقعية والخشونة، وهي صفات تروقها، ولمّا كانت أقلّ الناس تحليلاً للأمور لم تدرك أنّ ذلك عائد لامتلاكها شيئاً، ولو ضئيلاً، من هذه الصفات، رغم جهود والدتها ومربيتها طوال ست عشرة سنة لاستئصالها منها.

- «إنك تبدو الآن رائعاً جداً يا أبي... ولست أعتقد أن أحداً ستحدّثه نفسه بأنك عدت إلى ألاعيبك، إن لم تعلن أنت عن ذلك متفاخراً... ولكن، يظهر لي أنه بعد أن كسرتَ ركبتك في السنة الماضية وأنت تقفز ذلك الحاجز بالذات...».

- «ليلعنني اللّه إن أنا سمحتُ لابنتي بأن تُخبرني عمّا يجب أن أقفز أو لا أقفز»، قاطعها صائحاً، قارصاً وجنتها للمرة الثانية، ثم أردف: «إن القضية تتعلق برقبتي أنا، نعم برقبتي أنا، وفوق ذلك يا آنسة، ماذا تفعلين هنا خارجاً دون أن تتلفَّعي بشالك؟».

أدركت سكارلت أنه يناور لينقذ نفسه من حديث غير ممتع، فتأبّطت ذراعه وقالت:

- «كنت في انتظارك غير عالمة أنك ستتأخر حتى هذه الساعة... لا أدري إذا كنت قد ابتعت دلسي؟».

- «ابتعتها... وقد هدّني الثمن... ابتعتها وابنتها الصغيرة برسي. كان جون ويلكس راغباً جداً في بيعهما، ولكنني لم أشأ أبداً، أن يُقال إنني استغللت الصداقة في صفقة تجارية، ولذلك جعلته يتقاضى ثلاثة آلاف دولار مقابل الاثنتين».

- «يا للإله... بابا! ثلاثة آلاف؟ ولست في حاجة إلى شراء برسي».

- «أجاء الوقت الذي تقاضيني ابنتي فيه؟»، صاح جيرالد بلهجة خطابية... «إن برسي فتاة صغيرة وسيمة، ولذلك...».

- «أعرفها... إنها غبية خبيثة»، ثم أردفت بهدوء دون أن تنفعل من جرّاء صراخه: «والسبب الوحيد الذي دفعك إلى شرائها هو أن دلسي طلبت منك ذلك».

فطأطأ جيرالد رأسه وقد أُسقِط في يده كعادته دائماً في المواقف التي ينكشف فيها عمله الإنساني الرحيم، بينما انفجرت سكارلت ضاحكة لشفافية نفسه.

- «حسناً، وماذا لو اشتريتها؟ هل كنّا نستفيد من شراء دلسي، إذا ما ظلّت مكتئبة بسبب ابنتها... على كل حال لن أسمح بعد اليوم لزنجي في مزرعتي أن يتزوج بأخرى في مزرعة ثانية... والآن هلمّي يا بنيتي، دعينا ندخل من أجل العشاء».

كانت الظلال تزداد كثافة، وقد جلا آخر أثر لاخضرار في السماء، وحلّت برودة خفيفة محل نسيم الربيع العليل، وتباطأت سكارلت وهي تتساءل كيف تصل إلى موضوع آشلي دون أن تدع

والدها يرتاب في عاطفتها. الأمر صعب وهي التي لا تملك شيئاً من الدهاء، ورغم أنّ جيرالد كان يشاكلها إلى حدّ كبير، لم يفشل مرة في النفاذ إلى حقيقة ألاعيبها الضعيفة الحبك، كما لم تفشل هي في النفاذ إلى حقيقته، على أنه ندر أن أنجز ذلك بحذق.

- «كيف حال الجميع في تولف أوكس؟».

- «تقريباً على حالهم العادية، كان هناك كيد كالفرت، وبُعيد اتفاقنا على موضوع دلسي، جلسنا جميعاً في القاعة، واحتسينا عدة كؤوس من شراب تودي[1] وكان كيد قد وصل لتوّه من أتلانتا، فاختلط الحابل بالنابل، وراحوا يتحدثون عن الحرب و...».

وما إن لفظ جيرالد كلمة «حرب» حتى تنهّدت سكارلت، إذ كانت تعرف أنه حالما يصل في حديثه إلى موضوع الحرب والانفصال، فلا بد من انقضاء ساعات قبل أن يفرغ منه، ولذلك قاطعته بموضوع آخر:

- «ألم يقولوا شيئاً حول باربكيو الغد؟».

- «الآن تذكرت ذلك... نعم قالوا يا آنسة - ما اسمها - الفتاة الحلوة الصغيرة التي زارتنا السنة الماضية... أنت تعرفينها... ابنة عم آشلي... ها... نعم يا آنسة، ميلاني هاملتون... ذلك هو اسمها... هي وشقيقها تشارلز قد حضرا حديثاً من أتلانتا و...».

- «ها، إذن حضرت؟».

- «نعم... وإنها لفتاة حلوة هادئة... لا تنبس بكلمة واحدة من نفسها، كما ينبغي أن تكون السيدة... هلمي الآن يا ابنتي... لا تتواني، فلا بد أنّ أمك تبحث عنا».

لكن قلب سكارلت كان قد غار عند سماع النبأ، فهي قد أملت خلاف منطق الأمل، أن شيئاً ما، سيُبقي ميلاني هاملتون في أتلانتا

(1) نوع من الشراب يمزج بماء حار وسكر - (المترجمان).

حيث تسكن، ولكن الأمر لم يقتصر الآن على خيبة أملها فحسب، بل حتى والدها أخذ يطري طبيعة ميلاني العذبة الهادئة، والتي تختلف كثيراً عن طبيعتها، ممّا دفعها إلى المجاهرة بمكنونات صدرها.

- «وهل كان آشلي هناك أيضاً؟».

- «نعم كان».

أجاب جيرالد وأرخى يدها ملتفتاً نحوها، محملقاً في وجهها بحدّة:

- «وإذا كان ذلك هو ما دفعك إلى الخروج وانتظاري هنا، فلماذا لم تقوليه رأساً دون لف ودوران؟».

فلم تحر سكارلت جواباً، وأحسَّت بوجهها يزداد حمرة من حراجة الموقف.

- «أفصحي».

ولكنها استمرّت في صمتها، متمنّية لو أن من حق المرء أن يهزّ والده ويأمره بالصمت.

- «لقد كان موجوداً وسأل عنك بأدب جم، كما فعلت شقيقاته، مبديات أملهن في أن لا يؤخِّرك شيء عن حفلة الباربكيو غداً... وأنا كفيل أن شيئاً لن يؤخرك»... قال ذلك بخبث، ثم أردف: «والآن يا ابنتي، ما هي قضيتك وآشلي؟».

- «لا شيء»، أجابت باقتضاب، متكئة على ذراعه، ثم مردفة: «هلمّ بنا ندخل يا بابا».

- «وهكذا، جاء دورك الآن، تريدين الدخول»، أجاب معلقاً، «ولكنني سأظلّ واقفاً هنا حتى أفهم قضيتك... الآن فطنت للمسألة... في المدة الأخيرة كنتِ تَظهرين بمظهر غريب، أكان يعبث معك؟ أطلب منك الزواج؟».

- «لا»، أجابت باقتضاب.

- «ولن يطلب!».

فاشتعلت غضباً، ولكن جيرالد هدّأها بيده قائلاً:

- «احتفظي برباطة جأشك يا آنسة! لقد علمتُ هذا المساء، من جون ويكلس، بناء على ثقته المتناهية بي، أن آشلي سيتزوج بميلاني هاملتون، وسيُعلن النبأ غداً».

وعندئذٍ سقطت يدها على ذراعه... إذن لقد كان صدقاً! وأحسّت بألم يمزّق قلبها، كمخالب حيوان وحشي، ومن خلال الألم لمحت عينَي والدها تتأملانها بشيء من الشفقة، وقليل من الحيرة، لأنه وُوجه بمشكلة لا يعرف لها حلاً، إنه يحب سكارلت، ولكنها ضايقته بدفعها مشاكلها الصبيانية أمامه ليحلها، وكان ينبغي لها أن تحملها إلى إيلين، فهي التي تعرف جميع الحلول.

- «أتشهِّرين بنفسك، بل بنا جميعاً؟!».

صاح جيرالد وقد ارتفع صوته كعادته دائماً في لحظات الانفعال... «أتسعين وراء رجلاً لا يشعر بحبٍّ نحوك، في الوقت الذي في إمكانك الزواج بأيّ من شبّان المقاطعة؟».

فأجابته يدفعها الغضب والكبرياء الجريح، لتنفس بعض الألم:

- «أنا لم أسعَ وراءه وإنما... إنما فاجأني النبأ فقط!».

- «إنك لتكذبين!» قال جيرالد، ولكنه بعد أن تأمّل وجهها المنفعل، أردف بصوت يغمره الحنان: «إني آسف يا ابنتي، ومع ذلك فأنتِ ما زلت صغيرة وهناك الكثير من المعجبين».

- «لقد كانت أمي في الخامسة عشرة فقط عندما تزوَّجت بكَ، وها أنا الآن قد بلغت السادسة عشرة». قالت سكارلت بصوت يكاد لا يُسمع.

- «ولكنها كانت تختلف عنك كثيراً، لم تكن طائشة البتّة، كما أنت اليوم.. والآن تعالي خفّفي عن نفسك، وسوف آخذك إلى

شارلستون في الأسبوع القادم، لزيارة خالتك يولالاي، وهناك نظراً إلى الضجة القائمة حول قلعة صمتر، ستنسين كل شيء عن آشلي، بعد أسبوع».

«إنه يعتقد أنني طفلة»، أسرّت سكارلت إلى نفسها، وكأنما خنق الحزن والغضب صوتها... «وما عليه إلا أن يمنحني دمية جديدة حتى أنسى كل آلامي».

- «والآن لا تهزي ذقنك أمامي»، قال جيرالد محذراً، ثم أردف: «لو كنت تملكين قليلاً من الإدراك، لتزوّجت ستيوارت أو برنت تارلتون من زمن. فكري في الأمر ملياً يا ابنتي، تزوجي أحد التوأمين، وعندها تتصل مزرعتانا، فنبني لكما أنا وجيم تارلتون بيتاً جميلاً حيث تلتقي المزرعتان، في غابة الصنوبر الكبيرة تلك... و...».

- «أرجو أن تكفّ عن معاملتي كطفلة!» صاحت سكارلت، «فأنا لا أريد الذهاب إلى شارلستون، أو اقتناء بيت، أو الزواج بأحد التوأمين... وإنما أريد...».

وأمسكت عنان نفسها، ولكن بعد فوات الأوان.

وتكلّم جيرالد، كان صوته هادئاً بشكل غريب، كما لو أنه ينتزع كلماته من مخزن أفكار، قلّما طرق بابه:

- «إنه آشلي الذي تريدينه فقط، ولكن لن تناليه، حتى إذا أراد هو أن يتزوّجك، فلن ألبّي طلبه إلّا على مضض، ولن يكون لك إلا للصداقة المتينة التي بيني وبين جون ويلكس»، وإذ رأى الفزع ينتابها أردف: «فأنا أريد السعادة لابنتي، ولن تكوني سعيدة معه».

«سأكون سعيدة، سأكون سعيدة حتماً».

- «لن تكوني يا ابنتي، فليس من سعادة إلّا في زواج الأكفاء».

وأحسّت سكارلت برغبة فجائية غادرة، تدفعها إلى أن تصرخ:

- «كيف إذن كنت وأمي سعيدين، وأنتما غير متكافئين».

ولكنها كبحت عاطفتها، خشية أن تمزّق أذنيها سلاطة لسانه.

- «عائلتنا تختلف عن آل ويلكس»، تابع جيرالد ببطء، كأنه يبحث عن كلماته، «الويلكسيون يختلفون عن كلّ الجيران، بل يختلفون عن كلّ العائلات التي أعرفها، إنهم أناس شاذون، ولعلّ أفضل ما يفعلونه أنهم يتزوجون بنات أعمامهم، فيقصرون بذلك شذوذهم على أنفسهم».

- «لماذا يا بابا، آشلي ليس...».

- «اصمتي يا بنيتي، فأنا لم أقل شيئاً بحقّ الفتى لأني أحبه، وعندما قلت «شاذون» لم أكن أعني «مجانين» وآشلي لم يكن شاذاً كأبناء آل كالفرت الذين لا يتورعون عن المقامرة بكلّ ما يملكون من أجل حصان، أو كأبناء آل تارلتون الذين ينقلبون سكارى مرة أو مرتين في كلّ هرج، أو أبناء آل فونتين، الوحوش الصغار الحادّي المزاج الذين لا يتورعون عن ارتكاب جريمة قتل لأمرٍ تافه وهمي، إن ذلك النوع من الشذوذ سهل فهمه حتماً... ومع ذلك فأنا لا أعني أن آشلي يمكن أن يخونك مع امرأة أخرى إذا ما تزوجته، أو أن يضربك، ليت الأمر يقتصر على هذا، عندئذٍ تكونين أسعد حالاً... لأنك على الأقل تظلّين واعية لما يدور حولك... ولكنه شاذ في أمور أخرى حيث لا يستطيع أحد فهمه أبداً، إني أعزّه، على أني لا أستطيع أن أفهم الذنب من الرأس من معظم أحاديثه، أخبريني الصدق يا بنيتي... هل تفهمين هذيانه حول الكتب والشعر والموسيقى والتصوير الزيتي والحماقات المماثلة؟».

- «بابا» صاحت سكارلت وقد فرغ صبرها. «إذا ما تزوجته فسأُبعده عن كل هذه الأشياء».

- «ها، ستُبعدينه؟ هل تستطيعين الآن؟!» سأل جيرالد حانقاً حادجاً ابنته بنظر شزر، «إذن كلّ ما تعرفينه عن الرجال قليل جداً، دعي

آشلي جانباً، وافهمي ما سأقوله لك. لم تستطع امرأة يوماً أن تغيّر من زوجها مثقال ذرة.. إياك أن تنسي هذا... وأما بالنسبة إلى تغيير ويلكسي، فالعياذ باللّه يا ابنتي! العائلة بأسرها على هذا النمط، لقد كانوا دائماً كذلك، ومن المحتمل أن يظلوا كما هم... لقد قلت لك إنهم ولدوا شاذّين. تأملي كيف يسرعون إلى نيويورك وبوسطن لسماع الأوبرات، ومشاهدة الرسوم الزيتية، ثم تأملي كيف يشترون الكتب الفرنسية والألمانية بالأكداس من أهل الشمال، ثم يجلسون للقراءة ويحلمون أحلاماً لا يعلمها إلّا اللّه العزيز، بدلاً من أن يقضوا أوقاتهم بصورة أفضل في الصيد أو في لعب البوكر، كما ينبغي لعقلاء الرجال».

- «ولكن ليس في المقاطعة كلها مَن يمتطي حصاناً أفضل من آشلي»، قالت سكارلت حانقة من جرّاء وصمة التخنّث المسندة إليه، «لا أحد البتّة... ربما باستثناء والده فقط... وأما بالنسبة إلى لعب البوكر، ألم ينتزع آشلي منك مئتي دولار الأسبوع الماضي ذاته في جونسبورو؟».

- «يبدو أن أبناء كالفرت عادوا إلى الفتنة ثانية»، أجاب جيرالد معترفاً بخسارته، «وإلّا لما عرفتِ حقيقة المبلغ، إن آشلي يستطيع أن يجاري أحسن راكب خيل، وأن يباري أحسن لاعب بوكر، وهو أنا يا بنيتي، كما أنني لا أنكر أنه إذا ما جلس للشرب، يستطيع أن يبزّ حتى أبناء تارلتون، يستطيع فعل هذا كله، ولكن دون أن يشارك فيه بقلبه... وذلك ما يجعلني أدعوه شاذاً».

ظلت سكارلت صامتة، وقد هبط قلبها من موضعه، فهي لا تستطيع التفكير بما يتحدى تلك الحقيقة التي نطق بها والدها أخيراً، كانت تعلم أنه على صواب، وأن آشلي لا يسهم بقلبه في أيّ من الأمور السارة التي يحسن القيام بها، وأنه لا يهتم بأي شيء يهتم به الآخرون جدياً، إلا بقدر ما كانت تدعوه اللياقة إلى ذلك.

وأدرك جيرالد سرّ صمتها، فربَّتَ على ذراعها مزهواً بالنصر:

- «الآن إذن يا سكارلت... أقررت بأنها الحقيقة.. ماذا ستفعلين مع زوجٍ كآشلي؟ إنهم جميعاً بهم لوثة، جميع آل ويلكس»، ثم أردف مداهناً: «وعندما ذكرت لك أبناء تارلتون، منذ قليل، لم أكن أرفع من شأنهم، فهم شبّان رائعون، أما إذا كنت تفضلين كيد كالفرت، فالأمران عندي سيان. وآل كالفرت جماعة طيبون، رغم زواج والدهم بفتاة شمالية. وعندما أموت - صه، يا عزيزتي، أصغي لي! سأخلف تارا لك ولكيد».

- «لن أرضى بكيد ولو قُدِّم لي على صينية من الفضة»، صاحت سكارلت غضبى، «وأرجو أن تقلع عن ترغيبي به، فأنا لا أريد تارا ولا أية مزرعة قديمة أخرى، إن المزارع لا تساوي شيئاً عندما...».

وكانت تهمّ بأن تقول: «لا يظفر المرء بمَن يحب» لولا أن جيرالد، وقد اغتاظ من الطريقة الشهمة التي قابلت بها منحته المقترحة التي يعزّها، بعد زوجته، أكثر من أي شيء في الدنيا، قاطعها زائراً:

- «أتقفين هنا يا سكارلت أوهارا، وتخبرينني أن تارا تلك الأرض الثمينة لا تساوي شيئاً؟».

فأومأت برأسها بإصرار، إذ كان قلبها قد أدمته مرارة الألم بحيث لم تعُد تبالي أأغضبَت والدها أم لم تغضبه.

- «الأرض هي الشيء الوحيد القيِّم في هذه الدنيا»، صاح وذراعاه القصيرتان الغليظتان تعبّران بحركاتهما الواسعة عن مدى سخطه.. «لأنها الشيء الوحيد الذي يدوم... ولا تنسي هذه الحقيقة، إنها الشيء الوحيد الذي يستحق الجهد في سبيله، يستحق النضال من أجله، يستحق الموت حفاظاً عليه».

- «آه يا بابا».. أجابت باشمئزاز.. «إنك تتكلم كإيرلندي».

- «ومتى كنت أخجل من ذلك؟... أبداً... بل أنا فخور

بذلك. . . ولا تنسي أنك نصف إيرلندية يا آنسة، وكل إنسان يملك قطرة دم إيرلندي في عروقه، يعتبر الأرض التي يعيش عليها كأمه، إنني الآن أخجل بك! منحتك أجمل أراضي الدنيا، باستثناء أرض مقاطعة ميث في وطني الأم، فماذا كان جوابك، تأنفت!».

وكان جيرالد قد بدأ يندفع في ثورة غضب صارخ مثير، لولا أنّ شيئاً في وجه سكارلت المبتلى منعه من الاستمرار.

- «على أنك مخطئة. . . وسيأتي يوم تحبّين فيه الأرض. . . ليس هناك مفرّ من ذلك ما دمتِ إيرلندية، إنك ما زلت طفلة اليوم، تقلقين على محبوبك، وعندما تكبرين سترين كيف يكون الأمر. . . والآن أقرّي رأيك على كيد أو التوأمين أو أحد فتيان إيفان مونرو، وسترين أيّ عروس رائعة سأجعل منك؟».

- «كفى يا بابا».

وعند هذه اللحظة كان مفعول الجدل قد بلغ من جيرالد أشدّه، وغمر نفسه ضيق شديد، لأنّ المشكلة وقعت على عاتقه، وآلَمَه أن تظلّ سكارلت حزينة منكمشة بعد أن منحها أحسن شبان الولاية، وتارا أيضاً، وهو الذي كان يودّ أن تستقبل عطاياه بالتصفيق والقبلات.

- «لا تعبسي أبداً يا آنسة، فلا يهمّ مَن ستتزوجين شريطة أن يكون منسجم التفكير معك، وأن يكون سيداً محترماً عزيز النفس، من أهل الجنوب، فبالنسبة إلى المرأة ينشأ الحب بعد الزواج».

- «تلك نظرية من وطنك الأول، يا بابا».

- «ولكنها نظرية صائبة، إنّ كل هذه الأساليب الأميركية في البحث عن زواج الحب، جديرة بالخدم، وبأهل الشمال، وأحسن الزيجات ما يتمّ من طريق اختيار الوالدين لزوج ابنتهما، إذ كيف يستطيع إنسان فجّ مثلك، أن يميّز بين الرجل الخبيث والطيب؟ انظري

إلى آل ويلكس، ما الذي جعلهم يحتفظون بكبريائهم ومكانتهم مدى هذه الأجيال؟ طبعاً، لأنهم يتزوّجون بنظرائهم في العائلة، يتزوجون بأبناء أعمامهم الذين ترشّحهم العائلة للزواج».

- «آه» صاحت سكارلت، وقد وخزها الألم مجدداً، بعد أن أعاد إليها جيرالد بكلامه حقيقة النبأ المفزعة، ونظر جيرالد إلى رأسها المنكس، مبدِّلاً موضع قدميه بارتباك: «أتبكين؟» سألها وهو يتلمّس ذقنها بسذاجة، محاولاً أن يرفع وجهها بينما جعدت معالم الشفقة وجهه.

- «لا» أجابت بعنف، مندفعة إلى الخلف.

- «إنك تكذبين، وأنا فخور بذلك، إني سعيد بشعورك بالكبرياء يا آنستي وأرجو أن أشعر بكبريائك غداً في حفلة الباربكيو لأني لا أريد أن تهذي المقاطعة وتهزأ بك لتولّه قلبك برجل لم يهتم بك اهتماماً يتعدى حدود الصداقة».

«لقد اهتم بي» قالت سكارلت في نفسها، وقد غمر الأسى قلبها. «آه... لقد اهتم بي كثيراً، إني واثقة بذلك، وفي استطاعتي التصريح به، ولو قدِّر لي فرصة أطول، لاستطعتُ أن أجعله يقول - آه، فقط لو أنّ آل ويلكس لا يشعرون بواجب الزواج ببنات أعمامهم».

- «سندخل للعشاء الآن» قال ذلك وتأبّط ذراعها، ثم أردف: «وليبقَ هذا الموضوع سراً بيننا، فسوف لا أزعج أمك، ولن تفعلي أنت ذلك أيضاً، أمخطئ يا ابنتي؟».

فمخطت سكارلت بمنديلها الممزّق، واتجها إلى الممشى المظلم يتأبّط كلّ منهما ذراع الآخر ويتبعهما الحصان ببطء، وقُبيل أن يبلغا البيت، همّت سكارلت باستئناف الحديث، لولا أن لمحت والدتها في ظلال الشرفة المعتمة، مرتدية قبّعتها، متلفّعة بشالها، لابسة قفازيها،

وقد وقفت مامي خلفها بوجه متجهّم تجهّم السحاب الراعد، تحمل في يدها الحقيبة الجلدية السوداء، حيث تضع إيلين دائماً الأدوية والضمادات التي تستعملها في معالجة العبيد.

كانت شفتا مامي كبيرتين متدليتين، وكان في استطاعتها إذا ما غضبت أن تمطّ شفتها السفلى إلى الضعفين، كما كان حالها الآن، الأمر الذي أشعَرَ سكارلت بأن مامي تتلظى غيظاً من شيء لا يروقها.

- «سيد أوهارا».

نادت إيلين عندما رأت القادمين يسيران في الممشى.

لقد كانت تنتمي إلى جيل من الناس يتمسك بالرسميات بعد سبع عشرة سنة من الزواج، وبعد إنجاب ستة أطفال.

- «سيد أوهارا، هناك مرض في بيت آلا سلاتري، لقد وضعت إيمي طفلاً، وهو الان يُنازع سكرات الموت، فينبغي تعميده. . إني ذاهبة إلى هناك برفقة مامي لأرى ما يمكن عمله».

كان صوتها يرتفع بلهجة استفهام، كما لو أنها تنتظر موافقة جيرالد على خطتها، مجرد عمل شكلي، ولكنه عزيز على قلب جيرالد، الذي أجاب مزهواً:

- «باسم الإله، لماذا يضطرك هؤلاء السقاط من البيض للذهاب إليهم في وقت عشائك، وفي الوقت الذي أحتاج إليك لأحدّثك حديث الحرب كما يروونه في أتلانتا؟ اذهبي. . . يا سيدة أوهارا، فلن ترتاحي على وسادتك هذه الليلة، ما دامت هناك مشكلة في الخارج، ولم تهرعي للمساعدة فيها».

- «بلى سترتاح على وسادتها لأنها تسرع في الليل، تمرِّض الزنوج والفقراء الساقطين من البيض، الذين يستطيعون الاعتناء بأنفسهم».

علَّقت مامي متذمِّرة بلهجة رتيبة، وهي تنزل السلم، قاصدة العربة التي كانت تنتظر في الطريق الجانبي:

- «خذي مكاني على طاولة العشاء يا عزيزتي» خاطبت إيلين سكارلت مربّتة على وجنتها برفق، بيدها المقفزة. أمّا سكارلت، على الرغم من دموعها المكبوتة، فقد انتشعت من جرّاء لفتة أمها الرقيقة، ذات السحر الفعال أبداً، كما انتعشت من جرّاء الرائحة العطرية الخفيفة، المنبعثة من فستانها الحريري ذي الحفيف. والحقيقة أن سكارلت كانت تحسّ أن شيئاً في إيلين يأخذ بالأنفاس، شيئاً عجيباً يعيش معها في البيت، يُرهبها ويُسحرها ويُسكن من روعها.

وساعد جيرالد زوجته في الصعود إلى العربة، آمراً السائق بالانتباه أثناء سيره، إلا أنّ توبي، الذي ساق خيل جيرالد طوال عشرين سنة، مطَّ شفتيه في سخط صامت لأنه أُمِرَ كيف ينبغي أن يتصرف بمهنته الخاصة، وأخيراً انطلق بعربته، ومامي إلى جانبه، وكلّ منهما صورة حقّة للأفريقي الساخط المتجهّم الوجه.

- «إنْ أنا لم أساعد كثيراً آل سلاتري الساقطين هؤلاء، بحيث يضطرون لدفع نقودهما في نواح أخرى»، قال جيرالد وقد استشاط غيظاً، «عندئذٍ سيوافقون بيعي فدادينهم القليلة التي يرثى لحالها من الأغوار التي تكسوها المستنقعات، وبذلك تتخلّص المقاطعة منهم بطريقة حسنة». ثم أشرق وجهه بوحي من إحدى فكاهاته المعتادة: «هلمّي يا ابنتي، دعينا نذهب ونُخبر بورك أننا بدلاً من شراء دلسي بِعناه إلى جون ويلكس».

ودفع بعنان حصانه إلى زنجي صغير كان يقف قريباً منه، وصعد السلّم، وقد نسي مأساة قلب سكارلت واتجه بكلّ تفكيره نحو إثارة عبده بورك، بينما تبعته سكارلت صاعدة السلم ببطء، وقد يبست قدماها. وفي هذه الأثناء، خطر لها أنّ زواجها بآشلي لن يكون

بالنتيجة، أكثر شذوذاً من زواج والدها بإيلين روبيلارد أوهارا. وتعجّبت كعادتها دائماً، كيف استطاع والدها الجهوري الصوت، الضعيف الإحساس، أن يتزوج بامرأة كأمها، إذ لم يكن هناك زوجان أكثر تفاوتاً منهما، في النَّسب والتربية وطرق التفكير.

3

كانت إيلين أوهارا في الثانية والثلاثين من عمرها، وطبقاً لمفاهيم زمانها، اعتُبرت متوسطة السن. امرأة ولدت ستة أطفال، ودفنت ثلاثة منهم، طويلة القامة، يعلو رأسها نحو شبر عن قامة زوجها الصغير العصبي، إلا أن مشيتها الرشيقة المتزنة بأطواق تنورتها المتهادية، تخفف من غلواء ارتفاعها. وكان عنقها البارز من طوق قميصها المخملي الأسود نحيلاً مستديراً بلون القشدة، يميل قليلاً إلى الخلف بصورة تامة، من جرّاء ثقل شعرها الكثّ، الملتفّ داخل شبكة في مؤخر رأسها. أما عيناها السوداوان المائلتان، والمظللتان بأهداب قاتمة كالحبر، وكذلك شعرها الأسود، فقد ورثتهما عن أمها الفرنسية التي كان والداها قد التجآ إلى جزيرة هايتي زمن الثورة عام 1791. وعن أبيها، الجندي في جيش نابليون، ورثت أنفها المستقيم الطويل وفكّها السفلي المربع، الذي حسّن شكله وجنتيها اللطيفتي الانحناء. ومن الحياة فقط، اكتسب وجهها مسحة الكبرياء، الخالية من العجرفة، كما اكتسبت هي نزعتها الخيرة، وطبيعتها المتشائمة، وجفاف روحها.

وكان يمكن لإيلين أن تكون امرأة جميلة أخّاذة، لو أن في عينيها أي بريق، أو أن في ابتسامتها شيئاً من الدفء الفعال، أو أن في صوتها الذي كان يطرق مسامع أفراد عائلتها وخدمها بنغمة رقيقة، بعض الابتداء والطبع إذ كانت تتكلم بصوت ناعم متداخل غامض كأبناء

جورجيا الساحلية، سلسة النطق بالحروف الصوتية، رحيمة بالحروف الصحيحة تشوب كلامها بقية فاضحة من لهجتها الفرنسية. وخلاصة القول أنه كان صوتاً لم يرتفع يوماً ما بأمر موجّه إلى خادم، أو بتأنيب لطفل، ولكنه كان يطاع على الفور، في تارا، حيث كان صوت زوجها الزائر يُهمَل برفق.

إن سكارلت لتذكر بقدر ما تسعفها الذاكرة، أن والدتها كانت أبداً على ذات الوتيرة، ذات صوت رقيق عذب، سواء في المدح أو اللوم، وذات أسلوب حازم نافذ، على الرغم من الطوارئ اليومية التي ترتكبها حاشية جيرالد الصاخبة. ثم ذات نفس مطمئنة أبداً، وقامة منتصبة لم تحنها حتى عند وفاة أولادها الثلاثة.

وهي لا تذكر البتّة أنها شاهدت أمها يوماً وظهرها يلمس ظهر الكرسي الذي تجلس عليه، أو شاهدتها مرة تجلس وليس في يدها عمل صغير من أعمال الإبرة، اللهم إلا في أوقات الطعام أو أثناء زيارتها للمرضى، أو إجرائها لحسابات المزرعة، فهي تتسلى بالتطريز البديع، بحضور الرفقة، وإن كانت وحيدة انهمكت يداها بقمصان جيرالد ذات الكشاكش، أو بفساتين بناتها، أو بأثواب العبيد، ولم يسع سكارلت أن تتصور يدي أمها دون الكشتبان الذهبي، أو أن ترى شخصها الخفيف دون مرافقة الزنجية الصغيرة، التي كانت وظيفتها الوحيدة في الحياة جمع بقايا الخيطان، وحمل حقيبة الخياطة المصنوعة من خشب الورد، من غرفة إلى أخرى، إثر إيلين، المتجولة في أنحاء البيت، تشرف على الطبخ، والتنظيف، وصناعة الثياب الكثيرة لأفراد المزرعة.

وكذلك لم تشاهد سكارلت أمها يوماً تخرج عن رباطة جأشها، أو تخلُّ بمواعيدها الشخصية قيد أنملة، أياً كانت الساعة، في الليل أو في النهار.

وكانت إيلين إذا ما أرادت اللبس لحضور حفلة رقص أو لاستقبال

ضيوف، أو حتى للذهاب إلى جونسبورو لمشاهدة المحاكمات، تحتاج غالباً إلى ساعتين من الزمن، وخادمتين، ومامي لإبرازها بالصورة التي ترضيها، رغم أن زينتها السريعة في الحالات الطارئة كانت مثاراً للدهشة.

ولمّا كانت غرفة سكارلت تقع في الجانب الآخر من القاعة التي تقع فيها غرفة أمها، فقد اعتادت منذ طفولتها سماع وقع الأقدام السوداء العارية، المهرولة فوق الأرض الخشبية الصلبة، في ساعات السحر، كما اعتادت تمييز القرعات المستعجلة على باب غرفة أمها، وأصوات العبيد المرتجفة المكتومة تهمس بحوادث المرض والولادة والموت في مساكن العبيد المؤلفة من صف طويل من الغرف المبيضة. وكما يفعل الأطفال، كانت سكارلت تزحف نحو الباب مراراً تسترق النظر من أصغر شقوقه، لترى والدتها تبرز من الغرفة المظلمة، حيث شخير والدها ما زال منتظماً لا يعكره طارئ، إلى الضوء المرتعش الصادر من قنديل مسند إلى الحائط، وقد تأبطت حقيبة الأدوية، وسرحت شعرها أنيقاً كما يجب، ولم تنسَ أن تعقد جميع أزرار قميصها.

وكم أحست بالراحة النفسية وهي تسمع همسات أمها الحازمة، الرحيمة، وهي تخطو على رؤوس أصابعها، خارجة من القاعة: «صه، لا ترفعوا أصواتكم هكذا. ستوقظون السيد أوهارا. فهم ليسوا مرضى جداً، بحيث يخشى عليهم من الموت».

أجل، كان من بواعث الطمأنينة في نفس سكارلت أن تعود زاحفة إلى سريرها، وقد علمت بخروج أمها في الليل، وبأن كل شيء يجري على ما يرام.

وفي الصباح، وبعد جلسات تستغرق الليل بطوله، بسبب ولادة أو موت، عندما لا تجد أياً من الطبيبين فونتين، العجوز، أو الشاب، ليحضر ويساعدها، حيث يكونان قد خرجا لتلبية نداء عاجل، في مثل

هذا الصباح، تتصدر إيلين مائدة الفطور كعادتها، وليس ما يشير إلى كونها مرهقة منهوكة، إلا استدارة عينيها السوداوين، بينما صوتها وتصرفاتها لا تفضحان من الإجهاد شيئاً.

كانت تكمن في ثنايا تلك الرقة الجليلة، طاقة فولاذية، ترهب جميع أفراد البيت، من جيرالد إلى البنات، رغم أن الأول كان يفضّل الموت على الإقرار بذلك.

وفي بعض الأحيان، عندما كانت سكارلت تخطو على رؤوس أصابعها أثناء الليل لتقبّل وجنة أمها المديد، كانت تتأمل الفم بشفته العليا الغضّة كثيراً، القصيرة جداً، الفم الذي تؤذيه أدنى إساءة، تتأمله متسائلة عما إذا كان قد استدار مرة في قهقهة من قهقهات الفتيات الماجنة، أو همس بالأسرار خلال الليالي الطويلة، في آذان الصديقات الحميمات... ولكن لا... إن ذلك لا يمكن أن يحدث، فهي كانت أبداً كما هي الآن: صرح من القوة، وينبوع من الحكمة... والإنسان الوحيد الذي يعرف الجواب لكل شيء.

إلا أن سكارلت لم تصب، فلسنوات خلت، كانت إيلين روبيلارد، ابنة سافانا، تقهقه دونما سبب واضح، كما تفعل جميع الفتيات في سن الخامسة عشرة في تلك المدينة الساحلية الساحرة، كما كانت تتهامس وصديقاتها خلال الليالي الطويلة، يتبادلن الثقة، وتخبرهن كل أسرارها إلا واحداً... حدث ذلك في السنة التي دخل فيها جيرالد حياتها، وهو الذي يكبرها بثمان وعشرين سنة، والسنة التي خرج فيها الصبا من قلبها بخروج ابن عمها، الفتى الأسود العينين، فيليب روبيلارد. إذ لم يكد فيليب ذو النظرات النفاذة والأساليب الآبدة، يغادر سافانا إلى الأبد، حتى انتزع معه إشراقة الشباب من قلب إيلين، مخلفاً للإيرلندي المقوس الساقين الذي تزوجها، مجرد قشرة لطيفة.

ولكن ذلك كان كافياً بالنسبة إلى جيرالد المأخوذ بروعة هذا الحظ الذي لا يمكن تصديقه، حظ الزواج بها. وإذا كانت هي فقدت شيئاً، فإنه لم يفتقده أبداً.

لقد كان رجلاً أريباً ثاقب الفكر، أدرك أن زواجه بها لا يقل غرابة عن أعجوبة حقيقية، إذ كيف يتسنى لرجل إيرلندي بلا مال ولا نسب يدعمانه (إذ كان جيرالد عصامياً من صنع نفسه) أن ينجح في الزواج بابنة إحدى أعرق وأغنى عائلات أهل الساحل.

* * *

وكان جيرالد قد رحل من إيرلندا إلى أميركا في الحادية والعشرين من عمره، رحل على عجل، كالكثير من الإيرلنديين، قبله وبعده، من الذين هم أرفع وأدنى مرتبة منه، رحل وليس في حوزته إلا الثياب التي عليه وشلنين اثنين زيادة عن أجرة الرحلة، وثمناً لرأسه الذي كان يشعر أنه أعظم مما يستحقه الإثم الذي ارتكبه. لقد اضطر إلى مغادرة وطنه، ومغادرته فجأة، عندما اهتمت الحكومة البريطانية اهتماماً شديداً بمقتل وكيل إيجار أورنجي لملّاك إنجليزي غائب، رغم أنه لم يكن في هذا الجزء من الجحيم أحد من الأورانجيين[1] يساوي في نظر الحكومة الإنجليزية، أو في نظر الشيطان نفسه، مبلغ مئة جنيه... ورغم أن جيرالد كان حقاً قد دعا وكيل الإيجار المذكور بلقب نغل أورانجي، إلا أن في نظره لم يكن ليعطي الرجل حق إهانته بترنيم السطور الأولى من نشيد «مياه بوين»[2].

---

(1) نسبة إلى القائد النورماندي وليم أورانج الذي انتصر على البريطانيين في معركة هيستنجز - (المترجمان).

(2) نهر في شرق إيرلندا هزم وليم أورانج جيمس الثاني بالقرب منه سنة 1690 - (المترجمان).

كان قد مضى على معركة بوين أكثر من مئة سنة، ولكنها بالنسبة إلى آل أوهارا وجيرانهم كانت كأنها حدثت في الأمس القريب، يوم ضاعت آمالهم وأحلامهم، كما ضاعت أموالهم وأراضيهم في ذات المعركة التي أطاحت بأمير من آل ستيوارت، خائف فار، ترك وليم أورانج وجنوده البغيضين ذوي الشارات البرتقالية اللون، ليقضوا على حلفاء آل ستيورات من الإيرلنديين.

لهذ السبب، ولأسباب أخرى، لم تعتبر عائلة جيرالد حصيلة خصامه القاتلة أمراً خطيراً جداً، إلا من حيث اقترانها بعواقب خطيرة، فقد كان آل أوهارا، منذ سنين، على علاقة سيئة بالشرطة الإنجليزية، من جرّاء نشاطهم المريب ضد الحكومة، ولم يكن جيرالد أول أفراد العائلة الذي حمل قدمه بيده، وغادر إيرلندا بين السحر والشروق، بل سبقه أخواه الكبيران، جيمس وآندرو، اللذان يكاد لا يذكر عنهما شيئاً سوى أنهما كانا شابين مطبقي الشفاه أبداً، يروحان ويجيئان في الليل بمهمات غامضة وفي أوقات غير اعتيادية، أو يختفيان طوال أسابيع، دفعة واحدة، الأمر الذي كان يزيد من قلق أمهما المضني.

وقبل سنوات، رحلا إلى أميركا إثر اكتشاف ترسانة بنادق مطمورة تحت حظيرة خنازيرهم. وهما الآن تاجران ناجحان في سافانا، المدينة التي «لا يعلم إلا اللّه العزيز وحده أين تقع» على حد قول والدتهما، كلما ذكرت أكبر أولادها من الذكور، وبالطبع أرسلت العائلة جيرالد إلى مقر أخويه الكبيرين ذينك.

غادر البيت وقبلة أمه السريعة على وجنتيه، ودعاؤها الكاثوليكي الحار يرن في أذنيه إلى جانب نصيحة والده الوداعية: «تذكَّر من أنت، وحاول أن تستفيد من كل إنسان»، بينما وقف إخوته الخمسة الطوال يودّعونه بابتسامات الإعجاب والإشفاق، فقد كان بمثابة الطفل منهم والمخلوق الصغير بين أفراد عائلة صلبة العود، ضخمة البنية. فإخوته

الخمسة وأبوه، كانت تتراوح أطوالهم بين ستة أقدام وستة ونيف، بعروض مناسبة، بينما قنع هو وقد بلغ الحادية والعشرين بخمسة أقدام وأربع بوصات ونصف، مدركاً أن ذلك هو ما سمحت به حكمة الإله، فقد كان مثال الرجال الذي لا ينقص نفسه بأسف لا جدوى منه من جرّاء نقص في قامته، ولا يعتبر أبداً أن مثل هذا النقص سيعوقه عن تحصيل ما يريد. والحقيقة أن بلوغه ما هو عليه، يعود نوعاً ما إلى صغر حجمه المكتنز، لأنه كان قد تعلم منذ الطفولة أن على الناس صغار الجثة أن يكونوا أشداء شجعان، ليتمكنوا من العيش بين الكبار. ولقد كان جيرالد شديداً شجاعاً.

أما إخوته الطوال، فكانوا بشعي المنظر، وافري الصمت، تلتهب نفوسهم بحقد مكبوت، ذكريات أمجاد عائلتهم الضائعة إلى الأبد والتي كثيراً ما ينفّسون عن ضياعها بمزاح مرير. ولو كان جيرالد صلب العود، لحذا حذو غيره من آل أوهارا فالتحق بتكتم وهدوء بالثائرين على الحكومة، ولكنه كان جهوري الصوت عنيداً، كما يحلو لأمه أن تصفه، ذا شعر أكثر نعومة من مزاجه، سريعاً في استعمال قبضاته، في طبعه ميل فاضح إلى الشجار يلحظه الإنسان العادي، وإذا ما تبختر بين شبان آل أوهارا الطوال، بدا كالفرخ المزهو بين ديوك ضخام، ولذلك كانوا يحبونه، ويتكلفون التحرش به لسماع زئيره، ثم ينهالون عليه بقبضاتهم الكبيرة بقدر كافٍ لردع أخ صغير وإبقائه ضمن حدود الأدب. . .

وإذا كانت الذخيرة الثقافية التي اصطحبها جيرالد معه إلى أميركا ضئيلة، فهو في الواقع لم يدرِ بوجودها، ولم يكن ليبالي لو أنبئ عنها. لقد علمته أمه القراءة والكتابة بخط واضح، وبرع بالحساب، وهنا انقطعت معرفته النابعة من الكتب، فكانت خبرته باللاتينية تنحصر فيما يردده المصلّون، وبالتاريخ فيما يتعلق بأخطاء إيرلندا المتعددة، ولم

يكن يعرف من الشعر إلا نتاج مور، ومن الموسيقى أناشيد إيرلندا المتوارثة منذ القِدم. وعلى الرغم من أنه كان يحترم أولئك الذين فاقوه في تحصيل العلم احتراماً حقيقياً، إلا أنه لم يكن يحس بنقصه في هذا المضمار، وأي حاجة له بمثل هذه الأمور في بلاد جديدة جمع فيها أعظم فلاحي إيرلندا جهلاً ثروات طائلة، بلاد تتطلب أن تكون رجلاً قوياً، لا يهاب العمل، وحسب.

وكذلك أخواه جيمس وآندرو، اللذان استخدماه في مخزنهما في سافانا، لم يندما هما أيضاً على قلة ثقافته، إذ إن خطه الواضح، وأرقامه الدقيقة، ومقدرته الفائقة في المساومة، كل هذه أكسبته احترامهما، في حين أنه لو كان ذا معرفة بالأدب، أو خبرة رفيعة بالموسيقى، لما ظفر بغير ازدرائهما.

وقد كانت أميركا في السنين الأولى من ذلك القرن رحيمة بالإيرلنديين، فجيمس وآندرو مثلاً اللذان بدآ عملهما بجرّ عربات البضائع المغطاة، من سافانا إلى مدن جورجيا الداخلية، قد أفلحا في محلهما التجاري، وأفلح جيرالد معهما.

وأحب جيرالد الجنوب، وسرعان ما اعتبر نفسه من الجنوبيين. لقد كانت تحيط بالجنوب والجنوبيين بالنسبة إليه هالة غامضة لم يستطع إدراك كنهها في بادئ الأمر ولكنه يوم فهم الجنوب، تبنى جميع أفكار أهله وعاداتهم، بكل طيبة قلبه الفطرية، من لعب البوكر، إلى مباريات الخيل، إلى المناقشات السياسية الحامية، إلى قانون المبارزة، إلى حقوق الولايات، إلى العداء الجهنمي لكل شمالي، إلى العبودية وملوك القطن، إلى احتقار البيض المعدمين، وإلى الغلو في ملاطفة النساء، حتى إنه تعلم كيف يمضغ التبغ، وبالطبع لم يكن يحتاج إلى تعويد رأسه على الويسكي، إذ كان قد ولد برأس معد لذلك.

ولكن جيرالد ظل جيرالد، لقد تغيرت عادات عيشه وأفكاره،

ولكنه لم يكن ليغير أخلاقه، ولو كان في مقدوره ذلك. أعجب بالأناقة المتكلفة لمزارعي الأرز والقطن الكبار، الذين كانوا يفدون إلى سافانا من ممالكهم (مزارعهم) المليئة بالأشجار التي تكثر عليها الطحالب، ممتطين خيولهم الأصيلة، متبوعين بعربات زوجاتهم اللواتي لا يقللن ظرفاً وأناقة عنهم، ثم بعربات عبيدهم. ولم يكن لجيرالد أن يبلغ ظرفهم، إذ رغم طربه بسماع أصواتهم المتكلفة المتباطئة، كان لسانه قد تعوَّد اللهجة الإنجليزية المحرَّفة السريعة، وكذلك أحب جيرالد تسامحهم العرضي في الأمور الهامة، كالمغامرة بثروة، من عبد أو مزرعة، مثلاً، بمجرد قلب ورقة لعب، وتسجيل خسائرهم بمزاج طيب لامبالٍ، وبضجيج لا يعلو ما ينجم عند توزيع البنسات على صغار العبيد.

إلا أن جيرالد، وقد ذاق مرارة الفقر، لم يفلح أبداً في تعويد نفسه على تقبل الخسارة بروح طيبة، أو بتسامح مشكور.

إنهم شعب بهيج، هؤلاء الجورجيون الساحليون، بأصواتهم الناعمة وتهيجهم السريع، وتناقضاتهم المثيرة ولذلك أحبهم، رغم امتيازه عليهم بنشاط وحيوية دائمة، وهو القادم حديثاً من بلاد تحل فيها رياح ثلجية رطبة، ولا تزرع مستنقعاتها الكثيرة الضباب بذور حمى، فلا غرابة أن تميزه هذه الصفات عن هؤلاء الناس الخاملين، الذين يعيشون في مناخ شبه استوائي، وفي مستنقعات تنضح بجراثيم الملاريا.

وقرر أن يأخذ عنهم ما يجده نافعاً، متجنباً سيئاتهم، وسرعان ما وجد أن البوكر هي أنفع عادات الجنوبيين، البوكر وثبات الرأس في شرب الويسكي. والواقع أن نيله لاثنتن من أحسن مقتنياته الثلاثة، وهما عبده بورك ومزرعته تارا، يعود الفضل فيه إلى استعداده الفطري للعب الورق، وللشراب الأصهب. أما قنيته الثالثة الثمينة، زوجته، فكان يعزو نيلها إلى رحمة اللّه الخفية.

وقد كسب جيرالد عبده بورك، الأسود البراق، المكرم، والمدرب على كل فنون التأنق في تصفيف الشعر وتربيته، نتيجة لعبة بوكر، استمرت طوال الليل، مع مزارع من جزيرة سانت سيمونس عادلت جرأته في البلف جرأة جيرالد، وتخلف رأسه عن رأسه في الصمود لويسكي مدينة نيو أورليانز. ورغم أن سيد بورك السابق تقدم لاسترجاعه بضعفي ثمنه، إلا أن جيرالد رفض ذلك بإصرار، لأن اقتناء أول عبد، ولا سيما أن بورك هو أمهر عبد في الساحل، كان بمثابة الخطوة الأولى نحو تحقيق أمنية قلبه في أن يصبح صاحب عبيد وسيد أرض.

كان رأيه قد قرّ على أن لا يقضي جميع أيامه في المساومة، كما فعل أخواه جيمس وآندرو، أو أن يقضي جميع لياليه في مراجعة أعمدة الأرقام الحسابية، في ضوء الشموع. لقد أدرك بثاقب فكره، أن مكانة التجار الاجتماعية الوضيعة، الأمر الذي لم يدركه شقيقاه، فخامرته الرغبة في أن يصبح مزارعاً، ودغدغ قلبه الأمل في أن يرى فدادين الأرض الشاسعة تمتد خضراء أمام ناظريه.

وهكذا، بتصميم فذ لا يلين، تحفزه نهمة إيرلندي، كان يعمل أجيراً في أرض هي في الأصل لأهله، يجنون خيراتها، ويصطادون حيواناتها. بهذا التصميم، وبدافع هذ النهم، عزم على أن يرى بيته الخاص، ومزرعته الخاصة، وخيوله الخاصة، وعبيده الخاصين، أن يراهم حقائق ملموسة، هنا في هذه البلاد الجديدة، آمناً من الخطرين التوأمين، الجاثمين على صدر البلاد التي غادرها - وهما الضرائب التي تلتهم المحاصيل والدواجن، وخطر مصادرة الأرض المفاجئ الدائم.

ولكن جيرالد، اكتشف، مع مرِّ الأيام، أن امتلاك الرغبة شيء، وتحقيقها شيء آخر، وأن جورجيا الساحلية يتمركز فيها جماعة من الأرستقراطيين المتولّين مركزاً مكيناً، بحيث لن يقدَّر له حتى مجردِ الأمل في بلوغ المكانة التي يتوخاها.

على أن يد القدر اشتركت مع يد البوكر، لتقدما له المزرعة، التي سماها فيما بعد «تارا»، كما اشتركتا في الوقت نفسه بنقله من الساحل إلى مرتفعات جورجيا الشمالية.

حدث ذلك في إحدى ليالي الربيع الحارة، في إحدى صالات سافانا، حيث أرهف جيرالد أذنيه أثناء حديث عرضي مع أحد الغرباء الجالسين بقربه، وكان هذا في الأصل من سكان سافانا، عاد إليها حديثاً، بعد غياب اثنتي عشرة سنة قضاها في المناطق الداخلية، وربح أثناءها في يانصيب الأراضي الذي أجرته الدولة لتقسيم المساحات الشاسعة في جورجيا الوسطى، تلك المساحات التي تنازل عنها الهنود الحمر في السنة التي سبقت مجيء جيرالد إلى أميركا. وبالطبع قصد الغريب أرضه الجديدة، وأنشأ فيها مزرعة، ولكن حدث قبل مجيئه أن التهمت النيران بيته، فأحس بالملل من ذلك المكان البغيض وشعر أنه سيغدو أسعد الناس إذا ما تخلص منه.

وفي الحال بدأ جيرالد، الذي لم تبارح رأسه فكرة امتلاك مزرعة، يمهد للموضوع وزاد اهتمامه بالأمر عندما علم من الغريب أن الأقسام الشمالية من الولاية قد احتشدت بالقادمين الجدد من كارولاينا وفرجينيا.

وكان جيرالد قد عاش في سافانا مدة كافية ليفهم وجهة نظر أهل الساحل، القائلة إن جميع مناطق الولاية الأخرى أحراج كثيفة نائية عن العمران، يتربص في كل دغل من أدغالها هندي أحمر، كما كان قد زار، أثناء قيامه بإنجاز بعض الأعمال للأخوين أوهارا، مدينة أوغستا، التي تقع على نهر سافانا بعيدة مئة ميل عن مصبه، فهو يعرف تلك المناطق مستقرة الأحوال، تماماً كما هو الأمر في الساحل، ولكنه استنتج من حديث الرجل الغريب أن مزرعته تقع على بعد أكثر من

مئتين وخمسين ميلاً إلى الداخل من سافانا، باتجاه الشمال الغربي، أي على مسافة أميال قليلة جنوب نهر تشاتا هوتشي، ذلك النهر الذي يعلم جيرالد أن الأراضي الواقعة شمالية بحوزة الشيروكيين[1]، ولذلك دهش كثيراً عندما سمع الغريب يسخر من الآراء المتعلقة بمضايقات الهنود الحمر، ويروي كيف أن مدناً زاهرة في سبيل النمو، وأن مزارع تزدهر في تلك الأراضي الجديدة.

وانقضت ساعة، وبدأ الحديث يفقد حرارته، وعندئذ وبقصد ماكر يتنافى ومسحة البراءة الطاغية في عينيه الزرقاوين البراقتين، اقترح جيرالد البدء باللعب، فنفذ الاقتراح، ومضت ساعات من الليل، ودارت كؤوس الشراب على أفواه اللاعبين، إلى أن استسلم جميع المتبارين، ولم يبقَ في الحلبة سوى جيرالد والغريب، الذي قامر بكل أوراقه على المزرعة، وتبعه جيرالد مقامراً بكل أوراقه أيضاً على حقيبة نقوده، التي لو اتفق أن كانت تخص شركة الأخوين أوهارا، لما تورّع جيرالد عن الاعتراف بذلك أمام الكاهن في الصباح التالي ولكنه كان يعرف ما يريد، وهو إذا أراد شيئاً بلغه من أقرب طريق، بالإضافة إلى أنه كان يؤمن بحسن حظه كثيراً، حتى إنه، وبعد أربعة أشواط تعادل من اللعب، لم يحر أبداً في كيف يمكن تدبير النقود لو أن يداً أمهر من يده نزلت إلى حلبة الصراع.

- «إن ما نلته ليس بالصفقة الرابحة، وإنني لمسرور لعدم اضطراري إلى دفع ضرائب أكثر على تلك الأرض» قال صاحب «الفُل أس» متنهداً، وهو يطلب حبراً وقلماً، ثم أردف: «وقد احترق البيت الكبير منذ سنة، واكتست الحقول بالشجيرات وفواسق بذور الصنوبر... ولكم ماذا يهمني؟ إنها خاصتك!».

---

(1) قبيلة هندية موطنها الأول جنوب جبال الليغاني - (المترجمان).

أما جيرالد، ففي ذلك المساء ذاته، وبينما كان بورك يساعده في الصعود إلى سريره، التفت إليه قائلاً برصانة:

«إياك أن تمزج بين ورق اللعب وشرب الويسكي، ما لم تكن مفطوماً على الويسكي الإيرلندية المقطرة».

فما كان من العبد، الذي راح يحاول أن يعبّر عن إعجابه بسيده الجديد، بعبارة ركيكة، إلا أن أجاب الجواب المطلوب، بمزيج من لغة الغيشي، ولغة مقاطعة ميث، جواباً قد يستعصي على كل إنسان، عدا هذين الاثنين فقط.

كان نهر فلنت، ذو المياه الموحلة، المنساب صامتاً بين جدارين من أشجار الصنوبر والسنديان المائي مكسوين بأوراق الدوالي المتشابكة، ينثني بمجراه حول أرض جيرالد الجديدة انثناءة الذراع، فيعانقها من جانبيها. وهنالك، فوق الربوة الصغيرة حيثما يقوم البيت، وقف جيرالد يتأمل الحاجز الأخضر المرتفع، ويرى فيه شاهداً مرئياً بهيجاً على ملكيته، كأنه قد ابتناه هو نفسه، لتحديد أراضيه. وقف فوق أسس البناء الحجري، المسودة من جراء الحريق، ينظر إلى الممر الواسع ذي الأشجار على كلا جانبيه، المؤدي إلى الطريق العامة، ثم راح يشكر ربه خاشعاً. ولكن فرحته العميقة كانت أقوى من أن تجعله يتم صلاة الشكر: فإن هذين الصفين من الأشجار القاتمة المنظر ملكه هو، وملكه أيضاً ذلك المرج الأخضر المهجور ذو الأعشاب النامية إلى حد الخصور تحت أشجار الماغنوليا الفتية ذات الأزهار النجمية البيضاء، وتلك الحقول غير المحروثة، المرصعة بشجيرات الصنوبر وبغيرها من النباتات، والممتدة بأراضيها الحمراء التربة، بعيداً في كل الجهات الأربع، كانت ملكه أيضاً - لقد أضحت جميعها في قبضته، بفضل رأسع الإيرلندي الذي لا تقوى عليه الخمرة، وبفضل شجاعته في المجازفة بكل شيء معتمداً على يد ماهرة بلعب الورق.

وأغمض جيرالد عينيه، وفي سكون الأرض المهملة أحس أنه قد بلغ بيته، فهنا تحت قدميه سينتصب بناء سكن من الآجر المبيض، وعلى جانبي الطريق سيقوم حاجزان جديدان من القضبان الحديدية، يحظران أبقاراً سمينة وخيولاً أصيلة، أما تلك الأرض الحمراء، التي تنحدر فوق سفح التل حتى تبلغ أراضي أسفل النهر الغنية فستشع بيضاء كريش البط في الشمس، بيضاء بزهرات القطن، القطن الوفير بفدادينه الكثيرة. . . إن أمجاد آل أوهارا ستخلق هنا مجدداً.

واستطاع جيرالد بنقوده التي قامر بها، وبما تمكن من اقتراضه من أخويه غير المتحمسين لمشروعه، وبمبلغ يُعتدّ به ناله عن طريق رهن الأرض، استطاع شراء أول دفعة من عمال الحقول، وجاء بهم إلى تارا، ليحيا حياة الوحدة كعازب، في بيت ناظر العمال، ذي الغرف الأربع، حتى يأتي ذلك الوقت الذي ينبغي أن ترتفع فيه جدران تارا البيضاء.

ثم اندفع ينظف الأرض، ويزرع القطن، ويقترض من أخويه جيمس وآندرو نقوداً أكثر ليبتاع عبيداً جدداً. وكان آل أوهارا كأفراد عشيرة قبلية، يتعاونون في السراء والضراء، لا حباً ببعضهم بل لأن السنين المُرة علّمتهم أن استمرار بقاء عائلةٍ ما يفرض أن تظهر جبهة موحدة الصفوف أمام الناس. ولذلك، أمدّه أخواه بالنقود، ولكنهما استوفياها في السنين التي تلت، مضافة إليها فائدتها. وأخذت المزرعة تتسع شيئاً فشيئاً، كلما أضاف إليها جيرالد فدادين جديدة كان يشتريها من الأراضي المجاورة، ولم يمضِ وقت حتى ارتفع البيت الأبيض، وانقلب الحلم إلى حقيقة ملموسة.

لقد تم بناء البيت بسواعد العمال الزنوج، بناء ضخم منسدح كالثلج فوق أرضٍ مرتفعة مشرفة على منعطف المراعي الخضراء الممتدة انحداراً حتى ضفة النهر. وكم سر منظره جيرالد، فهو رغم

جِدّته، كان يبدو كبناء تليد، فأشجار السنديان القديمة التي شاهدت مسير الهنود من تحت أغصانها، أخذت تحضن البيت بجذوعها الضخمة، بينما تشابكت فروعها فوق سطحه كبرج ذي ظلال كثيفة، والمرجة الخضراء، التي كانت أصلاً منبتاً للأعشاب الضارة، ازدهرت الآن بنبات البرسيم المتكاتف وبحشائش برمودا[1] بفضل حرص جيرالد على المحافظة عليه.

وهكذا، ابتداء من ممر أشجار الأرز إلى صف الغرف البيضاء الخاصة بالعبيد، كان المرء يشعر بمظاهر الصلابة والثبات والمواظبة، المتجلية في تارا، وكان جيرالد كلما دار فوق فرسه خبباً حول منعطف الطريق، ولمح قمة بنائه تبرز من خلال الأغصان الخضراء، ينتفخ قلبه خيلاء كما لو أنه يلمحها للمرة الأولى.

لقد أبدعها جميعها، الإنسان ذو القامة القصيرة، العنيد الرأس، المتفاخر، جيرالد.

أما فيما يتعلق بجيرانه في المقاطعة، فقد كانت تربطه بهم جميعاً علاقات ممتازة، عدا آل ماكنتوش الذين تتصل أراضيهم بأراضيه في الجهة الغربية، وكذلك آل سلاتري الذين تمتد أفدنتهم الثلاثة البائسة شرق أراضيه، بمحاذاة المستنقعات المنخفضة، بين النهر ومزرعة جون ويلكس.

كان آل ماكنتوش من أصل اسكتلندي - إيرلندي أورانجي، وكان أصلهم هذا كافياً للعنهم إلى الأبد في نظر جيرالد، حتى ولو كانوا حائزين على جميع صفات القديسين بين الكاثوليك. ومع أنهم في الحقيقة أقاموا في جورجيا زهاء سبعين سنة، بعد أن عاش جيل منهم

---

(1) مجموعة جزر بريطانية تقع في المحيط الأطلسي شرق كارولاينا الجنوبية - (المترجمان).

في كارولاينا، إلا أن أول من رست قدماه على الشاطئ الأميركي من عائلتهم كان ألستر، وهذا كان كافياً بالنسبة إلى جيرالد.

وكذلك كان آل ماكنتوش قليلي الكلام، عنيدين، لا يتزوجون إلا بأقربائهم في كارولاينا ولهذا لم يكن جيرالد ينفرد في بغضهم، إذ كان جميع سكان المقاطعة يتصفون بحسن الجوار وطيب المعشر، دونما تسامح مع من تعوزه هاتان الصفتان بالذات، ولم تزد شائعات عطفهم على تحرير العبيد شيئاً من حب الناس لهم، فأنغوس العجوز لم يعتق في حياته عبداً واحداً، بل إنه اقترف مخالفة اجتماعية لا يمكن غفرانها، وهي بيع بعض زنوجه لتجار العبيد، المارّين في طريقهم إلى حقول القصب في لويزيانا، ومع ذلك فقد استمر انتشار تلك الشائعات.

«إنه من دعاة تحرير العبيد بلا شك»، قال جيرالد يوماً، يخاطب جون ويلكس، «ولكن بالنسبة إلى الأورانجي، عندما يصطدم المبدأ بالحرص الاسكتلندي المفطور عليه يصبح سيّئ المفعول، رديء الغاية».

أما آل سلاتري، فكانوا ذوي شأن آخر، إذ لكونهم من البيض الفقراء لم يمنحوا حتى الاحترام المشوب بالحقد، الذي انتزعته شخصية أنغوس ماكنتوش، المستقلة المتصلبة من العائلات المجاورة، كما أن شخصية سلاتري العجوز، الذي أصر على التمسك بفدادينه القليلة، رغم إغراءات البيع المتكررة من قبل جيرالد وجون ويلكس، لم تكن على شيء من الدهاء والجلد. كانت زوجته جعدة الشعر، عليلة، عديمة المنظر، ذات نسل من أطفال مكتئبين شبيهين بالأرانب، يتزايدون كل سنة، وكذلك لم يكن توم سلاتري يملك رقيقاً، الأمر الذي اضطره وولديه الكبيرين إلى الكدح جاهدين في فدادين قطنهم القليلة، بينما كانت تعتني الأم وبقية أولادها بما يفترض أن يكون حديقة خضار.

على أن محصول القطن كان يأتي، لسبب ما، خاسراً، وكذلك الحديقة التي نظراً إلى استمرار حبل السيدة سلاتري قلما أمّنت من يمسك رمق فراخها الكثيرين، ولذلك ألف الجيران رؤية توم سلاتري يتسكع أمام أبواب جيرانه يطلب بذور القطن للزراعة، أو شرحة من لحم الخنزير لإسكات جوعه.

كان سلاتري يكره الجيران بكل قواه الضئيلة، إذ كان يتحسس ازدراءهم له مغلفاً بالمجاملة، وكانت كراهيته تنصبّ خصوصاً على زنوج الأغنياء المتعنتين، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أرفع مقاماً من فقراء البيض، فكانت سخريتهم الصريحة به، تلسعه لسعاً، كما كان وضعهم الحياتي الأدعى إلى الاطمئنان يثير حسده، وإذا ما قورن وضعهم بوضعه البائس، وجد أنهم جيدو الغذاء، جيدو الكساء، يعتنى بهم أثناء المرض وفي عهد الشيخوخة، كما وجد أنهم فخورون بشهرة أسيادهم، فخورون أكثر بتبعيتهم لأناس من طبقة ممتازة، بينما كان هو محتقراً من الجميع.

ورغم أن سلاتري العجوز كان يمكنه بيع مزرعته بثلاثة أضعاف ثمنها، لأي من مزارعي المقاطعة، الذين كانوا يعتبرون ما سيدفعون من مال في سبيل هذه الغاية مبلغاً حرياً بتخليص مجتمعهم من هذه الشوكة، إلا أنه كان قانعاً بالبقاء في أرضه، وبتدبير معيشته البائسة معتمداً على بالة قطن واحدة سنوياً، وعلى كرم جيرانه.

وهكذا كان جيرالد على مودة وشيء من الإخلاص مع جميع الآخرين في المقاطعة، وكان كل أفراد آل ويلكس، وآل كالفرت، وآل تارلتون وآل فونتين، يبتسم إذا ما شاهد شخصه الصغير فوق الحصان الضخم الأبيض، يسير خبباً فوق مدخل بيته، يبتسم ويأمر بإحضار كؤوس طويلة صب فيها ويسكي بوربون على ملعقة سكر صغيرة وغصن نعناع مسحوق.

والواقع أن جيرالد كان أهلاً لأن يُحَبّ، وقد علم الجيران في الوقت المناسب ما اكتشفه الأطفال والزنوج والكلاب بمجرد النظرة الأولى من أن وراء صوته الحاد الأجش، وسلوكه الشرس، يكمن قلب رحيم، وأذن عطوف سريعة الاستجابة، وفم يروي كل ما في جعبته.

كان وصوله إلى أحد البيوت يحدث دائماً وسط مجموعة من الكلاب المسعورة النابحة وأخرى من الأطفال السود الصغار، يصيحون وهم مندفعون لملاقاته، متنافسون على نيل امتياز القبض على عنان فرسه، ينثنون متجهّمي الوجوه، من جرّاء إهاناته الناجمة عن نية حسنة. أما الأطفال البيض، فإنهم يصيحون تلهفاً للجلوس على ركبته، حيث يأخذ في هزّهم فوقها، في الوقت الذي يبدأ بسرد فضائح السياسيين من أهل الشمال، لذويهم الكبار. ثم يأتي دور بنات أصدقائه وأبنائهم الشبان، فالأوليات كن يثقن به، يصارحنه بكل مشاكل قلوبهن، بينما الآخرون الذين كانوا يخشون الإقرار بديونهم في لعب القمار، وفي الرهان أمام والديهم، فكانوا يجدون فيه الصديق وقت الضيق.

«إذن لقد استدنت هذا المبلغ لمدة شهر. . . أيها الوغد الصغير». هكذا كان يصيح بهم، عندما يرجونه العون، ثم يردف: «ولكن، قل لي بربك، لِمَ لم تطلب العون مني قبل الآن؟».

كانوا قد ألفوا تماماً أسلوب حديثه الخشن، بحيث لم يعودوا يشعرون بأية إهانة، وكل ما كان يفعله أحدهم في ذلك الموقف أن يتجهم خجلاً ويجيب:

- «إني أمقت إزعاجك يا سيدي، ولكن والدي. . .».

- «والدك رجل طيب، إياك أن تنكر ذلك. . . ولكنه صارم، على كل حال. . . خذ هذا المبلغ ولا تدعنا نسمع المزيد عن هذا الأمر».

أما سيدات المزارعين، فكنّ آخر مَن يجاريه. والحقيقة أن جيرالد

لم يبلغ تماماً مرتبة «الرجل الفاشل» إلا في ذلك المساء، عندما أخبرت السيدة ويلكس زوجها، وهي سيدة عظيمة بموهبة صمت نادرة، كما عرفها جيرالد، أخبرته وقد لمحت حصان جيرالد يدبّ فوق الممشى، «أن لسانه فظ ولكنه رجل فاضل».

ولم يكن هو يعلم أنه استغرق عشر سنين كي يبلغ هذه المرتبة، إذ لم يدر في خلده يوماً أن جيرانه كانوا، في أول عهدهم به، يحدجونه بنظر شزر، وهو الذي لم يخامر تفكيره أدنى شك بأنه انتسب إلى مرتبتهم منذ وطئت قدماه تارا لأول مرة.

وعندما بلغ الثالثة والأربعين من العمر، وكان على ما هو عليه من قِصر القامة، ونضارة الوجه، بحيث بدا كسيد صياد انتزع من صورة للطرد، عنَّ له أن تارا، مع كونها عزيزة لديه، وأن أهل المقاطعة بقلوبهم المفتوحة له، وبيوتهم المرحبة به، لم يُتِمّوا سعادته، فهو بحاجة إلى زوجة.

إن تارا تستصرخ طالبة سيدة، فالطباخة السمينة، الزنجية العاملة في الزريبة أصلاً والمرفّعة بسبب الضرورة إلى وظيفة الطباخ، لم يحدث أن قدّمت الطعام في أوقاته المعيّنة، كما أن المسؤولة عن ترتيب الغرف، أجيرة الحقل قبلاً، كانت تدع الغبار يتراكم فوق الأثاث، ولم تؤمّن مرة فوطاً كتانية نظيفة عند الحاجة، ما جعل قدوم الضيوف مجالاً لكثير من الإثارة والارتباك. أما بورك، الزنجي الوحيد المدرب على شؤون البيت في تارا، فكان يشرف على الخدم الآخرين، ولكنه كذلك أصبح خاملاً مهملاً، بعد أن مضى عليه عدّة سنوات، وهو ينعم بالحظ وبأسلوب الحياة السعيدة التي يعيشها جيرالد، على أنه كخادم خاص، كان يحافظ على غرفة نوم سيده مرتبة نظيفة، وكسفرجي، كان يقوم بتنظيم الموائد المفخمة، وفيما عدا ذلك كان يدع الأمور تسير في مجاريها دونما اكتراث منه.

وكان عبيد تارا قد اكتشفوا بغريزتهم الأفريقية التي لا تخطئ أن جيرالد ينبح عالياً دون أن يعضّ أبداً، فاستغلوا نقيصته تلك بصفاقة. كان التهديد ببيعهم لتجار الجنوب وبجَلْدهم جَلْداً مريعاً، يملأ الجو من حولهم، ولكن لم يحدث أن بيع زنجي واحد من تارا، ولم يُجلَد إلا سائس الخيل فقط، بسبب إهماله سياسة فرس جيرالد المدللة، بعد عودتها من رحلة صيد استغرقت النهار بطوله.

ولاحظ جيرالد بعينيه الزرقاوين الحادتين كيف أن بيوت جيرانه تدار كما ينبغي، وكيف أن الزوجات ذوات الشعر الناعم والتنانير الفضفاضة يَسُسن الخدم بكل سهولة ويُسر، غير عالم بعمل هؤلاء النسوة المستمر من الفجر إلى منتصف الليل لارتباطهن بالإشراف على الطبخ والتمريض والعناية بالأطفال والخياطة والغسيل والكي، إذ لم يكن يرى غير ما كان يتأثر به من نتائج ظاهرة.

وفي صباح أحد الأيام، وبينما كان يرتدي ملابسه ليركب إلى المدينة لحضور المحكمة، وضحت أمامه الحاجة الملحّة إلى الزوجة، إذ إن بورك أحضر له قميصه المفضل ذا الكشاكش، فإذا به يجد أن الخادمة المسؤولة عن البيت قد أعدّته بغباوة فاضحة، بحيث لا يصلح أن يلبسه أحد سوى خادمه الخاص.

- «سيد جيرالد»، خاطبه بورك طاوياً القميص بشكل مُرضٍ، بينما هو يتّقد غيظاً، «إن ما نحتاج إليه هو الزوجة، الزوجة التي تملك عدداً وفيراً من زنوج البيت».

ولكن جيرالد أنّبه على هذه الوقاحة، رغم أنه كان يدرك أنه على صواب، فالحقيقة أنه يحتاج إلى زوجة، وإلى أولاد، وإذا لم يسارع إلى نيلهم، فاته القطار. على أنه لم يكن يريد الزواج بأية امرأة، كما فعل السيد كالفرت، الذي تزوج مربية أطفاله الشمالية، بعد وفاة أمهم، بل كان يريد زوجة سيدة، وسيدة أصيلة تنعم بمحاسن كثيرة، وتتمتع

بمظاهر عديدة، كالسيدة ويلكس، وتملك المقدرة على إدارة تارا، تماماً كما تدير السيدة ويلكس ممتلكاتها.

إلا أن صعوبتين اعترضتا طريق زواجه من عائلات المقاطعة، الأولى: ندرة الفتيات اللواتي في سن الزواج، والثانية هي أكثر خطورة: كونه يعتبر مستوطناً جديداً، رغم انقضاء قرابة العشر سنين على إقامته هنا، كما يعتبر أجنبياً لا يعرف أحد شيئاً عن عائلته، ولن ترضى أية أسرة بتزويج ابنتها برجل مجهول النسب، مع أن مجتمع جورجيا الشمالية ليس شديد التحفظ كمجتمع أرستقراطيّي الساحل.

وعرف جيرالد أنه على الرغم من المودة الخالصة التي تربطه برجال المقاطعة الذين يصطاد معهم، ويتعاطى الشراب، ويتحدث بالسياسة، إلا أن من الصعوبة أن يجد بينهم من يزوجه بابنته، وكان يربأ بنفسه أن يثرثر حول موائد العشاء بأن هذا الأب أو ذاك رفض بأسف أن يسمح لجيرالد أوهارا بالتودد إلى ابنته.

على أن معرفته لهذه الحقيقة لم تشعره بأنه أحط مرتبة من جيرانه، فلم يكن في الوجود ما يمكن أن يُشعره أنه أقل شأناً من أي إنسان في أية ناحية من النواحي. وإنما كانت القضية مجرد عادة غريبة متّبعة في المقاطعة، أن تُزوج البنات بأبناء العائلات التي عاشت في الجنوب مدة تزيد على اثنتين وعشرين سنة، والتي تملك أرضاً وعبيداً ولا تعكف إلا على نقائص عصرها.

- «ارزم... إننا ذاهبان إلى سافانا»، أخبر جيرالد بورك، «وإذا ما تلكأت ولو مرة فسأبيعك، فإن التلكؤ ليس من عادتي».

كان من الممكن أن يقدم كلاً من جيمس وآندرو بعض النصائح في موضوع الزواج هذا، كما كان من الممكن وجود فتيات لدى أصدقائهما القدامى، يجد فيهن ضالّته ويجدن فيه زوجاً صالحاً. ولكن

جيمس وآندرو بعد أن استمعا إلى قصته بأناة لم يشجعاه إلا قليلاً، إذ لم يكن لهما في سافانا أقارب ليسعيا في طلب مؤازرتهم، لأنهما قد تزوجا قبيل مجيئهما إلى أميركا. أما بنات أصدقائهما القدامى، فكنّ قد تزوجن منذ زمن، وهنّ الآن يربّين أطفالهن الصغار.

- «لستَ غنياً ولا تنتمي إلى عائلة عظيمة الشأن»، خاطبه جيمس.

- «لقد جمعتُ مالاً وفي استطاعتي تكوين عائلة عظيمة، ولن أتزوج أية امرأة».

- «إنك تحلّق عالياً»، علق آندرو بلهجة جافة.

ومع ذلك بذل الشقيقان جهدهم في سبيله، إذ كانا رجلين مسنّين، ذوي مكانة بارزة في سافانا، لهما كثير من الأصدقاء، فاستمرا طوال شهر كامل ينتقلان بجيرالد من منزل إلى آخر، يحضرون موائد العشاء ويشاركون في حفلات الرقص وفي النزهات.

- «توجد واحدة فقط، استرعت انتباهي»، قال جيرالد في النهاية، «وأظنها لم تكن ولدت، يوم رسوتُ على هذا الشاطئ».

- «ومن تكون هذه التي استرعت انتباهك؟».

- «الآنسة إيلين روبيلارد»، أجاب محاولاً التكلم بلهجته المعتادة: إذ إن عيني إيلين روبيلارد السوداوين المائلتين قليلاً لم تخلبا انتباهه فحسب، بل أكثر من ذلك. فعلى الرغم من أسلوبها الفاتر، الداعي إلى الحيرة، والغريب جداً بالنسبة إلى فتاة في الخامسة عشرة، فقد سلبت لبَّه، وفوق ذلك، كانت تلازمها نظرة بائسة اخترقت فؤاده وجعلته أكثر رقّة معها، منه مع أي إنسان قابله في العالم.

- «ولكنك كبير جداً بحيث تكون بمنزلة والدها!».

- «إنني في مقتبل العمر!»، صاح جيرالد ملتاعاً، ما جعل جيمس يخاطبه بهدوء:

- «جيري[1] ليس في سافانا فتاة زواجك بها أقل احتمالاً من زواجك بهذه، فأبوها من آل روبيلارد، وهؤلاء الفرنسيون متعجرفون ككوكب فينوس، وأمها - تغمّد اللّه روحها بواسع رحمته - كانت سيدة عظيمة».

- «لا يهمني ذلك»، قال جيرالد محتداً، «فضلاً عن أن أمها ميتة، روبيلارد العجوز يحبني».

- «كرجل نعم، ولكن كصهر لا».

- «الفتاة لن تقبل بك بوجه من الوجوه»، اعترض آندرو مردفاً: «فمنذ سنة وهي تحب ذلك الظبي البري، ابن عمها فيليب روبيلارد رغم إلحاح عائلتها عليها ليل نهار لتتخلى عنه».

- «ولكنه ذهب إلى لويزيانا منذ شهر»، قال جيرالد.

- «وكيف تعرف ذلك؟».

- «أعرف»، أجاب جيرالد، غير مكترث أن يصرح بأن بورك هو الذي زوده بهذا الخبر القيّم، وأن فيليب قد رحل بناء على رغبة عائلته الملحّة، «وأنا لا أعتقد أنها متيَّمة به، بحيث لن تنساه، إن فتاة في الخامسة عشرة هي أصغر من أن تعرف الكثير عن الحب».

- «إنهم يفضلون تزويجها بابن عمها المغامر ذاك، على أن يزوجوكها»، وعلى ذلك كان ذهول كل من جيمس وآندرو يعادل ذهول أي إنسان آخر، غداة انتشار النبأ القائل إن ابنة بيير روبيلارد ستتزوج الإيرلندي الصغير القامة القادم من شمال المقاطعة، وضجَّ الناس داخل بيوت سافانا يتساءلون عن فيليب روبيلارد الذي رحل إلى الغرب، ولكن تساؤلهم لم يسفر عن شيء، وبقي السؤال الحائر: لماذا ينبغي لأجمل صبايا روبيلارد أن تتزوج رجلاً قصير القامة، جهوري الصوت،

---

(1) تصغير جيرالد - (المترجمان).

أحمر الوجه، لا يكاد علوّه يبلغ أذنيها، بقي سراً بالنسبة إلى الجميع، حتى جيرالد نفسه لا يعرف بالضبط كيف تم الأمر بكلّيته، وكل ما يعرفه أن أعجوبة حدثت، وأنه للمرة الوحيدة في حياته أحس بتواضع تام، عندما وضعت إيلين الشديدة البياض والكثيرة الهدوء يداً خفيفة على ذراعه، قائلة: «أريد الزواج بك يا سيد أوهارا».

أما آل روبيلارد المصعوقون، فقد عرفوا سر ذلك جزئياً، عدا إيلين ومربّيتها، الوحيدتين اللتين عرفتا كل شيء، عرفتا قصة الليلة التي بقيت فيها الفتاة حتى الفجر تبكي وتتنهد كطفلة كسيرة الفؤاد، ثم نهضت في الصباح وقد حزمت أمرها واستقرت على رأي.

ففي عشية تلك الليلة، سلّمت مامي سيدتها الشابة، ونذير الشؤم يخالجها، رزمة صغيرة من نيو أورليانز، معنونة بخط غريب، رزمة حَوت صورة صغيرة لإيلين، ألقت بها على الأرض صارخة، ورسائل أربع بخط يدها، كانت قد بعثت بها إلى فيليب روبيلارد، ثم خطاباً مختصراً كتبه كاهن نيو أورليانزي يعلن فيه موت ابن عمها فيليب إثر مشاجرة في أحد البارات.

- «لقد أبعدوه، والدي وبولين ويولالاي، لقد أبعدوه، إني أمقتهم... إني أمقتهم جميعاً، لا أريد رؤيتهم أبداً، أريد أن أرحل بعيداً... أريد أن أرحل بعيداً حيث لا أراهم ثانية، أو أرى هذه المدينة، أو أي إنسان يذكّرني بـ... به».

وعندما أوشكت الليلة على نهايتها، احتجّت مامي، التي كانت نفسها تبكي فوق رأس سيدتها الأسود: «ولكن يا حلوتي، لن تستطيعي فعل ذلك!».

- «سأفعله، إنه رجل شفوق، سأفعله أو أذهب إلى دير شارلستون».

كان التهديد بالدير هو الذي انتزع موافقة بيير روبيلارد الحائر

الكسير القلب، إذ كان برسبتارياً وفياً، رغم أن عائلته كاثوليكية، ولذلك كان تفكير ابنته في الاعتزال في الدير أسوأ لديه من زواجها بجيرالد أوهارا، فضلاً عن أن الرجل لا يعنيه سوى فقدان النسب الرفيع.

وهكذا غادرت إيلين - التي لم تعد إيلين روبيلارد بعد اليوم - سافانا للمرة الأخيرة برفقة زوج في متوسط العمر، ومامي، وعشرين من زنوج الخدمة البيتية، متجهين إلى تارا.

وفي السنة التالية، رُزقا طفلة سمّياها كيتي سكارلت، تيمّناً باسم والدة جيرالد، الذي خاب أمله في أن يُرزَق صبياً، ولكنه مع هذا طفح قلبه سروراً بطفلته الصغيرة السوداء الشعر، حتى إنه قدم كؤوس الجعة لكل عبد في تارا، وحتى انقلب هو مخموراً يعربد والسعادة تغمره.

ولم يتح لأحد أن يعرف ما إذا ندمت إيلين على قرارها الفجائي بالزواج به، حتى ولا لجيرالد نفسه الذي كان يشعر بفخر عظيم كلما نظر إليها، إذ كانت قد ألقت بسافانا وبذكرياتها خلف ظهرها يوم غادرت تلك المدينة الوادعة الساحلية، معتبرة جورجيا الشمالية موطنها الطبيعي، منذ اللحظة التي وطئتها قدماها.

وقد خلّفت إيلين وراءها، يوم فارقت بيت والدها إلى غير عودة، منزلاً ذا بنيان جميل متناسق كجسد المرأة أو كسفينة بارزة مشرعة، منزلاً زهري اللون شاحباً كلون الجص مبنياً على طراز منازل المستعمرات الفرنسية، مرتفعاً عن الأرض بطريقة رائعة، يصعد إليه بسلالم لولبية، يحدها درابزين من الحديد المطاوع، الليّن كشريط معدني، منزلاً معتماً غنياً، مؤنساً رغم عزلته.

ليس هذا فحسب، بل إن إيلين فارقت علاوة على هذا السكن الأنيق، الحضارة الكاملة التي كانت تحيط به، لتجد نفسها في عالم غريب مختلف، كما لو أنها عبرت قارة إليه. فجورجيا الشمالية كانت

عبارة عن إقليم وعر، يهيمن عليه أناس أشداء، وحينما تطلعت كانت ترى فوق الهضبة القائمة عند أسفل جبال بلوردج تلالاً حمراء متماوجة نتأت من سفوحها صخور الغرانيت، المدفون في جوفها، كما انتصبت عليها أشجار الصنوبر النحيلة السامقة، تشمخ بقاماتها القائمة في كل مكان. وتراءى لها أن كل شيء هنا بري، لم تألفه عيناها المتفتحان على إقليم الساحل، والمتعودتان رؤية جمال الأدغال الهادئ في جزائر البحر المزدهية بطحالبها الرمادية اللون وأعشابها الخضراء المتشابكة، ورؤية بطاح الشاطئ البيضاء، الحارة من جرّاء الشمس نصف الاستوائية، ومشاهد الأرض الرملية المديدة المستوية التي ترصّعها أشجار النخيل.

وكان المناخ في جورجيا الشمالية شديد البرد في الشتاء كشدة حرّه في الصيف، أما السكان فقد لمست فيهم نشاطاً وحيوية لم تألفهما. لقد كانوا لطافاً كراماً، طيبي المعشر، تفيض نفوسهم بفطرتهم الطيبة، ولكنهم في الوقت ذاته أشداء، مكتملو الرجولة، سريعو الغضب، وبينما يفتخر أهل الساحل الذين فارقتهم بأنهم يقومون بجميع أعمالهم، حتى المبارزة وأخذ الثأر، دونما أي اكتراث، كان أهل جورجيا الشمالية يخالفونهم بروح الجد والصرامة التي تميز أعمالهم، وجملة القول أن الحياة في الساحل قد نضجت، بينما لا تزال هنا فتيّة جديدة دافقة.

في سافانا كان جميع الناس الذين عرفتهم كأنهم خُلقوا من طينة واحدة، متشابهين كثيراً في آرائهم وتقاليدهم، بينما الناس هنا على مشارب متعددة، ذلك لأنهم قدِموا من مناطق مختلفة، من أجزاء أخرى من جورجيا، من كارولاينا وفرجينيا، من أوروبا والشمال، البعض منهم أناس ناشئون يبحثون عن الثروة كجيرالد، والبعض أفراد عائلات قديمة، وجدوا الحياة غير محتملة في مواطنهم الأولى، فسعوا وراء

مأمن في أرض بعيدة، كما فعلت إيلين روبيلارد، والكثيرون قدِموا دون سبب دافع سوى أن الدم الدافق في عروق آبائهم الجَوَّابين ما زال يتدفق في عروقهم أيضاً.

هؤلاء الناس المنجذبون من أماكن كثيرة مختلفة، ذوو النفسيات المتعددة المتباينة، أضفوا على مجموع حياة المقاطعة مظهراً فوضوياً، عديم الأصول، جديداً بالنسبة إلى إيلين، مظهراً لم تكيِّف نفسها على مثله قبلاً، فبينما كانت تعرف بحدس غريزي كيف يمكن أن يتصرف أهل الساحل في أية مناسبة، لم يكن بمقدور أحد التكهن بما يحتمل أن يفعله الجورجيون الشماليون.

والذي كان ينعش كل مناحي الحياة في الإقليم ازدهار الثورة المطرد الذي امتد فيما بعد في الجنوب، كان العالم أجمع في ظمأ إلى القطن، فراحت أرض المقاطعة البكر المخصبة تنتجه بغزارة، حتى غدا القطن بمثابة خفقة القلب في الإقليم، تمثل عمليتا بذره وقطافه حركتي تمدد الأرض الحمراء وانقباضها، كانت الثورة تنبع من الأثلام المنحنية، فتنبع الكبرياء أيضاً، الكبرياء القائمة على أساس من الشجيرات الخضراء، ومن فدادين الأرض ذات كنافج القطن البيضاء، وإذا كان القطن قد أغناهم خلال جيل واحد، فإلى أي درجة من الغنى سيصيرون خلال الجيل الثاني!

هذه الثقة بالمستقبل أضفت على الحياة طعمها اللذيذ، وأشعلت روح الحماس في أبنائها الذين راحوا يستمتعون بدنياهم بحرارة مخلصة لم تستطع إيلين إدراك سرها. كانوا يملكون الكثير من المال والعبيد، ما أفسح أمامهم مجالاً للهو، وهم الذين يحبون أن يلهوا، فلم يكن أبداً ليعوقهم شاغل عن شواء السمك أو عن رحلة الصيد أو سباق الخيل، وما أندر ما انقضى أسبوع دون حفلات رقص وباربكيو.

ولم تشأ إيلين أو تستطع الاندماج بهم تماماً - وقد خلَّفت في

سافانا جزءاً كبيراً جداً من نفسها - ولكنها احترمتهم جميعاً، وتعلمت، مع مرّ الأيام، كيف تقدّر فيهم الصراحة والاستقامة، وهم الذين لا يحبسون ألسنتهم إلا قليلاً، ولا يقدرون الرجل إلا حق قدره.

ثم أصبحت إيلين أحب الجيران في المقاطعة، فقد كانت سيدة مدبرة لطيفة، وأماً صالحة وزوجة مخلصة، بعد أن كرست قلبها الكسير، وتضحيتها الذاتية، اللذين كانت ستهبهما إلى الكنيسة، لخدمة ابنتها وأفراد بيتها، وللرجل الذي أخرجها من سافانا وذكرياتها دون أن يسألها سؤالاً البتّة.

وعندما بلغت سكارلت السنة الأولى من عمرها، وكانت بحسب رأي مامي أحسن صحة وأوفر نشاطاً مما يجدر بأية طفلة أن تكون، ولدت إيلين ابنتها الثانية، سوزان إيلينون، التي كانت تدعى اختصاراً سولين دائماً، ثم ولدت كارين في الوقت المناسب، وقد سجلت في سجل العائلة باسم كارولين إيرين، وتبعها ثلاثة صبيان، تخطّفهم الموت قبل أن يتمكن واحدهم من تعلم المشي، أطفال صغار ثلاثة، يرقدون الآن في المقبرة، تحت أشجار الأرز الملتفة على مسافة مئة ياردة من المنزل، وقد وُضع فوق كل منهم حجر يحمل الاسم «جيرالد أوهارا الصغير».

منذ اليوم الأول لوصول إيلين إلى تارا، تغير شكل المكان، فمع أنها كانت في السابعة عشرة من العمر وحسب، إلا أنها كانت معدَّة لتحمّل مسؤوليات سيدة مزرعة، فقد كان يُفترض في الآنسات قبل الزواج أن يكنّ قبل كل شيء جميلات لطيفات أنيقات عذبات، أما بعد الزواج، فكان يُنتظر منهن إدارة أفراد بيت يعدون مئة شخص أو أكثر، من السود والبيض، ولذلك كنَّ يدرّبن على هذا الأساس.

وكانت إيلين قد تلقّت هذا الإعداد للزواج، الذي تتلقاه كل آنسة راقية النشأة، كما قدمت لها مامي أيضاً، التي كان في وسعها دفع

أخمل الزنوج إلى النشاط والعمل، وسرعان ما أوجدت النظام والهيبة والنظافة بين رعية جيرالد، كما أضفت على تارا جمالاً لم تكن تنعم به من قبل.

كان المنزل قد بُني دون أي تخطيط هندسي، وأُتبع بغرف إضافية زيدت حيث ومتى بدا ذلك مناسباً، ولكن بعناية إيلين، كسب البناء رونقاً عوّض عن نقص هندسته. وكان ممشى أشجار الأرز الموصِل من الطريق الرئيس إلى المنزل - ذلك الممشى من أشجار الأرز، الذي لا يمكن أن يكمل بيت أي مزارع في جورجيا من دونه - ذا ظلال معتمة منعشة الهواء، تزداد بهجة وتلألؤاً لمواجهتها خضرة الأشجار الأخرى، تماماً كما كانت أزهار الوستريا[1] المتدلية فوق الشرفات تظهر متلألئة أمام الآجر المبيض، وهي تتصل بشجيرات الآس الحريرية الملمس، الوردية اللون، والنامية قرب الباب، وبشجيرات الماغنوليا ذات الأزهار البيضاء، المنتشرة في الساحة، حاجبة شيئاً من معالم البيت المنفرة.

أما المرجة الخضراء فتكتسي في فصلي الربيع والصيف، بلون أعشاب البرسيم والبرمودا الزمردي، الزمردي الصارخ الذي يشكل إغراء لا يُقاوَم لأسراب الديوك الرومية والإوز الأبيض، التي كان يقتصر حقها في التجول على الفسحات الكائنة خلف البيت، والتي كانت كبارها تتسلل باستمرار، متقدمة زميلاتها، نحو الساحة الأمامية، تغويها خضرة العشب وفتنة براعم الياسمين المتفتحة وأحواض زهرة الزينة. ولذلك، ودرءاً لغاراتها، وُضع حارس زنجي صغير فوق الشرفة الأمامية، مسلح بمنشفة ممزقة. وكان هذا الزنجي الصغير الجالس على

---

(1) نوع من الزهور البنفسجية اللون، سميت نسبة إلى مكتشفها العالم الأميركي وستر سنة 1818 - (المترجمان).

الدرجات، يؤلف جزءاً من هيكل تارا، ولكنه جزء تعس، إذ كان محظوراً عليه قذف الطيور بالعصا، ولم يكن في وسعه إلا أن يهشّها بمنشفته ويزجرها.

وقد عهدت إيلين لعشرات من الزنوج الصغار بهذه المهمة التي كانت أول عمل مسؤول يناط بصبيان الزنوج في تارا، حيث يبقى الواحد فيه إلى أن يتجاوز العاشرة من عمره فيُرسَل إلى دار العجوز، إسكافي المزرعة، ليتعلم صنعته، أو إلى آموس النجار، صانع العربات، أو إلى كوفي راعي البغال، أو فيليب راعي الأبقار، فإذا لم يُظهر استعداداً لأي من هذه الحِرَف، غدا عامل حقل، ففقد على رأي الزنوج حقه في ادعاء أي ميزة اجتماعية.

لم تكن حياة إيلين سهلة، ولا سعيدة، على أنها لم تتوقع سهولتها. وإذا لم تكن سعيدة، فذلك هو نصيب المرأة منها، فالحياة كانت دنيا الرجل، ولقد رضيت بها إيلين على هذا الأساس. الرجل يملك العقارات والمرأة تديرها، الرجل يكسب سمعة حسن الإدارة والمرأة تطوي مهارته، الرجل يزعق كالثور إذا ما وخزته شظية خشبية والمرأة تكتم أنّات المخاض لئلا تزعجه، الرجال خشان الحديث، سكارى في الغالب، والنساء يتجاهلن لذعات اللسان ويضعن السكارى في الأسرّة دون كلمة قاسية. الرجال دائماً وقحون صريحون، والنساء أبداً رحيمات، سماح، فاضلات.

لقد ترعرعت على تقاليد عظيمات السيدات، فعلمت كيف تحمل العبء، وتحتفظ في الوقت ذاته بأنوثتها وسحرها، وقد صممت على أن تجعل من بناتها الثلاث سيدات عظيمات أيضاً، فنجحت مع فتاتيها الصغيرتين، لأن سولين المتلهفة أبداً لتكون جذابة، أعارت أمها أذناً مصغية مطيعة، ولأن كارين كانت خجولة سهلة القياد. أما سكارلت مدللة جيرالد، فقد وجدت الطريق شاقة لبلوغ مرتبة السيدة المحترمة،

وما كان يثير حفيظة مامي عليها أن كان زملاؤها المفضلون في اللعب أطفال زنوج المزرعة وصبيان الجيران، عوضاً عن شقيقتيها الرزينتين وبنات ويلكس المؤدبات، وأن كان في مقدورها أن تضاهي هؤلاء في تسلق الأشجار وقذف الحجارة، لقد أقلق مامي جداً أن تظهر ابنة إيلين مثل هذه الصفات، وكثيراً ما ناشدتها أن تتصرف كسيدة شذية السمعة، ولكن إيلين نظرت إلى الموضوع بتسامح أكثر وتفكير أبعد، إذ كانت تعرف أن من زملاء لعب الطفولة ينشأ عشاق المستقبل، وأن أولى واجبات الفتاة الحصول على الزوج، وقد أسرّت في نفسها أن سكارلت مجرد فتاة تفيض بالحيوية وما زال أمامها متسع من الوقت لتعليمها الفنون والميزات التي تجعلها جذابة في عيون الرجال، الهدف الذي أوقفت لها جهودها بالاشتراك مع مامي، حتى إذا ما شبّت سكارلت غدت تلميذة مبرزة في هذا الأمر مع أنها لم تتعلم إلا القليل من الأمور الأخرى، فعلى الرغم من توالي المربيات عليها ومن قضائها سنتين في أكاديمية الإناث في فايتفيل المجاورة، فإن ثقافتها ظلت بدائية، ولكنها كان تبزّ جميع فتيات المقاطعة برقصها الرشيق، كما كانت تعرف كيف تبتسم بحيث ترقّص غمازتيها وكيف تمشي كالحمام على رؤوس أصابعها كيما تتهادى تنورتها المطوقة الفضفاضة بشكل خلاب، وكيف ترفع بصرها في وجه الرجل ثم تغضّه محركة حاجبيها حركة سريعة، لتبدو كأن عاطفة رقيقة قد هزّتها، والذي أتقنته أكثر هو كيف تخفي عن الرجال نظراتها الذكية الحادة خلف وجه عذب أنيس كوجه طفل.

وقد جهدت إيلين، بإرشاداتها الناعمة الصوت، ومامي، بانتقاداتها المستمرة، في أن تشرباها الصفات التي تؤهلها لأن تكون زوجة رغيبة عن صدق وجدارة.

- «ينبغي أن تكوني أكثر لطفاً وأكثر رزانة يا عزيزتي»، قالت إيلين

لابنتها يوماً، ثم أردفت: «عليك أن لا تقطاعي الرجال وهم يتحدثون، حتى لو اعتقدت أن معرفتك أوسع في الموضوع من معرفتهم، فالرجال الفاضلون لا يحبون الفتاة الجريئة».

بينما خاطبتها مامي باكتئاب:

- «الآنسات الصغيرات اللواتي يعبسن ويلوين ذقونهن ويقلن: «أريد ولا أريد» لا يظفرن غالباً بأزواج، ينبغي على الآنسات الصغيرات أن يغضضن الطرف ويقلن: «حسناً يا سيدي عليَّ أن أفعل ذلك»، و«الأمر كما تقول تماماً يا سيدي»».

وهكذا اعتقدت الاثنتان أنهما علّمتاها كل ما ينبغي للسيدة الفاضلة معرفته، ولكن الواقع أنها تعلمت فقط مظاهر الكياسة الخارجية، دون أن تتعلم أو ترى داعياً لاكتساب جمال النفس الداخلي، الذي ينبغي لتلك المظاهر الخارجية أن تنبع منه. فالمظاهر في نظرها كافية، لأنها هي التي تُكسبها محبة الناس، وهذا كل ما تريده، ولقد أصاب جيرالد بعض الحقيقة عندما كان يفخر بأنها حسناء مقاطعات خمس، إذ إنها تلقَّت عروضاً للزواج من جميع شبان الجوار تقريباً، ومن شبان كثيرين من مناطق بعيدة كأتلانتا وسافانا.

وما إن بلغت السادسة عشرة حتى بدت، بفضل مامي وإيلين، فتاة عذبة، فاتنة، منطلقة رغم كونها في الحقيقة عنيدة مغرورة حرون، تمتاز بأحاسيس والدها السريعة الانفعال، وبمظهر رقيق جداً من طبيعة أمها الصبور غير الأنانية. مظهر لم تتحقق إيلين من رقته، تماماً، لأن سكارلت كانت تظهر دائماً بأحسن ما عندها أمام والدتها متحفظة من زلات لسانها كابحة جماح طبعها، بادية بأعذب طبيعة ممكنة، خشية أن تعيِّرها أمها وتضطرها إلى البكاء من جرّاء نظرات التأنيب الحادة.

أما مامي، فلم تغتر بهذا المظهر الرقيق، وكانت دائماً متيقظة لكل نزوة تخرج سكارلت من نطاق هذا الطلاء المموِّه، فعيناها كانتا أشد

فراسة من عيني إيلين، حتى إن سكارلت لا تذكر أنها استطاعت طوال حياتها أن تخدع مامي لفترة طويلة.

والحقيقة أن هاتين النصوحتين المحبّتين، إيلين ومامي، لم تخشيا على سكارلت من جرأتها وحيويتها وفتنتها، إذ كانت هذه المميزات التي تفخر بها نساء الجنوب، وإنما الذي كان مصدر قلقهن ما ورثته من جيرالد من صلابة الرأي وتهور الطبع، حتى إنهما كانتا تخشيان بعض الأحيان عجزهما عن ستر معايبها ريثما تحظى بزواج موفق، ولكن سكارلت عزمت على الزواج - وعلى الزواج بآشلي - ولذلك صممت على الظهور بمظهر الحشمة والمرونة والشدة، طالما أن هذه هي الصفات التي تجذب الرجال، أما لماذا يكون الرجال على هذا المنوال، فأمر لا تعرفه، وإنما تعرف فقط أن أساليب كهذه تؤتي أكلها، دون أن تهتم بمعرفة سبب ذلك، لأنها تجهل كل شيء عن وجدانيات الإنسان، حى وجدانها، وكل ما كانت تعلمه، أنها إذا فعلت أو قالت كذا وكذا، على سبيل المجاملة، يتجاوب الرجال بصواب، مع هذه الفعلة أو المقالة... فالقضية مجرد معادلة رياضية، وليست أكثر صعوبة، لأن الرياضيات كانت الموضوع الوحيد الذي وجدته سهلاً أيام دراستها.

وإذا كانت تعرف القليل عن عقليات الرجال، فإن معرفتها بعقول النساء كانت أقل، لأن اكتراثها لهن كان أقل، فهي لم تصادق يوماً فتاة، ولم تحس بنقص جرّاء ذلك، لقد كانت النساء بالنسبة إليها، وشقيقتاها من ضمنهن، عدوات طبيعيات يتنافسن على الفريسة ذاتها - الرجل...

كل الناس باستثناء المرأة الوحيدة... أمها.

إذ كانت إيلين أوهارا تختلف في نظرها عن الأخريات... كانت تعتبرها كشيء مقدس، يتفرد من بين بقية الجنس البشري، وعندما

كانت طفلة، أخطأت في تمييز شخص أمها عن مريم العذراء. . . وها هي قد كبرت الآن، ولم تجد أي داعٍ لتغيير رأيها، فإيلين في نظرها تمثل الضمانة الشاملة التي لا يقدر علَى منحها إلا السماء أو الأم، إن أمها تجسيد للعدالة، للصدق، للحساسية المحببة، للحكمة العميقة - إنها سيدة عظيمْة.

وكانت سكارلت تود من كل قلبها أن تكون كأمها، ولكن العقبة الوحيدة في سبيل ذلك هي أن صيرورتها، عادلة، صادقة، حساسة، منكرة لذاتها، سيفقدها كثيراً من متع الحياة، وبالتأكيد كثيراً من المتيَّمين، والحياة أقصر من أن يفقد المرء فيها كل هذه المباهج. على أنها مصممة على أن تصبح ذات يوم. . . عندما تكون قد تزوجت آشلي، وتقدمت بها السن، ذات يوم عندما تجد الوقت لذلك، أن تصبح كأمها. . . ولكن حتى ذلك الوقت. . .

4

في تلك الليلة، ترأست سكارلت مائدة العشاء، أثناء غياب أمها، وكان عقلها في دوامة هائلة إثر النبأ الرهيب الذي سمعته عن آشلي وميلاني، وتلهفت يائسة لعودة أمها من بيت آل سلاتري، فقد أحست بالوحدة والضياع وهي بعيدة عنها، وتساءلت، أي حق يخول آل سلاتري ومرضهم المزمن انتزاع إيلين من البيت، في هذا الوقت بالذات الذي تشعر فيه هي، سكارلت، في حاجة ماسَّة إليها.

وأثناء وجبة الطعام الموحشة، أخذ صوت جيرالد المدوّي يلعلع في أذنيها إلى أن شعرت أنه لم يعد في وسعها احتماله مدة أطول. كان قد نسي تماماً حديثه معها بعد ظهر ذلك اليوم واستمر في خطاب مع نفسه حول آخر أخبار قلعة صمتر، متخذاً من قرع المنضدة بقبضته، ومن التلويح بذراعه في الهواء، إشارات لمواضع الموقف في خطابه. لقد اعتاد السيطرة على الحديث أوقات الطعام، غير أن سكارلت المشغولة عادة بأفكارها الخاصة، نادراً ما استمعت إليه، أما الليلة فلم تستطع أن تحول دون وصول صوته إليها رغم أنها جهدت لتصغي إلى صوت عجلات العربة، المُشعِر بعودة إيلين. وبالطبع، لم تقصد إخبار أمها بحقيقة العبء الثقيل الرازح على قلبها، لأن إيلين ستذهل وتحزن حين تعلم أن إحدى بناتها ترغب في رجل عقد خطوبته على غيرها، وإنما أحست وهي في هول أول مأساة عرفتها، في حاجة إلى العزاء

المنبعث من وجود أمها، فهي دوماً تشعر بالأمان وهي إلى جانبها، إذ لم يكن هناك أمر سيّئ لا تستطيع إيلين تحسينه بمجرد وجودها.

وفجأة، نهضت من كرسيها عند سماع قعقعة العجلات في الممشى، لتجلس ثانية، بعد أن دارت العربة متجهة إلى الساحة خلف البيت، الأمر الذي يعني عدم قدوم إيلين لأن من عادتها أن تترجل عند الدرجات الأمامية، وسمع بعدئذ أصوات زنجية تثرثر منفعلة في ظلام الساحة ثم تتبعها قهقهة زنجي مدوية. وعندما أطلت سكارلت من النافذة، رأت بورك الذي كان قد غادر الغرفة قبيل لحظة يرفع إلى العلاء غصن صنوبر مشتعل، في حين راح ينزل من العربة أشخاص يصعب تمييزهم. وهكذا في هواء تلك الليلة المظلمة ارتفع وخبا ذلك الهرج وتلك القهقهة، وأصوات سارة، ساذجة، خلية البال، موسيقية النغم، صادرة من حناجر عذبة، تلاها وقع أقدام متلاحقة تصعد سلالم الشرفة الخلفية ثم تتجه إلى الممر المؤدي إلى المنزل الرئيس، لتقف في القاعة، أمام غرفة الطعام تماماً. وانقضت فترة همس قصيرة، دخل على إثرها بورك وقد تخلى عن وقاره المعتاد، وراحت عيناه تحومان في الغرفة بينما بدت أسنانه البيضاء كشعاع من نور.

– «سيد جيرالد»، قال وهو يتنفس بصعوبة، وقد أضاء وجهه الزهو بعروسه، «لقد جاءت عبدتك الجديدة».

– «عبدتي الجديدة؟ أنا لم أشترِ أية عبدة جديدة»، أعلن جيرالد، وهو يتصنع التحديق ببصره.

– «بلى، اشتريت يا سيد جيرالد، بلى وها هي الآن هنا خارجاً تريد أن تتحدث إليك»، أجاب بورك، متلعثماً ثانياً ذراعيه باضطراب.

– «حسناً، أدخل العروس»، قال ذلك جيرالد بينما التفت بورك مومئاً إلى زوجته في القاعة، زوجته التي وصلت حديثاً من مزرعة آل ويلكس لتصبح عضواً في حاشية تارا.

دخلت دلسي وخلفها في مؤخرة تنورتها الخامية الواسعة انزوت ابنتها البالغة اثني عشر ربيعاً، ترتطم بساقيها.

كانت دلسي طويلة، منتصبة القامة، ذات وجه برونزي ساكن لا أثر فيه للتغضن بحيث يمكن اعتبارها في أي سن بين الثلاثين والستين. كان الدم الهندي جلياً في قسماتها، راجحاً على خصائصها الزنجية، فلون بشرتها الأحمر وجبينها المرتفع الضيق، وعظام وجنتيها الناتئة، وأنفها المحدودب كأنف الباز، المنبسط في أسفله فوق شفتين زنجيتين غليظتين، كل هذه تظهر اختلاط الجنسين في شخصها، كانت ذات إرادة قوية، تسير بوقار يفوق، لأصالته في دمها، وقار مامي المكتسب.

وعندما تتكلم لا تجمجم في حديثها، كما يفعل معظم الزنوج، علاوة على أنها تنتقي الكلمات باهتمام.

- «مساء الخير أيتها الآنسات الصغيرات، وأيها السيد جيرالد، إني آسفة لإزعاجم ولكني أردت المجيء هنا لأشكركم ثانية، لشرائكم إياي وابنتي، فكثير من الناس الطيبين كان يمكن أن يشتروني، ولكنهم لن يشتروا ابنتي أيضاً، ولذلك أشكركم لدفعكم الحزن عني، سوف أخدمكم بكل جهدي وأريكم أني لا أنسى الجميل».

- «إحم - إحم»، أجاب جيرالد، متنحنحاً بارتباك لكونه وُوجِه علانية بصنيعه الجميل.

ثم التفتت دلسي إلى سكارلت وقد غضن زاويتي عينيها ما يشبه الابتسامة، وقالت:

- «يا آنسة سكارلت، لقد أخبرني بورك كيف أنك طلبت من السيد جيرالد شرائي، ولذلك سوف أمنحك ابنتي برسي خادمة مخلصة لك».

ومدّت يدها خلف ظهرها، ودفعت الفتاة الصغيرة إلى الأمام،

كانت مخلوقة صغيرة دكناء، ذات ساقين عجفاوين كساقي الطير، وعدد كبير من ضفائر الشعر، مشدودة بعناية بخيط من القنب، ونافرة من رأسها بصلابة، أما عيناها فكانتا حادتين نافذتين، لا يفوتهما شيء، وأما وجهها فقد عكس نظرة غباء متعمدة.

- «أشكرك يا دلسي»، أجابت سكارلت، «ولكني أخشى أن يكون لمامي رأي آخر في هذا الموضوع، فهي خادمتي منذ ولدت».

- «لقد غدت مامي عجوزاً»، قالت دلسي باطمئنان كان يمكن أن يثير حنق مامي، «إنها مربية جيدة، ولكنك الآن آنسة فتية، وتحتاجين إلى خادمة ماهرة، وقد مضى على ابنتي برسي الآن مدة سنة وهي في خدمة الآنسة إنديا، فهي تستطيع الخياطة وتنسيق الشعر جيداً كصبية كبيرة».

ووخزت ابنتها، التي قامت بانحناءة مفاجئة، مبتسمة لسكارلت، فلم يسع هذه إلا رد الابتسامة بمثلها مُسِرَّة في نفسها: «صبية صغيرة ذكية»، ثم قالت بصوت مرتفع: «أشكرك يا دلسي، سننظر في الأمر عند رجوع أمي إلى البيت».

- «أشكرك يا سيدتي، وأرجو لكم ليلة سعيدة»، أجابت دلسي وأدارت ظهرها مغادرة الغرفة مع ابنتها وزوجها بورك الذي كان يرقص طرباً.

وبعد رفع أطباق العشاء، عاود جيرالد خطابه ولكن بترحاب قليل دون الآخرين، ولم تحرز تكهناته الهدارة بحدوث حروب فورية، وأسئلته البليغة المؤثرة عما إذا كان الجنوب سيصبر على إهانات أخرى يوجهها له أهل الشمال، إلا أجوبة تنم عن بعض النزعاج «نعم بابا... لا بابا»، إذ كانت كارين الجالسة على وسادة تحت المصباح الكبير مستغرقة في أحلام فتاة اتشحت بالسواد بعد وفاة حبيبها وهي ترسم برغبة صورتها في قبعة بيضاء ودموع البهجة الصامتة تترقرق في عينيها،

بينما كانت سولين تتساءل وهي تطرز على ما تدعوه بضحك مكبوت: «الصدر المشتهى»، تتساءل عما إذا كان من المحتمل أن تستطيع في حفلة الباربكيو غداً، فصل ستيورات تارلتون عن شقيقتها سكارلت وافتتانه بصفات الأنوثة العذبة التي تملكها دون أختها. أما سكارلت فكانت في هدير الدوامة حول آشلي.

كيف يستطيع والدها الاستمرار في الحديث عن قلعة صمتر والشماليين، وهو يعرف أن قلبها محطم؟ وكما هي العادة في عهد الصبا، عجبت كيف يستطيع الناس أن يكونوا على هذه الدرجة من الأنانية فيتجاهلون آلامها، وكيف تستمر الدنيا في دورانها على الوتيرة نفسها على الرغم من مأساة قلبها.

وأحست كأن إعصاراً يعصف بتفكيرها، واستغربت أن تظل غرفة الطعام التي فيها يجلسون هادئة هكذا، تماماً كعادتها، دون أن يطرأ عليها أي تغيير. ثم ما بال طاولة المغنة الثقيلة والخزف والأواني الفضية الكبيرة، وقطع السجاد الخشنة الزاهية فوق الأرض البراقة، ما بالها جميعاً في مواضعها المعتادة، تماماً كما لو أن شيئاً لم يحدث. إن عهدها بغرفة الطعام هذه، مكان ودود مريح، أحبت سكارلت بحكم العادة الساعات الهادئة التي تقضيها العائلة فيه بعد العشاء، ولكنها الليلة كرهت مجرد رؤيته، ولولا خوفها من أسئلة والدها الصارخة المدوية، لانسلّت عبر القاعة المظلمة إلى مكتب إيلين الصغير، حيث تبكي همومها فوق الكنبة العتيقة.

كان هذا المكتب أحب غرف البيت لسكارلت، فهناك، كانت تجلس إيلين كل صباح، أمام منضدتها المرتفعة تقوم بحسابات المزرعة، وتستمع إلى تقارير جوناس ويلكرسون، الناظر، وهناك أيضاً، بينما ريشة إيلين تجري فوق دفاتر حساباتها، كانت العائلة تقضي فترات الراحة، فيجلس جيرالد على كرسيه الهزاز القديم،

والبنات فوق مساند الكنبة التي أصبحت بالية مهترئة لا تصلح لغرفة الصدارة في البيت. هناك تاقت سكارلت إلى أن تكون الآن برفقة إيلين، كيما تستطيع إلقاء رأسها في حضن أمها، والبكاء بسلام... ألن تعود أمي إلى البيت؟

وقطع حبل تفكيرها صرير العجلات فوق حصباء الممشى، وعلى إثره حمل هواء الغرفة دمدمة صوت إيلين الناعم، تأمر سائق العربة بالانصراف، وتطلّع الجميع إليها بشوق، وهي تدخل مسرعة، وأطواق تنورتها تتهادى من حولها، وقد بدا الحزن والإرهاق على وجهها. ودخلت الغرفة معها رائحة أوراق الليمون الخفيفة الصادرة من محفظتها، تلك الرائحة العطرية التي يخيل للمرء أنها تفوح أبداً من ثنايا أثوابها، والتي استقرت في ذهن سكارلت كصفة ملازمة لأمها. وتبعت إيلين، على بعد خطوات منها، مامي وفي يدها الحقيبة الجلدية، وقد برزت شفتها السفلى، وتقطب جبينها، وأخذت تدمدم وهي تلج الغرفة بعبارات غامضة بينها وبين نفسها، حريصة على ان تجعل نبرة عباراتها منخفضة جداً بحيث لا تفهم، ولكنها على ارتفاع كافٍ لستجيل استنكارها المبهم.

- «إني آسفة لتأخري كثيراً»، قالت إيلين، جاذبة شالها المخطط عن كتفيها المسترخيتَين ومناولة إياه لسكارلت، بعد أن ربتت على وجنتها وهي تمر بجانبها.

وكان وجه جيرالد قد أشرق منذ دخول زوجته إلى الغرفة، كما لو كان ذلك بفعل السحر: «هل عُمِّدَ طفلك؟»، سأل جيرالد.

- «نعم... ومات، ذلك المسكين»، أجابت إيلين، «وأخشى على إيمي أن تموت هي أيضاً ولكني أعتقد أنها ستعيش».

فالتفتت الفتيات الثلاث نحوها، دهشات مستفسرات، بينما هز جيرالد رأسه بحركة فلسفية وقال:

- «على كل حال. . . من الأفضل موت الطفل. . . لا شكَّ أن المسكين بلا أب».

- «الوقت متأخر، ومن الأفضل أن نصلّي الآن»، قاطعته إيلين بصوت منخفض جداً، بحيث إن سكارلت، لو لم تكن تعرف أمها معرفة جيدة، لمرّت مقاطعة الحديث دون انتباهها.

كان من الشيق أن يعرف المرء من يكون والد طفل إيمي سلاتري، ولكن سكارلت أدركت أنها لن تصل إلى حقيقة المسألة، إذا انتظرت سماعها من أمها. لقد كانت تشك بجوناس ويلكرسون، إذ كثيراً ما شاهدته برفقة إيمي، يسيران على الطريق، عند هبوط الليل، وكان جوناس عازباً من أهل الشمال، منعته حقيقة كونه ناظراً مدى العمر من الاتصال بحياة المقاطعة الاجتماعية، ولم تكن هناك عائلة في أية مكانة اجتماعية يستطيع الزواج منها، كما لم يكن هناك من يستطيع معاشرتهم سوى آل سلاتري والرعاع الذين على شاكلتهم، وبما أنه أرقى ثقافة من أفراد آل سلاتري، فقد كان من الطبيعي أن لا يرغب في الزواج بإيمي، مهما تنزه برفقتها في ضوء الغسق.

وتنهدت سكارلت إذ كانت رغبتها في الاستطلاع جامحة، على نقيض والدتها التي كانت الأحداث تجري دوماً أمام عينها فلا تعلق عليها بشيء، كما لو أنها لم تحدث البتّة، فقد كانت تتجاهل كل ما لا يتفق وما تؤمن به من مقتضيات اللياقة والحشمة، ولقد جربت أن تغرس في سكارلت هذه الصفة، ولكن حظها من النجاح كان ضئيلاً.

خطت إيلين نحو رف الموقد، لتأخذ حبات سبحتها من علبة حليها الصغيرة المرصعة، حيث يقبعن دائماً كلما أصرّت مامي على ذلك بحزم.

- «آنسة إيلين، ينبغي أن تتعشي قبل أن تقيمي الصلاة».

- «أشكرك مامي، ولكني لست جائعة».

- «سأضع لك العشاء بنفسي، وعليك أن تأكليه»، قالت مامي وقد تجهّم جبينها سخطاً وهي تخرج إلى القاعة قاصدة المطبخ: «بورك!»، صاحت، «أخبر كوكي أن تشعل النار فقد عادت الآنسة إيلين».

وبينما رأت ألواح الأرض الخشبية تهتز تحت ثقل جسمها، أخذت المناجاة التي كانت قد بدأتها مع نفسها في القاعة الأمامية، ترتفع رويداً رويداً حتى وصلت جليّة إلى مسماع العائلة في غرفة الطعام:

- «لقد قلت مرة وأخرى، إن من الأفضل إهمال هؤلاء البيض التافهين، إنهم خاملون، جحودون جداً، لا قيمة لهم بين الأحياء، ولذا يتحتم على الآنسة إيلين أن لا تنهك نفسها في سبيل العناية بأناس لو كانت لهم قيمة رصاصة توجه لقتلهم لاستحقوا عبيداً يخدمونهم وقد قلت...».

وتلاشى صوتها عندما سارت في الممر الطويل المكشوف إلا من أعلاه والموصل إلى المطبخ.

كان لمامي أسلوبها الخاص في جعل أسيادها يعرفون تماماً موقفها من كل موضوع، فهي تعرف أن أقل إصغاء من قبل الناس البيض إلى ما تقوله عبدة مثلها أثناء تذمّرها لنفسها، فيه حط من كرامتهم، وإنه لتدعيم هذه الكرامة، عليهما تجاهل ما تقوله، حتى ولو وقفت في الغرفة المجاورة وقارب حديثها الصراخ. وهكذا بأسلوبها الخاص كانت تحمي نفسها من التأنيب، ولا يبقى مجال للشك عند أحد في حقيقة رأيها في أي موضوع.

دخل بورك الغرفة، يحمل طبقاً وملعقة وفوطة، وفي إثره تماماً دخل جاك، الصبي الأسود البالغ عشر سنوات من العمر، وهو يزرر بسرعة ويحمل في إحدى يديه معطفه الكتاني الأبيض، وفي الأخرى

مذبة مصنوعة من قصاصات الجرائد المشدودة إلى قضيب، أطول من قامته، أما مذبَّة إيلين الجميلة المصنوعة من ريش الطاووس، فكانت لا تستعمل إلا في المناسبات الخاصة، بعد عراك داخلي سببه اعتقاد كل من بورك وكوكي ومامي الراسخ بأن ريش الطاووس نذير للشؤم.

وما إن جلست إيلين على الكرسي الذي سحبه جيرالد لها، حتى انقضّت عليها أصوات أربعة:

- «أمي، انحلَّ شريط فستان الرقص الجديد، وأريد أن ألبسه ليلة الغد في تولف أوكس، أفلا تخيطينه لي من فضلك؟».

- «أمي، فستان سكارلت الجديد أجمل من فستاني، إنني أبدو به كمهرجة، فلماذا لا ترتدي فستاني الأحمر، وتدعني أرتدي فستانها الأخضر؟ إنها تظهر رائعة في الثوب الأحمر».

- «أمي، هل أستطيع السهر من أجل الرقص ليلة الغد؟ إني في الثالثة عشرة الآن. . .».

- «سيدة أوهارا، هل تصدقين، اصمتن أيتها البنات، قبل أن أتناول سوطي وأجيئكن! كيد كالفرات كان في أتلانتا هذا الصباح، وهو يقول - ألا تصمتن وتدعنني أسمع صوتي؟ - وهو يقول إن الجميع مضطربون هناك ولا حديث لهم إلا الحرب، وإن جنود المليشيا يتدربون، والفرق العسكرية تتشكل، ويقول أيضاً إن أنباء شارلستون تفيد أن الجماعة هناك لن يصبروا على أية إهانة شمالية أخرى».

وسط هذه الضوضاء، افترَّ ثغر إيلين المتعب، مبتسماً، وهي توجّه حديثها لزوجها أولاً، كما ينبغي للزوجة أن تفعل:

- «إذا كان شعب شارلستون الطيب يشعر بمثل هذا الشعور، فأنا واثقة بأننا لا بد سنحذو حذوهم سريعاً»، قالت ذلك لأنها كانت تعتقد اعتقاداً عميق الجذور، أن أعرق فئة من الناس في جميع القارة،

باستثناء سافانا، يمكن أن توجد في ذلك الميناء الصغير، وكان أهل شارلستون يشاركونها في هذا الاعتقاد إلى حد كبير.

- «لا يا كارين، في السنة التالية يا عزيزتي، يمكنك السهر من أجل الرقص، وارتداء فساتين الصبايا الكبيرات، ويومها، ما أجمل الوقت الذي ستنعم به وجنتاك الصغيرتان الموردتان، لا تعبسي يا عزيزتي، تذكّري أن في إمكانك الذهاب إلى حفلة الباربكيو، والبقاء خلال فترة العشاء، ولكن لا حفلات رقص حتى تبلغي الرابعة عشرة، أعطني فستانك يا سكارلت فسأخيط شريطه بعد الصلاة. أما أنت يا سولين، فأنا لا أرتاح للهجتك يا عزيزتي، ثوبك الأحمر جذاب ويتفق ولون بشرتك، كما يتفق ثوب سكارلت وبشرتها، ولكن في إمكانك ارتداء عقدي العقيقي ليلة الغد».

وما كان من سولين، الجالسة خلف أمها، إلا أن جعدت أنفها في وجه سكارلت، منتشية بفوزها، وكانت هذه تفكر في كيفية طلب العقد لنفسها، ولكنها أجابت تحدي سولين بمد لسانها. كانت سولين شقيقة مزعجة بشكواها وأنانيتها، ولولا يد أمها الرادعة لمزقت سكارلت أذنيها مراراً.

- «والآن يا سيد أوهارا زدني أخباراً عما قال السيد كالفرت حول شارلستون»، قالت إيلين. وكانت سكارلت تعرف أن أمها لا تبالي البتّة بكل ما يتعلق بالحرب أو السياسة. وتعتبر هذه الأمور من اختصاص الرجال، حيث لا يمكن لسيدة أن تفلح إذا ما شغلت نفسها بها. ولكن جيرالد كان يُسَرُّ بعرض آرائه، وكانت إيلين حريصة دوماً على سروره.

وفيما تدفق جيرالد بأخباره، وضعت مامي أطباق الطعام أمام سيدتها، بسكويت محمّر الوجه، وصدر دجاجة مشوي، وبطاطا حلوة صفراء مشرحة يخرج البخار منها، وتتقاطر زبدة ذائبة، ثم قرصت

جاك، الصبي الصغير، فأسرع خلف إيلين، ليمارس عمله البطيء في الذب بقصاصاته الورقية، أماماً ووراء، بينما وقفت هي بجانب الطاولة، تراقب كل ملعقة في مسيرها من الطبق إلى الفم، كما لو أنها تقصد إدخال الطعام بالقوة في فم إيلين إذا ما رأت دلائل على تقاعسها عن الأكل. ورغم أن إيلين ثابرت على تناول الطعام، فقد استطاعت سكارلت أن تلحظ أن أمها متعبة جداً بحيث لا تعلم ما تأكله، ولم يدفعها إلى الاستمرار سوى وجه مامي الصارم فحسب.

وعندما فرغت الأطباق، كان جيرالد قد بلغ منتصف حديثه فقط حول لصوصية أهل الشمال الذين يريدون تحرير العبيد دون أن يدفعوا بنساً واحداً مقابل ذلك. ونهضت إيلين.

- «هل سنؤدي الصلاة؟»، سأل جيرالد على غير رغبة.

- «نعم، والوقت متأخر جداً، إنها الساعة العاشرة تماماً»، قالت ذلك عندما سمعت الساعة الدقاقة ذات العقارب القصيرة تعلن الوقت، ثم أردفت: «كان ينبغي لكارين أن تنام منذ زمن. . . المصباح، أرجوك يا بورك، وأنت يا مامي كتاب الصلوات».

وبهمسة جشاء من مامي، اندفع جاك واضعاً مذبَّته في زاوية الغرفة، وأخذ ينقل الأطباق، بينما راحت هي تعبث في درج الخزانة، باحثة عن كتاب صلوات إيلين البالي. أما بورك فقد اشرأب إلى أعلى، واقفاً على رؤوس أصابعه، حتى بلغ حلقة المصباح المعلقة بالسلسلة فأنزل المصباح ببطء إلى أن غمر الضوء سطح الطاولة، بينما انكمش السقف خلف الظلال.

وركعت إيلين على الأرض، بعد أن رتبت تنورتها ثم وضعت كتاب الصلوات المفتوح على المنضدة أمامها، ضامة يديها فوقه. وإلى جانبها ركع جيرالد، بينما اتخذت سكارلت وسولين مكانيهما المعتادين في الناحية المقابلة من المنضدة، صانعتين من معطفيهما الواسعين

وسادتين تحت ركبهما لتخفيف ألم الاحتكاك بالأرض الصلبة. أما كارين التي كانت لصغر سنها لا تستطيع الركوع مرتاحة أمام الطاولة، فقد ركعت مقابل الكرسي، ومرفقاها على مقعده، كانت تحب هذه الجلسة لأنها كثيراً ما كانت تذهب إلى النوم أثناء الصلاة، وبمثل هذه الجلسة تتحاشى مراقبة أمها.

وفي القاعة، خارج الغرفة، كان الخدم يتحركون بملابسهم الفضفاضة ليركعوا أمام الباب، فكانت مامي تركع وهي تتأوّه بصوت مرتفع، وبورك ينتصب كمدكّ البندقية، وروزا وتينا الصبيتان غدتا رائعتين في ثوبيهما الخاميين البراقين الفضفاضين، وكوكي بدت هزيلة شاحبة وعلى رأسها خرقتها البيضاء كالثلج، ثم جاك، وقد بدا كالأحمق من جرّاء النعاس، بدا بعيداً بقدر الإمكان عن أصابع مامي القارصة. كانت عيونهم السوداء تشع بالرجاء والأمل، فالصلاة بجانب أسيادهم البيض حدث من أهم أحداث اليوم، ورغم أن عبارات التسابيح القديمة ذات الديباجة وصورها الشرقية، لا تعني إلا القليل بالنسبة إليهم، فإنها كانت ترضي شيئاً ما في قلوبهم، إذ كانوا دائماً يتهادون وهم يرتلون اللازمة: «ارحمنا يا اللّه» - «يا يسوع ارحمنا».

أغمضت إيلين عينيها وشرعت بالصلاة، وصوتها يرتفع وينخفض، يهجع ويسكن، ثم شكرت اللّه لإنعامه بالصحة والسعادة، على بيتها وعائلتها وعبيدها، فانحنت جميع الرؤوس في ظلال الضوء الأصفر.

وعندما انتهت صلاتها من أجل جميع القاطنين تحت سقوف تارا ومن أجل أمها ووالدها وشقيقاتها وأطفالها الثلاثة الأموات وكل الأرواح البائسة في الأعراف[1] أمسكت سبحتها البيضاء بأصابعها

(1) وهو المطهر، مكان بين الجنة والنار، حيث يطهّر المذنبون من خطاياهم - (المترجمان).

الطويلة وبدأت التسبيح، فانسابت الترديدات كهبّة ريح خفيفة، من حناجر بيضاء وسوداء: «يا مريم العذراء، يا أم الإله، صلّي من أجلنا نحن المذنبين، الآن، وفي ساعة موتنا».

أما سكارلت، فعلى الرغم من آلام قلبها، وآلام دموعها الحبيسة، فإن إحساساً عميقاً بالطمأنينة والسكينة غمرها، كما يحدث دائماً في هذا الموقف، وخفَّ عنها بعض خيبة النهار ورهبة الغد، ليحل محلهما بصيص من الرجاء. ولم يكن توجه قلبها إلى اللّه الذي أمدّها بهذا البلسم، إذ كان الدين لا يتعدى حداً أعمق من شفتيها، وإنما هو منظر وجه أمها الخاشع يتضرع إلى عرش الإله وقدسيته وملائكته، ويبتهل من أجل البركة لهؤلاء الذين تحبهم، وفيما كانت إيلين مستغرقة في تضرّعاتها إلى اللّه، شعرت سكارلت واثقة بأن اللّه يسمعها.

وفرغت إيلين من التسبيح، وجاء دور جيرالد، الذي لم يستطع مرة أن يجد حبات سبحاته وقت الصلاة، فراح يعد العشرات على أصابعه خلسة، وبينما كان صوته ينطلق برتابة شردت أفكار سكارلت على الرغم منها، إنها تعرف أن عليها أن تمتحن ضميرها، إذ علمتها إيلين أن واجبها عند نهاية كل يوم أن تختبر ضميرها تماماً، وأن تعترف بأخطائها الكثيرة وترجو اللّه العفو والقدرة على عدم تكرار تلك الأخطاء أبداً، غير أنها كانت تريد أن تمتحن قلبها الآن.

أطرقت برأسها فوق يديها المثنيتين كي ترى إيلين وجهها، وعادت أفكارها حزينة إلى موضوع آشلي. كيف يمكن أن يفكر في الزواج بميلاني في الوقت الذي يحبها هي - سكارلت - حباً حقيقياً؟ وفي الوقت الذي يعرف إلى أي درجة تحبه؟ كيف يمكنه أن يحطم قلبها عامداً.

وفجأة، لمعت في عقلها كالمُذنَّب، فكرة براقة، وجديدة:

«من يدري، إن آشلي لا يعرف أني أحبه».

وكادت تشهق بصوت مرتفع من جرّاء انذهالها بهذه الفكرة غير المتوقعة، وجمد عقلها كما لو كان مشلولاً منذ زمن، وأمسكت بأنفاسها ثم انطلقت في الطريق ذاته:

«كيف كان في وسعه أن يعرف؟ وأنا التي أتصرف دوماً بحشمة زائدة تصرف السيدات المحترمات، وأظل حوله كزهرة أم غيلان، فمن المحتمل أن يفكر أني لا أحفل به إلا كصديق... بلى، هذا هو السبب في عدم مفاتحته إياي بالموضوع أبداً، إنه يعتقد أن حبه عديم الجدوى، وهذا ما جعله يظهر...».

وعادت بها الذكرى سريعاً إلى تلك الأوقات، عندما اكتشفته ينظر إليها بتلك الطريقة الغريبة، وعيناه الرماديتان اللتان تحجبان كلية ما يدور في خلده في العادة، قد اتسعتا ونمّتا عنه، وتجلت فيهما نظرة من العذاب واليأس.

«لقد انسحق قلبه لأنه يظن أني أحب برنت أو ستيوارت أو كيد. ومن المحتمل أنه يفكر أنه ما دام لن يستطيع الزواج بي، ففي إمكانه إبهاج نفسه وعائلته بالزواج بميلاني، ولكن إذا ما عرف أني أحبه...».

وانتعشت معنوياتها المتدنية مرتفعة من أعمق درجات النكبة إلى السعادة المثيرة، فقد عرفت الجواب لتكتم آشلي ولتصرفاته الغريبة، «إنه لم يعرف!» واشتد غرورها مؤيداً رغبتها في التصديق، جاعلاً من التصديق يقيناً، إذا عرف أنها تحبه، فسيسرع إلى جانبها وما عليها إلا...

«آه...» فكرت بذهول، ضاغطة أصابعها على جبينها المتغضن، «كم أنا حمقاء لأنني لم أفكر في هذا حتى الان! ينبغي أن أفكر في طريقة تجعله يعرف، فلن يتزوجها إذا عرف أني أحبه؟ كيف يقدر؟».

ورفعت رأسها على عجل، لتجد جيرالد قد فرغ وعيني أمها مصوبتين عليها، فبدأت التسبيح بسرعة، ناطقة العبارات بصورة آلية،

ولكن بانفعال شديد في صوتها، انفعال دفع مامي إلى أن تفتح عينيها وترسل نظرة فاحصة عليها، وعندما انتهت من صلواتها، وتبعتها سولين ثم كارين، بادئين في تسبيحهما، كان عقلها ما زال مندفعاً إلى الأمام، بفكرتها الجديدة المذهلة.

حتى الآن، لم يفت الوقت بعد، فكثيراً ما افتضحت المقاطعة بحوادث الفرار مع الأحبة، عندما يتفق أن يكلل أحد الطرفين على شخص ثالث، علاوة على أن خطوبة آشلي لم تعلن بعد! نعم، ما زال هناك متسع من الوقت!

وإذا لم يكن يوجد حب بين آشلي وميلاني، بل مجرد وعد مقطوع منذ زمن طويل، فلماذا إذن كان من غير الممكن بالنسبة إليه أن يحنث بذلك الوعد ويتزوجها هي؟

من المؤكد أنه سيفعل ذلك، لو عرف أنها - سكارلت - تحبه. عليها إذن أن تجد طريقة لتجعله يعرف. سوف تجد طريقة! وعندئذ...

واستيقظت من حلمها البهيج فجأة، لقد أهملت القيام بترداد اللازمة، وها هي أمها تنظر إليها نظرة تأنيب. وعندما استأنفت الصلاة، فتحت عينيها قليلاً، وألقت نظرة سريعة على أنحاء الغرفة، فأحست أن الأشخاص الراكعين، وأن وهج المصباح الناعم، والظلال الباهتة التي يتمايل خلالها الزنوج، وحتى الأشياء المألوفة لديها، والتي ظهرت بغيضة جداً لناظريها قبل ساعة فقط، قد تلونت في مدى لحظة واحدة، بلون أحاسيسها، وظهرت الغرفة مكاناً حلواً جذاباً للمرة الثانية. لن تنسى هذه اللحظة ولا هذا المشهد!

- «أيتها العذراء، يا أعظم الوفيات»، رنّمت والدتها، كانت تسابيح العذراء قد بدأت، فرددت سكارلت بطواعية: «صلّي من أجلنا»، بينما راحت إيلين تطري بصوت ليّن خاشع مزايا أم الإله يسوع.

وكما هو شأنها منذ الطفولة، كانت سكارلت تعتبر هذه الدقائق فترة لعبادة إيلين أكثر منها لعبادة العذراء، ورغم ما في هذا من تحقير للمقدسات الدينية، فإن سكارلت كانت ترى دائماً، من خلال عينيها المغمضتين، وجه إيلين المتطلع إلى العلياء كوجه العذراء المباركة، عندما كانت العبارات القديمة تكرر «شفاء المرضى»، «مستقر الحكمة»، «ملجأ الآثمين»، «الوردة التي لا يدركها العقل» - إنها كلمات جميلة لكونها مزايا إيلين. أما في هذه الليلة فقد وجدت سكارلت، بسبب تسامي روحها، وجدت في هذا الاحتفال الديني كله، في كلماته المقولة الرقيقة، في طنين ترداده، روعة فائقة تمتاز عن كل ما خبرته قبلاً، فتوجه قلبها إلى اللّه في شكر خاص، لأن طريقاً قد فتح أمام قدميها، من صميم تعاستها إلى ذراعي آشلي رأساً.

وعندما لفظت «آمين» للمرة الأخيرة، نهض الجميع متيبسي الظهور قليلاً، ووقفت مامي على قدميها بجهود تينا وروزا المشتركة، بينما أنزل بورك قصاصة ورق طويلة من رف الموقد وأشعلها من لهب المصباح وسار في القاعة، وكان مقابل السلم المتعرج خزانة من خشب الجوز لم يكن استعمالها في غرفة الطعام لكبر حجمها، وقد وضع على سقفها الواسع عدة مصابيح، وصفّاً طويلاً من شموع الإضاءة مثبتة في شمعدانات، فعندما بلغها بورك، أشعل مصباحاً وثلاث شموع من التي على سقفها، ثم قاد الموكب صعوداً على الدرج، بالوقار المتباهي لرئيس حجّاب غرفة النوم الملكية، وهو يضيء الطريق للملك والملكة نحو غرفتيهما، هكذا قاد بورك الموكب، رافعاً الضوء عالياً فوق رأسه تتبعه إيلين متكئة على ذراع جيرالد، ثم البنات وقد حملت كل منهن شمعتها المضيئة.

دخلت سكارلت غرفتها، وبعد أن وضعت شمعتها فوق صوان الثياب، راحت تعبث في مقصورتها المظلمة باحثة عن فستان الرقص،

الذي كان في حاجة إلى بعض الخياطة، وعندما وجدته، ألقت به على ذراعها وخرجت عبر القاعة بهدوء، قاصدة غرفة نوم والديها، التي كان بابها مفتوحاً قليلاً، وقبل أن تتمكن من قرعه، بلغ مسامعها صوت إيلين منخفضاً ولكنه حازم:

- «سيد أوهارا، يجب أن تطرد جوناس ويلكرسون».

- «ومن أين آتي بناظر آخر لا يسرقني من بين أنيابي»، أجاب جيرالد منفجراً بصوت داوٍ.

- «يجب أن يُطرد حالاً، غداً صباحاً، سام الكبير مراقب جيد، وفي استطاعته القيام بهذا الواجب ريثما يمكنك استئجار ناظر آخر».

- «آه، ها!»، ارتفع صوت جيرالد، «لقد فهمت، إذن الفاضل جوناس والد الـ. . .».

- «يجب أن يُطرد».

- «إذن، هو والد طفل إيمي سلاتري»، فكرت سكارلت، «لا بأس، وماذا يتوقع غير هذا من رجل شمالي وفتاة بيضاء حقيرة».

وبعد فترة صمتٍ رشيدة، تلاشى خلالها لغط جيرالد، قرعت الباب وناولت الثوب لأمها.

وما إن خلعت سكارلت ملابسها وأطفأت القنديل حتى كانت خطتها للغد قد اكتملت بجميع تفاصيلها، إنها خطة بسيطة، فقد ركزت عينيها على الهدف بحزم اقتبسته من جيرالد، مفكرة فقط بالخطوات المباشرة الموصلة إليه.

إنها أولاً، ستتظاهر بالكبرياء كما أوصاها جيرالد، فمنذ وصولها إلى تولف أوكس ستظهر بأهنأ حالة، وبأرفع معنويات، ولن يظن أحد أنها فُجعت بخطوبة آشلي وميلاني، وستغازل كل رجل تراه، الأمر الذي سيصعق آشلي، ولكن يشوقه إليها أكثر وأكثر. ولن تتجاهل أي

رجل في سن الزواج، ابتداء من المسن فرانك كنيدي المخمور بالويسكي دائماً، والذي كان معشوق سولين، حتى تصل إلى تشارلز هاملتون الهادئ الخجول الحيي، شقيق ميلاني. سوف يحومون حولها كالنحل حول خليته، وبالتأكيد سينجذب آشلي من جانب ميلاني ليلتحق بحلقة المعجبين بها، وعندئذ ستناور بطريقة ما، كي تنفرد وإياه بضع دقائق، بعيداً عن الجمهور.

أملت سكارلت أن يتم كل شيء بحسب تلك الخطة، وإلا لغدا الأمر أكثر صعوبة، ولكن إذا لم يبدأ آشلي بالخطوة الأولى، فينبغي عليها أن تخطوها هي بكل بساطة.

وعندما ستختلي به، يكون مشهد الرجال المحتشدين حولها ما زال حاضراً في ذهنه، ويكون تأثره بحقيقة كون كل من هؤلاء يريدها لنفسه ما زال جديداً، وعندئذ تغشى عينيه تلك النظرة الحزينة القانطة. وفي الحال، تعيد هي إليه السعادة بجعله يكتشف أنها تفضّله على كل رجل في الدنيا رغم كونها محبوبة رائجة، وبالطبع عند إعلانها ذلك بتواضع وعذوبة، ستبدو لعينيه بألف ميزة جديدة، ومن البدهي أنها ستنفّذ ذلك كله بأسلوب السيدة المحترمة، فهي لن تتجرأ وتخبره بحبها، حتى لو كان الأمر مجرد حلم، لا يمكن أن تفعل ذلك. على أن كيفية إخباره أمر جزئي لم يضايقها البتّة، فقد تدبرت أمثال هذه الحالات من قبل، وفي وسعها القيام بها ثانية.

وهكذا تصورت سكارلت وهي مستلقية في سريرها، وضوء القمر ينساب خفيفاً من فوقها، تصورت المشهد بأكمله في ذهنها. رأت النظرة المفاجأة والسعادة التي ستعلو وجهه عندما يتأكد أنها تحبه حقيقة. وسمعت الكلمات التي سيقولها طالباً أن تكون زوجة له.

ومن الطبيعي أنه ينبغي أن تجيبه عندئذ، أنها بصراحة لن تستطيع التفكير في الزواج برجل قد عقد خطوبته على فتاة أخرى، ولكن سوف

يلح، فتدع نفسها تقتنع أخيراً. وساعتئذ سيقرران الفرار إلى جونسبورو، في المساء ذاته و. . .

كيف لا، وفي مثل هذا الوقت من ليلة الغد، قد تصبح السيدة آشلي ويلكس!

ونهضت جالسة في سريرها، حاضنة ركبتيها، ولبرهة سعيدة طويلة كانت السيدة آشلي ويلكس - عروس آشلي - ثم خفق قلبها بقشعريرة خفيفة، ماذا لو أن الأمر لم يتم على هذه الصورة؟ ماذا لو أن آشلي لم يرجها الهرب معه. ولكنها طردت الفكرة من عقلها بعزم وثبات:

«لن أفكر في مثل هذا الآن»، قالت بحزم، «إذا ما فكرت فيه الآن، فسيقلبني رأساً على عقب، وليس ما يحول دون سير الأمور بحسب رغبتي - إذا كان يحبني، وأنا أعرف أنه كذلك».

ورفعت ذقنها من على ركبتيها، وعيناها الشاحبتان، ذاتا الأهداب السوداء، تبرقان في ضوء القمر. لم تخبرها إيلين أن الرغبة وبلوغها أمران مختلفان، ولم تعلمها الحياة أن كسب السباق ليس للسريع.

واستلقت في الظلال الفضية، قوية العزيمة، تضع الخطط التي تنسجها فتاة في السادسة عشرة من عمرها، عندما تكون الحياة بالنسبة إليها بهيجة جداً، بحيث يغدو الفشل أمراً مستحيلاً، ويكون الفستان الجميل ولون البشرة الصافي سلاحين لقهر القضاء والقدر.

5

كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً، وكان النهار دافئاً إذا ما قيس بأيام أبريل، وقد انسابت أشعة الشمس الذهبية متلألئة إلى غرفة سكارلت، عبر ستائر النوافذ الواسعة الزرقاء. وتوهجت جدران الغرفة البيضاء المصفرة بالضوء، بينما كانت زوايا الأثاث المصنوع من خشب المغنة تشع بلون أحمر قانٍ كالخمر، أما أرض الغرفة فكانت تتألق كما لو أنها من زجاج، إلا حيث انطرحت قطع السجاد الخشنة التي بدت كبقعٍ ملونة بهيجة.

كانت رائحة الصيف قد غزت الهواء، وهي البادرة الأولى لصيف جورجيا، حيث تندحر موجة الربيع الدافقة متعنتة أمام طغيان الحرارة. وسرى في الغرفة دفء خفيف منعش، مفعم بروائح ناعمة، عابق بشذى أزهار كثيرة، بشذى الأزهار المبرعمة حديثاً والأرض الرطبة الحمراء، المقلوبة مؤخراً.

ومن خلال النافذة، استطاعت سكارلت رؤية صَفَّي أزهار النرجس المائي الصفراء المتماوجة، ترصع جانبي الممشى المحصوصب، وعناقيد الياسمين الذهبية الصفراء، تنشر حيية أزهارها النضرة على الأرض فتبدو كالأجراس، وكذلك رأت طيور الموكرز[1] والقيقان،

(1) طير من فصيلة الشمس، يوجد في جنوب الولايات المتحدة الأميركية، ويتميز بأصواته الساخرة، المقلدة لأصوات بقية الطيور - (المترجمان).

المنهمكة دائماً بنزاعها لامتلاك شجرة الماغنوليا المنتصبة تحت نافذتها. رأتها كالعادة في غمرة القتال: القيقان شكسة متوترة الأعصاب، والموكرز تزعق بأصواتها العذبة الشجية.

صباح مشرق كهذا، كان في العادة يستحث سكارلت إلى النافذة لتتكئ على طنفها العريض وتحتسي شرابها منتعشة بروائح تارا، طربة بأغاريدها، ولكنها اليوم لم تنظر إلى الشمس ولا إلى السماء الزرقاء إلا بالقدر الذي جعلها تفكر مسرعة: «شكراً للّه فإن الجو صحو». كان فستان الرقص، الحريري المتماوج، الأخضر بلون التفاح، موضوعاً فوق سريرها داخل علبة كرتونية رزمت بأناقة، جاهزاً لأن يحمل إلى تولف أوكس، لتتسربل به قبل بدء الرقص. على أن سكارلت هزت كتفيها ممتعضة لرؤيته... لو نجحت خططها لما ارتدت هذا الفستان في هذه الليلة ولكانت هي وآشلي قبل أن يبدأ الرقص بوقت طويل في طريقهما إلى جونسبورو، حيث يتزوجان. ولكن المشكلة المزعجة هي: أي فستان ينبغي ارتداءه من أجل الباربكيو؟ أي فستان يمكن أن يبرز سحرها بالصورة الفضلى، ويمنحها جاذبية لا تقاوم... أمام آشلي؟ منذ الساعة الثامنة وهي لا تزال تجرّب وتلقي بالفساتين، وها هي الآن تقف كئيبة مغتمة متوترة الأعصاب في سراويل مزركشة بالدنتلة، ومشدٍّ علوي كتاني وتنورة داخلية كتانية، ذات أطواق ثلاثة من الدنتلة المتماوجة، وحولها، على أرض الغرفة، وعلى السرير، وفوق الكراسي، تراكمت الأثواب المردودة المنبوذة، في أكوام زاهية الألوان وشرائط مبعثرة. فالرداء الأحمر الأوركندي، ذو الزنار الوردي الطويل، لائق، لولا أنها لبسته في الصيف الماضي، أثناء زيارة ميلاني لتولف أوكس، وهي واثقة بأن هذه ستتذكره، ويمكن أن تكون حقيرة إلى درجة كافية لأن تذيع الأمر. والثوب الأسود الصوفي الحريري ذو الردنين المنتفخين، والقَبة

المخمرة من طراز برنس، يبرز بياض بشرتها بروعة تدعو إلى الفخر، ولكنه في الوقت ذاته يجعلها تبدو أكبر سناً، وحملقت سكارلت قلقة في المرآة، كأنها تتوقع رؤية وجهها ذي الستة عشر ربيعاً، متغضّناً، وعضلات ذقنها متهدلة... لا، لن ترتدي أبداً ما يمكن أن يُظهرها رزينة، وقورة مسنّة، أمام صبا ميلاني العذب...

أما فستان الموسلين، الأزرق الفاتح المخطط، فكان جميلاً بكشاكشه العريضة حول حاشيته من القماش المخرم والمجدول، إلا أنه لا يناسب طرازها، وإنما يناسب تماماً وجه كارين الناعم، وملامحها الشعشاعة، بينما تشعر سكارلت أنه يُظهرها كتلميذة المدرسة، ولن ينفعها أن تظهر كفتاة المدرسة أمام نفسية ميلاني المتزنة. وكذلك فستان التفتة الأخضر، الصوفي المخطط، الفضفاض بأهدابه، التي ينتهي كل منها بشريط أخضر مخملي، كان موفقاً جداً، وهو في الحقيقة فستانها المفضل، لأنه يُبدي عينيها بلون الزمرد، إلا أن بقعة دهنية لطَّخت صدر قميصة بشكل جلي، وبالطبع، يمكن لحليتها الماسية أن تغرز فوقها، ولكن... ولكن... قد تكون عينا ميلاني حادتين... ولم يبقَ الآن إلا الفساتين القطينة المتعددة الألوان، وفستان الموسلين المزين بأغصانه، وأشجاره، والذي ارتدته البارحة، ولكنه فستان مسائي لا يصلح للباربكيو، فردناه قصيران منتفخان، وعنقه منخفضة جداً بالنسبة إلى أثواب الرقص، ولكن لم يكن في الإمكان إلا لبسه، فضلاً عن أنها لن تخجل بعنقها وذراعيها وصدرها، حتى لو كان من غير الصواب تعريتها صباحاً.

وعندما وقفت أمام المرآة، تنثني كي تلتقط منظراً جانبياً لنفسها، اعتقدت أن ليس في شخصها مطلقاً ما يحملها على الخجل، فعنقها قصيرة ولكنها مستديرة، وذراعاها ممتلئتان مغريتان، وثدياها المندفعان إلى الأعلى، بواسطة المشد، رائعان، فليس عليها أن تخيط طبقات من

خرق الحرير المثنية في بطائن قمصانها، كما تفعل معظم الفتيات اللواتي في سنها، كي يمنحن قدودهن الامتلاء والتقوس المرغوب فيهما. وسَرَّها أن ورثت عن أمها يديها النحيلتين البيضاوين، وقدميها الصغيرتين، وتمنت لو تكون بعلو قامة أمها، مع أن قامتها تعجبها كثيراً، وفكرت كم من المؤسف أن لا تستطيع عرض ساقيها، ورفعت تنورتها وتأملتهما بحسرة. ساقان ممتلئتان رشيقتان، تحت سراويلها، إنها حقاً تملك ساقين بديعتين، حتى إن صبايا الأكاديمية في فايتفيل أقررن بذلك، أما خصرها فلم يكن يوجد في فايتفيل وجونسبورو، وفي مقاطعات ثلاث أيضاً، من يملك خصراً نحيلاً مثله.

وحملها التفكير في خصرها ثانية إلى قضايا الساعة: إن خصر فستان الموسلين الأخضر يَبلغ سبع عشرة بوصة، بينما ضغطت مامي خصرها، يوم لبست الفستان الصوفي الحريري الأسود إلى ثماني عشرة بوصة فقط، إذن ينبغي لمامي أن تضغطه أكثر. وفي الحال دفعت الباب مصغية، فسمعت وقع خطوات مامي الثقيلة صادرة عن القاعة السفلى، فنادتها ملحّة صارخة، عالمة أن في وسعها الآن رفع صوتها دون عقاب لأن أمها في المطبخ تكيل طعام اليوم لكوكي.

- «بعض الناس يظنون أن في استطاعتي الطيران»، دمدمت مامي، وهي تترنح صاعدة الدرج، ثم دخلت الغرفة لاهثة، وقد غمرت وجهها ملامح من يتوقع القتال، ويرحب به، كانت تحمل بين يديها صينية عليها طعام يتصاعد بخاره: حبتا بطاطا كبيرتان مطليتان بالزبدة، حفنة من كعك الحِنطة السوداء تتقطر شراباً وشرحة كبيرة من لحم الخنزير تغمرها المرقة. وما إن لمحت سكارلت مؤونة الصينية، حتى تبدّلت ملامح وجهها، ومن تعبير منفعل قليلاً، إلى تعبير قتالي عنيد. إذ كانت وهي منهمكة في انفعال تجربة أثوابها، قد نسيت قانون مامي الصارم، القاضي بأنه قبل الذهاب إلى أية حفلة، ينبغي على فتيات

أوهارا حشو بطونهن حتى التخمة، كي يعجزن عن تناول أي مرطبات أثناء الحفلة.

- «لا جدوى من هذا الطعام، فلن آكله، ليس في وسعك إلا إعادته إلى المطبخ».

وضعت مامي الصينية على الطاولة، وعدلت وقفتها، جاعلة يديها فوق خصرها.

- «نعم يا آنسة، ستأكلينه، إذ إنني لا أريد أن يحدث لك مثلما حدث لي في آخر باربكيو، حيث أصبحت مريضة جداً من جرّاء مقانقهم التي أكلتها، إن لم أقدم لك طعامك قبل الذهاب. سوف تأكلين كل قطعة من هذا الطعام».

- «لن آكل، تعالي الآن وشدي خصري أكثر، فقد أدركنا الوقت وسمعت هدير العربة آتية أمام البيت».

- «الآن يا آنسة سكارلت»، أجابت مامي وقد بدأت لهجتها تنمّ عن المداهنة، «تفضلي وكلي جزءاً قليلاً فقط. فالآنسة كارين والآنسة سولين أكلت كلٌّ منهما وجبتها كلّها».

- «قد تأكلان»، قالت سكارلت بازدراء، «فهما أضعف من أرنب في تلبية طلباتك، ولكني لن آكل، إني متخمة بالطعام، ولم أنسَ بعد المرة التي أكلت فيها كل الوجبة وذهبت إلى آل كالفرت، حيث قدموا بوظة صنعوها بواسطة الثلج الذي حملوه معهم طول الطريق من سافانا، فلم أستطع أن آكل إلا ملء ملعقة، واليوم سأنعم بوقت طيب، وأتناول من الطعام بقدر ما يلذ لي».

أمام هذا الضلال المتحدي، قطبت مامي جبينها غضباً، وهي التي ترى أن ما يحق للفتاة عمله، وما لا يحق، أمران مختلفان اختلاف السواد والبياض، وأن ليس هناك موقف وسط في موضوع الأخلاق والسلوك، لقد كانت سولين وكارين مطواعتين كالطِّين في قبضتها

القوية، تصغيان باحترام إلى تحذيراتها، بينما هي في عراك دائم مع سكارلت كلما أرادت إفهامها أن معظم بواعثها الفطرية لا تليقُ بالسيدة الفاضلة، فانتصاراتها عليها كانت صعبة المنال يتمثل فيها غدر لا يعرفه العقل الأبيض.

- «إذا كنت لا تبالين بما يقوله الناس عن هذه العادة المشينة، فأنا أبالي»، قالت مامي هادرة، «ولن أقف مكتوفة الأيدي وأدع كل من في الحفلة يقول إنك لم تربي تربية صحيحة، لقد أخبرتك وأخبرتك أن في وسعك دوماً معرفة السيدة الفاضلة إذا كانت مقلة في أكلها كالعصفور، ولن أدعك تذهبين إلى آل ويلكس وتأكلين كعاملة الحقل، وتزدردين الطعام كالباز».

- «أمي سيدة فاضلة وتأكل»، ردت سكارلت.

- «عندما تتزوجين في إمكانك أن تفعلي مثلها. يوم كانت الآنسة إيلين في مثل عمرك، لم تكن تأكل مطلقاً خارج البيت، وكذلك الأمر مع خالتك بولين وخالتك يولالاي، وقد تزوجن جميعاً. أما الآنسات الصغيرات اللواتي يأكلن كثيراً، فيندر أن يتزوجن».

- «لا أعتقد ذلك، ففي حفلة الباربكيو تلك كنت مريضة، ولم أكن قد أكلت من قبل، أخبرني آشلي ويلكس أنه يحب أن تكون الفتاة ذات شهية قوية».

هزت مامي رأسها منذرة بشرٍّ مُستَطير.

- «إن ما يقوله السادة الرجال يختلف كثيراً عما يفكرون فيه. وأنا لم ألحظ السيد آشلي مهتماً بالزواج بك».

فتجهّم وجه سكارلت، وهمّت أن تردّ بعنف، ولكنها أمسكت نفسها، إذ غلبتها مامي في تلك النقطة، ولا مجال للنقاش بعد. أما مامي فعندما رأت النظرة العنيدة المتصلبة في وجه سكارلت، حملت

صينيتها، وغيّرت خطتها وفق غريزة المكر المراود التي يتصف به الزنوج، وفيما اتجهت نحو الباب، تنهدت قائلة:

- «حسناً حسناً يا آنسة، كنت أخبرت كوكي وهي تضع مؤونة الصينية، في وسعك معرفة السيدة الفاضلة تماماً بمعرفة الكمية التي تأكلها، وقلت لها أيضاً لم أرَ سيدة بيضاء تأكل أقل مما أكلت الآنسة ميلي هاملتون في آخر زيارة لها للسيد آشلي... - أعني للآنسة إنديا».

فرمقتها سكارلت بنظرة شكٍّ، ولكن وجه مامي العريض لم ينم إلا عن البراءة، وعن الأسف لأن سكارلت ليست سيدة فاضلة كميلاني هاملتون.

- «ضعي هذه الصينية وهلمي اضغطي خصري كثيراً»، قالت سكارلت بِرمة، «وسأحاول أن آكل قليلاً بعد ذلك، لأني إن أكلت الآن فلن يضيق خصري كما ينبغي».

وضعت مامي الصينية بعد أن أخفت علائم انتصارها.

- «ماذا ستلبسين يا حملي؟».

- «ذاك»، وأشارت إلى فستان الموسلين الموبّر، المُزدان بأزهاره الخضراء، الأمر الذي أثار مامي على التو:

- «لا، لن تلبسيه. إنه لا يناسب حفلة صباحية، وليس من حقك عرض صدرك قبيل الساعة الثالثة، فضلاً عن أنه بلا قَبة وبلا ردنين، وسيَكلَف جلدك حتماً، فتُمسين كما ولدت، وأنا لا أستطيع تصورك كلفاء بعد كل اللبن المخيض الذي دلّكتك به طوال الشتاء مزيلة الكلف الذي أصابك من جرّاء الجلوس على الشاطئ في سافانا. قطعاً سأخبر والدتك بما تفعلين».

- «إذا أخبرتها بكلمة واحدة، قبل إتمام لبسي، فلن آكل لقمة واحدة»، أجابت سكارلت ببرود، «ولن يكون لديها الوقت لإرجاعي كي أبدل الثوب إذا انتهيت من لبسه الآن».

تنهدت مامي مذعنة، وقد أدركت أنها أخطأت التقدير، فمن بين آفتين كانت تفضل أن ترتدي سكارلت ثوبها المسائي في باربكيو الصباح على أن تزدرد الطعام أمام الناس كالخنازير.

- «تمسكي جيداً بشيء، وتنفسي شهيقاً»، أمرت مامي، وأطاعت سكارلت، رابطة جسدها، وقابضة بقوة على أحد أعمدة السرير، بينما راحت مامي تدفع وتهز بشدة ونشاط حتى أضحى الخصر، الممنطق بحزام من جلد الحوت، أصغر قطراً، وعندئذ برقت عينا مامي بنظرة حب وكبرياء:

- «ليس لأحد خصر كخصر حملي»، قالت باستحسان، «في كل مرة أضغط خصر الآنسة سولين إلى أقل من عشرين بوصة، يغمى عليها».

- «أوف»، قالت سكارلت متنهدة بصعوبة، «لم يغمَ عليَّ في حياتي أبداً».

- «لن يضيرك شيئاً إذا ما أغمي عليك من وقت إلى آخر»، قالت مامي ناصحة، «بعض الأحيان تكونين جريئة جداً يا آنسة، وقد كنت عازمة على إخبارك أن عدم إغمائك من الحيات والفئران وأمثالها أمر غير مرغوب فيه، لا أعني في محيط البيت، بل عندما تكونين خارجاً بصحبة الرفاق، وأنا قد أخبرتك و. . .».

- «هيا أسرعي، لا تتكلمي كثيراً، سوف أحصل على زوج، سترين إن لم أفعل ذلك حتى إن لم أزعق أو يغمى عليَّ. رائع، ولكن المشد ضيق جداً، ألبسيني الفستان».

أسقطت مامي بعناية فستان الموسلين، المخيط من اثنتي عشرة ياردة، والمشجر باللون الأخضر، فوق التنورة الفضفاضة المنتفخة، وشبكت ظهر القميص الضيق الطويل:

- «احتفظي بشالك على كتفيك عندما تكونين في الشمس، ولا

تنزعي قبعتك إذا شعرت بالحرارة»، أمرت مامي مردفة: «وإلا ستعودين إلى البيت بنّية اللون كالسيدة العجوز سلاتري، والآن هيا إلى الأكل يا حلوتي، ولكن لا تلتهمي الطعام بسرعة، إذ لا جدوى منه عندئذ».

امتثلت سكارلت للأمر، وجلست أمام الصينية متسائلة عما إذا كان في مقدورها وضع طعام في معدتها، والاحتفاظ بفسحة من الفراغ تمكنها من التنفس، بينما تناولت مامي منشفة كبيرة من على المغسلة، وربطتها حول عنق سكارلت بعناية ناشرة طياتها البيضاء فوق حجرها. بدأت سكارلت بلحم الخنزير الذي تحبه، وراحت تدفع اللقم إلى جوفها دفعاً.

- «كم أتمنى من اللّه لو تزوجت»، قالت حانقة، وهي تقطِّع حبة البطاطا باشمئزاز، «تعبت من بقائي هكذا في وضع غير طبيعي، ومن عدم استطاعتي عمل أي شيء أرغب فيه، تعبت من اضطراري أن لا آكل أكثر من العصفور، وأن أمشي عندما أرغب في الركض، وأن أدّعي الإغماء بعد الفالس، في الوقت الذي أستطيع فيه الرقص يومين كاملين دون أن أحس بالتعب، تعبت من قول كم أنت رائع للرجال الأغبياء الذين لا يملكون نصف ما أملك من الفهم، تعبت من التظاهر بجهل كل شيء كيما يخبرني الرجال عن كل شيء، فيحسون بقيمة ذواتهم وهم يفعلون ذلك... لا أستطيع أن آكل لقمة أخرى».

- «جربي كعكة ساخنة»، قالت مامي دون هوادة.

- «لماذا يفترض بالفتاة أن تكون هكذا بلهاء، كيف تحصل على زوج؟».

- «أتصور أن سبب ذلك هو أن السادة الرجال لا يعرفون ماذا يريدون، إنهم يعرفون فقط ما يظنون أنهم يريدون، وبمنحهم إياه يزال كثير من البؤس عن بعض الآنسات كما تزال إمكانية بقائهن كبيرات السن. إنهم يظنون أنهم يريدون فتيات صغيرات، بيضاوات، بأحاسيس

الطيور، وغريرات، فالواحد منهم لا يشعر أنه تزوج سيدة فاضلة إذا ما ظن أنها أكثر فطنة منه».

- «ألا تظنين أن الرجال يدهشون بعد زواجهم، إذا ما اكتشفوا أن زوجاتهم فطنات؟».

- «عندئذ يكون قد فات الآوان، وتم زواجهم علاوة على أنهم يتوقعون أن تكون زوجاتهم فطنات».

- «ذات يوم سوف أفعل وأقول كل ما أريد فعله وقوله، وإذا لم يستحسن الناس ذلك، فلن أبالي».

- «لا، لن تفعلي»، قالت مامي عابسة، «ما دام فيَّ رمق من حياة. كلي قطعة الكعك واغمسيها بالمَرق يا حلوتي».

- «لا أعتقد أن الصبايا الشماليات يجبرن على التصرف كهؤلاء الغبيات، فعندما كنا في ساراتوغا في السنة الماضية، لاحظت الكثيرات منهن يتصرفن كمن يملك إدراكاً حسناً، وأمام الرجال أيضاً».

فشخرت مامي وقالت:

- «الشماليات، أجل. أظن أنهن يتحدثن وعقولهن سليمة، ولكنني لم ألحظ الكثيرات منهن يطلبن للزواج في ساراتوغا».

- «ولكن لا بد من أن يتزوجن»، علّقت سكارلت، «إنهن لا يكبرن فحسب، لا بد من أن يتزوجن وينجبن الأطفال، فعددهن كبير جداً».

- «الرجال يتزوجونهن من أجل نقودهن»، أجابت مامي بحزم.

غمست سكارلت قطعة الكعك بالمَرق، ووضعتها في فمها...

ربما كان هنالك بعض الحقيقة فيما قالته مامي، لا بد من وجود شيء حقيقي فيه، لأن إيلين تقول الأشياء ذاتها، ولكن بكلمات مغايرة وأكثر أناقة، والحق أن جميع أمهات صديقاتها يفرضن على بناتهن ضرورة كونهن عاجزات، اتكاليات، حذرات، قلقات، والواقع أن صفات

كهذه تتطلب الكثير من الوعي لتنشئتها وضبطها. . . أما هي فربما كانت شديدة الوقاحة، إذ كانت تتناقش وآشلي من وقت إلى آخر وتبدي آراءها بصراحة، فلعل هذا، ومتعتها الصحية في المشي وركوب الخيل، قد حولاه عنها إلى ميلاني الضعيفة، ومن المحتمل إن هي بدلت خططها. . . ولكنها تحس أن آشلي إذا ما خُدع بأحابيل النساء المتعمدة، فلن تستطيع احترامه كما تحترمه اليوم، فكل رجل شديد الغباء، بحيث يخدع من جرّاء ابتسامة متكلفة أو إيماءة، أو آه كم أنت مدهش، لا يجدر الزواج به، ولكن يبدو أن الجميع يستحسنون هذه الأساليب.

هل استعملت الأساليب الخاطئة في ماضيها مع آشلي؟ ولكن قد مضى عهد ذلك وانقضى، وستتبع اليوم أساليب جديدة، الأساليب الصحيحة، فهي تريد زوجاً ولا تملك إلا ساعات قليلة لنيله خلالها، وإذا كان الإغماء أو التظاهر به يوصل إلى الغاية، فستلجأ إليه، وإذا كان تكلف الابتسام أو العبث أو الطيش سيجذبه، فإنها ستصطنع العبث بكل سرور، وتتصرف أكثر طيشاً حتى من كاثلين كالفرت، وإذا ما اقتضت الضرورة خطوات أكثر جرأة، فستخطوها، فاليوم هو اليوم المشهود.

لم يكن هناك من يخبر سكارلت أن شخصيتها رغم حيويتها المخيفة، كانت أقوى جاذبية من أي وضع متكلف يمكن أن تختاره، ولو أخبرت ذلك لسرّت بالأمر دون أن تصدقه، كما لا يمكن أن تصدقه أيضاً هذه المدنية التي هي جزء منها، إذ لم يحدث في وقت ما، قبل الآن وبعده، أن قدرت الطبيعة الأنثوية بثمن بخس كما هي اليوم.

* * *

بينما كانت العربة تسير بسكارلت فوق الطريق الحمراء، في اتجاه

مزرعة آل ويلكس، انتابها شعور بالفرح الآثم لأن أمها ومربيتها لن تحضرا الحفلة، وبذلك لن يوجد في الباربكيو من يستطيع التعرض لخطة تصرفاتها، سواء عن طريق رفع الحاجبين برفق، أو مدِّ الشفة السفلى. ومن المؤكد بالطبع أن سولين ستروي الأقاصيص عنها غداً لأهلها، ولكن إذا سار كل شيء بحسب ما ترجو، فإن اضطراب العائلة من جرّاء خطوبتها لآشلي، أو فرارها معه، سيكون أكثر من راجح، إذا ما قيس بكدر أفرادها.

أجل، إنها مسرورة جداً لاضطرار إيلين البقاء في البيت.

كان جيرالد، وقد تعاظم بتأثير الكونياك، قد أبلغ جون ويلكرسون قرار فصله، فبقيت إيلين في تارا لمراجعة حسابات المزرعة قبل مغادرته لها، وهناك في غرفة مكتبها الصغيرة، حيث جلست أمام منضدتها المرتفعة، ذات الأدراج المكدسة الأوراق، قبَّلتها سكارلت قبلة الوداع، بينما وقف جوناس ويلكرسون وقبعته في يده إلى جانبها ووجهه الشاحب الأصفر المعروق عاجز عن إخفاء ثورة الكراهية التي تملّكته لفصله اعتباطاً عن أحسن وظيفة ناظر في المقاطعة من جرّاء مغازلة تافهة. لقد أخبر جيرالد مرة بعد مرة أن طفل إيمي سلاتري يمكن لأي واحد من اثني عشر رجلاً أن يتبناه مثله بطيبة خاطر - الفكرة التي قبلها جيرالد - ولكن هذا القول لم يغير من قضيته بالنسبة إلى إيلين.

كان جوناس يكره جميع الجنوبيين، يكره مجاملتهم الفاترة له، وازدراءهم لمنزلته الاجتماعية، هذا الازدراء المغلف بمجاملتهم بشكل فاضح، كما كان يكره إيلين أوهارا قبل أي إنسان آخر، إذ كانت في نظره صورة مصغرة لكل ما يكره في الجنوبيين.

أما مامي فقد بقيت لتساعد إيلين، لكونها رئيسة نساء المزرعة ولذلك ركبت دلسي إلى جانب السائق توبي، واضعة فساتين رقص

البنات داخل علبة طويلة على حضنها. وخلف العربة، ركب جيرالد على حصان الصيد الكبير، مستشعراً بدفء الكونياك، مسروراً لإنهائه قضية ويلكرسون المُكدرة بسرعة فائقة، وقبل مغادرته المكان ألقى المسؤولية على عاتق إيلين، دون أن يخطر في باله حقيقة شعورها بالخيبة لخسرانها الباربكيو ولقاء صديقاتها، فالنهار ربيعي رائع، وحقوله تبدو لناظريه جميلة والطيور مغردة، وهو يحس إحساساً قوياً بالشباب والمرح، بحيث لن يفكر في أي شخص آخر. وبين الفينة والفينة، كان يدوي بصوته مرنماً أنشودة: «بغ في عربة منخفضة المؤخرة»، وغيرها من الأناشيد الإيرلندية الأخرى أو مردداً رثاء روبرت إيميت[1] المحزن: «إنها بعيدة عن البلاد يرقد بطلها الشاب».

كان سعيداً منطلق السرور بأمل قضاء النهار في حديث عن الشماليين والحرب، فخوراً ببناته الثلاث الجميلات، في تنانيرهن الزاهية الفضفاضة يتفيأن بمظلات صغيرة مطرَّفة بالدنتلة، عديمة الجدوى. ولم يفكر البتّة في حديثه مع سكارلت السابق، إذ كان قد انسلَّ من تفكيره تماماً، فلم يخطر له سوى أنها بديعة ومدعاة كبيرة لفخره، وأن عينيها في هذا اليوم خضراوان كروابي إيرلندا، وقادته هذه الخاطرة الأخيرة إلى التفكير في نفسه بشكل أفضل، لتضمُّنها رنيناً شعرياً خاصاً، جعله يكرم بناته بصوت مرتفع، مرنماً الترجمة الغامضة نوعاً ما، لنشيد «ارتداء الثوب الأخضر».

وتطلعت إليه سكارلت بازدراء حنون، كما تتطلع الأمهات إلى أولادهن الصغار المغرورين، مدركة أنه لن يأتي المساء إلا وهو ثمل للغاية، وأنه سيحاول أثناء عودته ليلاً القفز عن كل الحواجز المنتصبة بين تولف أوكس وتارا، وأملت أن تتعاون الرحمة الربانية وتنبه

---

(1) وطني إيرلندي أعدم بعد ثورة فاشلة ضد الإنجليز سنة 1803 - (المترجمان).

حصانه، على تجنبه كسر رقبته. . . سوف يخوض مياه النهر بحصانه مستنكفاً من المرور فوق الجسر، وسوف يأتي البيت مدوياً بصوته، ليحمله بورك إلى النوم فوق الكنبة في المكتب بعد أن يكون قد انتظره في القاعة الأمامية ومعه المصباح، كعادته في مثل هذه المناسبات.

سوف يُتلِف بذلته الصوفية الرمادية الجديدة، مما يضطر إلى القَسَم الرهيب في الصباح، وإخبار إيلين بإسهاب مطرد، كيف وقع حصانه عن الجسر، في الظلمة، الكذبة الجلية التي لن تخدع أحداً، ولكنها تُقبَل من الجميع، لتجعله يشعر بذكائه الحاد.

بابا إنسان لذيذ، أناني غير مسؤول، فكرت سكارلت وقد جاش صدرها بالعاطفة نحوه، مستشعرة أنها في هذا الصباح، عظيمة السرور، شديدة الانطلاق بحيث يغمر حنانها كل الدنيا، كما غمر جيرالد، إنها جميلة، وهي تعلم ذلك، وستكسب آشلي لنفسها قبل نهاية النهار، إن أشعة الشمس دافئة وها هو جلال الربيع في جورجيا يمتد أمام ناظريها، وعلى طول الطريق، رأت أشجار العليق الشوكية تحجب بخضرتها البديعة الأخاديد الموحشة الحمراء، التي حفرتها أمطار الشتاء، كما رأت صخور الغرانيت الناتئة من الأرض الدكناء، بفعل انجراف التربة، تزدان بعناقيد من الورود الشيروكية[1]، تحوطها أزهار البنفسج ذات اللون القرمزي الباهت، وفوق التلال المكسوة بالغابات، كانت تتلألأ أزهار شجيرات الدكوود بيضاء متألقة، كما لو أن الثلوج ما زالت تتمهل بقاءها بين النبات الأخضر، بينما أشجار الزعرور المتفتحة، تنبثق براعمها متحولة من اللون الأبيض الجميل إلى اللون الزهري الفاقع، وتحت الأشجار، كانت أشعة الشمس ترقش أغصان الصنوبر المتكسرة. أما أزهار الياسيمن البرية فقد بدت كسجادة

---

(1) نسبة إلى قبيلة هندية كانت تسكن جنوب جبال الليغاني - (المترجمان).

مختلفة الألوان، من القرمزي إلى البرتقالي إلى الوردي. وحمل النسيم أريج البر الخفيف فائحاً من النباتات الحلوة الناجمة، كل شيء يعبق برائحة طيبة تبعث الشهية إلى الطعام.

«سوف أذكر كم جميلاً كان هذ اليوم ما حييت»، فكرت سكارلت، «وربما يكون يوم زواجي».

وتأملت والخفقة من قلبها، كيف يحتمل أن تنطلق مساء اليوم هي وآشلي، راكبين خلال هذا البهاء من الأزهار والأشجار، أو أثناء الليل في ضوء القمر، قاصدين جونسبورو والكاهن. وبالطبع سوف تجدد عقد زواجها أمام كاهن أتلانتا، الأمر الذي سيُقلق جيرالد وإيلين كليهما. ووهنت برهة وهي تتأمل كيف سيشحب وجه أمها عاراً وهي تسمع أن ابنتها فرّت مع خطيب فتاة أخرى، ولكن إيلين ستسامحها عندما ترى سعادتها، وجيرالد سوف يزعق ويشتم ولكن رغم كل ملاحظاته أمس حول عدم رغبته في زواجها بآشلي، سيكون سروره عظيماً لا يوصف لاتحاد عائلته بعائلة آل ويلكس.

«على أن هذه الأمور لن تقلقني إلا بعد الزواج»، فكرت مزيحة قلقها عنها. كان من المستحيل أن يشعر الإنسان بغير الفرحة القلبية المنعشة، في هذه الشمس الدافئة، في هذا الربيع، وقد بدأت مداخن تولف أوكس تظهر للعيان فوق التلة، وراء النهر.

«سأعيش هناك طوال عمري وسأشاهد خمسين ربيعاً كهذا الربيع، وربما أكثر، وسأخبر أبنائي وأحفادي كم جميلاً كان هذا الربيع، أجمل من أي ربيع يمكن أن يشاهدوه»، وغمرها السرور إثر هذه الخاطرة، حتى إنها شاركت في الردة الأخيرة لأغنية «ارتداء الثوب الأخضر» فنالت بذلك استحسان جيرالد المدوي.

- «لا أعرف سبب سعادتك الغامرة هذا الصباح؟»، قالت سولين بغضب، إذ ما زال يتقد في دماغها أنها تبدو بثوب رقص سكارلت

الحريري أجمل بكثير مما تبدو به صاحبته الشرعية، ولماذا كانت سكارلت دائماً شديدة الأنانية فيما يتعلق بإعارة أثوابها وقبعاتها؟ ولماذا كانت أمها تدعمها، معلنة أن اللون الأخضر لا يناسب سولين. «أنت تعرفين كما أعرف أن خطوبة آشلي ستعلن هذه الليلة، هكذا قال بابا صباحاً، وأنا أعرف أنك كنت تتوددين إليه منذ شهور».

- «وهذا كل ما تعرفينه»، أجابت سكارلت، مادة لسانها، رافضة التخلي عن مزاجها الطيب، كم دهشة ستكون الآنسة سولين في مثل هذا الوقت من صباح الغد:

- «سوزي، أنت تعرفين أن الأمر ليس كذلك»، احتجت كارين منذهلة، «فهي لا تحفل إلا ببرنت».

تطلعت سكارلت نحو شقيقتها الصغرى، بعينين خضراوين باسمتين، مستغربة إن كان في وسع أي فتاة أن تكون بمثل هذه الرقة الخلابة، كل العائلة تعرف أن قلب كارين، التي ما زالت في سن الثالثة عشرة، معلق ببرنت تارلتون، الذي لم يحفل بها إلا بصفتها شقيقة سكارلت الصغرى. وفي غياب إيلين، كان أفراد آل أوهارا يغيظونها حتى تبكي، بالحديث عنه.

- «أنا لا أحفل مطلقاً ببرنت، يا عزيزتي»، أعلنت سكارلت سعيدة جداً بموقفها الكريم، «كما أنه لا يحفل بي أبداً، كيف لا، وهو ينتظرك حتى تكبري».

احمرَّ وجه كارين الصغير المستدير، والغيظة تغالب الشك في نفسها:

- «أحقاً ما تقولين يا سكارلت؟».

- «تعلمين أن أمي قالت إن كارين ما زالت صغيرة جداً لتفكر في العشاق الآن، وها أنت تملأين رأسها بالأفكار...».

- «حسناً، اذهبي وشي بي، لتري إن كنت أبالي» أجابت سكارلت. «تريدين أن تردعي سسي[1] لأنك تعرفين أنها ستفوقك جمالاً، خلال سنة أو أكثر قليلاً».

- «لتحافظن على ألسنتكن المهذبة في أفواهكن هذا اليوم، وإلا حَملت سوطي وجئتكن»، حذر جيرالد، «والآن اسكتنَ. أهدير عجلات عربة هذا الذي أسمعه؟ لا بد أن يكونوا آل تارلتون أو آل فونتين». وعندما قارب القادمون مفترق الطريق، التي تنحدر من ميموسا وفيرهيل عبر التلة الكثيفة الغابات، سمع صوت عجلات العربة وحوافر الخيل أكثر من قبل، وعلا صخب أصوات نسائية في نقاش مرح، صادر من خلف حاجز الأشجار، فما كان من جيرالد، المتقدم أمام الجميع، إلا أن شد عنان فرسه وأشار إلى توبي أن يوقف العربة، حيث تلتقي الطريقان.

- «إنهن سيدات آل تارلتون»، خاطب بناته، ووجهه المورد يشع حبوراً، إذ لم يكن في المقاطعة، باستثناء إيلين، امرأة يعزها أكثر من السيدة تارلتون، ذات الشعر الأحمر، «وهي نفسها تقود العربة، ها: امرأة بيدين ناعمتين لقيادة حصان، يدين خفيفتين بوزن الريشة، قويتين كالسياط، وجميلتين جداً، بحيث تستحقان القبلة من أجل ذلك كله. والمؤسف أن لا واحدة منكن تملك مثل هاتين اليدين»، قال حادجاً فتياته بنظرات ودية ولكنها معيِّرة زاجرة. «فكارين تخاف الخيول المسكينة، وسولين تشبه يداها مكواة الثياب الثقيلة وهما تقبضان على الزمام، وأنت يا آنسة».

- «على كل حال، لم أقع عن ظهره يوماً»، صاحت سكارلت ساخطة، «بينما السيدة تارلتون تقع في كل رحلة صيد».

---

(1) تصغير كارين - (المترجمان).

- «وتكسر عظمة رقبتها كالرجال دون إغماء أو ضوضاء»، قال جيرالد، «والآن، لنكفّ عن هذا الحديث فقد وصلت».

ووقف على ركابي سرجه، وخلع قبعته بسرعة فائقة، عندما بدت للعيون عربة آل تارلتون، وقد طفحت بفتيات في أثوابهن الزاهية، ومظلاتهن، وبراقعهن المتماوجة، وكما قال جيرالد، جلست السيدة تارلتون على كرسي القيادة، بينما كان في الداخل بناتها الأربع، ومربيتهم، وفساتين الرقص، ضمن علب كرتونية طويلة، ما أزحم العربة، ولم يبقَ فراغ لجلوس السائق فيها، هذا علاوة على أن بياتريس تارلتون لا تسمح عن طيبة خاطر لأي إنسان، أبيض أو أسود، أن يمسك بالزمام عندما تكون ذراعاها دون ضمادات. إنها امرأة حساسة ذات هيكل عظمي بديع، وبشرة ناصعة البياض، كان شعرها الأحمر الملتهب قد امتصَّ جميع لون وجهها إلى خصلاته الحية اللامعة، ومع ذلك، كانت تتمتع بصحة وافرة، وطاقة لا تنضب، وقد ولدت ثمانية أطفال بشعور حمراء كشعرها، وحيوية كحيويتها، وربّتهم أحسن تربية، كما يقول أهل المقاطعة، نظراً إلى ما تعاملهم به من الإهمال المرغوب فيه والنظام الصارم، اللذين تعامل بهما مهار الخيل التي تربّيها، «اكبح جماحهم، ولكن لا تقتل معنوياتهم»، هكذا كان شعار السيدة تارلتون.

كانت تحب الخيل، وتتحدث إليها دائماً، وتفهمها وتدبر أمورها أفضل من أي رجل في المقاطعة، وقد طفحت المرجة الأمامية بالأمهار، تماماً كما طفح بيتها الفسيح على التلة بأولادها الثمانية. وكانت عندما تتجول في المزرعة، يسير الأبناء والبنات وكلاب الصيد والمهار كالذيل خلفها. وقد أكسبت الخيول، بخاصة فرسها الحمراء، نيلي، ذكاء بشرياً، وإذا ما أخّرتها شواغل البيت إلى ما بعد الوقت الذي تنتظر فيه القيام بركوبها اليومي، وضعت وعاء السكر في يد أحد الصبية الزنوج قائلة: «أعطِ حفنة لنيلي، وأخبرها أني قادمة على الفور».

وباستثناء بعض المناسبات النادرة، كانت ترتدي دائماً ثوب الركوب، لأنها سواء ركبت أم لا، كانت تأمل الركوب في أي وقت، وبدافع ذلك الأمل، كانت ترتديه فور يقظتها من النوم، وفي كل صباح ماطر أو مشرق، كانت نيلي تسرح وتروح وتجيء أمام البيت، تنتظر الوقت الذي تستطيع فيه السيدة تارلتون توفير ساعة للركوب بعيداً عن مسؤولياتها، ولكن فيرهيل كانت مزرعة عسيرة التدبير، وفراغ الوقت فيها يصعب الحصول عليه، وكثيراً ما ظلت نيلي تروح وتجيء، ساعة بعد ساعة، دون ركوب، بينما بياتريس تارلتون ماضية بأعمال البيت، وتنورة ثوبها معقودة إلى ذراعها، دون أن تفطن لها، كاشفة عن جزمتيها اللامعتين البالغتين ست بوصات.

أما اليوم، فقد ارتدت ثوباً حريرياً أسود، غير لمّاع، فوق أطواق ضيقة قديمة الطراز، فبدت كأنها في رداء الركوب، إذ كان الثوب مخيطاً بشكل ضيق كذاك الرداء، بينما قبعتها الصغيرة السوداء ذات الريشة الطويلة، التي تنحني فوق إحدى عينيها العسليتين البراقتين الحنونتين، كانت صورة طبق الأصل لقبعتها العتيقة البالية التي تستعملها أثناء الصيد.

وعندما شاهدت جيرالد، لوَّحت بسوطها، وقادت حصانيها الأحمرين المتراقصين إلى مكان تقف فيه، بينما انحنت الفتيات الأربع، في مؤخرة العربة، متطلعات خارجاً، مرسلات صرخات تحيات سارة جعلت الحصانين يقفزان مذعورين، بحيث يخيل للرائي عرضاً أن سنين قد انقضت منذ شاهدت عائلة تارلتون عائلة أوهارا، بدلاً من يومين فقط، فقد كانت هذه العائلة حسنة المعشر، تحب جيرانها، خصوصاً فتيات آل أوهارا، أي سولين وكارين، إذ لم تكن في المقاطعة فتاة واحدة، مع إمكان استثناء الطائشة كاثلين كالفرت، تحب سكارلت حباً حقيقاً.

في فصول الصيف، كان أهل المقاطعة يقيمون حفلات الباربكيو والرقص، بمعدل واحدة من كل نوع في الأسبوع تقريباً، ولكن رغم ذلك، وبالنسبة إلى فتيات تارلتون، ذوات الشعر الأحمر، والمقدرة الفائقة على إمتاع أنفسهن، كانت كل حفلة رقص أو باربكيو مثيرة مطربة كما لو أنها أول حفلة يحضرنها.

كن صبايا أربع ظريفات، ممتلئات صحة، حشرن حشراً في العربة، حتى تداخلت أطواقهن وأهداب أثوابهن بعضها في بعض، وحتى راجت مظلاتهن ترتطم ببعضها وتبرز مجتمعة فوق قبعاتهن الواسعة، المصنوعة من القش للوقاية من الشمس، والتي تتوجها الورود، ويتدلى منها إلى تحت ذقونهن شرائط مخملية سوداء، والتي تحتوي داخلها شعوراً تمثل في ألوانها جميع درجات الاحمرار المتفاوت: شعر هيتي الأحمر الفاتح، وشعر كاميلا الأشقر بلون الفراولة، وشعر رندا النحاسي القاني الحمرة، وشعر بتسي الصغيرة الأحمر بلون رؤوس الجزر.

- «إنه سرب بديع يا سيدة»، قال جيرالد بلهجة كيّسة، هامزاً حصانه بمحاذاة العربة، «ولكن ما زال أمامهن شوط كبير ليلحقن بأمهن».

أدارت السيدة تارلتون عينيها العسليتين الحمراوين، قالبة شفتها السفلى في تعبير استهزائي ساخر، فصرخت الفتيات: «ماما، كفي عن سخريتك وإلا فسنخبر بابا»، «نقسم يا سيد أوهارا إنها لا تمنحنا يوماً أية فرصة عند وجود رجل مثلك وسيم الطلعة».

ضحكت سكارلت والباقون من جرّاء هذه التحرشات، ولكنها شأنها دائماً، ذهلت للحرية التي تتمتع بها فتيات تارلتون في معاملتهن لأمهن،، إذ كن يتصرفن كأنها واحدة منهن لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة بيوم واحد، بينما مجرد التفكير بقول مثل هذه الأقوال لإيلين كان

بالنسبة إلى سكارلت كتدنيس للمقدسات الدينية. ومع ذلك فإن هناك شيئاً ممتعاً جداً في علاقة بنات تارلتون بأمهن، فهن يحببنها لدرجة العبادة، رغم كل انتقاداتهن ولومهن وإغاظتهن، ولكن سكارلت أسرعت في القول لنفسها مخلصة: إنها لا تفضل أماً كالسيدة تارلتون على إيلين، رغم أنها لا ترى أن التهريج مع الأم أمر مفرح، ولكنها مع ذلك تعرف أن مجرد التفكير بهذا مهين لإيلين، ولذلك شعرت بالعار من جرّائه، كما أنها تعرف أن أفكاراً مقلقة كهذه، لم يحدث أن أزعجت العقول الأربعة، تحت قبعات القش الحمراء، في العربة... وانتابتها حيرة مثيرة، كعادتها كلما أحست نفسها تختلف عن جارتها.

وعلى الرغم من أن عقلها كان سريع الإجابة، فإنه لم يُخلَق للتحليل والتعليل، ولكنها رغم ذلك تحققت بنصف وعي أن بنات تارلتون، رغم كونهن متمردات كالأمهار وبرّيات كأرانب مارس، كانت بهن سذاجة لا تضايقهن، هي في الواقع جزء من ميراثهن.

كنَّ جورجيات من ناحية أبيهن وأمهن، من شمال جورجيا، يفصلهن جيل واحد فقط عن الرواد الأول، واثقات بأنفسهن، وبحقيقة وسطهن الاجتماعي، يعرفن بالغريزة ماذا يردن، كفتيات آل ويلكس، وإن تباينت الأساليب تبايناً واضحاً، وقد خلت نفوسهن من ذلك التناقض الذي يثور تكراراً في صدر سكارلت، حيث امتزج دم امرأة من أرستقراطيّي الساحل، ذات تنشئة راقية، وصوت ناعم، مع الدم الفظ الماكر، لفلاح إيرلندي. إن سكارلت تريد أن تحترم أمها وتحبها كمعبودة، كما تريد أن تجعد شعرها وتغيظها أيضاً، ولكنها تعرف أن عليها أن تسلك إحدى هاتين الطريقتين فقط، إنها هذه العاطفة المتناقضة ذاتها هي التي جعلتها ترغب في الظهور بمظهر السيدة اللطيفة الراقية التهذيب مع الشبان، وتكون في الوقت نفسه فتاة فظة سيئة التربية لا ترتفع عن مستوى التقبيل.

- «أين إيلين في هذا الصباح؟»، سألت السيدة تارلتون.

- «تأخّرت بعد أن فصلنا ناظرنا، ومكثت في البيت لمراجعة الحسابات معه. أين السيد تارلتون والشبان؟».

- «لقد ركبوا إلى تولف أوكس منذ ساعات، ليعاينوا الشراب ويروا إذا كان من النوع المسكر كما يجب. كأنهم لن يستطيعوا فعل ذلك منذ الآن وحتى صباح الغد. سأطلب من جون ويلكس أن يبقيهم طوال الليل، حتى لو اضطر إلى جعلهم ينامون في الاصطبل، فخمسة رجال سكارى أكثر مما أستطيع احتماله. في وسعي الاهتمام بثلاثة فقط، ولكن...».

لم يدعها جيرالد تتم عبارتها، بل قاطعها مسرعاً، ليغير موضوع الحديث، وقد شعر ببناته الجالسات خلفه، يحاولن كتمان ضحكهن، وهنّ يتذكرن بأية حالة عاد والدهن إلى البيت، من باربكيو آل ويلكس الأخيرة، في الخريف الماضي.

- «ولماذا لم تمتطي حصانك هذا اليوم يا سيدة تارلتون؟ من المؤكد أنك لا تظهرين على حقيقتك أبداً من دون نيلي، أنت جهورية الصوت كستنتور[1]».

- «كستنتور؟ أنا كستنتور أيها الصبي الجاهل؟»، صاحت السيدة تارلتون مقلدة لهجته الإيرلندية، «أنت تعني كسنتور[2]، فهذا كان رجلاً ذا صوت داوٍ كصوت ناقوس نحاسي».

- «ستنتور أو سنتور، لا فرق»، أجاب جيرالد، غير مرتبك من جرّاء غلطته، «وصوتك كدوي النحاس يا سيدة، عندما تنهرين الكلاب... هو كذلك».

---

(1) ستنتور: بشير يوناني مرتفع الصوت ظهر أثناء الحرب الطروادية، كما تروي إلياذة هوميروس - (المترجمان).

(2) سنتور في الأساطير اليونانية رجل هائل له جسم حصان - (المترجمان).

- «هذه شهادة ضدك يا ماما»، قالت هيتي، «لقد قلت لك إنك تزعقين ككومانشي[1]، عندما تلمحين ثعلباً».

- «ولكن ليس بعلو زعيقك عندما تغسل مامي أذنيك»، أجابت السيدة تارلتون، «وأنت في السادسة عشرة من عمرك: لا بأس، أما بالنسبة إلى عدم امتطائي الفرس اليوم، فإن نيلي وضعت مهراً هذا الصباح الباكر».

- «هذا الصباح؟»، صاح جيرالد باهتمام حقيقي، وقد برقت عيناه بعاطفته الإيرلندية تجاه الخيل، وثانية، ذهلت سكارلت من جرّاء مقارنة والدتها بالسيدة تارلتون، فبالنسبة إلى إيلين، لم تكن الأفراس تضع مهاراً أبداً، ولا الأبقار عجولاً، وفي الحقيقة حتى الدجاج لم يبض غالباً، إذ كانت تتجاهل كل هذه الأمور كلية، بينما السيدة تارلتون، لا تحبس لسانها عن ذكرها.

- «مهرة صغيرة، أليس كذلك؟».

- «لا، مهر صغير رائع بقوائم تبلغ الياردتين طولاً. ينبغي أن تحضر وتراه يا سيد أوهارا. إنه حصان تارلتوني حقيقي، أحمر اللون كخصلات شعر هيتي».

- «وكذلك يشبهها إلى حد كبير»، قالت ذلك كاميلا ثم صرخت مختفية وسط كومة التنانير والسراويل المتلاطمة، والقبعات المتمايلة، حين شرعت هيتي الغاضبة تقرصها.

- «مهراتي في غمرة هياجهن هذا الصباح، إنها ترفس أقدامها عالياً منذ سمعنا في ساعة مبكرة، نبأ آشلي وابنة عمه الصغيرة التي من أتلانتا. ما اسمها؟ ميلاني؟ ليباركها اللّه من طفلة: إنها مخلوقة صغيرة

---

(1) أحد أفراد قبيلة هندية، كانت تسكن ما بين نهر يلاتي في الولايات المتحدة والحدود المكسيكية - (المترجمان).

حلوة، ولكني لا أستطيع تذكّر اسمها ووجهها البتّة، على أن طاهيتنا حظية نادل آل ويلكس، وقد جاءنا حظيها الليلة الماضية بنبأ إعلان الخطوبة هذا المساء، وأخبرتنا به كوكي صباحاً. وقد دهشت جميع بناتي، مع أني لم أستطع معرفة السبب، فكل إنسان يعرف منذ سنين أنه سيتزوجها، وذلك إن لم يتزوح إحدى بنات خالته، آل بور، في ميكون، تماماً كما ستتزوج هوني ويلكس شقيق ميلاني، تشارلز. والآن أخبرني يا سيد أوهارا، هل محرم على آل ويلكس الزواج من غير عائلتهم؟ لأنه إذا...».

لم تسمع سكارلت بقية العبارة التي قيلت بشكل مرح، ولبرهة قصيرة، أحست كأن الشمس قد غابت خلف سحابة باردة، تاركة الدنيا تغرق في الظلال، نازعة ألوان المخلوقات. وتراءت لناظريها أوراق النباتات الخضراء الطرية صفراء هزيلة، وأشجار الدكوود شاحبة، وشجيرات الزعرور، التي كانت حمراء جميلة، غدت ذابلة كئيبة. وغرزت أصابعها في مقعد العربة الوثير وترنحت مظلتها لحظة. كان من المؤلم أن تعلم بخطوبة آشلي، ولكن من المؤلم كذلك أن تسمع الناس يتحدثون عن الأمر بصورة عرضية عادية. ثم عاودتها رباطة جأشها قوية عنيفة، وأشرقت الشمس ثانية، وتلألأت مناظر البرية من جديد. إنها تعرف أن آشلي يحبها، وأن ذلك أمر مؤكد، وابتسمت وهي تفكر، أي دهشة ستتملك السيدة تارلتون عندما لا تعلن خطوبة الليلة، وكم ستفاجأ إذا ما تم الفرار؟ وكيف ستخبر جيرانها أي نذلة خبيثة كانت سكارلت ساعة جلست في العربة تصغي إلى حديثها عن ميلاني، في الوقت الذي هي وآشلي طوال المدة. وبانت غمازتاها، وهي تبتسم لهذه الخطرات. بينما هيتي التي كانت تراقب متيقظة تأثير كلمات أمها، استرخت في مقعدها، بوجه منقبض حائر.

- «أنا لا أحفل يا سيد أوهارا»، كانت السيدة تارلتون تعلن ذلك

بشدة، «كله خطأ، زواج أبناء الأعمام، إنه ليس في صالح آشلي مطلقاً، الزواج بالطفلة هاملتون. ولكن بالنسبة إلى زواج هوني بذاك الهزيل الشاحب تشارلز هاملتون...».

- «هوني لن تحصل على الزواج البتّة، إذا لم تتزوج تشارلي»، قالت رندا بقسوة واطمئنان نظراً إلى كونها محبوبة رائجة، «فهي لم تنعم يوماً بعاشق سواه، وهو لم يحسن التودد إليها أبداً. سكارلت، تذكرين كيف تبعك في عيد الميلاد المنصرم؟».

- «لا تكوني حقودة يا آنسة»، قالت أمها، «ينبغي ألّا يتزاوج أبناء الأعمام، حتى ولا أبناؤهم، فهذا يضعف السلالة. والأمر ليس كما هو في الخيل، حيث تستطيع تلقيح فرس من شقيقها أو أبيها، وتحصل على ذرية جيدة، إذا كنت تميزين بين دم السلالات. ولكن هذه النظرية لا تنجح في البشر، فقد تحصل على وجوه جميلة، ولكن دون مناعة».

- «والآن يا سيدة، أنا أعارضك في هذه الناحية، هل في وسعك إخباري عن عائلة أفضل من آل ويلكس؟ وها هم يتزاوجون من بعضهم منذ كان برين بورو صبياً».

- «وقد حان الوقت ليكفّوا عن ذلك، إذ بدأت الأعراض تظهر، ها، ليس آشلي بالمثل الكافي، فهو عفريت جميل المنظر، رغم أنه - ولكن انظر إلى تينك الفتاتين الممتقعتي اللون من آل ويلكس. إنهما مسكينتان: ظريفتان طبعاً، ولكنهما شاحبتان. ثم انظر إلى ميلاني الصغيرة القامة تراها نحيفة كقضيب الحديد، رقيقة جداً بحيث يمكن للريح أن تعصف بها بعيداً. ضعيفة النفس، تجلس إليها فلا تسمع منها رأياً واحداً، بل «نعم يا سيدة»، «لا يا سيدة»، هذا كل ما تحسن قوله، هل أدركت ما أعنيه. تلك العائلة في حاجة إلى دم جديد، دم نشيط حاد، كبناتي الحمراوات الشعور، أو ابنتك سكارلت... والآن

أرجو أن لا تسيء فهمي. إن آل ويلكس أناس طيبون بطريقتهم الخاصة، وأنت تعرف إني أحبهم جميعاً. ولكن لنكن صريحين: إنهم ذوو تربية راقية، وساذجة أيضاً، أليسوا كذلك؟ قد ينجحون في الطريق الممهدة، الطريق السريعة، ولكن انتبه إلى ما سأقوله: أنا لا أعتقد أن في إمكان الويلكسيين السير في الدرب الموحلة، أعتقد أن المناعة الإنسانية قد نفدت منهم في جو جاف. نريد رجالاً أقوياء يستطيعون الصمود أمام تقلبات الحدثان. وقد جعلهم تزاوجهم من بعضهم يختلفون عن العائلات الأخرى في المنطلقة، فهم دوماً إما عازفون على البيانو، أو مكبّون رؤوسهم على الكتب، إني أعتقد أن آشلي يفضل القراءة على الصيد، أجل: أعتقد ذلك بصدق يا سيد أوهارا. ثم انظر فقط إلى عظامهم، إنها نحيلة جداً، إنهم في حاجة إلى آباء وأمهات أقوياء البنية...».

- «آه - ها - هوم»، قال جيرالد متثائباً متمطياً، إذ تنبه فجأة وهو يشعر بالإثم، إلى أن النقاش اللاذع جداً، والمناسب كلية في نظره، قد يكون على النقيض من ذلك تماماً في نظر إيلين، وتحقق أنها لن تستعيد رشدها إن هي عرفت أن بناتها قد سمح لهن بالاستماع إلى حديث صريح كهذا.

ولكن السيدة تارلتون كانت كعادتها تصم أذنيها دون كل الأفكار الأخرى، عندما تتابع موضوعها المفضل، التناسل، سواء بين الخيل أو بين البشر.

- «أنا أعرف عمّا أتكلم، لأن لي ابن عم وابنة عم تزوجا وأؤكد لك أن جميع أطفالهما جاحظو الأعين كالضفادع. إنهم مساكين. وعندما أرادت العائلة تزويجي بحفيد عمي، أخذت أرفس كالمهر، وقلت: لا يا أمي، ليس من أجلي، بل من أجل أطفالي الذين سيصابون كلهم بداءي التورم واللهثة، فأغمي عليها ساعة سمعت بداء

التورم، ولكني وقفت صامدة، ودعمتني جدتي التي كانت تعرف الكثير عن تناسل الخيل أيضاً، قائلة إني على صواب، أرأيت؟ ثم ساعدتني على الفرار مع السيد تارلتون. فتأمل الآن أولادي، إنهم ضخام القامة وأصحاء، ليس بينهم مريض أو قزم، مع أن طول بويد خمسة أقدام وعشر بوصات فقط، بينما الويلكسيون...».

- «لا قصداً بتغيير الموضوع يا سيدة...» قاطعها جيرالد مسرعاً وقد لاحظ نظرات كارين الحائرة، والفضول الشره في وجه سولين، وخشي أن تسألا إيلين أسئلة محرجة، تفضح كيف كان رقيباً فاشلاً، وسَرَّه أن يلاحظ أن زوجته كانت على ما يبدو تفكر في أشياء أخرى، شأن السيدات. وأنقذته هيتي من ورطته:

- «باللّه يا أماه، دعينا نتابع السير» صاحت بجزع، «فهذه الشمس تشوي جلدي وفي وسعي الآن سماع الكلف يفرقع رقبتي».

- «دقيقة واحدة يا سيدة قبل أن تذهبي...» قال جيرالد، «ماذا قررت أن تفعلي حول بيعنا الخيول من أجل الفرقة العسكرية. فالحرب يمكن أن تنشب في أي يوم بعد هذه اللحظة الحاضرة، والشبان يريدون إنجاز هذه القضية: إنها فرقة كلايتون، ونحن نريد لها خيول كلايتون، ولكن لكونك عنيدة، ما زلت ترفضين بيعنا خيولك الأصيلة».

- «ربما لن تقع أي حرب» ماطلت السيدة تارلتون، وقد تحوَّل عقلها تماماً عن عادات زواج الويكلسيين الشاذة.

- «كيف، ليس في وسعك يا سيدة...».

- «ماما» اعترضت هيتي ثانية، «ألا تستطيعين والسيد أوهارا التحدث عن الخيول في تولف أوكس، كما تتحدثان هنا».

- «بلى، تماماً، يا آنسة هيتي» قال جيرالد، «ولن أؤخرك سوى دقيقة واحدة بالضبط، فسوف نبلغ تولف أوكس في برهة قصيرة، حيث كل الرجال، عجزة وشبان يرغبون في معرفة ما تم حول الخيول، آه،

ولكن مما يحز في قلبي أن أرى سيدة جميلة مثل أمك، بخيلة جداً بخيولها. أين وطنيتك يا سيدة تارلتون؟ هل الحلف لا يعني شيئاً البتّة بالنسبة إليكم؟».

- «ماما» صاحت بتسي الصغيرة، «رندا جالسة على فستاني، وقد تجعَّد كله».

- «أبعديها عنك يا بتسي، ثم الزمي الصمت، والآن، أصغِ إليّ يا سيد جيرالد أوهارا»، أجابت رادة على إهانته، وقد بدأت عيناها ترمقانه شزراً: «لا تكلمني مستغلاً موضوع الحلف، فأنا أعتبر الحلف يعنيني بقدر ما يعنيك، وها إن أولادي الأربعة في الفرقة بينما ليس لك أي ولد فيها، ولكن أبنائي يستطيعون الاهتمام بأنفسهم، بينما خيولي لا. وأنا بكل سرور، أقدم الخيول دون مقابل، إذا علمت أن الذين سيركبونها شبان أعرفهم، رجال فاضلون، معتادون ركوب الخيول الأصيلة، لا، لن أتردد دقيقة واحدة، لكن لن أدع خيولي الجميلة تحت رحمة رجال الغابات والقفار، وحقراء البيض، المعتادين امتطاء البغال، لا يا سيدي، سيجثم على صدري كابوس الألم، وأنا أفكر أن السروج تخدش ظهورها أثناء الركوب، وأنها لا تساس كما ينبغي. هل تعتقد أني أسمح لأغبياء مجهولين بأن يمتطوا خيولي العزيزة البضة الأفواه، وأن يثخنوا أفواهها بالجراح، ويضربوها حتى يضعفوا معنوياتها؟ كيف، إن بدني يقشعر الآن، وأنا أفكر في هذا، لا يا سيد أوهارا. أنت لطيف جداً إذ ترغب في ابتياع خيولي، لكن الأفضل لك الذهاب إلى أتلانتا وشراء بعض الخيول المسنة المهترئة لأجلافك، فهم لن يميزوا الفرق أبداً».

- «ماما أرجوك، ألا نستطيع متابعة السير؟» سألت كاميلا، منضمّة إلى المجموعة التي نفد صبرها. «أنت تعرفين تمام المعرفة أنك سترفضين إعطاءهم خيولك العزيزة، مهما كلف الأمر، وعندما بابا

والشبان سيندفعون بالحديث عن الحلف، وحاجتهم إلى الخيل، وما شاكل، ستصيحين ثم تسمحين بها».

كشرت السيدة تارلتون هازة حبال العربة.

- «أنا لا أقدم على عمل كهذا» قالت، وهي تمس الحصانين بالسوط مساً خفيفاً جعل العربة تنطلق بسرعة.

- «إنها امرأة رائعة» قال جيرالد مرتدياً قبعته، سائراً بمحاذاة عربة بناته، «هلم يا توبي، سوف ننهكها ونأخذ الخيل، رغم كل هذا. طبعاً إنها على حق إن لم يكن الرجل فاضلاً نبيلاً، فلن يجدي فوق الفرس شيئاً، ومكانه الطبيعي بين المشاة. ولكن المؤسف عدم وجود عدد كافٍ من أبناء المزارعين في هذه المقاطعة لتشكيل فرقة كاملة، ماذا تقولين يا بنيّتي؟».

- «بابا، أرجو أن تسير خلفنا أو أمامنا، فأنت تثير العجاج بحيث نكاد نختنق» قالت سكارلت، شارحة أن ليس في وسعها احتمال المزيد من الحديث، الذي صرفها عن أفكارها، بينما هي متلهفة لتنظيم هذه الأفكار، وتنسيق أسارير وجهها في صورة جذابة، قبل بلوغ تولف أوكس.

وأطاعها جيرالد، هامزاً حصانه، مبتعداً عن العربة في سحابة من الغبار الأحمر، خلف عربة تارلتون، حيث يستطيع إتمام حديثه عن الخيل.

6

صعدت عربة أوهارا التلة، بعد أن عبرت النهر، وحتى قبل أن يبدو تولف أوكس للعيان، رأت سكارلت ضبابة دخان تعلق متوانية بقمم الأشجار الشامخة، وعبق أنفها بمزيج روائح شهية، تفوح من كتل أخشاب الجوز المشتعلة، ولحوم الضأن والخنزير المشوية.

إن حفر شواء الباربكيو، التي تشتعل ببطء منذ الليلة الماضية، لا بد أن تكون قد أصبحت الآن أحواضاً مستطيلة من الجمر المتقد الأحمر، واللحم فوقها يحرك وهو في السفافيد، فينقط منه الدهن سائلاً متساقطاً فوق جذوات الفحم بهمسات خافتة. وعرفت سكارلت أن هذه الرائحة الشهية التي حملها النسيم العليل، صادرة من غابة أشجار السنديان الضخمة خلف البيت الكبير، حيث يقيم جون ويلكس حفلات الباربكيو دائماً. هناك على المنحدر الجميل، الموصل إلى حديقة الورود، مكان بهيج مظلل، أبهج بكثير، مثلاً، من ذلك الذي يستعمله آل كالفرت.

كانت السيدة كالفرت تنفر من طعام الباربكيو، وتعلن أن روائحه تظل في البيت أياماً، ولذلك كان ضيوفها يقاسون دائماً حرارة الشمس، في بقعة مستوية مكشوفة، تبعد ربع ميل عن البيت. بينما جون ويلكس، المعروف بالكرم في كل الولاية، يعرف حقاً كيف يكرم ضيوفه بحفلة الباربكيو. فهناك تحت الظلال الكثيفة، كانت تنصب

دائماً موائد الحفلات الطويلة فوق قوائم خشبية، وعليها أجمل شراشف آل ويلكس الكتانية. وقد صُفَّت إلى جانبها مقاعد بلا ظهور بينما تبعثرت هنا وهناك مساند وكراسي، جلبت من داخل البيت، لهؤلاء الذين لا يهوون الجلوس على المقاعد.

وعلى مسافة بعيدة، كافية لمنع الروائح عن الضيوف، جعلت حفر الشواء، حيث ينضج اللحم، وحيث توجد قدور الغسيل الحديدية الضخمة التي تفوح منها روائح صلصة الباربكيو الريانة، وروائح يخنة برونزويك[1].

كان جون ويلكس يستخدم دائماً اثني عشر عبداً على الأقل، يحملون الصواني مهرولين جيئة وذهاباً، لخدمة الضيوف. وبعيداً خلف مخازن الحبوب، كانت تقام في كل مرة، باربكيو أخرى ينعم خدم البيت، والسائقون، ووصيفات الضيوف، بوليمتهم الخاصة المؤلفة من فطائر الذرة، والبطاطا، والمقانق، وذلك الطبق من أمعاء الخنزير العزيز جداً على قلوب الزنوج، وعلاوة على البطيخ، في موسمه، بكمية تكفي لإتخام الجميع.

وعندما بلغت أنف سكارلت رائحة لحم الخنزير الطازج المبهر، جعدته تقديراً واستحساناً، آملة أن تتفتح شهيتها قليلاً، حين يكون اللحم قد نضج، إذ كانت تخشى في كل لحظة وهي على ما هي عليه، من معدة متخمة بالطعام، وخصر مشدود للغاية، أن تتقيأ، الأمر الذي سيكون مشيناً قاضياً، حيث لا يستطيع إلا الرجال المسنون، والسيدات المسنات جداً، أن يتقيأوا دون استنكار المجتمع لفعلتهم.

وبلغوا قمة التلة، وانتصب أمامها البيت الأبيض، بتناسقه التام، وأعمدته الشاهقة، وإشرافته الواسعة، وسطحه المستوي، جميلاً

---

(1) مدينة في ألمانيا - (المترجمان).

كالمرأة الجميلة، الواثقة بسحرها كل الثقة، بحيث تستطيع أن تكون كريمة لطيفة مع الجميع.

كانت سكارلت تحب تولف أوكس حباً جماً يفوق حبها لتارا، فقد كان ذا جمال فخم سني، وجلال عذب كامل يفتقر إليه بيت جيرالد أوهارا.

كان الممشى الواسع المتعرج، مليئاً بالخيول المسرجة، والعربات، والضيوف يترجلون ويحيّون أصدقاءهم، بينما كان الزنوج المفترون عن أسنانهم بفتور، والمنفعلون شأنهم في كل حفلة، يقودون الحيوانات إلى الزريبة، حيث ينزلون عدتها وسروجها، لتبقى طليقة طوال اليوم. وكانت جموع من الأطفال، سود وبيض، تركض صائحة حول المرجة المخضرة حديثاً، يلعبون لعبة الرديان[1]، ولعبة الكيكا[2]، ويتباهون بالطعام الكثير الذي سيأكلونه.

وكذلك القاعة الواسعة الممتدة من مقدمة البيت إلى نهايته، كانت تعج بالناس، فقد رأت سكارلت، عندما وقفت العربة مقابل الدرجات الأمامية، فتيات بتنانير فضفاضة، على شكل الأجراس، يتلألأن كالفراشات، يصعدن ويهبطن سلالم الطابق العلوي، متماسكات حول الخصور، يقفن متكئات على قمة الدرابزين البديعة، يضحكن وينادين الشبان في القاعة السفلى، تحتهن.

ومن خلال النوافذ الواسعة المبنية على طراز فرنسي، لمحت سكارلت نساء أكبر سناً في غرفة الاستقبال، وقورات في أثوابهن الحريرية السوداء، يروحن بالمراوح، ويتحدثن عن الأطفال وعن اللواتي تزوجن، ومن؟ ولماذا؟ وكان توم نادل آل ويلكس، يسرع

---

(1) لعبة يستعمل فيها الأطفال حجارة صغيرة، يقذفونها ببعضها - (المترجمان).

(2) لعبة يتراكض فيها الأطفال، باحثين عن أحدهم الذي يكون مختبئاً - (المترجمان).

متنقلاً بين الغرف، والصينية الفضية بيده، يقدم منحنياً باسماً، الكؤوس الطويلة، إلى شبان في سراويل رمادية، وحنطية اللون، وقمصان كتانية ذات كشاكش.

وكانت الشرفة الأمامية المشمسة مزدحمة بالضيوف، «أجل، فالمقاطعة بأسرها قد أنتقلت إلى هذا المكان»، فكرت سكارلت، فهناك أبناء تارلتون الأربعة الطوال ووالدهم، مستندين إلى الأعمدة الشاهقة، والتوأمان ستيوارت وبرنت، جنباً إلى جنب متلازمين كالعادة، بينما بويد وتوم مع والدهما جيمس تارلتون، والسيد كالفرت يقف قريباً، بجانب زوجته الشمالية، التي، حتى بعد خمس عشرة سنة قضتها في جورجيا، لم تظهر مطلقاً كمواطنة أصيلة، كما لم تحتفظ بجميع سماتها الأصيلة. كل الناس كانوا لطافاً معها، عطوفين عليها، نتيجة شعورهم بالأسف من أجلها، إلا أن أحداً لم ينسَ أنها ضاعفت خطيئة نسبها الأولى، بكونها مربية أطفال السيد كالفرت. وكان الشابان ريفورد وكيد كالفرت موجودين في الحفلة أيضاً مع شقيقتهما الشقراء الجريئة، كاثلين، المنهمكة في إثارة جو فونتين الأسمر، وسالي مونرو، التي ستكون عروسه الجميلة. بينما ألِكس وطوني فونتين كانا يهمسان في أذن ديميتي مونرو، مغرقانها في عواصف من الضحك الساخر المستهتر. وبالإضافة إلى كل هؤلاء، جاءت عائلات من أماكن بعيدة: من لافجوي على مسافة عشرة أميال، من فايتفيل وجونسبورو، وقليل جداً من أتلانتا وميكون أيضاً. فبدا البيت كأنه يكاد ينفجر بمن فيه وراح دوي غير منقطع من أصوات الأحاديث والضحك والقهقهة وزعيق النساء وصيحاتهن يرتفع حيناً وينخفض حيناً آخر.

وعلى درجات الرواق، وقف جون ويلكس، بشعره الفضي، منتصب القامة تشع عيناه بالجمال المطمئن وكرم الضيافة، كرم حار لا تنطفئ شعلته كشمس صيف جورجيا، وإلى جانبه، وقفت هوني

ويلكس، التي لقبت بهذا الاسم، نظراً إلى أنها تخاطب كل إنسان من والدها إلى عامل الحقل بلهجة التودد ذاتها. وقفت متململة باسمة بفتور، ترحب بالضيوف القادمين.

كانت رغبة هوني المنفعلة الجليلة أن تظهر جذابة بعين كل رجل قادم، تخالف تماماً موقف والدها المتزن، ما جعل سكارلت تفكر في احتمال وجود بعض الصواب فيما قالته السيدة تارلتون. فمن المؤكد أن رجال آل ويلكس كانت لهم ملامح العائلة، إلا أن الأهداب الذهبية القاتمة التي تحلي عيون جون ويلكس وآشلي، كانت تبدو متفرقة، عديمة اللون في وجهَي هوني وشقيقتها إنديا، فعينا هوني كانتا كعيني الأرنب، المستهجنة المنظر، العديمة الأهداب، أما إنديا فكان خير ما تنعمت به سذاجة الوجه.

لم تلمح سكارلت إنديا في أي مكان، ولكنها أدركت احتمال وجودها في المطبخ، تصدر التعليمات النهائية إلى الخدم... مسكينة إنديا، فكرت سكارلت، فمنذ وفاة والدتها، وهي تحمل مسؤولية البيت المرهقة، بحيث لم تتح لها الفرصة لنيل أي محب، عدا ستيوارت تارلتون، وبالطبع ليس الذنب ذنبي، إن فكر ستيوارت أني أجمل منها.

هبط جون ويلكس عن الدرج، ليمد ذراعه لسكارلت، وبينما هي تنزل من العربة، لمحت سولين تصطنع الكياسة، فأدركت أنها لا بد أن التقطت فرانك كنيدي من بين الجموع.

كيف لو أنني لن أوفق إلى نيل محب أفضل من ذلك العجوز، المرتدي بنطلون سواري، فكرت بازدراء، وهي تقفز أرضاً، شاكرة مبتسمة لجون ويلكس.

أسرع فرانك كنيدي نحو العربة ليساعد سولين على النزول، بينما شمخت هذه بصورة جعلت سكارلت ترغب في صفعها، فمن المحتمل أن يكون كنيدي أكبر ملاكي الأرض في المقاطعة، كما يحتمل أن

يكون ذا قلب رحيم جداً، ولكن هذا لا قيمة له إذا قيس بحقيقة كونه في الأربعين من العمر، ضئيلاً عصبي المزاج، ذا لحية خفيفة بلون الزنجبيل، ومظهر عجوزي يتجلى في كثرة لطفه. وعلى كل حال... تذكرت سكارلت خطتها، فخنقت ازدراءها، ليفترَّ ثغرها ببسمة مشرقة تحية له، بسمة جعلته يقف هنيهة، يحملق في وجهها بدهشة تنمّ عن سرور، بينما يده ممدودة إلى سولين.

وجالت عينا سكارلت بين الجمهور تبحثان عن آشلي فيما هي تحدث جون ويلكس حديثاً قصيراً ساراً، ولكنها لم تعثر عليه في الرواق، ثم علت التحيات لها من عدة حناجر، واتجه ستيوارت وبرنت تارلتون نحوها، بينما اندفعت فتيات مونرو ليعلنَّ إعجابهن بثوبها. وفي الحال أضحت محور دائرة من الأصوات، أخذت ترتفع أعلى فأعلى بقوة وتدفق، حتى سمعت رغم الدوي المستمر... ولكن أين آشلي؟ وميلاني وتشارلز؟ لقد حاولت ألّا ينكشف أمرها وهي تنقل نظرها، وتتطلع، وترنو إلى القاعة السفلى، بين الجمهور الضاحك.

وبينما هي تثرثر وتضحك وتلقي بالنظرات الخاطفة السريعة، داخل البيت، وعلى الساحة، وقعت عيناها على رجل غريب، يقف وحيداً، في القاعة، يتأملها بنظرة سليطة باردة، جعلتها تحس بعنف، مزيجاً من شعور الأنثى السار بجذب رجل، والشعور المربك لكون فستانها عارياً جداً عند الصدر.

كان يظهر كبير السن، في الخامسة والثلاثين على الأقل، طويل القامة، قوي البنية، بكتفين، اعتقدت سكارلت أنها لم ترَ مثيلتَين لهما، وعضلات قوية جداً، قوية بحيث تتجاوز به حدود الرقة. وعندما تلاقت عيونهما، ابتسم لها، كاشفاً عن أسنان بيضاء كأسنان الحيوانات، يعلوها شارب أسود، مائل قليلاً. كان أسمر الوجه، أدكن البشرة كقرصان البحر، ذا عينين سوداوين نفاذتين كعيني قرصان يثمن

سفينة إسبانية ليستولي عليها، أو صبية ليخطفها. وعندما ابتسم لها، لمحت في أساريره علائم التهور المستهتر، وفي فمه ابتسامة تهكم ساخر، فأمسكت نفسها، شاعرة أن عليها أن تحس الإهانة، من جرّاء مظهر كهذا، متكدرة من نفسها لعدم تحسسها.

لم تعرف من يمكن أن يكون، ولكن وجهه الأسمر كان يعكس نظرة دم عريق لا يمكن إنكاره، تظهر جلية في أنفه الأحجن الدقيق القائم فوق شفتين حمراوين تماماً، وفي جبهته المرتفعة وعينيه الواسعتين.

حوَّلت نظرها بعيداً عنه دون أن ترد الابتسامة، وأدار هو وجهه عندما ناداه أحدهم: «ريت. ريت باتلر تعال هنا. أريدك أن تقابل صاحبة أقسى قلب في جورجيا».

ريت باتلر، إن هذا الاسم مألوف السماع، مرتبط بأمر فاضح سار... ولكن عقلها كان يفكر في آشلي، فأبعدت تفكيرها حوله.

- «ينبغي أن أسرع إلى الطابق العلوي وأسرّح شعري»، أخبرت ستيورات وبرنت اللذين كانا يجربان الانزواء بها، «انتظراني ولا تنسلا مع فتاة أخرى لئلا أسخط عليكما».

استطاعت سكارلت أن تلاحظ أن ستيوارت سيكون صعب القياد هذا اليوم، إذا غازلت أي شخص آخر، كان ثملاً، تنم ملامح وجهه عن عجرفة تتقصد القتال، الأمر الذي تعرف سكارلت من خلال التجارب، أنه يعني المتاعب.

وقفت في القاعة هنيهة، لتحدث بعض الاصدقاء ولتحيّي إنديا التي برزت قادمة من خلف البيت، شعرها مشعث، وعلى جبينها حبات من العرق صغيرة. مسكينة إنديا: إن من الأمور السيئة جداً أن يكون للفتاة شعر وأهداب صفر شواحب، وذقن ناتئة تنم عن عناد في وقت لم تبلغ فيه العشرين من عمرها، ولكنها تعتبر مسنة في سوق الزواج. وتساءلت ما إذا كانت إنديا تستنكر كثيراً انتزاعها ستيوارت منها، فكثير

من الناس يقولون إنها ما زالت تحبه، على أنك لا تستطيع مطلقاً أن تعرف ماذا يفكر الويلكسي. وإذا كانت قد تنكرت لحبها له، فهي لم تظهر أبداً ما يشير إلى ذلك، بل عاملت سكارلت بالمجاملة اللطيفة نفسها المقترنة بشيء من الترفع، والتي كانت تعاملها بها سابقاً.

وحدثتها سكارلت بمودة، ثم راحت تصعد الدرجات، وفيما هي كذلك سمعت صوتاً خجولاً فزعاً ينادي باسمها من الخلف، فالتفتت لترى تشارلز هاملتون.

كان فتى وسيم الطلعة، تتدلى على جبينه الأبيض خصلات شعر ناعم بني، ذا عينين عسليتين صافيتين حنونتين كعيني كلب حراسة اسكتلندي، وقد بدا رائعاً بسرواله الأصفر الفاقع، ومعطفه الأسود، وقميصة المثني الذي عقدت إلى قبته أعرض وأحدث ربطة عنق سوداء. وعندما التفتت نحوه، تورَّد وجهه بحمرة خفيفة، إذ كان حيياً في معاملة الفتيات، وكمعظم الرجال الخجولين، كان يعجب كثيراً بالبنات المرحات، خفيفات الروح والحركة، كسكارلت، التي لم تجامله قبلاً بأكثر من مجاملة عرضية. ولذلك فإن ابتسامة السرور المشرقة التي حيته بها، واليدين اللتين بسطتهما نحو يديه، كانت تقطع عليه أنفاسه.

- «من؟ تشارلز هاملتون، أيها الشاب المسن الجميل، أنت. إني أراهن أنك ما جئت هنا، قاطعاً الطريق كله من أتلانتا، إلا لتدمر قلبي فحسب».

فلم يحر جواباً، وتلجلج لسانه دهشاً، وأمسك بيديها الصغيرتين الدافئتين، محملقاً في عينيها الخضراوين المتراقصتين... إن هذا هو الأسلوب الذي كانت تتحدث به الفتيات إلى غيره من الشبان، وليس إليه أبداً، ولم يكن يعرف السبب في كونهن يعاملنه دائماً كشقيق أصغر سناً منهن، فكنّ لطيفات معه، ولكن دون أن يكلفن أنفسهن عناء إثارته، بينما هو يرغب دوماً في أن يغازلنه ويداعبنه، كما يفعلن مع

شبان أقل وسامة منه بكثير، وأقل تنعماً بخيرات هذه الدنيا، على أنه في المرات القليلة التي أتيح له فيها ذلك، لم يستطع التفكير في أي شيء يقوله، وقاسى آلاماً مبرحة من جرّاء ضيقه بهذا البكم الذي يتملكه، ثم كان لا ينام الليل مفكراً في الخطوات الكيسة التي يمكن أن يقوم بها، ولكنه نادراً ما نعم بفرصة أخرى، إذ هجرته الفتيات وحيداً، إثر تجربة أو تجربتين فقط.

حتى مع هوني، التي يربطه بها تفاهم ضمني، غير متحدث عنه، على الزواج عند حصوله على أملاكة في الخريف القادم، كان حيياً صامتاً. وفي بعض الأحيان كان يحس إحساساً تنقصه الشهامة، إن مظاهر الغنج والدلال الأصيلة في هوني ليست ربحاً، إذ إنها كانت كثيرة الولع بجنس الرجال بحيث تصور أنها قد تستعمل هذه المظاهر مع أي رجل يقدم لها الفرصة لذلك. ولم يكن متحمساً حول موضوع زواجه بها، فهي لم تثر فيه شيئاً من العواطف الخيالية الجامحة التي تؤكد كتبه المحببة أنها جديرة بكل عاشق. وطالما تشوق إلى أن تحبه فتاة جميلة مندفعة تتقد ناراً وإيذاء.

وها هي سكارلت أوهارا تثيره الآن قائلة إنه سيحطم قلبها. وحاول أن يفكر في شيء يقوله، فلم يقدر، بل شكرها في نفسه، لاستمرارها في ثرثرة أنقذته من ضرورة الاشتراك في الحديث. إنها نعمة تكاد لا تصدق...

- «والآن، انتظرني في هذا المكان ذاته، إلى أن أعود، لأني أريد أن نتناول طعام الباربكيو معاً، وإياك أن تنطلق في مغازلة الفتيات الأخريات، فأنا غيورة جداً». هكذا تواردت الكلمات التي لا تصدق من بين شفتين حمراوين على جانبيهما غمازتان، بينما كانت الحاجبان السوداوان يرتعشان على نحو يوحي بالحشمة والرزانة فوق عينين خضراوين.

- «لن أغازل أحداً»، استطاع أخيراً أن يتنفس، دون أن يدور في خلده البتّة أنها تنظر إليه كالعجل يتوقع جزّاره.

وربتت خفيفاً على ذراعه، بمروحتها المطوية، وأدارت وجهها لتصعد الدرج عندما وقعت عيناها ثانية على الرجل المدعو ريت باتلر، يقف وحيداً على بُعد خطوات قليلة من تشارلز. من الجلي أنه استرق السمع لكل ما دار بينهما، إذ ابتسم في وجهها بنظرة خبيثة كالسنور، وتفحصتها عيناه للمرة الثانية، بتحديق خالٍ تماماً من طابع الاحترام الذي اعتادته.

«العياذ باللّه»، أسرت سكارلت في نفسها غضبى، مستعملة عبارة جيرالد المفضلة، «يظهر كما لو أنه يعرف كيف أبدو من دون زينتي» ثم دفعت رأسها صاعدة السلم.

وفي غرفة النوم حيث وضعت الرزم، وجدت كاثلين كالفرت، تصلح من هيئتها أمام المرآة، وتعض شفتيها كيما تظهرا أكثر احمراراً، وقد وضعت على حزامها وروداً ندية بلون وجنتيها، بينما كانت عيناها الزرقاوان الصغيرتان جداً، تتراقصان طرباً.

- «كاثلين» قالت سكارلت وهي تحاول رفع صدر فستانها إلى أعلى، «مَن ذلك الرجل الوغد، المدعو باتلر، في الطابق السفلي؟».

- «ألا تعرفينه يا عزيزتي؟» همست كاثلين منفعلة، وعينها ترمق الغرفة التالية، حيث جلست دلسي ومربية بنات آل ويلكس تثرثران، «أنا لا أستطيع تصور شعور السيدة ويلكس لوجوده هنا، ولكنه كان في زيارة السيد كنيدي في جونسبورو - في قضية تتعلق بشراء القطن - وبالطبع اضطر السيد كنيدي إلى أن يحضره معه إذ لا يستطيع السفر وإبقاءه هنالك».

- «وما هي قصته؟».

- «عزيزتي، لم يُقبَل كزوج».

- «ليس صحيحاً».

- «بلى».

فتقلبت سكارلت المفاجأة بسكون، إذ لم يحدث لها البتّة أن اجتمعت بإنسان مرفوض، تحت سقف واحد. كان النبأ مثيراً.

- «وماذا اقترف؟».

- «ها سكارلت، سُمعته مخيفة جداً. اسمه باتلر من شارلستون، وعائلته من أكرم العائلات هناك، ولكنهم لا يتعاملون معه، حتى بالكلام. أخبرتني عنه كارو ريت في الصيف الماضي، إنه ليس من أقربائها، ولكنها تعرف كل شيء عنه، كل الناس يعرفون، لقد طُرد من وست بوينت[1]، تصوري. ولأسباب زرية جداً لا يحسن بكارو أن تعرفها، ثم حدثت تلك القضية المتعلقة بالفتاة التي لم يتزوجها».

- «أخبريني».

- «عزيزتي، ألا تعرفين شيئاً؟ أخبرتني كارو كل شيء في الصيف الماضي، ولو أن أمها اعتقدت أن ابنتها تعرف بالأمر، مجرد معرفة، لماتت... على كل حال، السيد باتلر هذا، اصطحب فتاة من شارلستون في عربة خيل، لم أعرف من هي بالضبط، ولكني أحدس حدساً، أنها لا يمكن أن تكون رائعة جداً، وإلا لما خرجت معه في أواخر المساء، دون رقيب. ويا عزيزتي، مكثا خارجاً طوال الليل، ورجعا إلى البيت مشياً قائلين إن الحصان جمح فحطم العربة، وإنهما ضلا طريقهما في الغابات، وخمّني ما...».

- «لا أقدر أن أخمن، أخبريني»، قالت سكارلت بلهفة حماسية، منتظرة سماع أسوأ الفعلات.

- «رفض أن يتزوجها في اليوم التالي».

---

(1) مركز للتدريب العسكري بالقرب من نيويورك على نهر هدسن - (المترجمان).

- «آه»، قالت سكارلت وقد تحطمت آمالها.

- «قال إنه لم... يفعل أي شيء معها، فهو لذلك لا يرى لماذا يجب أن يتزوجها. وبالطبع دعاه شقيقها إلى المبارزة، فأجاب السيد باتلر بأنه يفضل الموت على الزواج بغبية حمقاء، وهكذا اشتبكا في مبارزة، وأصاب السيد باتلر شقيقها الذي توفي على الفور، فاضطر السيد باتلر أن يغادر شارلستون، والآن لا تقبل به أية فتاة».

أنهت كاثلين القصة مزهوة، وفي الوقت المناسب تماماً، إذ عادت دلسي إلى الغرفة، لتشرف على زينة من وضعت تحت مسؤوليتها.

- «هل ولدت طفلاً؟» همست سكارلت في أذن كاثلين. فهزت هذه رأسها بعنف نافية ذلك وقالت هامسة: «ولكنها تحطمت... النتيجة ذاتها تماماً».

«ليتني جعلت آشلي يهتك عفافي» فكرت سكارلت فجأة، «لو فعلت لكان حقيراً جداً إن لم يتزوجني». ومهما كان الأمر، فقد شعرت من تلقاء نفسها بالاحترام نحو ريت باتلر، لرفضه الزواج بحمقاء.

* * *

جلست سكارلت على كرسي مرتفع من خشب البقم[1] البرازيلي، في ظلال السنديانة الضخمة، خلف البيت، وكشاكش ثوبها وأهدابه تتماوج حولها، ويلوح تحتها مقدار بوصتين فقط من خفَّيها المراكشيين الخضراوين المصنوعين من جلد السختيان، وهو أطول مدى يمكن لسيدة أن تظهره من خفَّيها، وتحتفظ بمنزلتها الاجتماعية كسيدة. ولم تكد تلمس طبق الطعام بيديها، حتى التفَّ حولها سبعة فرسان، إذ كان الباربكيو قد بلغ أوجه وزخر الجو الدافئ بالضحك والحديث، وقرقعة

---

(1) خشب مأخوذ من أشجار استوائية تمتاز برائحتها الشبيهة برائحة الورد - (المترجمان).

الأدوات الفضية، فوق الصحون الصينية، وبالرائحة القوية للحوم المشوية، والمرق العابق. وبين الفينة والأخرى، كان اتجاه النسيم يتبدل، فيحمل في ثناياه نفخات من دخان حفر الشواء الطويلة، فوق الجمهور، فتستقبلها السيدات بصيحات الفزع الساخرة وبهز مراوحهن المصنوعة من أوراق النخيل.

جلست معظم الآنسات، كل مع صديقها، على المقاعد الطويلة المقابلة للموائد. ولكن سكارلت، وقد عرفت أن للفتاة جانبين فقط، وأن رجلاً واحداً فحسب يستطيع الجلوس إلى جانب، اختارت أن تجلس على حدة، لتجمع حولها أكثر ما يمكن من الرجال.

وتحت العريشة، جلست النسوة المتزوجات، وقد بدت أثوابهن السوداء، وافرة الذوق محتشمة، وسط الألوان الزاهية والجو المرح المنطلق.

كن ربات البيوت، غير مباليات بفوارق السن، يجلسن دائماً معاً، بعيداً عن الصبايا ذوات العيون البراقة المشعة، بعيداً عن الغزل والهرج، إذ لم يكن في الجنوب غانيات بين المتزوجات، ولذلك جلسن معاً، جميعهن ابتداء من غراندما فونتين، التي كانت تتقيأ علناً كما يخولها عمرها الكبير، إلى أليس مونرو التي لم تتجاوز السبعة عشر ربيعاً، والتي كانت تكافح ضد غثيان الحَبَل الأول، يشتركن في أبحاث لا تنتهي حول التوالد والأطفال، هذه الأبحاث التي كانت تضفي على اجتماعاتهن جواً ممتعاً، وصبغة تعليمية.

وفكرت سكارلت، وهي تلقي بنظرات الازدراء عليهن، أنهن يشبهن قطيعاً من الأبقار السمينة، فالمتزوجات عديمات المرح، ولم يعنِ لها أنها إذا تزوجت فستنحصر آلياً تحت العرائش، وفي غرف الجلوس، مع ربات البيوت الرصينات، في أثوابهن الحريرية القاتمة، ستنعزل وإياهن رزينة هادئة مثلهن تماماً، دون أي مرح أو مزاح. كان

خيالها، كمعظم الفتيات، يحملها حتى مذبح الكنيسة فحسب، حيث تتم مراسم الزواج، علاوة على أنها الآن متكدرة جداً بحيث لن يسعها متابعة موضوع فكري تجريدي.

وأطرقت رأسها فوق طبق الطعام، ومضغت قطعة رقيقة من البسكويت برفق وكياسة، ولكن دون شهية البتّة، الأمر الذي ينال استحسان مامي. ورغم الفيض من المتيَّمين حولها لم تكن يوماً أكثر تعاسة في الحياة منها اليوم. لقد فشلت خطط الليلة الماضية فيما يتعلق بآشلي كلية وبطريقة لم تستطع فهمها. لقد جذبت العشاق بالعشرات ولكن دون آشلي، وغمرتها ثانية كل مخاوف الأمس، جاعلة قلبها يخفق بسرعة ثم ببطء، ولون وجنتيها يتخضب ثم يشحب.

لم يحاول آشلي أبداً الانضمام إلى حلقتها، والحقيقة أنها لم تنفرد وإياه بكلمة واحدة منذ وصولها، بل لم تكلمه البتّة، بعد تحيّتهما الأولى، وكان قد تقدم للترحيب بها عندما جاءت إلى الحديقة الخلفية، ولكن ميلاني كانت تتأبط ذراعه آنذاك، ميلاني التي لا تكاد تصل قامتها إلى كتفه.

كانت فتاة نحيلة، ضعيفة البنية، تظهر كالطفلة المتنكرة بتنورة أمها الواسعة ذات الأطواق، ذلك المظهر الذي تؤكده النظرات الحيية الفزعة تقريباً في عينيها العسليتين الواسعتين جداً. وكان شعرها جعداً أسود ضغطته بشدة تحت شبكتها، بحيث لم تنفلت منه أي شعرة ضالة، وهذه الجمة السوداء أبرزت، بذروتها الوحيدة الطويلة، شكل وجهها الشبيه بشكل القلب، وجه عريض جداً عند عظام الوجنتين، دقيق جداً عند الذقن، خفر هياب، عذب، ولكنه خالٍ من الجمال، لا سيما أنها لا تحسن أحابيل الإغراء النسائية لتجعل الرائين ينسون بشاعتها. كانت تبدو - وهذه حقيقتها - ساذجة كالأرض، طيبة كالخبز، شفافة كمياه الينبوع. ولكن رغم كل بساطة ملامحها، وصغر قوامها، كان في

حركاتها اعتزاز وقور ذو أثر غريب، اعتزاز نفس أكبر من عمرها البالغ سبع عشرة سنة بكثير.

وكان فستانها الأوركندي الرمادي ذو الحزام الحريري الأحمر، يحجب بتموجاته وكشاكشه حقيقة جسدها الذي كان ينقصه النماء كأجساد الأطفال، بينما بدت بشرتها البيضاء الصفراوية متألقة وردية بفعل قبعتها الصفراء ذات الشرائط الحمر بلون التوت. أما أقراطها الثقيلة بشراديبها الذهبية المتدلية من خصلات شعرها، المتجمع بأناقة ضمن الشبكة، فكانت تتهادى محاذية عينيها العسليتين، عينيها ذاتي بريق مستنقع الغابة الساكن أيام الشتاء، حيث الأوراق الداكنة، تتلألأ من خلال المياه الراكدة.

وعندما صافحت سكارلت، ابتسمت بشعور حيي، وأخبرتها كم ظريف فستانها، وبالكاد استطاعت سكارلت أن تجيب جواباً مهذباً، إذ كانت ترغب رغبة عنيفة في أن تنفرد بالكلام مع آشلي، ومنذ ذلك الوقت، جلس آشلي على كرسي صغير عند قدمي ميلاني، منعزلاً عن الضيوف الآخرين، يحدثها باطمئنان، ويبتسم ابتسامته الصغيرة الناعسة التي تحبها سكارلت. على أن الذي جعل الأمور تزداد سوءاً، أن عيني ميلاني شعتا قليلاً بالفرح من جرّاء ابتسامة آشلي، الأمر الذي اضطر حتى سكارلت إلى الإقرار بأن ميلاني جميلة تقريباً. ففيما هي تنظر إلى آشلي، كان وجهها الساذج يضيء كما لو أن في جوفها ناراً، ولو قُدِّر لقلب محب أن ينعكس يوماً على وجه صاحبه، لكان ذلك القلب قلب ميلاني هاملتون منعكساً على وجهها.

حاولت سكارلت أن تُبعد عينيها عن هذين الاثنين ولكنها لم تقدر، فراحت تضاعف مزاحها مع فرسانها إثر كل نظرة تضحك، تتلفظ بأمور جريئة، تتدله وتحني رأسها جواباً لإطرائهم، حتى يرقص قرطاها. ثم كررت قولها «لا أصدق ذلك»، معلنة أن أياً منهم لم يكن

صادقاً، مقسمة إنها لن تصدق مطلقاً أي شيء يقوله أي رجل، ومع ذلك لم يبدُ أن آشلي كان يلحظها البتّة، فقد كان ينظر فقط إلى وجه ميلاني، مستمراً في حديثه، بينما تتطلع هذه إليه، بتعبير يشع بحقيقة كونها له.

وهكذا كانت سكارلت فتاة تعسة.

ويبدو في الظاهر أنه لم تكن توجد البتّة، فتاة أقل سبباً للتعاسة من سكارلت، فقد كانت، بلا ريب، حسناء الباربكيو ومحور الاهتمام فيه، وكما يمكن للهياج الذي أثارته بين الرجال، مضافاً إليه حرقة قلوب الفتيات الأخريات، أن يبهجها كثيراً، ولكن في وقت آخر غير هذا الوقت.

احتل جانبها الأيمن تشارلز هاملتون الذي تشجع إثر حديثها معه، رافضاً الجلاء رغم جهود التوأمين المشتركة لإجلائه، وحاملاً مروحتها في إحدى يديه، وفي اليد الأخرى طبق الباربكيو الذي لم يمسه، وقد تأبى بأصرار التقاء عينيه بعيني هوني التي ظهرت على وشك انفجار دموعها.

وعن يسارها جلس كيد كالفرت، رشيقاً ينقر بأصابعه على تنورتها، كيما يجذب انتباهها، ويرنو إلى ستيوارت بعينين مستعرتين كمداً، إذ كان الجو قد تكهرب بينه وبين التوأمين، وتبادلا ألفاظاً بذيئة جارحة. أما فرانك كنيدي فقد راح يحوم حولها كالدجاجة ذات الفرخ الواحد، مهرولاً جيئة وذهاباً، ما بين ظلال السنديانة وموضع الموائد، يجلب عينات شهية من الطعام لإغرائها بالأكل، كأنه لا يوجد اثنا عشر خادماً مكرسين للغرض نفسه. ونتيجة لعمله هذا، تجاوز استنكار سولين العابس حدود الكتمان الذي تتصف به السيدة الفاضلة، فأخذت ترمق سكارلت. وكذلك كارين الصغيرة كادت تبكي، إذ رغم جميع كلمات سكارلت المشجعة في الصباح، لم يلاطفها برنت بأكثر من

«هالو سس» جاذباً شريط شعرها، قبل أن يحوّل كل انتباهه نحو سكارلت، بينما هو في العادة رقيق جداً معها، يعاملها بتذلل لا يأبه له، جعلها تحس بصباها، وتحلم سراً باليوم الذي ستعقص فيه شعرها عالياً، وتدلي تنورتها إلى أسفل، وتستقبله كمحب عاشق، أما الآن فيبدو أن سكارلت ملكت كل أحاسيسه.

وكانت فتاتي آل مونرو تخفيان كدرهما من جرّاء تحوُّل الشابين فونتين، المندفعين الطائشين، ولكنهما كانتا منزعجتين للطريقة التي وقف بها طوني وألِكس كلاهما، حول الحلقة، يحتالان لتحصيل مركز أقرب إلى سكارلت، فيما لو نهض أي من الآخرين محتلين الأماكن المحيطة بها. وقد أخبرتا هيتي تارلتون، بواسطة رفع الحواجب رفعاً رفيقاً، استنكارهما لأسلوب سكارلت... داعرة، كانت الصفة الوحيدة التي تستحقها سكارلت.

وفي آن واحد، رفعت الفتيات الثلاث مظلاتهن ذات الكشاكش، معلنات عن شبعهن، شاكرات، ملقيات بأصابعهن الخفيفة على أذرع أقرب الشبان إليهن، مندفعات بصخب طروب، لمشاهدة حديقة الورود والنافورة والمنزل الصيفي. ولم يكن كنه هذا الانسحاب الاستراتيجي المنظم ليخفي على امرأة حاضرة أو أي امرأة هي موضع اهتمام رجل.

ضحكت سكارلت ساخرة، وهي ترى شباناً ثلاثة، ينجذبون خارج نطاق مفاتنها الساحرة، ليتفحصوا معالم الأرض المألوفة للبنات منذ عهد الطفولة. ثم حولت نظرها بحدة، لترى إذا كان آشلي قد لاحظ الحركة، غير أنه كان يلهو بطرفي حزام ميلاني ويبتسم لها، فمزق الألم قلبها وأحست أن في إمكانها أن تغرز أظافرها في جلد ميلاني العاجي، حتى تسيل منه الدم، وتروِّح عن نفسها.

وبينما كانت عيناها تميلان عن ميلاني، التقتا بنظرة ريت باتلر، الذي لم يكن مختلطاً بالجمهور، بل منفرداً بجون ويلكس يتحدث إليه.

كان يراقبها، فلما نظرت إليه، ضحك على الفور، ما جعلها تحس بالضيق، لأنها شعرت أن هذا الرجل المرفوض من جميع الفتيات، هو الوحيد بين الحضور الذي عرف ما يكمن وراء مرحها المنطلق، الأمر الذي أوجد له عزاء يدعو إلى السخرية. هو كذلك، تستطيع أن تمزق جلده بسرور أيضاً.

«إذا ما قُدِّر لي فقط أن أعيش خلال هذه الحفلة حتى بعد ظهر هذا اليوم» فكرت سكارلت، «فإن كل البنات سيصعدن إلى الطابق العلوي للقيلولة، استعداداً لسهرة الليل، وسأمكث هنا، وأتوصل إلى التحدث مع آشلي. من المؤكد أنه لاحظ كم أنا محبوبة». ثم سكَّنت روعها بأمل آخر: «بالطبع هو مضطر إلى الإصغاء إلى ميلاني، لأنها بالإضافة إلى كونها ابنة عمه، ليست محبوبة قط. فإذا لم يراعها ويحفل بها، فستغدو مجرد فتاة كاسدة».

واطردت شجاعتها إثر هذه الفكرة، وضاعفت جهودها مجدداً نحو تشارلز الذي اضطرمت عيناه تلهفاً إليها، لقد كان النهار مذهلاً له، نهار أحلام وقع فيه في حب سكارلت دونما جهد البتة، بينما تتردى هوني في سحابة من الكآبة المفعمة.

كانت هوني كالعصفور الدوري الزعاق، أما سكارلت فطائر غريد براق الريش، تثيره وتكرمه، وتسأله أسئلة وتجيب عنها بنفسها، بحيث ظهر هو ذكياً جداً أمامها، دون أن يضطر إلى تحريك شفتيه بكلمة. وقد حاز الشبان الآخرون، وتضايقوا لاهتمامها البيِّن به، وهم الذين يعرفون تشارلز خجولاً جداً، يعجز عن تركيب كلمتين معاً، فتذرعوا بآخر حدود الصبر والأدب، لإخفاء ثورانهم المتفاقم، واحتقن الجميع كمداً، وبدا أن الأمر سيكون فوزاً مبيناً لسكارلت، إلا بالنسبة إلى آشلي.

وعندما فرغ الجميع من التهام لحوم الغنم والخنزير والدجاج،

أملت سكارلت أن يكون الوقت قد حان، لتقف إنديا وتقترح انسحاب السيدات إلى داخل البيت، إذ كانت الساعة قد بلغت الثانية، وغدت الشمس حارة فوق الرؤوس. ولكن إنديا التي أنهكتها استعدادت الأيام الثلاثة الماضية، كانت سعيدة جداً بالبقاء جالسة في ظلال العريشة، تتحدث صائحة مع رجل عجوز أصم من فايتفيل.

وسرى في الجمهور دبيب الكرى، وتحرك الزنوج متكاسلين، ينظفون الموائد الطويلة، حيث وضع الطعام، وخفَّت حدة الضحك والحديث، وضرب السكون جرانه وترقب الجميع إشارة مضيفهم، معلناً انتهاء ولائم الصباح، وترنحت المراوح النخيلية متوانية في الأيدي، ونكس بعض السادة رؤوسهم، غافين من جرّاء حرارة الشمس وتخمة معداتهم، فقد انتهى الباربكيو، واقتنع الجميع بضرورة الاستراحة، بينما كانت الشمس في أوجها.

خلال هذه الفترة، ما بين باربكيو الصباح وحفلة الرقص المسائية، ظهر الجميع هادئين مطمئنين، باستثناء الشبان، الذين احتفظوا بالنشاط الذي كان يغمر جميع الحاضرين منذ قليل. ظلوا يتنقلون من حلقة إلى حلقة، يتشدقون بأصواتهم الناعمة، بديعين كالخيول الأصيلة، خطرين مثلها أيضاً.

واستولى كرى الظهيرة على الجميع، ولكن داخل النفوس كانت تكمن طباع يمكن أن ترتفع إلى مستوى الجريمة، في ثانية واحدة، وتموج متأججة بالسرعة ذاتها. كلا الرجال والنساء كانوا وسام الطلعة، شرسي الطباع، جميعهم على جانب من الخشونة والعنف في سلوكهم الممتع، وجميعم كثيرو الجموح والتمرد.

ومضى بعض الوقت، واشتدّ سعير الشمس، وتطلعت سكارلت والآخرون إلى إنديا، وأخذت حرارة الحديث تخبو ثانية عندما سمع كل من في الغابة صوت جيرالد يشق سكون الجو الهاجع بعبارات

حانقة غضبى وقد وقف على مسافة قليلة من موائد الباربكيو، وحمى نقاشه مع جون ويلكس بالغة ذروتها في نفسه.

- «أعوذ باللّه منك أيها الرجل، أترجو تسوية سلمية مع أهل الشمال؟ بعد أن سحقنا الأنذال في قلعة صمتر؟ سلمية؟ على الجنوب أن يثبت بقوة السلاح أنه لا يمكن أن يهان، وأنه لم يترك الاتحاد اعتماداً على رحمة الاتحاد، وإنما اعتماداً على قوّته هو».

«آه يا إلهي» فكرت سكارلت، «لقد فعلها، سنظل الآن هنا حتى منتصف الليل».

وما هي إلا هنيهة، حتى غادر الكرى عيون الجمهور المسترخي في مقاعده، وسرى في الجو هدير قاصف كالكهرباء، وهبَّ الرجال عن المقاعد والكراسي، أيديهم تلوح مشيرة، وأصواتهم تلعلع باحثة عن الحقيقة، فتعلو كل الأصوات الأخرى.

لم يكن حديث السياسة والحرب قد دار في الصباح، تلبية لرغبة جون ويلكس المحذرة، في عدم تكدير صفو السيدات، ولكن الآن، وقد زأر جيرالد بعبارة قلعة صمتر، نسي الجميع تنبيه مضيفهم فتتابعت الأصوات من كل صوب «طبعاً سنحارب» - «أيها اللصوص الشماليون» - «في إمكاننا سحقهم في شهر واحد» - «كيف لا! في وسع جنوبي واحد سحق عشرين شمالياً» - «سنلقنهم درساً لن ينسوه أبداً» - «سلمياً؟» - «لن يدعونا ننفصل سلمياً؟» - «لا، تأمّل كيف أهان السيد لينكولن مفوضينا» - «أجل، يظل يداورهم هو عدة أسابيع، مقسماً أن يدخل صمتر خالية من الرجال» - «إنهم يريدون الحرب، سنجعلهم ينفرون منها». وأعلى من الجميع، دوى صوت جيرالد وكل ما استطاعت سكارلت سماعه من أقواله عبارة: «حقوق الولايات. أقسم باللّه» يرددها مرة بعد مرة... لقد كان جيرالد ينعم بوقته كثيراً آنذاك، على عكس ابنته.

لقد غدت كلمتا الانفصال والحرب، لكثرة ترديدهما، مضجرتين منذ أمد لسكارلت، ولكنها الآن مقتت مجرد سماعهما، إذ كانتا تعنيان بقاء الرجال يتبارون بالخطب، حيث هم، طوال ساعات، ما لن يتيح لها فرصة الانزواء بآشلي، ومن البدهي أن حرباً ما لن تقع، الأمر الذي يعرفه كل الرجال، ولكنهم يحبون أن يتحدثوا، وسماع أنفسهم يتحدثون.

لم ينهض تشارلز هاملتون مع الآخرين، بل مال أقرب من ذي قبل إلى سكارلت، بعد أن اكتشف أنهما وحيدان نسبياً، ثم مدفوعاً بجرأة هي وليدة حب جديد، همس في أذنها بتصريح:

- «آنسة أوهارا، لقد - لقد قررت إذا دخلنا الحرب، السفر إلى كارولاينا الجنوبية، والالتحاق بالفرقة هناك، إذ قيل إن السيد ويد هامبتون يشكل فرقة فرسان، وبالطبع أفضّل الانخراط بفرقته، فهو رجل فذ، وكان أعز أصدقاء والدي».

«وماذا يفترض أن أفعل... أقول ثلاث مرحات» فكرت سكارلت، إذ كانت أسارير وجه تشارلز تشير إلى أنه يكشف لها أسرار قلبه. ولم تستطع التفكير في شيء تقوله، ولذلك اكتفت بالنظر إليه، مستغربة لماذا يكون الرجال أغبياء هكذا، بحيث يفكرون أن النساء يحفلن بمثل هذه الأمور، ولكن تشارلز فسّر نظرتها بذهول الاستحسان، فانطلق يتابع بجرأة:

- «إذا ارتحلت... هل - هل... ستأسفين يا آنسة أوهارا؟».

- «سأبكي فوق وسادتي كل ليلة» قالت سكارلت قاصدة إضفاء طابع الهذر على عبارتها، ولكنه اتخذها جدية صحيحة، واحمر وجهه سروراً، ثم سلل يده نحو يدها، وكانت محجوبة بين طيات ثوبها، وضغطها دهشاً بجرأته، وباستسلامها لحركته:

- «هل ستصلّين من أجلي؟».

«ما أحمق هذا المخلوق» فكرت سكارلت، متحسرة عليه، بينما اختلس هو النظر إليها، آملاً إنقاذه من المحادثة.

- «ستصلّين؟».

- «طبعاً يا سيد هاملتون، ثلاث صلوات كل ليلة على الأقل».

فأرسل تشارلز نظرة سريعة حوله، والتقط أنفاسه، وسكن عضلات معدته... إنهما وحيدان في الواقع، ومن المحتمل ألا تسنح أمامه فرصة كهذه، حتى لو سنحت فرصة يتيمة كهذه، فقد تخونه شجاعته:

- «آنسة أوهارا... ينبغي أن أخبرك شيئاً... أنا... أنا أحبك».

- «حقاً؟» قالت سكارلت متغافلة، محاولة التحديق عبر جمهور الرجال المتناقشين، إلى حيث آشلي يتحدث عند قدمي ميلاني.

- «نعم، أحبك»، همس تشارلز وقد ذهل لأنها لم تضحك أو تزعق أو يغمى عليها، كما كان يتخيل الصبايا يفعلن دائماً في مثل هذه الظروف، «أنت أروع... أروع» ووجد لسانه للمرة الأولى في حياته. «أروع الجميلات اللواتي عرفتهن، وأعذبهن وألطفهن، وأنت تملكين أظرف أساليب المعاملة، وأنا أحبك من كل قلبي، ولا يمكنني أن اتصور أنك تستطيعين حب أي إنسان مثلي، ولكن يا عزيزتي الآنسة أوهارا، إذا ما منحتني أي تشجيع، فسأفعل أي شيء في الدنيا لأجعلك تحبينني، سأفعل...».

وتوقف، إذ لم يستطع التفكير في أي من المهمات العظيمة الشاقة ليثبت لسكارلت حقيقة مدى عمق حبه، ولذلك أردف ببساطة: «أريد الزواج بك».

وكأن شيئاً هز سكارلت وأعادها إلى دنيا الواقع وهي تسمع كلمة «أتزوج». لقد كانت تفكر في الزواج، وفي آشلي، ولذلك نظرت إلى تشارلز مشفقة، وبانفعال حبيس. ما لهذا الغبي، الشبيه بالعجل، يتطفل

مظهراً أحاسيسه في هذا اليوم المعيّن، حيث هي قلقة جداً، تكاد تفقد عقلها؟ وتطلعت إلى عينيه العسليتين المتوسلتين، فلم ترَ شيئاً من جمال الحب الأول الذي يعتري الشاب الحيي، جمال الهيام بمثل أعلى يتحقق، جمال السعادة الجامحة، والأحاسيس المنفعلة، التي كانت تتأجج في نفسه كالنار المستعمرة. لقد اعتادت سكارلت سماع رجال يطلبون منها الزواج، رجال أكثر إغراء منه، رجال يملكون دهاء وتبصراً أعمق، بحيث لا يعرضون الزواج في حفلة باربكيو، وهي منشغلة البال بأمور أكثر أهمية. ورأت سكارلت أمامها مجرد شاب في العشرين من العمر، محمر الوجه كالشمندر، مظهره في غاية السذاجة، وتمنت لو تستطيع مصارحته، كم يبدو ساذجاً غبياً، ولكن الكلمات التي علَّمتها إيلين قولها في مثل هذه المواقف الطارئة، طلعت على شفتيها بصورة آلية، فأجابته مدمدمة:

- «سيد هاملتون، لست أجهل الشرف الذي تنعم به عليّ، في رغبتك الزواج بي، ولكن المسألة مفاجأة تامة لي، بحيث لا أعرف ما أقوله الآن».

تلك كانت طريقة رقيقة في مسايرة غرور الرجل، مع الاحتفاظ به مشدوداً إلى الحبل. ووقع تشارلز في الشرك، كما لو أن هذا الطعم جديد، وهو أول من يبلعه.

- «سأنتظر إلى الأبد، فأنا لا أريدك إلا بعد أن تقتنعي تماماً، أرجوك يا آنسة أوهارا... أخبريني إن كان يمكن أن آمل خيراً».

- «أنا»، أجابت سكارلت، وعيناها النفاذتان تلاحظان أن آشلي، الذي لم يغادر مكانه للاشتراك في حديث الحرب، كان يتبسم لميلاني، فإذا صمت هذا السخيف المتعلق بيدها، ولو دقيقة واحدة، ربما استطاعت أن تسمع ما يقولانه. ينبغي أن تسمع ما يقولانه. ماذا أخبرته ميلاني حتى بدا عليه هذا الاهتمام؟!

إن صوت تشارلز يشوش الأصوات التي تجهد لسماعها.

- «ها، اصمت»، همست قارصة يده، حتى دون أن تنظر إليه، الأمر الذي أجفله أولاً، ثم أوقعه في حيرة مخزية. واحمر وجهه خجلاً إثر الخيبة المذهلة، ولكنه ما لبث أن ابتسم حين رأى عينيها مسمرتين على شقيقته، إذ ظن أن سكارلت تخشى أن يسمع أحد كلماته، فمن البدهي إذن أن تضطرب وتخجل وينتابها الخوف الشديد من أن يسمعها إنسان، وأحس بدفق من الرجولة لم يعهده قبلاً، إذ كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يربك بها فتاة. لقد كانت هزة الفرح عنده مسكرة. غير أنه ناسق تعابير وجهه بحيث جعله ينمّ عن عدم اكتراث لاأبالي، وبحذر، أجاب قرصتها بقرصة مماثلة، ليظهر أنه رجل عرك الدنيا، يفهم تأنيبها ويقبله.

ولكن لم تشعر حتى بقرصته، إذ استطاعت سماع صوت ميلاني العذب بجلاء، ذلك الصوت الذي كان ميزتها الفاتنة الرئيسة:

- «أخشى ألّا أوافقك في الرأي حول نتاج السيد ثاكيري، فهو ناقد تهكمي لاذع، كما أخشى ألّا يكون ذلك الأديب، كالسيد ديكنز».

أي حديث تافه يحدث به رجل، فكرت سكارلت، وضحكة الفرج تكاد تنطلق من فيها... كيف لا، وميلاني ليست أكثر من فتاة متأدبة، وكل إنسان يعرف كيف ينظر الرجال إلى المتأدبات، فالطريقة لإثارة الرجل، وللإبقاء على متعته، هي أن تتحدث عنه، ثم توجه الحديث شيئاً فشيئاً نحو نفسك، وتبقيه هناك. كان من الممكن أن تشعر سكارلت بداعي الذعر أو أن ميلاني كانت تقول مثلاً: «ما أروعك» أو «كيف تفكر دائماً في مثل هذه الأمور؟ فعقلي المسن الصغير ينفجر إذ جربت يوماً التفكير فيها». ولكن لا، فها هي أمامها، والرجل يجلس عند قدميها، تتحدث بجد ووقور كما لو أنها في كنيسة. وتراءى مرامها أكثر إشراقاً حقيقياً حول عينيها المشعتين نحو تشارلز، مبتسمة بفرح

خالص، فانخلب عقله، أمام هذه الشهادة البينة على ودادها، وأمسك بمروحتها يحركها باندفاع، فراح شعرها يتطاير شعثاً.

- «آشلي، إنك لم تتفضل علينا برأيك»، قال جيم تارلتون، ملتفتاً إليه من بين جماعة الرجال المتصايحين.

ونهض آشلي معتذراً... ليس بين الجميع أبهى منه طلعة، فكرت سكارلت وهي تتأمل كم رائعاً بدا مظهره المهمل، وكيف انعكست الشمس على شعره وشاربه الذهبيين، حتى الرجال صمتوا إصغاء إلى ما سيقوله:

- «على كل الأحوال أيها السادة، إذا حاربت جورجيا فسأشترك في الحرب، وإلا، فأي داعٍ لانضمامي إلى الفرقة؟» قال ذلك وقد اتسعت فتحتا عينيه الرماديتين، وغابت نظرتهما الناعسة في تحديق قوي، لم تشهد سكارلت مثيله من قبل، «ولكنني كوالدي، آمل أن يدعنا الشماليون ننفصل بسلام، وعندها لن تقع حرب»، ورفع يده مبتسماً إثر بلبلة من الأصوات، بدأت ترتفع من شباب تارلتون وفونتين:

- «نعم.. نعم، أعرف أننا تعرضنا للإهانة، وافتُري علينا، ولكن لو كنا في موقف الشماليين، وأرادوا هم ترك الاتحاد، فكيف كنا نتصرف؟ تماماً الشيء ذاته ما كنا لنوافق على انفصالهم».

«ها هو يفعلها ثانية، دائماً يضع نفسه في الجهة المقابلة»، فبالنسبة إليها، كل مناظرة لها جانب عادل واحد، ولذا فلم تكن لتستطيع فهم دوافع آشلي أحياناً.

وتنفست سكارلت الصعداء، سعيدة لأن آشلي يتمتع بسمعه طيبة في الشجاعة لا يمكن مهاجمتها، وإلا لحدث ما لا تُحمد عقباه. وفيما هي تفكر في ذلك، علا صخب الأصوات المخالفة لرأي آشلي،

ساخطة شرسة نارية، ما جعل الرجل المسن الأصم الذي من فايتفيل، والجالس تحت العريشة، يهز إنديا مستفسراً:

- «حول ماذا يدور هذا اللغط؟ ماذا يقولون؟».

- «الحرب»، صاحت إنديا مكورة يدها تجاه أذنه. «يريدون محاربة الشماليين».

- «الحرب؟ حقاً؟؟» صاح متحسساً ما حوله بحثاً عن العصا، حاملاً نفسه من على كرسيه بطاقة أكبر مما أظهر خلال سنين.

- «سأخبرهم عن الحرب، فلقد كنت غمرتها».

لم تتح الفرص إلا نادراً للسيد ماكري ليتحدث عن الحرب، نظراً إلى الطريقة التي كان نساء عائلته يُسكتنه بها.

ولذلك أسرع يترنح نحو الجمهور، ملوحاً بعصاه، صائحاً، وما أسرع ما أصبح سيد الموقف غير المنازع لأنه لم يكن يسمع ما كان يكتنفه من أصوات لكونه أصم.

- «أيها الشبان المتأنقون النزقون، أصغوا إليّ. أنتم لا تريدون القتال، لقد حاربت وأعرف ما هي الحرب، خرجت إلى حرب السيمنول وكنت في منتهى الغباء عندما خرجت إلى حرب المكسيك أيضاً. أنتم جميعاً لا تعرفون ما هي الحرب. إنكم تظنون أنها مجرد ركوب حصان جميل والاستمتاع بزهور تلقيها الفتيات على رؤوسكم، ثم العودة أبطالاً إلى البيوت. لا، لا يا سادة، إنها ليست كذلك، إنها الجوع، والإصابة بالحصباء والتهاب الرئة من جرّاء النوم على الأرض الرطبة، وإذا لم يصب المرء فيها بالحصباء أو الرئة فبأمعائه. نعم يا سادة، ماذا تفعل الحرب لأمعاء الإنسان؟؟ الزحار[1] وأمثال الزحار».

احمرت وجوه السيدات خجلاً، إذ كانت شخصية السيد ماكري

(1) الدزنطاريا - (المترجمان).

تُذكّر بعصر مضى، عصر ساذج خام، مثل شخصية غراندما فونتين، وتقيئها المزعج ذي الصوت الأجش، عصر يرغب كل إنسان في نسيانه.

- «هلمي أحضري جدك»، همست إحدى بنات الرجل العجوز لفتاة صغيرة، تقف بجانبها، «أنا أقول»، التفتت السيدات المتزوجات اللواتي جسلن حولها، متأثرات بموقف الرجل، «إن حالته تسوء يوماً بعد يوم. هل تصدقن أنه في هذا الصباح ذاته، خاطب ماري - وهي فقط في السادسة عشرة من عمرها - قائلاً والآن يا بنيتي...».

وغاب صوتها هامساً، بينما هرولت الحفيدة لتقنع السيد ماكري بالرجوع إلى مقعده تحت الظلال.

بين جميع الحشد الذي كان يهوج ويموج تحت الأشجار، من صبايا يبتسمن طرباً، ورجال يتحدثون مهتاجين، كان رجل واحد فقط يبدو ساكناً هادئاً، إنه ريت باتلر، الذي التفتت عينا سكارلت نحوه وهو يقف متكئاً على شجرة، ويداه غارقتان إلى آخر جيبي سرواله.

ظل وحيداً منذ غادره السيد ويلكس، ولم ينبس بكلمة والنقاش يحتدم من حوله. وقد تدلت شفتاه الحمراوان، تحت شاربه الأسود المائل، ولمع بريق ازدراء فكه في عينيه السوداوين - ازدراء كما لو أنه يستمع إلى تفاخر أطفال. ورأت سكارلت في ازدرائه هذا بسمة بغيضة.

ظل يصغي هادئاً ساكناً إلى أن كرر ستيوارت تارلتون، وشعره مشعث، عيناه الحمراوان تبرقان غضباً، عبارته: «كيف لا، سوف نسحقهم في شهر واحد، فالسادة دائماً يحاربون أفضل من الرعاع، شهر واحد، معركة واحدة فقط».

- «أيها السادة» قال ريت باتلر بلهجة بطيئة رتيبة نمّت عن موطنه شارلستون، قال دون أن يغيّر وضعيته، وضعية المتكئ على الشجرة، أو أن يرفع يديه من جيبيه: «هل تسمحون لي بكلمة؟».

كان هناك ازدراء في أسلوب حديثه، كالازدراء الذي تشف عنه عيناه، ازدراء مغلف بمظهر التأدب، يهزأ بأساليبهم، بطريقة ما.

التفت الحشد نحوه، وأكرموه بصمتهم المهذب، الواجب دائماً تجاه الغريب.

- «هل فكر أحد منكم يوماً أيها السادة، في أنه لا يوجد مصنع مدفعية واحد، جنوب خط ماسون - دكسون[1]؟ أو كم هي قليلة جداً مسابك الحديد في الجنوب؟ أو معامل الصوف؟ أو مصانع القطن؟ وأن أسطول الشماليين يستطيع محاصرة مرافئ الجنوب خلال أسبوع واحد، بحيث لا نستطيع بيع أقطاننا إلى الخارج؟ إنكم - بالطبع أيها السادة قد فكرتم في هذه الأمور».

- «كيف، إنه يعني أن الشبان مجرد زمرة من الأغبياء» فكرت سكارلت حانقة والدم الحار يعلو وجنتيها.

من الجلي أنها لم تكن الوحيدة التي أدركت هذا المعنى، إذ بدأ عدد من الشبان يمدون أعناقهم، بينما رجع جون ويلكس إلى مكانه بجانب الغريب، بشكل طبيعي، ولكن بسرعة، كأنه يريد أن يؤكد لجميع الحضور أن الرجل ضيفه، وأنه علاوة على ذلك، توجد سيدات بين الحضور.

- «إن مشكلة معظمنا نحن الجنوبيين» أردف ريت باتلر، «هي أننا لا نسافر ما فيه الكفاية، أو أننا لا نستفيد الفائدة المرجوة من أسفارنا. والآن... بالطبع جميعكم أيها السادة قد سافر كثيراً، ولكن ماذا شاهدتم؟ أوروبا ونيويورك وفيلادلفيا، وطبعاً السيدات اللواتي كانت في ساراتوغا»، وانحنى قليلاً للجالسات تحت العريشة، «لقد شاهدتم

---

(1) خط الحدود الفاصل بين بنسلفانيا وميريلاند، خططه تشارلز ماسون وجيرمي دكسون عام 1763، وهو يعتبر الخط التقريبي الفاصل بي شمال الولايات المتحدة وجنوبها - (المترجمان).

الفنادق والمتحف وحفلات الرقص وبيوت القمار، وعدتم إلى بيوتكم مؤمنين أن لا مكان في الدنيا كالجنوب، أما أنا فقد ولدت في شارلستون، ولكني قضيت السنين القليلة الماضية في الشمال»، وافترّ ثغره عن ابتسامة كشفت أسنانه البيضاء، كأنه أدرك أن جميع الحاضرين يعرفون سبب عدم بقائه في شارلستون دون أن يبالي أبداً بمعرفتهم هذه، «لقد شاهدت أشياء كثيرة لم يرها أحد منكم، شاهدت المصانع والمنشآت وأحواض السفن ومناجم الحديد والفحم وجميع الأشياء التي لا وجود لها عندنا. وماذا يوجد غير القطن والعبيد والعجرفة... سيسحقوننا في شهر».

وتخرمت هنيهة صمت متوتر رهيب. وأخرج ريت باتلر منديلاً كتانياً ظريفاً من جيب معطفه ونفض به الغبار عن ردنه بتمهل. وعلى الأثر ارتفعت بين الحشد دمدمة تنذر بالشر، بينما سمع من تحت العريشة طنين كطنين خلية النحل في بدء فورته. ورغم كون الدم الغاضب ما زال حاراً في وجنتي سكارلت، فإن تفكيرها العملي أوحى لها أن ما يقوله هذا الرجل صواب، وأنه يبدو وليد إدراك سليم، كيف لا، وهي لم تشاهد يوماً مصنعاً، أو إنساناً شاهد مصنعاً. ولكن، حتى لو كان صواباً، فليس صاحبه بالرجل الفاضل ليلقي مثل هذا الخطاب وفي حفلة أيضاً، حيث ينعم الجميع بوقت طيب ممتع.

تقدم ستيوارت تارلتون، مقطباً ما بين عينيه، وبرنت في أثره تماماً. طبعاً كان التوأمان مهذبين ولن يقدما على فصل شغب، خلال باربكيو، رغم نقمتهما المتناهية، وفي الوقت الذي اضطربت فيه جميع السيدات، مسرورات، إذ نادراً ما شاهدن فصل قتال أو خصام، ومن المعتاد أن يسمعن به بعد أن تلوكه الألسن للمرة الثالثة.

– «سيدي» قال ستيوارت، «ماذا تعني؟».

فنظر إليه ريت بعينين مهذبتين، ولكن ساخرتين:

- «أعني»، أجابه، «الذي قاله نابليون - لعلك سمعت به -: «إن اللّه دائماً بجانب الفريق الأقوى»»، قال ذلك والتفت نحو جون ويلكس، مردفاً بأدب خالص: «وعدت أن تريني مكتبتك يا سيدي، فهل يمكن أن تغمرني الآن بكرمك وتريني إياها؟ إذ أخشى أن أكون مضطراً للعودة لى جونسبورو في الساعات الأولى من بعد ظهر هذا اليوم، حيث يستدعيني عمل هناك».

ثم أدار وجهه إلى الجمهور، صافقاً قدميه معاً، منحنياً كمعلم رقص، انحناءة رشيقة بالنسبة إلى رجل قوي مثله. وقد بدت وقاحته الطاغية، كالصفعة على الوجه.

مشى عبر المرجة إلى جانب السيد ويلكس، شامخاً برأسه الأسود، تتصادى ضحكته المكدرة نحو الجماعة الجالسة حول المناضد.

وخيّم سكون الذهل، الذي ما لبث حتى شقه اللغط ثانية، فنهضت إنديا، متحاملة على نفسها، من تحت العريشة، متجهة بتثاقل إلى حيث وقف ستيوارت الناقم. ولم تستطع سكارلت سماع ما قالته له، ولكن نظرة عينيها وهي ترنو إلى جبينه المقطب، أوحت لسكارلت بوخز الضمير. إنها نظرة الهيام ذاتها التي غمرت ميلاني وهي ترنو إلى آشلي، وليس من فرق بينهما سوى أن ستيوارت لم يلحظها... إن إنديا تحبه إذن. وخطر لسكارلت لهنيهة قصيرة فقط، إنها لو لم تغازل ستيوارت غزلاً عنيفاً أثناء تلك المحاضرة السياسية منذ سنة، لأمكن زواجه بإنديا قبل هذا الوقت، ولكن سرعان ما انتهى وخز الضمير عندما فكرت أن الذنب ليس ذنبها هي إن لم تستطع الفتيات الأخريات الاحتفاظ برجالهن.

وابتسم ستيوارت أخيراً في وجه إنديا ابتسامة فاترة، مطرقاً رأسه. من المحتمل أن تكون إنديا قد استعطفته ألّا يلحق بالسيد باتلر ويخلق المتاعب. وعلت الضوضاء تحت الأشجار حين نهض الضيوف

ينفضون فتات الطاعم من حجورهم، بينما نادت المتزوجات وصيفاتهن وأولادهن الصغار، ثم جمعن بقية أطفالهن، استعداداً للانصراف. وانطلقت أسراب الفتيات تضحك وتهذي نحو المنزل ليتبادلن الثرثرة داخل غرف النوم في الطابق العلوي، وليستمتعن بالقيلولة.

وخرجت جميع النساء من الساحة الخلفية، تاركات ظلال السنديان والعريشة للرجال، ولم تتخلف منهن سوى السيدة تارلتون التي أعاقها جيرالد والسيد كالفرت والآخرون الذي أرادوا منها جواباً يتعلق ببيع خيولها للفرقة.

ومشى آشلي متثاقلاً إلى حيث جلست سكارلت وتشارلز، وقد علت وجهه بسمة مفكرة طرية:

– «إنه شيطان متعجرف؟ أليس كذلك؟» علّق متطلعاً خلف ريت، «إنه يبدو كرجل من البرغياس[1]».

فكرت سكارلت بسرعة، ولكنها لم تستطع تذكّر أي عائلة في المقاطعة، أو أتلانتا أو سافانا، تحمل هذا الاسم:

– «أنا لا أعرفهم. هل هو قريبهم؟ من هم؟».

وكسا وجه تشارلز تعبير غريب شاذ، عن الريبة والعار تتصارعان والحب، وانتصر الحب عندما تحقق من أن كون الفتاة جميلة رقيقة عذبة يكفيها دون أن تملك ثقافة قد تشوه فتنتها، ولذلك أجاب مسرعاً:

– «البرغياس من الإيطاليين».

– «ها» قالت وقد تلاشى اهتمامها، «إنهم أجانب» والتفتت نحو آشلي بأعذب ابتساماتها ولكن لسبب ما لم يكن ينظر إليها. إنه كان ينظر إلى تشارلز، وفي وجهه علائم الفهم وقليل من الشفقة.

* * *

---

(1) عائلة من عائلات إيطاليا العريقة في القرن الخامس عشر – (المترجمان).

وقفت سكارلت على بسطة السلم، تختلس النظر بحذر من فوق الدرابزين، إلى القاعة السفلى. لقد كانت فارغة، بينما علت من غرف النوم فوقها، دندنة أصوات منخفضة مستمرة، ترتفع وتنخفض، تتخللها صيحات وأقوال «لم تفعلي ذلك حقاً» و«ماذا قال بعدئذ؟».

فعلى أسرَّة ومضاجع غرف الست الواسعة، استلقت الفتيات، نازعات أثوابهن، حالات مشداتهن، مسرحات شعورهن خلف ظهورهن. لقد كانت القيلولة عادة متبعة في الريف لا يشعر بضرورتها الماسة في وقت كما يشعر بها أثناء الحفلات التي تستغرق النهار بطوله، مبتدئة في الصباح الباكر، لتبلغ منتهاها في حفلة الرقص.

أما الفتيات فسيمضين في الثرثرة والضحك نصف ساعة، ثم يغلق الخدم مصاريع النوافذ، حيث تتلاشى الأصوات في دفء الغرفة نصف المعتمة، متحولة إلى همس أولاً لتنتهي أخيراً بصمت لا يشقه غير تنفس رقيق منتظم.

أما سكارلت فقد تأكدت من أن ميلاني راقدة في سريرها، مع هوني وهيتي تارلتون، قبل أن تتسلل إلى القاعة وتنزل الدرج، حيث استطاعت أن ترى خلال نافذة على بسطة، جماعة الرجال الجالسين تحت العريشة يحتسون الشراب من كؤوس طويلة، وكانت تدرك أنهم سيمكثون هنالك إلى وقت متأخر بعد الظهر. ثم تخللتهم عيناها تبحثان عن آشلي، فلم تجده، وعندما أرهفت أذنيها سمعت صوته، كان لا يزال في الممشى الأمامي، يودّع بعض السيدات المنصرفات وأطفالهن.

نزلت الدرج مسرعة فزعة، قلبها في حلقها، فماذا لو التقت بالسيد ويلكس؟ أي عذر ينبغي أن تقوله مبررة دورانها حول البيت، في الوقت الذي تنعم فيه جميع الفتيات بقيلولتهن المنعشة؟ على كل حال، لا بد من المغامرة.

وعندما بلغت الدرجات السفلية سمعت جلبة الخدم في غرفة الطعام، يرفعون بأمر النادل الطاولة والكراسي استعداداً للرقص. وعلى جانب القاعة الواسعة كان باب المكتبة مفتوحاً فهرعت داخله دون ضجيج. إن في وسعها الانتظار هناك، حتى ينتهي آشلي من الوداع، فتناديه أثناء دخوله البيت.

كانت المكتبة شبه مظلمة، ستائرها مسدلة لاتقاء حرارة الشمس. فغمّتها الغرفة المعتمة بجدرانها الشاهقة، المليئة بالكتب، إذ لم تكن المكان الذي يمكن أن تختاره للقاء ودي كهذا، كما كانت تأمل. إن أعداد الكتب الكثيرة تغمّها دائماً، كما يغمّها الناس الذين يحبون قراءة الكتب الكثيرة، أعني جميع الناس باستثناء آشلي. وتراءى لها في الضوء الباهت قطع الأثاث الضخم: كراسي بظهور مرتفعة ومقاعد منخفضة وجوانب عريضة، مصنوعة لتناسب رجال آل ويلكس الطوال، ثم كراسي صغيرة وثيرة من المخمل، أمامها متكآت للأقدام مخملية كذلك، خاصة بالآنسات، وبعيداً، في جانب الغرفة، ربضت الكنبة البالغة سبعة أقدام طولاً، مقعد آشلي المفضل، جاثمة بظهرها المرتفع كحيوان ضخم نائم.

أغلقت الباب تاركة منه شقاً مفتوحاً، محاولة تهدئة خفقان قلبها المتسارع، محاولة أن تتذكر بدقة، ما اختطته في الليلة الماضية لتخاطب آشلي، ولكنها لم تستطع تذكّر شيء. هل قررت أمراً ونسيته؟ إنها ارتأت فقط أن واجب آشلي إعلامها بشيء، إنها لا تتذكر. وانتابتها قشعريرة خوف باردة، لو أن قلبها يكف فقط عن القرع في أذنيها، فقد تستطيع عندئذ أن تفكر فيما ستقول، ولكن الضربات السريعة ازدادت وهي تسمعه يلقي بالتحية الأخيرة ويدخل القاعة الأمامية.

كل ما استطاعت التفكير فيه هو أنها تحبه - كل شيء فيه، من

شموخ الكبرياء في رأسه الذهبي، إلى حذائه البني الرشيق، تحب ضحكته عندما توقعها في الحيرة، تحب صمته المربك، آه، فقط لو يدخل إليها الآن، ويضمّها بين ذراعيه، فيوفر عليها ضرورة مصارحته بأي شيء: - ينبغي أن يحبها - «ربما إن أنا صلّيت» وأغمضت عينيها بإحكام، وراحت تتمتم في نفسها: «السلام عليك يا مريم... يا ممتلئة نعمة».

- «ماذا يا سكارلت؟» خاطبها صوت آشلي، مخترقاً دوي أذنيها، ملقياً بها في حيرة واضطراب، وقف في القاعة يتأملها من شق الباب، وقد علت وجهه بسمة غامضة:

- «ممن تختبئين؟ من تشارلز أو التوأمين تارلتون؟».

فبلعت ريقها، إذن لقد لاحظ كيف ازدحم الرجال حولها، كم كان منفعلاً متلهفاً إلى درجة تفوق الوصف، وهو يقف هناك، يراقبها بطرفي عينيه، غافلاً تماماً عن انفعالها هي.

لم تستطع الكلام، ولكنها مدت يدها وجذبته داخل الغرفة، فدخل وهو في حيرة ورغبة، كانت تبدو متوترة النفس، تبرق عيناها بصورة لم يشهدها من قبل، وحتى في الضوء الباهت استطاع أن يرى حمرة الخجل الوردية على وجنتيها، وبصورة آلية، أغلق الباب وأمسك بيدها:

- «ما القضية؟» سألها بصوت يقارب الهمس.

وارتجفت لمّا لمست يده يدها، سيتم الأمر الآن، تماماً كما تخيلته، وتواردت على ذهنها آلاف الأفكار المتضاربة، دون أن تنجح في اعتماد واحدة لتصوغها ألفاظاً، وإنما استطاعت فقط أن ترتجف وتتطلع في وجهه... لماذا لم يتكلم؟

- «ما القضية؟»، كرر، «أسرٌّ تريدين البوح به؟».

وفجأة عثرت على لسانها، وفجأة كذلك، اندحرت جميع تعاليم

السنين الطويلة التي تلقّتها من إيلين، لتنطق شفتاها بفعل الدم الإيرلندي الجريء، دم جيرالد:

- «نعم... سِرّ، إني أحبك».

ومضت دقائق، وخيم صمت مطبق تماماً، بحيث بدا لو أن كلاهما لا يتنفسان، وزاولتها الرجفة، لتحل محلها دافقة السعادة والكبرياء. لماذا لم تقدم على فعل هذا من قبل؟ إنه أكثر سذاجة من كل مناورات السيدات التي تلقنتها من قبل. ثم نشدت عيناها عينيه. كانتا تشعان بالذعر، بالدهشة، بعدم التصديق، وبشيء أكثر من ذلك. ما هو ذلك الشيء؟ بلى، هكذا كانت عينا جيرالد تشعان يوم كسر حصان الصيد المدلل ساقه، فاضطر إلى أن يطلق النار عليه. لماذا تنساق إلى التفكير في مثل هذا الآن؟ مجرد فكرة تافهة. ولماذا يبدو آشلي مستهجناً هكذا، ولا ينطق بشيء البتّة؟

ثم كأن قناعاً يحسن التستر انسدل فوق وجهه، وابتسم بمروءة:

- «ألا يكفي أنكِ جمعتِ قلوب كل الرجال الآخرين هنا، هذا اليوم؟»، قال وفي صوته تلك اللهجة المؤنسة المثيرة القديمة. «هل ترغبين أنْ يكون ذلك بالإجماع التام؟ على كل حال... كنت دائماً تملكين قلبي، كما تعلمين، منذ كنت في لثغة الطفولة ونعومة أظفارها».

لا بد أن يكون شيء قد حدث خطأ، خطأ بكليته، فهذه ليست الطريقة التي رسمتها، ومن بين تناحر الفكر الجنوني في عقلها، راحت فكرة تشق طريقها وتثبت وجودها. لسبب ما، كان آشلي يتصرف تقريباً كما لو أنها تغازله، رغم معرفته أن الأمر ليس كذلك، إنها متيقنة أنه يعرف.

- «آشلي... آشلي... أخبرني.. يجب عليك... آه... لا تثرني الآن: هل أملك قلبك؟ آه يا عزيزي.. أنا أحـ».

وأطبقت يده على شفتيها بسرعة، لقد نزع القناع.

- «ينبغي ألّا تتفوهي بهذه الأمور يا سكارلت. ينبغي ألّا تتفوهي. أنت لا تقصدينها، ستمقتين نفسك لتفوّهك بها، وستمقتينني لأنني سمعتها».

فدفعت رأسه بعيداً، وتيار حار دافق من الدم يسري في عروقها.

- «أنا لا أستطيع إبغاضك طوال حياتي. أقول لك إني أحبك، وأنا أعرف أن واجبك أن تحفل بي» وتوقفت، فهي لم يتفق لها أن رأت وجهاً بمثل هذا البؤس، «آشلي... هل تحفل بي... أنت تحفل بي... أليس كذلك؟».

- «بلى» قال دون حماس... «أحفل».

لو أنه قال إنه ينفر منها ويشمئز، لما كانت أكثر هلعاً مما هي الآن، وتعلقت بردنه عاجزة عن الكلام.

- «سكارلت... ألا نستطيع الخروج ونسيان أننا تلفظنا بهذه الأمور؟».

- «لا» همست، «لا أستطيع. ماذا تعني؟ ألا تريد أن... أن تتزوجني؟».

فأجابها:

- «سأتزوج ميلاني».

ودون أن تدري، وجدت نفسها على الكرسي المخملي الصغير، وآشلي على متكأ الأقدام عند قدميها، ممسكاً يديها بيديه بقبضة قاسية، يلفظ كلمات... كلمات لا تعني شيئاً. كان عقلها هادئاً خالياً، فارغاً تماماً من كل الأفكار التي كانت تموج فيه منذ برهة قصيرة. ولم تفعل أكثر من فعل المطر على الزجاج، فقد وقعت على أذنين لا تسمعان، إنها كلمات سريعة رقيقة، زاخرة بالشفقة، ككلمات والد يخاطب ابنه الذي أصيب بأذى.

ولفت انتباهها اسم ميلاني، فنظرت في عينيه الرماديتين البلوريتين، ورأت فيهما الشرود القديم الذي طالما حيّرها، كما رأت فيهما تعبيراً عن كراهية النفس لذاتها.

- «سيعلن والدي الخطوبة هذه الليلة، وسنتزوج سريعاً. كان ينبغي أن أخبرك، ولكني اعتقدت أنك تعلمين بالأمر، اعتقدت أن كل إنسان يعلم، ويعلم منذ سنين. ولم أتصور أبداً أن لك عشاقاً كثيرين جداً، كنت أعتقد أن ستيوارت...».

كانت الحياة والشعور والإدراك قد بدأت تنساب ثانية في عروقها.

- «ولكنك قلت الآن إنك تحفل بي؟».

فضغطت يداه الدافئتان يديها، وقال:

- «عزيزتي، هل ينبغي لك أن تجعليني أتفوّه بأمور قد تؤذي إحساسك؟».

وقاده صمتها إلى المتابعة:

- «كيف أستطيع أن أجعلك تتحسسين هذه الأمور يا عزيزتي؟ أنت التي ما زلت صغيرة لا تحسنين التفكير بحيث لا تعرفين بعد معنى الزواج».

- «أعرف أني أحبك».

- «الحب لا يكفي من أجل زواج ناجح، عندما يكون الشخصان غير متكافئين، شأننا نحن، فأنت سوف تطلبين كل شيء في الرجل... يا سكارلت، جسده وقلبه وروحه وأفكاره، وإن لم تملكيها جميعها، تكونين تعسة شقية، وأنا لا أستطيع منحها جميعاً، لا أستطيع منح جميع كياني لأي إنسان، كما أني لا أريد كل عقلك وروحك... وسيؤذي شعورك، وعندها ستبغضينني... ما أمرّها من حقيقة: ستبغضين الكتب التي أقرأها، والموسيقى التي أحبها، لأنها تنتزعني منك... حتى ولو دقيقة واحدة... وأنا - ربما أنا...».

- «هل تحب ميلاني؟».

- «هي مثلي... جزء من دمي، ونحن نفهم بعضنا بعضاً يا سكارلت. سكارلت، ألا أستطيع أن أنجح في جعلك تدركين أن الزواج لن يستمر بأي وضع من الأوضاع المطمئنة ما لم يكن الشخصان متكافئين؟».

لقد قال شخص آخر من قبل: «ينبغي أن يتزوج المتكافئان، وإلا فلن توجد السعادة» من قالها؟ وبدا كأن ملايين من السنين انقضت منذ سمعت هذه العبارة، ولكنها ما زالت لا تعي لها معنى.

- «ولكنك قلت إنك تحفل بي؟».

- «كان يجب ألّا أقولها».

وشرعت نار بطيئة تتقد في مكان ما من دمها، فبدأ الغضب يطمس كل ما سواه، قالت:

- «لقد كنت وغداً جداً، إذ قلتها».

ففاض الدم من وجهه، وأجاب:

- «حقاً لقد كنت وغداً إذ قلتها ما دمتُ سأتزوج ميلاني. لقد أسأت إليك، وإلى ميلاني أكثر. كان يجب ألّا أقولها، لأني أعرف أنك لن تعي مقصدها. كيف أستطيع أن أحفل بك، أنت التي تملكين كل شهوات الحياة، التي لا أملكها؟ أنت التي في إمكانك أن تحبي وتبغضي بعنف يستحيل عليّ. وحسبك أنك لا تزالين عنصراً خاماً كالنار والريح والأشياء البرية بينما أنا...».

وفكرت ميلاني فجأة وتصورت عينيها البنيتين الهادئتين بنظراتهما البعيدة، ويديها الصغيرتين الوديعتين داخل القفازين الأسودين المخرمين، وفترات صمتها اللطيفة. ثم انفجر غضبها، ذات الغضب الذي ساق جيرالد إلى الجريمة، كما ساق عدداً من أسلافه الإيرلنديين إلى أفعال شنيعة كلفتهم رقابهم.

ولم يكن فيها الآن أثر من آل روبيلارد، ذوي التربية الراقية، الذين في وسعهم أن يتحملوا بصمت بريء، كل ما يمكن أن تقذفه الدنيا في وجوههم.

- «لماذا لا تقولها صريحة أيها الجبان: إنك تخاف الزواج بي، وإنك تفضل العيش مع تلك الغبية الصغيرة الحمقاء... التي لا تستطيع فتح فمها إلا بـ«نعم» أو «لا»، والتي تنجب من الأطفال من كان لئيماً ماكراً مثلها».

- «يجب أن لا تقولي هذه الأشياء عن ميلاني».

- «يجب ألّا أدعك تهينني... من أنت حتى تقول لي يجب؟ أيها الجبان، أيها الوغد، أيها الـ... لقد جعلتني أعتقد أنك ستتزوجني».

- «كوني منصفة» قال بلهجة المتوسل، «لم أقل لك يوماً...».

إنها لا تريد أن تكون منصفة، مع أنها تعرف أن ما قاله صدق... فهو لم يتخطَّ يوماً حدود الصداقة معها، وعندما عنّت لها هذه الحقيقة، ثار في نفسها غضب جديد، صاغه الكبرياء الجريح وغرور الأنوثة. لقد جرت وراءه، ولم يرضَ بشيء فيها، إنه فضَّل غبية صغيرة، شاحبة اللون كميلاني عليها. آه، كان أفضل بكثير لو اتبعت وصايا إيلين ومامي، ولم، ولم تكشف أبداً عن حبها له، كل شيء أفضل من أن تواجه بالعار اللافح الحارق.

ووقفت على قدميها، ويداها متشابكتان. ووقف هو يعلوها بقامته، تكسو وجهه تعاسة خرساء، تعاسة إنسان سيق لمواجه الحقائق، عندما تكون الحقائق كسكرات الموت.

«سأظل أمقتك حتى الموت، أيها الوغد - أيها المنحط - أيها المنحط»، أي كلمة كانت تريد؟ إنها لم تستطع التفكير في كلمة سيئة كما ينبغي.

- «سكارلت. . . أرجوك»، ومدَّ يده نحوها، وفيما هو كذلك صفعته على وجهه بكل ما ملكت من قوة.

ودوت الصفعة كضربة السوط، في جوف الغرفة الساكنة، وفجأة زال غضبها، وأحست بالكآبة تملأ قلبها.

وعلى وجهه الأبيض المنهك، بدا أثر الصفعة جلياً واضحاً، ولكنه لم يفه بكلمة، بل رفع يدها الغضة إلى شفتيه وقبّلها، ثم خرج قبل أن تتمكن من الكلام ثانية، مغلقاً الباب خلفه بهدوء.

وعادت إلى الجلوس فجأة، وعمل فيها رد فعل الغضب، فأحست بركبتيها لا تقويان على حملها، لقد ذهب. . . ولكن ذكرى وجهه المصفوع ستلازمها حتى الموت.

وتناهى إلى سمعها وقع خطواته الخفيفة الخفية، تتلاشى عبر القاعة الطويلة، وتجلت لناظريها فظاعة فِعلتها كاملة. لقد فقدته إلى الأبد. . . سيبغضها الآن. . . وسيذكر كلما رآها، كيف ألقت بنفسها عليه، في الوقت الذي لم تبدر منه أي بادرة مشجعة.

«إنني وقحة كهوني ويلكس» فكرت فجأة، متذكّرة كيف أن كل الناس، ولا سيما هي، تضحك محتقرة سلوك هوني الوقح. ورأت خفة تصرفات هوني الخرقاء، وسمعت ضحكاتها الغثة البلهاء، وهي تتمسك بأذرع الشبان. وأثارت الفكرة في نفسها غضباً جديداً، غضباً على نفسها، وعلى آشلي، وعلى الدنيا. ولأنها كرهت نفسها، كرهتهم جميعاً بدافع نقمة الحب الخائب الكسير، حب فتاة في السادسة عشرة من العمر. ولم يكن يشوب حبها إلا قليل من الرقة، إذ كان مزيجاً من الغرور والثقة المطلقة بمفاتنها. وها هي الآن قد أضاعت كل شيء، وكان أعظم من شعورها بالضياع، خوفها من أن تكون قد جعلت من نفسها فرجة للعموم. هل انشكف أمرها كهوني؟ هل ضحك الجميع عليها؟

وارتعشت إثر هذه الفكرة. وامتدت يدها إلى طاولة صغيرة بجانبها، وأمسكت بأصابعها أصيصاً خزفياً صغيراً، نُقِشت عليه صورة ملاكين يبتسمان، كانت الغرفة في غاية السكون، بحيث رغبت في أن تصرخ كيما تشق رهبة الصمت. يجب أن تصنع شيئاً وإلا جنّت، ورفعت الأصيص، وبدافع آثم، قذفت به عبر الغرفة باتجاه المدفئة، فكاد يرتطم بظهر الكنبة الطويل ثم تهشم على رف المدفئة الرخامي شظايا متناثرة.

- «هذا كثير جداً» قال صوت من أعماق الكنبة.

وجفلت، لم تخَفْ يوماً بقدر ما هي الآن، وجفَّ لسانها تماماً بحيث لم تستطع النطق بكلمة، وتمسكت بظهر الكرسي، وارتجفت ركبتاها وهي تشاهد ريت باتلر ينهض من على الكنبة، حيث كان مضطجعاً، وينحني لها بأدب مبالغ فيه:

- «من السيّئ جداً أن تعكر قيلولة المرء من جرّاء حوار كهذا الذي أرغمت على سماعه، ولكن لماذا ينبغي لحياتي أن تتعرض للخطر؟».

كان شخصاً حقيقياً، لم يكن شبحاً، ولكن، ليحفظ القديسون أرواحنا، لقد سمع كل شيء. واستجمعت قواها في شبه مظهر أنوف:

- «سيدي، كان يجب أن تعلن عن وجودك هنا».

- «حقاً؟» ولمعت أسنانه البيضاء، بينما ضحكت عليها عيناه السوداوان الوقحتان، «ولكن أنت الدخيل المتطفل، أما أنا فقد كنت مضطراً إلى انتظار السيد كنيدي، ولما شعرت أن من المحتمل أن أكون شخصاً غير مرغوب بوجوده في الساحة الخلفية، ارتأيت بعد تفكير طويل، أن أبعد وجودي المستنكر إلى هذا المكان حيث اعتقدت أن أحداً لن يضايقني... ولكن... يا للأسف...»، وهزَّ كتفيه باستهجان ضاحكاً ضحكة رقيقة.

كانت أعصابها قد بدأت في التوتر ثانية، وهي تفكر في أن هذا الوقح السليط قد سمع كل شيء - كل شيء، تتمنى الآن لو قضت قبل التفوّه به.

- «مسترقو السمع» بادرته حانقة.

- «مسترقو السمع غالباً ما يسمعون أموراً تنوّر العقل، وعلى درجة رفيعة من الإمتاع» قال مبتسماً، «وبفضل خبرة طويلة في استراق السمع، أصبحت. . .».

- «سيدي، أنت لست محترماً».

- «إنها ملاحظة لائقة»، أجاب بتهكم، «وأنت يا آنسة لست محترمة».

وبدا كأنه وجد الآنسة مسلية، إذ ضحك ثانية برقّة، «فلا يمكن لامرأة أن تبقى محترمة، بعد أن تقول وتفعل الذي سمعته الآن. وعلى كل حال، نادراً ما فُتِنتُ بالسيدات، لأني أعرف في ماذا يفكرن. ولكنهن أبداً لا يملكن الشجاعة أو سوء التربية ليصرحن بما يفكرن فيه. ومع الوقت، يضحي ذلك عبئاً ثقيلاً، ولكن أنت يا آنستي العزيزة، فتاة بروح قل مثيلها، روح باهرة جداً، وها إني أنزع قبعتي إجلالاً لك. إنني عاجز عن فهم أي رقي يستطيع السيد اللطيف ويلكس أن يتذرع به، في وجه فتاة بطبيعتك الثائرة. يجدر به أن يشكر اللّه، راكعاً على ركبتيه، لنعمته عليه بفتاة مثلك تملك - ماذا دعاها؟ - كل شهوات الحياة، ولكن لكونه إنساناً مسكيناً بروح بائسة. . .».

- «أنت لا تصلح لمسح حذائه» صاحت غضبى.

- «وأنت كنت ستبغضينه مدى حياتك» واسترخى فوق الكنبة، وسمعته يضحك.

لو تستطيع أن تقتله، لما تأخرت أبداً. وعوضاً عن ذلك، خرجت

من الغرفة بكبرياء وأنفة، بحيث استطاعت أن تجمع قواها، وتصفق الباب الثقيل خلفها.

صعدت السلّم بسرعة فائقة جعلتها تظن، عندما بلغت بسطة السلّم، أنه سيغمى عليها، فتوقفت، ممسكة بالدرابزين، وقلبها يقرع قرعاً عنيفاً من الغضب والإهانة والإجهاد، حتى بدا كأنه سينفجر ممزقاً قميصها. حاولت أن تتنفس بعمق ولكن الأشرطة التي شدتها مامي كانت محكمة. كيف إن هي أغمي عليها ووجدوها هنا على بسطة السلّم، ماذا سيظنون؟ آه سيظنون كل شيء، آشلي وباتلر، ذلك الرجل القميء. وهؤلاء الفتيات السيئات الحقودات. وللمرة الأولى في حياتها، تمنّت لو كانت تحمل روائح منعشة ضد الغثيان، كسائر الفتيات، ولكنها لم تملك يوماً قارورة عطر منعش، إذ كانت تفتخر دائماً في أنها لا تصاب بالدوار، ولذلك، فهي بصراحة، لن تدع نفسها تدوخ الآن.

وطفق الشعور المرضي بالزوال تدريجياً، وأحست أنها بعد هنيهة ستستعيد اتزانها النفسي، وستتسلل بهدوء إلى غرفة الزينة المجاورة لغرفة إنديا، وستحل مشداتها، ثم تسترق الخطى زاحفة لترقد على أحد الأسرة، بجانب الفتيات النائمات. وحاولت أن تهدئ خفقان قلبها، وتنسق أسارير وجهها في وضع منسجم موافق لأنها تعرف أنها لا بد تشابه الآن امرأة مجنونة. وإذا اتفق أن كانت إحدى الفتيات مستيقظة فسيعرف الجميع أن حادثاً قد وقع، بينما يجب ألّا يعرف أحد قط أن شيئاً ما قد وقع.

من خلال نافذة بسطة السلم الواسعة الناتئة إلى الخارج، استطاعت أن ترى الرجال ما زالوا مسترخين في كراسيهم، تحت الأشجار، في ظلال العريشة. إنها تحسدهم. ما أروع أن يكون المرء رجلاً، فلا يضطر إلى مقاساة مآسي كهذه التي قاستها الآن. وبينما هي

واقفة تراقبهم، محمرة العينين، دائخة، سمعت وقع حوافر حصان منطلق، في الممشى الأمامي، تلاه تناثر الحصباء، وصوت متهدج، يصيح مستفسراً من أحد النزوج، ثم تطايرت الحصباء ثانية، ولاح في مدى بصرها رجل على ظهر حصان يسير خبباً فوق المرجة الخضراء في اتجاه الجماعة الخاملة تحت الأشجار.

ضيف متأخر. . . ولكن لماذا قاد حصانه فوق العشب الأخضر، موضع فخر إنديا؟ لم تستطع تمييز شخصه، على أنه عندما طوَّح بنفسه عن السرج وقبض على ذراع جون ويلكس، تمكنت من رؤية الانفعال يغمر كل ملامح وجهه. والتف الحشد حوله، مخلفين كؤوسهم الطويلة ومراوحهم النخلية فوق المناضد وعلى الأرض. ورغم بُعد المسافة استطاعت سماع هرج الأصوات، تستفسر وتنادي، واستشعرت حمى القلق في الرجال قد بلغت أوجها. ثم علا صوت ستيوارت تارلتون بلبلة الأصوات، في صرخة جزعة مهللة «يي - آ - أي» كما لو أنه في حقل الصيد. وللمرة الأولى، سمعت هتاف الثورة، دون أن تعلم حقيقته.

وبينما هي تراقب، رأت أبناء تارلتون الأربعة، يتبعهم شبان فونتين، يخترقون نطاق الجمهور، ويهرولون نحو الإسطبل صائحين:

- «جيمس، يا جيمس، أسرج الخيول».

«لا بد أن أحد البيوت قد اشتعل بالنيران» فكرت سكارلت، ولكن سواء كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح فلا شأن لها به.

إن مهمتها الآن هي أن تعيد نفسها إلى غرفة النوم قبل أن يُكشف أمرها. وهدأ خفقان قلبها، وصعدت الدرج على رؤوس أصابعها إلى القاعة الساكنة، وأحست أن نوماً ثقيلاً دافئاً يغمر البيت، كما لو أن البيت نفسه استغرق كالبنات في القيلولة المنعشة، إلى أن يحين الليل، حيث سيتجلى بزينته التامة، مع الموسيقى ومشاعل الأضواء.

وفتحت باب غرفة الزينة بهدوء تام، وانسلت داخلاً، وكانت يدها لا تزال خلفها تمسك بمقبض الباب، عندما بلغ مسامعها، من خلال شق الباب المؤدي إلى غرفة النوم، صوت هوني ويلكس، في انخفاض يكاد يقارب الهمس:

- «أعتقد أن سكارلت تصرفت اليوم كما يمكن لأي فتاة داعرة أن تفعل». شعرت سكارلت أن قلبها عاود خفقانه المتسارع، فشدت بقبضة يدها عليه، دون وعي، كما لو أنها تريد ضغطه كيما يرضخ. «مسترقو السمع غالباً ما يسمعون أموراً تنور العقل، على مستوى رفيع»، هكذا لازمتها الذكرى.

هل تتسلل خارجاً مرة ثانية، أو تعلن عن وجودها، وتغيظ هوني كما تستحق؟ ولكن الصوت الذي تلا، جعلها تتريث. إن أحد عشر بغلاً لا يمكن أن تجرّها بعيداً، وهي تسمع صوت ميلاني:

- «لا يا هوني، لا تكوني قاسية. إنها عالية الروح مليئة بالحيوية، وأعتقد أنها في أوج فتنتها».

«آه» فكرت سكارلت، غارزة أظافرها بقميصها، «إن من سخرية القدر أن تدافع عني تلك المنحطة الماكرة المعسولة اللسان». كان من الصعب أن يسمع غير لذعات هوني القارصة كالسوط، من كل نوع.

لم تثق سكارلت يوماً بأي امرأة، ولم تأتمن أي امرأة، باستثناء أمها، على بواعثها الأخرى غير الأنانية. لقد كانت ميلاني تعلم أنها ضمنت آشلي لنفسها، لذا أصبح في وسعها الآن إظهار هذه الروح الإنسانية. وأحست سكارلت أن هذا هو أسلوب ميلاني في عرض فوزها، وكسب السمعة الطيبة بأنها دمثة في الوقت نفسه، لقد اعتمدت سكارلت مراراً الخدعة ذاتها وهي تتحادث ورجال الفتيات الأخريات، ولم تفشل أبداً في إقناع الذكور الأغبياء، بكرم أخلاقها، وانعدام أنانيتها.

- «حسناً يا آنسة» قالت هوني بحدة، وصوتها يرتفع، «لا بد أن تكوني عمياء».

- «صه يا هوني» همس صوت سالي مونرو، «سيسمعك كل من في البيت».

فخفضت هوني صوتها، ولكنها تابعت:

- «لقد رأيتن كيف مضت تغازل كل شاب استطاعت صيده، حتى السيد كنيدي، وهو عشيق أختها. لم أرَ مثيلاً لها قط، وبالتأكيد كانت تلاحق تشارلز». وضحكت هوني خفرة، «وأنتن تعرفن أني وتشارلز...».

- «هل أنتما حقاً؟» همست أصوات منفعلة.

- «حسناً، لا تخبرن أحداً أيتها الفتيات... حتى الآن لا...».

وسمعت ضحكات أخرى، وصاتت زبارك الأسِرَّة عندما حاولت إحداهن قرص هوني، ودمدمت ميلاني بعض العبارات حول عظم سعادتها لأن هوني ستكون زوجة لأخيها.

- «على كل حال، لن أكون سعيدة لو أصبحت سكارلت زوجة لأخي، لأنها فتاة داعرة، إن كنت أعرف ما هي الداعرة»، أعلن صوت هيتي تارلتون الحزين... «ولكنها تكاد تكون مخطوبة لستيوارت، فبرنت يقول إنها لا تعيره أدنى اهتمام، ولكن بالطبع، إنه مجنون بها أيضاً».

- «إذا ما سألتني» قالت هوني باهتمام خفي، «يوجد فقط شخص واحد تعيره اهتمامها، وهو آشلي».

وبينما اختلطت الهمسات معاً اختلاطاً عنيفاً، مستفسرة يقاطع بعضها بعضاً، شعرت سكارلت بقشعريرة برد من الخوف والضعة، كانت هوني خرقاء بلهاء غبية، فيما يتعلق بالرجال، ولكنها تملك غريزة

أنثوية تمكنها من فهم دوافع النساء، غريزة كانت سكارلت قد أساءت تقدير قيمتها.

إن ما قاسته من جرح للكبرياء، وإدانة للنفس، داخل المكتبة، بدا ضئيلاً كوخز الإبر بالنسبة إلى ما تسمعه الآن، فالرجال يمكن أن يؤتمنوا على الاحتفاظ بأفواههم مغلقة، حتى الرجال أمثال السيد باتلر. ولكن بلسان هوني ويلكس، النباح كالكلب وسط الحقل، ستعلم المقاطعة جمعاء بأمرها قبل الساعة السادسة مساء، وكان جيرالد قد قال في الليلة الماضية، إنه لن يدع المقاطعة تضحك على ابنته، فكيف سيضحك الجميع الآن. وراح العرق الدبق الذي بدأ يتصبب تحت إبطيها يسيل فوق أضلاعها.

وعلا صوت ميلاني متزناً مطمئناً، معتدلاً في لهجته التأنيبية، فوق الأصوات:

- «هوني، أنت تعلمين أن الأمر ليس كذلك، وإنها لقسوة منك شديدة».

- «إنها لكذلك يا ميلي، ولو لم تكوني دائماً مأخوذة في البحث عن نوازع الخير في الناس، الذين لا خير فيهم، لأدركت أنها الحقيقة وأنا سعيدة لكونها كذلك، فالأمر سيخدمها مباشرة. إن كل ما فعلته سكارلت أوهارا حتى الآن ينحصر في إثارة المشاكل، ومحاولة كسب خلان غيرها من الفتيات. أنت تعرفين تمام المعرفة أنها انتزعت ستيوارت من إنديا، بينما هي لا تريده لها، فها هي اليوم تحاول انتزاع السيد كنيدي وآشلي وتشارلز».

«ينبغي أن أذهب إلى البيت»، فكرت سكارلت، «ينبغي أن أذهب إلى البيت».

آه، لو كان في مقدورها أن تنقل بفعل السحر إلى تارا، إلى الأمان، لو كان في وسعها فقط أن تكون مع إيلين، فقط لتراها،

لتتمسك بتنورتها، لتبكي وتبوح بالقصة كلها على حجرها. وإذا كان عليها أن تسمع كلمة أخرى، فستندفع داخل الغرفة، وتقتلع شعر هوني الأشقر الشعث، خصلات خصلات، ثم تبصق في وجه ميلاني هاملتون، لتريها فقط كيف تنظر إلى صنيعها الجميل.

ولكنها تصرفت تصرفاً غوغائياً فاضحاً هذا اليوم، فاضحاً كتصرف حقراء البيض - وهنا كان يجثم كل عذابها.

وضمّت تنورتها بيدين صارمتين، كيما تمنع حفحفة القماش، وخرجت خلسة كالحيوان... «إلى البيت» فكرت وهي تسرع في القاعة، مارة بالأبواب المغلقة والغرف الساكنة، ينبغي أن أذهب إلى البيت. وكانت قد وصلت إلى الرواق الأمامي حين دعتها فكرة طارئة إلى الرجوع حالاً - إنها لا تستطيع الذهاب إلى البيت، هي لا تستطيع الهروب، عليها أن تبقى لترى النتيجة، عليها أن تتحمل حقد الفتيات كاملاً، وأن تتحمل كذلك أثر ذلها وانكسار قلبها. إن هروبها لم يكن إلا ليزيد الذخيرة في أيدي مهاجميها. ودقت قبضتيها المشدودتين بالعمود الأبيض الشاهق إلى جانبها، وتمنت لو تكون شمشون الجبار، إذن لكان في مقدورها أن تدمّر تولف أوكس بأسره، تدمّر كل إنسان فيه. ستجعلهم يندمون، ستُريهم، ولم تعرف بالضبط كيف ستُريهم، ولكنها ستفعلها على كل حال، ستؤذيهم بشكل أفظع مما آذوها.

وفي هذه اللحظة، نسي آشلي كما هو على حقيقته، فلم يعد ذلك الشاب الطويل الناعس الذي أحبته، وإنما هو جزء، بل قطعة من الويلكسيين، من تولف أوكس، من المقاطعة، وهي تبغضهم جميعاً، لأنهم يضحكون، لقد كان الغرور أقوى من حب السادسة عشرة، فلم يبقَ مكان الآن في قلبها المتقد لأي شيء سوى البغضاء.

«لن أذهب إلى البيت»، فكرت سكارلت، «سأظل، وسأجعلهم يندمون، ولن أخبر أمي أبداً، لا، لن أخبر أي إنسان». وشددت على

نفسها لتدخل من جديد، لتصعد الدرج ثانية، وتدخل إلى غرفة نوم أخرى.

وبينما هي تلتفت رأت تشارلز يدخل البيت من جانب القاعة الطويلة الآخر، فما إن لمحها حتى أسرع نحوها، شعره منفوش ووجهه منفعل بلون نبات الجيرانيوم تقريباً.

- «هل علمت الذي حدث؟» صاح حتى قبل أن يبلغها، «هل سمعت؟ لقد وصل بول ويلسون الآن بالنبأ من جونسبورو». وعندما بلغها وقف صامتاً، مقطوع النفس، فلم تقل شيئاً، بل راحت تحدق به فقط.

- «السيد لينكولن قد طلب رجالاً، جنوداً - أعني متطوعين - طلب خمسة وسبعين ألفاً منهم».

السيد لينكولن مرة ثانية! ألم يفكر الرجال مرة أخرى في أي شيء هام حقاً، فمن هو هذا الأحمق الذي ينتظر أن تهتم بعبث السيد لينكولن، في الوقت الذي انسحق قلبها وكادت سُمعتها تهوي.

وحملق تشارلز بها، كان وجهها أبيض كالورق، وعيناها تتوهجان كزمردتين. إنه لم يرَ ناراً كهذه في وجه أي فتاة ولا بريقاً كهذا في عيني أي إنسان.

- «إنني فظ أخرق»، قال، «كان ينبغي أن أخبرك بأسلوب ألطف، لقد نسيت أن السيدات رقيقات جداً. إني آسف لمضايقتك هكذا، أنت لا تحسين بالدوار، أليس كذلك؟ هل يمكن أن أحضر لك كأس ماء؟».

- «لا» قالت مصطنعة ابتسامة زائفة.

- «هل نذهب ونجلس على المقعد؟» سألها متناولاً ذراعها. فأطرقت، وسار إلى جانبها ممسكاً بيدها بعناية فائقة، وهما ينزلان الدرجات الأمامية، ثم قادها فوق العشب إلى المقعد الحديدي، تحت

أكبر سنديانة في الساحة الأمامية. ما أرقّ شعور السيدات، وما أسرع انفعالهن، فكر تشارلز، إن مجرد ذكر الحرب والعنف يصيبهن بالدوار. وعزّزت الفكرة شعوره بالرجولة، فضاعف ملاطفتها وهي جالسة إلى جانبه.

كانت تبدو بهيئة غريبة، وقد غمر وجهها الأبيض جمال أخّاذ جعل قلبه يقفز من مكانه. أيمكن أن تكون مغمومة من جرّاء التفكير في احتمال سفره إلى الحرب؟ لا، فهذه خطرة غرور لا تصدقها نفسه. ولكن لماذا تنظر إليه هكذا، بشكل مستغرب؟ ولماذا ارتجفت يداها وهي تمسك بمنديلها المخرم؟ وأهدابها الكثة الفاحمة، كانت ترتعش تماماً كعيون الفتيات في القصص التي قرأها، ترتعش بالحياء والحب.

وتنحنح ثلاث مرات استعداداً للكلام، ولكنه فشل في كل مرة. وأطرق بعينيه إلى الأرض، لأن عينيها الخضراوين رمقتاه بنظرة نفاذة، كما لو أنها لا تراه أمامها.

«إنه يملك مقداراً كبيراً من المال»، أخذت تفكر بسرعة، بعد أن عنَّ لها رأي وخطة، «وليس لديه والدان يضايقانني، وهو يعيش في أتلانتا، وإذا تزوجته فوراً، سيرى آشلي أني لم أهتم به أبداً - وأني كنت أغازله فقط. وستموت هوني، فهي لن تحصل على محب آخر، وسيضحك الجميع عليها بحق حتى الموت. وسيجرح شعور ميلاني، لأنها تحب تشارلز كثيراً. وسيجرح شعور ستيوارت وبرنت»، ولم تعرف بالضبط سبب رغبتها في إيذائهما، اللهم إلا لأن لهما شقيقات حقودات. «وسيندم الجميع عندما أعود إلى هنا لزيارتهم في عربة فخمة ولديّ الكثير من الملابس الأنيقة، ولي منزل خاص بي. لن، لن يضحكوا عليّ أبداً».

- «طبعاً ذلك يعني الحرب»، قال تشارلز بعد عدة محاولات مضايقة أخرى، «ولكن لا تضطربي يا آنسة سكارلت، فسوف تنتهي في

شهر واحد، وسندحرهم وهم يولولون، نعم يولولون. لن أرضى عن الذهاب إلى الحرب بديلاً. أخشى ألّا يكون رقصٌ الليلة، لأن الفرقة ستجتمع في جونسبورو، وقد ذهب أبناء تارلتون لإذاعة النبأ، وأنا أعلم أن السيدات سينزعجن».

فقالت: «آه» لفقدانها أي جواب أفضل، ولكن ذلك كان كافياً.

وبدأ اتزانها يعود إليها، وعقلها يجمع شتاته، واكتنفت مشاعرها طبقة من جليد، واعتقدت أنها لن تحس بحرارة الأحداث أبداً... لماذا لا تتزوج هذا الشاب الحيي الظريف؟ فهو إنسان كالآخرين وهي لم تعد تحفل بشيء، لا، لن يكون بإمكانها الاهتمام بشيء بعد اليوم حتى لو بلغت التسعين من العمر.

- «لا أستطيع أن أقرر الآن، أألتحق بفرقة كارولاينا الجنوبية، بقيادة السيد ويد هامبتون، أم بفرقة حرس بوابة المدينة، في أتلانتا؟».

فقالت ثانية «آه»، وثانية التقت عيونهما وحطمته الأهداب المرتعشة.

- «هل تنتظرينني يا آنسة سكارلت؟ ليس غير اللّه يعلم إن كنت ستنتظرينني إلى ما بعد سحقهم»، وأمسك مقطوع النفس ينتظر كلماتها، ويراقب الطريقة التي تحرك بها شفتيها عند الشدقين، لامحاً للمرة الأولى الظلال حول هذين الشدقين، مفكراً ماذا سيحدث لو قبَّلها، وزلقت يدها بكفّها العرقة الدبقة إلى يده:

- «أنا لا أريد أن أنتظر»، قالت مسدلة قناعاً على عينيها.

جلس ممسكاً بيدها، فاغراً فمه. وفكرت سكارلت وهي تراقبه من تحت أهدابها، إنه يشبه، مع الفارق، ضفدعة مضحكة.

وتلجلج لسانه عدة مرات، وأغلق فمه وفغره ثانية، وتورّد وجهه بلون نبات الجيرانيوم:

- «هل من المحتمل أن تستطيعي أن تحبيني؟»، فلم تقل شيئاً بل

نظرت في حجرها. بينما انقذف تشارلز في حالة جديدة من الغيبوبة والذهول والضيق.

ربما لا ينبغي للرجل أن يسأل الفتاة مثل هذا السؤال، ربما يكون من غير اللائق بصبية أن تجيبه، إذ لم يملك يوماً الشجاعة ليورط نفسه في مثل هذا المأزق. واكتنفه الضياع، كيف يجب أن يتصرف؟ أراد أن يصيح وأن يغني وأن يقبّلها، أن يقفز متهللاً حول المرجة، ومن ثم يركض ويخبر كل الناس، السود والبيض، أنها تحبه. ولكنه لم يفعل سوى أن ضغط على يدها، حتى كاد يدخل خواتمها في جلدها.

- «أستتزوجينني سريعاً يا آنسة سكارلت؟».

- «أوه» أجابت عابثة بطية ثوبها بأصابعها.

- «هل سنقيمه عرساً مزدوجاً مع عرس ميلي؟».

- «لا» قالت على الفور، وعيناها ترمقانه ببريق ينذر بالشؤم. وأدرك تشارلز ثانية أنه ارتكب خطأ، فالفتاة بالطبع تريد عرساً خاصاً بها - لا مجداً مشتركاً... ما أرحمها وقد عفت عن جرائمه... ليت الدنيا وليته يملك شجاعة الأشباح فيستطيع تقبيل يدها، ويبوح بالأشياء التي طالما تحرّق لقولها.

- «متى يمكنني أن أفاتح والدك بالموضوع؟».

- «كلما أسرعت كان ذلك أفضل» قالت ذلك وهي تأمل لو ينقذها من ضغط خواتمها الساحقة، قبل أن تضطر إلى طلب ذلك منه.

وقفز من مكانه، وظنت للوهلة الأولى أنه يريد قطف زهرة كبار[1]، قبل أن يدّعي الرزانة، ونظر إليها بوجه مشرق متألق، وقد تجلى كل قلبه الساذج النقي في عينيه. ولم تكن رأت إنساناً قط يتطلع

---

(1) نبات شوكي متسلق يتفتح بأزهار جميلة، موطنه الأصلي حوض البحر المتوسط - (المترجمان).

إليها بمثل هذه النظرة من قبل، ولن ترى ذلك أبداً من أي رجل آخر. ولكن، وهي في غيبوبتها الشاذة، فكرت أنه يشبه العجل وحسب.

- «سأذهب الآن وأقابل والدك» قال والبسمة ملء وجهه، «فأنا لا أستطيع الانتظار. هل تسمحين يا عزيزتي». ولفظ عبارة عزيزتي بصعوبة، ولكن، لكونه قالها مرة، كررها ثانية بسرور.

- «نعم» قالت، «سأنتظر هنا، فالمكان معتدل الحرارة لطيف».

وانطلق عبر المرجة، ليغيب شخصه خلف البيت، وبقيت وحدها تحت السنديانة المحفحفة.

ومن الإسطبلات، كان الرجال يتدفقون على ظهور الخيل، والزنوج الخدم يجهدون راكبين للحاق بأسيادهم. مرّ شبان آل مونرو، ينهبون الأرض نهباً، ملوّحين بقبعاتهم، ثم شبان آل فونتين وكالفرت، اندفعوا فوق الطريق زاعقين، بينما انطلق أبناء تارلتون عبر المرجة، وصاح برنت: «ستعطينا أمي الخيول، يي - آ - أي» وتطاير العشب، وذهب الرجال، تاركينها وحيدة للمرة الثانية. وانتصب البيت الأبيض بأعمدته الشاهقة أمام ناظريها، يتراءى كأنه يتباعد عنها بترفع جليل. لن يكون بيتها الآن، لن يحملها آشلي فوق عتبته كعروسة. آه آشلي، آشلي، ماذا فعلت؟

وفي أعماقها، وتحت ثنايا الكبرياء الجريح، والواقع الفاتر، تململ شيء جديد موجع، كانت تولد فيها عاطفة راشدة أقوى من غرورها، ومن أنانيتها المتصلبة. إنها تحب آشلي، وهي تعرف أنها تحبه غير أنها لم تحفل بهذا الحب يوماً بقدر ما حفلت به عندما رأت تشارلز يغيب حول الممشى المحصوصب المتعرج.

7

انتقلت سكارلت إلى الحياة الزوجية خلال أسبوعين، وبعد شهرين فقط ترمّلت، وسرعان ما تحررت من القيود التي اتخذتها لنفسها بتسارع بالغ وبتفكير قليل. ولكن لم يقدَّر لها قط أن تنعم بالحرية المطلقة، غير المسؤولة، لأيام العزوبة. لقد خيّم الترمل سريعاً في أعقاب الزواج، ولكن ما زاد في قنوطها أن الأمومة سرعان ما تبعته.

وخلال السنين التي تلت، عندما كانت تفكر في تلك الأيام، أيام أبريل عام 1861، لم تكن تستطيع أن تذكر تفاصيل الأحداث تماماً، فالزمن والوقائع ابتعدا، مختلطين معاً ككابوس لا يلمس ولا يدرك. وحتى يوم مماتها ستظل هناك بقع فارغة بيضاء في ذكرياتها عن تلك الأيام، خصوصاً تلك الفترة الغامضة ما بين قبولها بتشارلز وزواجها به. إن فترة خطوبة قصيرة كتلك كانت مستحيلة أيام السلم، وكان لا بد أن تتبعها مرحلة مشرقة معتبرة، تدوم سنة أو ستة شهور على الأقل، ولكن الجنوب اشتعل بالحرب، والأحداث تتابعت رهيبة سريعة، كما لو أن ريحاً عاتية تحملها، وانقضى جريان الأيام القديمة البطيء.

كانت إيلين قد عقدت يديها، وتأخرت الاستشارات، كيما يتسنى لسكارلت تقليب الأمر على جميع وجوهه، والتفكير ملياً، في مدة أطول، ولكن سكارلت غدت وجهاً عابساً وأذناً صماء نتيجة لتوسلات أمها. فالزواج هو الذي تريده، وبسرعة أيضاً، وخلال أسبوعين فقط.

وعندما علمت أن عرس آشلي قد قدِّم موعده إلى أول مايو بدلاً من الخريف، كيما يستطيع السفر مع الفرقة حالما تدعى للخدمة، عيَّنت موعد عرسها، قبل ذلك الموعد بيوم واحد. واحتجت إيلين، ولكن تشارلز توسل بفصاحة حديثة النشأة، إذ كان فارغ الصبر، يريد السفر إلى كارولاينا الجنوبية، والالتحاق بفرقة ويد هامبتون. وأيد جيرالد الشابين، إذ كان مضطرباً بحمى الحرب، مسروراً لأن سكارلت وفقت بزوج طيب، ثم من كان هو ليقف في وجه حب فتي والحرب مشتعلة؟ وأخيراً رضخت إيلين ذهلة حائرة، شأن سائر الأمهات في الجنوب، اللواتي كان عالمهن قد انقلب رأساً على عقب، فلم تعد تجدي توسلاتهن وصلواتهن ونصائحهن أمام القوى الهائلة التي جرفتهن في تيارها.

كان الجنوب ثملاً بنشوة الحماس والهياج. كل إنسان اعتقد أن الحرب لن تحتمل أكثر من معركة واحدة، وكل شاب هرع إلى التطوع قبل أن يسبقه السلم، هرع ليتزوج حبيبة قلبه قبل أن ينطلق إلى فرجينيا ليساهم بضربة ضد أهل الشمال... عشرات من زيجات الحرب، تمّت في طول المقاطعة وعرضها، ولم يتح إلا القليل من الوقت لآلام الوداع، إذ كان كل شخص منهمكاً جداً، ذاهلاً، بحيث لم يكن يفكر في مراسم الوداع. ومضت السيدات يخطن الثياب العسكرية، ويغزلن الجوارب، ويلففن الضمادات، بينما الرجال يتدربون ويطلقون النار، والقطارات تمر يومياً بجونسبورو تحمل المجندين، في طريقهم شمالاً إلى أتلانتا وفرجينيا. وقد ارتدت الفصائل المختارة من الفرق المرابطة بذلات بألوان زاهية، من قرمزية وزرقاء فاتحة وخضراء، بينما ارتدت بعض الفيالق بذلات من النسيج المحلي، وقبعات من جلد الراكون[1]،

(1) حيوان أميركي مفترس يشبه الهر - (المترجمان).

وبقي آخرون دون لباس عسكري، مرتدين الجوخ أو الكتان الناعم. كان الجميع نصف مدربين، نصف مسلحين، مهتاجين كالحيوانات المفترسة، يصيحون ويهتفون كأنهم في الطريق إلى نزهة برّية. وقد ألقى منظر هؤلاء المجندين الروع في قلوب شبان المقاطعة، خشية انتهاء الحرب قبل وصولهم إلى فرجينيا، فأسرع في الإعداد لسفر الفرقة.

وفي غمرة هذه الضوضاء القلقة، استمرت الترتيبات لعرس سكارلت. وقبل أن تدرك حقائق الأمر تقريباً، ألبست ثوب عرس إيلين ونقابها، ونزلت الدرجات العريضة في تارا متكئة على ذراع جيرالد، لتواجه قاعة حاشدة بالضيوف. وفيما بعد تذكرت، كما تتذكر حلماً، مئات المصابيح المتلألئة على الجدران، ووجه أمها الذي يشوبه قليل من الحيرة، وشفتيها وهما تتحركان بصلاة صامتة من أجل سعادة ابنتها، وجيرالد وهو محمرّ الوجه بفعل الويسكي والكبرياء لأن ابنته تزوجت المال والجاه والنسب العريق، وآشلي وهو واقف على أسفل الدرج، يتأبط ذراع ميلي.

وعندما رأت تعابير وجهه، فكرت: «إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون حقيقياً، لا يمكن أن يكون. إنه كابوس، سأستيقظ وأجد أن كل شيء كان كابوساً. يجب ألّا أفكر فيه الآن، وإلّا سأشرع في الصراخ أمام جميع هؤلاء الناس. لا أستطيع التفكير فيه الآن، سأفكر فيه فيما بعد، عندما يمكنني تحمّله - عندما لا أستطيع رؤية عينيه».

كل شيء كان كأنه في حلم، مرورها في ممشى الكنيسة المكتظ بالناس الباسمين، وجه تشارلز القرمزي، وصوته المتعتع، وأجوبتها المذهلة الصريحة، الفاترة جداً، وما تلا ذلك من التهاني والتقبيل وأنخاب الشراب والرقص - كلها... كلها كحلم. حتى إحساسها بقبلة آشلي على وجهها، وحتى همس ميلاني الناعم «نحن الآن شقيقتان حقاً وصدقاً» كانا غير حقيقين.

حتى الهرج الذي نشأ بسبب نوبة الغشيان التي أصابت خالة تشارلز السمينة العاطفية، الآنسة بيتي هاملتون، كان لها طابع الكابوس.

ولكن عندما انتهى الرقص وأنخاب الشراب نهائياً وأوشك فجر اليوم يبزغ، عندما كل ضيوف أتلانتا الذين أمكن حشدهم في تارا، وفي بيت الناظر، ذهبوا إلى النوم على الأسرّة، على الكنبات، على فرش القش، على الأرض، عندما انصرف كل الجيران إلى بيوتهم ليرتاحوا استعداداً لعرس آشلي في تولف أوكس، في اليوم التالي، عندئذ تحطمت غيبوبة الحلم كالبلور أمام الحقيقة الواقعة، الحقيقة التي انكشفت عن تشارلز الخجول، يبرز من غرفة نومها في قميص النوم، متغاضياً عن نظرة الذهول التي فاجأته بها من فوق الغطاء البالغ حد رأسها.

وبالطبع كانت تعلم أن المتزوجين يشغلان السرير الواحد ذاته، ولكنها لم تكن قد فكرت في المسألة جدياً من قبل، فالوضع كان يبدو طبيعياً لها بالنسبة إلى أبيها وأمها ولم تقسه على نفسها أبداً، وها هي الآن للمرة الأولى، منذ حفلة الباربكيو، تدرك إلى أي هوة قادت نفسها. إن مجرد التفكير في أن هذا الفتى الشاذ الذي لم تكن في الحقيقة ترغب في الزواج به، يرقد على السرير بجانبها، في الوقت الذي ينفطر قلبها بندم مؤلم كاحتضار الروح من جرّاء فِعلتها المتسرعة، وبعذاب مبرح لخسارة آشلي الأبدية، إن مجرد التفكير في هذا، وفي هذا الوقت بالذات، كان أكثر مما يحتمل. وفيما راح تشارلز يقترب من السرير بخطوات مترددة، خاطبته بهمس أجش:

- «سأصرخ عالياً إن أنت اقتربت مني، سأصرخ، سأصرخ بأعلى صوتي، ابتعد عني، لن تجرؤ على لمسي».

وهكذا أمضى تشارلز هاملتون ليلة عرسه على كنبة في زاوية

الغرفة، ليس شديد التعاسة، لأنه أدرك، أو اعتقد أنه أدرك، مدى حياء وحساسية عروسه، وصمّم على الانتظار، حتى تزول مخاوفها، فقط - فقط. . . كان يتنهد وهو يتلوى بجسمه، يحاول أن يستقر بجلسة مريحة، إذ سيرحل إلى الحرب في القريب العاجل.

وكما كان عرسها كالكابوس، كذلك كان عرس آشلي، بل أسوأ. وقفت سكارلت في ردهة الاستقبال، في تولف أوكس، بفستان اليوم الثاني، الأخضر بلون التفاح، وسط لألأة مئات المصابيح، والحشد الزاخر يتدافع بالمناكب حولها، كما حدث في الليلة الماضية. ورأت وجه ميلاني الصغير الساذج، يتألق جمالاً بعد أن أصبحت ميلاني ويلكس. الآن فقدت آشلي إلى الأبد، آشليها، لا، ليس آشليها الآن، وهل كان هو آشليها يوماً؟

لقد كان كل شيء متشابكاً في عقلها، وكان عقلها تعباً جداً، شديد الذهول. لقد قال إنه يحبها، ولكن ما الذي فرّقهما، ليتها تستطيع أن تتذكر. لقد منعت ثرثرة الناس بزواجها من تشارلز، ولكن ما قيمة هذا الزواج الآن؟ لقد كان ذا أهمية كبيرة يوماً ما، ولكنه يبدو اليوم بلا أهمية البتّة. إن الذي يهمها هو آشلي، وها هو قد ذهب الآن، وتزوجت هي رجلاً لا تحبه قط، بل إنها تحتقره احتقاراً فعالاً.

آه، ما أشد ندمها على كل شيء، لقد سمعت مراراً بأناس يقطعون أنوفهم، ليغيظوا وجوههم، ولكن هذا كان فيما مضى من بلاغة القول، والآن أدركت فحواه الحقيقي. لقد اقترنت رغبتها الجنونية لتتحرر من تشارلز، وتعود سالمة إلى تارا فتاة عزباء غير متزوجة، اقترنت بعلمها أن عليها أن لا تلوم إلا نفسها، أن عليها أن تلوم نفسها فقط. فقد حاولت إيلين أن توقفها ولكنها لم تصغِ.

وهكذا راحت ترقص ليلة عرس آشلي رقصة خلابة باهرة وتتكلم بصورة آلية، وتبتسم، وتعجب من غير تفكير، لغباوة الناس الذين

يعتقدون أنها عروس سعيدة، دون أن يكون في وسعهم رؤية قلبها المحطم. حسناً، شكراً للّه أن ليس في وسعهم أن يروا.

في تلك الليلة، وبعد أن ساعدتها مامي على خلع ثيابها وانصرفت، وبعد أن برز تشارلز من غرفة الزينة خجلاً، متسائلاً إن كان عليه أن يقضي ليلة ثانية على الكنبة المصنوعة من شعر الخيل، انفجرت سكارلت بالبكاء، ظلت تبكي إلى أن اعتلى تشارلز السرير بجانبها، محاولاً أن يخفف عنها، بكت دون أن تنبس بكلمة، حتى نضبت الدموع من عينيها، وأخيراً راحت تنشج نشيجاً بطيئاً، متكئة على كتفه.

لو لم توجد الحرب، لكان هناك أسبوع زيارات في أنحاء المقاطعة، لحفلات رقص وباربكيو على شرف العروسين الجديدين، قبل أن يغادرا في شهر العسل إلى ساراتوغا أو وايت سلفور. لو لم توجد الحرب لارتدت سكارلت ثوب اليوم الثاني، وثوب اليوم الثالث واليوم الرابع واليوم الخامس، عند تلبيتها حفلات آل فونتين وكالفرت وتارلتون، المقامة على شرفها، ولكن لا توجد حفلات الآن، ولا شهر عسل. وبعد الزواج بأسبوع، رحل تشارلز ليلتحق بالكولونيل ويد هامبتون، وبعد أسبوعين، رحل آشلي والفرقة، تاركين المقاطعة بأسرها خاوية ثكلى.

خلال هذين الأسبوعين، لم ترَ سكارلت آشلي وحيداً، ولم تنفرد وإياه بكلمة واحدة، حتى ولا في ساعة الفراق الرهيبة، عندما توقف في تارا، وهو في طريقه إلى القطار، تمكنت من الانفراد به بحديث خاص. كانت ميلاني متعلقة بذراعه، مرتدية قبعتها متشحة بشالها، وقورة في مهابة الزوجية الحديثة. وخرج سكان تارا جميعاً، سوداً وبيضاً، ليشاهدوه وهو يغادرهم إلى الحرب.

وقالت ميلاني: «ينبغي أن تقبِّل سكارلت يا آشلي، فهي بمثابة الشقيقة الآن». وانحنى آشلي ولمس وجنتيها، بشفتين باردتين ووجهه

متناسق منسجم، وبالكاد استطاعت سكارلت أن تنعم بأي متعة من هذه القبلة. وقد تكدر قلبها كثيراً وهي تسمع ميلاني توعز إليه بها، بينما عانقته هذه عناقاً حاراً عند الوداع:

- «سوف تأتين إلى أتلانتا، وتزورينني وعمتي بيتي بات، ألن تأتي؟ يا عزيزتي، إننا نتوق إلى رؤيتك كثيراً. نريد أن نزيد معرفتنا بزوجة تشارلز».

ومرت أسابيع خمسة، وصلت أثناءها من تشارلز في كارولاينا الشمالية رسائل غرام وهيام حيية، كان يتحدث فيها عن حبه، عن أهدافه للمستقبل بعد أن تنتهي الحرب، عن أمنيته في أن يصبح بطلاً إكراماً لها، وعن احترامه البالغ لقائده ويد هامبتون. وفي الأسبوع السابع وصلت برقية من الكولونيل هامبتون نفسه، وتبعتها رسالة، رسالة تعزية لطيفة مهيبة. لقد مات تشارلز.

كان الكولونيل يريد أن يبرق قبل ذلك، ولكن تشارلز، معتقداً أن مرضه تافه، لم يرغب في إزعاج عائلته. وهكذا لم يخدع الفتى السيّئ الحظ فقط في حبه الذي اعتقد أنه فاز به، بل أيضاً في أمانيه العزيزة في المجد والشرف في ميدان القتال. لقد مات حتف أنفه ميتة سريعة بداء الرئة، بعد داء الحصباء، حتى قبل أن يقترب من الشماليين أكثر من معسكر كارولاينا الشمالية.

وفي الوقت المعيّن، ولد ابن تشارلز، وسُمّي نظراً إلى التقليد المعاصر، باسم قائد فرقة والده: ويد هامبتون هاملتون. كانت سكارلت قد بكت بكاء مراً عندما علمت بحبلها وتمنّت لو تموت، ولكنها حملت الطفل طوال مدة الحمل بالحد الأدنى من المضايقة، وولدته بعذاب قليل، وتعافت من أعراض الولادة، بسرعة فائقة جعلت مامي تخبرها سراً أن ولادتها كانت شعبية تماماً، فالسيدات الفاضلات لا بد أن يقاسين آلاماً مبرحة.

كانت تشعر بقليل من العاطفة نحو الصبي، مع أنها لم تكن تصرح بذلك ما استطاعت، فهي لم تكن ترغب في قدومه، بل امتعضت من هذا القدوم، والآن وقد أصبح حقيقة واقعة، لم يعد من الممكن أن يكون ابنها هي، جزءاً منها.

ورغم أنها أبلَّت عضوياً من ولادة ويد، بسرعة غير مرغوب فيها، فإنها كانت في مرض وذهول عقلي. لقد خارت معنوياتها رغم جهود كل من في المزرعة لرفعها، وتغضن جبين إيلين كمداً، وهي تروح وتجيء، واطردت شتائم جيرالد، وراح يجلب لها الهدايا غير الناجعة من جونسبورو، حتى الطبيب العجوز فونتين اعترف بحيرته بعد أن فشلت أدويته المقوية من الكبريت والعسل الأسود والحشائش، فأخبر إيلين على انفراد أن ما جعل سكارلت نزقة سريعة التهيج، فاترة الهمة من وقت إلى آخر، هي قضية حب فاشل حطم قلبها. والواقع أن سكارلت لو رغبت في الإفصاح لأخبرتهم أن المشكلة مغايرة تماماً، وأكثر تعقيداً. إنها لم تخبرهم أنه ضيق مطبق وارتباك لصيرورتها أماً حقاً، وثالثة الأثافي، غياب آشلي جعلها تبدو كئيبة حزينة.

كان قلقها شديداً ملازماً، فالمقاطعة قد خلت من أي تسلية أو نشاط اجتماعي منذ سافرت الفرقة إلى الحرب وارتحل كل الشبان الممتعين: أبناء تارلتون الأربعة، شبان فونتين، شبان كالفرت، أبناء مونرو، وكل شخص في مقتبل العمر من جونسبورو وفايتفيل ولافجوي، ولم يبقَ إلّا الرجال الأكبر سناً، وذوو العاهات والنسوة، يقضون أوقاتهم في الخياطة وشغل الإبرة وإنتاج محاصيل أكثر من القطن والقمح، وأعداد أوفر من البقر والغنم والخنازير، كل ذلك من أجل الجيش.

لم تكن العين تنعم بمنظر رجل حقيقي، عدا أيام مرور فرقة التموين، مرة في كل شهر، لجمع المؤن، بقيادة عشيق سولين المتوسط السن، فرانك كنيدي.

كان رجال الفرقة لا يثيرون النفس كثيراً، وكانت رؤية فرانك كنيدي يغازل شقيقتها وهو خجل، تضايقها إلى أن وجدت من الصعوبة معاملته بأدب. حبذا لو أقدم وسولين على الزواج وانتهى الأمر.

حتى لو كان رجال فرقة التموين أكثر جاذبية، لما أفادها ذلك مطلقاً، فقد أضحت أرملة وأمسى قلبها في القبر، هكذا على الأقل اعتقد جميع الناس أنه أمسى في القبر، وتوقعوا أن تتصرف على هذا الأساس، الأمر الذي أسخطها، لأنها حاولت جهدها أن تتذكر تشارلز فلم تتذكر منه إلا هيئة عجل ميت منطبعة على وجهه وهي تخبره أنها ستتزوجه. وحتى تلك الصورة كانت قد بهتت.

لكنها أصبحت أرملة، ولا بد لها من أن تنتبه إلى سلوكها، فليست لها متع الصبايا العزباوات، بل عليها أن تبقى وقورة ممتنعة. ولقد أكدت إيلين على هذه النقطة، تأكيداً قوياً، بعد أن اكتشفت الملازم فرانك يؤرجحها بأرجوحة الحديقة، فيجعلها تقهقه ضاحكة، وعندئذ أخبرتها إيلين وهي في أشد درجات الاستياء، أن من اليسير جداً أن تزج الأرملة بنفسها في ألسنة الناس، وأن واجب الأرملة أن تحتسب في تصرفاتها مرتين أكثر من المتزوجة.

«واللّه وحده يعرف»، فكرت سكارلت، وهي تصغي مطيعة لصوت أمها الناعم، «إن المتزوجات لا ينعمن باللهو أبداً، فكيف بالأرامل؟ إنهن إذن في عداد الأموات».

فالأرملة ينبغي أن ترتدي أثواباً مقيتة، حتى من دون أدنى شريط لإضفاء شيء من البهجة، لا زهرة ولا وشاح ولا كشاكش، حتى ولا حلية ذهبية، عدا دبابيس الحِداد المعرقة الجذع، والعقود المصنوعة من شعر الميت. كما ينبغي أن يتدلى النقاب الحريري الأسود من فوق قبعتها حتى ركبتيها، وبعد ثلاث سنوات من الترمل، يمكن تقصيره حتى الكتف. ولا تستطيع الأرامل أن يثرثرن مرحات أو يضحكن

بصوت مرتفع، حتى عندما يبتسمن ينبغي أن تكون البسمة حزينة مؤلمة. وأفظع الأشياء، أنهن لا يستطعن بأي وجه من الوجوه، أن يبدين ميلاً معيّناً بحضور الرجال، وإذا اتفق أن رجلاً كان سيّئ الخلق كثيراً، وعبَّر عن ميله إلى إحدى الأرامل، فينبغي أن تصدّه بالتحدث عن ذكرى رجلها الميت، بأسلوب جليل مختار، آه، بلى، فكرت سكارلت باكتئاب، بعض الأرامل يتزوجن أخيراً، عندما يمسين عجائز مترهّلات، مع أن اللّه وحده يعرف كيف ينجحن في ذلك، رغم مراقبة جيرانهن. وإنهن يتزوجن عندئذ، عادة، بأيما عجوز بائس، ذي مزرعة كبيرة، واثني عشر طفلاً.

كان الزواج سيئاً جداً، ولكن أن ترمل، آه، فالحياة عندئذ ستنقضي إلى الأبد. ما أغبى الناس وهم يقولون إن ويد هامبتون الصغير لا بد أن يكون عزاء ثميناً لها بعد وفاة تشارلز. ما أغباهم حين يقولون إن عندها الآن ما تعيش من أجله. كل إنسان كان يقول ما أحسن ما رزقت بهذا الطفل رمزاً لحبها، ومن الطبيعي أنها لم تصحح خطأ ما كانوا يعتقدون، فهي لم تكن تحفل بويد، وكان من الصعب أحياناً أن تتذكر أنه كان ابنها حقاً.

كانت تستيقظ كل صباح، فتعود خلال هنيهة ناعسة، سكارلت أوهارا ثانية، وتكون الشمس مشرقة على شجرة الماغنوليا خارج نافذتها، وطيور أبي زريق مغردة، ورائحة شواء لحم الخنزير تتسلل إلى منخريها. ها هي شابة مستهترة مرة ثانية، ولكنها لا تلبث حتى تسمع عويل الجائع النكد، فتجفل دائماً. . . دائماً، وتفاجئها الفكرة - كيف! يوجد طفل في الغرفة، ثم تتذكر أنه طفلها. وهكذا ينتهي كل شيء إلى الدهشة والحيرة.

وآشلي، آه، أعظم المصائب آشلي. ولأول مرة في حياتها تبغض تارا، تبغض الطريق الطويلة الحمراء، المنحدرة فوق سفح التلة إلى

ضفة النهر، تبغض الحقول الحمراء بقطنها الأخضر النامي، كل شبر من الأرض، كل شجرة، كل جدول، كل عطفة درب، كل ممر خيل، كان يذكّرها به. إنه ملك امرأة أخرى، ولقد ذهب إلى الحرب، ولكن شبحه ما زال يلازم طرفها عند الغسق، ما زال يبتسم بعينيه الرماديتين الناعستين في ظلال الرواق... ولم تسمع يوماً وقع الحوافر آتية من طريق النهر من تولف أوكس، إلا وفكرت فيه لبرهة عذبة - آشلي.

إنها تبغض تولف أوكس الآن، وكانت قد أحبته ذات يوم، تبغضه ولكنها كانت تنجذب إليه، كيما تستطيع سماع جون ويلكس والبنات يتحدثون عنه، تسمعهم يقرأون رسائله من فرجينيا. كانوا يضايقونها، ولكنها مضطرة أن تسمع. كانت تمقت إنديا العنيدة، وهوني الثرثارة الحمقاء، وتعرف أنهما تمقتانها بالقدر ذاته، ولكنها لم تستطع البقاء بعيداً عنهما، وفي كل مرة تعود من تولف أوكس، تستلقي على سريرها مكتئبة، رافضة النهوض لتناول العشاء.

كان رفض تناول الطعام هذا، هو الذي أقلق إيلين ومامي أكثر من أي شيء آخر. مامي تجلب صواني الطعام الشهية ملمّحة بأنها اليوم أرملة، وفي إمكانها الإكثار من الأكل، بقدر ما يلذ لها، ولكن سكارلت لا تملك الشهية.

وعندما أخبر الطبيب فونتين إيلين بلهجة جدية أن الحب الفاشل غالباً ما يؤدي بالمرأة إلى النحول وأن النساء يذوين حتى القبر، شحب وجهها، فالخوف من هذا المصير كان يحز في قلبها.

- «ألا يوجد ما يمكن عمله أيها الطبيب؟».

- «تغيير المناظر أفضل شيء في الدنيا بالنسبة إليها»، أجاب الطبيب، متلهفاً جداً للخلاص من مريض لا يبشّر وضعه بالخير.

وهكذا سافرت سكارلت دون حماس منها، وبرفقتها ابنها الصغير، لتزور أولاً أقرباءها من آل أوهارا وآل روبيلارد في سافانا،

ثم شقيقتي إيلين بولين ويولالاي في شارلستون، ولكنها سرعان ما عادت إلى تارا قبل شهر مما توقعت إيلين، ودون إيضاح سبب عودتها المبكرة.

كانوا لطيفين معها في سافانا، ولكن جيمس وآندرو وزوجتيهما أمسوا مسنّين، يقتنعون بجلسة هادئة والحديث عن الماضي الذي لا يلذ لها. والأمر ذاته تكرر مع آل روبيلارد، أما شارلستون فقد اعتبرتها سكارلت مدينة مكدرة.

كانت خالتها بولين وزوجها المسن، الصغير القامة، بمعاملته الرسمية النزقة، وبشخصه الشارد كأحد أبناء عصر مضى، يسكنان في مزرعة على ضفة نهر، أشد انعزالاً بكثير من تارا، تبعد عن أقرب جار مسافة عشرين ميلاً، وتصلها به طريق معتمة عبر أدغال موحشة من أشجار سرو المستنقعات وأشجار السنديان التي أوحت لسكارلت، بستائرها المتموجة من الحشائش الرمادية اللون، توقع الزواحف، وذكّرتها بقصص جيرالد عن الأشباح الإيرلندية، الجوّابة أبداً، وسط الضباب الرمادي المتألق. ولم يكن هناك من عمل إلا شغل الإبرة في الليل والنهار، والاستماع إلى العم كاري، يقرأ بصوته المرتفع من كتب السيد بلوير لايتون الإصلاحية.

وكذلك يولالاي، لم يكن الحال عندها أكثر إمتاعاً لسكارلت المعتادة على المناظر الفسيحة من الروابي المنحدرة، إذ كانت منزوية خلف أسوار حديقة شاهقة، في بيت عظيم، في حي باتري في شارلستون، ما جعلها تشعر أنها داخل سجن. ورغم وجود نشاط اجتماعي هنا أكثر مما في منطقة الخالة بولين، فإن سكارلت لم تمل إلى أولئك الناس الذين كانوا يزورون خالتها وكرهت مظاهرهم وتقاليدهم وعصبيتهم العائلية. وأدركت جيداً أنهم يعتبرونها وليدة زواج غير متكافئ، وأنهم يتساءلون كيف اتفق أن تزوجت آنسة من آل

روبيلارد بإيرلندي حديث المقدم. وأحست سكارلت أن الخالة يولالاي كانت تبرز موقفها سراً، الأمر الذي أثار حفيظتها، إذ لم تكن هي تحفل بقيمة النسب العائلي أكثر من والدها. لقد كانت فخورة بجيرالد، وبما قام به من أعمال دون أن يعتمد على شيء سوى عقله الإيرلندي الأريب.

وكان أهل شارلستون كذلك، يتباهون كثيراً بموضوع قلعة صمتر، يا للّه! ألم يدركوا بعد أنهم لو لم يكونوا بتلك الدرجة من الحمق فيطلقون الرصاصة الأولى التي أشعلت الحرب، لأطلقها حمقى آخرون غيرهم؟

وكذلك تراءى لسكارلت أن لهجة أهل المناطق الجنوبية المتباطئة الممدودة، لهجة مصطنعة، وهي التي اعتادت لهجة أهل جورجيا الشمالية المتسارعة.

وفكرت أنه إذا قُدِّر لها ثانية سماع الأصوات التي تقول «بامز»[1] بدلاً من «بالمز» و«هُوس» بدلاً من «هاوس» و«وُونت» بدلاً من «ونت» و«ما» و«با» بدلاً من «م» و«ب»، فسوف تزعق، واغتاظت كثيراً لاستياء خالتها أثناء إحدى الزيارات الرسمية، لأن سكارلت قلدت لهجة جيرالد الإيرلندية. ولذلك رجعت إلى تارا تفضل العذاب بذكريات آشلي، على سماع لهجة شارلستون.

أما إيلين المنهمكة ليلاً نهاراً لمضاعفة الإنتاج في تارا، تدعيماً لقضية الاتحاد، فقد هالها أن ترى ابنتها الكبرى تعود من شارلستون نحيلة، شاحبة، نزقة. كانت تعرف آلام القلوب الكسيرة بنفسها، ولذلك ففي كل ليلة، عندما تضطجع بجانب جيرالد ذي الشخير

---

(1) الألفاظ الإنجليزية في الأصل هي على الترتيب: Palms، House، Won't، Ma، Pa - (المترجمان).

المزعج، كانت تُعمِل فكرها لإيجاد طريقة تخفف بها مأساة ابنتها. وكانت الآنسة بيتي بات، عمة تشارلز، قد كتبت لها مراراً تحثها على السماح لسكارلت بالقدوم إلى أتلانتا في زيارة طويلة، والآن، للمرة الأولى، فكرت إيلين في بحث هذا الأمر جدياً.

«ستكون هي وميلاني وحدهما في بيت كبير، ومن دون حماية رجل بعد وفاة عزيزنا تشارلز». كتبت الآنسة بيتي بات، «طبعاً يوجد شقيقي هنري، ولكنه لا يسكن معنا. من المحتمل أن تكون سكارلت قد أخبرتك عنه، فأصول اللياقة تمنعني من تطويل الكتابة بخصوصه، وستشعر ميلي وأنا براحة وأمان أكثر بوجود سكارلت بيننا، فثلاث نساء وحيدات أفضل من اثنتين. ومن المحتمل أن تجد العزيزة سكارلت بعض العزاء لأحزانها بتمريض رجالنا الشجعان في المستشفى، كما تفعل ميلي الآن. وبالطبع ميلي وأنا متلهفتان لرؤية الطفل العزيز».

وهكذا رزمت حقيبة سكارلت مرة ثانية بملابس حدادها، وسافرت إلى أتلانتا، مع ويد هامبتون وممرضته برسي، محشوة الرأس بنصائح إيلين ومامي حول سلوكها، ومزودة بمئة دولار من جيرالد، على شكل سندات الدولة الاتحادية.

كانت سكارلت لا ترغب في السفر إلى أتلانتا، فهي تعتبر الآنسة بيتي بات أتفه العجائز، كما أن مجرد فكرة وجودها تحت سقف واحد مع زوجة آشلي أمر مقيت، ولكن البقاء في الولاية بذكرياتها أضحى مستحيلاً الآن، وأي تغيير للمكان يلقى ترحيباً.

القسم الثاني

8

بينما كان القطار يحمل سكارلت شمالاً، صباح ذلك اليوم من مايو، عام 1862، كانت هي تفكر في احتمال كون أتلانتا بلدة تدعو إلى الضجر كشارلستون وسافانا. وعلى الرغم من نفورها من الآنسة بيتي بات وميلاني، فإنها تطلعت ببعض الفضول إلى رؤية تطور المدينة، منذ زيارتها الأخيرة لها في الشتاء قبل اندلاع الحرب.

كانت سكارلت تحفل بأتلانتا أكثر من أي مدينة أخرى، لأن جيرالد أخبرها أيام الطفولة أنها وأتلانتا في سن واحدة تماماً. وعندما كبرت اكتشفت أن جيرالد كان قد حوَّر الحقيقة نوعاً ما، كعادته كلما أدرك أن قليلاً من التحوير يحسّن القصة. على أن أتلانتا كانت تكبرها بتسع سنين فقط، الأمر الذي يجعل منها مدينة صغيرة السن على نحو يدعو إلى الدهشة، إذ ما قوبلت بأي من المدن المعروفة الأخرى. فسافانا وشارلستون تمتازان بوقار السنين المديدة، الأولى ماضية نحو نهاية قرنها الثاني، والثانية في مطلع قرنها الثالث، بحيث كانت تنظر إليهما كجدّيتن عجوزين تهويان لنفسيهما مطمئنتين تحت أشعة الشمس، بينما أتلانتا، وليدة جيلها، ما زالت طائشة بجهالات الشباب، عنيدة متهورة كشخصها.

كانت نواة القصة التي حوّرها جيرالد تكمن في أن سكارلت وأتلانتا سمّيتا في السنة نفسها، فخلال الأعوام التسعة التي سبقت مولد

سكارلت، دعيت المدينة أولاً «ترمينوس»، ثم «مارثيفيل»، ولم تُعرف بأتلانتا حتى السنة التي ولدت فيها سكارلت.

وعندما قدم جيرالد إلى جورجيا الشمالية أول مرة، لم تكن أتلانتا قد وُجدت، حتى ولا على شبه قرية، بل كان مكانها عراء مقفر. ولكن حدث في السنة التالية 1836 أن أذنت الحكومة ببناء سكة حديد، تتجه شمالاً بغرب عبر المقاطعة التي أخلاها الشيروكيون مؤخراً، كانت النقطة التي ستنتهي إليها السكة المقترحة، وهي تنيسي والغرب[1]، واضحة مقررة، ولكن نقطة ابتدائها في جورجيا ظلت غير معيَّنة نهائياً إلى أن غرز أحد المهندسين في السنة التالية وتداً في التربة الحمراء، معيّناً حد السكة الجنوبي، وهكذا بدأت أتلانتا، المولودة باسم ترمينوس.

وإلى ذلك الوقت، لم يكن ثمة خطوط حديدية في جورجيا الشمالية قط، وكان لا يوجد غير القليل جداً منها في المناطق الأخرى، ولكن خلال السنين التي سبقت زواج جيرالد بإيلين، نمت المستعمرة الصغيرة التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً شمال تارا، تدريجياً حتى أضحت قرية، فأخذت الطرق تمتد منها ببطء نحو الشمال. وتلا ذلك المرحلة الحقيقية لبناء الخطوط الحديدية. فمن مدينة أوغستا القديمة مُدَّ خط غرباً، قاطعاً الولاية ومتصلاً بالخط المؤدي إلى تنيسي. كما مُدَّ خط ثالث من مدينة سافانا القديمة منتهياً بميكون أولاً، في قلب جورجيا، ثم شمالاً عبر إقليم جيرالد حتى أتلانتا، ليتصل بالخطين الآخرين، مانحاً مرفأ سافانا طريقة رئيسة إلى الغرب. ومن مفترق الطرق هذا، حيث قامت أتلانتا الفتية، مُدَّ خط رابع جنوباً بغرب إلى مونتغمري وموبيل.

---

(1) لقب يطلق على المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأميركية، وما زال معمولاً به إلى أيامنا هذه - (المترجمان).

وكما ولدت أتلانتا بميلاد خط حديدي، كذلك نمت بنمو خطوطها الحديدية، فبإنجاز السكك الحديد الأربع، أصبحت المدينة الآن متصلة بالغرب والجنوب والساحل، وكذلك بالشمال والشرق عبر أوغستا. وهكذا أضحت ملتقى الطرق إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب، فانطلقت القرية الصغيرة في مضمار الحياة.

في فترة لا تزيد إلا قليلاً على عمر سكارلت البالغ سبع عشرة سنة آنذاك، تحولت أتلانتا من وتد موحش مغروز في الأرض إلى مدينة صغيرة يسكنها عشرة آلاف نفس، تكافح في سبيل النمو، وتعتبر محور النشاط في كل الولاية، بحيث صارت المدن الأقدم نشأة والأهدأ حركة، تتطلع إلى المدينة الجديدة الداوية بشعور الدجاجة التي فرخت فرخ بطة، وتتساءل: «لماذا تختلف المدينة كثيراً عن مدن جورجيا الأخرى؟ لماذا نمت بهذه السرعة الفائقة؟ فهي لا تمتاز بشيء كما ظن أهل تلك المدن، سوى سككها الحديد وحفنة من الناس الأقوياء الطموحين».

كان الناس الذين أقاموا في تلك المدينة، التي دعيت بالتعاقب، ترمينوس، مارثيفيل، ثم أتلانتا، طموحين لا يهدأون، أناساً نشيطين جاؤوا من الأقاليم القديمة في جورجيا، ومن ولايات أبعد، منجذبين إلى هذه المدينة التي بسطت نفسها حول ملتقى الخطوط الحديدية القائم في وسطها. جاؤوا ونفوسهم تزخر بالحماس، فبنوا المخازن على جانبي الطرق الخمس الحمراء الموحلة التي تمتد قرب المحطة، وابتنوا بيوتهم الأنيقة في شارعي وايت هول وواشنطن، وعلى طول الحاجز الأرضي المرتفع، حيث مهدت أخفاف أقدام عدد لا يحصى من أجيال الهنود ممراً يدعى «بيتشتري تريل»[1].

---

(1) ممر أشجار الدراق.

كانوا فخورين بمدينتهم، فخورين بازدهارها، فخورين بنفوسهم مبدعة هذا الازدهار. ولتدع المدن القديمة أتلانتا بما يروق لها، فأتلانتا لم تبالِ بذلك.

كانت سكارلت دائماً تحب أتلانتا للأسباب ذاتها التي جعلت سافانا وأوغستا وميكون تبغضها، فقد كانت المدينة كشخصها، مزيجاً من كل جديد وقديم في جورجيا التي يحتل القديم فيها المرتبة الثانية غالباً في نزاعه مع الجديد العنيد النشيط، هذا فضلاً عن وجود عنصر شخصي مثير، إذ إن المدينة ولدت أو على الأقل سُمّيت، في السنة نفسها التي عُمِّدت فيها سكارلت.

* * *

كانت الليلة التي سبقت وصول سكارلت إلى أتلانتا عاصفة بليلة بالأمطار، ولكن ما إن بلغت سكارلت المدينة، حتى كانت الشمس الدافئة تسطع في كبد السماء، محاولة بشجاعة تجفيف الشوارع التي أضحت أنهاراً متعرجة من الوحل الأحمر. بينما في الساحة المكشوفة حول المحطة، حيث كانت التربة الطرية قد حفرت أثلاماً ناتئة الجوانب، من جرّاء المرور الدائم من المحطة وإليها، أصبحت الأرض أشبه شيء بمستنقع خنازير، تغرز عجلات العربات في أوحال أثلامه هنا وهناك حتى ما يقرب منتصفها. وما زاد الطين بلة، ذلك السيل غير المنقطع من عربات الجيش والإسعاف تغدو وتروح فارغة ومحملة بالمؤن والجرحى من القطارات، فتفاقمت الفوضى، وازداد سطح الأرض سوءاً، وراحت العربات تكدح في قدومها، وتكافح أثناء خروجها، وأخذ السواقون يشتمون، والبغال تغوص إلى ركبها، والوحل يتناثر مسافة ياردات.

وقفت سكارلت على درجات القطار السفلى، فتاة جميلة شاحبة اللون ترتدي ثوب الحِداد الأسود، ويتماوج نقابها الحريري بالغاً

كعبيها تقريباً، وقفت مترددة، لا تريد تلويث خفَّيها وأهداب ثوبها، ثم تطلعت بين عربات النقل المتعارضة الهادرة وعربات الخيل والركوب، بحثاً عن الآنسة بيتي بات، ولكنها لم تقع على أي أثر لتلك السيدة البدينة المترهلة، ذات الوجنتين المحمرتين. وبينما هي تجيل الطرف قلقة إذا بزنجي عجوز نحيل، ذي شعر جعدي قصير شائب، ومظهر ينم عن سلطة مهيبة، يتجه نحوها، عبر الوحل، وقبعته في يده.

- «أنت الآنسة سكارلت، أليس كذلك؟ ههنا بيتر، حوذي الآنسة بيتي. لا تدوسي في الوحل»، أمر بشدة حين جمعت سكارلت أطراف تنورتها استعداداً للهبوط. «أنت كالآنسة بيتي، فهي كالطفل فيما يتعلق بتبليل قدميها، سأحملك».

وحمل سكارلت بسهولة رغم هزاله الجلي، وسنه الكبيرة، ولكنه توقف هنيهة عندما لاحظ برسي تقف على رصيف القطار، والطفل بين ذراعيها:

- «هل هذه الطفلة الصغيرة ممرضة ولدك؟ آنسة سكارلت، إنها أصغر من أن تعتني بابن السيد تشارلز الوحيد، ولكننا سننظر في المسألة فيما بعد، وأنت أيتها البنت، اتبعيني وإياك أن تسقطي الطفل».

انصاعت سكارلت بوداعة لعملية حملها إلى العربة، وللأسلوب الجازم الذي انتقدها وبرسي به العم بيتر. وفيما كان يحملها خلال الوحل، وبرسي تغوص بقدميها من خلفها، ويتجهم وجهها، تذكرت ما قاله تشارلز عن العم بيتر.

«خاض جميع الحملات المكسيكية مع والدي، مرضه أثناء جرحه - في الحقيقة هو الذي أنقذ حياته، كما أنه عملياً رباني أنا وميلاني، إذ كنا صغيرين جداً عندما توفي والدنا، وكانت العمة بيتي في نزاع مع أخيها هنري، أثناء ذلك الوقت، ولذلك جاءت لتعيش معنا وتعتني بنا.

إنها أعجز إنسان - تماماً كالطفل الكبير المدلل، وقد عاملها العم بيتر على هذا الأساس. وحرصاً على حياتها، لم تكن تقرر أمراً في أي موضوع، ولذا كان بيتر يقرر لها ما تريد، وهو الرجل الذي قرر ضرورة زيادة راتبي عندما بلغت الخامسة عشرة، وأصر على ضرورة ذهابي إلى جامعة هارفرد لإتمام سنتي الرابعة عندما رغب عمي هنري في أن أحصل على الشهادة الجامعية، وهو الذي قرر أن تقص ميلاني شعرها وتحضر الحفلات عندما بلغت السن المعيّنة، وهو الذي يخبر الآنسة بيتي، متى يكون الطقس بارداً جداً أو حاراً جداً لا يصلح للزيارات، ومتى يجب أن تتلفح بالشال... إنه آنق عبد مسن رأيته في حياتي، وأخلص عبد تقريباً، ومشكلتنا الوحيدة معه أنه يسيطر على ثلاثتنا، جسداً وروحاً، وهو يعرف ذلك».

وقد تأكد كلام تشارلز عندما صعد العم بيتر إلى العربة وأمسك بالسوط قائلاً:

- «الآنسة بيتي متكدرة لأنها لم تأتِ لاستقبالك، وهي تخشى ألّا تقدّري حراجة موقفها، ولكني أخبرتها والآنسة ميلي أنهما ستتلوثان بالوحل، وستتلفان ثوبيهما الجديدين، وطمأنتهما بأني سأوضح الأمر لك، آنسة سكارلت، من الأفضل أن تأخذي ذلك الطفل، فتلك الزنجية الصغيرة ستدعه يقع».

نظرت سكارلت إلى برسي وتنهدت. لم تكن هذه أفضل الممرضات، فترقيتها مؤخراً من عبدة عجفاء بتنورة قصيرة وجدائل شعر معقوصة بصلابة، إلى مقام ترتدي فيه الثوب الخامي الطويل، والعمامة البيضاء الواسعة، كانت تقدماً مسكراً بالنسبة إليها. ولم تكن لتبلغ هذه المكانة الرفيعة في هذه السن المبكرة جداً من عمرها لو أن مقتضيات الحرب ومتطلبات دائرة التموين من تارا لم تجعل من المستحيل على إيلين الاستغناء عن مامي أو دلسي، أو حتى روزا أو تينا. ولم تكن

برسي قد سافرت قبلاً أبعد من ميل واحد عن تارا أو تولف أوكس، ولذلك كانت رحلتها بالقطار، بالإضافة إلى ترقيتها إلى وظيفة ممرضة، أكثر تقريباً مما يستطيع العقل الذي تحويه جمجمتها الصغيرة السوداء احتماله. ولقد أذهلتها رحلة العشرين ميلاً من جونسبورو إلى تارا كثيراً بحيث اضطرت سكارلت إلى أن تحمل الطفل طوال الطريق. وجاءت الآن مناظر البنايات العديدة، وجماهير الناس الغفيرة، لتكمل ذهولها، ومن ثم تقاعسها عن الاهتمام بواجبها، فراحت تلتفت يمنة ويسرة، ثم أماماً، ثم تثب من هنا إلى هناك، حتى انخض الطفل وشرع يبكي بكاء مراً.

وتاقت سكارلت لذراعي مامي السمينتين المدربتين، إذ لم تكن تضع يدها على الطفل حتى يكف عن عويله. ولكن مامي الآن في تارا، ولا تستطيع سكارلت أن تفعل شيئاً، وحملها للطفل من يدي برسي عديم الجدوى، فسيظل يصرخ عالياً، كما يصرخ وهو بين يدي برسي تماماً، علاوة على أنه سيشد شرائط قبعتها، ويجعد ثوبها دون ريب. ولهذا كله تظاهرت بعدم سماع اقتراح العم بيتر.

«من المحتمل أن أتدرب على شؤون الأطفال يوماً ما» فكرت منفعلة، بينما العربة تتأرجح وتهتز خارجة من المستنقع الذي يكتنف المحطة، «ولكنني لن أميل مطلقاً إلى مداعبتهم». وعندما احمر وجه ويد من جرّاء صراخه، زمجرت بعبوس: «أعطيه قطعة السكر الصغيرة التي في جيبك يا برسي، أي شيء، أي شيء يسكته، أعرف أنه جائع، ولكنني لا أستطيع عمل شيء الآن».

أخرجت برسي قطعة السكر التي أعطتها إياها مامي في ذلك الصباح، فخفَّ عويل الطفل، واستعادت سكارلت هدوءها. ومن جرّاء المناظر التي صافحت عينيها، بدأت معنوياتها تنتعش قليلاً. وعندما داور العم بيتر العربة وأخرجها من بين حفر الوحل، إلى شارع

بيتشتري، أحست بأول دفق من حب الحياة عرفته منذ شهور. كم نَمَت المدينة! لم يكن مضى أكثر من سنة على زيارتها الأخيرة إليها، ولذلك بدا من غير الممكن أن تستطيع أتلانتا الصغيرة التي تعرفها التطور بهذه السرعة الفائقة.

خلال السنة الماضية، كانت مستغرقة في ويلاتها، متضايقة من مجرد ذكر الحرب، فلم تعلم أنه منذ بداية القتال، تبدلت معالم أتلانتا. فالخطوط الحديدية، التي جعلت من المدينة ملتقى لطرق التجارة أيام السلم هي نفسها التي جعلتها ذات أهمية استراتيجية حيوية أيام الحرب، فأصبحت المدينة، لبُعدها عن ساحات النار، بمثابة حلقة الاتصال بين جيشي الحلف، الجيش العامل في فرجينيا، والآخر في تنيسي والغرب. كذلك كانت أتلانتا تصل كلا الجيشين بمناطق الجنوب البعيدة، حيث يستقدم الجيشان مؤنهما. وها هي الآن، تلبية لمتطلبات الحرب، تتحول إلى مركز صناعي، وقاعدة طبية، وأحد مستودعات الجنوب الرئيسة لجمع الطعام والمؤن للجيوش العاملة في الميدان.

وتلفتت سكارلت حولها تريد رؤية المدينة الصغيرة التي تتذكرها جيداً، ولكنها لم تجدها، فالمدينة التي تراها الآن كانت كالطفل الذي نما خلال الليلة السابقة بطولها ليصبح عملاقاً، باسطاً أطرافه، منهمكاً في العمل.

كانت أتلانتا تدوي كخلية النحل، شاعرة وفخورة بأهميتها بالنسبة إلى التحالف، وكان العمل قائماً على قدم وساق، لتحويلها من منطقة زراعية إلى مركز صناعي. قبل الحرب لم يكن جنوب ميريلاند غير عدد قليل من مصانع القطن، ومناسج الصوف ومصانع الأسلحة وورش صناعة الآلات، الأمر الذي كان جميع الجنوبيين يفتخرون به، إذ كان الجنوب ينتج السياسيين والجنود، المزارعين والأطباء، المحامين

والشعراء، لا المهندسين ولا الميكانيكيين، على وجه التحقيق، فليختر الشماليون هذه المهن الوضيعة، كان لسان حالهم يقول. ولكن ها هي الآن موانئ التحالف تحاصرها زوارق الشماليين الحربية، ولم ينجُ من الحصار إلا منفذ ضئيل فقط للبضائع المتسللة من أوروبا، ولذلك كان الجنوب يحاول مستميتاً صنع مواده الحربية. كان في مقدور الشمال أن يستنجد بجميع الدنيا، طالباً المؤن والجنود، وفعلاً انضم ألوف من الإيرلنديين والألمان إلى جيش الاتحاد تغريهم النقود السخية التي قدمها الشمال، بينما كان الجنوب يستطيع فقط أن يتثاءب معتمداً على نفسه.

في أتلانتا، كانت هناك مصانع آلات، تنتج بمشقة، الأدوات الأولية لصناعة مواد الحرب - تنتجها بمشقة لأنه لم يكن في الجنوب إلا عدد قليل من الآلات التي يمكنهم النسج على منوالها، ولذا كان عليهم أن يعتمدوا لصنع كل عربة أو زورق حربي على الرسوم الهندسية الآتية من أوروبا رغم الحصار، وقد غصت شوارع أتلانتا بالوجوه الغريبة، بحيث إن المواطنين الذين كانوا منذ سنة يخزون آذانهم عند سماع مجرد لهجة غريبة، أضحوا الآن لا يعيرون أدنى التفات إلى اللغة الأجنبية التي يتكلمها الأوروبيون الذين اخترقوا الحصار لبناء الآلات، وإنتاج ذخائر التحالف. رجال مهرة، كان الحلف من دونهم في مأزق حرج، من حيث إنتاج المسدسات والبنادق والمدافع والذخيرة.

ويكاد المرء يحس بخفقان قلب المدينة، فيما العمل مستمر ليل نهار، دافعاً بالمواد الحربية في شرايين السكك الحديد، إلى جبهتي القتال، بينما القطارات تهدر قادمة ذاهبة في كل ساعات اليوم، والدخان المتصاعد من المصانع المقامة حديثاً، يسقط في زخات رطبة على البيوت البيضاء. وفي الليل، تستمر الأفران الكبيرة المتوهجة بالنيران، والمطارق قاصفة ملعلعة إلى ما بعد أن يأوي سكان المدينة

إلى أسِرَّتهم بمدة طويلة. وحيث كانت البقاع الشاسعة عراء منذ سنة، انتصبت اليوم مصانع لإنتاج عدد الخيل والسروج والأحذية، وآلات تركيب البنادق، والمدافع، ومصاهر ومسابك نشطة لإنتاج القضبان الحديدية وعربات الشحن، لتحل محل تلك التي يدمرها الشماليون، ثم عدد متنوع من الصناعات المنتجة لمهاميز الخيل، لقم الأعنة، حلقات، أبازيم، أزرار، خيام، مسدسات وسيوف. وقد ابتدأت المصاهر منذ الآن تعاني نقصاً في الحديد، إذ لم يكن يصل منه عبر الحصار إلا القليل جداً أو بالأحرى لا شيء. كانت المناجم في ألاباما معطلة عن العمل تقريباً، إذ هرع عمالها إلى الجبهة، ولم يبقَ في أتلانتا اليوم أسيجة بأوتاد حديدية أو أكشاك حديدية أو بوابات، أو حتى تماثيل حديدية في الجادات، إذا وجدت كلها طريقها منذ زمن، إلى مصاهر الحديد.

وهنا، على جانبي شارع بيتشتري، وجوانب الشوارع المجاورة، قامت مراكز قيادات مختلف دوائر الجيش، كل مركز منها يموج بالرجال في بذلاتهم العسكرية، دائرة التموين، مركز سلاح الإشارات، دائرة الخدمة البريدية، مركز النقل بالسكة الحديد، مركز المشير الأول.

وفي ضواحي المدينة، قامت مستودعات سلاح الفرسان، حيث تحوم الخيل والبغال، ضمن زرائب فسيحة مؤقتة، بينما أقيمت المستشفيات على جوانب الشوارع الفرعية، وفيما كان العم بيتر يشير إلى هذه المستشفيات، شعرت سكارلت أن أتلانتا لا بد أن تكون مدينة الجرحى، إذ كان هنالك عدد لا يحصى من المستشفيات العامة، ومستشفيات الأمراض المعدية، ومستشفيات النقاهة. وفي كل يوم، تقذف القطارات بالمزيد من الجرحى والمرضى إلى ما وراء فايف بوينتس.

كانت المدينة الصغيرة قد ولت، بينما كان يضفي النشاط الدائم

والضوضاء المستمرة على وجه المدينة النامية بتسارع، مظهراً حياتياً قوياً، وقد أنعش منظر هذه الدوامة الهائلة سكارلت وأيقظها من سبات الفراغ الريفي الهادئ، العديم النفس تقريباً، والذي كانت مع ذلك تميل إليه، فقد كان يوجد جو مثير حول المكان الذي نشأت فيه، وأحست كما لو أن خفقان قلب المدينة المنتظم المتسارع، يتجاوب حقاً مع خفقان قلبها.

وبينما كانوا يشقّون طريقهم ببطء، خلال حفر الوحل، في شارع المدينة الرئيس، كانت تراقب بشغف كل المباني الحديثة، والوجوه الجديدة. وكان رصيفا الشارع يعجان بذوي البذلات العسكرية يحملون شارات مختلف الرتب ومختلف فروع الخدمة العسكرية، بينما كان الشارع الضيق يكاد يختنق بالعربات، عربات الركوب والخيل والإسعاف وشاحنات الجيش المغطاة بسائقيها السفهاء الذين كانت تتعالى شتائمهم فيما البغال تكدح للخروج من أخاديد الوحل. ثم سعاة بأرديتهم الرمادية، يندفعون عبر الشوارع، ناثرين الأوحال، من مركز قيادة إلى آخر حاملين الأوامر والرسائل البرقية، وكذلك المرضى في طور النقاهة يعرجون متكئين على العكاكيز، مصحوبين عادة بسيدات متضرعات، من كل جانب. بينما يسمع من ميادين التدريب دوي الأبواق والطبول، والأوامر الصارمة، حيث يدب المتطوعون الجدد ليصبحوا جنوداً. ورأت سكارلت للمرة الأولى وقلبها في حلقها بذلات الشماليين عندما أشار العم بيتر بسوطه نحو فصيل من الجنود، الخائري النفوس، بمعاطفهم الزرقاء، مسوقين نحو المحطة بحراسة فيلق من جنود الحلف المشرعي الحراب، ليجري نقلهم إلى معسكر الاعتقال.

«ها» فكرت سكارلت، وقد خامرها أول شعور سار حقيقي منذ يوم الباربكيو، «سأحب هذا المكان فهو حي ومثير جداً».

كانت المدينة أكثر حيوية مما لمست، إذ كانت تحوي عشرات من

الحانات الجديدة، وبنات الهوى يتبعن الجيش، ويملأن المدينة، وتعج بهن بيوت الدعارة، مما أسخط رجال الكنيسة. كل الفنادق والأنزال وغرف الإيجار الخاصة، كانت مزدحمة بالزوار الذين قدموا ليكونوا على مقربة من جرحاهم في مستشفيات أتلانتا الكبيرة. وفي كل أسبوع كانت تقام حفلات ورقص وأسواق خيرية، وتتم زيجات الحرب بعدد لا يحصى، حيث يمنح المجندون العرسان، إجازات يرتدون أثناءها البزز الرمادية الزاهية ويتقلدون الشرائط المذهبة، بينما تتزين العرائس بالحلى الواردة رغم الحصار، ويعقد القران داخل رواق الكنيسة، وقد علاه السيفان المتقاطعان، ثم تحتسى أنخاب الشامبانيا المهربة أيضاً، وسط دموع الوداع. وفي كل ليلة، يتصادى وقع الأقدام الراقصة في الشوارع المظلمة ذات الأشجار على الجانبين، ومن الردهات، تعلو أنغام البيانو، حيث تمتزح ألحان الموسيقى الصارخة بأصوات الجنود الضيوف مرنمة بشجى رضي نشيد: «الأبواق قرعت من أجل الهدنة» و«لقد وصلت رسالتك، ولكنها وصلت متأخرة جداً»، أهازيج شجية، تهيج الدموع في العيون الحالمة التي لم تكن تعرف أبداً دموع المآسي الحقيقية.

وبينما هم يتقدمون نحو نهاية الشارع خلال الوحل البليل، راحت سكارلت تمطر العم بيتر بالأسئلة، فيجيبها مومئاً بسوطه هنا وهناك، فخوراً بعرض معرفته الواسعة:

- «تلك هي دار السلاح، نعم، حيث يحفظون المدافع وما شاكلها. لا، تلك ليست مخازن، إنها مكاتب الحصار، يا إلهي لا تعرفين شيئاً يا آنسة سكارلت ما هي مكاتب الحصار؟ إنها المكاتب التي يقيم فيها الأجانب الذين يبتاعون أقطان الحلف، ويشحنونها من شارلستون أو ولمنفتون ثم يستوردون لنا بدلاً منها ملح البارود، لا، أنا لست متأكداً من جنسيتهم، ولكن الآنسة بيتي تقول إنهم إنجليز، على

أن أحداً لا يستطيع فهم كلمة مما يقولون. أجل! إنه دخان كثيف، وقد أتلف سخامه سجف الآنسة بيتي الحريرية، إنه صادر من مصاهر ومسابك الحديد. أما الضجة التي تُحدثها هذه في الليل فحدّثي ولا حرج... لا يستطيع أحد النوم بسببها. لا... لا أقدر التوقف من أجل أن تتفرجي، لقد وعدت الآنسة بيتي أن أوصلك فوراً، يا آنسة سكارلت... كيما تحتفي بك... ها هي الآنسة ميريويذر والآنسة إلسينغ تنحنيان تحية لك».

تذكرت سكارلت بغموض، سيدتين بهذين الاسمين كانتا قد قدمتا من أتلانتا إلى تارا، لحضور عرسها. وتذكرت أنهما صديقتا الآنسة بيتي الأثيرتان، ولذلك التفتت بسرعة إلى حيث أشار العم بيتر وانحنت رداً لتحيتهما. كانت الآنستان تجلسان في عربة أمام مخزن للقماش بينما وقف على الرصيف صاحب المخزن وكاتبان، مكدسين على أذرعهم رزماً من القماش القطني للعرض.

كانت الآنسة ميريويذر امرأة طويلة قوية البنية، مشدودة الخصر كثيراً، بحيث برز صدرها كمقدم السفينة، ذات شعر رمادي أدكن، أطالته بضفيرة اصطناعية مجعدة، ذات لون بني باهر بحيث تأنف أن تقاس ببقية شعرها، وكان وجهها مستديراً ذا لون أحمر قانٍ، تمتزج في أساريره مخايل الدهاء والخير وعادة التأمُّر. أما السيدة إلسينغ، فكانت أصغر سناً، امرأة نحيفة هزيلة، في ملامحها أثر من جمال مضى ونضارة ذابلة، وأمائر غطرسة محببة.

هاتان السيدتان، بالإضافة إلى ثالثتهما السيدة ويتينغ، كنّ ركائز أتلانتا، يدرن الكنائس الثلاث التي يتبعنها، والكهنوت وجوقات المرتلين، ورجال الأبرشيات، وكن أيضاً ينظمن الأسواق الخيرية، ويشرفن على حلقات الخياطة ويترأسن حفلات الرقص والنزهات، يعرفن أيٌّ نجح في زواجه وأيٌّ فشل، مَن يشرب الخمر سراً، ومَن

سيحبل ومتى. وكن مراجع موثوقة فيما يتعلق بنَسَب كل شخص في جورجيا وكارولاينا الجنوبية وفرجينيا، دون أن يزعجن أنفسهن بأنباء الولايات الأخرى، إذ كن يعتقدن أن لا اعتبار لأي إنسان قادم من غير هذه الولايات الثلاث، يعرفن ماهية السلوك المحتشم، والسلوك المبتذل، ولم يفشلن يوماً في إذاعة آرائهن - السيدة ميريويذر بأعلى صوتها، والسيدة إلسينغ بصوت ظريف متباطئ، يخفت شيئاً فشيئاً، والسيدة ويتينغ بهمس مغموم، يظهر شدة كراهيتها للتكلم في مثل هذه الأمور.

هؤلاء السيدات الثلاث، كن متباغضات قلبياً، كتباغض أعضاء الحكومة الثلاثية الأولى في روما، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب في تحالفهن الوثيق.

- «أخبرت بيتي أني مضطرة لضمّك إلى مستشفاي» قالت السيدة ميريويذر صارخة مبتسمة، «فلا تعدي السيدة ميد أو السيدة ويتينغ».

- «لن أعدهما»، أجابت سكارلت، دون أن يكون لديها أدنى فكرة عما تتحدث عنه السيدة ميريويذر، ولكنها أحست بومضة دفء لهذا الترحيب بها، وهذه الحاجة إليها، «وأرجو أن أراك سريعاً مرة ثانية».

وشقّت العربة طريقها إلى الأمام، ثم وقفت هنيهة لتفسح المجال لسيدتين تحملان رزماً من الضمادات على سواعدهما، كي تجدا طريقهما عبر الشارع الموحل، خاطيتين فوق الحجارة، بينما أخذت عينا سكارلت بمنظر امرأة على الرصيف، في ثوب زاهي الألوان - زاهٍ جداً. . . بحيث لا يجوز ارتداؤه للشارع، وقد اتشحت بشال من نوع بيسلي[1]، ذي شراريب تصل حتى قدميها. وعندما التفتت سكارلت

---

(1) مدينة في اسكتلندا قرب غلاسكو مشهورة بصنع نوع من حرير الشالات المزركشة - (المترجمان).

إليها، رأت فيها امرأة طويلة القامة، جميلة الطلعة، ذات وجه ينمّ عن جرأة، وجمّة من الشعر الأحمر جداً بحيث لا يمكن أن يكون طبيعياً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تشاهد فيها امرأة وتتأكد من أنها قد أتت شيئاً بشعرها، فأخذت تتأملها مخلوبة اللب.

- «عم بيتر، من هي تلك المرأة؟» قالت هامسة.

- «لا أعرف».

- «أنت تعرف، جداً. إني واثقة. من هي؟».

- «اسمها بيل وتلينغ» أجاب العم بيتر، وقد بدأت شفته السفلى تبرز غضباً.

وفي الحال، فطنت سكارلت إلى أنه لم يُسبق الاسم بلقب «آنسة» أو «سيدة».

- «من هي؟».

- «يا آنسة سكارلت»، قال بيتر متجهماً، هاوياً بالسوط على الحصان المجفل، «لن ترتاح الآنسة بيتي لأسئلتك عما لا يعنيك. إنهن حفنة من أناس غير معتبرين، موجودات الآن في هذه المدينة، بحيث لا يفيد الحديث عنهن».

«يا للّه العظيم»، فكرت سكارلت صامتة، بتبكيت الضمير، «لا بد أن تكون امرأة ساقطة».

ولم تكن قد رأت امرأة ساقطة من قبل، فعطفت رأسها، ورنت خلف المرأة، إلى أن غابت بين الجمهور.

كانت المخازن وبنايات الحرب الجديدة، متفرقة في هذه الناحية، يفصل بينها مساحات شاغرة، وأخيراً أضحت منطقة الأعمال خلفهم، وظهرت للعيان ناحية السكن، وميزت سكارلت بيوت الأصدقاء القدامى: بيت آل ليدن، وهو بيت جليل فخم، بيت آل بونل وله أعمدة بيضاء صغيرة، ومصاريع خضراء، ثم المنزل الجورجياني الهادئ،

المبني بالطوب الأحمر خلف أسيجته المنخفضة من نبات البقس، الخاص بعائلة ماك لور.

اضطرت العربة إلى أن تخفف من سرعتها، إذ راحت السيدات يحيّينها من الشرفات والحدائق، ومن رصيفي الشارع، كانت تعرف بعضهن معرفة سطحية، والبعض تذكرته دون استجلاء، ومعظمهن لا تعرفه البتّة. من المؤكد أن بيتي بات أذاعت نبأ قدومها، فكان لا بد من أن يحمل ويد الصغير، من وقت إلى آخر، كيما تستطيع السيدات اللواتي خاطرن عبر الوحل، بقدر ما تسمح لهن عرباتهن الخشبية، أن يرينه ويطلقن عبارات الاستحسان، وكانت كل منهن تدعوها صائحة، بوجوب الانضمام إلى حلقتها في الخياطة، أو شغل الإبرة أو إلى لجنة المستشفى، فقط إلى حلقتها هي دون سواها، ولذا مضت تنثر الوعود يمنة ويسرة دون مبالاة.

وبينما هم يمرون بمحاذاة بيت خشبي أخضر، معدّ للنزهة، صاحت فتاة سوداء صغيرة، تقف على درجاته الأمامية: «ها هي وصلت»، وعلى التو برز الطبيب ميد وزوجته، وفل الصغير البالغ الثالثة عشرة من العمر، فحيّوها، وتذكرت سكارلت أنهم كذلك حضروا عرسها. ثم صعدت السيدة ميد على عتبة عربتها، ومدّت عنقها لترى الطفل، بينما شق الطبيب طريقه إلى جانب العربة، غير مكترث للوحل.

كان طويل القامة، شاحب اللون، ذا لحية مدببة رمادية اللون تهدلت ملابسه حول جسده الضامر، كما لو أن زوبعة هوجاء تنفخ فيها.

كانت أتلانتا تعتبره مصدر القوة والحكمة، وليس غريباً أن يكون قد حوى شيئاً مما يعتقدون، ولكن رغم عادته في الإدلاء بحقائق هي أقرب إلى الوحي، ورغم أسلوبه المتفاخر نوعاً ما، كان رجلاً رحيماً، كأرحم إنسان في المدينة.

وبعد أن جمش ويد في معدته، وأطراه، أعلن أن العمة بيتي قد أقسمت واعدة أن لا تلتحق سكارلت بأي لجنة تمريض ولف ضمادات، سوى لجنة السيدة ميد.

- «ولكني، يا عزيزي، وعدتُ ألف سيدة حتى الآن»، قالت سكارلت.

- «أراهن أنها السيدة ميريويذر» صاحت السيدة ميد بسخط، «بئست من سيدة، إني أعتقد أنها تستقبل كل قطار».

- «وعدت لأني لم أكن أعرف شيئاً عن الموضوع» اعترفت سكارت، «وعلى كل حال، ما هي لجان التمريض؟».

فبدا الطبيب وزوجته ذاهلين قليلاً، لجهلها هذا الأمر الحيوي.

- «حقاً، لقد كنت بالطبع مطمورة في الريف، وليس في وسعك معرفة شيء»، قالت السيدة ميد تبرر جهلها، «عندنا لجان تمريض لمختلف المستشفيات، ولمختلف أيام الأسبوع، نمرض الرجال، ونساعد الأطباء، ونخيط الضمادات والملابس ونكرم الجرحى في بيوتنا، عندما يصبحون في حالة جيدة تمكنهم من مغادرة المستشفى، إلى أن يضحوا قادرين على العودة إلى القتال، ثم نعتني بزوجات وعائلات بعض الجرحى المعوزين، بل أكثر من معوزين. والطبيب ميد يعمل في مستشفى المنظمة، حيث تعمل لجنتي، وكل شخص يقول إنه مدهش و. . .».

- «كفى، كفى يا سيدة ميد» قال الطبيب متودداً، «لا تتفاخري بي أمام الناس، فأنا ما أستطيع عمله قليل جداً، إذ منعتِني من الالتحاق بالجيش».

- «منعتك!» صاحت ساخطة، «أنا؟ المدينة منعتك، وأنت تعرف ذلك. اسمعي يا سكارلت، عندما سمع الناس أنه عازم على الذهاب

إلى فرجينيا كضابط جرّاح، وقّعت جميع السيدات عريضة تلتمس منه البقاء هنا. بالطبع لا يستطيع الناس العمل من دونك...».

- «كفى، كفى يا سيدة ميد»، قال الطبيب منتعشاً، مخضب الوجه بفعل الثناء، «من المحتمل أن يكون وجود ابن لي في الجبهة كافياً في الوقت الحاضر».

- «وأنا ذاهب في السنة القدامة كقارع طبل»، صاح فل الصغير، قافزاً بسرور، «إني أتعلم كيفية القرع الآن، هل تريدون سماعي؟ سأزكض لإحضار طبلي».

- «لا، ليس الآن»، قالت السيدة ميد، جاذبة إياه نحوها وقد بدا على وجهها الانفعال وضيق مفاجئ، «ليس السنة القادمة يا حبيبي، ربما السنة التي تليها».

- «ولكن الحرب ستكون قد انتهت عندئذ!» صاح نزقاً، مبتعداً عنها، «وأنت وعدتِني!».

والتفتت عيون والديه فوق رأسه، وطالعت سكارلت نظراتهما، لقد كان دارسي ميد في فرجينيا، وتعلق الوالدان بابنهما الصغير الذي بقي معهما بحنان متزايد.

وتنحنح العم بيتر، ثم قال: «كانت الآنسة بيتي قلقة عندما غادرتها، وإن لم أبلغها سريعاً، فسيغمى عليها».

- «وداعاً، سأزوركم هذا المساء»، قالت السيدة ميد، «وأنت، أخبري بيتي بالنيابة عني، إذا لم تكوني في لجنتي فلن تكون هي مَسرورة».

وتحركت العربة منزلقة فوق الطريق الموحلة، بينما اتكأت سكارلت بظهرها على المسند مبتسمة. إنها الآن في حالة أفضل مما كانت عليه خلال الشهور الماضية، فأتلانتا، بسكانها المكتظين،

بحركتها الناشطة، وبما تثيره في النفس من مؤثرات خفية حافزة، سارة جداً، بهيجة جداً، أمتع بكثير من المزرعة المنعزلة خارج شارلستون، حيث خوار التماسيح يشق سكون الليل، أفضل من سافانا بشوارعها العريضة المغروسة بأشجار النخيل على الجانبين، ونهرها الموحل المجاور. أجل، وأفضل حتى من تارا مؤقتاً، رغم ما تشعر به نحو تارا من حب وإيثار.

إن هناك شيئاً ما مثيراً يتعلق بهذه المدينة، بشوارعها الضيقة الموحلة، الممتدة بين التلال المنحدرة الحمراء، شيئاً فجاً نيئاً، يتجاوب والفجاجة والنيوءة الكامنة تحت المظهر المموه الذي أضفته عليها إيلين ومامي. لقد أحست فجاة أن هذا هو المكان الذي يصلح موطناً لها، وليس المدن القريبة الهادئة الوقورة، المنبسطة بجانب المياه الصفراء.

أخذت البيوت الآن تتباعد عن بعضها مسافات أكبر، ورأت سكارلت وهي تمد عنقها خارجاً، سقف بيت الآنسة بيتي بات، المبني من القرميد الأحمر والأردواز. كان تقريباً آخر بيت في ناحية المدينة الشمالية، وفيما وراءه تستمر طريق بيتشتري ضيقة متعرجة، في ظلال أشجار ضخمة، لتغيب وسط الغابات الكثيفة الساكنة.

كان السياج الأنيق المصنوع من الأوتاد الخشبية قد طلي حديثاً باللون الأبيض، وازدهت الساحة الأمامية التي يكتنفها بآخر أزهار النسرين لهذا الفصل. وعلى الدرجات الأمامية وقفت سيدتان في ثياب سوداء، وخلفهما امرأة سمينة سمراء، يداها تحت ميدعها، ينفرج فمها عن أسنانها البيض بابتسامة عريضة، بينما الآنسة بيتي، الممتلئة الجسم، تتأرجح مسرورة على قدميها الصغيرتين، ويدها تضغط فوق صدرها العامر تهدئ خفقان قلبها. ورأت سكارلت ميلاني واقفة بجانبها، وبموجة من الكراهية، أدركت أن الذبابة في طلاء أتلانتا

ستكون هذه الفتاة الصغيرة النحيلة، في ثوب حدادها الأسود، وقد أخضعت ضفائر شعرها الأسود المتمردة، للنعومة اللائقة بالسيدات، بينما غمرت وجهها، الشبيه بالقلب، ابتسامة عذبة، تنمّ عن الترحيب والسعادة.

* * *

عندما يكلف الجنوبي نفسه عناء رزم الحقيبة والسفر مسافة عشرين ميلاً في زيارة، فإن هذه الزيارة نادراً ما تستغرق أقل من شهر، وفي العادة، تمتد إلى أطول من ذلك بكثير. فالجنوبيون شغوفون بالزيارات شأنهم بالضيافة، وليس هناك أي غرابة، في أن يأتي الأقرباء لتمضية عيد الميلاد، ثم يمكثوا حتى يونيو. وغالباً ما يسافر العروسان الجديدان، في سياحتهما المعتادة لقضاء شهر العسل، فيطيلان إقامتهما في بعض المنازل السارة، إلى أن يحين مولد طفلهما الثاني. وكثيراً ما يقدم الخالات والعمات والأخوال والأعمام المسنون، لتناول غداء الأحد، ولكنهم يمكثون حتى يدفنوا، بعد قدومهم بعدة سنين، إذ إن الزوار لا يسببون أي مضايقة، فالبيوت فسيحة، والخدم عديدون، وإطعام عدد من الأفواه الإضافية مسألة ثانوية، في تلك البلاد الغنية.

الناس من جميع الأعمار، ذكور وإناث، يمضون في الزيارات: عرسان في شهر العسل، أمهات شابات يتباهين بأطفالهن الصغار، مرضى في دور النقاهة، ثكالى، صبايا تلهف آباؤهنّ لإبعادهن عن أخطار زيجات طائشة، فتيات بلغن السن الخطرة دون أن يخطبن ويؤمل أن ينجحن في زيجات مناسبة، تحت إرشاد أقربائهن في المناطق الأخرى.

كان الزوار يضفون السرور والتنوع على حياة الجنوب الرتيبة المتثاقلة، فهم أبداً ينزلون على الرحب والسعة.

وهكذا جاءت سكارلت إلى أتلانتا، دون سابق تفكير بالمدة التي

ستقضيها، وإذا أثبتت زيارتها هذه أنها مملة كزيارتها لشارلستون وسافانا، فستعود إلى البيت بعد شهر، أما إذا كانت ممتعة، فستمكث مدة غير محدودة. على أنها لم تكد تصل إلى البيت بعدما بدأت العمة بيتي وميلاني حملة لإقناعها باتخاذ أتلانتا مقراً دائماً لها، فتكون برفقتهما، وتذرّعتا بكل حجة مفحمة، قائلتين إنهما تريدانها قريبة منهما في سبيل خيرها، لأنهما تحبانها، وإنهما وحيدتان، تخافان غالباً في الليل، داخل البيت الكبير، ولكونها جميلة فاتنة جداً، ستبهجهما في أحزانهما. ولما كان تشارلز قد توفي الآن، فإن مكانها ومكان ابنها ينبغي أن يكونا مع أقربائه، فضلاً عن أن نصف البيت أصبح ملكها عملاً بوصية تشارلز، وأخيراً أن الحلف يحتاج إلى كل زوج من الأيدي ليسهم في الخياطة والحياكة، ولف الضمادات وتمريض الجرحة.

وكذلك تكلم معها في هذا الموضوع، عم تشارلز، هنري هاملتون الذي يعيش عازباً، في فندق أتلانتا، قرب المحطة. كان العم هنري رجلاً قصير القامة، بطيناً، نزقاً، ذا وجه مورد، وشعر طويل فضي، تعوزه فضيلة الصبر تماماً، وكان أيضاً جباناً ثرثاراً كالسيدات. وبسبب هذه الصفة الأخيرة، كانت علاقته بشقيقته الآنسة بيتي تكاد تنحصر في حدود الكلام وحسب، فمنذ الطفولة وهما متضادان تماماً بمزاجيهما، وقد تفاقم النفور بينهما من جرّاء معارضته لأسلوب تنشئتها لتشارلز، إذ كانت «تصنع إنساناً مخنثاً تعساً من ابن جندي». وهكذا أهانها من سنين مرة، بحيث إنها الآن لا تتحدث عنه مطلقاً إلا في همس حذر، وبتكتم هائل، حتى يظن الغريب أن ذلك المحامي العجوز المحترم، مجرم على الأقل.

وقد وقعت الإهانة في اليوم الذي رغبت فيه بيتي سحب خمسمئة دولار من عائدات أملاكها التي كان هو أميناً عليها، لتستثمرها في منجم ذهب لم يرَ النور بعد. فرفض أن يدعها تنفّذ مشيئتها، مقرراً

بإصرار أنها لا تملك من الإدراك أكثر من بقة يونيو. زد على ذلك أن القضية أخرجته عن طبعه فاستمر يعنّفها مدة خمس دقائق، ومنذ ذلك اليوم وهي تقابله بصورة رسمية فقط كل شهر حيث يحملها العم بيتر في العربة لتقبض مصروف البيت.

وكانت بيتي، إثر كل هذه الزيارات الشهرية القصيرة، تلازم سريرها بقية النهار، بالبكاء وبالحبوب المانعة للإغماء. وقد اقترحت ميلاني وتشارلز مراراً، وكانا على علاقة ممتازة بعمهما، إنقاذها من هذه المحنة، ولكن بيتي كانت دائماً تشيح بوجهها مصرّة على الرفض. كان هنري بليّتها، ويجب أن تتحمله، ومن هنا استطاع تشارلز وميلاني الاستنتاج أنها تجد لذة عميقة في هذه الفورة الدورية، الفورة الوحيدة في حياتها الاتكالية.

أحب العم هنري سكارلت منذ الدقيقة الأولى، لأنه كما قال، يستطيع أن يرى فيها، رغم تصنّعها التافه، قليلاً من بذور الوعي، ولم يكن هنري وكيل أملاك بيتي وميلاني فقط، بل أيضاً أملاك سكارلت، التي ورثتها عن تشارلز. وعندما علمت سكارلت أنها أضحت الآن امرأة غنية، تلقت النبأ كمفاجأة سارة إذ إن تشارلز لم يترك لها نصف منزل بيتي وحسب، بل أيضاً أراضي زراعية وعقارات في المدينة. فالمخازن ومستودعات البضائع على جانب طريق سكة الحديد، قرب المحطة، والتي هي جزء من الميراث، تضاعفت قيمتها ثلاث مرات منذ ابتداء الحرب. ولذلك، بينما كان العم هنري يقدم لها تقريراً عن ممتلكاتها، فاتحها بموضوع اتخاذ أتلانتا مقرها الدائم: «عندما سيكبر ويد هاملتون، سيكون رجلاً غنياً»، قال، «ونظراً إلى الطريقة التي تزدهر بها أتلانتا، ستتضاعف قيمة أملاكه عشر مرات، خلال العشرين سنة القادمة. ومن الصواب المطلق أن ينشأ الصبي حيث تكون أملاكه، كي يتدرب على الاهتمام بها... نعم وبيتي وميلاني أيضاً، إذ سيكون

الرجل الوحيد الذي سيبقى من عائلة هاملتون في القريب العاجل، لأنني لن أخلّد إلى الأبد».

أما العم بيتر فقد اعتبر أن الأمور المسلَّم بها أن سكارلت جاءت لتبقى، إذ كان مما لا يقبله عقله أن يربى ابن تشارلز الوحيد، حيث لا يمكنه هو الإشراف على تربيته. تلقاء كل هذه الحجج، كانت سكارلت تبتسم دون أن تعد بشيء، إذ لم تكن ترغب في أن تدين نفسها قبل أن تختبر مدى استحسانها لأتلانتا، وللسكن الدائم مع أقرباء زوجها. كانت تعرف كذلك وجوب نيل موافقة إيلين وجيرالد، وزيادة على ذلك أنها، وقد بعدت الآن عن تارا، أخذت تشعر بالحنان نحوها، وتفتقدها كثيراً، تفتقد الحقول الحمراء، والقطن الأخضر النامي، وسكون الفجر المطمئن البديع. وللمرة الأولى، أدركت بغموض، ما قصده جيرالد عندما أنبأها أن حب الأرض متأصل في دمها.

وهكذا تجنبت بلباقة إعطاء جواب آني محدد، فيما يتعلق بمدة زيارتها، ودخلت بيسر في حياة بيت القرميد الأحمر، في نهاية شارع بيتشتري الهادئة.

استطاعت سكارلت الآن، وهي تعيش مع شخصين تربطهما بتشارلز قرابة الدم، وتتأمل البيت الذي نجم منه، أن تفهم الشاب الذي نقلها إلى الحياة الزوجية، ثم الترمل ثم الأمومة بهذا التعاقب السريع، أن تفهمه بصورة أفضل قليلاً. كان من السهل الآن أن تتبين سبب حيائه الجم، سبب سذاجته المطلقة، ومثاليته العالية. فإذا كان تشارلز قد ورث صفات والده، فإن ذلك الشيء قد اندرس في عهد الطفولة، بفعل الجو الأنثوي الذي عاش فيه، لقد كان موكولاً به إلى بيتي الشبيهة بالأطفال، ملازماً لميلاني أكثر مما يكون الشقيقان عادة، هاتان المرأتان اللتان لا يمكن وجود أرقّ منهما وأكثر صوفية.

عُمِّدت العمة بيتي بات باسم «سارة جين هاملتون» قبل ستين سنة،

ولكن منذ ذلك اليوم البعيد، عندما ثبَّت والدها الخَرِف لقب بيتي بات عليها، بسبب قدميها الصغيرتين الخفيفتين النشيطتين المقرقعتين، لا يدعوها أحد بغير هذا اللقب. وخلال السنين التي تلت هذه التسمية الثانية، طرأت تغيرات كثيرة عليها، جعلت اسم التدليل هذا مغايراً للواقع إذ كل ما بقي من الطفلة السريعة الفرار، مجرد قدمين صغيرتين، غير متكافئتين مع وزنها، ثم ميل إلى الثرثرة بسرور، ومن دون هدف. كانت امرأة بدينة موردة الخدين، فضية الشعر، دائماً تلهث من جراء مشدّها الضاغط كثيراً، عاجزة عن السير أكثر من مدى مربّع بناء، بقدميها الصغيرتين اللتين تحشرهما ضمن خفَّين صغيرين للغاية، ذات قلب ينهلع فرقاً لأدنى مفاجأة، فتسري عنه دون خجل بأن تستسلم للإغماء بفعل أدنى استفزاز، على أن الجميع يعرفون أن إغماءها مجرد تكلف لطبيعة السيدات، ولكنهم كانوا يحبونها كثيراً، يكيدون لها كطفلة، ويأبون معاملتها جدياً - الجميع عدا شقيقها هنري.

كانت تغرم بالثرثرة أكثر من أي شيء في الدنيا، حتى أكثر من حبها للذائذ المائدة، فتمضي في الهذيان حول شؤون الآخرين ساعات، بأسلوب رقيق، عديم الإساءة. ولم تكن تحفظ من الأسماء أو التواريخ أو الأماكن شيئاً، ومراراً ما خلطت بين ممثلي مسرحية أتلانتا، وممثلي مسرحية أخرى، الأمر الذي لم يكن يضلل أحداً، إذ لم يكن هناك إنسان غبي جداً، بحيث يحمل أياً مما تقوله محمل الجد، ولم يخبرها أحد يوماً بأي حادث مذهل أو فاضح حقاً، لأن عزوبتها تجدر المحافظة عليها، حتى ولو بلغت من العمر الستين عاماً. لقد كان أصدقاؤها متّحدين في مكيدة رحيمة، للحفاظ عليها كطفلة كبيرة مدللة قاصرة.

كانت ميلاني كعمّتها في نواحٍ كثيرة، في حيائها، في خجلها المفاجئ، في تواضعها، ولكنها كانت تتمتع بإدراك سليم ومعرفة

مستفيضة، «إلى حد ما، إني أقر بذلك» فكرت سكارلت رغماً عنها. وكان وجه ميلاني، كعمّتها، وجه طفلة قاصرة لم تكن قد عرفت غير السذاجة واللطف، والصدق المحبب، طفلة لم تتمرس مطلقاً بالخشونة، أو تتعرف على الشر، ولن تستطيع تمييز هذه الأمور إذا ما اعترضتها لأنها كانت دائماً سعيدة، وتريد لكل من حولها أن يكونوا سعداء، أو على الأقل، رضيّي البال. وكنتجية لهذا، كانت ترى دائماً أحسن ما في الإنسان، وتشير إليه بلطف، فلم يكن يوجد أي خادم أبله تماماً تعجز عن إيجاد خلة إخلاص أو طيبة قلب في شخصه، أي فتاة قبيحة مقيتة جداً تقصر عن اكتشاف جمال في الشكل أو نبل في الأخلاق بها، وأي رجل تافه ومضايق جداً تفشل في رؤيته في ضوء إمكاناته لا وقائعه.

وبسبب هذه الشمائل المزدانة بالإخلاص، والمنبعثة عفوياً من قلب كريم كان الجميع يلتفّون حولها، إذ من كان في وسعه مقاومة فتنة إنسان يكتشف الخصال الخيّرة المدهشة في الآخرين، الخصال التي لا يحلمون هم أنفسهم بوجودها؟

ولذلك كانت تحظى بأكثر الصديقات في المدينة، وبأكثر الأصدقاء أيضاً، مع أنها لم تكن تنعم إلا بقليل من المحبّين، لفقدانها عنصرَي الأنانية والعزيمة، اللذين يصلحان كثيراً لصيد قلوب الرجال.

والذي كانت تفعله ميلاني لم يزد أبداً عما كانت جميع فتيات الجنوب يُعلَّمن أن يفعلنه ليجعلن هؤلاء المحيطين بهن يشعرون بالراحة والبهجة في نفوسهم. وإلى هذه المكيدة النسائية السارة يرجع الفضل في جعل مجتمع الجنوب ممتعاً جداً، فقد كانت النسوة يعرفن أن البلاد التي يكون فيها الرجال راضين، غير معارضين، مطمئنين في غرورهم غير المثلوم، غالباً ما تكون مكاناً ممتعاً جداً لحياة النساء، ولذا فمن المهد إلى اللحد، كانت النسوة يكافحن لجعل الرجال مسرورين

بذواتهم، فيندفعون، وقد قنعوا واطمأنوا، مسرفين في الرقة والهيام. والحقيقة أن الرجال يقرّون للنساء بكل شيء في الوجود، عن طيبة خاطر، عدا الفخر بامتلاكهن ذكاء.

كانت سكارلت تمارس أساليب ميلاني المغرية ذاته، ولكن بفن مدروس، ومهارة فائقة. وكان الفرق بين الاثنتين هو أن ميلاني تتحدث بكلمات لطيفة متملقة، تحدوها الرغبة في إسعاد الناس جميعاً، ، حتى ولو كان ذلك مؤقتاً، بينما لا تقدم سكارلت على ذلك إلا مماشاة لغاياتها الخاصة.

من المرأتين اللتين أحبهما تشارلز جداً، لم يتلقَّ ما يؤدي إلى تصلّب عوده ولم يتعلم شيئاً من الخشونة أو الواقعية. كان البيت الذي نشأ فيه بالنسبة إلى عملية إبداع كعش الطير، بيتاً ساكناً، من طراز قديم، لطيفاً إذا ما قيس بتارا، هو في أمسّ الحاجة، في نظر سكارلت، إلى روائح الرجولة، إلى البراندي والدخان وزيت مكسر[1]، إلى الأصوات الجشاء، والشتائم الدورية، إلى البنادق، إلى اللحى، إلى السروج والأعنّة، إلى الكلاب الضخمة تجثم عند الأقدام. لقد افتقدت هنا الأصوات المتشاجرة، التي كانت تلعلع دائماً في تارا، فحالما تدير إيلين أعطافها كانت مامي تنازل بورك، وروزا تتناكف وتينا، وهي تماحك سولين مماحكة عنيفة، وجيرالد يصرخ متوعداً. لا عجب إذن أن يكون تشارلز رجلاً مخنثاً، وقد تخرّج من بيت كهذا، ففي هذا البيت لا تهبط المفاجآت أبداً ولا ترتفع الأصوات مطلقاً، كل شخص يذعن بلطف لآراء الآخرين، وتكون النتيجة أن يقرر الأسود الشائب، الحاكم المستبد في المطبخ، ما يشاء، حتى سكارلت التي منَّت نفسها بحكم أكثر تحرراً وديمقراطية يوم خلصت من إشراف

---

(1) مدينة في جزر الهند الشرقية شهيرة بزيتها المقوي للشعر - (المترجمان).

مامي، اكتشفت والأسف يبرح قلبها، أن قوانين العم بيتر لسلوك السيدات، خصوصاً لأرملة السيد تشارلز، أشد صرامة من قوانين مامي.

بين أفراد بيت كهذا، ألفت سكارلت نفسها، فارتفعت معنوياتها إلى المستوى الطبيعي حتى قبل أن تتحقق من ذلك. كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط، بصحة ونشاط باهرين، وقد بذل ذوو تشارلز جهدهم المستطاع لإسعادها، فإذا لم يبلغوا الغاية تماماً، لم يكن ذلك ذنبهم، إذ لم يستطع أحد أن ينتزع من قلبها الحسرة التي تخالجه كلما ذكر اسم آشلي وما أكثر ما كانت ميلاني تذكر هذا الاسم! على أن هذه وبيتي لم يكلا في ابتداع الوسائل لتخفيف الألم الذي تعاني وطأته، فوضعا أحزانهما جانباً لتواسياها، وحرصتا على أن تأكل، وعلى أن تنام ساعات القيلولة، وأن تتنزه بالعربة. ولم تفصحا عن إعجابهما الزائد بها، بروحها العالية، بقوامها، بيديها وقدميها الصغيرتين، ببشرتها البيضاء فحسب، بل أيضاً كانتا ترددان ذلك مراراً وهما تدللانها، وتضمّانها إلى صدريهما، وتقبّلانها لتؤكدا لها صدق عباراتهما الودّية.

لم تحفل سكارلت بالدلال، ولكنها انتعشت بعبارات الإعجاب، فلم يطرها أحد يوماً في تارا بمثل هذه الألفاظ الكثيرة الخلابة. والحقيقة أن مامي كانت تقضي وقتها في قمع غرورها.

ثم إن ويد لم يعد عبئاً مزعجاً قط، إذ إن جميع أفراد العائلة، سوداً وبيضاً، والجيران، كلفوا به، فكانت المنافسة مستمرة حول أي حضن سيضمّه. وقد شغفت به ميلاني على الأخص، فكانت حتى في أشد نوبات عويله تجد فيه معبودها، وتصرح بذلك مضيفة: «ها يا عزيزي الغالي، إني أتمنى فقط لو تكون ابني».

بعض الأحيان، كانت سكارلت تستصعب التنكر لأحاسيسها،

فهي ما زالت تعتبر العمة بيتي بات أتفه العجائز، وكان غموضها وهذيانها يضايقانها إلى درجة لا تطاق، وكانت تبغض ميلاني بغضاً حاقداً ينمو مع الأيام، بحيث كانت أحياناً تترك الغرفة فجأة عندما تشرع ميلاني في التحدث عن آشلي وفي قراءة رسائله بصوت مرتفع، وبكبرياء محببة، ولكن على العموم، سارت الحياة هانئة قدر الممكن، في مثل تلك الظروف. كانت أتلانتا أكثر بهجة لها من سافانا وشارلستون وتارا، كان أنها شغلتها بأعمال غريبة عديدة، من ملازمات الحرب، بحيث لم تذر لها وقتاً للتفكير والاكتئاب. على أنها في بعض الأوقات، عندما كانت تطفئ القنديل وتدفن رأسها في الوسادة، كانت تفكر متنهدة: «لو أن آشلي لم يتزوج فقط! لو فقط لم يكن عليّ أن أمرض في ذلك المستشفى الموبوء! آه، لو كان في وسعي فقط أن أنعم بحبيب!».

وسرعان ما عافت التمريض ولم يكن في مقدورها أن تتهرب من هذا الواجب، إذ كانت عضواً في كلا لجنتي السيدة ميد والسيدة ميريويذر، الأمر الذي يعني قضاء أربعة صباحات أسبوعياً داخل المستشفى الكريه الرائحة، المرمض بشدة حرارته، وشعرها معقوص ضمن منشفة، وعليها مئزر يزيد حرارتها ويدثرها من العنق حتى القدمين.

كل سيدة متزوجة في أتلانتا، شابة كانت أو مسنة، كانت تعمل في التمريض، بحماس تراءى لسكارلت قريباً من العصبية الدينية، وكن يعتبرن أن من المسلَّم به كونها مفعمة مثلهن بالحمية الوطنية، ولذا سيدهشن لو عرفن كم ضئيل جداً اهتمامها بالحرب. فعدا عذابها الملازم، الناجم عن احتمال قتل آشلي، لم تكن الحرب لتهمّها البتّة. وببساطة، كانت تقوم بالتمريض لأنها لا تدري كيف تتخلّص منه.

من المؤكد أن التمريض ليس بالأمر الرومانسي، وهو لا يعني

بالنسبة إليها سوى الأنين والهذيان والموت والروائح الكريهة، فقد كانت المستشفيات ملأى بالجرحى القذرين الثملين، كالحشرات، ذوي الروائح المفزعة والجروح الكريهة التي تكفي لقلب معدة مسيحي. جميع المستشفيات تعبق برائحة الغنغرينا التي تغزو منخريها قبل بلوغ الأبواب بمسافة طويلة، رائحة ممرضة تعلق بيديها وشعرها، وتلازمها في أحلامها، وكان الذباب والبعوض والبرغش يحوم متطفلاً مكوناً حشوداً مغنية فوق أجساد الجنود في جميع الأقسام، حشوداً تعذب الرجال فينهالون عليها باللعنات، أو يمضون في النشيج بأنين واهٍ متقطع، وسكارلت تحك موضع لذعات البعوض في جسدها، وتحرك مروحة النخيل حتى تؤلمها كتفاها، فتتمنى لو يموت جميع الرجال.

ومع ذلك، لم يبدُ أن ميلاني كانت تحفل بالروائح أو الجروح أو الأجساد العارية، الأمر الذي استغربته سكارلت، بالنسبة إلى أكثر النساء تهيباً وحياء. على أن هذه كان وجهها يشحب أحياناً، وهي تحمل الطست والأدوات في الوقت الذي يكون فيه الدكتور ميد يقص مواضع الجلد المتآكل. ومرة ألفتها سكارلت إثر إحدى هذه العمليات، في مخزن القطن والشراشف، تتقيأ هادئة في منشفة. ولكن ما دامت على مرأى من الجرحى، كانت لطيفة رقيقة الشعور مرحة، حتى إن رجال المستشفى كانوا يدعونها «ملاك الرحمة». وكانت سكارلت تود أن تظفر بهذا اللقب أيضاً، ولكن ذلك سيورطها بلمس الرجال الذين يسرح القمل في أجسادهم، وبإدخال أصابعها في حلوق المرضى الغائبين عن الوعي لترى إذا كانو قد غصوا وهم يمضغون بلعة من تبغ، وبتضميد قرح ونزع دود من الجلد العفن... لا، إنها لم تكن ترغب في التمريض.

ربما كان التمريض أمراً محمولاً، لو سمح لها باستعمال مفاتنها مع المرضى في دور النقاهة، لأن كثيراً منهم كان جذاباً، كريم

الأصل. ولكن هذا لن تستطيع إتيانه وهي في حالة الترمل، وصبايا المدينة اللواتي لم يسمح لهن بالتمريض خشية رؤيتهن مناظر لا تليق بعيون العذارى، عهد إليهن رعاية الجنود الذين يكون في فترة نقاهة، فكن يقمن بغزواتٍ واسعة بين هؤلاء الجنود دون أن يعرقل نشاطهن زواج أو ترمل، حتى إن أقل الفتيات حسناً وجاذبية لم تجد صعوبة في إتمام خطوبتها، كما لاحظت سكارلت والآهة ملء صدرها.

وإذا استثنينا المرضى الميئوس منهم، والجرحى جراحاً بليغة، ألفينا سكارلت غارقة في دنيا الحريم تماماً، الأمر الذي كان يؤرقها، إذ لم تكن تميل إلى أفراد جنسها أو تثق بهن. وأسوأ من ذلك أنها كانت دائماً تتضايق منهن، ولكنها بعد ظهر كل من ثلاثة أيام في الأسبوع، كان عليها حضور حلقات الخياطة، واجتماع لجان الضمادات، من صديقات ميلاني، فكانت الفتيات اللواتي يعرفن تشارلز لطيفات معها، مراعيات كثيراً لها أثناء هذه الاجتماعات، ولا سيما فاني إلسينغ ومايبل ميريويذر ابنتَي أرملتَي المدينة الجليلتين، غير أنهن كن يعاملنها بإكرام واحترام كما لو كانت امرأة مسنة انتهى دورها. ولقد أثارت ثرثرتهن الدائمة عن الرقص والعشاق حفيظتها، فحسدتهن على هذه المتع واكتظها الغيظ لأن ترملها كان يحول بينها وبين هذه النشاطات. كيف لا، وهي أكثر رواء من فاني ومايبل بثلاث مرات! آه، ما أظلم هذه الدنيا! كم من الجور أن يعتقد كل إنسان أن قلبها في القبر، بينما هو ليس كذلك! إنه أبداً في فرجينيا، مع آشلي!

ورغم جميع هذه المتاعب فقد أعجبتها أتلانتا كثيراً. ولذا طالت مدة زيارتها مع مرّ الأسابيع.

9

جلست سكارلت إلى نافذة مخدعها، في ذلك الصباح من منتصف الصيف، تراقب، وهي كسيرة الخاطر، الشاحنات والعربات، تعجّ بالفتيات والجنود والرقباء، يركبون جذلين، مجتازين شارع بيتشتري بحثاً عن بقعة أرض تزدان بأشجارها، لتقام عليها السوق الخيرية التي سيُرصد ريعها للمستشفيات.

كانت الطريق الحمراء تمتد مرقطة بالأضواء من جرّاء الظلال، بينما تسطع الشمس تحت الأشجار المتعانقة كأقواس النصر، أما حوافر الخيل العديدة، فكانت تثير سحباً من الغبار الأحمر. وقد تقدمت الجميع شاحنة تحمل أربعة زنوج أشداء، بفؤوس لقطع النباتات الدائمة الخضرة وتشذيب عروق الدوالي، وكدس في مؤخرتها زنابيل مغطاة بفوط، وسلال من أغصان السنديان تحوي طعام الغداء، واثنتا عشرة بطيخة. كما جهز اثنان من ظرفاء السود ببانجو وهارمونيكا، فراحا يرددان ترجمة مشوهة للنشيد «إن كنت تبغي وقتاً طيباً فالتحق بالفرسان».

وخلف الشاحنة، انطلق الموكب النشوان: الصبايا بأثواب زاهية خفيفة من القماش القطني المزهر، وبشالات رقيقة، وقبعات وقفافيز لوقاية بشراتهن، ومظلات صغيرات، رفعنها فوق رؤوسهن. والسيدات الأكبر سناً، مستكنات باسمات وسط الأصوات الضاحكة، والتحيات

والفكاهات المتبادلة بين العربات، والمرضى الناقهون قد زجّ كل منهم بين رقيب بدين وفتاة نحيلة، تصخب هي وزميلاتها ويهرجن ويمرجن مع الجنود، والضباط على ظهور الخيل، يتباطأون بمشية السلحفاة، إزاء العربات - العجلات تصر، المهاميز تجلجل، الزراكش المذهبة تتلألأ، المظلات تتهادى، المراوح تحف، والزنوج يغنّون. هكذا كل الناس... اجتازوا طريق بيتشتري ليجمعوا الأزهار والنبات الأخضر وليسعدوا بالنزهة، ويلتهموا البطيخ، «كل الناس» فكرت سكارلت، مغمومة بَرِمة... «إلا أنا».

وحيّاها الجميع ملوّحين لها بأيديهم، وهم يمرون بمحاذاة النافذة، وحاولت هي أن ترد التحية عن طيب خاطر، ولكن ذلك كان عسيراً. لقد طفق يبرح قلبها ألم حاد، راح يزحف بطيئاً نحو حنجرتها، حيث لا يفتأ أن يصبح غصة سرعان ما تنفجر دموعاً، كل إنسان مضى إلى النزهة إلا هي، وكل إنسان سيذهب إلى السوق الخيرية وإلى الرقص هذه الليلة، إلا هي، أي جميع الناس، عدا شخصها وبيتي بات وميلي البائسات في المدينة، اللواتي يرفلن بأثواب الحداد.

بيد أن ميلي وبيتي بات لم تأبها لذلك، كما يبدو، حتى إن الرغبة في الذهاب لم تدر في خلديهما، إنها خطرت لسكارلت فقط، وإنها لتريد الذهاب، وبلهفة جامحة.

لقد حاق الظلم بها، هذا كل ما في الأمر، فهي قد عملت جادة ضعف أي فتاة في المدينة، تهيئ من أجل متطلبات السوق الخيرية، تحيك الجوارب وقبعات الأطفال والشراشف الأفغانية، والشالات، وتخرم ياردات من الدنتلة، وتزخرف بالطلاء دبابيس الشعر الصينية والأكواب المصنوعة بطريقة لا تنزل فيها الشوارب. كما أنها طرزت ستة أغطية لمساند كنبات عليها علم الحلف (كانت النجوم غير متوازية الأضلاع تماماً، أي بالأحرى بعضها كان مستديراً تقريباً، والبعض

الآخر بستة أو سبعة رؤوس زوايا، لكن أثرها كان حسناً)، وفي الأمس ظلت تشتغل حتى خارت قواها، في مستودع أسلحة قديم يعلوه الغبار، تزين الأكشاك المصفوفة بمحاذاة الجدران، بالقماش الأحمر والأخضر والأصفر. وعمل كهذا تحت إشراف لجنة سيدات المستشفى، كان عملاً جلي التعب، دون هزل البتّة، فلن يكون هزل وأنت قريب من السيدة ميريويذر، والسيدة إلسينغ والسيدة ويتنيغ، تأتمر بأمرهن، فيأمرنك كما لو كنت أحد العبيد، وأنت مرغم على سماعهن وهن يتبجحن حول حب الناس لبناتهن. وأسوأ من هذا كله أنها حرقت بثرتين في أصابعها، وهي تساعد بيتي بات وكوكي، أثناء صنع الكعك المطبق من أجل عملية اليانصيب؟

والآن، بعد أن كدحت كعاملة حقل، عليها أن تنزوي محتشمة، بينما ينطلق المرح من عقاله. آه، ليس من العدل أن يكون لها زوج ميت، وطفل يزعق في الغرفة المجاورة، وأن تحرم من كل المتع السارة، فقبيل سنة ونيف كانت ترقص وترتدي الأثواب الزاهية، بدلاً من رداء الحِداد الأسود هذا، وكانت عملياً مخطوبة إلى ثلاثة شبان. إنها الآن في السابعة عشرة وحسب، وما زالت تكمن في قدميها طاقة هائلة للرقص. آه ليس ذلك عدلاً، إن الحياة تمر إزاءها، على طريق صيفي حار مظلل، الحياة ببززها الرمادية ومهاميزها المجلجلة، وفساتينها الأركندية المزهرة، وبالبانجوات تعزف، وحاولت ألّا تبتسم ولا تلوّح بحرارة دافقة للرجال الذين تعرفهم أكثر من الآخرين، الرجال الذين مرّضتهم في المستشفى، ولكن كان من العسير إخضاع غمازتيها، من الصعب أن تبدو كأن قلبها تحت الثرى - في الوقت الذي لم يكن هو كذلك. وفجأة تلاشت انحناءاتها وتلويحتها، عندما دخلت بيتي بات الغرفة، تلهث كعادتها، من جرّاء صعود الدرج، وجذبت سكارلت بعيداً عن النافذة دون كلفة.

- «هل فقدت عقلك يا حلوتي؟ أتلوّحين للرجال من نافذة غرفة نومك؟ لقد ذُهلت يا سكارلت! ماذا ستقول أمك؟».

- «حسناً، ولكنهم لا يعرفون أنها غرفة نومي».

- «ولكنهم سيظنون أنها غرفة نومك، ولهذا النتيجة المؤسفة ذاتها. حلوتي ينبغي ألّا تأتي بأعمال كهذه، كل إنسان سوف يتحدث عنك، ويقول إنك داعرة - وعلى كل حال، السيدة ميريويذر تعرف أنها غرفة نومك».

- «وأظن أنها ستخبر كل الشباب... تلك العجوز الثرثارة».

- «حلوتي، صه! إن دولي ميريويذر أعز صديقاتي».

- «ومع ذلك فهي ثرثارة لا فرق - ها، إني آسفة، عمتي! لا تبكي! نسيت أنها نافذة مخدعي، لن أفعلها ثانية، كنت أود مشاهدتهم فقط، وهم ذاهبون، ليتني أذهب معهم».

- «حلوتي!».

- «نعم ليتني، فقد سئمت جداً من الجلوس في البيت».

- «سكارلت، عديني ألّا تتفوّهي بأمور كهذه، فالناس سيتكلمون عليك، سيقولون إنك لا تكنّين الاحترام الواجب لذكرى تشارلز التعس».

- «آه يا عمتي، لا تبكي يا عمتي!».

- «ها أنا قد سببت بكاءك أيضاً» شهقت بيتي بات بصورة مضحكة، متحسسة المنديل في جيب تنورتها.

كان الألم الخفيف الموجع قد بلغ أخيراً حنجرة سكارلت فانفجرت بالعويل، ليس من أجل المسكين تشارلز كما اعتقدت بيتي بات، ولكن لأن أصوات العربات والضحكات الأخيرة، كانت تغيب بعيداً عنها...

وهرعت ميلاني من غرفتها، وقد قطبت ما بين عينيها بعبوس

الهم، وحملت فرشاة بين يديها، وتهدل على وجهها شعرها الأسود المرتب عادة، حيث تجمعه بجمة متماوجة من الجعدات الصغيرة بعد أن تخلص من شبكته.

- «عزيزتي، ما القضية؟».

- «تشارلي!» شهقت بيتي بات، وقد استسلمت كلية لمتعة نحيبها، ملقية رأسها على كتف ميلي.

- «آه» قالت ميلي، مرتجفة الشفتين عند ذكر اسم شقيقها.

- «تشجعي يا عزيزتي، لا تبكي. آه، سكارلت».

كانت سكارلت قد ارتمت على السرير، وراحت تبكي بأعلى صوتها، تبكي شبابها الضائع وأفراح الشباب التي حرمت منها. تبكي ساخطة قانطة، سخط الطفلة التي كانت يوماً تحصل على ما تريد بواسطة البكاء، ولكنها الآن، تعرف أن البكاء لن يقوى على إنقاذها أبداً. ودفنت رأسها في الوسادة، وهي تندب وترفس الغطاء المثنى بقدميها.

- «إني أفضِّل الموت»... شهقت منفعلة. وكانت بيتي قبيل هذا العرض من الأحزان، قد حبست دموعها السهلة الجريان، ولذلك وثبت ميلي إلى جانب السرير لتواسي زوجة أخيها.

- «عزيزتي، لا تبكي، حاولي أن تفكري كم كان تشارلز يحبك، واجعلي تلك الذكرى عزاء لك، حاولي أن تفكري في طفلك العزيز».

وامتزج سخطها الناجم عن عدم فهم مقصدها، بشعور اليأس لحرمانها كل متع الدنيا، وخنق الغيظ كل محاولة للنطق، كان ذلك من حسن حظها، إذ لو استطاعت النطق، لصرخت عالياً بالحقائق، مصوغة بألفاظ جيرالد السليطة.

ربتت ميلاني على كتفها، بينما استدارت بيتي بات متثاقلة، على رؤوس أصابعها، وأسدلت الستائر.

- «لا تسدليها!» صاحت سكارلت، رافعة عن الوسادة وجهاً أحمر منتفخاً، «فأنا لست ميتة في نظرك لتسدلي الستائر، مع أني قد أكون كذلك، اخرجا واتركاني وحدي».

وهَوَت بوجهها على الوسادة ثانية، بينما تسللت الامرأتان الواقفتان أمامها، خارجاً على رؤوس أصابعهن، إثر مداولة هامسة قصيرة. وفيما هما تهبطان الدرج، سمعت سكارلت ميلاني تخاطب عمتها في صوت خفيض:

- «عمتي، أرجو ألّا تُحدّثيها عن تشارلز، أنت تعلمين كيف يمضّها الحديث عنه دائماً. مخلوقة تعسة، لقد انتابتها تلك النظرة الغريبة، وأنا أعرف أنها تحاول عدم البكاء، ينبغي ألّا نهوّل الأمر عليها».

رفست سكارلت الغطاء الصغير بغضب واهن، محاولة التفكير في شيء سفيه جداً لتنطق به.

- «يا اللّه!» صاحت أخيراً، مستشعرة انجلاء الغمة نوعاً ما، كيف يسع ميلاني أن تقنع بالبقاء في البيت، وأن تحرم نفسها من أي هناء، وأن تتلفع بالنقاب حزناً على أخيها، بينما هي في الثامنة عشرة فقط؟ يظهر أن ميلاني لا تدري أن الحياة قد مرّت راكبة بالقرب منها بمهاميز مجلجلة، أو أنها لا تحفل بذلك.

«ولكنها مجرد لوح خشبي»، فكرت سكارلت، هاوية بيدها على الوسادة، «لا تفتقد الأشياء التي أفتقدها - وعلاوة على ذلك، فقد نالت آشلي وأنا - أنا لم أنل أحداً»، وتلقاء هذه البلية الجديدة، انفجرت بالبكاء ثانية.

ظلت مكتئبة في غرفتها حتى المساء، حيث لم يسر عنها منظر العائدين من النزهة، بشاحناتهم الموسوقة بأغصان الصنوبر والدوالي والخنشار. وقد بدوا تعبين سعداء، وهم يلوّحون لها ثانية، فترد

تحياتهم مغمومة، إن الحياة قضية خائنة، ومن المؤكد أنها لا تستحق أن تعاش.

وجاءها الفرج أخيراً بالصورة التي هي آخر ما تتوقع، عندما قَدِمت إلى البيت، أثناء القيلولة، السيدتان ميريويذر وإلسينغ، فهبّت هي وميلاني وبيتي بات دهشات لهذه الزيارة، في مثل هذه الساعة، وأسرعن يزررن قمصانهن، ويسرحن شعورهن ثم هبطن السلّم إلى الردهة.

- «ألمَّت الحصباء بأطفال السيدة بونل» قالت السيدة ميريويذر، فجأة ومن دون تمهيد، مظهرة بجلاء أنها تحمّل السيدة بونل شخصياً مغبة إفساح المجال لوقوع حادث كهذا.

- «واستدعيت فتيات آل ماكلور إلى فرجينيا» قالت السيدة إلسينغ، بصوتها المتلاشي، وهي تحرك مروحتها بهمة فاترة، كما لو أن هذا الأمر، أو أي أمر آخر، غير ذي بال، «لقد جرح دلاس ماكلور».

- «يا له من نبأ مريع!» نطقت المضيفات معاً، «هل دلاس المسكين...».

- «لا، فقط كتفه» قاطعتهن السيدة ميريويذر على الفور. «على أن ذلك لم يكن ليحدث في وقت أسوأ من هذا، وستسافر الفتاتان إلى الشمال كي يحضرنه إلى البيت، ولكن يشهد اللّه أن ليس لدينا الوقت لنجلس هنا ونتحدث، علينا أن نعود على عجل إلى مستودع السلاح وننجز الزخرفة. بيتي، إننا في حاجة إليك وإلى ميلي الليلة، كي تقوما مقام السيدة بونل وبنات ماكلور».

- «لكن يا دولي، لا يمكننا الذهاب...».

- «لا تقولي لي لا يمكن، يا بيتي بات هاملتون» قالت السيدة ميريويذر بعنف، «نحتاج إليكما لمراقبة الزنوج وهم يقدمون المرطبات،

ذلك ما كانت ستقوم به السيدة بونل. أما أنت يا ميلي فستستلمين كشك بنات ماكلور».

- «لن نستطيع الآن، وقد مضى على وفاة تشارلز المسكين فقط...».

- «أعرف شعوركما، ولكن ليس من تضحية كبيرة إزاء القضية الوطنية»، تدخَّلت السيدة إلسينغ بصوت ناعم لتسوية الأمر.

- «كان بودنا أن نؤازر، لكن، لماذا لا يسعكما إيجاد فتيات ظريفات فاتنات ليستلمن الأكشاك».

فشخرت السيدة ميريويذر شخرة مدوية:

- «لا أدري ما الذي طرأ على الآنسات هذه الأيام، فهن لا يدركن قيمة المسؤولية، كل الفتيات اللواتي لم يتسلمن أكشاكاً حتى الآن، لديهن أعذار كثيرة، أكثر من أن يمكن هز العصا في وجوههن، ها، إنهن لا يخدعنني، إنهن فقط لا يرغبن في أن يحال بينهن وبين مسامرة الضباط، هذا كل ما في الأمر، كما يخشين ألّا تتجلى فساتينهن الجديدة من خلف بسطة الكشك، أتمنى من أجل المصلحة أن يجلب ذلك المهرب - ما اسمه؟».

- «الضابط باتلر» أجابت السيدة إلسينغ.

- «أتمنى لو يكثر من تهريب مواد التمريض، ويقلل من التنانير والدنتلة، فإذا انسقت اليوم إلى التفرج على فستان واحد، فسأضطر عندئذ إلى التفرج على عشرين فستاناً من التي هرّبها الضابط باتلر، إني أعرف اسمه. والآن يا بيتي، لا أملك وقتاً للنقاش، ينبغي قدومك، الجميع سيفهمون وضعك، وعلى كل حال، لن يراك أحد في الغرفة الخلفية، وكذلك ميلي، لن تتعرض للعيان، فكشك بنات ماكلور البائسات بعيد جداً في الطرف، وليس مشوقاً جداً، بحيث لن يلحظك أحد».

- «أظن أن من الواجب أن نذهب»، قالت سكارلت، محاولة كبح لهفتها والاحتفاظ بطابع الجد والبساطة في وجهها، «هذا أقل ما يمكن عمله من أجل المستشفى».

لم تكن أي من الزائرتين قد ذكرت مجرد اسمها، ولذلك التفتتا شاخصتين إليها، فحتى أثناء حاجتهما القصوى، لم تفكرا في الطلب من أرملة، لمّا يمضِ على مصيبتها سنة، أن تظهر في حفل اجتماعي. بيد أن سكارلت قابلت تفرسهما بسحنة الطفل المشدوه.

- «أظن أن من واجبنا الذهاب للمساعدة، كيما نجعلها جميعاً حفلة ناجحة، وأعتقد أن من واجبي أن أكون في الكشك مع ميلي لأن - على كل حال - أظن أنه أفضل لنا، كلتينا، أن نوجد هناك، من أن توجد واحدة فقط، ألا ترتأين ذلك يا ميلي؟».

- «الواقع»، بدأت ميلي مرتبكة، إذ إن فكرة الظهور أمام الجميع في ثوب الحِداد، كانت مستهجنة جداً، بحيث أوقعتها في حيرة.

- «سكارلت على حق» قالت السيدة ميريويذر، وقد لمحت أمائر التراجع، ثم نهضت رافعة أطواق تنورتها إلى موضعها، «كلتاكما، جميعكن ينبغي أن تأتين، والآن، بيتي، لا تسرعي بتقديم الأعذار ثانية، فقط فكري كم يحتاج المستشفى إلى مال، من أجل الأسرَّ الجديدة والعقاقير، وأنا أعرف أن تشارلي يود أن تؤازرا القضية التي مات في سبيلها».

- «حسناً» قالت بيتي بات عاجزة عديمة الحيلة كعادتها تلقاء شخصية أقوى منها، «إذا كنت تعتقدين أن الناس سيفهمون الوضع. . .».

* * *

«رائع! رائع بحيث لا يصدق! رائع! رائع بحيث لا يصدق!» هتف قلب سكارلت المبتهج، وهي تنساب دون عائق، داخل الكشك المزين

بالقماش الأحمر والأصفر، والذي كان من المفروض أن يعهد بإدارته لبنات ماكلور. لقد كانت حقاً في حفلة! بعد عزلة سنة، بعد النقاب والأصوات المكبوتة والإشراف على الجنون، من جرّاء الضجر. إنها حقاً في حفلة، أكبر حفلة شهدتها أتلانتا. وها هي تستطيع رؤية الناس والمصابيح العديدة، وسماع الموسيقى وتملية الطرف من أثواب الدنتلة والكشاكش والمعاطف الجميلة التي اخترق بها الحصار، الضابط الشهير باتلر، في سفرته الأخيرة.

جلست على أحد الكراسي الصغيرة، خلف بسطة الكشك، تجيل نظرها في القاعة الطويلة التي كانت حتى ظهر اليوم غرفة تدريب جرداء عارية، قبيحة المنظر. كم كان على السيدات أن يعملن حتى استطعن أن يصلن بها إلى هذا الشكل الجميل، إنها تبدو رائعة فخمة، لا بد أن تكون جميع شموع وشمعدانات أتلانتا هنا في هذه القاعة هذه الليلة، فكرت سكارلت، إذ كانت فيها شمعدانات فضية ذات شعب كثيرة، وأخرى خزفية تزين قواعدها تماثيل صغيرة، وأخرى نحاسية قديمة، منتصبة جليلة، تعلوها شموع من جميع الأحجام والألوان، تتضوع برائحة الغار، وتتسامى فوق مشاجب البنادق الممتدة على طول القاعة، وفوق المناضد الطويلة المزدانة بالزهور، وعلى رفوف الأكشاك، وحتى على عتبات النوافذ المفتوحة، حيث نسيم الصيف الحار يماوج أضواءها.

في وسط الغرفة، تدلى من السقف، بسلاسل صدئة، المصباح الضخم الزري المنظر، وقد تغير شكله تماماً بما يكتنفه من نبات اللبلاب[1] المتعرج والدوالي البرية التي بدت الآن ذابلة بفعل الحرارة. أما الجدران فكانت مكسوّة بأغصان الصنوبر التي تعبق بأريج عطري،

---

(1) نبات متسلق - (المترجمان).

محولة زوايا الغرفة إلى خمائل ظريفة، حيث تجلس المتزوجات الرقيبات والسيدات المسنات. وفي كل مكان، وضعت ضفائر بديعة من أغصان اللبلاب والكرمة والعشب المغربي[1]، في أكاليل على الجدران، وزخارف فوق النوافذ، وفوق جميع الأكشاك الزاهية بأقمشتها الملونة، ووسط النباتات الخضراء في كل مكان، وعلى الأعلام، وعلى قصاصات أقمشة الزينة، شعّت نجوم الحلف الألاءة.

كانت الدكة المرتفعة المُعدَّة لجلوس الموسيقيين، تتحلى بذوق فني رفيع، وكان يحجبها عن العيان ما كُسيت به من نبات أخضر، وقصاصات قماش الزينة المرصعة بالنجوم. وأدركت سكارلت أن جميع أصص وبراميل الزهور الموجودة في المدينة، قد نُقلت إلى هذه القاعة، من كولوس[2] وجيرانيوم، وأرطاسية، ودفلة، وأذن الفيل. . . حتى شجيرات المطاط، خاصة السيدة إلسينغ، التي تدَّخرها ككنز والتي خصت بمراكز شرف، في زوايا الغرفة الأربع.

وفي طرف القاعة الآخر، مقابل الدكة، عزلت السيدات أنفسهن، وخلفهن على الحائط علقت صورتان كبيرتان لرئيس الحلف ديفيس، ولنائبه ستيفنس، ابن جورجيا البار، حيث يدعى «أليك الصغير». فوق الصورتين ثُبِّت علم ضخم، وتحتهما على مناضد طويلة، وُضعت غنائم حدائق المدينة: خنشار، أكداس من عناقيد الورد الأحمر القرمزي والأصفر والأبيض، غلاديولا ذهبية، باقات من نبات الحرف المختلف الألوان، هوليهوكس ذو الأغصان الطويلة الصلبة، بأطرافها القرمزية القاتمة، ورؤوسها البيضاء المصفرة، التي تعلو جميع الأزهار. وتتخلل هذه الباقات شموعٌ تتوهج مهيبة جليلة كنيران المذبح. كان الوجهان في

---

(1) نبات بيتي متسلق يمتاز بأوراقه الزاهية الدائمة الاخضرار - (المترجمان).
(2) نبات دائم الخضرة، ينبت في الأماكن الحارة - (المترجمان).

الصورتين ينظران إلى أسفل، وجهان مختلفا الملامح، بالقدر الممكن في رجلين يقودان عملاً جباراً كهذا. ديفيس بوجنتيه الأسيلتين، وعينيه الساهمتين الشبيهتين بعينَي الناسك، وقد انطبقت شفتاه الرقيقتان الفخورتان بحزم، وستيفنسن بعينيه السوداوين المتقدتين، الغائرتين في وجه لم يخبر شيئاً إلا المرض والألم اللذين انتصر عليهما بالروح المرحة، والعزيمة النارية، وجهان محبوبان للغاية.

كانت سيدات اللجنة الكبيرات في السن ، الملقاة على عواتقهن مسؤولية السوق الخيرية كلها، يرفلن بأثوابهن كالسفن المجهزة تجهيزاً تاماً، يحثثن السيدات الشابات المتأخرات والصبايا المقهقهات، للإسراع إلى أكشاكهن، ثم ينطلقن خلال الأبواب إلى الغرف الخلفية، حيث وضعت المرطبات، وكانت تجري خلفهن لاهثة، السيدة بيتي بات.

اعتلى الموسيقيون دكّتهم، وكانوا سوداً مبتسمين، وجناتهم البدينة تتلألأ بحبات العرق منذ الآن، ثم شرعوا يدوزنون كمنجاتهم، يمرون بأصابعهم جيئة وذهاباً، ويهزون الأوتار بأقواسهم باهتمام متوقع. وقرع العجوز ليفي، حوذي السيدة ميريويذر، والذي قاد كل الفرق الموسيقية في كل سوق خيرية، وكل حفلة رقص وعرس منذ سمّيت أتلانتا بمارشفيل، قرع آلته، يروم الصمت والانتباه. ولم يكن قد حضر بعد إلا القليل من المدعوين، عدا السيدات اللواتي سيشرفن على السوق، ومع ذلك فقد اتجهت كل العيون نحوه، وشق السكون أصوات الكمنجات والربابات، والأكورديونات والبانجوات، وسلاميات الأيدي، في لحن بطيء لنشيد: «لورينا». لحن بطيء جداً، لا يصلح للرقص، إذ سيأتي الرقص فيما بعد عندما تفرغ الأكشاك من بضائعها. وأحست سكارلت قلبها يزداد وجيبه، فيما يكظها الشجي العذب لنغم الفالس:

«السنين تزحف بطيئة. . . يا لورينا
ها هو الثلج على العشب ثانية.
لقد قاربت الشمس المغيب يا لورينا. . .»
وأخذت تتجاوب في نفسها حركات الفالس:
واحد - اثنان - ثلاثة، واحد - اثنان - ثلاثة، ترنح بميل - ثلاثة، دوران - اثنان - ثلاثة. أي فالس رائع! ومدت يديها قليلاً، وأغمضت عينيها متهادية مع النغم الحزين الذي انتابها. كان هناك شيء حول هذا اللحن المفجع وحول حب لورينا الضائع الذي امتزج بتهيّجها حاملاً الغصة إلى حلقها.

وبعدئذ، كما لو أن الحياة بعثت إلى الوجود بفعل موسيقى الفالس، تعالت الأصوات داخل القاعة، وانبعثت من الشارع الظليل المستنير بضوء القمر، حيث وقع حوافر الخيل، وهدير العجلات، والضحكات يحملها الهواء الدافئ، وزعيق أصوات الزنوج الناعم، يتصادى في نزاع حول الأماكن لربط الخيل. وساد هرج على السلّم، ومرح قلبي، وخليط أصوات الصبايا الجلية بأصوات مرافقيهن الخافتة، وهتاف التحيات الجذل، وزعيق الفتيات الهنيء بلقاء الأصدقاء الذين فارقتهم بعد ظهر ذلك اليوم فقط.

وفجأة ضجّت القاعة بالحياة، غصّت بالصبايا اللواتي انسبن بأثوابهن الزاهية كالفراش، أثوابهن المنتفخة كثيراً والتي تطل من تحتها سراويلهن من الدنتلة، وقد تعرت الأكتاف المستديرة الصغيرة البيضاء، وبان جزء لا يكاد يُذكر من الصدور الناهدة، فوق حاشية الثوب من الدنتلة، وتدلت شالات الدنتلة من السواعد بما ينمّ عن اللامبالاة، وكانت المراوح مزركشة بالبرق، ومطلية، مراوح من زغب الإوز، وريش الطاووس، معلقة بالمعاصم بشرائط مخملية قصيرة، صبايا بشعور سوداء مالت إلى الخلف بكبرياء مهيب، صبايا بلمم من الخصل

الذهبية حول أعناقهن وأشناف ذهبية ذات شراشيب تراقص وتتدافع مع تراقص ضفائرهن، أما ما يلبسن من الدنتلة والحرائر، وتخاريج الزركشة والشرائط، فكانت كلها من مهربات الحصار، الأمر الذي جعلها أثمن قيمة، وأدعى لمباهاة لابسيها، فهي حلي تتبجح بكبرياء بالغة بكونها إهانة إضافية للشماليين.

لا! لم تقدم كل أزهار المدينة باقة تكريم لقائدي الحلف، فإن أصغر الزهور وأشدها عطراً كانت تزين الصبايا، فالورود كانت مدسوسة خلف الآذان المحمرة، والياسمين وبراعم الورود الموضوع في عقود صغيرة مستديرة فوق خصل الشعر الجانبية المتهدلة، والزهور المنورة مغروزة في الأحزمة الحريرية. أزهار لن ينتهي الليل إلا وتجد طريقها إلى جيوب صدور البزز الرمادية، كتذكارات ثمينة غالية.

تخللت الحشد بذلات رمادية كثيرة جداً، يرتدي الكثير منها رجال تعرفهم سكارلت، رجال قابلتهم وهم على أسرّة المستشفى، وفي الشوارع، وساحات التدريب. كانت بذلات بهية، زاهية بأزارها البراقة، مشعة بالشارات الذهبية المجدلة الأردان والقبات، والشرائط الحمراء والصفراء والزرقاء على جوانب السراويل للدلالة على مختلف فروع الخدمة. كل ذلك كان يضيف إلى اللون الرمادي، رونقاً فاتناً، وزيادة على ذلك فقد كانت الأوشحة القرمزية والذهبية تتهادى يمنة ويسرة، وكانت السيوف تتلألأ مصلصلة إزاء الجزمات اللماعة، كما كانت المهاميز تقعقع وتجلجل.

ما أجمل هؤلاء الرجال! هجست سكارلت، وقلبها ينتفخ زهواً، وهم يحيّون بعضهم، ويلوّحون لأصدقائهم، ويبالغون في الانحناء نحو أيدي السيدات المسنات. جميعهم بدوا فتياناً، حتى بشواربهم الصفراء الكثة، ولحاهم الكثيفة، السوداء والبنية. إنهم وسام جداً، مستهترون جداً، سواعدهم في ،رؤوسهم تلفّها الضمادات الناصعة البياض عبر

الوجوه التي لوّحتها الشمس، بعضهم يتكئ على العكاكيز، ورغم ذلك فما كان أعظم كبرياء تلك الفتيات اللواتي كن يخففن من سرعتهن، متوسلات، كي يماشين حجل رفاقهن الجنود.

كان بين البذلات واحدة فقط زاهية مزركشة، كسفت حتى أثواب الفتيات الزاهية، وتجلت بين الحشد كطائر استوائي - بذلة لويزيانية على طراز ملابس أهل مراكش، بسراويل منتفخة مخططة بالأزرق والأبيض، وطماق بيضاء مصغرة، ومعطف أحمر صغير ضيق، يرتديها رجل صغير أسمر ضاحك يبدو كالقرد، ذراعه داخل حمالة سوداء حريرية. إنه عشيق مايبل ميريويذر الخاص: رينيه بيكارد.

لا بدّ أن يكون قد أمَّ المكان جميع نزلاء المستشفى، أو على الأقل، كل من يقوى على المشي منهم، وكل الرجال الذين في إجازاتهم العادية أو المَرَضية، وكل العاملين في السكك الحديد والبريد ودوائر التموين، في المنطقة الممتدة من أتلانتا إلى ميكون. كم ستسر السيدات! فالمستشفى ستدر عليه أموال كثيرة هذه الليلة.

وتعالى قرع الطبول في الشارع، يتخلله وقع الأقدام، وصيحات تهليل الحوذيين. ودوى النفير، وتلاه صوت عميق يأمر الجنود بالتفرق، وما هي إلا هنيهة حتى اهتزت السلالم، وازدحمت القاعة بأصوات الحرس الوطني وجنود الميليشيا ببذلاتهم الزاهية، فأخذوا يتصافحون وينحنون ويحيّون، وكان في صفوف الحرس الوطني شبان فخورون بالدور الذي يقومون به في الحرب، يمنّون النفس بأن يكونوا في فرجينيا في مثل هذا الوقت من السنة القادمة، إذا ما قُدِّر للحرب أن تستمر هذه المدة الطويلة، وكان إلى جانب هؤلاء رجال مسنون بلحى بيضاء، يتمنّون لو كانوا أصغر سناً، يطأون الأرض فخورين ببززهم العسكرية، وقد انعكست على وجوههم أمجاد أبنائهم الذين في الجبهة. أما في عداد الميليشيا فكان رجال متوسطو العمر، وآخرون

متقدمون في السن، ولكن بينهم زمرة رائعة من الرجال الذين هم في سن الجندية، والذين لم يهزهم المرح، ويحدوهم النشاط كأولئك الذين يكبرونهم أو يصغرونهم، ولذلك راح الناس يهمسون متسائلين عن عدم التحاقهم بالقائد لي.

كيف ستنتظم جميع هذه الحشود داخل القاعة؟ لدقائق مضت بدا المكان فسيحاً واسعاً، ولكنه الآن مكتظ، عابق بروائح ليالي الصيف، من حقائب الطيب والكولونيا وزيوت الشعر وشموع الغار المضمّخة بأريج الأزهار، المغبرة قليلاً جرّاء وقع الأقدام الكثيرة فوق أرض قاعة التدريب القديمة، وقد علت الضوضاء، وعمّ الهرج، بحيث تعذَّر سماع شيء، وكأن ليفي العجوز، وقد أحس بجمال الأمسية وروعتها، قطع أغنية «لورينا» قارعاً قوسه بعنف، مرنماً أنشودة الحياة العزيزة، لتتبعه الأوركسترا في نشيد «العلم الأزرق الخفاق».

واشتركت مئات الأصوات في النشيد، تغنّيه وتهتف به هتافاً، وتسلَّق نافخ البوق، التابع للحرس الوطني، تسلَّق المنبر واشترك في العزف منذ بدايته، فدوَّت أنغام بوقه الفضي زائرة تبزّ غناء الجميع فتعتري السواعد العارية رجفات مفاجئة، وتنتاب الأجساد قشعريرة العواطف المضطرمة المتأججة:

«مرحى، مرحى، لحقوق الجنوبيين مرحى.
مرحى للعلم الأزرق الخفاق
المرصع بنجمة واحدة!»

وانطلقوا يهزجون مقطوعة النشيد الثانية، وسمعت سكارلت، وهي تنشد مع الباقين، اللحن العذب الشجي، ترنّمه ميلاني خلفها، لحناً نقياً صادقاً، يتجاوب مع أنغام البوق. وعندما التفتت رأتها تقف ويداها متشابكتان فوق صدرها، وقد أغمضت عينيها اللتين راحت الدموع الرقيقة تسبح من مؤقيهما. وما إن توقف العزف حتى ابتسمت

في وجه سكارلت ابتسامة خيالية حالمة، مزوية ما بين ناظريها في تعبير اعتذراي، وهي تكفكف دمعها بمنديلها.

- «إني سعيدة جداً» همست، «وفخورة جداً بهؤلاء الجنود، بحيث إنني لم أستطع حبس دموعي».

وومضت عيناها بوهج عميق حاد، أضاء وجهها فأشرق جميلاً خلال هنيهة قصيرة.

وبدت هذه الإشراقة ذاتها على وجوه جميع السيدات، عندما انتهى العزف، فغدت دموع الكبرياء تسيل على الوجنات الموردة والمغضنة، والابتسامات تحلي الثغور، ولازم وميض دافئ عميق عيون النسوة وهنّ يلتفتن إلى رجالهن. الصبايا الفاتنات إلى محبيهن، والأمهات إلى أبنائهن، والزوجات إلى أزواجهن، وعلى وجوه الجميع تألقت مسحة الجمال الغرار، الذي يرفع من معنويات أقل النساء رواء حينما تحب، فتردّ على ذلك الحب بحب يفوقه ألف ضعف.

كنَّ يحببن رجالهن ويثقن بهم حتى الرمق الأخير من حياتهن، فكيف يمكن أن تطيح الكارثة بنساء كهؤلاء، في الوقت الذي يقف صف من الرجال الشجعان ببذلاتهم الرمادية يذبّون عنهن غوائل الشماليين؟؟ هل رأت الدنيا يوماً رجالاً كهؤلاء، منذ فجر التاريخ؟ رجالاً بهذه الوطنية، بهذه الشهامة، بهذا الاندفاع، وبهذا الحماس؟ وكيف يمكن لغير النصر المظفر أن يتوج قضية عادلة حقة كقضية هؤلاء النساء؟ قضية يحببنها بقدر ما يحببن رجالهن، قضية يخدمنها بأيديهن وقلوبهن، قضية يتحدثن عنها، يفكرن بها ويحلمن - قضية يمكن أن يضحين في سبيلها بهؤلاء الرجال، رجالهن، إذا ما احتاج الأمر، ويتحملن مصائبهن بفخر، كما يزدهي الرجال بحمل أعلام المعركة.

كانت قلوبهن تزخر بدفق من الولاء والفخر الجيّاش، دفق جيّاش منبعث من قضية الحلف، فالنصر النهائي أصبح قاب قوسين أو أدنى،

وانتصارات ستونوول جاكسون في الوادي[1] وهزيمة الشماليين في معركة الأيام السبعة، تؤكد بجلاء، وكيف يمكن ألّا يكون الأمر كذلك والقيادة بأيدي رجال مثل لي وجاكسون؟ انتصار آخر ويركع الشماليون، يجأرون للسلم، ويعود الرجال إلى بيوتهم، وتستشري القبل، ويشيع الضحك، انتصار آخر وتنتهي الحرب.

بالطبع، كانت هناك مقاعد شاغرة، وأطفال لن يروا وجوه آبائهم بعد اليوم، وقبور مجهولة الهوية بجانب نهيرات فرجينيا المنعزلة وفي جبال تنيسي الصامتة، ولكن، أكان ذلك ثمناً باهظاً لقضية كهذه؟ لقد أضحى الحصول على الحرير للسيدات، وعلى الشاي والسكّر، أمراً عسيراً، ولكن هذا كان مجرد مدعاة للتسلية. فضلاً عن أن مخترقي الحصار الأشاوس كانوا يهرّبون حتى هذه الأشياء، رغم أنف الشماليين الساخطين، الأمر الذي جعل اقتناء هذه الحاجات، أدعى للمسرّة، وأبهج للنفس، أضعاف المرات.

وفي القريب العاجل، سيتفرغ رفائيل سيميس وأسطول الحلف لزوراق الشماليين الحربية تلك، عندئذ تفتح الموانئ مرافئها للعمل. كما أن إنكلترا قادمة لنجدة الجنوب كيما يربح الحرب، لأن مصانع النسيج الإنجليزية قد شُلَّت عن العمل بسبب حاجتها إلى أقطان الحلف، ومن الطبيعي أن تساند الأرستقراطية البريطانية الجنوب كما يساند الأرستقراطي زميله ضد عنصر من عبدة الدولار كأهل الشمال.

وهكذا رفلت النساء بأثوابهن الحريرية، ضاحكات، متطلعات إلى رجالهن بقلوب تفعمها الكبرياء، مدركات أن الحب المنتزع من بين براثن الخطر والموت ذو لذة مضاعفة نظراً إلى ما يصاحبه من لهفة مثيرة.

---

(1) منطقة في بنسلفانيا - (المترجمان).

عندما تأملت سكارلت الجمهور للمرة الأولى، خفق قلبها بالفرحة غير المعتادة، لكونها في حفلة، ولكن ما إن رأت، وهي نصف مدركة، أمائر المعنويات المرتفعة تشع من الوجوه حولها، حتى بدأت فرحتها تخبو، وأخذ مرحها يتبدد. كل امرأة في القاعة تتقد بعاطفة لم تتحسّسها هي، واستبدت بها الحيرة، وتكدرت. إن القاعة، لسبب ما، لا تبدو بهيجة، ولا البنات جذلات، وحرارة التضحية الخالصة من أجل القضية، التي لا تزال تتوهج في كل الوجوه، تراءت - تراءت حقاً مجرد غباوة تافهة، مجرد حمق أرعن.

وفجأة، إثر ومضة من الاستنتاج الذاتي، فغرت فاهها مشدوهة. لقد أدركت أنها لم تشارك هؤلاء النسوة فخرهن الدافق ورغبتهن في التضحية بأنفسهن، وبكل ما يملكن، في سبيل القضية. وقبل أن يسوقها الرعب إلى التفكير في أنها لا ينبغي أن تفكر في مثل هذه الأمور الخاطئة الأثيمة، أيقنت أن القضية لا تعني لها شيئاً، وأنها مستاءة من جرّاء سماع الناس الآخرين يتحدثون عنها وعيونهم تتوهج بالتعصب، فالقضية لا تبدو مقدسة في نظرها، والحرب لا يظهر أمرها قدسياً، وإنما هي بدعة تؤول إلى قتل الرجال دون وعي، وبذر المال، وتعسير الحصول على أدوات الرفاه. وأحست أنها سئمت من الخياطة اللانهائية ومن لف الضمادات الأبدي، وتنقية نسالة الكتان التي تخشن بشرة أناملها، وشعرت أنها تعبة جداً من المستشفى! تعبة مرمضة، لاعية النفس من رائحة الغنغرينا السقيمة، ومن الأنين الدائم، فزعة من سحنة الموت تكسو الوجوه الغائرة.

وبينما كانت الأفكار الخائنة الكافرة تتدافع في رأسها، اختلست النظر حولها خشية أن يكون قد قُيِّض لأحد أن يقرأها واضحة في وجهها. آه، لماذا لا تستطيع هي الإحساس بمثل ما تحسّه أولئك السيدات الأخريات؟ إنهن مندفعات بقلوبهن، مخلصات في تضحيتهن

من أجل القضية، إنهن في الحقيقة يعنين كل شيء يقلنه أو يفعلنه. وإذا ما اتفق أن ارتاب أحد بأنها... لا، ينبغي ألّا يعرف أحد... ينبغي أن تستمر متظاهرة بالحماس والفخر بالقضية... التي عجزت عن الشعور بوجودها، تمثل دورها كأرملة ضابط في جيش الحلف، تحمل آلامها بشجاعة، وقلبها في القبر، مستشعرة أن وفاة زوجها ليست بذات بال، ما دامت وقعت لتأييد قضية النصر.

آه، لماذا تختلف هي عن الأخريات، تنفرد عن هؤلاء النسوة المحبات؟ إنها لا تستطيع البتّة أن تحب أي شيء، أو أي شخص، هكذا، كما يفعلن، دون أن تكون لها مصلحة ذاتية.

أي شعور انعزالي شعورها هذا - وهي التي لم تكن يوماً منعزلة، سواء في الجسد أو الروح. وحاولت في البدء أن تبعد عن نفسها هذه الأفكار ولكن إخلاصها لذاتها القابع في صلب طبيعتها، لم يدعها تفعل ذلك، وهكذا بينما السوق الخيرية قائمة، وبينما هي وميلاني تخدمان الزبائن الذين يقدمون إلى كشكهما، كان عقلها ذائب في التفكير، يحاول تبرير موقفها أمام نفسها - المهمة التي نادراً ما ألفتها صعبة عسيرة.

النساء الأخريات كن، بصراحة، حمقاوات، عصبيات في أحاديثهن، والرجال كانوا غالباً مسرفين فيما يتشدقون به عن القضايا الحيوية، وحقوق الولايات، أما هي، سكارلت أوهارا هاملتون، فكانت الوحيدة التي تنعم بإدراك إيرلندي سليم عنيد، ولن تجعل من شخصها هزأة فيما يتعلق بالقضية، وكذلك لن تجعل من نفسها مثلة أيضاً بإعلان حقيقة شعورها.

لقد كانت عنيدة جداً بحيث لم تتجاوب والحالة العامة، ولن يستطيع أحد معرفة شعورها. إن الدهشة ستُجفل جميع من في السوق لو قُدِّر لهم اكتشاف حقيقة ما يدور في خلدها. كم سيصعقون لو أنها

اعتلت فجأة منصة الموسيقى، وأعلنت أن الحرب يجب أن تنتهي، كيما يتمكن كل إنسان من العودة إلى بيته، والاهتمام بقطنه، وعندئذ يمكن إحياء الحفلات، وإيجاد الأحباب ثانية، والعديد من الفساتين الخضراء الفاتحة.

ولهنيهة، ارتاحت لهذا التبرير النفسي، ولكنها ظلت تنظر إلى من حولها بنفور. كان كشك بنات ماكلور بعيداً عن العيان، كما وصفته السيدة ميريويذر، وكانت تتصرم فترات طويلة دون أن يأتي أحد إلى زاويتها، ولذلك لم يكن لدى سكارلت ما تفعله إلا النظر بعين الحسد إلى الجموع النشوانة. وقد أحست ميلاني بكآبتها، ولكنها عزت ذلك إلى شوقها لتشارلي، ولذا لم تجرب إلهاءها بالحديث، بل انهمكت في تنسيق محتويات الكشك، في عرض أكثر لفتاً للأنظار، بينما جلست سكارلت تسرح طرفها في القاعة، نكدة عابسة، حتى الأزهار المكدسة تحت صورتي السيد ديفيس والسيد ستيفنس، كانت تثير سخطها.

- «يبدو كأنه مذبح»، ندت العبارة من صدرها، متنفسة الصعداء، «وإن الطريقة التي تحدث بها الجميع عن هذين الشخصين تبدو كأنهما مقدَّسان».

ثم استحوذ عليها فزع فجائي، من جرّاء تماديها القبيح، فطفقت ترسم الصليب على نفسها معتذرة تائبة، واستعادت أباديد جأشها في الوقت المناسب:

«ولكنها حقيقة»، حدّثت نفسها، «كل إنسان يتحدث كما لو كانا مقدسين، وهما ليسا إلا رجلين، ورجلين غير جذابين البتّة».

بالطبع، لا يكترث السيد ستيفنس لحقيقة مظهره، لأنه كان رجلاً عليلاً سقيماً طوال حياته، ولكن السيد ديفيس - ورنت إلى الوجه الفخور النقي كالجوهرة، إن لحيته الصغيرة تكظها أكثر من كل شيء

آخر، فالرجال في رأيها إما أن يحلقوا تماماً أو أن يكونوا ذوي شوارب ولحى كثة.

«تلك المذبة الصغيرة تبدو كأنها أفضل ما يستطيع عمله»، فكرت سكارلت دون أن تستشف الذكاء الحاد الثابت الذي يطالعك به وجهه، والذي يحمل عبء ميلاد أمة جديدة.

لا، إنها ليست سعيدة الآن، وقد طفح وجهها سروراً بادئ الأمر، لوجودها في الحفلة، ولكن أن توجد فقط أمرٌ لا يُشبع نهمها. إنها في الحفلة، ولكن ليست جزءاً منها. ليس من يعيرها التفاتة، وهي المرأة الشابة الوحيدة غير المتزوجة التي لم تحظَ بعشيق، في الوقت الذي نعمت طوال أيامها الماضية بمركز الشرف في كل حفل... ليس ذلك عدلاً... إنها في السابعة عشرة من عمرها وقدماها تضربان الأرض تريدان أن ترقصا وأن تقفزا، إنها في السابعة عشرة من عمرها وزوجها أمسى تحت الثرى في مقبرة أوكلاند، وطفلها في المهد في منزل العمة بيتي بات، والجميع يعتقدون أنها لا بدّ قانعة بنصيبها. إن لها صدراً أنصع بياضاً، وخصراً أشد ضموراً، وقدمين أصغر، مما لأي فتاة أخرى في الحفل. ولكن، رغم كل ما لهذا من قيمة وأثر، كانت تحس كما لو أنها مسجاة إلى جانب تشارلز، وقد حفر على شاخص قبرها: «زوجة تشارلز الحبيبة».

لم تكن بنتاً فتستطيع الرقص والغزل، ولم تكن الزوجة التي يسعها الجلوس مع باقي الزوجات وانتقاد الصبايا الراقصات الغزلات، ولم تكن طاعنة في السن حتى تغدو أرملة، فالأرامل ينبغي أن يكنّ سمينات - مسنّات للغاية، بحيث ينفرن من الرقص، وما يتبع ذلك من عبارات الإعجاب. آه، ليس من العدل أن تضطر هي للجلوس هنا، متزمّتة متصنعة الجد، تمثل قمة الوقار والحشمة الثكلى، ولمّا تتخطَّ السابعة عشرة من العمر! ليس من العدل أن تُحمل على خفض صوتها وغضّ

بصرها بانكسار عندما يأتي الرجال - الرجال الجذابون أيضاً - إلى كشكها.

كل فتاة في أتلانتا كانت غارقة حتى أذنيها في علاقاتها مع الرجال، وحتى أفقرهن إلى الجمال كانت ماضية في الغزل كالحسناء - وأسوأ ما في البلية، أنها تتعاطى الغزل بفستان بديع، بديع جداً.

أما هي، فإنها تجلس هنا كالغراب، بثوب التفتا الأسود الحار، يتدلى إلى معصميها، مزرراً إلى تحت ذقنها، خالياً من كل زخرف بالدنتلة أو التطريز، ولا مصاغ عدا دبوس حِداد إيلين العقيقي. إنها هنا تتأمل الفتيات الدميمات، يتعلقن بأذرع الرجال البهيّي الطلعة، كل ذلك لأن تشارلز هاملتون قد دهمته الحصباء، وهو أيضاً، لم يقضِ في عمل بطولة خارقة، في غمرة المعركة، كيما تستطيع التفاخر بالحديث عنه.

واتكأت بمرفقيها على بسطة الكشك، وقد عصفت الثورة بكيانها فلم تبالِ بأوامر مامي المشددة، المكررة أبداً، والمحذرة من الاتكاء على المرفقين، حفاظاً عليهما من التغضن والقبح. وماذا لو أذراهما التغضن؟ ليس من المحتمل أن تحظى بفرصة عرضهما ثانية. وشخصت جوعى إلى الأثواب الرافلة حولها، حرائر صفراء متماوجة، مزدانة بعقود الورود، سنان أحمر بثماني عشرة ثنية مطرفة بشرائط مخملية سوداء أنيقة، تفتا زرقاء مرقشة، كل تنورة منها عشر ياردات، تنتهي بدنتلة فضفاضة، صدور عارية، أزهار مغرية. ومرّت مايبل ميريويذر نحو الكشك المجاور، متأبطة ذراع الزواف، مرّت في ثوب من التارلتان الأخضر، فضفاض جداً، بحيث غيب كل أثر لخصرها، كان مرقطاً ومطرفاً بدنتلة صفراء من صنع مدينة شانتلي[1]، جُلبت من شارلستون في آخر حملة تهريب، وكانت مايبل تتبختر به متبجحة، كأنها هي التي حملته رغم الحصار، لا الكابتن باتلر الشهير.

---

(1) مدينة في شمال فرنسا شهيرة بصنع الدنتلة - (المترجمان).

«أي حُسن ورواء قد يزيّنني في ذلك الثوب»، هجست سكارلت، وقلبها يضطرم بحسد ضارٍ، «خصرها غليظ كخصر البقرة، ذلك اللون الأخضر هو لوني الخاص ذاته، وسيظهر عيني بمظهر. . . لماذا ترتدي الشقراوات ذلك اللون؟ إن بشرتها تبدو خضراء كالجبن العفن. ولكن، لأحسب إني لن أرتدي ذلك اللون ثانية، حتى ولا عندما أنفض عني ثوب الحِداد، لا، حتى ولو فزت بالزواج ثانية، فعندئذ، لا بد لي من التدثر بالأردية القديمة: الرمادية الرثة، والحمراء القانية، والبنفسجية الفاتحة».

وتأملت خلال هنيهة قصيرة فداحة الظلم النازل بها، ما كان أقصر وقت اللهو عندك! وقت الثياب الزاهية، والرقص والدلال والغنج، فقط سنين قليلة، قليلة جداً، ثم تزوجت واتشحت بالثوب الباهت، وولدت طفلاً أفسد رواء خصرك وقبعت في الزوايا، برفقة المتزوجات الوقورات، بينما الجميع يرقصون أمامك، ولا تتقدمين لتراقصي بعلك فقط، أو السادة المسنين الذين يضغطون على قدمك، وإذا لم تتبعي هذه الخطوات، تتحدث سائر المتزوجات عنك، وعندئذ تهوي سمعتك إلى الحضيض، وعائلتك إلى درك الفضيحة. إن الأمر يبدو ضياعاً مخيفاً، أن تتصرم جميع فترة صباك القصيرة في تعلُّم أساليب الفتنة وفنون صيد الرجال ثم لا تستغلين خبرتك هذه إلا خلال سنة أو سنتين وحسب.

وعندما تبصرت فنون تدربها على أيدي إيلين ومامي، أدركت أنها تدريبات متقنة محكمة، فدائماً جنت الثمار بفعلها.

إن هناك قواعد ثابتة، يجب اتباعها، وإذا ما سرت على هديها، فسيكلل النجاح جهودك.

مع السيدات المسنات، ينبغي لك أن تكوني مرنة عذبة صادقة، تتكلفين مظهر السذاجة بالقدر الممكن، لأن هؤلاء أريبات، يراقبن

الصبايا بعيون الحسد كالقطط وهنّ على أتم استعداد ليشرعن ألسنتهن عند أي بادرة طيش تبدو من اللسان أو العين.

مع السادة المسنين، ينبغي للفتاة أن تكون وقحة، سليطة، مغناجة إلى حد كبير، وليس إلى الحد الأقصى، ذلك كي تدغدغ غرور أولئك البلهاء، إذ سيستشعرون مهارتهم وشبابهم، فيقرصون وجنتها معلنين أنها صبية خليعة، وبالطبع ينبغي أن يتخضب وجهها خجلاً في كل المناسبات، وإلا فسيقرصونها بلذة تتعدى الأصول الواجبة، وعندها يخبرون أبناءهم أنها داعرة ماجنة.

مع الصبايا العزباوات والمتزوجات، ينبغي أن تفيضي عذوبة، وتقبّليهن في كل مرة تقابلينهن، حتى لو التقيت بهن عشر مرات يومياً، ثم أن تحيطيهن بذراعيك، وتضغطي كثيراً إلى أن يبادلنك التحية بمثلها، مهما كنت تمقتين هذا الأسلوب. أطري ملابسهن أو أطفالهن دون تمييز، وتأففي من العشاق ومن الأزواج المعجبين، وقرقري بتواضع، وانكري أن تكوني على شيء من السحر والجمال، إذ قورنت بفتنتهن، وفوق كل شيء، عليك أن لا تفصحي عن حقيقة ما تفكرين فيه في أية قضية، زيادة على ما قلنه عنها.

كما ينبغي أن تتحاشي بصرامة أزواج النساء الأخريات، حتى لو كانوا من المدلهين المولعين بك، المنبوذين من قِبلك، لا فرق أكانوا على جانب عظيم من المَلاحة والوسامة أم لم يكونوا، لأنك إن بالغت في الرقّة مع الأزواج الشبان فستتهمك نساؤهم بالمجون، وستشين سُمعتك، ولن يُقيَّض لك بعد ذلك، نَيْل محب واحد.

ولكن مع العزّاب الشباب - ها! إن الأمر يختلف هنا، في وسعك الضحك برقة عليهم، وعندما يهرعون نحوك، مستوضحين سبب الضحك، في مقدورك الامتناع عن إخبارهم، والاستغراق في قرقرة أقوى، وإبقاؤهم حولك، تتقاذفهم الظنون بحثاً عن الحقيقة.

في وسعك أن تجسدي في عينيك كثيراً من المعاني المثيرة، التي تجعل الرجل يناور كيما ينفرد بك، وعندما يتم ذلك، في مقدورك أن تتصنّعي الألم المبرح، أو تفتعلي الغضب الشديد عندما يحاول تقبيلك. في إمكانك أن تحمليه على الاعتذار لواقحته، ثم تصفحين عنه بنهج عذب جداً، بحيث يتدله بك مشدوهاً مبهوراً، ويحاول تقبيلك ثانية، فتتركينه يفعل ذلك أحياناً، ولكن ليس في أكثر المرات، (لم تعلّمها إيلين ومامي ذلك، ولكنها كنهت سر فعالية هذه الطريقة وتأثيرها)، ثم تسفحين الدمع معلنة أنك لا تدرين هذا الذي اعتراك، وأنه لن يسعه احترامك بعد اليوم، وعندها سينقاد لتجفيف دموعك، وعادة لمفاتحتك في موضوع الزواج، ليثبت مدى ما يكنّه لك من احترام فائق. هذا وتوجد - توجد أمور كثيرة جداً لتأتيها مع العزّاب، أمور تلمّ بها سكارلت جميعاً: التفنن في النظرة الجانبية، الابتسامة الخفيفة من خلف المروحة، التمايل بالردفين بحيث تتهادى التنورة كالجرس، الدموع، الضحك، التملق، الحنو الرضي، آه، كل البدع والخدع التي لم تفشل يوماً في إيتاء أُكلها - إلا مع آشلي.

لا، ليس من الصواب أن تتعلم الفتاة كل هذه الأساليب الكيسة لتستعملها خلال فترة قصيرة جداً، ومن ثم تنبذها إلى الأبد. ما أروع أن لا تتزوج الفتاة أبداً، بل تظل جذابة محبوبة رافلة بالأثواب الخضراء الزاهية، يغازلها الرجال الوسام حتى النهاية، ولكن، إذا ما استمررت كذلك ردحاً مديداً، فستدرك العنوسة، وتضحين كإنديا ويلكس، يقول عنك كل من رآك مشفقاً، وبتلك اللهجة الممضة المغرورة: «أي مخلوقة تعسة!». لا، فالزواج على كل حال، والحفاظ على الكرامة الشخصية، حتى مع الحرمان من لهو الحياة أفضل من العنوسة.

آه، أي حياة تائهة ضالّة كانت حياتها! لماذا اختلط عقلها

فتزوجت تشارلز هاملتون من بين جميع الناس، لتنتهي حياتها وهي لا تزال في السادسة عشرة من العمر؟

وأفاقت من هواجس النقمة والقنوط، عندما راح الجمهور يتدافع إلى الخلف نحو الجدران، وانتشلت السيدات أطواق تنانيرهن، حريصات على أن لا يفسحن المجال لأي تماسّ عرضي يمكن أن يكشف عن سراويلهن مقداراً يتجاوز الحد اللائق. ووقفت سكارلت على رؤوس أصابعها، فرأت قائد الميليشيا يعتلي دكة الموسيقيين ثم يصدر أوامره، فيصطف نصف جنود الفرقة، ويقومون لدقائق معدودة، بحركات تدريبية رشيقة، فصدت بالعرق جباههم، وانتزعت التصفيق والهتاف من الحضور. وامتثلت سكارلت لداعي التصفيق، فشاركت الآخرين، وعندما افرنقع الجنود، واتجهوا إلى أكشاك الخمرة والعصير، استدارت إلى ميلاني، مدركة أن من الأفضل لها أن تبدأ بالسرعة الممكنة، في حديثها الزائف الغرار حول القضية الوطنية، قالت:

- «إنهم يبدون رائعي المنظر، أليس كذلك؟».

وكانت ميلاني مكبَّة على تنسيق الأدوات المحيكة فوق بسطة الكشك، «معظمهم سيبدون أروع بكثير، في البزز الرمادية، وفي فرجينيا»، أجابت دون أن تكلف نفسها عناء خفض صوتها.

وكان يقف بالقرب منهما عدد من أمهات جنود الميليشيا، فسمعن ملاحظتها، وتخضَّب وجه السيدة جونان ثم غاض شاحباً، إذ إن ولدها ويلي، البالغ خمسة وعشرين ربيعاً، كان في عداد جنود الفرقة.

شدهت سكارلت بهذه الكلمات تخرج من فم ميلي عن جميع الناس.

- «ميلي!»

- «أنت تعرفين أن ذلك أمر حقيقي يا سكارلت، فأنا لا أعني

الشبان الصغار، والسادة الكبار، ولكن العديد من أعضاء الميليشيا قادرون كل القدرة على تنكُّب البنادق، وهذا ما كان ينبغي أن يفعلوه، هذه الدقيقة».

- «ولكن. . . ولكن»، طفقت سكارلت التي لم يتفق لها التفكير في المسألة قبلاً، «بعض الناس مضطرون إلى البقاء في منازلهم لـ. . . » ما ذلك الذي كان ويلي جونان قد قاله لها مبرراً بقاءه في أتلانتا؟ «بعض الناس مضطرون إلى البقاء في منازلهم لحماية الولاية من الغزو».

- «لا يوجد غزاة الآن، ولن يقدم أحد على ذلك»، قالت ميلي ببرود، متطلعة نحو جماعة من جنود الميليشيا، «وأفضل الطرق لدفع الغزاة، هي الذهاب إلى فرجينيا ودحر الشماليين هناك. وأما بصدد كل ما يقال من أن الميليشيا باقية هنا لمنع العبيد - فهذا أسخف ما سمعت في حياتي. لماذا يتوجب على شعبنا أن يثور؟ إنه مجرد عذر رضي للجبناء. إني أراهن أن في مقدورنا سحق جنود الشمال في مدّة شهر لو أن جميع فرق الميليشيا في جميع الولايات ذهبت إلى فرجينيا - نعم إلى هنالك!».

- «ما هذا الذي تقولينه يا ميلي!» صاحت سكارلت ثانية جاحظة العينين.

وبرقت عينا ميلي السوداوان الدافئتان بوميض الغضب:

- «زوجي لم يخشَ الذهاب، وكذلك زوجك! وإني أفضل أن يموت الاثنان على أن يبقيا هنا. . . آه يا عزيزتي، إني آسفة، أي طيش وقساوة، هذا الذي بدر مني».

وربتت على ذراع سكارلت باستعطاف، بينما كانت هذه شاخصة إليها. غير أنها لم تكن تفكر في تشارلز المتوفي، ولكن في آشلي، لعله قضى أيضاً؟ واستدارت على عجل، وافترَّ ثغرها بابتسامة آلية، عندما وصل إلى كشكها الدكتور ميد.

- «مرحباً يا بنيتي»، حيّاهما، «جميل منكما أن تأتيا، إني أقدّر عظم التضحية التي أقدمتما عليها بمجيئكما هذه الليلة، ولكن كل ذلك في سبيل القضية. سأفشي لكما بسر، لدي طريقة مفاجئة مدهشة، لجمع نقود أكثر هذه الليلة من أجل المستشفى، ولكن أخشى أن تصدم بعض السيدات بفعلها».

وانفرج فمه بضحكة فاترة، وهو يجبذ لحيته الصغيرة الشائبة.

- «ها، ماذا؟ أخبرنا!».

- «بإعادة التفكير، ارتأيت أن أدعكما تتكهنان عن ماهيتها، أيضاً. ولكن عليكما أيتها الفتاتان أن تساندانني إذا ما قرر أعضاء الكنيسة إخراجي من المدينة، لتنفيذي إياها. وعلى كل حال، إنها من أجل المستشفى. ستريان، لم يجرِ مثيل لها من قبل».

ومشى بوقار، قاصداً عصبة من الرقيبات المتزوجات، يجلسن في إحدى الزوايا. وعندما استدارت الفتاتان نحو بعضهما، تتدارسان ما يحتمل أن يكونه السر، قرع رجلان مسنّان على البسطة، معلنين بصوت مرتفع، أنهما يريدان كمية كبيرة من المخرَّمات... حسناً، على كل حال، رجال مسنون أفضل من لا رجال البتّة، هجست سكارلت وهي تقيس المخرَّمات راضية باحتشام أن يربت تحت ذقنها. وابتعد العجوزان الجريئان نحو كشك العصير ليجيء محلهما آخرون. كان إقبال الزبائن على كشكهما قليلاً إذا ما قيس بالأكشاك الأخرى، حيث تتصادى قهقهات مايبل ميريويذر وفاني إلسينغ، وحيث تضفي أجوبة بنات ويتينغ، السريعة الخاطر، جواً مرحاً.

كانت ميلي تبيع أدوات عديمة الجدوى بالنسبة إلى الرجال، الذين لا يسعهم الاستفادة منها، تبيعهم بالأسلوب الهادئ الرصين الذي يعتمده صاحب الدكان، وكانت سكارلت تقلد أسلوب ميلي.

وتجمهر الناس أمام جميع بسطات الأكشاك الأخرى، إلا

بسطتهما: البنات يهذين، والرجال يشترون، وأما القلة التي ابتاعت منهما، فكانت تتحدث عن ذهابها إلى الجامعة مع آشلي، وعن كونه جندياً عظيماً، أو تتفوّه بعبارات رقيقة خاشعة عن تشارلز، وكيف أن وفاته تعتبر خسارة فادحة لأتلانتا.

ثم هدر عزف الموسيقى، مرنماً الألحان المثيرة لنشيد «جوني بوكر ساعد هذا الزنجي!» وأحست سكارلت برغبتها في الزعيق، إنها تريد أن ترقص، إنها تريد أن ترقص. ورنت إلى أرض القاعة، وراحت تدق بقدمها متجاوبة مع أنغام النشيد، وبرقت عيناها الخضراوان بشعاع اللهفة الحارقة، بحيث كادتا، والحق يقال، تنفجران شوقاً. وعبر القاعة، في المدخل، كان يقف رجل، حديث المقدم، ما إن لمح عينيها حتى أجفل منبهراً، كأنه يعرفهما، ثم راح يراقب عن كثب العينين المائلتين في الوجه العابس المتمرد، وبدت نواجذه وهو يبتسم، عندما استشف الدعوة التي في وسع كل ذَكَر قراءتها في الوجه المتجهّم.

كان يرتدي ثوباً من الصوف الأسود، رجل طويل القامة، يعلو بقامته قامات الضباط الواقفين على مقربة منه، ضخم عند الكتفين، ولكنه يستدقّ تدريجياً حتى يضمر خصره، وتنتهي ساقاه بقدمين ممعنتين في الصغر، ومحتذيتين بجزمتين لمّاعتين. كانت بذلته السوداء الحالكة، وقميصه الظريف ذي الكشاكش، وسرواله المعقود الأربطة بتأنق تحت أخمص قدميه، تتنافر تماماً مع بنيته ووجه، إذ كان مهندماً كالعريس، يلبس ملابس غندور على جسد قوي، وتحجب شراسته بتأنقه المخمول. كان شعره فاحم السواد، وشاربه الأسود صغيراً قصير الجزة، يبدو غريباً إذا ما قورن بالشوارب الكثة المتوثبة، في وجوه الفرسان القريبين منه، كان يبدو، وهذه حقيقته، رجلاً ذا شهوة فوارة جامحة زرية، وكانت سحنته تنمّ عن ثقة مطلقة بالنفس، وتنطق بقحة

غير رضية، وبينما هو يحدق في سكارلت، ومضت عيناه ببريق الدهاء والخبث. فلمّا استشعرت حدة نظراته، بادلته التحديق.

وفي زاوية من زوايا عقلها، قرع جرس الذكرى، ولكنها لم تستطع تمييز شخصه على التو، إلا أنه كان أول رجل أطرى محاسنها خلال عدة شهور، ولذلك رمته ببسمة رضية، وعندما انحنى لها، بشَّت في وجهه قليلاً، ولكن ما إن انتصب ثانية، وأقبل نحوها بخطى رشيقة كخطى الهنود، حتى عضَّت يدها مذعورة مرتاعة... لقد عرفت من هو.

وقفت مصعوقة كما لو أن قوة خارقة شلّت كيانها، بينما اخترق هو جموع الحاضرين متجهاً نحوها، ثم أدارت وجهها دون تبصُّر، وانثنت تروم الفرار إلى غرف المرطبات، ولكن تنورتها علقت بمسمار في الكشك فجذبتها جذبة عنيفة، تمزقت على أثرها، وكان الرجل قد بلغها ما بين فتحة عين وغمضتها.

- «اسمحي لي»، قال منحنياً فوق البسطة، مخلّصاً حاشية التنورة من الشرك، «أكاد أفقد الأمل في أن تذكريني، يا آنسة أوهارا».

كان صوته ساراً حلو الجرس، ولكنه كان مستهجناً، صوت سيد رخيم أنيق ذو رنة تشوبها لهجة أهل شارلستون المطاطة.

ونظرت إليه مبتهلة متضرّعة، وقد تخضّب وجهها بحمرة عار لقائهما الأخير، والتقت عيناها بأحلك عيون سواداً رأتها في حياتها، تتراقص أمامها في حبور لا يعرف الرحمة.

من بين جميع الناس، في كل الدنيا، يبرز الآن، هنا، هذا الرجل المرعب الذي شاهد فصلها المؤلم مع آشلي، الفصل الذي ما زال يلاحقها بكوابيسه، هذا الشقي المقيت الذي هتك أعراض الصبايا، ولم يرحِّب به أحد من كرام الناس، هذا الرجل الخسيس الذي قال، ولسبب وجيه، إنها ليست سيدة محترمة.

وعندما طرق صوته مسامع ميلاني، التفتت نحوه، وللمرة الأولى في حياة سكارلت شكرت ربها لوجود شقيقة زوجها إلى جانبها.

- «ماذا... إنه... إنه السيد ريت باتلر، أليس كذلك؟» استوضحت ميلاني، مادة يدها لتصافحه، مبدية ابتسامة خفيفة، «لقد تقابلنا في...».

- «في المناسبة السعيدة لإعلان خطوبتك»، أكمل عبارتها منحنياً فوق يدها، «لطيف منك أن تذكريني».

- «وما الذي تفعله هنا بعيداً عن شارلستون؟».

- «إحدى المهمات المزعجة، يا سيدة ويلكس. منذ اليوم فصاعداً، سيتكرر قدومي إلى مدينتكم ومغادرتي لها، فلقد وجدت أن واجبي لا ينحصر في جلب البضائع وحسب، بل يتعداه إلى تصريفها كذلك».

- «جلب البضائع» بدأت ميلي مزوية ما بين عينيها، ثم مشرقة بابتسامة ودية، «إذن أنت... أنت لا بدّ أن تكون الكابتن الشهير، باتلر، الذي سمعنا عنه كثيراً - مخترق الحصار، إن كل فتاة في هذه الحفل، ترفل بما جلبته من أثواب. سكارلت، ألم تذهلك المفاجأة؟ ماذا في الأمر يا عزيزتي؟ هل غشي عليك؟ اجلسي...».

وتهالكت سكارلت فوق الكرسي الصغير، وقد اطرد تنفّسها سريعاً بحيث خشيت على شرائط مشدّها أن تتقطع. آه، أي مصادفة مريعة، لم يدر في خلدها يوماً أنها ستلتقي به ثانية، أما هو فالتقط مروحتها السوداء، من على البسطة، وطفق يهوّي لها جزعاً، مبلبل الخاطر، وقد اعتمر وجهه بمسحة الجد، ولكن عينيه ظلتا قلقتين:

- «إن الجو حار خانق هنا» قال، «فلا عجب أن يغمى على الآنسة أوهارا. هل تأذنين لي بأخذك إلى إحدى النوافذ؟».

- «لا»، أجابت سكارلت بلهجة فيها الكثير من القحة جعلت ميلي تحملق فيها.

- «لم تعد الآنسة أوهارا»، قالت ميلي، «إنها السيدة هاملتون، وهي الآن زوجة أخي»، وغمرتها بنظرة ودية قصيرة، بيد أن هذه أحست أنها سوف تختنق من وطأة التعبير الذي ينطق له وجه باتلر الأسمر كوجه القرصان.

- «إني واثق أن في ذلك كسباً عظيماً لسيدتين فاتنتين»، قال منحنياً انحناءة خفيفة. تلك كانت العبارة ذاتها التي اعتاد أن يعقّب بها جميع الرجال، ولكن ساعة نطق بها هو، تراءى لسكارلت كأنه يعني عكس ما يقول.

- «لا شك أن زوجيكما موجودان هنا الليلة، في هذه المناسبة السعيدة؟ سيكون من دواعي اغتباطي أن نجدد معرفتنا».

- «زوجي في فرجينيا» قالت ميلي، مشرئبة الرأس بدافع الفخر، «ولكن تشارلز. . .» واحتبس صوتها.

- «مات في المعسكر» قالت سكارلت بفتور، منتزعة الكلمات من صدرها انتزاعاً، ألن يبتعد هذا المخلوق عنا؟ وحملقت ميلي فيها واجمة مجفلة، بينما أومأ الكابتن بما ينمّ عن تبكيت الضمير.

- «سيدتيَّ العزيزتين. كيف يمكنني معرفة ذلك، ينبغي أن تصفحا عني، ولكن اسمحا لغريب أن يقول مواسياً: الموت في سبيل الوطن هو الخلود الأبدي».

فابتسمت له ميلاني من خلال دموعها المتلألئة، بينما أحست سكارلت بالغضب الماكر، والكراهية العاجزة، ينهشان في كل أعضائها الحية. لقد نطق بعبارة طيبة مرة ثانية، الثناء ذاته الذي يتفوه به أي إنسان فاضل في مثل هذه الظروف، ولكنه في الحقيقة لا يعني كلمة واحدة مما نطق، وإنما هو يسخر منها، يعرف أنها لم تحب تشارلز،

وأن ميلي مجرّد بلهاء كبيرة، إذ لم تكتشف ذلك من تعابير وجهه. آه، أرجوك يا إلهي، لا تدع أحداً آخر يلاحظ شيئاً عن طريقه، فكرت والفزع قد بدأ ينتابها. هل يفصح عما يعرف؟ طبعاً، إنه ليس بالرجل الفاضل، ولا يستطيع أحد معرفة تصرف اللئام، فليس هناك قانون يستضاء به للحكم عليهم. ونظرت إليه، فرأته قد أرخى شدقيه في تعبير عاطفي ساخر، رغم أنه ما زال يهوّي بالمروحة، وأحست أن شيئاً في نظراته يستفز كبرياءها، فعاودتها رباطة جأشها، في دفق من البغضاء، وفجأة انتزعت المروحة من يده، وخاطبته بحدّة:

- «إني في حالة حسنة تماماً ولا حاجة بك لتشعث شعري».

- «سكارلت، عزيزتي. كابتن باتلر ينبغي أن تعذرها فهي... فهي تفقد رشدها، وتنقلب إلى شخص آخر، كلما سمعت اسم تشارلز على أفواه الناس - وفوق ذلك، ربما كان من الواجب ألّا نجيء هنا الليلة فنحن ما زلنا في ثياب الحِداد كما ترى، إن في مجيئنا إرهاقاً مضنياً لأعصابها - كل هذا المرح والموسيقى... يا للطفلة التعسة».

- «فهمتُ السبب تماماً» قال متكلفاً الاهتمام، ولكن عندما التفت وألقى على ميلاني نظرة فاحصة نفذت إلى أعماق عينيها الحائرتين، تغيّرت سحنته، وغمر وجهه الداكن احترام أبيّ ورقّة ظاهرة، «أعتقد أنك امرأة شجاعة يا سيدة ويلكس».

«ولا كلمة عني!» هجست سكارلت حانقة، وهي تلمح ميلي تبتسم مرتبكة ثم تجيب:

- «يا سلام... لا يا كابتن باتلر! لقد اضطرت لجنة المستشفى في الدقيقة الأخيرة أن تعهد إلينا بهذا الكشك - غشاء وسادة؟ ها هنا غشاء بديع، وقد طُرز عَلَمٌ عليه».

استدارت نحو ثلاثة فرسان وقفوا أمام البسطة، وهجست لهنيهة، كم أن الكابتن رجل دمث، ثم تمنّت لو كان يفصل بين تنورتها

والمبصقة الموضوعة خارج الكشك، حاجز أسمك من القماش الخام، لأن تسديد الفرسان لسيل بصاقهم، الممجوج بعصارة التبغ، لم يكن محكماً، كتسديد مسدّساتهم الطويلة. على أنها ما عتمت أن نسيت الكابتن وسكارلت والمبصقة، عندما تجمَّع أمام كشكها عدد لا بأس به من الزبائن.

أما سكارلت فقد جلست ساكنة على الكرسي الصغير، تحرك مروحتها وترجو أن يعود الكابتن باتلر إلى ظهر سفينته، التي هي موطنه الحقيقي.

- «هل توفي زوجك منذ زمن؟».

- «نعم، منذ زمن طويل، سنة تقريباً».

- «إني واثق أن تلك بمثابة ردح طويل».

لم تكن سكارلت متأكدة من معنى كلمة ردح، ولكنها لم تشك في نغمة الإغراء التي شابت صوته، ولذلك التزمت الصمت.

- «هل طالت مدة زواجك؟ اصفحي عن أسئلتي، لأني ظللت بعيداً عن المنطقة ردحاً طويلاً».

- «شهرين» أجابت سكارلت كارهة.

- «مأساة، لا أقلَّ أبداً» أردف صوته المرن.

«آه، ليلعنه اللّه» هجست سكارلت ساخطة، لو أنه رجل آخر غير باتلر، لانتصبت وأمرته بالانصراف، ولكنه يعرف قصتي مع آشلي، ويعرف أني لم أحب تشارلز، أن يدي مغلولتان. ولم تقل شيئاً، بل ظلت مطأطئة الرأس، تحدق في مروحتها.

- «وهذه أول مرة تظهرين فيها أمام الجميع؟».

- «أعرف أن ذلك مستهجناً تماماً» أسرعت توضح موقفها، «ولكن بنات ماكلور اللواتي عهد إليهن بإدارة هذا الكشك، استدعين للسفر، ولم يوجد من يحل محلهن، ولذلك فإنني وميلاني. . .».

- «ليس من تضحية كبيرة تجاه قضية الوطن».

إن هذا ما قالته السيدة إلسينغ، ولكنها عندما نطقت به، لم يكن له الوقْع نفسه. وبلغت الكلمات الساخطة شفتيها، ولكنها خنقتها قبل أن ترى النور، هذا فضلاً عن أن وجودها هنا، لم يكن في سبيل القضية الوطنية، وإنما لأنها ملّت الجلوس في البيت.

- «إني أفكر دائماً...» قال وكأن لسانه يعكس ما يدور في خلدها، «أن نظام الحِداد، نظام حصر النساء ضمن أثواب الحرير الخام بقية حياتهن، ومنعهن من المتع المشروعة، بربري، تماماً كنظام حرق زوجات الهنود المسمّى ستي».

- «ستي[1]؟».

فقرقر بينما تورّد وجهها خجلاً بسبب جهلها، إنها تمقت كل الناس الذين يستعملون ألفاظاً غريبة.

- «في الهند، عندما يموت الرجل، يحرقه أهله، بدلاً من أن يدفنوه. وفي العادة، تعتلي زوجته حطب الموقد، وتحرق نفسها بجانبه».

- «ما أشنعها من عادة! لماذا يلجأون إليها؟ ألا يقوم رجال الشرطة بشيء لمنع ذلك؟».

- «طبعاً لا، فالزوجة التي لا تحرق نفسها، تُنبذ من المجتمع، وتتحدث جميع المتزوجات المحترمات حول تقاعسها عن الواجب المتحتم على السيدة الكريمة المحتد، الراقية النشأة، تماماً، كما يمكن أن يتحدث أولئك النسوة المحترمات، القابعات في الزواية، فيما لو ظهرتِ الليلة بثوب أحمر، أو في إحدى دورات الرقص. من وجهة نظري الشخصية، أعتقد أن نظام الحرق الهندي أكثر رحمة بالمرأة من

(1) Settee: مقعد يتسع لاثنين أو أكثر.

نظام الجنوب المثير في دفن الزوجة والحياة ما تفتأ تضج في أعطافها».

- «كيف تجرؤ أن تقول إني دفينة في الحياة؟».

- «ما أحرص النساء على التشبث بالأغلال ذاتها التي تقيّدهن. أنت تعتبرين العادة الهندية همجية، ولكن هل كنت تملكين الشجاعة للظهور هنا في هذه الليلة، لو أن الحلف لم يكن في حاجة ماسّة إليك؟».

حوار من هذا النوع، كان دائماً يختلط عليها، بيد أن الحوار مع ريت باتلر ضاعف حيرتها، إذ كانت تحمل فكرة غامضة عن وجود حقائق في أحاديثه، ولكن، هذا هو الوقت السانح لتحطيمه.

- «طبعاً ما كنت لأجيء، لأن ذلك يُعتبر - حسناً، امتهاناً لي... - سيدوم وكأني لم أحد...».

وعلقت عيناه تترقبان كلماتها، وتشفان عن تهكم ساخر، ولم تستطع هي إيفاء حديثها. كان يعرف أنها لم تحب تشارلز، ولن يدعها الآن تنتحل العواطف الرقيقة المهذبة، التي ينبغي أن تنضح بها. أي مأزق مرعب! مرعب أن تُجبَر على التعامل مع رجل ليس فاضلاً، فالرجل الفاضل يبدو دائماً مصدقاً لما تقوله السيدة، حتى لو عرف أن ما تقوله مجرد هراء. تلك كانت شيم فروسية الجنوب، الرجل الفاضل، يمتثل أبداً للأصول المتبعة، وينطق بالأمور الصحيحة، ويمهد سبل الحياة من أجل المرأة، ولكن هذا الرجل لا يحفل بالأصول، ومن الجلي أنه يطرب في التحدث عن المواضيع التي ما تحدث بها إنسان.

- «إني أنتظر على أحر من الجمر».

- «أعتقد أنك رجل مخيف»، قالت عاجزة وقد نفذت حيلتها،

وأطرقت بعينيها إلى الأرض، ولكننا حنى قامته فوق البسطة، حتى قارب فمه أذنها، وعندئذ همس في تقليد ناجح لأوغاد المسرح الذين نادراً ما يظهرون في القاعة الإغريقية:

- «لا تخافي أيتها السيدة الجميلة، فسرُّك الآثم في مأمن عندي».

- «ها»، همست بعصبية، «كيف تجرؤ على التفوّه بمثل هذه الأشياء؟».

- «قصدتُ فقط تهدئة روعك، ماذا تريدنني أن أقول؟ كوني لي أيتها الأنثى الجميلة، وإلا سأفضح كل شيء؟».

والتقت بعينيه رغماً عنها، ورأت أنهما كيادتان كعيني صبي صغير. وفجأة، ضحكت، فالموقف على كل حال تافه سخيف، وجاراها هو، فضحك كذلك، ولكن بصوت مرتفع جداً أثار انتباه عدد من الرقيبات المتزوجات في الزاوية، فالتفتن نحوها ليتأملن أي وقت طيب تنعم به أرملة تشارلز هاملتون مع رجل غريب ثم أدرن أعطافهن مستنكرات مستهجنات.

* * *

علا صوت الطبول، ونادى بعض الناس: «صه!»، بينما اعتلى المنبر الطبيب ميد، ماداً ذراعيه يطلب الصمت:

- «يتوجب علينا جميعاً إسداء الشكر والامتنان للسيدات الفاتنات اللواتي لم تؤدِّ جهودهن الوطنية التي لا تكل، إلى نجاح هذا السوق الخيري نجاحاً مادياً وحسب»، هكذا استهل الطبيب خطابه، وتابع:

«وإنما حوَّلن هذه القاعة الموحشة إلى حديقة فناء مظللة بالحسن والجمال، حديقة لائقة بالورود الشذية التي أراها حولي».

فصفَّق الجميع استحساناً وتأييداً.

«لقد بذلت السيدات جهدهن، ليس من ناحية التضحية بأوقاتهن

فقط، بل من كد أيديهن، وهذه الأمتعة الظريفة في الأكشاك، بديعة ولا ريب، أبدعتها على هذه الصورة الباهرة، الأيدي الناعمة لنساء الجنوب الفاتنات».

ودوَّت القاعة بهتافات تحمل أكثر من الاستحسان، وهمس ريت باتلر، الذي كان متكئاً باستهتار على البسطة بجانب سكارلت، قائلاً: «تيس فاخر، أليس هو كذلك؟».

فأجفلت، وقد أفزعها هذا الجحود المنكر، بحق أخلص مواطني أتلانتا، وأحبّهم إلى قلوب سكانها، ورمقته بنظرة مؤنبة.

بيد أن الطبيب في الواقع، كان يشبه التيس، بسبال لحيته الشائبة وهي تتراقص متنافرة، وبسرعة فائقة، بحيث استطاعت سكارلت بالكاد أن تحبس ضحكتها.

واستطرد الطبيب:

«ولكن كل هذه الأشياء لا تفي بالغرض، فسيدات لجنة المستشفى الخيرات، اللواتي خففت أيديهن الملائكية آلام كثير من الجباه، وأنقذت من بين براثن الموت جرحانا الأبطال، الذين نزفوا الدماء في سبيل أنبل القضايا الوطنية، هؤلاء السيدات يعرفن حاجاتنا، ولذلك لم أسردها على مسامعكم. ينبغي أن نجمع نقوداً أكثر لشراء المواد الطبية من إنكلترا، وفي هذه المناسبة أعلن أن الكابتن الجريء المقدام، الذي يخترق الحصار بمهارة فائقة منذ سنة، والذي سيخترقه ثانية لجلب العقاقير التي نحتاج إليها، الكابتن ريت باتلر موجود معنا، هنا في هذه القاعة».

ورغم أن مخترق الحصار فوجئ بذلك، فقد أجال بانحناءة شيقة - شيقة جداً، فكرت سكارلت وهي تحاول تحليلها، كأنه تقريباً تصنَّع الإفراط في اللطف لأنه يزدري جميع الحاضرين ازدراء بالغاً، مع أن

هؤلاء انطلقوا في عاصفة من التصفيق إثر انحناءته، واشرأبت أعناق السيدات في الزواية نحوه، إذن هو ذاك الرجل الذي استغرقت أرملة تشارلز المسكين في الحديث معه، ولم يمضِ سنة على وفاة زوجها!

- «إننا في حاجة إلى كمية أكبر من الذهب، وإني أطلب إليكم تأمينها»، أردف الطبيب، «إني أسألكم التضحية، ولكنها تضحية زهيدة جداً، بحيث إنها إذا ما قورنت بتلك التي يقدمها رجالنا الأفذاذ في بذلاتهم الرمادية، لبدت مضحكة - سيداتي، إني أريد مصاغكن. أنا أريد مصاغكن؟ لا، الحلف يريد مصاغكن، الحلف يستصرخكن من أجله، وأنا واثق بأن واحدة منكن لن تتقاعس عن تلبية النداء. ما أروع الجوهرة تتألق على المعصم الجميل! وما أبدع الدبابيس الذهبية تتلألأ على صدور نسائنا الوطنيات! ولكن كم هي التضحية أروع وأبدع بكثير من كل ذهب الهند ولآلئها، فالذهب سيُصهر، والأحجار الكريمة ستباع وستُنفق أثمانها لشراء العقاقير والأدوات الطبية الأخرى. سيداتي! سيطوف بكنّ اثنان من جرحانا المغاوير يحملان سلالاً و. . .» وغابت بقية عبارته في عاصفة التصفيق وهدير الهتافات.

كان أول ما راود تفكير سكارلت، الشكر العميق، لكون حالة الحِداد قد منعتها من التزين بشنفها الثمين، وعقدها الذهبي الثقيل الذي كان يخص جدتها روبيلارد، والأساور الذهبية السوداء المطلية بالميناء، والدبوس العقيقي، ثم رأت الزواف الصغير، وعلى ذراعه غير المصابة سلة من السنديان مفتوحة الفوهة، وقدر راح يمرّ بين الجمهور، في ناحيته، وشاهدت النساء، شابات وشائبات، يضحكن متلهفات، يهززن أساورهن، ويزعقن مدّعيات الألم والأقراط تنزع من جلودهن المثقوبة، ويساعدن بعضهن في فك حلقات العقود الوثيقة، ويسحبن الدبابيس من صدورهن. واستمر صليل المعدن الخافت يتراكم فوق بعضه، والصيحات: «انتظر - انتظر - لقد حللته الآن، خذه».

كانت مايبل ميريويذر تنزع سوارَيها المزدوجين البديعين فوق مرفقيها ومن تحتهما. وصاحت فاني إلسينغ: «ماما، هل أقدمه؟» وهي تكاد تكسر مشبك الشعر المزخرف، المزدان بفصوص اللؤلؤ، والمرصّع بالذهب، والذي توارثته العائلة أجيالاً بعد أجيال. وكلما انضم جديد إلى قافلة التبرعات، حمي التصفيق وعلا الهتاف.

واتجه الرجل الصغير الباسم نحو كشكها الآن، وقد رزح ساعده تحت عبء سلّته الملأى. وعندما مرّ بريت باتلر، ألقى داخل السلة بعلبة سيجار ذهبية بديعة، ثم بلغ سكارلت، ووضع سلّته على بسطة الكشك، فهزت رأسها، باسطة يديها كل البسط، لتُري أنها لا تملك شيئاً تتبرع به. كان من الممضّ أن تنفرد من بين الحاضرين بعدم العطاء، ولكن سرعان ما قيد بصرها الألق القوي، ينبعث من خاتم زواجها الذهبي العريض.

وتصرّمت هنيهة حائرة، حاولت خلالها أن تتذكر وجه تشارلز - كيف بدا وهو يُدخله في إصبعها، بيد أن الذكرى جاءت شوهاء، شوهاء من جرّاء الشعور المفاجئ بالضيق، ذلك الشعور الذي يعتريها كلما تذكرت تشارلز - لقد كان السبب في انتهاء حياتها، السبب في صيرورتها امرأة مسنّة.

وقبضت على الخاتم بحركة لولبية مفاجئة، ولكنه لم يتزحزح، ومضى الزواف نحو ميلاني.

- «انتظر» صاحت سكارلت، «عندي ما أقدّمه». وغادر الخاتم موضعه، وعندما همّت بإلقائه في السلّة، المليئة بالسلاسل والساعات والخواتم والدبابيس والأساور، لمحت عين ريت باتلر. كان يعض شفته بابتسامة خفيفة، ولذلك ألقت بالخاتم فوق كومة المصاغ، متحدية مزدرية.

- «ها، يا عزيزتي» همست ميلي، قابضة على ذراعها، وعيناها

تشعان بالحب والكبرياء، «إنك شجاعة، فتاة شجاعة، انتظر - أرجوك، انتظر، لفتنانت بيكارد، عندي شيء لأقدّمه كذلك».

كانت تنتزع خاتم زواجها، الخاتم الذي تعرف سكارلت أنه لم يبارح إصبعها منذ وضعه آشلي، وكانت سكارلت تعرف أيضاً، دون سواها، كم يعني ذلك الخاتم بالنسبة إلى ميلاني. وخرج الخاتم بصعوبة، وتمسكت به اليد الصغيرة، وضغطت عليه، ولكن لبضع ثوانٍ فقط، ثم وضعته بعدها ، برقّة، فوق كومة المجوهرات.

وقفت الفتاتان شاخصتين في أثر الزواف، الذي اتجه نحو عصبة السيدات المسنّات في الزاوية، وقد نطق وجه سكارلت بأمائر التحدي والازدراء، بينما رنت عينا ميلاني بنظرة تستدعي الشفقة أكثر من الدموع، ولم يغب ما انطوى عليه كلا التعبيرين عن الرجل الواقف قبالتهما.

- «لو لم تكوني بمثل هذه الشجاعة التي حفزتك للإقدام على هذا العمل، لما تشجعت أبداً»، قالت ميلي ضامّة سكارلت بذراعها، ضاغطة حول خصرها قليلاً. وللوهلة الأولى، عنَّ لسكارلت أن تدفعها بعيداً، وأن تصيح باسم الإله، بأعلى صوتها، كما كان يفعل جيرالد كلما تستفز ثائرته، ولكنها لمحت عين باتلر، فاصطنعت بسمة سقيمة.

كان من المزعج أن تسيء ميلي، عينها، فهمَ بواعث أعمالها، ولكن ربما كان ارتيابها حول الحقيقة، أفضل بكثير من معرفتها.

- «ما أروعه من رمز!» قال ريت باتلر ملاطفاً، «إن تضحيات كهذه التي أقدمتما عليها، تغذّي منابع البطولة في قلوب رجالنا الشجعان الفخورين ببذلاتهم الرمادية».

استقرت الكلمات الحاقدة القاسية على شفتيها، ولم تستطع ردعها إلا بصعوبة. إن هناك سخرية في كل ما ينطق به، إنها تبغضه من كل قلبها، وهو متكئ متهالك على الكشك. ولكن، كان يوجد شيء مثير

يتعلق به، شيء دافئ حيوي وكهربائي، وتحفز كل ما تملك من خصائص إيرلندية لمقابلة تحدي عينيه السوداوين، وقررت أنها لا بد أن تخضع هذا الرجل بخدشة أو خدشتين. إن معرفة سرها تقوّي جانبه بشكل مغيظ، فعليها أن تقلب الوضع وتفضي به إلى زعزعة مركزه، بأية حيلة. وخنقت رغبتها القوية في مصارحتها بحقيقة رأيها فيه. إن السكّر يجذب دائماً الذباب، أكثر مما يجذب الخل، كما قالت مامي تكراراً، ولذلك سوف تصطاد وتخضع هذه الذبابة، حتى لا يستطيع أبداً وضعها تحت رحمته مرة ثانية.

- «أشكرك» استهلت بعذوبة، متعمدة تجاهل سخريته اللاذعة. «إن إطراء كهذا يصدر عن إنسان ذائع الصيت، ملأت شهرته الآفاق، كالكابتن باتلر، يلقى كل تقدير».

فألقى برأسه إلى الوراء وضحك ضحكة عالية - عوى، كما فكرت سكارلت مغتاظة، وقد تخضب وجهها ثانية.

- «لماذا لا تجاهرين بما يدور في خلدك حقيقة؟»، استوضحها راجياً، خافضاً صوته بحيث لم يصل إلا إلى أذنيها فقط، نظراً إلى لغط الجمهور وصخبه، «لماذا لا تقولين إني وغد لعين، ولست إنساناً فاضلاً، وإنه يتوجب عليَّ الانصراف بعيداً، وإلا ستطلبين إلى أحد هؤلاء الجنود الشهام، أن يدعوني إلى المبارزة».

وصعد الجواب المر إلى رأس لسانها، ولكنها نجحت برادع وطني في أن تقول:

- «ما هذا التصرف يا سيد باتلر!؟؟ كأن الناس لا يعرفون جميعاً مدى شهرتك، وعظم شجاعتك و. . . و. . . ».

- «لقد خابت آمالي فيك»، قال.

- «خابت؟!».

- «نعم، فأثناء لقائنا الأول، الحافل بأحداثه، اعتقدت شخصياً

أني وجدت أخيراً الفتاة التي تتحلى ليس بجمالها فقط، بل بشجاعتها أيضاً، وها إني الآن أرى أنك جميلة وحسب».

- «هل تقصد أن تتهمني بالجبن؟»، سألت وهي تنتفض حنقاً، كما تنتفض الدجاجة.

- «بالضبط تماماً»، تنقصك الجرأة للتصريح بما يراود خاطرك حقاً، وعندما التقيت بك للمرة الأولى، حدثتني نفسي قائلة: «توجد فتاة واحدة بين مليون، إنها ليست كأولئك الصغيرات الحمقاوات، اللواتي يصدّقن كل ما تخبرهن أمهاتهن، ويتصرفن بموجبه، دون اهتمام لأحاسيسهن وميولهن الخاصة، فيحجبن شعورهن ورغباتهن ومشاكل قلوبهن الموجعة وراء سجف من الكلمات المعذبة»، وقلت في نفسي أيضاً:

«الآنسة أوهارا فتاة ذات روح نادرة، إنها تعرف ما تريد، ولا تخشى التصريح برأيها. . . ولا قذف أصص الأزهار».

- «ها»، قالت وقد اشتعلت غيظاً، «إذن سأصارحك برأيي هذه المرة، دون لف أو دوران: لو كنت على قسط من التهذيب، لما سولت لك نفسك القدوم أبداً، والتحدث معي، ولكنني أدركت أني لا أرغب مطلقاً في أن تقع عيناي عليك مرة ثانية. إنك مجرد مخلوق قميء سيّئ التربية، وأنت تعتقد أنه نظراً إلى اختراق زوارقك الصغيرة البالية طوق الحصار، صار من حقك المجيء إلى هنا والاستهزاء برجال شجعان، وبنساء يضحّين بكل ما يملكون في سبيل القضية الوطنية».

- «كفى، كفى» رجاها مبدياً نواجذه بابتسامة فاترة، «لقد أجدت في البداية، وجاهرت بما تفكرين فيه، ولكن لا تشرعي في محادثتي عن القضية، فلقد سئمت السماع عنها، وإني أراهن أنك أيضاً -».

- «كيف، كيف عرفت -» وهمّت بالاسترسال وقد فقدت اتزانها،

ولكنها ما عتمت أن كبحت جماحها بسرعة، والنقمة على نفسها تغلي غلياناً لوقوعها في شركه.

- «وقفت هناك في المدخل قبل أن تريني، ورحت أراقبك»، ثم أردف: «وراقبت بقية الفتيات. لقد بدت وجوه الجميع كأنها جبلت من طينة واحدة، إلا وجهك، هذا الوجه الذي تسهل قراءة مكنوناته، كنت مبددة الفكر، لا تأبهين بما عهد إليك، وإني أراهن أنك لم تكوني تفكرين في قضيتنا أو المستشفى، كل ما شف عنه وجهك، رغبتك في الرقص، وفي التمتع بوقت طيب، وأنك عاجزة عن بلوغ وطرك. وهكذا بدوت تماماً كالمجنونة. أخبريني الحقيقة، ألست مصيباً؟».

- «ليس عندي ما أقوله بعد الذي صارحتك به، يا كابتن باتلر»، قالت بلهجة حازمة قدر الإمكان، محاولة إسدال مزق كرامتها حول نفسها، «إن مجرد انتفاخ رأسك بالغرور، لكونك... مخترق الحصار الشهير، لا يمنحك حق إهانة النساء».

- «مخترق الحصار الشهير! تلك فكاهة. أتوسل إليك أن تمنّي عليَّ بدقيقة أخرى من وقتك الثمين، قبل أن تقذفي بي في الظلمات، فأنا لا أريد لوطنية صغيرة فاتنة جداً، أن تترك أسيرة عدم تفهّم حقيقة مساهمتي في قضية الحلف».

- «لا يهمني سماع تبجّحك».

- «خرق الحصار مهنة بالنسبة إليّ، أكسب منها مالاً، وعندما تكف عن در المال عليَّ، سأعتزلها. ما رأيك في ذلك؟».

- «رأيي أنك وغد مأجور... تماماً كجنود الشماليين».

- «بالضبط» أجاب مبتسماً، «والشماليون يساعدونني في كسب المال، كيف لا، وفي الشهر الماضي قدت زورقي إلى مرفأ نيويورك مباشرة، وشحنت حمولة».

- «ماذا؟!» صاحت سكارلت مشدوهة وقد تولاها الاهتمام رغماً عنها، «ألم يطلقوا النار عليك؟».

- «يا مسكينتي الساذجة، طبعاً لا، فهناك الكثير من وطنيي الاتحاد الذين لا يتورعون عن جني المال عن طريق بيع البضائع للحلف. إني أتسلل بزورقي إلى نيويورك، وأبتاع من شركات شمالية، في الخفاء طبعاً، ثم أختلس طريقي عائداً، وعندما يتهددني بعض الخطر، أبحر إلى ناسو[1] حيث يجلب لي وطنيو الاتحاد، هؤلاء أنفسهم، الرصاص والقنابل وتنانير الأطواق. إن ذلك يوافقني أكثر من الذهاب إلى إنكلترا. بعض الأحيان، تعترضني صعوبات قليلة في التسلل إلى شارلستون أو ولمنفتون - ولكنك ستدهشين إذا علمت إلى أي مدى يفعل قليل من الذهب!».

- «ها، كنت أعرف أن أهل الشمال لئام، ولكني ما كنت لأعرف -».

- «لماذا تخطئين بحق أهل الشمال، الذين يبيعون قضية الاتحاد لكسب فلس شريف؟ فذلك لن يؤثر ولو استمر مئة سنة، والنتيجة ستكون هي هي. إنهم يعرفون أن الحلف سيندحر في النهاية، وإذن، لماذا لا ينتهزون الفرصة ويجنون الأموال الطائلة؟».

- «ننحدر؟ نحن؟».

- «طبعاً».

- «هل تتكرم بتركي - أو هل ينبغي أن أطلب عربتي وأذهب إلى البيت خلاصاً منك؟».

- «يا لك من ثائرة صغيرة متأججة»، قال ذلك بابتسامة فاترة أخرى، ثم انحنى وغادرها متلكئاً في مشيته، مخلفاً وراءه قلب فتاة يخفق بوجيب الغضب القاصر، والسخط المردوع.

---

(1) عاصمة ولاية تنيسي.

كانت مرارة الخيبة تتلظى في جوفها بحيث لم تستطع تحليل الذي وقع، تحليلاً شاملاً، إنها خيبة الطفلة التي تشاهد بأم عينها ذوبان الوهم وتفتت الغرور. كيف يجرؤ على القول إن الحلف سيندحر؟ ينبغي قتله جرّاء ذلك، قتله بالرصاص كالخونة. وطوحت نظرها في الغرفة تتصفح الوجوه الأليفة، المؤمنة جداً بالنصر، المخلصة كثيراً، بيد أنها، بصورة ما، عرت سويداء قلبها قشعريرة مثلوجة... نُدحر؟ كل هؤلاء الناس... كيف، بالطبع لا! مجرد الفكرة أمر مستحيل... خيانة.

- «ماذا كنتما تتهامسان؟» سألت ميلاني ملتفتة نحو سكارلت وقد انصرف زبائنها، «لم أستطع احتمال رؤية السيدة ميريويذر ترمقكما شزراً طوال الوقت، وأنت تعرفين، يا عزيزتي، كيف تتحدث».

- «أف لهذا الرجل. إنه لا يُحتمل، إنه جلف، سقيم الخلق»، قالت سكارلت، «أما السيدة ميريويذر العجوز، فدعيها تتحدث ما تشاء. لقد سئمت العمل كبلهاء حمقاء، من أجل مصلحتها فقط».

- «كيف؟! سكارلت»، صاحت ميلاني بصوت فاضح.

- «صه!» قالت سكارلت، «الدكتور ميد سيلقي خطاباً آخر».

وتلاشى صخب الجمهور، بينما الطبيب يدوي صوته شاكراً السيدات اللواتي تبرعن بحليهن عن طيبة خاطر، ثم استطرد:

- «والآن أيها السيدات والسادة، سوف أزجي إليكم اقتراحاً مثيراً... بدعة قد تذهل بعضكم، ولكن أدعوكم إلى أن تتذكرو أن كل ما نقوم به هو في سبيل المستشفى ومن أجل خير شبابنا الراقدين على أسِرَّته».

فاشرأبت أعناق الجميع، تترقب ما سيدلي به، وتحاول التكهن بما قد يقترحه الطبيب الوقور، ويكون مذهلاً. أما هو فقط أردف:

- «لقد أوشك الرقص أن يبدأ، والدورة الأولى بالطبع رقصة

الريل، يتبعها الفالس، ثم الرقصات التالية التي سيسبق كلاً منها رقصة ريل قصيرة: البولكا، سكوتش، المزركا. إني واثق بأن المنافسة الشريفة ستوجه حلقات الريل توجيهاً طيباً جداً. . . وهكذا -» وقطب الطبيب جبينه، ورمى بنظرة بهماء نحو الزاوية، حيث جلست زوجته بين المسنات، «أيها السادة، إذا رغب أحدكم افتتاح دورة الريل مع السيدة التي يختارها، فعليه أن يساوم من أجلها، وسأكون دلّال المزاد، وسيعود ريع الرقص إلى المستشفى».

وما إن أتم كلامه حتى جمدت المراوح في منتصف ذبذبتها، وسرت في القاعة جمجمة من دويّ ذاهل، وضجّت زاوية المتزوجات، وأُسقِط في يد السيدة ميد، المتلهفة لدعم زوجها في مشروع تستنكره من كل قلبها، وتخضبت وجوه السيدات إلسينغ، ميريويذر، ويتينغ غضباً، على أن جنود الحرس الوطني هتفوا فجأة، مرحبين بالفكرة، وتبعهم المجندون الضيوف، أما الشابات فقد صفّقن طرباً، ووثبن فرحات.

- «ألا تعتقدين أنها - أنها تماماً كسوق نخاسة صغيرة؟» همست ميلاني، مرتابة رانية نحو الطبيب المتأهب للدفاع عن رأيه، والذي كان فيما مضى مكتمل الشخصية بنظرها.

لم تجب سكارلت، ولكن عينيها توهجتا، واعترى قلبَها مسٌّ من ألم، لو أنها ليست أرملة، لو أنها فقط تعود سكارلت أوهارا مرة ثانية، هناك فوق الحلبة، في فستان أخضر، وشرائط مخملية خضراء قاتمة، تتدلى من صدرها، وزهرة المسك الرومي مثبتة في مؤخرة شعرها، لافتتحت رقصة ريل، بل إنها الحقيقة! سيتعارك من أجل يدها عشرات الرجال، يدفعون نقوداً جمة للطبيب، آه كيف تُجبَر على الجلوس هنا، كصبية كاسدة، رغماً عنها، وترى فاني أو مايبل تفتتح رقصة الريل الأولى كحسناء أتلانتا!

ودوى صوت الزواف الصغير، أعلى من الضوضاء، وقد بانت لهجته الغريبة:

- «إذا سمحتم... عشرون دولاراً على شرف الآنسة مايبل ميريويذر».

ذابت مايبل خجلاً، محتمية بكتف فاني، ثم أخفت الفتاتان رأسيهما، كل خلف عنق الأخرى، واستغرقتا في الضحك، بينما شرعت أصوات جديدة، تعلن عن أسماء فتيات أخرى، ومبالغ أخرى، وعاودت البسمة ثغر الطبيب، متجاهلاً كل التجاهل همسات السخط الصادرة من لجنة سيدات المستشفى في الزاوية.

في البدء، كانت السيدة ميريويذر قد أعلنت جازمة، وبصوت مرتفع، أن ابنتها مايبل لن تشارك في إجراء كهذا، ولكن عندما تردد اسم مايبل أكثر من أي اسم آخر، وارتفع المبلغ إلى خمسة وسبعين دولاراً، تقلصت اعتراضاتها شيئاً فشيئاً.

اتكأت سكارلت بمرفقيها على بسطة الكشك، متفرسة بالحشد، المرح الضاحك، يتدفق حول الدكة، وفي أيديه أوراق الحلف النقدية.

سيرقص الجميع الآن... إلا هي، والعجائز، كل الحاضرين سيسعدون بفرصة طيبة الآن، إلا هي، ورأت ريت يقف ورأسه تلقاء قدمي الطبيب تماماً، وقبل أن تتمكن من تحوير سحنة وجهها لمحها وانخفض أحد شدقيه، وارتفع حاجب من حاجبيه، فدفعت ذقنها عالياً، وأشاحت بوجهها عنه، وفجأة سمعت باسمها ينادى عليه... ينادى عليه بصوت شارلستوني جلي، مدوياً أعلى من رنين الأسماء الأخرى:

- «السيدة تشارلز هاملتون، مئة وخمسون دولاراً - ذهباً».

وران صمت مفاجئ على الجمهور، من جرّاء ذكر كلا المبلغ والاسم المنادى عليه. وجمدت سكارلت منبهرة، بحيث لم تستطع

حراكاً، فاستمرت جالسة ورأسها بين يديها، وعيناها جاحظتان عجباً، واستدار الجميع يرومون رؤيتها، ولمحت الطبيب ينحني بقامته من على الدكة ويهمس في أذن باتلر، ربما أخبره إنها في حالة حِداد، ومن المحال عليها أن تظهر في الحلبة، ولكن ريت هز كتفيه بفتور.

- «أتريد حسناء أخرى من حساننا؟» استوضح الطبيب.

- «لا»، أفصح ريت بجلاء، وعيناه تجتاحان الجمهور باستهتار، «السيدة هاملتون».

- «أخبرتك أن ذلك محال»، قال الطبيب محتداً، «فالسيدة هاملتون لن. . . ».

وسمعت سكارلت صوتاً، لم تتبين في البدء أنه صوتها: «إني أريد، نعم أريد».

وانتصبت واقفة، وقلبها يقرع بشدة، بحيث خافت أن تعجز عن الوقوف، يقرع بفرحة صيرورتها محور الجاذبية مرة أخرى، بفرحة كونها أكثر الفتيات الحاضرات ارتقاباً، وفوق ذلك كله، بفرحة عودتها إلى حلبة الرقص ثانية.

- «آه، أنا لا آبه، لا آبه يما يقولون»، همست عندما اعتراها مس من الجنون اللاذ، وقذفت رأسها إلى الأمام، وانطلقت خارج الكشك، تدق الأرض بقدميها كصناجتين، وجذبت مروحتها الحريرية السوداء ناشرة إياها ملء فرحتها، ورأت خلال هنيهة عابرة، وجه ميلاني غير مصدق ما يجري أمامه، كما رأت نظرات السيدات الرقيبات، والصبايا الحانقات، واستسحان الجنود الصارخ. ثم ألقت نفسها في مكان الرقص، وريت باتلر يتقدم نحوها في الممر الضيق بين مقاعد الجمهور، وتلك البسمة الخبيثة الهازئة تعلو وجهه، ولكنها لم تحفل - لم تحفل حتى ولو كان إيب لينكولن ذاته. . . المهم أنها ستعود إلى الرقص ثانية. . . ستفتتح رقصة الريل. وحيَّته بانحناءة مهذبة، وابتسامة

خلابة، وانحنى هو، ويده على صدره الخافق بكشاكشه - وإذ راع ليفي للأمر أسرع إلى ستر الوضع بأن صاح: «اختاروا شريكاتكم لريل فرجينيا». وعزفت الموسيقى أشجى أنغام الريل «دكسي».

- «كيف جرؤت على إشهاري هكذا يا كابتن باتلر؟».

- «لكن، يا عزيزتي السيدة هاملتون، إن رغبتك في الشهرة كانت جلية واضحة».

- «كيف وسعك المناداة باسمي جهاراً أمام الجميع؟!».

- «كان في مقدورك الرفض».

- «ولكن - ولكنها القضية، فأنا - أنا لم أستطع التفكير في شخصي حين تبرّعت بهذا المبلغ الضخم من الدولارات الذهبية. كف عن الضحك، الجميع شاخصون بأبصارهم نحونا».

- «سيشخصون نحونا على كل حال. لا تجربي أن تسوقي هذا الهراء حوال القضية إليّ، كنت تتحرقين شوقاً إلى الرقص، وقد منحتك الفرصة. هذه الخطوات آخر حلقة في الريل، أليس كذلك؟».

- «بلى... حقاً، ينبغي أن أتوقف وأجلس الآن».

- «لماذا؟ هل وطئتُ قدميك؟».

- «لا، ولكنهم سيشهرون بي».

- «هل تحفلين حقاً... في أعماق قلبك؟».

- «على كل حال...»

- «إنك لا تأتين إثماً... أليس كذلك؟ لماذا لا ترقصين الفالس برفقتي؟».

- «ولكن لو حدث وعلمت أمي بـ...».

- «ما زلت تتعلقين بأهداب أمك؟».

- «آه... إنك تملك أدهى طريقة لجعل الفضائل تبدو حماقات نكراء».

- «ولكن الفضائل حمقاء، هل تأبهين إذا ما هذى الناس وثرثروا؟».

- «... لكن... على كل حال... دعنا نقلع عن هذا الحديث! الحمد للّه لقد بدأ الفالس، فالريل يقطع أنفاسي دائماً».

- «لا تتملصي من سؤالي، هل حدث أن همَّك ما يقوله الناس؟».

- «ها، إذا كنت تريد اختباري... لا! ولكن يُفترض بالفتاة أن تتأثر مع أني هذه الليلة لا أحفل أبداً».

- «برافو! لقد بدأت الآن تفكرين لنفسك، بدلاً من جعل الآخرين يفكرون لك، تلك بداية الحكمة».

- «لكن...».

- «عندما يُشهَّر بك بالقدر الذي شُهِّر بي، عندئذ تدركين تفاهة الأمر الذي تخلقه ثرثرة الناس. تأملي فقط، كيف أني لا أجد في شارلستون بيتاً واحداً يرحّب بي، حتى إن خدماتي لقضيتنا المقدسة، لم تشفع برفع الحرمان عني».

- «ما أفظع ذلك!».

- «لا... لا أبداً. في إمكانك يوم تخسرين سُمعتك الطيبة، أن تتبيني أي عبء مرهق هي، أو بالأحرى، ما هي الحرية الحقة!».

- «هذا هراء شائن».

- «شائن وصادق. في وسعك دائماً العمل دون اعتبار للسمعة، شريطة أن تملكي الشجاعة أو المال».

- «المال لا يقوى على شراء كل شيء».

- «لا بد أن أحداً لقّنك هذا، فأنت لا تفكرين وحدك بحديث مبتذل كهذا. ما الذي لا يقوى المال على شرائه؟».

- «ها... لا أعرف. لا السعادة ولا الحب.. على كل حال».

- «يستطيع بصفة عامة، وعندما يعجز، يمكنه شراء بعض ما يعوض عن ذلك من أرفع الأمور قيمة وشهرة».

- «وهل تملك مثل هذا المال الوفير يا كابتن باتلر؟».

- «أي سؤال صفيق يا سيدة هاملتون! إني دهش، ولكن، نعم بالنسبة إلى رجل تخلى عنه في شبابه وليس في حوزته شلن واحد. لقد جمعت ثروة طائلة، وإني واثق من جمع مليون دولار من اختراق الحصار».

- «لا؟؟!».

- «بلى، يظهر أن معظم الناس لن يستبينوا بعد إمكانية جني الأموال الطائلة من انهيار حضارة ما، بالقدر ذاته الذي تجنى فيه الثروة أثناء تشييد هذه الحضارة».

- «وماذا يعني هذا كله؟».

- «يعني أن عائلتك وعائلتي، وعائلة كل من الحاضرين هنا الليلة، جمعت ثرواتها نتيجة لعملية استبدال المدنية بالهمجية، أي بناء إمبراطورية، حيث توفر الأموال الطائلة، ولكن توجد أموال أوفر في انهيار هذه الإمبراطورية».

- «عن أية إمبراطورية تتحدث؟».

- «عن هذه الإمبراطورية التي نعيش فيها - عن الجنوب - الحلف - مملكة القطن - إنها تنهار تحت أقدامنا، غير أن معظم الأغبياء لا يشعرون بذلك فيستغلون الوضع الناجم عن هذا الانهيار».

- «إذن أنت تعتقد أننا سنندحر حقيقة؟!».

- «نعم، لماذا أكون كالنعامة؟».

- «يكظّني حديثك بمثل هذه الآراء، يا عزيزي. ألا يمكن أن تفصح عن أمور طيبة يا كابتن باتلر؟».

- «هل يسعدك أن أقول: «عيناك وعاء سمك ذهبي[1] ممتلئ حتى القمة بأصفى المياه الخضراء، وعندما يطفو السمك على القمة[2]، كما هو الآن، تبدين فتاة خلابة ساحرة»؟!».

- «أنا لا أميل إلى مثل هذا... أليست الموسيقى شجية؟ في وسعي رقص الفالس إلى الأبد، ما كنت أعلم أني نسيته هكذا...».

- «أنت أمهر راقصة ضمّتها ذراعاي».

- «كابتن باتلر، ينبغي ألّا تضمني بعنف زائد، الجميع ينظرون إلينا».

- «لو أن أحداً لم يكن ينظر، هل كنت تحفلين؟».

- «كابتن باتلر، نسيت نفسك».

- «ولا دقيقة، كيف أستطيع ذلك وأنت بين ذراعيَّ؟! ما هذا اللحن، أليس جديداً؟».

- «بلى... أليس قدسياً؟ إنه شيء اقتبسناه من الشمال».

- «ما اسمه؟».

- «اسمه: حين تنتهي هذه الحرب الضروس».

- «ما نصه؟ غنِّيه لي».

«يا أعز الناس عليَّ، هل تذكر
يوم تقابلنا آخر مرة؟
عندما أنبأتني بعظيم حبك،
وأنت تركع عند قدمي؟
آه، ما أشد ما بدوت فخوراً أمامي
ببذلتك الرمادية،

---

(1) يقصد بالسمك الذهبي انسياب عينيها - (المترجمان).

(2) أي عندما تنظر إليه - (المترجمان).

عندما أقسمت أن تبقى
مخلصاً لي ولوطنك.
أبكي حزينة وحيدة،
ولكن ما جدوى الآهات والدموع؟!
عندما تنتهي هذه الحرب الضروس،
أرجو أن نلتقي مرة ثانية!»

- «طبعاً، كانت في الأصل، ببذلتك الزرقاء، فحوّلناها إلى الرمادية. أنت ترقص الفالس بمهارة فائقة يا كابتن باتلر. معظم ضخام الأجسام لا يقوون على ذلك، كما تعلم. يؤلمني أن أفكر أنه ستنقضي سنين وسنين قبل أن يتاح لي الرقص ثانية».

- «بل دقائق معدودة فقط، إذ سأطلبك للريل القادم - والذي يليه، والذي يليه».

- «لا، لا أقدر، ينبغي ألّا تقدم على ذلك، فستقوّض سُمعتي».

- «إنها الآن حطام، فما تأثير رقصة أخرى؟ وربما أفسحت المجال للشبان الآخرين بعد أن أراقصك خمساً أو ستاً. بيد أني يجب أن أنعم بالأخيرة».

- «ها، لا بأس... أعرف أني أتصرف كالمجنونة، ولكني لا أحفل، لا أحفل مطلقاً بما يقوله أي إنسان، لقد سئمت جداً من الجلوس في البيت... سوف أرقص وأرقص».

- «ولن ترتدي السواد؟ إني أنفر من ثياب الحِداد».

- «لا أستطيع نزع رداء الحِداد - كابتن باتلر، ينبغي ألّا تضمّني بعنف زائد، سيجنّ جنوني عليك إذا فعلت».

- «وأنت تبدين رائعة في نوبة الجنون، سأعصرك مرة ثانية - هيا - فقط لأرى إن كنت ستجنّين. إنك تجهلين سحر الرواء الذي زانك ذلك اليوم في تولف أوكس، عندما جننت وطوَّحت بالأدوات...».

- «ها، أرجوك - ألن تنسى ذلك الحادث؟».

- «لا، فهو إحدى الذكريات التي لا تقدَّر بثمن: حسناء جنوبية مرفهة النشأة، بطبع إيرلندي فائر. أنت إيرلندية دماً ولحماً كما تعلمين».

- «هذه نهاية العزف يا عزيزي، وتلك هي العمة بيتي بات، خارجة من الغرفة الخلفية. إني أعرف أن السيدة ميريويذر لا بد أنها أخبرتها... باللّه عليك، دعنا نذهب هنالك، ونطل من النافذة... فأنا لا أريدها أن تراني الآن... إن عينيها كبيرتان كصحنَي فنجانَي قهوة».

10

في صبيحة اليوم التالي، وعند تناول الشاي، همت الدموع من عيني بيتي بات البكاءة، بينما ران الصمت على ميلاني وهي تستمع إلى سكارلت متحدية:

- «أنا لا أحفل أبداً إذا ما تحدثن عني. أراهن أني جمعت مالاً للمستشفى أكثر من أية فتاة أخرى - أكثر أيضاً من كل الأشياء العتيقة الشوهاء التي بعناها».

- «آه يا عزيزتي، ماذا يفيد المال؟!»، ولولت بيتي مستوضحة بِلَي راحتيها، «لم يسعني تصديق عيني وتشارلز المسكين لمّا يمضِ عام على وفاته... وذلك الكابتن الشنيع، باتلر... شهّر بك للعيان... وهو الرجل المرعب، المرعب جداً... يا سكارلت، لقد حدثتني عنه ابنة عم السيدة ويتينغ، السيدة كولمان، التي حضر زوجها من شارلستون. إنه الخروف الأسود بين أفراد عائلة طيبة - آه، كيف يمكن أن ينقلب أحد أبناء آل باتلر إلى شنيع كهذا؟ لقد لفظته شارلستون، وتردى في شين سُمعته، وهناك قضية تتعلق بفتاة - قضية فاضحة جداً لم تعلم بها السيدة كولمان».

- «ها، لا يسعني الاعتقاد أنه ذلك الرجل الشرير» قالت ميلي بلطف، «فهو يبدو إنساناً كاملاً. وعندما تتأملين عِظم جرأته وهو يخترق الحصار...».

- «إنه ليس جريئاً» اعترضت سكارلت بحزم، ساكبة نصف قارورة شراب فوق قطعة الكعك التي تخصها، «إنه يقوم بذلك من أجل المال فقط، وهو الذي أنبأني بهذه الحقيقة. إن قضية الحلف لا تهمه مطلقاً، بل يدّعي أننا سنندحر. إلا أنه يرقص رقصاً ممتازاً».

فألجم الفزع سامعيها.

- «لقد سئمت من الجلوس في البيت، ولن أظل كذلك بعد اليوم، وإذا كانوا قد شهّروا بي حول ما حدث الليلة الماضية، فهذا يعني أن سُمعتي تدهورت، ولن يؤثر ما سيقولونه بعد ذلك».

ولم يدر في خلدها أن هذه فكرة ريت باتلر، لقد جاءت صائبة، ولاءمت كل الملاءمة ما كان مدار تفكيرها.

- «آه ماذا ستقول أمك عند سماعها بالأمر؟ ماذا ستظن بي؟».

واجتاح سكارلت وخز الإثم الفاتر، وهي تتمثل أمها مذعورة مبهورة، لو قدر لها معرفة سلوك ابنتها المشين، ولكنها تشجعت لكون المسافة بين أتلانتا وتارا تبلغ خمسة وعشرين ميلاً، ومن المؤكد أن الآنسة بيتي لن تطلعها على الحادث، لأن ذلك سيكشف عن كونها رقيبة فاشلة، وإذا ما حبست بيتي لسانها عن الثرثرة، سلمت سكارلت.

- «أعتقد» قالت بيتي، «أجل أعتقد أن من الأفضل أن أكتب لهنري رسالة حول الموضوع - على كره مني - لأنه الرجل الوحيد بين أقربائنا، وأدعوه ليذهب ويؤنب الكابتن باتلر - آه يا عزيزتي، لو أن تشارلز حي فقط - ينبغي ألّا تتحدثي إلى ذلك الرجل مرة ثانية، أبداً، أبداً. . .».

كانت ميلاني تجلس صامتة ساكنة، يداها في حجرها، وقِطع كعكها مردودة في الطبق، ثم نهضت ومشت إلى خلف سكارلت، وطوقت عنقها بذراعيها:

- «عزيزتي»، قالت، «لا تقلقي، لقد تفهمت حقيقة موقفك، وإنها لشجاعة تلك التي قمت بها الليلة الفائتة، وسوف تكون عوناً كبيراً للمستشفى، وإذا ما تجرأ أي إنسان على التخرص بكلمة واحدة صغيرة، فسأعمل أنا على إيضاح الحقيقة له. . . عمتي بيتي، لا تبكي، كان من العسير على سكارلت أن تنزوي في البيت، أن لا تخرج إلى أي حفل، إنها لا تزال فتية»، وعبثت أصابعها بشعر سكارلت، «وربما كان من الأفضل كثيراً أن نخرج جميعاً من آونة إلى أخرى، وربما كنا أنانيين جداً، ونحن نقبع هنا، نرزح بأحزاننا. إن أوقات الحرب تختلف عن غيرها. عندما أفكر في أمر جميع الجنود الذين في المدينة، البعيدين عن مواطنهم، والذين يفتقرون إلى أصدقاء يذهبون إلى زيارتهم في الليل - وأمر أولئك الذين في المستشفى ممن تحسنت حالتهم إلى درجة تمكنهم من مغادرته دون العودة إلى الجيش - عندما أفكر في أولئك جميعاً أشعر أننا حقاً أنانيون. ينبغي أن يكون معنا، هنا في البيت، ثلاثة من الجنود الناقهين، الآن في هذه الدقيقة، ككل الناس الآخرين، وأن ندعوا بعض الجنود إلى العشاء مساء كل أحد. كفى يا سكارلت، لا تجزعي، فالناس لن يتفوهوا بكلمة إذا وعوا الحقيقة، نحن نعرف أنك تحبين تشارلز».

كانت سكارلت بعيدة عن أن تجزع، وكانت يدا ميلاني الناعمتان تضايقانها وهما تعبثان بشعرها، وهمَّت أن تدفعها بعيداً وتصيح بها قائلة: «هذا هراء»، إذ ما زالت الذكرى المنعشة حية في مخيلتها، ذكرى عراك جنود الحرس الوطني والميليشيا وجرحى المستشفيات ليحظوا بمراقصتها الليلة الماضية. إنها لا تريد دفاع ميلي عنها من بين جميع الخلق في الدنيا. إن في وسعها الدفاع عن نفسها. شكراً لك يا ميلي. . . وإذا أرادت العجائز الحقودات أن يجاهرن بشيء. . . فلا بأس، إن في وسعها المضي في طريقها دون الالتفات إلى أولئك

الشمطاوات، فهنالك العديد من الضباط الوسام في الدنيا يتنافسون لنيل رضاها، بحيث لن تأبه لما تقوله العجائز.

وبينما كانت بيتي تكفكف دموعها بفعل كلمات ميلي الملطفة، دخلت برسي تحمل رسالة كبيرة:

- «هذه لك يا آنسة ميلي، أحضرها زنجي صغير».

- «لي؟!»، قالت ميلي بدهشة وهي تشق الغلاف.

كانت سكارلت ماضية في التهام الكعك بشهية، فلم تلاحظ شيئاً حتى طرق مسامعها صوت انبجاس الدمع من عيني ميلاني، وعندما رفعت بصرها، رأت يد العمة بيتي بات تتجه إلى قلبها.

- «مات آشلي!»، زعقت بيتي بات، ملقية رأسها إلى الخلف، مرخية ذراعيها.

- «آه، يا إلهي»، صرخت سكارلت، وقد تحول دمعها إلى ماء مثلوج.

- «لا! لا!» صاحت ميلي، «أسرعي، أملاح الإغماء يا سكارلت».

- «اسمعي، اسمعي يا حلوتي، هل تشعرين بتحسن؟ تنفسي بعمق، لا، ليس آشلي، إني آسفة جداً لإرعابك، لقد بكيت من شدة الفرح». وفجأة فتحت قبضتها وضغطت بشيء كان داخلها على شفتيها:

- «إني سعيدة جداً» وهمى الدمع ثانية.

وبنظرة عابرة، لمحت سكارلت أن الشيء كان خاتماً ذهبياً عريضاً.

- «اقرئيها» قالت ميلي مشيرة إلى الرسالة على الأرض، «ها، ما أعذبه! ما ألطفه!».

التقطت سكارلت الرسالة دهشة، لترى فيها ما يلي بخط أسود خطته يد جريئة:

«قد يحتاج الحلف إلى دماء رجاله، ولكن، إلى الآن لم يطلب دماء قلوب نسائه. تقبَّلي أيتها السيدة العزيزة هذا الخاتم، رمزاً لتقديري واحترامي لشجاعتك، ولا تظني أن تضحيتك ذهبت سدى، لأن الخاتم قد استرد بعشرة أضعاف ثمنه. كابتن باتلر».

أدخلت ميلاني الخاتم في إصبعها ونظرت إليه هائمة.

- «أخبرتك أنه إنسان فاضل، أليس كذلك؟» قالت ملتفتة نحو بيتي بات، وقد أضاءت ابتسامتها وسط حبات الدمع المنثورة على وجهها... «فلن يخطر على بال أحد، غير رجل مثقف مفكر، كيف تفطر قلبي ألماً عندما - سأبعث بسلسلتي الذهبية عوضاً عنه. عمتي بيتي بات، ينبغي أن تبعثي له بطاقة دعوة للعشاء يوم الأحد، كيما أستطيع شكره».

وتحت تأثير نشوة الفرح، لم تفطن كلاً من ميلاني وعمتها إلى أن الكابتن باتلر لم يرجع خاتم سكارلت أيضاً، ولكن هذه فكرت في الأمر مستاءة. كانت تعرف أن ثقافة باتلر لم توحِ بهذه البادرة السامية، وإنما القضية أنه عزم على أن يتدبر أمر دعوته إلى بيت بيتي بات، وعرف بالضبط كيف يتصرف، ويحظى بأمنيته.

* * *

«لقد تألمت كثيراً عند سماع نبأ سلوكك مؤخراً»، مضت رسالة إيلين تقول، بينما تجهّم وجه سكارلت، التي كانت تقرأها، وهي تجلس إلى المنضدة. حقاً إن الأخبار السيئة تنتشر بسرعة. لقد سمعت مراراً وهي في شارلستون وسافانا، أن أهل أتلانتا يثرثرون، ويتحرشون بشؤون الآخرين، أكثر من أي جماعة في الجنوب. وها هي تتحقق من ذلك الآن، فالسوق الخيرية أقيمت مساء الاثنين، واليوم هو الخميس

وحسب. أيٌّ من تلك العجائز الحقودات أخذت على عاتقها الكتابة إلى إيلين؟ وللوهلة الأولى ارتابت ببيتي بات، ولكن سرعان ما تخلت عن تلك المظنة، فهذه التعيسة كانت شديدة الخشية من أن تلام على سلوك سكارلت الوقح، وهي آخر من يطلع إيلين عن رقابتها الناقصة، من المرجح أن تكون السيدة ميريويذر إذن.

واستطردت الرسالة: «من العسير عليَّ تصديق نسيانك لنفسك وتربيتك. سأتغاضى عن عدم لباقة ظهورك في المجتمع وأنت ترفلين بالحِداد، لرغبتك الخارقة في مؤازرة المستشفى، ولكن أن ترقصي، ومع رجل كالكابتن باتلر! لقد سمعت الكثير عنه (ومن لم يسمع بعد؟!)، وفي الأسبوع المنصرم فقط، كتبت لي بولين أنه رجل ذو سمعة شائنة، حتى إن عائلته نفسها في شارلستون لا تستقبله، باستثناء أمه المفؤودة طبعاً. إنه رجل قميء للغاية. سيستغل شبابك وطهرك وسذاجتك ليشهّر بك، ويصم عائلتك بالخزي والعار. كيف أمكن للآنسة بيتي أن تتقاعس عن واجبها حيالك؟!».

ونظرت سكارلت عبر المنضدة إلى عمتها العجوز التي ما إن تبيّنت خط إيلين حتى تهدّل فمها الصغير السمين فاضحاً خوفها الشديد، كالطفل الذي يخشى التوبيخ، ويأمل دفعه بالدموع.

وتابعت الرسالة قائلة: «إن قلبي ينفطر ألماً وأنا أفكر أنك نسيت تربيتك بهذه السرعة، وعنَّ لي أن أدعوك إلى البيت فوراً، ولكن سأدع ذلك لحصافة والدك. سيكون في أتلانتا يوم الجمعة، ليواجه الكابتن باتلر، وليعيدك معه إلى البيت. أخشى أن يقسو عليك، رغم توسلاتي إليه. آمل وأرجو من اللّه أن يكون الشباب والطيش هما اللذين استدرجاك إلى هذا التصرف الأهوج. ليس هناك من يرغب في خدمة القضية الوطنية أكثر مني، وأنا بدوري أرغب في أن تشاركني بناتي الرغبة ذاتها، لكن أن تشوّهي -».

وتستمر الرسالة على الوتيرة ذاتها، ولكن سكارلت ارتأت أن تكف عن القراءة، لأن الهلع تولاها دفعة واحدة، ولم تعد تشعر بالتحدي واللامبلاة الآن، بل شعرت أنها صغيرة وآثمة، شأنها يوم كانت في العاشرة من العمر، يوم قذفت سولين بقطعة البسكويت المطلية بالزبدة عبر المائدة. ما آلم أن تفكر في والدتها الحنونة، تعنّفها بهذه القسوة الطاغية، وبقدوم والدها إلى المدينة لمحادثة الكابتن باتلر. إن خطورة الأمر الحقيقية تتضخم في ذهنها. سيكون جيرالد قاسياً، وستكون هذه إحدى المرات التي لن تستطيع فيها التملص من العقاب، وذلك بالجلوس على ركبتيه، تناغيه حيناً وتشتط طوراً.

- «لا، لا أخبار سيئة؟» استوضحت بيتي بات مرتعدة.

- «بابا آتٍ في الغد، وسوف يجثم فوقي كبطة فوق بقة يونيو». أجابت سكارلت مغتمة النفس.

- «برسي، أحضري بعض الأملاح» أمرت بيتي بات متلعثمة، دافعة كرسيها بعيداً عن وجبة طعامها نصف المأكولة، «إني - إني أشعر بالإغماء».

- «إنها في جيبة تنورتك» قالت برسي التي كانت تحوم خلف سكارلت، تمتع نفسها بهذه التمثيلية العاطفية. لقد كان السيد جيرالد إنساناً مثيراً أبداً وهو ثائر، شريطة أن لا يكون ثورانه هذا منصبّاً على وجهها المتغضّن المشوّه.

عبثت بيتي بتنورتها ثم رفعت قارورة الأملاح إلى منخريها.

- «يجب عليكما أن تقفا إلى جانبي، وأن لا تتركاني وحيدة وإياه، ولو دقيقة واحدة» نشجت سكارلت، «إنه مغرم بكما كليكما، فإذا وجدتما معي فلن يستطيع الهياج عليَّ».

- «لا أستطيع» قالت بيتي بات بصوت وانٍ وهي تتحامل على

قدميها، «إني - إني أشعر بالمرض، ينبغي أن أسرع إلى سريري، سأنام طوال الغد، عليك أن توضحي له أعذاري».

«جبانة!» فكرت سكارلت، محدقة بها.

أما ميلي فاستجمعت قواها للدفاع عن سكارلت، رغم شحوب وجهها وجزع قلبها من تصور مواجهة السيد أوهارا الناري، «سوف... سوف أساعدك في إيضاح كيفية إقدامك على ذلك العمل من أجل المستشفى، ومن المؤكد أنه سيدرك الحقيقة».

- «لا، لن يدرك» قالت سكارلت، «آه، سوف أموت إذا أرغمت على العودة إلى تارا، في موكب الخزي، كما تتوعد أمي».

- «لن يسعك العودة إلى البيت»، صاحت بيتي بات، وقد انهمرت دموعها، «وإذا عدت فسأضطر - نعم سأضطر إلى الطلب من هنري، أن يأتي للإقامة معنا، وأنت تعرفين أني لا أستطيع أبداً العيش بصحبته. إني قلقة جداً برفقة ميلي وحدها في البيت أثناء الليل، والمدينة تعج بالعديد من الغرباء. أنت شجاعة جداً، ولذلك لا أخشى، بوجودك، البقاء هنا دون حماية رجل».

- «لن يستطيع أخذك إلى تارا» قالت ميلي، وقد بدت كأنها أيضاً على وشك البكاء، «هذا هو بيتك الآن، ماذا يمكن أن نفعل من دونك؟!».

«ستكونان سعيدتين بالاستغناء عني، لو عرفتما حقيقة نظرتي إليكما» فكرت سكارلت بمرارة، متمنّية وجود شخص آخر غير ميلاني، يدافع عنها أمام سخط جيرالد. إن من المؤلم أن يدافع عنك من تبغضه أشد البغض.

- «قد يكون من الواجب إلغاء دعوة الكابتن باتلر» ابتدرت بيتي بات.

- «ها، لا يمكننا ذلك، وإلّا اعتبر عملنا منتهى الفظاظة» صاحت ميلي مستاءة.

- «ساعداني على بلوغ السرير... سوف ينتابني المرض» ولولت بيتي بات، «آه يا سكارلت، كيف ترضين بجلب كل هذه المصائب لرأسي؟».

وكما يتوقع، كانت بيتي طريحة الفراش عندما وصل جيرالد مساء اليوم التالي، فبعثت إليه بكثير من عبارات الأسف، من خلف باب مخدعها الموصد، موكلة إلى الفتاتين المذعورتين الإشراف على مائدة العشاء. ورغم أنه قبّل سكارلت وقرص وجنتي ميلاني مطرياً وداعياً إياها «ابنة العم ميلي»، إلا أنه ظل مخلداً لصمت ينذر بشرّ مستطير. وفضّلت سكارلت، دون تصميم سابق، أن تجأر بالشكوى وتغلظ الأيمان، أما ميلاني، فوفاء بوعدها، تعلقت بأهداب سكارلت، كظل صامت صغير، وأثبت جيرالد أنه إنسان مهذب إلى حد كبير، فلم يوبخ ابنته أمام ميلي. وكان على سكارلت أن تقر بأن ميلي قامت بواجبها خير قيام، متصرفة كما لو أنها تجهل أن خطيئة ما قد ارتُكبت، والحق أنها نجحت في إلهاء جيرالد بالحديث، بعد فراغهم من العشاء.

- «أريد أن أعرف كل شيء عن المقاطعة»، قالت باشة في وجهه، «فإنديا وهوني لا يراسلانني كثيراً، وأنا أعلم أنك تحيط بكل ما يجري هناك. أخبرنا إذن عن عرس جون فونتين».

وفعلت الممالأة فعلها، وتحمس جيرالد قائلاً إن العرس حدث دون ضجة، «ليس كعرسيكما، لأن إجازة جو لم تتعدَّ أياماً قليلة، أما سالي، ابنة مونرو الصغيرة، فقد بدت وافرة الحسن».

وطبعاً، لم يستطع تذكّر الثوب الذي ظهرت به، ولكنه سمع أنها لم ترتدِ فستان اليوم الثاني.

- «لم تلبسه!» صاحت الفتاتان بصوت فاضح.

- «حتماً، لأنها لم تنعم بيوم ثانٍ»، أوضح جيرالد مستغرقاً في الضحك، قبل أن يفطن إلى أن عبارات كهذه لا تليق بآذان الإناث. وارتفعت معنويات سكارلت حتى الذروة، نتيجة لضحك والدها، فباركت خطة ميلاني.

- «عاد جو إلى فرجينيا في اليوم التالي»، أردف جيرالد مسرعاً، «ولم يقوما بزيارات في الجوار، ولم تنظم حفلات رقص، هذا وقد رجع التوأمان تارلتون إلى البيت».

- «بلغنا ذلك. هل التأمت جراحهما؟».

- «لم تكن جراحاً بليغة، ستيوارت أصيب في ركبته، واخترقت رصاصة من نوع ميني[1] كتف برنت - هل بلغك أيضاً أنهما تلقيا رسالتَي تقدير لشجاعتهما؟».

- «لا، أخبرنا».

- «كلاهما بعقل أرنب، أعتقد أن شيئاً من الدم الإيرلندي يجري في عروقهما» قال جيرالد هاشاً، «نسيت العمل الذي قاما به، ولكن برنت برتبة ملازم الآن».

سُرَّت سكارلت لدى سماعها عن بطولتهما، سُرَّت كأن الأمر يخصها، إذ إن اقتناعها لا يتبدد أبداً، في أن الرجل يظل من المعجبين المدلهين بها، إذا اتفق وكان عشيقها يوماً. وعندئذ تؤول كل منجزاته الخارقة إلى وحي طبيعتها وسحرها.

- «وفي جعبتي نبأ سيثير دهشتكما... يقال إن ستيوارت عاد إلى غزله في تولف أوكس».

- «هوني أو إنديا؟» استوضحت ميلي مشدوهة، بينما جحظت عينا سكارلت بالأسى.

---

(1) نسبة إلى مخترعها الفرنسي ميني (1814-1879) - (المترجمان).

- «ها، الآنسة إنديا طبعاً، ألم تكن على علاقة وثيقة به، إلى أن شرعت ابنتي الوقحة هذه، تناغيه بعينيها».

- «ها» قالت ميلي، مستاءة إلى حد ما بفعل صراحة جيرالد.

- «وفوق ذلك، بدأ برنت الشاب يتسكع حول تارا هذه الأيام».

لم تستطع سكارلت التفوّه بكلمة واحدة، فهجرُ عشاقها لها أمر مهين، لا سيما وقد تذكرت كيف احتج التوأمان بحدة بالغة عندما أنبأتهما بعزمها على الزواج بتشارلز، حتى إن ستيوارت هدد بقتل تشارلز، أو سكارلت، أو نفسه، أو الثلاثة معاً، لقد كان ذلك مثيراً للغاية.

- «سولين؟!» استفسرت ميلي، مفترة عن ابتسامة عذبة، «ولكنني ظننت أن السيد كنيدي...».

- «ها هو»، قال جيرالد، «فرانك كنيدي ما انفك يروغ حولها، وهو يخاف عليها من ظله، وسأطلب منه الإسراع في إعلان قصده إذا لم يصرح بذلك. لا، إنها صغيرتي».

- «كارين؟!».

- «ليست أكثر من طفلة» قالت سكارلت مكتظة، بعد أن كان قد عقد لسانها.

- «إنها أصغر بسنة واحدة تقريباً مما كنتِ يوم زواجك يا آنسة» أجاب جيرالد محتداً، «هل ذاك حقداً على عشيقك القديم لميله نحو شقيقتك؟!».

فاحمرّ وجه ميلي خجلاً، إنها لم تألف مثل هذه الصراحة، ولذلك أومأت لبيتر أن يجلب فطائر البطاطا الحلوة، ثم اندفعت مهووسة تبحث عن موضوع آخر في تلافيف عقلها، موضوع لا يكون خاصاً كهذا، وإنما يصرف السيد أوهارا عن مأرب رحلته. ولم يسعها

التفكير في شيء، بيد أن جيرالد، وقد شرع في الكلام، لم يعد في حاجة إلى من يحفزه على التحدث سوى وجود المستمعين، فاستطرد في الحديث عن لصوصية دائرة التموين التي تزيد طلباتها كل شهر، وعن حماقة جفرسون ديفيس الماكرة، وعن دناءة الإيرلنديين الذين تطوعوا في جيش الشماليين بإغراء المال الوفير.

وعندما وُضِعت كؤوس الشراب على المائدة، ونهضت الفتاتان لتتركاه وحيداً، رمق جيرالد ابنته بنظرة قاسية، من تحت جبينه المقطب، وأمر بانفرادها وإياه لدقائق معدودة، وعندها رنت سكارلت بعين اليأس إلى ميلي، التي راحت تطوي منديلها، عاجزة عن عمل شيء، ثم خرجت موصدة الباب.

- «ما هذه القصة يا آنستي؟!» زعق جيرالد وهو يملأ كأسه من النبيذ، «هل هي بدعة طريفة في السلوك؟ هل هو زواج آخر ذلك الذي تبغين، وما زلت حديثة الترمل؟!»

- «لا ترفع صوتك كثيراً يا بابا، فالخدم -».

- «لقد علموا بالأمر، تأكدي أنهم علموا، وكل الناس عرفوا بعارنا، هذا العار الذي أقعد أمك في فراشها، وحال دون رفع رأسي بين الناس. يا للعار، لا يا آنسة، ليس بك حاجة إلى أن تراوغي بالدموع هذه المرة» قال مسرعاً والرعب يغلف صوته، وهو يلمح جفني سكارلت ينتفضان وفمها يتكور، «إني أعرفك، إنك لا تتورّعين عن الغزل في حياة زوجك، لا تبكي، انتبهي، لن أقول هذه الليلة أكثر مما قلت، لأني سوف أقابل هذا الكابتن باتلر الظريف، الذي استخف بسمعة ابنتي غاية الاستخفاف. ولكن في الصباح - انتبهي الآن، لا تبكي، لن أتساهل معك أبداً، أبداً، سأكون حازماً، وستعودين إلى تارا غداً، قبل أن تشينينا جميعاً مرة ثانية. لا تبكي يا مدللة، انظري ما جلبته لك! أليست هذه هدية ظريفة؟! انظري، تطلعي، كيف رضيت أن

تزجي بي في مثل هذه المتاعب النكراء، وترغميني على قطع كل هذه المسافة الطويلة، في الوقت الذي أنا رجل متخم بالعمل، لا تبكي!».

* * *

أوت ميلاني وبيتي بات إلى سريريهما منذ ساعات، ولكن سكارلت ظلت مستيقظة في العتمة الدافئة. تسمع وجيب قلبها المنهلع فرقاً. أن تغادر أتلانتا في الوقت الذي انطلقت فيه الحياة من جديد، وتعود إلى البيت وتواجه إيلين، فذلك ما لا تطيقه. إنها تفضل الموت على مواجهة أمها! وتمنّت لو كانت مغيَّبة في الثرى، هذه الدقيقة عينها، وعندئذ، سينهش الأسف قلوب الجميع، لأنهم نفروها من الحياة، واستدارت ملقية رأسها على الوسادة الساخنة، إلى أن طرق مسامعها ضجة في أعلى الشارع الساكن، واستهجنت كون هذه الجلبة أليفة على أذنيها، مع أنها مبهمة يصعب تمييزها، وزلقت من على السرير متجهة إلى النافذة. كان الشارع بصفَّي أشجاره المتعانقة، ساكناً صامتاً، يلفّه الظلام، وتظلله سماء قاتمة ترصعها النجوم، واقتربت الضجة: هدير عجلات، وقع حوافر متئدة، أصوات بشرية. وفجأة كشرت عن أسنانها، لقد بلغ مسامعها صوت أجش تشوبه اللهجة الإيرلندية، وتفوح منه رائحة الويسكي، وهو يتعالى مرنماً: «بغ في عربة منخفضة المؤخرة»، لقد عرفته. ومع أن اليوم ليس يوم قضاء في جونسبورو، إلا أن جيرالد كان عائداً إلى البيت في الحلة الوردية ذاتها.

ولمحت الهيكل الأسود لعربة خيل تقف أمام البيت، ويترجل منها أشخاص لم تستطع تمييز هوياتهم، كان أحد الناس يرافقه وتريث شخصان عند البوابة، وسمعت صوت المزلاج وصوت جيرالد يتبعه واضحاً:

- «والآن سأغني لك أغنية «النواح» التي مطلعها: «اندبي روبرت إيميت»، إنها أغنية ينبغي لك معرفتها يا بني، سأعلمك إياها».

- «إني أحب تعلمها»، أجاب رفيقه، وفي صوته الممدود المتباطئ، إيماءة ضحك مكتوم، «ولكن ليس الآن يا سيد أوهارا».

- «آه، يا إلهي، إنه ذلك البغيض، باتلر!» هجست سكارلت منزعجة لأول وهلة، ثم استجمعت أباديد جأشها، إذ على الأقل، لم يقتلا بعضهما، ولا بد أنهما توصلا إلى شروط ودية حتى أتيا البيت معاً في هذه الساعة، وفي مثل هذه الحالة.

- «سوف أغنيها، وسوف تصيخ لي، وإلا فسأقتلك لأنك أورانجي».

- «لست أورانجياً - أنا شارلستوني».

- «ليس هذا أفضل، بل أسوأ، شقيقتا زوجتي تسكنان شارلستون فأنا عليم بها».

«هل سيخبر جميع الجيران؟» فكرت سكارلت مذعورة، وهي تتناول دثارها. ولكن ما الذي تستطيع عمله؟ إنها لا تستطيع النزول إلى الطابق السفلي في مثل هذه الساعة من الليل وتجر والدها من الشارع.

ومن دون سابق إنذار، دفع جيرالد رأسه إلى الوراء وهو مستند إلى البوابة، وشرع يغني نشيد «النواح» بصوت مدوٍّ عميق، بينما اتكأت سكارلت بمرفقيها على حافة النافذة تستمع إلى النشيد وتبتسم رغماً عنها.

كان يمكن أن تكون أغنية رائعة، لو أن والدها يحسن اللحن، وهي إحدى أغنياتها المفضلة. ولهنيهة قصيرة، رددت بعده بصوت شجي الأبيات التي مطلعها:

«إنها بعيدة عن الأرض التي يرقد فيها بطلها الشاب
والمحبون حولها يتنهدون».

واستمر الغناء، وبلغت أذنيها حركة صادرة من غرفتي ميلاني وبيتي بات. تانك التعستان ستكونان فريسة الفزع الآن، فهما لم تألفا

تصرفات رجال أشداء كجيرالد. وعندما انتهت الأغنية، تقدم هيكلا شخصين مندمجين في قالب واحد، وصعدا الممشى الخارجي ثم الدرجات، وبعدها سُمع قرعٌ حذر على الباب.

«أظن أن من واجبي النزول» فكرت سكارلت، «فهو أولاً وآخراً والدي، قد تموت بيتي المسكينة قبل أن تتمكن من النزول»، هذا علاوة على أنها لم تكن تريد أن يرى الخدم والدها وهو بحالته الزرية الحاضرة. كما أن من المحتمل تمرده فيما لو جرب بيتر حمله إلى السرير. لقد كان بورك الإنسان الوحيد الذي يعرف كيف يسيطر عليه.

لفَّت سكارلت جسدها بالدثار، الذي شبكته بدبوس حول عنقها، ثم أضاءت شمعة جانب السرير، وهرعت تهبط السلم المعتم إلى القاعة الأمامية، وهناك وضعت الشمعة على الحاملة، وفتحت الباب، فلمحت في ظلال الضوء المرتعش ريت باتلر، مهندماً في غاية الأناقة يسند والدها البدين، الصغير القامة. من الجلي أن نشيد «النواح» كان أغنية جيرالد الأثيرة، فها هو متعلق بذراع رفيقه جهاراً، وقد طارت قبعته عن رأسه، وتشعث شعره الجعدي الطويل، فغدا كعرف فرس أبيض، وانحرف رباط عنقه إلى تحت أذنه، وتلطخ صدر قميصه ببقع الشراب.

- «والدك كما أعتقد؟» قال الكابتن باتلر، وعيناه طروبتان في وجهه الأسمر، تلك العينان اللتان أحاطتا بثياب نومها، بنظرة واحدة كادت تخترق دثارها.

- «أدخله»، قالت باقتضاب وهي مرتبكة بلباسها، ساخطة على جيرالد لزجّه بها في وضع يتيح لهذا الرجل الهزء بها.

دفع ريت جيرالد إلى الأمام، وقال:

- «هل أساعدك على الصعود به إلى الطابق الثاني، فلن تستطيعي تدبر الأمر وحدك، إنه ثقيل».

وانفغر فوها رعباً، لوقاحة هذا العرض. تأمل فقط ما يمكن أن تظنه بيتي وميلاني، وهما راقدتان في سريريهما، لو صعد ريت إلى الطابق العلوي.

- «يا إلهي، لا! هنا وحسب، على تلك الكنبة» واستعملت كلمة ستي (Settee) للكنبة.

- «ستي (Suttee)[1] - أهذا ما قلته؟».

- «سأكون لك من الشاكرات إن احتفظت بلسانك مهذباً في فمك. هنا أضجعه الآن».

- «هل أنزع نعليه؟».

- «لا، فقد نام وهو ينتعلهما من قبل».

كان يمكن أن تبتر لسانها عقاباً على زلتها هذه، فقد ضحك ريت برقّة، وهمَّ برسم شارة الصليب على ساقي جيرالد.

- «أرجوك أن تذهب الآن».

فمشى في القاعة المعتمة، والتقط قبعته التي ألقى بها على عتبة الباب.

- «سأراك يوم الأحد على العشاء». قال وهو يغلق الباب خلفه بهدوء.

نهضت سكارلت في الخامسة والنصف صباحاً، قبل أن يكون الخدم قد ولجوا من الساحة الخلفية لإعداد الفطور. هبطت الدرج بخفة إلى الطابق السفلي الساكن، وهناك رأت جيرالد قد استيقظ وجلس على الكنبة، ضاغطاً رأسه الصلب بين راحتيه، كما لو أنه يريد أن يسحقه. وعندما دخلت نظر إليها خلسة، لقد كان الألم الناجم عن تحريك عينيه مبرحاً جداً، أكثر من أن يحتمله، ولذلك كان يئنّ.

---

(1) عادة حرق الزوجة لنفسها على أثر وفاة زوجها عند الهنود - (المترجمان).

- «لقد سلكت سلوكاً بديعاً! بابا»، ابتدرته في همس غاضب، «بمجيئك إلى البيت في مثل تلك الساعة، وإيقاظك الجيران كلهم بغنائك».

- «أنا غنّيت؟!».

- «غنّيت؟ لقد أيقظت أصداء السماء وأنت تغني «النواح»».

- «لا أذكر شيئاً من ذلك».

- «الجيران سيذكرون كل شيء حتى يوم مماتهم، وكذلك الآنسة بيتي وميلاني».

- «يا للّه!» تأوه جيرالد، محركاً لساناً يتكاثف فوقه البياض، حول شفتين جافتين، «إن ما أذكره قليل، بعد أن باشرنا اللعب».

- «اللعب؟!».

- «ذلك الوعل الحقير باتلر، تبجّح أنه أحسن لاعب بوكر في -».

- «كم بلغت خسارتك؟».

- «لقد ربحت، هذا أمر بديهي، كأس أو اثنتان تساعدان على كسب اللعب».

- «انظر في محفظة نقودك!».

وكأن كل حركة من حركاته كانت سكرة من سكرات الموت، أخرج جيرالد حافظته من معطفه، وفتحها، كانت فارغة خاوية، فنظر إليها بانذهال مخذول.

- «خمسمئة دولار!» قال، «جلبتها لشراء بعض الأشياء من المهربين للسيدة أوهارا، والآن لا أملك حتى أجرة الطريق إلى تارا!».

وبينما هي ترنو حانقة إلى الحافظة الفارغة تبادرت إلى ذهنها فكرة سرعان ما نضجت:

- «لن أستطيع رفع رأسي في هذه المدينة» استهلت، «لقد جللتنا بالشنار جميعاً».

- «احفظي لسانك يا آنسة، ألا ترين رأسي يكاد يتصدع ألماً».

- «تأتي البيت ثملاً مع رجل كالكابتن باتلر، وتغني بأعلى صوتك كيما يسمعك الجميع، ثم تضيع كل تلك النقود...».

- «الرجل ماهر جداً في لعب الورق، حيث لا يمكن اعتباره فاضلاً لأنه -».

- «ماذا ستقول أمي عند سماعها بالأمر؟».

وتطلع إليها فجأة مدركاً قصدها، والعذاب ينهش جسده.

- «إنك لن تخبري أمك بكلمة واحدة وتكدريها، أليس كذلك؟».

فلم تقل شيئاً، بل زمت شفتيها.

- «فكري الآن كم سيؤذيها ذلك، وهي الرقيقة جداً».

- «ولأفكر يا بابا أنك قلت ليلة الأمس فقط، إني شنت العائلة، أنا، من جرّاء رقصتي الصغيرة التعسة في سبيل أن أجمع المال للجنود. آه، أريد أن أبكي».

- «لا، لا تبكي» توسل جيرالد، «سيكون ذلك أكثر مما يستطيع رأسي المسكين احتماله، ومن المؤكد أنه يتصدع الآن».

- «وكذلك قلت إني -».

- «انتبهي يا بنيتي، انتبهي يا بنيتي، لا تتكدري مما قاله والدك العجوز المسكين، وهو لا يقصد شيئاً، ولا يعرف شيئاً! إني واثق أنك فتاة رائعة حسنة النية، أجل إني واثق».

- «وتريد أن تعيدني إلى البيت يحف بي العار».

- «آه يا عزيزتي، ما كنت لأفعل ذلك، وإنما أردت إغاظتك فقط. لن تكاشفي أمك بموضوع النقود، وهي حيرى الآن حول المصروف؟».

- «لا» قالت سكارلت دون مواربة، «لن أكاشفها، شريطة أن

تدعني أقيم هنا، وأن تخبر أمي أن ليس من شيء هام في القضية، اللهم إلا ثرثرة مهولة من العجائز الحقودات».

نظر جيرالد إلى ابنته وهو بهيئة تستدعي الرثاء، ثم قال:

- «إن هذا استغلال... لا أقل أبداً...».

- «والليلة الماضية كانت فاضحة، لا أقل أبداً».

- «حسناً» طفق يتملق، «سوف نتناسى كل ذلك. وهل تعتقدين أن سيدة ظريفة كالآنسة بيتي يمكن أن تقتني شيئاً من البراندي في البيت؟ فشعر الكلب -».

أدارت سكارلت أعطافها وتسللت على رؤوس أصابعها، عبر القاعة الساكنة، إلى غرفة الطعام، لتجلب قارورة البراندي التي تدعوها، هي وميلي سراً: «قارورة الإغماء» لأن بيتي بات تترشف جرعة منها، كلما يودي بها قلبها المضطرب إلى الغشيان - أو ما يشبه الغشيان.

كان وجهها يشع بنشوة الظفر، دون أن يعكر صفوها أثر من عار لموقفها البنوي العاق من جيرالد. سيهدئ الكذب من روع إيلين إذا ما كتب لها طفيلي آخر شيئاً بعد اليوم. والآن في وسعها أن تقيم في أتلانتا، والآن في وسعها أن تفعل ما تشاء، ما يلذ لها ويطيب، ما دامت بيتي بات هي ما على هي عليه من ضعف وهزال. وفتحت مخمر الشراب، ووقفت هنيهة والقارورة والكوب مضغوطين إلى صدرها.

ورأت سكارلت، وهي في اليقظة، سلسلة الرحلات بجانب مياه بيتشتري الراغية، وحفلات الباربكيو في ستون مونتين، وحفلات الاستقبال والرقص، وأمسيات الرقص، وركوب عربات الخيل، ومقاصف العشاء في ليالي الآحاد، ستكون هنالك، تماماً في قلب الأحداث، تماماً في وسط جمهور الرجال، والرجال يقعون في شباك الحب بسهولة بالغة، بعد أن تزجي لهم بعض الخدمات في المستشفى،

بيد أنها لن تبالي بالمستشفى كثيراً بعد اليوم. فما أسهل إثارة الرجال وهم بين أنياب المرض، يتهالكون بين أيدي الفتاة البارعة، تماماً كتساقط حبات الدراق الناضج في تارا، عندما تهز الأشجار هزاً خفيفاً.

وعادت نحو والدها بالشراب المنعش، شاكرة اللّه أن عقل أوهارا الشهير لم يستطع الصمود في مباراة الشراب في الليلة الفائتة، وتولتها الحيرة فجأة، فيما إذا كانت لريت علاقة بالأمر.

11

بعد ظهر يوم من أيام الأسبوع التالي، عادت سكارلت من المستشفى منهوكة حنقى، كانت تعبة من الوقوف على قدميها طوال فترة الصباح، متكدرة لأن السيدة ميريويذر وبّختها بعنف، لجلوسها على جانب سرير جندي، أثناء تضميدها ذراعه الجريحة، وكانت بيتي بات وميلاني تقفان على الشرفة، مهندمتين في أجمل حللهما، ومعهما ويد الصغير وبرسي، على أهبة القيام بجولة الزيارات الأسبوعية، فالتمست سكارلت إعفاءها من مرافقتهما، وصعدت إلى غرفتها في الطابق العلوي.

وعندما تلاشى آخر صدى لهدير العجلات، وتأكدت أنها أضحت في مأمن بعيدة عن نظر أفراد العائلة، انسلت بهدوء إلى غرفة ميلاني، وأدارت المفتاح في قفلها. كانت غرفة صغيرة أنيقة طاهرة، غرفة ساكنة دافئة بفعل أشعة شمس الأصيل المائلة. أرضها لماعة عارية إلا من بعض قطع السجاد الزاهية الخشنة، وجدرانها البيضاء عديمة الزخرفة، إلا في إحدى زواياها، حيث صنعت سكارلت ما يشبه المزار المقدس.

في هذه الزاوية، وفي ظلال عَلَم الحلف المزركش، عُلِّق السيف ذو المقبض الذهبي الذي انتضاه والد ميلاني في الحرب المكسيكية، السيف ذاته الذي امتشقه تشارلز عندما انطلق إلى الحرب، وإلى جانبه عُلِّق حزام تشارلز وقراب فرده أيضاً، ثم مسدسه في الجراب. وبين

السيف والمسدس، علقت لوحة معدنية نقشت عليها صورة لتشارلز نفسه، بدا فيها عبوساً، فخوراً في حلته الرمادية، تشع عيناه الكبيرتان العسليتان، وترتسم على شفتيه بسمة حيية.

لم تنظر سكارلت إلى الصورة، حتى مجرد نظرة عابرة، بل اتجهت رأساً عبر الغرفة إلى صندوق الرسائل المربع، المصنوع من خشب الورد، والموضوع على المنضدة إلى جانب السرير الضيق، ومن داخله، تناولت رزمة من الرسائل، حُزمت بعضها إلى بعض بشريط أزرق، وعنونت بخط آشلي، إلى ميلاني. وعلى رأس تلك الرزمة كانت الرسالة التي وصلت ذلك الصباح، وهي الرسالة التي فتحتها.

في البدء، عندما كانت سكارلت تقرأ الرسائل سراً، كانت شديدة الذعر أمام ضميرها، بالغة الخوف من الفضيحة، بحيث لم تكن تقوى على فتح الملفات إلا بصعوبة، نظراً إلى اضطراب كيانها. أما الآن فإن شعورها بالشرف وحسن السمعة، الذي لم يكن يوماً ما مرهف الحساسية، كان قد تبلد بفعل تكرار الخطأ، وحتى خوفها من اكتشاف فعلتها هذه تضاءل كذلك، غير أنها كانت تفكر من وقت إلى آخر: «ماذا تقول أمي لو عرفت بالأمر».

إنها تعلم أن إيلين تفضل رؤية ابنتها ميتة على أن تكون آثمة خائنة كما هي في هذا الموقف. وقد أقلقها تصور حنق إيلين في أول الأمر، لأنها كانت لا تزال ترغب في التشبه بأمها في كل مناحي الحياة - ولكن صوت الإغراء لقراءة الرسائل كان نافذاً مسموعاً، ولذا فقد أقصت موضوع إيلين عن رأسها، إذ أضحت بارعة في طرد الأفكار المقلقة من مخيلتها هذه الأيام. لقد تعلمت أن تقول: «لن أفكر في هذه الفكرة المكدرة أو تلك الآن، سأفكر فيها غداً»، والذي يحدث عموماً أن لا تعنّ لها الفكرة أبداً عندما يأتي الغد، أو أن تخف وطأتها

من جرّاء التأخير بحيث لا تظل قوية المفعول، وهكذا لم تترك قضية رسائل آشلي أثراً عميقاً في وجدانها.

كانت ميلاني سمحة دائماً فيما يتعلق برسائل آشلي، تقرأ أجزاء منها علانية، أمام العمة بيتي وسكارلت، بيد أن الذي كان يمضّ سكارلت ويقضّ مضاجعها، ذلك الجزء غير المقروء، وهو الذي ساقها إلى اختلاس قراءة بريد شقيقة زوجها، إذ لا بد لها من أن تعرف إن كان آشلي يحب زوجته منذ أن بنى عليها، أم أنه يتظاهر بحبها تزلفاً، هل يخاطبها بعبارات ودية رقيقة؟ أي عواطف يزجيها، وبأية حرارة؟

وأخرجت الرسالة من داخل المغلف بعناية فائقة. وصافح عينيها خط آشلي الصغير المتناسق، وهي تقرأ عبارة «زوجتي العزيزة»، فتنفست الصعداء، إذا لم يدعُ ميلاني «حبيبتي» أو «عشيقتي» إلى الآن.

«زوجتي العزيزة، كتبت إليَّ تقولين إنك قلقة من أن أكون أكتم عنك حقيقة أفكاري، وتسألينني عما يشغل بالي هذه الأيام».

«يا اللّه»، فكرت سكارلت برعشة الإثم، «يكتم حقيقة أفكاره! أتستطيع ميلي قراءة ما يدور في خلده؟ أو في خلدي؟ هل ترتاب بأني وإياه -».

وارتعدت يداها ذعراً، وهي تقرّب الرسالة منها، ولكن ما إن قرأت الفقرة التالية، حتى انفرجت كربتها، وهدأ روعها.

«زوجتي العزيزة: إن كنت قد أخفيت أي شيء عنك، فذلك لأني لا أريد إرساء عبء على كتفيك، بأن أضيف إلى همومك حول سلامة شخصي، هموماً جديدة حول متاعبي الفكرية، على أني لا أستطيع كتمان شيء عنك، لأنك تعرفينني تمام المعرفة. لا تقلقي: فلم أصب بجراح، ولم يعترني مرض، وعندي كفايتي من الطعام، كما أني أنعم بسرير للنوم بين وقت وآخر، وليس للجندي أن يحلم بأكثر من هذا، ولكن يا ميلاني، إن أفكاراً عويصة تضطرم في قلبي، وسأفتح قلبي لك.

في ليالي الصيف هذه، أظل مستيقظاً على فراشي، بعد أن يكون المعسكر قد استغرق في النوم مدة طويلة، فأتطلع إلى النجوم، وأتساءل مرة تلو المرة: لماذا أنت هنا يا آشلي ويلكس؟! في سبيل ماذا أنت تحارب؟!

ليس في سبيل المجد والشرف حتماً، فالحرب عمل قذر، وأنا لا أحب القذارة. إني لست جندياً، وليس لي رغبة في نشدان الشهرة الفارغة، حتى في فوهة المدفع. ومع ذلك، فها أنا موجود هنا في أتون الحرب، أنا الذي ما قضى اللّه أن أكون سوى سيد قروي نشيط. فنفير الأبواق يا ميلاني، لا يؤجج دمي، ودوي الطبول لا يحث خطاي. وأنا أدرك بوضوح أننا خُدعنا، خُدعنا بمنهجية نفوسنا الجنوبية، معتقدين أن في وسع واحدنا دحر عشرة من أهل الشمال، ظانين أن في وسع صاحب الجلالة القطن أن يحكم العالم. خُدعنا، أيضاً، بالعبارات والخطب الرنانة، بكلمات التهجم والكراهية تخرج من أفواه هؤلاء الذين يتسنّمون المراكز العالية، هؤلاء الرجال الذين نحترمهم ونجلّهم - صاحب الجلالة القطن، حقوق الولايات، الشماليون الملاعين.

وهكذا حين أضطجع على حرامي، أتطلع إلى النجوم متسائلاً: «في سبيل ماذا أنت تحارب؟» وأروح أفكر في حقوق الولايات وفي القطن والعبيد وأهل الشمال الذين نشئنا على بغضهم، وأنا أعلم أن أياً من هذه الأشياء، ليس السبب في وجودي هنا، ثم أرى في مقابل ذلك تولف أوكس، وأتذكّر كيف يميل شعاع القمر عبر الأعمدة البيضاء، ثم أذكر منظر أشجار الماغنوليا السماوي، وهي تتألق في أشعته الفضية، وكيف تظلل الورود المتسلقة جانب الرواق في أشد أوقات الظهيرة حرارة. وأرى أمي تخيط هناك، كما كانت تفعل يوم كنا فتياناً نلهو، وأسمع العبيد عائدين إلى البيت، عائدين عند الغسق تعبين، يغنّون

منتظرين العشاء، ثم صوت الدولاب، والدلو يهبط في البئر العميقة، ومنظر الطريق الطويلة المؤدية إلى النهر عبر حقول القطن، والضباب يرتفع من المنخفضات عند الفجر. وهذا هو سبب وجودي هنا، أنا الذي أمقت الحرب والبؤس والمجد، ولا أضمر البغضاء لأي إنسان. ربما كان هذا ما يسمّونه «وطنية» أو حب الأهل والوطن. ولكن يا ميلاني، إن الأمر أعمق من ذلك، لأن هذه الأشياء التي ذكرتها يا ميلاني ليست إلا رمزاً للشيء الذي أخاطر من أجله بحياتي، رموزاً لنوع الحياة التي أهواها، لأني أحارب من أجل الأيام الماضية، من أجل أساليب الحياة المنطوية، التي أحبها كثيراً، والتي أخشى أن تكون قد تصرمت إلى الأبد الآن، مهما كان نوع الميتة التي سنموتها، لأنه سواء ربحنا أو خسرنا، ستكون النتيجة ذاتها بالنسبة إلينا، الخسارة. إذا ربحنا هذه الحرب، ونعمنا بمملكة القطن التي تراود أحلامنا فسنظل خاسرين، لأننا سنصبح أمة تختلف عن ذي قبل، وستتخلى عنا أساليب الحياة الماضية الهادئة، سيقف العالم على أبوابنا مرغياً بطلب القطن، ونستطيع عندئذ أن نفرض السعر الذي نريد، ويومها أخشى أن نصبح مثل أهل الشمال الذين نسخر الآن من نشاطهم في جمع الثروة وإحراز المال، ومن روحهم التجارية، وإذا خسرنا يا ميلاني! إذا خسرنا، فيا لسوء العاقبة.

لست خائفاً من الخطر أو الأسر أو الجراح أو حتى الموت، إذا كان لا بد أن تحين ساعته، ولكني أخاف إذا انتهت هذه الحرب، أن لا تعود بنا الأيام سيرتها الأولى. وإني أنتمي إلى تلك الأيام الماضية، إني لا أنتمي إلى هذا الحاضر المسعور على سفك الدماء، كما أني أخاف ألّا أستطيع الانسجام والمستقبل، مع أني سأحاول ذلك، وأنت كذلك يا عزيزتي، لأننا من دم واحد. أنا لا أعرف ما الذي سيتمخض عنه المستقبل، ولكنه لن يكون عذباً راضياً كالماضي. إني أرقد في

فراشي وأتطلع إلى الشبان النائمين قريباً مني، وأنا أتساءل ما إذا كان التوأمان أو ألِكس أو كيد تراودهم مثل هذه الأفكار، أتساءل ما إذا كانوا يعرفون أنهم يحاربون في سبيل قضية خاسرة، منذ الساعة التي أطلقت فيها الرصاصة الأولى. لأن قضيتنا في الحقيقة هي أسلوبنا في العيش، وقد انقضى هذا الآن، ولكني لا أعتقد أنهم يفكرون في مثل هذه الأمور، ولذلك فهم سعداء.

لم أكن قد توقعت هذا لنا يوم طلبت منك الزواج بي، كنت أفكر في الحياة تمضي على سننها في تولف أوكس، شأنها دائماً، مطمئنة، رتيبة، يسيرة. نحن متماثلان يا ميلاني، نحب الأشياء الهادئة ذاتها، وقد تصورت أن فترة مديدة من سنين السلم تنتظرنا، فترة نقرأ خلالها ونصيخ السمع للموسيقى، ونحلّق في الأحلام. ولكن لم أكن أتوقع هذا، لا . . . لم أكن أتوقعه أبداً. لم أحسب أن هذا يمكن أن يقع لنا جميعاً، هذا التدمير لأساليب حياتنا الماضية، هذه المجازر الدامية والبغضاء! ميلاني، لا شيء يستحق كل هذه التضحية، لا حقوق الولايات، ولا العبيد، ولا القطن، لا شيء يستحق الذي يحل بنا الآن، والذي يمكن أن يحل، فإذا ما هزمنا الشماليون، فسيكون المستقبل رهيباً لدرجة لا تصدق، ويا عزيزتي، ما زال من الممكن أن يهزمونا.

كان يجب ألّا أدوّن هذه الكلمات، بل كان يجب ألّا أفكر فيها، ولكنك سألتني عما يشغل قلبي، والخوف من الهزيمة هو ما يشغله. هل تتذكرين ذلك الرجل في حفلة الباربكيو يوم أعلنت خطوبتنا، الرجل المدعو باتلر، الذي هو من شارلستون كما تدل لهجته، والذي كاد يسبب قتالاً بسبب عباراته عن جهل الجنوبيين؟ هل تذكرين كيف أراد التوأمان أن يقتلاه لأنه قال إن ما نملكه من المنشآت والمصاهر والسفن ومخازن الأسلحة ومصانع الآلات، عدد قليل؟ هل تذكرين

كيف قال إن في إمكان أسطول أهل الشمال إحكام حصارنا، بحيث لن نستطيع شحن أقطاننا؟ لقد كان باتلر على حق. إننا نحارب بنادق أهل الشمال الجديدة ببنادق حرب الثورة، وسرعان ما ستشتد قبضة الحصار، بحيث سينقطع تهريب الأشياء لنا حتى المواد الطبية. كان يجب أن نعير اهتماماً للنقاد الساخرين الذين كانوا يعرفون الحقائق أمثال باتلر، عوضاً عن السياسيين الذين كانوا فقط يشعرون ويتحدثون. لقد قال، وهذا هو الواقع، إن الجنوب لا يملك شيئاً يستطيع معه شن الحرب، عدا القطن والعنجهية. وها هي أقطاننا تتكدس، عديمة الجدوى، وكل ما بقي لنا هو ذاك الذي دعاه «عنجهية» ولكني أسمي تلك العنجهية «الشجاعة العديمة النظير. وإذا -»

إلا أن سكارلت طوت الرسالة بعناية، دون أن تأتي على البقية، ثم دفعتها داخل الغلاف، نزقة برمة، بحيث لم يسعها الاستمرار في القراءة، علاوة على أن الرسالة، بحديثها السخيف عن الهزيمة، كدرتها لسبب غامض، لم تكنه سره، وفوق ذلك، فإنها لم تكن تقرأ رسائل ميلاني إلى آشلي، لتعرف حقيقة أفكارة المربكة المملة هذه. لقد كان عليها أن تصغي إلى الكثير من أفكاره عندما كان يجلس في الرواق في تارا، تلك الأيام التي انقضت.

كل ما تريد معرفته ينحصر فيما إذا كان يكتب رسائل عاطفية إلى زوجته، وها هو لا يفعل ذلك أبداً. لقد قرأت كل رسائل الصندوق فلم تعثر في أي منها على ما لا يمكن لشقيق أن يكتبه لشقيقته. إن الرسائل ودية، مسلية، ذات نسق متبدل، ولكنها لم تكن رسائل محب. لقد تلقت هي بنفسها عدداً كبيراً جداً من رسائل الحب الحارة، بحيث يستحيل ألّا تميز عبارة العاطفة الأصيلة فور قراءتها. على أن عبارة كتلك ليس لها وجود هنا.

وكما كان يحدث دائماً بعد اختلاس القراءة، غمرها إحساس

بالقناعة الغرارة، إذ شعرت واثقة أن آشلي ما زال يحبها، ولذلك فهي أبداً تتساءل ساخرة كيف أن ميلاني لم تدرك بعدُ أن آشلي يحبها كصديقة وحسب، والواضح أن ميلاني لا تتحسس نقصاً في رسائل زوجها، لأنها لا تملك رسائل محب آخر لتقارنها برسائل آشلي.

«إنه يكتب رسائل حمقاء كهذه» فكرت سكارلت، إذا اتفق أن كتب لي أي زوج يبني عليّ، ثرثرة مطردة كهذه، فمن المؤكد أنه سيسمع مني ما لا يسرّه! حتى شارلي نفسه كتب رسائل أفضل من هذه».

أما بقية الرسائل، فقد رفعت أطراف غلافاتها، وخلست بنظرتها تواريخها، متذكرة محتوياتها. لم تكن تحمل مقالات وصفية رائعة عن فترات استراحة الجنود، وعن كرات الهجوم، كما كان يكتب دارسي ميد لوالديه، أو دلاس ماكلور التعس لشقيقتيه المسنتين الآنستين فيث وهوب، وكان الوالدان ميد، والشقيقتان ماكلور يتلون هذه الرسائل فخورين على كل الجيران، وقد أحست سكارلت مراراً بالصغار لأن ميلاني لا تتلقى رسائل كهذه من آشلي، لتقرأها جهاراً في حلقات الخياطة.

كان آشلي يحاول، أثناء مراسلته ميلاني، تجاهل الحرب كلية، ويجهد في أن يضفي على شخصيهما غلالة سحرية تحجب عنهما كل الأحداث التي وقعت منذ كانت قلعة صمتر قضية الساعة. كان كأنه يحاول الاعتقاد بعدم وجود حرب. كان يتحدث عن الكتب التي قرأها وميلاني، والأغاني التي أنشداها والأصدقاء القدامى الذين يعرفانهم، والأماكن التي كان قد زارها خلال رحلته العظيمة. وكان ينبعث من ثنايا السطور حنين تواق للعودة إلى تولف أوكس، كما أنه كان يخط الصفحات الكاملة عن الصيد ورحلات الركوب الطويلة في مسالك الغابات الساكنة، تحت نجوم الخريف الباردة، عن الباربكيو وشواء السمك، عن سكون الليالي المقمرة، والجمال الوقور للبيت العتيق.

وتأملت كلماته في الرسالة التي قرأتها الآن: «لم أكن أتوقع هذا. لا . . . لم أكن أتوقعه أبداً» وتمثلتها صرخة روح معذبة تواجه جائحة لا تقوى على مقاومتها، ولكنها مع ذلك مرغمة على مواجهتها. وتملكتها الحيرة، فإن لم يكن يخشى الجراح والموت، فما الذي يخشاه إذن، واجتهدت تريد أن تفهم الفكرة العسيرة المعقدة، لكن دون تعليل أو تحليل - الحرب ترمضه، وهو - وهو لا يحب الأمور التي ترمضه. . . أنا. . . مثلاً. . . إنه يحبني، ولكنه كان يخشى الزواج بي، بسبب - بسبب خوفه من أن أعكر صفو أسلوبه في التفكير والعيش. لا، لم يكن خوفه السبب الحقيقي، فآشلي ليس جباناً، ولا يمكن أن يكون كذلك، في الوقت الذي يذكر اسمه في رسائل الشرف، وفي الوقت الذي يكتب فيه الكولونيل سلون تلك الرسالة إلى ميلاني وكل عباراتها تتحدث عن سلوكه الرفيع في قيادة الهجوم، إذ ما قر رأيه على أمر، فلن يستطيع أحد أن يكون أكثر شجاعة أو أقوى إرادة و - آه، إني لا أعرف ماهية ذلك الشيء، لو أني فقط أدركت ذلك الشيء المتعلق به، منذ سنوات، فأنا واثقة بأنه كان يتزوجني.

ووقفت هنيهة، ترفع الرسائل إلى صدرها، وتفكر في آشلي بشوق، فعواطفها نحوه لم تتبدل منذ اليوم الذي وقعت فيه بحبه، إنها العواطف ذاتها التي عقدت لسانها ذلك اليوم، عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت على الشرفة في تارا، فرأت آشلي باسماً على صهوة جواده، وشعره يتلألأ كالفضة في شمس الصباح، إن حبها لا يزال بمثابة تعبد صبية صغيرة لرجل لم تفهم كنهه، رجل يملك كل الصفات التي تنقصها، والتي تعجبها في الوقت ذاته، إنه لا يزال حلم صبية صغيرة بالفارس الجميل الكامل، وحلمها لا يتعدى الرغبة في إقراره بحبه لها، لا يتعدى الأمل بقبلة. . .

لقد أحست واثقة بعد قراءة الرسائل أنه يحبها، يحب سكارلت،

حتى رغم زواجه بميلاني، ومن المؤكد أن ذلك كان كل ما تمني به النفس تقريباً، فهي ما زالت تلك الفتاة العذراء الطاهرة. لو أن تشارلز بصفاقته العمهة، وتودده المنفر، طرق أياً من مواطن الحساسية العميقة السريعة التأثر في كيانها، لما كانت أمانيها بآشلي تنتهي بقبلة، ولكن تلك الليالي القليلة المقمرة التي انفردت خلالها بتشارلز، لم يلمس فيها مشاعرها، أو يبلغ بها فيها حد النضوج.

لم يوقظ تشارلز في نفسها أي فكرة عما يمكن أن تكون العاطفة الحقيقية، أو الرقة، أو التآلف الصادق بين الروح والجسد.

كل ما كانت تعنيه العاطفة بالنسبة إليها، العبودية المطلقة. أما فورة الرجل التي لا يمكن تحليل بواعثها، والتي لا تشارك المرأة فيها، وهي عملية مؤلمة ممضة تفضي بشكل لا مناص منه، إلى عملية الولادة الأكثر إيلاماً، ولذا لم يكن الزواج أمراً مدهشاً مفاجئاً لها، وهذا شأنه، لقد لمّحت إيلين قبل العرس إلى أن الزواج أمر ينبغي للنساء تحمّله بصبر وكرامة، وقد أكد قول إيلين تلك التعليقات الهامة التي سمعتها من غيرها من المتزوجات، منذ انضمت إلى قافلتهن، وقد سرَّها أن تفرغ من موضوع الشهوة والزواج.

لقد انتهت من الزواج، لا من الحب، فحبها لآشلي أمر مغاير، لا علاقة له بالشهوة أو الزواج، أمر مقدس، تأخذ قدسيته بالأنفاس، عاطفة خلست نموها خلساً خلال الأيام الطويلة من صمتها الواجب المفروض، وتغذت بالذكريات المتكررة والآمال.

وتنهدت وهي تلف الشريط الأزرق بعناية حول رزمة الرسائل، متسائلة للمرة الألف عن ذلك السر في آشلي الذي يجاوز إدراكها، وحاولت أن تصل بتفكيرها فيه إلى بعض الاستنتاجات الرضية، ولكن كما هو الحال دائماً، تجاوز الاستنتاج عقلها الساذج، فأعادت الرسائل إلى جوف الصندوق وأغلقت بابه. ثم زوت ما بين عينيها، لقد

رجع عقلها إلى الجزء الأخير من الرسالة التي قرأتها الآن، إلى حيث ذكر الكابتن باتلر. ما أغرب أن يؤخذ آشلي بكلام تفوّه به رجل مراوغ منذ سنة! أجل! إن الكابتن باتلر رجل مراوغ، لا يمكن إنكار ذلك، رغم أنه يرقص بجلال، فلا أحد إلا المراوغ يمكنه أن ينطق بتلك العبارات التي تفوّه بها ليلة السوق الخيرية عن الحلف.

وعبرت الغرفة، ووقفت قبالة المرآة، مربتة على شعرها الناعم باعتزاز، وارتفعت معنوياتها، شأنها دائماً كلما تأملت بشرتها البيضاء وعينيها الخضراوين المائلتين، وابتسمت لتبرز غمازتيها، ثم طردت الكابتن باتلر من تفكيرها وهي تتمثل صورتها جذلة، متذكّرة كيف أن آشلي يحب دائماً غمازتيها.

ولم يعكر صفو ابتهاجها بشبابها وبوثوقها مجدداً بحب آشلي، أي غصة وجدانية من جرّاء حبها لزوج امرأة أخرى، أو قراءتها لبريد تلك المرأة.

وفتحت الباب، ونزلت السلّم المتعرج المعتم بقلب طروب، وعندما بلغت منتصف السلّم، شرعت تغنّي «حين تنتهي هذه الحرب الضروس».

12

استمرت الحرب، في معظمها، انتصارات للجنوبيين، ولكن الناس كفوا عن القول: «انتصار آخر وتنتهي الحرب» تماماً كما كفوا عن القول إن أهل الشمال جبناء، فقد اتضح للجميع الآن، أن الشماليين بعيدون عن الجبن، وأن دحرهم يتطلب أكثر من انتصار واحد. وعلى كل فقد سجّل الجنوبيون غلبتهم في تنيسي بقيادة الجنرالين مورغن وفورست، وظفرهم في معركة بول ران الثانية، تلك المعركة الخالدة كشهادة ساطعة على جماجم الشماليين المسلوخة الجلد. ولكن ثمن هذه الجماجم كان باهظاً جداً، بحيث تجاوز عدد الجرحى والمرضى ما يمكن لمستشفيات أتلانتا وبيوتها استيعابه، وبحيث أخذت صفوف قبور الجنود في مقبرة أوكلاند تمتدّ في كل يوم.

وكان من جرّاء استمرار الحرب أن انخفضت قيمة عملة الحلف بصورة تنذر بالخطر، وتبع ذلك ارتفاع أسعار الغذاء والكساء، وكانت دائرة التموين تفرض جبايات ثقيلة جداً من المواد الغذائية على الأهلين، ولذا بدأت موائد أتلانتا تعاني من القلة، بينما ندر وجود الدقيق وغلا ثمنه جداً، وشاع استعمال خبز القمح عوضاً عن البسكويت وأقراص الحلوى والكعك، وخلت دكاكين الجزارين تماماً من لحوم البقر، وقنعت بالقليل القليل من لحم الغنم الذي كان ثمنه

خيالياً ولا يقوى على شرائه إلّا الأغنياء. ومع ذلك ما زال هناك وفرة في لحوم الخنازير والطيور، وكذلك في الخضار.

أحكم الشماليون حصارهم حول موانئ الحلف، فغدت المواد الكمالية كالشاي والقهوة وأقمشة الحرير ومشدات عظام الحيتان والكولونيا ومجلات الأزياء والكتب، نادرة الوجود وصعبة المنال. حتى أرخص البضائع القطنية حلّقت أسعارها في الارتفاع، واضطرت السيدات آسفات إلى أن يرتدين فساتينهن القديمة فصلاً آخر من فصول السنة، وأنزلت الأنوال التي تكاثف عليها غبار السنين من العليات، فكنت تجد في معظم غرف الجلوس في أتلانتا، نسيجاً من الغزل البيتي. وشرع الجميع: الجنود والمدنيون، النساء والأطفال، والعبيد، يلبسون النسيج المحلي الخشن، وبالطبع اختفى القماش الرمادي الذي يشبه بلونه حلل الجنود، ليحل محله القماش البلدي المخطط البني اللون.

بدأت المستشفيات تشكو من ندرة الكينا والكلوميل والأفيون والمورفين والكلوروفورم واليود، وارتفعت قيمة الضمادات القطنية والكتانية الآن كثيراً بحيث لم تعد تُلقى بسلال المهملات بعد استعمالها، بل أخذت كل سيدة عاملة في المستشفى ترجع إلى البيت محملة بسلال من الخرق الملطخة بالدم لتغسل وتكوى وتعاد لتستعمل في تضميد جرحى آخرين.

ولكن بالنسبة إلى سكارلت، الخارجة حديثاً من خدور الترمل، كانت الحرب بكل شرورها، لا تعني إلا وقتاً بهيجاً بالمرح والهناءة، حتى مخصصات الغذاء والكساء القليلة التي خصت بها لم تكدرها، فقد كانت سعيدة جداً بالعودة إلى الحياة ثانية.

وعندما استعرضت أوقات السنة الفائتة المقيتة، بأيامها الرتيبة تمر تباعاً، يماثل واحدها الآخر إلى درجة كبيرة، بدا لها أن تسارع الزمن

قد بلغ درجة لا تصدق، فهي الآن لا يبزغ فجر اليوم إلا وهي في مغامرة مثيرة حيث تلتقي برجال جدد يطلبون زيارتها، ويطرون جمالها، ويخبرونها أن من دواعي الفخر والشرف لهم أن يحاربوا، بل ربما أن يضحّوا بأرواحهم في سبيلها. لقد أحبت آشلي، وتستطيع أن تحبه حتى آخر رمق في حياتها، ولكن ذلك لا يمنعها من إغراء الآخرين لطلب الزواج بها.

ومن ناحية أخرى، أضفت الحرب الدائرة على العلاقات الاجتماعية بين الأهلين، خلف خطوط القتال، طابع استهتار ممتع بالقواعد المسلكية المتبعة: «عدم كلفة» نظر إليها الكبار بعين الحذر المستريب، فالنساء يرين كل يوم رجالاً غرباء، يزورون بناتهن، رجالاً يأتون دون أن تسبقهم رسائل تعريف، تمهد لقدومهم، ودون أن يكون ماضيهم معلوماً. والذي أفزع الأمهات، رؤية بناتهن يتأبطن أذرع هؤلاء الرجال، فالسيدة ميريويذر مثلاً، التي لم تقبِّل زوجها بتاتاً إلا بعد حفلة العرس، لم تصدق عينيها بسهولة، عندما قبضت على مايبل وهي تقبِّل الزواف الصغير: رينيه بيكارد، وتفاقم الغضب ساعة رفضت مايبل أن تقر بخطئها وتعتذر عنه. ورغم أن رينيه قد طلب يدها فوراً، فإن الأمور لم تعد إلى مجاريها، وأحست السيدة ميريويذر أن الجنوب يسير نحو كارثة خلقية شاملة، ولقد رددت ذلك مراراً، وأيدتها بقية الأمهات بحرارة قلبية، ملقيات باللائمة على الحرب.

بيد أن الرجال الذين كانوا يتوقعون حين آجالهم خلال أسبوع أو شهر، لم يكن في وسعهم الانتظار مدة سنة قبل أن يلتمسوا نداء الفتاة باسمها الأول، مسبوقاً بالطبع بلفظة آنسة، ولم يكن في مقدورهم أيضاً التقيد بالأصول، وإطالة فترة المعاشرة، كما كانت تفرض الخلال الحميدة قبل الحرب، إذ أصبح من المحتمل أن يقترحوا الزواج بعد ثلاثة أشهر أو أربعة، وأصبحت الفتيات، مع معرفتهن الأكيدة بأن

تقاليد السيدة الفاضلة تقضي برفض عروض الزواج الثلاثة الأولى التي يتقدم بها طالب يدها، يندفعن برعونة لقبول الزواج، بمجرد العرض الأول.

«عدم الكلفة» هذا، جعل من الحرب مرتع لهو حافل بالنسبة إلى سكارلت، فهي باستثناء عمل التمريض المقيت، وعبء لف الضمادات، لم تكن تحفل لو استمرت الحرب إلى الأبد، والحقيقة أنه أصبح في مقدروها الآن العمل داخل المستشفى برباطة جأش، بعد أن أضحى مجالاً خصباً لتصيد الرجال، فالجرحى البائسون يستسلمون لمفاتنها من دون مقاومة، هي تجدد ضماداتهم وتغسل وجوههم وتنفض وسائدهم وتعرضها للهواء، وهم ينزلقون في مهاوي الحب. آه، لقد أنقذها اللّه بعد تلك السنة الكئيبة المظلمة.

لقد رجعت سكارلت ثانية إلى حيث كانت قبل زواجها بتشارلز، وبدا الأمر كأنها لم تتزوج مطلقاً، كأنها لم تنكد بفاجعة موته، كأنها لم تلد ولده، فالحرب والولادة قد مرّتا بها دون أن تهزّا أي وتر حساس في كيانها، وها هي لم يتبدل فيها شيء. كانت أماً لطفل، ولكن بقية سكان البيت القرميدي الأحمر هم الذين يعتنون بطفلها أفضل اعتناء، بحيث كادت تنساه تقريباً. إن عقلها وقلبها ينبئانها بأنها رجعت إلى ما كانت عليه: سكارلت أوهارا ثانية، حسناء المقاطعة. وهكذا تقمصت هواجس وأعمال الأيام الماضية، بيد أن حقل الأعمال قد اتسع اتساعاً هائلاً. ودون أن تبالي باستنكار صديقات العمة بيتي، اندفعت في طريقها ذاته، طريقها الذي سلكته قبل الزواج: تحضر الحفلات، تراقص المعجبين، تراكب الجنود، تغازل الشبان، تعمل كل شيء عملته وهي صبية عذراء، اللهم إلا الانقطاع عن ارتداء حلل الحِداد، فذلك إن لجأت إليه كان كفيلاً، كما تعلم، بأن يقصم ظهرَي بيتي بات وميلاني. إنها فاتنة وهي أيم، فتنتها وهي عذراء، وهي طروب، عندما

تطلق لنفسها العنان، وهي مسايرة، ما دام ليس هناك ما يصدعها، ولكنها مغترة بمظهرها وذيوع صيتها.

إنها سعيدة الآن، بينما كانت لأسابيع خلت إنسانة تعيسة بائسة، سعيدة بعشاقها، وتأكيدهم لسحرها، كسعادتها لو حظيت بمعاشرة آشلي المتزوج بميلاني، هذه المعاشرة المحفوفة بالأخطار. بيد أنه كان أسهل عليها، نوعاً ما، أن تتحمل فكرة كون آشلي يخص غيرها، وهو بعيد عنها، مما وهو في الجوار. فقد كان يبدو أحياناً، ومئات الأميال تمتد بين أتلانتا وفرجينيا، بعلها كما هو بعل ميلاني.

وهكذا تصرمت أشهر الخريف من عام 1862 بسرعة، لما رافقها من التمريض والرقص وقيادة العربات ولف الضمادات، تلك الأعمال التي كانت تستغرق كل وقتها، عدا زياراتها القصيرة لتارا. وكانت هذه الزيارات مخيّبة لآمالها لأنه لم يكن يتاح لها فيها إلا فسحة وجيزة من الزمن، لتنتهزها في الأحاديث الطويلة الهادئة مع أمها، الأحاديث التي كانت تتشوق لحلول موعدها وهي في أتلانتا، فلم يكن هنالك متسع من الوقت لتجالس إيلين أثناء انهماكها في الخياطة، حيث تتنشق رائحة العطر الخفيف المتضوع من حقيبة أغصان الليمون، وتسمع حفيف تنورتها، وتتحسس يديها الناعمتين تداعبان وجنتيها برقّة وحنان.

كانت إيلين في هذه الأيام نحيلة البنية، مشغولة البال، تقف على قدميها منذ الصباح إلى ما بعد أن ينام أفراد المزرعة بوقت طويل، فمتطلبات دائرة تموين الحلف تتزايد باطراد شهراً بعد شهر، ومهمتها أن تخلق من تارا أداة إنتاج. حتى جيرالد كان منهمكاً في العمل، للمرة الأولى خلال سنين عديدة، لأنه لم يستطع إيجاد ناظر يحل محل جوناس ويلكرسون، ولذلك راح يشرف على فدادين الأرض بنفسه، وهو يركب حصانه. وهكذا، فبانهماك إيلين بالعمل بحيث لم يسعها منح ابنتها أكثر من قبلة قبيل النوم، وبانشغال جيرالد وسط الحقول

طوال النهار، وجدت سكارلت تارا مكاناً منفراً. حتى شقيقتاها كانتا مستغرقتين في شؤونهما الخاصة، إذ توصلت سولين الآن إلى تفاهم مع فرانك كنيدي، فراحت تغني «حين تنتهي هذه الحرب الضروس» بمعني مبيت طبعاً، اعتبرته سكارلت قريباً من أن لا يحتمل، أما كارين فكانت معتكفة مع أحلامها حول برنت تارلتون، بحيث لن تشوق رفقتها.

ومع أن سكارلت كانت تقصد تارا والسعادة تغمر قلبها، إلا أنها لم تكن تشعر بالأسف أبداً، عندما كانت تصلها رسائل بيتي وميلاني، التي لا مناص من ورودها، ترجوانها فيها العودة. وفي مثل هذه الأوقات، كانت إيلين تتنهد محزونة، لفراق كبرى بناتها، وحفيدها الوحيد:

- «ولكن ينبغي ألّا أكون أنانية وأبقيك هنا، في الوقت الذي يحتاجون إليك لمهام التمريض في أتلانتا» قالت، «إنما - إنما يا عزيزتي، يبدو أني لا أجد الوقت أبداً لأتحدث إليك، ولأحس ثانية بأنك ابنتي الصغيرة، قبل أن تفارقيني».

- «إني دائماً ابنتك الصغيرة» قالت سكارلت موارية رأسها في صدر إيلين، شاعرة بآثامها تتحفز لإدانتها. إنها لم تخبر أمها أن ما يشدها إلى أتلانتا هو الرقص والعشاق، وليس خدمة الحلف. كما أن هناك العديد من الأمور التي كتمتها عن أمها هذه الأيام، ولكنها كانت أحرص ما تكون على كتمان حقيقة زيارات ريت باتلر المتكررة لبيت العمة بيتي بات.

* * *

خلال الشهور التي تلت السوق الخيرية، كان ريت يزورهن كلما حضر إلى أتلانتا، فيصطحب سكارلت بعربته إلى حفلات الرقص والأسواق الخيرية، وينتظرها خارج المستشفى ليوصلها إلى البيت.

ولم تعد هي تخشى فضحه لسرّها، ولكن كانت تكمن دائماً في مؤخرة عقلها، الذكرى المقلقة لرؤيته لها وهي في أسوأ حالاتها، ومعرفته حقيقة علاقتها بآشلي، تلك المعرفة التي كانت الرادع للسانها كلما ضايقها، وما أكثر ما كان يضايقها!

كان في منتصف العقد الرابع، أكبر سناً من أي عاشق جذبته بسحرها، وكانت إذا ما أرادت كبحه والسيطرة عليه، كما سيطرت على العشاق المقاربين لها في السن، تبدو عاجزة كالطفل.

كان يبدو دائماً كأن شيئاً لم يدهشه أو يطربه كثيراً. وكانت تشعر أنها تطربه أكثر من أي شيء في الدنيا عندما يثيرها ولا تستطيع عليه رداً. وغالباً ما انفجرت في حنق علني، بفعل استفزازاته المحنكة، وهي التي تملك طبع جيرالد الإيرلندي، إلى جانب عذوبة الوجه الغرارة التي ورثتها عن إيلين.

فيما مضى، لم يحدث أبداً أن تحاملت على نفسها لتكبح جماح ثائرتها، إلا في حضور إيلين، أما الآن فإن من المؤلم لها أن تضطر إلى خنق الكلمات، وإلى الصمت، خشية ضحكته الساخرة اللاذعة. ولو كان هو يفقد طبعه فيثور أيضاً، لما شعرت أنها مضطرة إلى اتخاذ مثل هذا الموقف.

وبعد مبارزات كلامية معه، قلَّ أن خرجت منها ظافرة، أقسمت إنه لا يطاق، وإنه سيّئ التربية، تعوزه أخلاق الرجل الفاضل، وأن لن تكون لها أية علاقة معه. ولكنه عاجلاً أو آجلاً، كان يجيء إلى أتلانتا، ويتظاهر بزيارة العمة بيتي، مقدماً لسكارلت بكياسة مفرطة، هدية من علب السكاكر أحضرها لها من ناسو، أو يحجز مقعدين متجاورين في حفلة موسيقية، أو يطلبها للرقص. وكانت دائماً تطرب كثيراً لوقاحته المحببة، بحيث إنها تضحك وتتغاضى عن سيئاته الماضية، إلى أن تقع سيئة أخرى جديدة.

ورغم كل صفاته المغيظة، اشتد تلهّفها لزيارته. كان هناك شيء مثير يتعلق بشخصه، شيء لم تستطع تحليله، شيء يختلف عما في كل الرجال الذين تعرفهم، كان هناك شيء يأخذ بالأنفاس، ينبعث من رشاقة جسده الكبير، ذلك الجسد الذي يجعل من مجرد ولوجه أية غرفة صدمة مادية فجائية، وكان هناك شيء في السخرية المقذعة المؤنسة، التي تشع من عينيه السوداوتين، والتي تتحدى روحها فتتوثب لإخضاعه.

كانت تهجس حائرة مضطربة: «إن الأمر يبدو كأني مغرمة به. ولكني لست كذلك، مع أني لا أستطيع تفهُّم حقيقة ما يساورني من شعور نحوه».

بيد أن الشعور المثير تابع طريقه. وعندما كان يأتي في زياراته، كانت فحولته الكاملة تجعل منزل العمة بيتي المهذب الأنيق، يبدو صغيراً هزيلاً، كقنٍّ زري. ولم تكن سكارلت الوحيدة التي تستبد بها الدهشة، وترضى كارهة، عن وجوده في البيت، بل كانت الآنسة بيتي كذلك في حيرة واضطراب دائمين.

وفي الوقت الذي كانت فيه بيتي تعلم أن إيلين تستنكر زياراته لابنتها، وأن قرار شارلستون بحرمانه من المجتمع المهذب ليس أمراً يستخف به، إلا أنها لم يعد في مقدورها مقاومة إغراءاته المنمقة، ومنعه من تقبيل يدها، أكثر مما تقاوم ذبابة إغراء قدر من العسل. وفوق ذلك، كان يجلب لها عادة بعض الهدايا الصغيرة من ناسو، مؤكداً أنه ابتاعها خصيصاً لها، ثم اخترق الحصار مجازفاً بحياته في سبيلها: إبر ودبابيس وأزرار وملفات خيوط حريرية ودبابيس شعر. إذ كان الحصول على هذه الأدوات الكمالية الصغيرة مستحيلاً تقريباً في هذه الأيام - كانت السيدات يستعملن دبابيس شعر خشبية مسننة باليد، وثمار البلوط المغلفة بالقماش عوضاً عن الأزرار. كما كان ينقص بيتي

المناعة الخلقية لرفض هذه الهدايا، علاوة على كونها مغرمة كالأطفال بمحتويات الرزم المفاجئة، ولا تستطيع الامتناع عن فتح رزمة.

وهكذا بعد أن فتحت أولاها، لم تجد أن في مقدورها رفض ما تتابع بعدها. وعندئذ لم تستطع، وقد قبلت هداياه، استجماع قواها كما ينبغي، لتصارحه أن سُمعته تجعل من غير اللائق أن يزور ثلاث سيدات وحيدات، لا ينعمن بحماية رجل. وكانت العمة بيتي تحس دائماً أنها في حاجة إلى حماية رجل عندما يكون ريت باتلر في البيت:

- «لا أعرف كنه هذا الرجل»، تنهدت عاجزة، «ولكن - على كل حال، أعتقد أنه يمكن أن يكون رجلاً جذاباً لطيفاً، لو أني أستطيع مجرد إحساس أنه - أنه يحترم النساء من أعماق قلبه».

أما ميلاني، فمنذ رجوع خاتم العرس، وهي تشعر أن ريت رجل فاضل ذو أخلاق حسنة ورقّة نادرة، وقد أخذت بفعلته هذه. وكان دائم اللطف معها، ولكنها كانت تتهيب جانبه بعض التهيب، الأمر الذي يعود في معظمه إلى خجلها من أي رجل لم تعرفه منذ الصغر. كانت تشعر في سريرتها بالأسف نحوه، وهو شعور قد يلذّه لو عرف به، كما كانت واثقة أن نوعاً من المآسي الأسطورية قد نغص حياته، وجعل منه إنساناً خشناً مراً، وأحست أن ما يعوزه هو حب امرأة صالحة. ولم تكن هي طوال حياتها المستكينة المرعية قد خبرت الشر، بل نادراً ما اعتقدت بوجوده. وعندما كانت ألسن القيل والقال تهمس بالأقاصيص عن باتلر، وعن فتاة شارلستون، ذهلت ميلاني ولم تصدق، وبدلاً من أن يحيلها ضده، إذ به يجعلها أكثر عطفاً حيياً عليه بسبب سخطها على ما تصورته ظلماً جسيماً نزل به.

وافقت سكارلت ضمناً على رأي العمة بيتي، وشعرت هي أيضاً أنه لا يكنّ أدنى احترام لأي امرأة، مع إمكان استثناء ميلاني فقط، فسكارلت لا تزال تحس كأنها عارية كلما التهمها بعينيه صعوداً

ونزولاً، وليس ذلك لأنه أفصح يوماً عن شيء من هذا القبيل، وهو لو فعل لأنَّبته بكلماتها اللاذعة، وإنما كان شعورها ناشئاً عن النظرة النفاذة التي تنبعث من عينيه المشعتين في وجهه الأسمر، بتفرس وقح منفر، كما لو أن كل النساء ملك يديه، يتمتع بهن في أوقاته المواتية، ولا تفارقه هذه النظرة إلا مع ميلاني وحسب، إذ عندما يتطلع إليها، تفيض من عينيه تلك النظرة الباردة المخمنة، كما تغيب كل سخرية، وعوضاً عن ذلك يشوب صوته نغم خاص وهو يحدثها، نغم مهذب، متلهف لخدمتها.

- «لا أرى سبباً لكونك أرقَّ معها منك معي»، ابتدرته سكارلت نزقة مستاءة بعد ظهر أحد الأيام، حين أوت ميلاني وبيتي لتنعما بقيلولتهما وانفردت هي به.

وكانت سكارلت قد لاحظت قبلاً كيف أمسك ريت بخيط القطن المبروم الذي كانت ميلاني تلفّه من أجل الحياكة، طوال ساعات بأكملها، كما راقبت التعبير الغامض الغفل الذي كسا وجهه وهو يستمع إليها تتحدث بفخر واستطراد عن آشلي وترقيته. وكانت سكارلت تعرف أن ريت لا يحمل أية فكرة سامية عن آشلي، ولا يحفل مطلقاً بحقيقة ترقيته إلى رتبة رائد، ومع ذلك فها هو يردّ بأجوبة مهذبة، وينطق بالإجلال الخليق بمروءة آشلي وشهامته.

«وإذا ما ذكرت اسم آشلي كثيراً»، فكرت سكارلت مغتاظة، «رفع حاجبيه وابتسم تلك الابتسامة الخبيثة العارفة».

- «إني أجمل منها بكثير»، أردفت: «ولا أرى سبباً لكونك أرقَّ معها».

- «هل لي أن آمل أن تكون الغيرة بدأت تدبّ فيك؟».

- «ها، لا تذهب بك الظنون هذا المذهب».

- «لقد تحطم أمل آخر. . . إذا كنتُ أرقَّ مع السيدة ويلكس، فذلك لأنها جديرة بالرقّة. . . إنها واحدة من أولئك الأشخاص القليلين جداً الذين عرفتهم في حياتي، الأشخاص الطيبين المخلصين، المنكرين لذواتهم. بيد أنك قد تكونين فشلت في ملاحظة هذه الصفات فيها. وزيادة على ذلك، إنها رغم فتوّتها، تعتبر إحدى قلة من السيدات العظيمات اللواتي نلتُ شرف معرفتهن».

- «هل تقصد القول إنك لا تعتقد أني سيدة عظيمة، أيضاً؟».

- «أعتقد أننا اتفقنا أثناء اجتماعنا الأول أنك لست سيدة على الإطلاق».

- «ها! إذا كنت تود أن تكون مقيتاً فظاً إلى هذه الدرجة، فتذكّر تلك الحادثة الثانية! كيف تستطيع تذكّر تلك الزلة الصبيانية؟ لقد حدث ذلك منذ مدة طويلة، كبرت خلالها، وكان يمكن أن أنسى كل ما يتعلق بها لو أنك لا تضرب دائماً على الوتر ذاته، مشيراً إليها!».

- «أنا لا أعتقد أنها كانت زلة صبيانية، كما لا أعتقد أنك تغيرت، ففي مقدورك الآن، كما في السابق، قذف الأصص إذا لم تستطيعي نيل مرادك. ولكنك تنالين عادة ما تبغين هذه الأيام، ولذلك لم يعد فيك حاجة إلى تكسير الطرف القديمة».

- «آه، إنك - أتمنى لو كنت رجلاً! لدعوتك إلى المبارزة و -».

- «وقتلت بغيظك. فأنا أستطيع إصابة الدايم[1] على بعد خمسين ياردة، الأفضل أن تلجئي إلى أسلحتك الخاصة - الغمازتان، والأصص وأمثال ذلك».

- «لستَ إلّا وغداً لئيماً».

- «هل تتوقعين أن يستبد بي الغضب فأفقد طبعي بفعل عبارتك؟

---

(1) قطعة نقود معدنية أميركية قيمتها 10 سنتات - (المترجمان).

إني آسف أن أخيب ظنك، ليس في وسعك إفقادي اتزاني بنعتي بأوصاف هي في الواقع حقيقية، من المؤكد أني وغد، ولم لا؟! فبلادنا تنعم بفضيلة الحرية، وفي وسع الإنسان أن يكون وغداً إذا ما اختار ذلك، المنافقون أمثالك، يا سيدتي العزيزة، الذين لهم قلوب فاحمة كقلبك ويحاولون إخفاءها، هم فقط الذين يسخطون إذا ما دعوا بأسمائهم الحقيقية».

وتملكتها الحيرة، قبل أن تشع ابتسامته الهادئة، وقبل أن ينقطع توارد كلماته البطيئة، إذ لم يتفق لها يوماً أن قابلت إنساناً بمثل هذه المناعة التي لا تُقهَر، وكل السلاح في يدها: الازدراء، برودة الأعصاب، الشتائم، فلم يكن يعيبه أي شيء تستطيع قوله، وهي التي تعرف من تجاربها، أن الكاذب هو أشد الناس تفانياً في إثبات صدقه، والجبان في إثبات شجاعته، والوغد نبالته، والدنيء شرفه، ولكن هذا لا ينطبق على ريت، فهو يعترف بكل شيء... ويضحك... ويشجعها على المزيد.

كان يجيء ويروح خلال هذه الشهور، يصل من دون سابق إنذار، ويغادر من دون وداع، ولم تكتشف سكارلت أي عمل بالذات يجرّه إلى أتلانتا، لأن المهربين القلة الآخرين كانوا يرون من الضروري الابتعاد ما أمكنهم عن الساحل، وكانوا يُنزلون حمولتهم في ولمنفتون أو شارلستون حيث يجدون جماهير التجار والمضاربين من كل أنحاء الجنوب، يحتشدون لشراء البضائع المهربة بالمزاد. وكان يبهج قلبها الاعتقاد بأنه يقوم بهذه الرحلات ليراها، لكن، حتى غرورها الخارق لم يصدق هذا الحدس، لو أنه صارحها بحبه يوماً، أو غيرته من الآخرين الذين يتجمعون حولها، أو حتى جرّب أن يقبض على يدها، أو يرجوها منحه صورة أو منديلاً للذكرى، لأمكنها أن تفكر، ونشوة الظفر تطفر من قلبها، في أنه وقع أسير مفاتنها، ولكنه ظل بعيداً عن

حظيرة المحبّين بصورة مزعجة. وأدهى من ذلك كله، ما يبدو من نفاذ بصيرته إلى كل ما تبتدعه من مناورات في سبيل إخضاعه، وجعله يجثو على ركبتيه.

ما جاء المدينة يوماً إلا واضطربت الأوساط النسوية، فلم يكن شخصه يزهو بالصفة الروائية للمهرب الجسور وحسب، لقد كانت سُمعته سيئة جداً، بل كانت تزداد سوءاً كلما اجتمعت سيدات أتلانتا المتزوجات يثرثرن حوله، الأمر الذي لم ينتج عنه إلا شيئاً يسيراً بالإضافة إلى كونه «منحلاً تماماً مع النساء» - ولم يدركن بالضبط كيف يتصرف الرجل المنحل. وقد سمعن أيضاً بعض الهمس القائل إنه لا يؤتمن على أي فتاة. وكان من المستغرب، وهو يتردى في هذه السمعة، أن لا يقدم منذ ظهوره في أتلانتا على أكثر من تقبيل يد فتاة عذراء، ما أسهم في جعله أكثر غموضاً، وأكثر إثارة.

كان شخصه يستحوذ على القسط الأكبر من أحاديث الناس في أتلانتا، إذا استثنينا أبطال الجيش، فالجميع يعرفون بإسهاب كيف أنه طُرد من وست بوينت، لإدمانه على الشرب وبعض القضايا النسوية، والجميع يعرفون تلك الفضيحة المرعبة المتعلقة بفتاة شارلستون التي هتك عرضها، وبأخيها الذي قتله. وقد كشفت المراسلات مع الأصدقاء الشارلستونيين عن حقيقة أخرى أكثر غرابة، هي أن والده، الذي كان سيداً مسناً حلو المعشر ذا إرادة قوية وعزيمة تقصم الظهر، قد طرده وهو في العشرين من العمر، وليس في جيبه بنس واحد. ولم يكتفِ بذلك، بل أسقط اسمه من سجل العائلة، فراح يضرب في الآفاق، متجولاً في كاليفورنيا إثر انطلاق الناس للبحث عن الذهب عام 1849، ومن هناك ارتحل إلى أميركا الجنوبية ثم إلى كوبا، وجاءت التقارير عن نشاطه في تلك الأنحاء وهي لا تخلو من الشين: تورط في سبيل النساء، حوادث قتل عديدة، تهريب سلاح للثوار في

أميركا الوسطى، وأسوأ من هذا كله، أنه توج أعماله باحتراف القمار، كما علمت أتلانتا.

لم يكن في جورجيا عائلة تقريباً لا تضم بين أفرادها، كارهة، عضواً واحداً، أو قريباً على الأقل، يقامر فيخسر المال والعبيد والبيوت، ومع ذلك فإن هذه الحال تختلف عما نحن في صدده، إذ كان في وسع الرجل أن يقامر حتى ينحدر إلى هوة الفقر ويظل مع ذلك محافظاً على مكانته الاجتماعية، ولكن المقامر المحترف لا يمكن اعتباره أكثر من منبوذ.

ولولا ظروف الحرب المضطربة وخدمات ريت باتلر لحكومة الحلف، لما رحّب به أحد في أتلانتا، بيد أن أشد المتزمتين المحدودين في تفكيرهم، شعروا الآن أن الوطنية تدعوهم إلى أن يكونوا أوسع صدراً وأسلم إدراكاً، بينما مالت الفئة الأكثر مسايرة وعطفاً، إلى الاعتقاد أن ريت باتلر قد ندم على أساليبه الشريرة، وأنه يحاول التكفير عن آثامه. وهكذا شعرت السيدات أن الواجب يفرض عليهن التساهل قليلاً، لا سيما في حالة مهرب مقدام كهذا، إذ أصبح الجميع يدركون الآن أن مصير الحلف يتوقف على مهارة زوارق التهريب في تجنب أسطول الشماليين، بقدر ما يتوقف على بسالة الجنود في الجبهة.

وعمَّت الشائعات تقول إن الكابتن باتلر هو من أبرع ربابنة الجنوب، وإنه جريء لا يعرف الخوف مطلقاً. ولمّا كانت نشأته في مدينة شارلستون فقد كان خبيراً بكل المداخل والصخور ومصبّات الأنهار ومناطق المياه الضحلة على ساحل كارولاينا، قرب ميناء شارلستون، كما كان يتمتع بذات الخبرة في مياه ولمنفتون. ولم يخسر يوماً زورقاً، أو يُجبَر على إغراق حمولة.

لقد برز من خلال غمرة النسيان في بدء الحرب، ومعه نقود تكفي

لشراء زورق صغير سريع، والآن، عندما أصبحت البضائع المهربة تحقق ربحاً يبلغ 200% عن كل حمولة، صار في حوزته أربعة زوارق. كان يستخدم ربابنة مهرة، ينقدهم رواتب مغرية، فيتسللون خارج شارلستون وولمنفتون تحت جنح الظلام، يحملون القطن إلى ناسو وإنكلترا وكندا.

كانت مناسج القطن في إنكلترا مشلولة الحركة، والعمال يكافحون الموت جوعاً، وكل مهرب يستطيع التملص من طوق حصار الشماليين، كان في مقدوره فرض السعر الذي يريده لأقطانه في ميناء ليفربول. وكانت زوارق ريت فريدة الحظ في كونها تحمل أقطان الحلف خارجاً ثم تعود مشحونة بعتاد الحرب الذي كان الجنوبيون يتفانون في سبيل الحصول عليه. أجل! أحست السيدات أن في مقدورهن الصفح، ونسيان العديد من الأمور، بالنسبة إلى رجل شجاع كهذا.

كان شخصية مقدامة، شخصية تسترعي انتباه الناس، يصرف المال بسخاء، يمتطي حصاناً أسود شرساً، ويرتدي ثياباً هي دائماً قمة الذوق وفن الخياطة، وهذا الأمر وحده كافٍ لجذب الانتباه إليه في وقت كانت فيه حلل الجنود قذرة رثة، وكان المدنيون حتى في أحسن بززهم، يظهرون عن مهارة في الرفأ والترقيع. وفكرت سكارلت أنها لم ترَ في حياتها سراويل بديعة كالتي يرتديها - لونها أصفر طحيني، ونسيجها مربع الخطوط كنسيج ثياب الرعاة. أما صداريه فكانت رائعة إلى درجة تفوق الوصف، ولا سيما تلك الحريرية البيضاء منها، المطرزة ببراعم الورد الأحمر. وكان يرتدي ثيابه هذه بمظهر رزين، أكثر أناقة، كما لو أنه لا يحس بروعتها.

ومن بين نساء أتلانتا، لم تستطع غير قلة من السيدات مقاومة مغرياته عندما كان يرتأي الكشف عنها، وحتى السيدة ميريويذر عدلت رأيها أخيراً، ودعته إلى غداء الأحد.

كان زواج مايبل ميريويذر سيتم على الزواف الصغير، أثناء إجازته الليلة، وكانت مايبل كلما تفكر في عرسها تسفح الدموع في ما منَّت به النفس من الظهور يوم العرس بثوب ساتان أبيض، ذلك القماش الذي لم يكن له وجود في أراضي الحلف. ولم تفلح كذلك في استعارة ثوب من هذا القبيل، لأن فساتين ساتان أعراس السنين الماضية، قد استهلكت في صنع رايات الحرب. ولم يجد تأنيب السيدة الوطنية ميريويذر لابنتها أو التلميح لها بأن القماش البلدي هو كسوة العرس اللائقة بعروس بلاد الحلف، فالفتاة تصر على الساتان. ورغم أنها كانت عازمة، بل فخورة، على الظهور بلا دبابيس شعر ولا أزرار ولا أحذية أنيقة، ولا حلوى وشاي، كل ذلك في سبيل القضية الوطنية، إلا أنها كانت ترغب في ثوب عرس من ساتان.

وسمع ريت بالأمر من ميلاني، فأحضر معه من إنكلترا ياردات كثيرة من الساتان الأبيض الزاهي، وقناعاً مزركشاً بالدنتلة، وقدَّمها لمايبل كهدية ليوم عرسها. فعل ذلك بطريقة لا يجوز معها التفكير حتى بذكر نقده ثمنها، وطفر قلب مايبل فرحاً، بحيث همَّت أن تقبّله. أما والدتها فقد أدركت أن هدية ثمينة كهذه - هدية ثياب خاصة - لم تكن في محلها أبداً، ولكنها لم تستطع التفكير في طريقة لردّها، عندما أخبرها باتلر في أبلغ عبارة أن لا شيء ثمين بالنسبة إلى تزيين عروس بطل من أبطالنا الشجعان. وعلى ذلك دعته السيدة ميريويذر إلى الغداء، وهي شاعرة أن هذا الشرف أغلى من ثمن الهدية.

ولم يقتصر فضل ريت على جلب الساتان لمايبل، بل تعدى ذلك إلى تقديمه ملاحظات قيِّمة لها حول خياطة ثوب العرس، فقد قال إن الأطواق في باريس أوسع في هذا الفصل، بينما التنانير أقصر، ولم تعد الكشاكش تتدلى منها، بل أخذت تضم في عقود بشكل مراوح، كاشفة عن تنانير مزركشة تحتها. ثم قال أيضاً إنه لم يرَ سراويل في

الشوارع، ولذلك يظن أنها بطلت. وفيما بعد أخبرت السيدة ميريويذر السيدة إلسينغ أنها خشيت لو منحته أية عبارة مشجعة لأنبأها بالضبط أي نوع من السراويل الداخلية تلبس الباريسيات.

لو أن رجولته أقل تجلياً، لاعتبرت قدرته على تذكّر تفاصيل الأثواب والقبعات وتسريحات الشعر من أحط درجات التخنث، وعندما كانت السيدات يحاصرنه ويمطرنه بالأسئلة حول الأزياء، كن يشعرن دائماً بشيء من الاستهجان، ومع ذلك كن يدمن السؤال. لقد كن منعزلات عن عالم الأزياء، كبحارة سفينة ابتلعها عباب أليم، إذ لم يتخطَّ طوقَ الحصار إلا عدد قليل من كتب الأزياء، وكل ما عرفته أن سيدات فرنسا يمكن أن يحلقن شعورهن ويرتدين قبعات من جلد الراكون، ولذلك كانت ذكريات ريت عن الكشاكش بديلاً قيماً عن «كتاب السيدة» لجودي. لقد استطاع فعلاً أن يلاحظ تفاصيل عزيزة جداً على قلوب النساء، وبعد كل سفرة إلى الخارج، كان في الإمكان رؤيته وسط جماعة من السيدات، يخبرهن أن القبعات ذات قياس أصغر هذا العام، وأنها تنتصب إلى أعلى، حاجبة معظم قمة الرأس، وأن ريشاً لا أزهار أصبح يستعمل لزخرفتها، وأن إمبراطورة فرنسا قد تخلت عن تسريحة «الشينيون» في السهرات، واستعاضت عنها بجمع شعرها في جمة واحدة على أعلى الرأس تقريباً، معرية كل أذنيها، وأن ثياب المساء عادت طويلة إلى درجة مذهلة.

* * *

خلال عدة شهور، ظل باتلر أوسع الشخصيات شهرة، وأكثرها إلهاماً للخيال بين جميع الذين عرفتهم أتلانتا، وذلك رغم شينه الماضي، ورغم الشائعات الغامضة عن انهماكه ليس بالتهريب وحسب، بل بالمضاربة على المواد الغذائية أيضاً. وراح الناس الذين لا يكنون له الحب والتقدير يتقولون إنه بُعيد كل سفرة يقوم بها إلى أتلانتا، تقفز

الأسعار خمسة دولارات. ولكن، حتى مع تسرب هذه الثرثرة المستترة إلى الأنحاء، كان في وسعه الاحتفاظ بشهرته، لو أنه اعتبرها تستحق الحفاظ عليها. غير أنه بدلاً من ذلك، بدا كأنه، بعد محاولته مصاحبة وطنيي المدينة ورجالها الأفذاذ، وبعد نجاحه في كسب احترامهم ومحبتهم المغتصبة، دفع بحافز شرير متمرد في نفسه إلى الخروج عن ذاك الطريق السوي، وإلى إهانة أهل المدينة، والكشف لهم عن أن سلوكه كان مجرد قناع تنكّري ساخر، لن يروق له بعد اليوم.

كان كأنه يحمل في ذاته ازدراء غير شخصي لكل إنسان ولكل شيء في الجنوب، بخاصة للحلف، ولا يكلف نفسه عناء كتمان ذلك، والذي جعل أتلانتا ترمقه بعين الشدة أول الأمر، هو ما تخرّص به عن الحلف، ثم تحول الشدة إلى عدم اكترات، ثم انفجر في ثورة غضب لاهب. حتى قبل أن ينتهي عام 1862، صار الرجال يحيّونه بجفاء مقصود، وبدأت النساء يجذبن بناتهن إلى جوارهن إثر ظهوره في اجتماع ما.

وبدا كأنه لا يطرب بتوجيه الإهانة إلى ولاء أتلانتا الصادق المتقد حماساً فحسب، بل بتسليط أسوأ الأضواء الممكنة على شخصه أيضاً. فعندما كان الناس ذوو النيات الحسنة يطرون شجاعته في اختراق الحصار، كان يترفق مجيباً أن قلبه ينهلع كلما أحاطت بقاربه الأخطار، كما تنهلع قلوب الجنود الشجعان في الجبهة. ولما كان الجميع يعرفون أن لا وجود لجندي رعديد واحد في صفوف الحلف، كانو يحسون بهذه العبارة ترمضهم بصورة غريبة. وكان دائماً يشير إلى الجنود بـ«شبابنا الشجعان» أو «أبطالنا في البزز الرمادية»، يفعل ذلك بطريقة معينة، بحيث تحمل في طياتها أقذع الإهانات. وعندما كانت تشكره بعض الصبايا الجريئات، أملاً بمداعبته، لكونه أحد الأبطال الذين حاربوا من أجلهن، كان ينحني معلناً أن الأمر ليس كذلك، لأنه سوف

يقوم بالعمل ذاته من أجل النساء الشماليات، إذا ما عُرض عليه المبلغ المال عينه.

منذ اجتماع سكارلت الأول به في أتلانتا، ليلة السوق الخيرية، كان يتحدث إليها على هذه الوتيرة، أما الآن فقد أضاف نغماً ساخراً مقنَّعاً بقناع رقيق إلى أحاديثه مع الجميع، فإذا ما أُثني عليه لخدماته للحلف كان دائماً يقول إن التهريب مهنة بالنسبة إليه، وقد يقول، مشيراً بعينيه إلى أولئك الذين يمكلون عقود الالتزام الحكومية، إنه إذا استطاع جمع ذات المبلغ من المال، عن طريق العقود الحكومية، فإنه قطعاً يهجر مخاطر التهريب، ويمضي في بيع الأقمشة الرخيصة، والسكّر المرمول، والدقيق الفاسد، والجلود العفنة، إلى الحلف.

وكانت معظم ملاحظاته مما يصعب الرد عليها، الأمر الذي يجعلها أسوأ في نظر الناس. وقبل هذا الوقت كانت قد وجدت فضائح أقل شأناً بين متعهدي الحكومة، إذ كانت ترد الرسائل من جنود في الجبهة، تتذمر أبداً من الأحذية التي تبلى بعد أسبوع، والبارود الذي لا يشتعل، وعُدَد الخيل التي تتصدع بفعل أي ضغط، واللحم الفاسد، والدقيق المليء بالسوس. وظن سكان أتلانتا أن الرجال الذين كانوا يبيعون مواد كهذه للحكومة لا بد أن يكونوا متعهدين من ألاباما أو فرجينيا أو تنيسي وليسوا جورجيانيين، أفليس متعهدو جورجيا رجالاً من خيرة العائلات؟ ألم يكونوا أول من تبرّع للمستشفيات ولمساعدة يتامى الجنود؟ أليسوا أول من هتف لنشيد الجنوب، وأشجع من طالب بالخطابة على الأقل بدماء الشماليين؟ ولما لم تعرم بعد موجة الغضب الطاغي ضد هؤلاء الانتهازيين لعقود الحكومة، فقد اعتبرت كلمات باتلر مجرد شهادة على تربيته الفاسدة.

لم يقتصر باتلر على إهانة المدينة بتلميحه الدائم إلى ارتشاء رجالها ذوي المناصب العالية، وحطه من شأن شجاعة جنودها في

الميدان فحسب، بل كان يطرب لنصب الحبائل لمواطنيها المحترمين وسَوْقهم إلى مواقف محرجة. ولم يعد في وسعه ردع نفسه عن فضح العجرفة الفارغة، وأعمال النفاق، والوطنية المزخرفة البراقة، التي يتشدق بها هؤلاء المحيطون به، أكثر مما يستطيع صبي صغير كبح جماح هواه في خرق بالون بدبوس. وهكذا راح ببراعة يدحض عنجهية المتعجرف، ويهتك ستر الجاهل والمتزمّت، وكان يفعل ذلك بمكر ودهاء، مجرجراً ضحاياه بجدّيته الأنيسة اللطيفة في الظاهر بحيث لا يدركون تماماً ما حدث لهم حتى يقفوا مفتضحين كمهرجين منتفخي البطون بلغة القول، محلقين في الهواء.

خلال الشهور التي رحّبت المدينة به، لم تخدع الأوهام سكارلت عن حقيقته. كانت تعرف أن كياسته الخلابة، وأحاديثه البليغة، لم تصدر إلا عن لسانه، كانت تعرف أنه يتلبّس دور مخترق الحصار الوطني المقدام، لأن ذلك يلذه وحسب، وكان يبدو لها أحياناً كشبّان المقاطعة الذين ترعرعت وإياهم، كالتوأمين الشرسين تارلتون، بتعلقهما بالدعايات العملية، وكالشابين الشيطانين فونيتن بولعهما بالإغاظة والضر، وكأبناء كالفرت الذين يسهرون الليل بطوله، يبتدعون الألاعيب، ولكن ما زال هناك فرق، فتحت خفة روح باتلر تكمن نزعة حقودة، نزعة شر تقريباً، في بهيمية مهذبة.

ورغم إدراكها تماماً عدم إخلاصه، فقد كانت تقدره كثيراً في شخصية مخترق الحصار الروائية، ولهذا السبب فقط، صارت علاقتها معه أيسر مما كانت عليه قبلاً. وعلى ذلك انزعجت بشدة عندما أسقط عن نفسه القناع، وشرع على العيان، في حملة مركزة، لدحض مقاصد أتلانتا الخيرية. لقد أزعجها ذلك لأنه بدا إجراء سخيفاً أحمق، ولأن جزءاً من النقد اللاذع الموجه إليه، كان يقع عليها.

وفي حفلة الموسيقى الفضية التي أقامتها السيدة إلسينغ والتي كان

ريعها لمنفعة الجنود الناقهين، وقَّع باتلر وثيقة نبذه النهائية. فبعد ظهر ذلك اليوم غص منزل آل إلسينغ بالجنود المجازين وبرجال المستشفيات، وبأعضاء الحرس الوطني والميليشيا، وربات البيوت والأرامل والشابات، بحيث لم يبقَ كرسي شاغر واحد، حتى السلَّم الطويل المتعرج عجَّ بالضيوف وفرغت الطاسة الكبيرة التي كان يحملها نادل آل إلسينغ على الباب مرتين من ملئها من النقود الفضية، الأمر الذي كان وحده كافياً لإعلان نجاح الحفلة، إذ إن الدولار الفضي في هذه الأيام كان يساوي ستة دولارات من أوراق النقد الحلفية.

كل فتاة كانت تشعر أنها موهوبة فنياً، غنَّت أو عزفت البيانو وحيَّت الجماهير شخصيات المشاهد المختلفة بتصفيق التقدير والاستحسان وسُرَّت سكارلت من نفسها كثيراً، فقد اشتركت وميلاني في ترديد النشيد الحواري المؤثر «عندما يكون الندى على الزهر» وأتبعته بدلاً من إعادته تلبية لرغبة المستمعين بالنشيد الأكثر إمتاعاً «أيها الإله، ويا أيتها السيدات، لا تؤاخذوا ستيفن». ليس هذا فحسب، بل إنها اختيرت أيضاً، لتمثل روح الحلف في المشهد الأخير.

بدت سكارلت أخاذة للغاية، وهي في ثوب إغريقي من الخام الأبيض مردود بعضه على بعض، ممنطقة بحزام أحمر وأزرق، وحاملة في إحدى يديها النجوم والشرائط، بينما مدت السيف باليد الأخرى نحو الكابتن الألابامي الراكع، كاري أشبورن، السيف ذا المقبض الذهبي، الذي يخص تشارلز ووالده.

وعندما انتهى المشهد لم تستطع كبح رغبتها في البحث عن عيني ريت، لترى ما إذا كان قد قدَّر الصورة الجميلة التي ابتدعتها، ولكنها، بشعور من المرارة، رأته في غمرة جدل حام، من المحتمل أن لا يكون قد راقبها بسببه. واستطاعت سكارلت أن تدرك من وجوه الرجال المحيطين به، أنهم حانقون لما كان يقوله.

شقت طريقها نحوهم، وفي فترة صمت، من تلك الفترات الطارئة التي تهبط أحياناً على رؤوس أي حفل، سمعت ويلي جوينان أحد أفرد الميليشيا، يقول بوضوح: «هل أفهم يا سيدي أنك تعني أن القضية التي مات أبطالنا في سبيلها ليست مقدسة؟».

- «لو أن قطاراً هرس جسدك، فموتك لن يقدس شركة سكة الحديد، أليس كذلك؟» سأل باتلر وصوته يبدو كأنه ينشد معرفة الجواب بتواضع.

- «سيدي» قال ويلي بصوت يختلج، «لو لم تكن تحت هذا السقف».

- «إني أرتعد حين أفكر فيما سيحدث»، قال ريت مردفاً «فشجاعتك بالطبع ذائعة الصيت مشهورة».

فتخضّب وجه ويلي، وانقطعت الأحاديث، وارتبك القوم. وكان ويلي هذا شاباً قوياً سليم البنية، في سن الجندية، ومع ذلك، لم يكن في الجبهة. ورغم أنه كان وحيداً لأمه، فقد كان من الضروري أن يكون في الميليشيا رجال لحماية الدولة. بيد أن حمحمات سخرية سمعت صادرة من بعض الضباط الناقهين، حين كان ريت يتحدث عن الشجاعة.

- «آه، لِمَ لا يخرس» هجست سكارلت ساخطة، «إنه، إنما يفسد الحفلة بأسرها».

وتجهّم جبين الدكتور ميد بشكل ينذر بالعاصفة:

- «لا شيء يمكن أن يكون مقدساً في نظرك أيها الشاب»، قال بلهجته الخطابية المعتادة، «ولكن، يوجد الكثير من الأشياء المقدسة في نظر رجال الجنوب ونسائه الوطنيين، وحرية بلادنا من الغاصبين إحداها، وكذلك حقوق الولايات، و...».

بدا الوجوم على باتلر، وخالط صوته نغم ملس، كدر تقريباً.

- «كل الحروب مقدسة» قال، «في نظر هؤلاء الذين يخوضونها، وإذا لم تجعل الأمة التي تبدأ القتال من الحرب أمراً مقدساً، فمن هو الذي سيكون في منتهى الحمق، ليخوض غمراتها؟ ولكن، مهما كانت نداءات التشجيع التي يوجهها الخطباء إلى المعتوهين الذين ينتضون السلاح، ومهما كانت المقاصد النبيلة التي يحددونها كهدف للحرب، فليس هناك إلا سبب واحد للحروب، وهذا السبب هو المال. كل الحروب في حقيقتها معارك مالية، غير أن الذين أدركوا ذلك قلة قليلة من الناس، إن آذانهم تضج بنفير الأبواق وقرع الطبول، وبالألفاظ البديعة، يزجيها خطباء قابعون في بيوتهم. مرة يكون شعار المعركة «أنقذوا قبر المسيح من الكفرة!» وأخرى: «لتسقط البابوية!» وثالثة: «الحرية!» وطوراً: «القطن، الرقّ وحقوق الولايات!»».

وفكرت سكارلت: «لأي سبب في الدنيا، يزج البابا في هذا الموضوع؟ وقبر المسيح أيضاً؟».

ولكن، بينما هي تهرع نحو الجماعة الهائجة، لمحت ريت ينحني جذلاً، ويتجه خلال الجمهور إلى الباب، فانطلقت خلفه، إلا أن السيدة إلسينغ جذبت تنورتها، ومنعتها:

- «دعيه ينصرف»، قالت بصوت جلي سُمع في أنحاء القاعة المكتظة الصامتة، «دعيه ينصرف فهو خائن مضارب! أفعى سامة، رعيناها فوق صدورنا».

فما كان من ريت الواقف على الباب وقبعته في يده، وقد اخترقت الكلمات أذنيه كما لو أنه تعمّد سماعها، إلا أن التفت ورمق الحضور هنيهة قصيرة، ثم سدد ناظريه نحو صدر السيدة إلسينغ، العديم الرونق، وابتسم فجأة، متخذاً طريقه خارجاً بعد انحناءة.

* * *

رجعت السيدة ميريويذر إلى بيتها في عربة العمة بيتي، وما كادت السيدات الأربع يجلسن حتى انفجرت بالكلام:

- «والآن، آمل أن تكوني قد اقتنعت يا بيتي بات هاملتون».

- «بماذا؟» صاحت بيتي بات، متوقعة الشر.

- «بسلوك ذلك الرجل الحقير باتلر، الذي كنت تُؤوينه».

وأربكتها المفاجأة كثيراً وأُسقِط في يدها، بحيث لم تتذكر أن السيدة ميريويذر كانت قد استضافت ريت هي أيضاً، وفطنت سكارلت وميلاني لهذا الأمر ولكنهما، وقد رُبِّيتا على احترام من هم أكبر منهما سناً، أحجمتا عن التلميح به، وبدلاً من ذلك، طأطأتا رأسيهما وأخذتا تمعنان النظر في أيديهما المقفزة.

- «لقد أهاننا جميعاً، والحلف أيضاً»، قالت السيدة ميريويذر، وصدرها البدين يخفق بقوة تحت قميصها المزركش الزاهي، «يقول إننا نحارب في سبيل المال، يقول إن رؤساءنا كذبوا علينا، ينبغي سجنه، أجل! ينبغي! سأتكلم مع الدكتور ميد حول هذا الموضوع، لو أن السيد ميريويذر حي فقط، لهبَّ في وجهه، والآن اسمعي يا بيتي هاملتون، عليك أن لا تدعي ذلك الوغد يطأ منزلك مرة ثانية».

- «ها» جمجمت بيتي مرتبكة، وقد بدت كأنها تتمنى لو كانت ميتة، ثم نظرت بعينين متوسلتين إلى الفتاتين اللتين ظلتا مطأطئتين، ثم عاودها الرجاء، فتطلعت نحو ظهر العم بيتر المنتصب، لقد أدركت أنه كان يصغي بانتباه لكل كلمة، فأملت أن يستدير ويشارك في الحديث، كما فعل مراراً، وتمنت أن يقول: «أنت يا آنسة دولي، أنت التي أتحت المجال للآنسة بيتي كي تفعل ذلك». ولكن العم بيتر لم يحرك ساكناً، كان يمقت باتلر من كل قلبه، وكانت بيتي التعسة على بيِّنة من هذا، ولذلك تنهدت قائلة: «حسناً، دولي، إذا كنت تحسبين...».

- «إني أحسب» أجابت السيدة ميريويذر بحزم، «إنني لا أستطيع إدراك الذي يتولاك فتنقادين إلى استقباله كأرفع شخصية، بعد هذه الأمسية، لن يوجد بيت محتشم في المدينة يمكن أن يرحّب به، تذرَّعي ببعض اللباقة وامنعيه عن بيتك» وصوبت نظرة حادة نحو البنتين، «آمل أن تكونا، كليكما، منتبهتين إلى كلامي» وقالت، «لأنها غلطتكما إلى حد ما، بسلوككما الممتع له. فقط أخبراه بأدب، ولكن بحزم، أن وجوده وحديثه الذي ينم عن الخيانة أمران غير مرغوب فيهما أبداً في بيتكما».

في هذه الأثناء، كان الدم قد غلى في عروق سكارلت، وأضحت على استعداد للوثوب كالحصان، إذا ما هزت عنانه يد غريبة خشنة.

ولكنها كانت تخشى الحديث، فهي لا تستطيع المجازفة، ودفع السيدة ميريويذر إلى كتابة رسالة أخرى لأمها.

«أيتها الجاموسة العجوز» فكرت وقد تورّد وجهها بفعل الغضب الحبيس، «حبذا لو أستطيع مصارحتك بحقيقة رأيي فيك وفي أساليبك البراقة».

- «ما كنت أحس أبداً أنني سأعيش إلى مثل هذا اليوم، لأسمع كلمات خائنة كهذه تطلق جزافاً على قضيتنا» استطردت السيدة ميريويذر، ولكن بموجة من السخط المشروع في هذه المرة، «أي رجل لا يؤمن بعدالة قضيتنا وبقداستها ينبغي إعدامه، لا أريد أن أسمع عنكما أيتها الفتاتان حتى مجرد التحدث إليه مرة ثانية - باللّه يا ميلاني، أخبريني ما الذي يؤلمك؟».

كان الدم قد غاض من وجه ميلاني واتسعت حدقتا عينيها كثيراً:

- «سأتحدث إليه ثانية» قالت في صوت خفيض، «لن أكون فظة معه، لن أمنعه عن البيت».

فزفرت السيدة ميريويذر زفيراً مدوياً كما لو أن أحداً قد لكمها

لكمة قوية، وفغرت العمة بيتي فاها الغليظ، بينما استدار العم بيتر متفرساً.

«ولِمَ لم أملك الحذاقة وأصرح بذلك؟» هجست سكارلت والحسد يغالب الإعجاب في نفسها، «كيف استطاعت تلك الأرنبة الصغيرة أن تحوز الجرأة الكافية لمواجهة السيدة العجوز ميريويذر؟».

كانت يدا ميلاني ترتجفان، ولكنها استمرت بسرعة، كأنها كانت تخشى أن تخونها شجاعتها إن هي تلكأت:

- «لن أعامله بفظاظة بسبب ما قال، لأن - كانت وقاحة منه أن يجاهر بذلك علناً - بعيد عن الحكمة - ولكن - هذا ما يعتقده آشلي وليس في وسعي إغلاق البيت في وجه رجل يعتقد بما يعتقده زوجي، سيكون ذلك موقفاً يفتقر إلى العدالة».

وفاءت السيدة ميريويذر إلى نفسها، وكرت على الفتاة الصلبة:

- «ميلي هاملتون، لم أسمع في حياتي كذبة كهذه، فلم يوجد يوماً ويلكسي جبان».

- «أنا لم أقل أبداً إن آشلي جبان»، قالت وقد بدأت عيناها تومضان، «قلت إنه يعتقد بما يعتقده الكابتن باتلر، وإنما يعبّر عن ذلك بألفاظ تختلف، وهو لا يشيع ذلك ويصرح به في حفلة موسيقية، كما أرجو، ولكت كتب بذلك إليّ».

وتنبَّه ضمير سكارلت الآثم، وهي تحاول استعادة ما يمكن أن يكون قد كتبه آشلي، بحيث قاد ميلاني إلى التفوّه بهذه العبارة، ولكن معظم الرسائل التي كانت قد قرأتها، تبددت من ذاكرتها حالما انتهت من القراءة، فاعتقدت أن ميلاني، بكل تأكيد، قد تخلت عن إدراكها.

- «كتب لي آشلي أنه ينبغي ألّا نحارب الشماليين، وأننا خُدعنا إلى هذه الحرب بتعليقات الساسة والخطباء المفوَّهين وحملاتهم

المغرضة». قالت ميلاني بسرعة، ثم أردفت: «وقال إنه لا شيء في الدنيا يعادل ما ستفعله هذه الحرب بنا، وقال إنه لا يوجد فيها شيء مشرف أبداً - وإنما فقط بؤس وقذارة».

«ها! تلك الرسالة» فكرت سكارلت، «أكان ذلك ما قصده؟».

- «لا أصدق هذا الأمر» قالت السيدة ميريويذر جازمة، «لقد أسأتِ فهم مراده».

- «أنا لا أسيء فهم آشلي أبداً» أجابت ميلاني بهدوء وشفتاها تنتفضان، «إنني أفهمه تماماً، وقد قصد ما عناه الكابتن باتلر بالضبط، غير أنه لم يقل ذلك بطريقة نابية».

- «يجب أن تخجلي من نفسك، وأنت تقارنين رجلاً طيباً كآشلي بوغد كالكابتن باتلر. أظن أنك أنت أيضاً، تعتقدين أن القضية شيء فارغ!».

- «أنا! أنا لا أعرف ماذا أعتقد»، استهلت ميلاني جوابها حائرة، وقد تلاشى ثورانها، وتملَّكها الفزع لإيغالها في الصراحة، «أنا - أنا أموت في سبيل القضية، كما يموت آشلي في سبيلها، ولكن - أعني - أعني، سأدع التفكير في هذا للرجال، فهم أوفر مني ذكاء بكثير».

- «لم أسمع بمثل هذا أبداً» شخرت السيدة ميريويذر، «قف يا عم بيتر، لقد تجاوزت منزلي».

كان العم بيتر قد تملَّكه الحوار خلفه فتخطى مدخل بيتها، ولذلك كبح زمام الحصان، فترجلت السيدة ميريويذر وشرائط قبعتها تخفق كأشرعة سفينة وسط العاصفة.

- «ستندمين» قالت.

وساط العم بيتر حصانه، ثم قال مؤنباً:

- «عليكما أيتها الآنستان الصغيرتان أن تخجلا لزجّكما بالآنسة بيتي في مأزق حرج».

- «لست في مأزق» أجابت بيتي بات بصورة تدعو إلى الدهشة، إذ إن انفعالاً أقل من هذا كان غالباً ما يودي بها إلى نوبات الإغماء:

- «ميلي، يا حلوتي، لقد أدركت أنك قمت بذلك لتدافعي عني، والحق أني سررت من رؤية إنسان يحط من شأن دولي، فهي امرأة متشوفة كثيراً. كيف واتتك الشجاعة؟ ولكن هل تعتقدين أنه كان يجب أن تقولي ذلك عن آشلي؟».

- «ولكن ما قلته صدق»، أجابت ميلاني، مجهشة في البكاء الصامت، «ولست خجلة لكونه يعتقد ذلك، فهو يؤمن أن الحرب أمر خاطئ، ولكنه على كل حال راغب في القتال والموت، الأمر الذي يتطلب شجاعة أكثر بكثير من القتال في سبيل هدف يعتقد المرء أنه عادل».

- «باللّه يا آنسة ميلي، لا تبكي هنا في شارع بيتشتري»، توسل العم بيتر حاثاً حصانه، «فالناس سيتحدثون أحاديث فاضحة، تريَّثي إلى أن نبلغ البيت».

لم تنبس سكارلت بكلمة، بل إنها لم تقبض على اليد التي أدخلتها ميلاني في كفها لمواساتها. لقد قرأت رسائل آشلي بدافع واحد، لتطمئن نفسها أنه ما زال يحبها. والآن، ها هي ميلاني تعطي معنى جديداً لفقرات من الرسائل ندر أن وقعت عليها عينا سكارلت. وأمضَّها أن ترى إنساناً كاملاً تماماً كآشلي يشترك في فكرة مع رجل رذيل كهذا الريت باتلر. وفكرت: «كلاهما يرى حقيقة هذه الحرب، ولكن آشلي يريد أن يموت في سبيلها، بينما يأبى ريت ذلك. أعتقد أن هذا يثبت حسن إدراك ريت». وصمتت لحظة وقد انتابها الذعر أن قد استطاعت أن تفكر في مثل هذا عن آشلي. كلاهما يرى الحقيقة الممضة، ولكن ريت يرغب في مواجهتها وإغضاب الناس بالحديث عنها، بينما آشلي لا يكاد يتحمل عبء مواجهتها.

13

نتيجة لتحريض السيدة ميريويذر عمد الدكتور ميد إلى إرسال رسالة إلى جريدة المدينة شهّر فيها بأعمال ريت باتلر، ورغم أنه لم يتطرق إلى ذكر اسمه، فإن مأربه كان واضحاً جلياً، وإذ أدرك رئيس التحرير خطورة هذه الرسالة من الناحية الاجتماعية، نشرها على الصفحة الثانية، الأمر الذي يعتبر في ذاته بدعة مذهلة، لأن صفحتي الجريدة الأوليين، كانتا تخصصان دائماً للإعلان عن العبيد والبغال، والمحاريث، وتوابيت الموتى، والبيوت المعروضة للبيع أو الإيجار، وعلاجات الأمراض السارية وعمليات الإجهاض، والعقاقير المعيدة للرجولة الضائعة.

جاءت رسالة الطبيب الصرخة الأولة من صرخات كثيرة ناقمة بدأت تُسمع في كل أنحاء الجنوب ضد المضاربين والانتهازيين وحَمَلَة العقود الحكومية. وفي ولمنفتون ميناء التهريب الأول، بعد أن أطبقت زوارق الشماليين الحربية قبضة الحصار على ميناء شارلستون، شارفت الأوضاع حدود فضيحة علنية. فقد كانت المدينة تزخر بالمضاربين الذين كانوا، نظراً إلى حوزتهم المال، يبتاعون جميع حمولات السفن، ويحتفظون بها من أجل رفع الأسعار. وكانت الأسعار بدورها مستمرة في الارتفاع لأنه إزاء تفاقم ندرة الضرورات، أخذت الأسعار تقفز شهراً بعد شهر، وكان على المدنيين إما الاستغناء عن هذه البضائع أو شراؤها بأسعار المضاربين بينما كان الفقراء وأبناء الطبقة الوسطى يعانون مصاعب متزايدة.

ورافق ارتفاع الأسعار هبوط قيمة عملة الحلف، ومع هبوطها السريع استشرت في الناس نزعة جامحة للكماليات. وكان قد عهد إلى المهربين جلب الضروريات، مع السماح لهم بالمتاجرة بالكماليات، كعمل ثانوي فقط، ولكن زوارقهم تكدست الآن بأغلى أنواع الكماليات، الأمر الذي حرم الحلف من حاجاته الماسّة. واندفع الناس بجنون يبتاعون هذه الكماليات، بما يملكون من دراهم يومهم، خشية أن ترتفع أسعار الغد، وتهبط قيمة النقود الشرائية.

وما زاد الحالة سوءاً أنه لم يكن هنالك إلا خط حديدي واحد من ولمنفتون إلى ريتشموند، وبينما كانت آلاف من براميل الدقيق وصناديق لحوم الخنزير تفسد ويأكلها العفن في المحطات على جانبي السكة الحديد، ولقلة وسائل النقل، كان يبدو أن المضاربين قادرون على نقل الخمور والقهوة إلى ريتشموند لبيعها بعد يومين من تنزيل البضائع في ولمنفتون.

وانتقلت الإشاعة التي كانت تتسرب في الخفاء إلى حيز النقاش العلني، تلك الإشاعة القائلة إن ريت باتلر لا يكتفي بتهريب حمولة زوارقه الأربعة وبيعها بأسعار خيالية، بل يتعدى ذلك إلى شراء حمولة الزوارق الأخرى والاحتفاظ بها من أجل رفع الأسعار. وقيل إنه كان على رأس جماعة من المهربين، يزيد رأس مالها على المليون دولار، تتخذ ولمنفتون قاعدة لها بقصد شراء البضائع المهربة وهي لا تزال في رصيف الميناء، وتملك عشرات من مستودعات البضائع في تلك المدينة وفي ريتشموند أيضاً، كما تقول الرواية، وأن هذه المستودعات مكتظة بالطعام والثياب اللذين يحتفظ بهما بانتظار أسعار أعلى. وهكذا أحس الآن كلا الجنود والمدنيين بالضيق، وكانت النقمة عليه وعلى زملائه المضاربين شديدة المرارة.

«يوجد العديد من الرجال الشجعان الوطنيين في قوة الحصار

التابعة لبحرية الحلف» ذكر الطبيب في نهاية رسالته، «رجال عديمي الأثرة، يجازفون بأرواحهم وبكل ما يملكون، في سبيل بقاء الحلف، إنهم معززون في قلوب كل المخلصين من أهل الجنوب، ولا يتطلع أحد إلى العائدات المالية الزهيدة التي يجنونها لقاء مغامراتهم، إنهم سادة منكرون لذواتهن، ونحن نحترمهم ونجلّهم، عن هذه الفئة من الأبطال، لن أقول شيئاً. ولكن يوجد أناس آخرون، أناس أوغاد، يتسترون بمعطف مخترقي الحصار في سبيل أرباحهم الأنانية، إني أستمطر غضب السماء العادل، وانتقام أمة تحت السلاح، تحارب من أجل أعدل القضايا، على هؤلاء الكواسر البشرية، الذين يجلبون الساتان والدنتلة في الوقت الذي يموت فيه رجالنا لحاجتهم إلى الكينا، الذين يشحنون زوارقهم بالشاي والخمور بينما يتضور أبطالنا ألماً لنقص المورفين. إني ألعن مصاصي الدماء هؤلاء الذين يمتصون دماء حياة الرجال الذين يلتحقون بروبرت لي - هؤلاء الرجال الذين جعلوا اسم مخترق الحصار ذاته بمثابة رائحة كريهة في أنوف جميع المواطنين. كيف نستطيع الصبر على مثل هذه الحثالة من البشر، تعيث فساداً بيننا بأحذيتها اللامعة، في الوقت الذي يطأ فيه جنودنا أرض المعركة حفاة الأقدام؟ كيف نستطيع احتمالهم وهم ينعمون بزجاجات الشمبانيا وبلحوم باتيه ستراسبورغ، في الوقت الذي يرتعش فيه جنودنا حول نيران معسكراتهم ويلتهمون لحم الخنزير العفن؟ إني أدعو كل حلفي إلى نبذهم».

وقرأ أهل أتلانتا ذلك، وأدركوا أن صوت الرب قد لفظ حكمه، وكحلفيين مخلصين، أسرعوا إلى نبذ باتلر.

من بين جميع البيوت التي استقبلته في خريف 1862، ظل بيت بيتي بات الوحيد تقريباً الذي تمكن ريت من دخوله في عام 1863، ولولا ميلاني لكان من المرجح أن لا يرحب به أحد هنالك، فالآنسة

بيتي بات كان يتملكها الاضطراب كلما جاء المدينة، وهي تعرف تماماً ما تقوله صديقاتها عندما تدعه يزور بيتها، ولكنها ما زالت تفتقر إلى الشجاعة كيما تصارحه بأن زيارته غير مرغوب فيها. وهكذا كلما حط رحاله في المدينة، تزم شفتيها الغليظتين، وتخبر الفتاتين أنها ستقابله على الباب وتمنعه من الدخول، ولكنه يأتي في كل مرة، وبيده رزمة صغيرة، وعلى شفتيه عبارة إطراء لجمالها وفتنتها، فتخور قواها، وتتراجع عن تنفيذ ما أملت.

- «إنني لا أعرف أبداً ما ينبغي أن أعمل»، كانت تقول متأوهة، «فهو يحدق في وجهي وأنا، وأنا أخاف حتى الموت مما سيفعله إن أخبرته، فهو رجل سيّئ السمعة. هل تظنان أنه يضربني - أو - أو. . . باللّه، لو أن تشارلي حي فقط! سكارلت، يجب أن تخبريه أنت أن لا يزورنا مرة ثانية، أخبريه ذلك بطريقة لطيفة. ويلٌ لي. إنني أعتقد أنك تشجعينه وكل المدينة تتحدث عنا، وإذا ما اكتشفت أمك الحقيقة، فماذا ستقول لي؟ ميلي، يجب ألّا تؤانسيه كثيراً، كوني فاترة، منعزلة، وسيفهم هو. آه يا ميلي، هل تعتقدين أن من الأفضل أن أكتب رسالة لهنري وأطلب منه التحدث إلى الكابتن باتلر؟».

- «لا، لا أوافقك على رأيك» قالت ميلي، «ولن أكون فظة معه. أعتقد أن الناس يتخبطون في موقفهم حوله كدجاج طاحت رؤوسه. إني واثقة بأنه لا يمكن أن يتردى إلى هذه الصفات الزرية التي ينسبها إليه الطبيب ميد والسيدة ميريويذر، ولا يمكن أن يمنع الطعام عن الجائعين وهو الذي أعطاني مئة دولار تبرعاً للأيتام. إني واثقة بأنه مخلص ووطني كأي منا، وأن كبرياءه المرهفة تربأ به عن الدفاع عن نفسه. أنت تعرفين مدى تصلّب الرجال عندما تشمخ أعطافهم».

لم تكن العمة بيتي تعرف شيئاً عن الرجال، سواء بأعطافهم المتشامخة، أو بظهورهم المنحنية، ولذلك لم يسعها إلا أن تلوّح

بيديها الصغيرتين السمينتين وهي عاجزة عديمة الحيلة. أما سكارلت فكانت قد استسلمت منذ مدة طويلة، لعادة ميلاني في رؤية النواحي الخيرة عند كل إنسان. لقد كانت ميلاني حمقاء، ولكن لم يكن في وسع أحد عمل شيء تجاه ذلك.

كانت سكارلت تعرف أن ريت ليس وطنياً، ومع أنها كانت تفضل الموت على التصريح بذلك، فإنها لم تأبه للموضوع بكليته. وأكثر ما كان يهمها من أمره تلك الهدايا الصغيرة التي كان يجلبها لها من ناسو، والتي كانت عبارة عن طرف صغيرة تتقبلها السيدة بطيبة خاطر. وإذا ما أغلقت الباب دونه، فأنَّى تستطيع الحصول على الإبر والحلوى ودبابيس الشعر، وهي على ما هي عليه من ارتفاع السعر. لا، من الأيسر إلقاء المسؤوليات على العمة بيتي التي هي على كل حال، ربة المنزل، ومراقبة السلوك، والحكم في قضاياه. كانت سكارلت تعلم أن المدينة تتحدث عن زيارات ريت، وعن شخصها أيضاً بيد أنها كانت تعلم كذلك أن ميلاني ويلكس في نظر أتلانتا لا يمكن أن ترتكب خطأ، فإذا ما دافعت ميلاني عن ريت باتلر، فإن زياراته تظل تحمل طابع الاحترام واللياقة.

وعلى كل حال، كان يمكن أن تكون الحياة أكثر بهجة، لو أن ريت يشجب هرطقته، فهي لا تريد معاناة الألم النفسي، برؤيته يجرح علانية، أثناء سيرها معه في شارع بيتشتري.

- «حتى لو كنت تؤمن بهذه الآراء، فلماذا تصرح بها؟» قالت توبّخه، «وإذا أمكنك الاعتقاد فقط بما تشاء دون أن تطلق للسانك العنان، فإن كل شيء سيصير أكثر إمتاعاً».

- «هذا هو نهجك أنت، أليس كذلك يا عزيزتي المنافقة، الخضراء العينين؟ سكارلت! سكارلت! كنت أتوسم فيك سلوكاً أكثر

شجاعة. كنت أعتقد أن الإيرلنديين يجاهرون بما يؤمنون، وأن الشيطان يقبض روح الرجل الأخيرة، أخبريني الحقيقة، ألا تضيقي ذرعاً بنفسك بعض الأحيان، من حبس لسانك؟».

- «بلى» أقرّت سكارلت كارهة، «إني أحس بمنتهى الضيق وهم يتحدثون عن القضية، صباحاً وظهراً ومساء. ولكنها المصلحة يا ريت باتلر، فلو أفصحت عن ذلك لامتنع الجميع عن مكالمتي، ولرفض كل الشبان مراقصتي».

- «ها، نعم، ولا بد للمرء من أن يراقص، مهما كان الثمن. حسناً، إني أكبر قوة إرادتك، ولكني لا أجد نفسي أهلاً لها. وليس في وسعي أيضاً التنكر بزي الوطنية والبطولة الخارقة سواء كان ذلك مناسباً أم لا، فهناك عدد كافٍ من الوطنيين الأغبياء الذين يجازفون بكل سنت يملكونه في خرق الحصار، والذين سيخرجون من هذه الحرب فقراء متسولين، وهم ليس في حاجة إليّ، لأنضم إلى صفوفهم، أكان ذلك لإضاءة سجل البطولة، أو لزيادة قائمة المتسولين. دعيهم يتوّجون رؤوسهم بهالات من نور، فهم يستحقونها - إني أصرح بذلك مخلصاً للمرة الأولى - هذا فضلاً عن أن هذه الهالات ستكون تقريباً كل ما سيكسبونه خلال سنة أو أكثر».

- «أعتقد أنك قذر قميء لمجرد تلميحك إلى أمور كهذه، في وقت تعلم فيه جيداً أن بريطانيا وفرنسا قادمتان لمساعدتنا و...».

- «كيف، سكارلت! لا بد أن تكوني قد قرأت الجرائد! إني أستغرب ذلك منك، لا تفعليها ثانية، فهي تفسد عقول النساء! أود أن أعلمك بصورة خاصة أنني كنت في إنكلترا منذ أقل من شهر، وسأنبئك بما يلي: لن تؤازر إنكلترا الحلف أبداً، فهي لا تراهن على الفريق الخاسر، وهذا هو سبب كونها إنكلترا. وعلاوة على ذلك، فإن المرأة

الهولندية البدينة المتربعة على العرش تخاف اللّه ولا توافق على الرق. إنها تفضل أن يتضور عمال مناسج القطن الإنكليز جوعاً، لعدم استطاعتهم الحصول على أقطاننا، على أن تطلق رصاصة واحدة في سبيل العبودية. أما فرنسا، فإن إمبراطورها المقلد الهزيل لنابليون، منهمك حتى أذنيه في توطيد دعائم فرنسا في المكسيك بحيث لن يزعج نفسه في قضيتنا. والحقيقة أنه يرحب بهذه الحرب، لأنها تبقينا في شاغل تام يعوقنا عن طرد جنوده من المكسيك... لا يا سكارلت، فكرة المساعدة الخارجية مجرد بدعة صحفية للمحافظة على قوة الجنوب المعنوية، إن الحلف يلفظ أنفاسه، إنه يعيش على سنامه الآن، كالجمل، وحتى أضخم الأسنمة لا بد من نفادها. وسأظل أنهل من مَعِين التهريب ستة أشهر أخرى ثم أكفّ عنه إذ سيغدو العمل بعد ذلك مجازفة خطرة جداً. وبعد ذلك سأبيع زوارقي إلى إنكليزي أحمق، يعتقد أن في مقدوره التسلل بها خارجاً. ولكن سواء حدث هذا أم لم يحدث، فالأمر لا يهمني. لقد جمعت من الثروة مبلغاً كافياً وضعته في المصارف الإنكليزية، وجمعته بالعملة الذهبية، وليس ضمنه شيء من هذا النقد الورقي العديم القيمة».

وكما هو الحال كلما تكلم، بدا حديثه معقولاً مقبولاً. في وسع الآخرين اعتبار ما ينطق به خيانة، ولكنه بالنسبة إلى سكارلت ينمّ دائماً عن صدق وإدراك. وهي تعرف أن موقفها هذا خطأ كلي، وتعرف أن عليها أن تجفل وتحمق، بيد أنها في الحقيقة لا تحس بشيء من هذا، وإنما تستطيع التظاهر به، الأمر الذي يجعلها أوفر احتراماً، وأكثر تمثلاً بالسيدة الفاضلة.

- «أعتقد أن ما كتبه عنك الطبيب ميد كان صحيحاً يا كابتن باتلر، فالطريقة الوحيدة لافتداء نفسك هي في الالتحاق بالجيش، بعد بيع زوارقك، إنك خرّيج وست بوينت و...».

- «إنك تتكلمين كواعظ معمداني[1] يحث الناس على الجندية. ولنفرض أني لا أريد افتداء نفسي؟ لماذا يتوجب عليَّ القتال لدعم النظام الذي نبذني؟ سأنعم برؤيته يتحطم».

- «لم أسمع مطلقاً بأي نظام. . .» قالت بعبوس.

- «أبداً؟! ومع ذلك فأنت جزء منه، كما كنت أنا. وإني أراهن أنك لا تميلين إليه، أكثر مما ملتُ أنا. حسناً، ولماذا اعتبرت الخروف الأسود في عائلة باتلر؟ لهذا السبب وحده، لا لشيء آخر، فأنا لم أمتثل لتقاليد شارلستون. ولا أستطيع ذلك. وما شارلستون إلا الجنوب، مصغراً فقط. إني لأتساءل إذا كنت قد أدركت إلى الآن عبء هذه التقاليد؟ أشياء كثيرة يتحتم على المرء الانقياد لها، لأن العادة قضت بذلك! وأشياء كثيرة أخرى، ليس منها ضر أبداً، يتحتم على المرء تجنبها، للسبب نفسه، وهكذا قضايا عديدة ترمضني بسخفها، من أتفهها أن لا يتزوج المرء بالآنسة الفتيَّة التي قد تكونين سمعت بها. لماذا يتوجب عليَّ الزواج بحمقاء سقيمة، ألأن حادثاً منعني من إيصالها إلى البيت قبل هبوط الظلام، ولماذا أسمح لأخيها المفترس العينين أن يطلق النار ويقتلني في الوقت الذي في إمكاني إصابة الهدف أفضل منه؟ لو كنت سيداً فاضلاً، لكنت تركته يقتلني طبعاً، وكان ذلك كافياً لمحو اللطخة من رقعة آل باتلر. ولكن، إني أحب الحياة. وهكذا حييت ونعمت بوقت طيب. . . عندما أفكر في أخي، يعيش بين بقر شارلستون المقدس ويحترمها للغاية، وأتذكر زوجته الثقيلة الظل وحفلات الرقص التي يقيمها تكريماً للقديسة سيسيليا، وحقول أرزه الخالدة، عندئذ أدرك قيمة المكافأة التي يجنيها من يتمرد على النظام. سكارلت، إن نظام حياتنا الجنوبي بالٍ كالنظام

---

(1) نسبة إلى يوحنا المعمدان وإليه يُنسب مذهب المعمدانيين - (المترجمان).

الإقطاعي، ومن الغريب أنه استمر إلى هذا الوقت، إذ كان يجب انقضاؤه، وها هو يتداعى الآن. فهل تنتظرين مني بعد أن أصغي إلى الخطباء أمثال الطبيب ميد الذي يخبرني أن قضيتنا عادلة مقدسة؟ هل تتوقعين أن تستفزني الحمية بفعل دوي الطبول، فأنتزع البندقية، وأنطلق إلى فرجينيا لأسفح دمي في سبيل مارس روبرت؟ من أي طراز من البله الأغبياء تظنينني؟ ليس من عادتي تقبيل العصا التي تقاصُّني. أنا والجنوب متعادلان الآن... طردني الجنوب يوماً كيما أموت جوعاً، ولكني لم أمت، بل إني أجمع مالاً وفيراً من نزاع الموت الذي يعاني منه الجنوب نفسه سكراته، أجمعها بديل حقوقي الشرعية الضائعة».

- «أعتقد أنك دنيء مرتزق»، قالت سكارلت، ولكن بلهجة آلية. والحقيقة أن معظم الذي تفوّه قد تخطى عقلها، ككل حديث غير شخصي، على أن جزءاً منه بدا معقولاً. لقد كانت هناك مجموعة من التقاليد السخيفة في حياة كرام الناس، فها هي تُجبَر على التظاهر بأن قلبها في القبر بينما هو ليس كذلك، وها هم الناس يذهلون عندما رقصت في السوق الخيرية، ويرفعون حواجبهم بطريقة مثيرة كلما قالت أو أتت أمراً، يختلف أقل اختلاف عما تقوله أو تفعله أية صبية أخرى. ولكنها، مع ذلك، ما زالت تمتعض من سماعه يهاجم التقاليد نفسها التي أمضَّتها أكثر من أي شيء آخر، لقد عاشت ردحاً من الزمن بين الناس يصطنعون، بأدب، عدم الانزعاج من آرائها وهم يستمعون إليها تنطق بأفكارها.

- «مرتزق! لا، وإنما بعيد النظر، مع أن هذه قد تكون مجرد لفظة مرادفة لمرتزق، أو على الأقل، هكذا يدعو بُعد النظر أولئك الذين ليسوا بعيدي النظر مثلي، لقد كان في مقدور كل حلفي مخلص، يملك ألف دولار نقداً عام 1862، أن يفعل الذي فعلت. ولكن ما أقل الذين كانوا مرتزقة كما ينبغي، ليستغلوا الفرص السانحة لهم! وكمثل على

ذلك، بُعيد سقوط قلعة صمتر مباشرة، وقبل بدء الحصار، اشتريت عدة آلاف من بالات القطن بأسعار بخسة جداً، وشحنتها إلى إنكلترا، ولا تزال تقبع في المستودعات في ليفربول. لم أبعها أبداً، إني أحتفظ بها حتى تضطر المناسج البريطانية إلى شراء القطن، وتنقدني السعر الذي أريد. وقد أستغرب إذا ما حصلت على دولار للرطل الواحد».

- «ستحصل على دولار للرطل الواحد عندما تعشش الفيلة في الأشجار!».

- «أعتقد أني سأحصل على ذلك. فسعر رطل القطن الآن 72 سنتاً. سوف أصبح رجلاً ثرياً عندما تنتهي الحرب، لأني كنت ثاقب الفكر بعيد النظر - عفواً، مرتزقاً. أخبرتك يوماً، فيما مضى، أن هناك فرصتين لجمع الثروات الكبيرة، الأولى أثناء تشييد بلاد ما، والثانية خلال انهيارها. جمع بطيء في التشييد، سريع في الانهيار، تذكّري كلماتي، ربما أفادتك يوماً».

- «إني أقدّر النصيحة النصوح، كثيراً جداً» أجابت سكارلت بكل ما في وسعها من سخرية، «ولكن لا أحتاج إلى نصيحتك. هل تعتقد أن بابا فقير معوز؟ إن في حوزته كل ما أحتاج إليه من مال، ثم إني أنعم بأملاك تشارلز علاوة على ذلك».

- «أظن أن الأرستقراطيين الفرنسيين كانوا يفكرون عملياً على النسق نفسه، حتى اللحظة الحاسمة التي سيقوا فيها على عربات النقل إلى المقاصل».

* * *

كان ريت قد ألمح مراراً لسكارلت عن التناقض الناجم عن ارتدائها ثياب الحِداد السوداء في الوقت الذي تشارك فيه بكل النشاطات الاجتماعية. وكان هو يحب الألوان الزاهية، ولذلك كانت ملابس سكارلت السوداء ونقابها الحريري الذي يتدلى من قبعتها حتى

قدميها، تكظه وتروقه في الوقت ذاته. . . بيد أن سكارلت لزمت هذه الثياب، مدركة أنها إذا بدلتها ابتغاء الألوان الزاهية، دون أن تنتظر عدة سنين أخرى، فستضج المدينة في الحديث عنها، أكثر مما هي ضاجة الآن، وعدا ذلك، كيف يمكنها تبرير الأمر لأمها؟

لقد قال ريت علانية إن نقاب الحرير يجعلها تبدو كغراب، وإن الملابس السوداء تضيف عشر سنوات إلى عمرها، ودفعتها هذه العبارة النابية، وثباً إلى المرآة لترى إن كانت حقاً تبدو في الثامنة والعشرين بدلاً من الثامنة عشرة.

- «لا مناص لي من الاعتقاد أن فيك أنفة تربأ بك عن أن تحاولي الظهور بمظهر السيدة ميريويذر» عيرها يوماً، «وأن فيك ذوقاً أرفع من أن يجعلك تلبسين هذا النقاب، كي تعلني عن حزن أنا واثق أنك لم تشعري به. سأراهنك، سوف أنزع تلك القبعة وذاك النقاب عن رأسك، وأضع بدلاً منها طرفة باريسية، خلال شهرين».

- «حقاً! لا، ولا تدعنا نبحث في هذا الموضوع بعد اليوم» قالت سكارلت، مستاءة من تعرّضه لتشارلز. على أن ريت الذي كان يستعد للسفر إلى ولمنفتون، ومنها إلى الخارج، فارقها والبسمة الفاترة تعلو وجهه.

ومضت أسابيع. وفي صباح صيفي مشرق، ظهر في الباب، وبيده علبة مزركشة زاهية من علب القبعات. وعندما ألفى سكارلت وحيدة في البيت، فتح العلبة فإذا ضمن طيات من القماش الناعم كانت تستقر قبعته، طرفة رائعة جعلتها تزعق: «ها! الشيء الذي أحبه!» وتراءت لها كأبدع قبعة شاهدتها، وهي المتعطشة لرؤية الثياب الجديدة، وللمسها أيضاً.

كانت من التفتة الخضراء القاتمة، مخططة بحرير ملس ذي لون أخضر فاتح، وكان الشريطان اللذان يعقدان تحت الذقن عريضين

عرض راحة يدها، باللون الأخضر الفاتح ذاته، وقد انحنت حول قمة هذه التحفة آنق ريشة نعام.

- «ضعيها على رأسك» قال ريت مبتسماً.

فطارت عبر الغرفة إلى المرآة، ووضعتها بسرعة على رأسها مشيحة بشعرها إلى الوراء، لتبدي قرطيها، عاقدة الشريطين تحت ذقنها.

- «كيف أبدو؟!» صاحت مستديرة نحوه كي يتأملها جيداً، هازة رأسها لترقص الريشة. لقد كانت تعلم أنها تبدو جميلة، حتى قبل أن ترى توكيد عينيه. إنها تبدو جريئة بشكل جذاب، وقد أحالت خطوط القبعة الخضراء عينيها إلى زمرديتن قاتمتين تقدحان شرراً.

- «ها، ريت لمن هذه القبعة؟ سأشتريها منك، سأنقدك كل سنت أملكه بدلاً منها».

- «إنها لك» قال، «وأي إنسان آخر يستطيع التزيي بتلك الظلال الخضراء؟ ألا تعتقدين أني حفظت لون عينيك جيداً في ذاكرتي؟!».

- «هل حقاً فصلتها خصيصاً لي؟».

- «نعم، وعلى العلبة، تجدين عبارة «شارع السلام» إن كان ذلك يعني شيئاً بالنسبة إليك».

والواقع أن ذاك لم يعنِ شيئاً لها، وراحت تبتسم وهي تتأمل صورتها في المرآة، ففي هذه اللحظة بالذات، لم يكن يهمها شيء عدا أنها تبدو خارقة الرواء، في أول قبعة أنيقة تضعها على رأسها منذ سنتين. أي شيء لا يستطيع تحقيقه بهذه القبعة؟ وفجأة غاضت بسمتها.

- «ألم ترق لك؟».

- «ها، إنها حلم، ولكن - آه، إني أمقت أن أُقسَر على تغطية هذه القبعة الخضراء البديعة بالنقاب، وأصبغ الريشة بالسواد».

وهرع إلى جانبها بسرعة البرق، وبخفة، فكّت أصابعه الماهرة العقدة العريضة تحت ذقنها، وفي غمضة عين، استقرت القبعة ثانية داخل العلبة.

- «ماذا تفعل، قلت إنها لي».

- «ولكن لا لتنقلب قبعة حداد. سوف أجد سيدة فاتنة أخرى ذات عينين خضراوين، تقدِّر ذوقي».

- «ها، لن تُقدِم على ذلك، سأموت إن لم تحزها يداي، ها أرجوك يا ريت، لا تكن حقيراً، دعني آخذها».

- «وتحولينها إلى شبح مرعب كقبعاتك الأخريات؟ لا».

فقبضت على العلبة، «أتسمح لتلك الطرفة البديعة، التي جعلتها تبدو فتية ساحرة، تمنح لفتاة أخرى؟ لا، أبداً»، فكرت هنيهة في الذعر الذي سيستولي على ميلاني وبيتي، كما فكرت في إيلين وماذا يمكن أن تقول، وارتعشت. ولكن غرور الصبا كان أقوى من كل شيء:

- «لن أحوّلها، إني أعدك، والآن دعني آخذها».

فناولها العلبة بابتسامة ساخرة نوعاً ما، وراقبها وهي ترتديها ثانية وتصلح من حالها.

- «كم ثمنها؟» قالت فجأة ووجهها يطرق إلى الأرض، «في حوزتي الآن خمسون دولاراً فقط، ولكن في الشهر القادم...».

- «ستكلفك نحو ألفي دولار من عملة الحلف» قال مبتسماً وهو يلمح اكتئاب ملامحها.

- «يا سلام! حسناً، لنفرض أني نقدتك الآن خمسين دولاراً، وفيما بعد، عندما أحصل...».

- «لا أريد نقوداً في مقابلها، إنها هدية».

ففغرت فاها، إذ إن طريق هدايا الرجال طريق حساس حرج محفوف بالمحاذير.

«الحلوى والأزهار يا عزيزتي»، كانت إيلين تردد على مسامعها، «وربما كتاب شعر، أو حافظة صور، أو قارورة صغيرة من مياه فلوريدا، هي الأشياء الوحيدة التي يصح للسيدة أن تقبلها من الرجال، وحذار حذار أية هدية ثمينة حتى من خطيبك. وإياك قبول أية هدية مجوهرات أو ملابس، حتى ولا قفازات أو مناديل. وإذا ما تقبلت هدايا كهذه، سيدرك الرجال أنك لست سيدة، وسيحاولون الاجتراء عليك».

«يا اللّه!» فكرت سكارلت وهي تنظر أولاً إلى شخصها في المرآة، ثم إلى وجه ريت المبهم، «طبعاً، لا أستطيع إبلاغه رفض هديته، فهي رائعة جداً، إني... إني تقريباً أفضل أن يتمتع بمحرمة، إن كانت صغيرة جداً»، ثم انتابها الفزع لتفكيرها في مثل هذا، فالتفتت نحوه مخضبة الوجه:

- «سوف... سوف أعطيك الخمسين دولاراً...».

- «إذا فعلت ذلك، فسوف أقذف بنقودك في القناة أو، أفضل من ذلك، سأشتري بها مغفرة لروحك[1]، إذ إني واثق أن روحك في حاجة إلى مغفرة».

فضحكت كارهة، ولكن صورة وجهها الضاحك في المرآة، تعلوه القبعة الخضراء، حدا بها إلى أن تبت في الأمر فوراً.

- «أي شيء ستحاول صنعه معي؟».

- «سأظل أغريك بالهدايا الجميلة إلى أن تبلى مُثُلك الضحلة تماماً، وتصيري تحت رحمتي» ثم أردف مقلداً لهجة الأمهات: «تقبّلي الحلوى والزهور فقط من الرجال، يا عزيزتي» وانفجرت هي في قهقهة.

---

(1) إشارة إلى ما كان معروفاً في القرون الوسطى من أن المذنب كان يعترف بذنبه أمام الكاهن ثم يدفع بعض النقود فيغفر له ذنبه - (المترجمان).

- «إنك شقي أريب أسود القلب يا ريت باتلر، وأنت تعرف تماماً أن هذه القبعة ظريفة جداً بحيث لن تُرفض».

فسخرت عيناه منها، حتى وهما تطريان جمالها:

- «طبعاً في وسعك إخبار الآنسة بيتي أنك أعطيتني عيِّنة صغير من التفتة والحرير الأخضر، ورسمت صورة للقبعة، وأني أخذت خمسين دولاراً منك، ثمناً لها».

- «لا، سأقول مئة دولار، وستنبئ هي جميع الناس في المدينة، وستستعر قلوب الجميع حسداً، وسيتحدثون عن تبذيري. ولكن، ريت، ينبغي ألّا تجلب لي أي شيء آخر، بمثل هذا الثمن الباهظ. إن عملك هو غاية في اللطف، بيد أني في الحقيقة، لن أستطيع تقبُّل أي شيء آخر».

- «حقاً؟ لا بأس. سأجلب لك هدايا ما دامت تسرّك، وما دام ناظراي يقعان على أشياء، تزيدك رواء وسحراً. سأجلب لك حريراً أخضر قاتماً، تخيطين منه ثوباً يتسق مع القبعة، وإني أحذرك من أني لست لطيفاً، إني أغريك بالقبعات والأساور وأقودك إلى الهاوية. تذكّري دائماً أني لا أقدم على شيء دون تفكير، وإني لن أمنح شيئاً دون توقّع بديله، فأنا أقبض الثمن دائماً».

وانقضّت عيناه السوداوان على وجهها، وبلغتا شفتيها، فأطرقت ناظريها إلى الأرض، وقد تملّكها التهيج. سوف يحاول الآن انتهاك الحرمات، تماماً كما تكهّنت إيلين، سوف يقبّلها، أو يحاول تقبيلها، وليس في وسع عقلها المشدوه أن يقرر نهائياً أي الخطوات ستتم الآن. وإن هي رفضت؟! يمكن أن يطوح بالقبعة من على رأسها فوراً، ويقدمها لفتاة أخرى. ومن جهة ثانية، إذا سمحت بقبلة طاهرة واحدة، يمكن أن يجلب لها هدايا جميلة أخرى طمعاً في الظفر بقلبة أخرى. إن الرجال يعلّقون أهمية كبرى على القبل، ولا يعلم أحد غير اللّه

سبب ذلك. كما أنهم كثيراً ما يقعون كلية في حب فتاة، بعد قبلة واحدة، فيجعلون من ذواتهم فرجة يتلهى بها الناس، اللهم إلا إذا كانت الفتاة بارعة فتمنعت بقبلاتها بعد القبلة الأولى. سيكون من المثير جداً أن يقع ريت في حبها، ويعترف بذلك، ثم يتعطف من أجل قبلة أو ابتسامة. أجل، ستدعه يقبلها.

ولكن ريت لم يحرك ساكناً وينهض لتقبيلها، فراودته بنظرة جانبية من تحت رموشها، وغمغمت تحثه على الإسراع:

- «وهكذا تقبض الثمن دائماً، أليس كذلك؟ وماذا تنتظر أن تقبض مني؟».

- «سننظر في الأمر فيما بعد».

- «لا بأس، إذا كنت تفكر في أني سأتزوجك ثمناً للقبعة، فأنت مخطئ» قالت متجرئة، مُدلَّة برأسها في حركة مغناج وقحة، جعلت الريشة تتأرجح في ذبذبة واسعة.

ولمعت أسنانه البيضاء، من تحت شاربه الصغير:

- «أنت تمالئين نفسك يا سيدة، فأنا لا أريد الزواج بك أو بأية آنسة أخرى، لست رجل زواج».

- «حقاً!» صاحت متراجعة إلى الخلف، وقد حزمت أمرها على منحه محرمة، «وأنا أيضاً لا أقصد حتى تقبيلك».

- «إذن لماذا تجمَّع فمك بذلك الشكل المضحك؟!».

- «آه» زعقت، وهي تلمح نفسها في المرآة، وترى أن شفتيها الحمراوين، كانتا حقاً في الوضع المشتهى للقبلة. «آه» زعقت ثانية، فاقدة رشدها، ضاربة الأرض بقدميها، «إنك أفظع مخلوق رأته عيناي، ولن آبه إن غبت عن ناظري بعد اليوم».

- «لو كنت حقاً تشعرين بهذا الشعور لدست القبعة. عزيزتي، أيُّ

انفعال هذا الذي أنت فيه، إنه لائق بك تماماً، كما قد تعلمين. هيا يا سكارلت، دوسي «القبعة» لتريني حقيقة نظرتك إليّ، وإلى هداياي».

- «لن تجرؤ على مس هذه القبعة» قالت متمسكة بعقدة شريطها، متقهقرة إلى الوراء. وتبعها هو، وهو يضحك برقّة، آخذاً يديها بين يديه.

- «ها، سكارلت، أنت حسناء فتيّة أدميت قلبي ألماً»، قال، «وسوف أقبّلك لأنك انتظرت ذلك كما بدا»، وانحنى من دون مبالاة، ودغدغ شاربه وجنتها وحسب. «والآن هل تشعرين أن عليك أن تصفعيني، كي أحافظ على أدبي؟».

وانتفضت شفتاها غضباً، وتطلعت إلى عينيه فرأتهما تتألقان طرباً في أعماقهما السوداء، وانفجرت ضاحكة. ما أشد إحناقه وإغاظته. إذا لم يبيّت الزواج بها ولم ينوِ حتى تقبيلها، فماذا يريد إذن؟ وإذا كان لا يحبها، فلماذا هذه الزيارات المتكررة، وهذه الهدايا؟

- «ذلك أفضل»، قال، «سكارلت إني ذو تأثير سيّئ عليك، وإذا كنت تملكين شيئاً من العقل، فستخرجينني من البيت مثخن الجراح - إذا استطعت. إني رجل يصعب الخلاص منه، بيد أني شر عليك».

- «هل أنت كذلك؟!».

- «ألا تستطيعين إدراك ذلك؟ منذ قابلتك في السوق الخيرية، وسيرتك مفجعة للغاية، وأنا الذي يلام على معظمها. من الذي شجعك على الرقص؟ من ساقك إلى الإقرار بأن قضيتنا المجيدة ليست مجيدة ولا مقدسة؟ من حرّضك على المبادئ الرنانة؟ من ساعدك على تزويد العجائز بمادة دسمة يثرثرن حولها؟ من الذي سينتشلك من ثياب الحِداد قبل الأوان بعدة سنين؟ ومن، لنختم هذه القائمة، ومن أغراك بقبول هدية لا يمكن لسيدة قبولها مع الاحتفاظ بمقامها كسيدة؟».

- «أنت تتملق نفسك يا كابتن باتلر، فأنا لم أقترف عملاً شائناً، كما أني أقدمت على كل الذي ذكرت، من دون أي مساعدة منك».

- «أشك في ذلك» قال وقد انقلبت سحنته فجأة، هادئة وقورة، «سوف تظلين أرملة تشارلز هاملتون المفؤودة، الذائعة الصيت لمآثرها بين الجرحى. وأخيراً على كل حال -».

ولكنها لم تعره أذناً صاغية، لأنها كانت تتأمل نفسها طربة في المرآة، للمرة الثانية، وهي تفكر في ارتداء القبعة إلى المستشفى بعد ظهر هذا اليوم ذاته، وبحمل زهور للضباط الناقهين. ولم يدر في خلدها أن هناك حقائق في عبارته الأخيرة، ولم تدرك أن ريت هو الذي دمَّر سجن ترمّلها وحرّرها لينصّبها ملكة على الصبايا العزباوات، في الوقت الذي كان ينبغي لعهد ملكيتها أن يكون قد مضى، ولم تدرك كذلك أنها انحرفت كثيراً عن تعاليم إيلين بفعل تأثيره. لقد كان التطور تدريجياً في غاية البطء. كان النقد اللاذع لعادة صغيرة يبدو لا علاقة له بنقد الأخرى، كما لا يبدو لأي من هذه الانتقادات أدنى علاقة بريت، ولم تدرك سكارلت أنها بتشجيعه لم تعد تكترث للكثير من أحزم تواصي أمها، المتعلقة باللياقة والحشمة، وأنها نسيت الدروس الصعبة التي تخلق السيدة الفاضلة. كل ما رأته أن القبعة كانت أكثر القبعات التي اقتنتها ملاءمة لها، وأنها لم تكلفها بنساً واحداً وأن ريت لا بد أن يكون أسير حبها سواء أقرّ بذلك أم أنكره. ومن البديهي أن تجمع أمرها على إيجاد وسيلة تقوده إلى الإقرار.

* * *

في اليوم التالي كانت سكارلت تقف أمام المرآة، والمشط في يدها، وملء فمها دبابيس شعر، تحاول تسريحة جديدية، تسريحة سمعت من مايبل العائدة حديثاً من زيارة زوجها في ريتشموند، أنها كانت مثار سخط العاصمة. هذه التسريحة تدعى «القطط والجرذان

والفئران»، وهي صعبة ومعقّدة. كان الشعر يفرق من المنتصف، وينسق في ثلاث لفائف متدرجة الحجم، واحدة في كل جزء من أجزاء الرأس، بحيث تأتي الكبرى، وهي القط، عند مفرق الشعر. وكان من السهل تثبيت القط والجرذ، ولكن الفئران ظلت تنفلت من دبابيس الشعر بصورة مغيظة ممضّة. ومهما يكن من أمر فإنها عزمت على إتمامها، لأن ريت قادم إلى العشاء، وهو دائم الملاحظة والتعليق حول أي بدعة في الثياب أو الشعر.

وبينما هي تكافح ضد خصلات شعرها الكثيفة العنيدة، وحبات العرق تتفصد من جبينها، سمعت جريان أقدام خفيفة في قاعة الطابق السفلي، وأدركت أن ميلاني قد عادت من المستشفى. ولكن عندما سمعتها تصعد الدرجات اثنتين اثنتين، توقفت عن التمشيط ولم تنجز نصفه، مدركة أن لا بد أن محذوراً قد وقع، لأن ميلاني تسير دائماً متئدة، كسيّدة مسنة، ثم اتجهت إلى الباب ودفعت مصراعيه، وركضت ميلاني إلى الداخل ووجهها متخضّب يرتعد كطفلة آثمة.

كانت الدموع ترصع وجنتيها، وقد علّقت قبعتها برقبتها بواسطة الشرائط، بينما كانت أطواقها تتمايل بشدة، ويدها تقبض على شيء غامض. وعبقت الغرفة، إثر دخولها، برائحة عطر رخيص حاد.

- «آه، سكارلت!» صاحت، وأوصدت الباب متهاكلة على السرير، «هل عمتي في البيت؟ ليست في البيت؟ آه، شكراً للّه. سكارلت، إني جزعة جداً أكاد أموت، أوشك أن يغمى عليّ. سكارلت، العم بيتر يتوعدني بإخبار العمة بيتي!».

- «أفصحي... ماذا؟».

- «بأني كنت أتحدث إلى تلك - إلى الآنسة - السيدة -» وحركت منديلها لتروح على وجهها الحار، «تلك المرأة ذات الشعر الأحمر، المدعوة بيل وتلينغ».

- «حقاً، ميلي!» صاحت سكارلت مذهولة جداً بحيث لم يسعها إلا التحديق بوجهها.

وبيل وتلينغ هي ذات الشعر الأحمر التي رأتها في الشارع أول يوم لقدومها إلى أتلانتا، وقد غدت في هذا الوقت أسوأ النساء سمعة في المدينة. فمع أن أتلانتا غصت بأفواج العاهرات اللواتي كن يتبعن الجنود، إلا أن بيل فاقت الجميع، بفضل شعرها القاني الوهاج، وفساتينها المزركشة المهندمة على آخر طراز عصري. ونادراً ما شاهدها المارَّة في شارع بيتشتري، أو في أي من المناطق المجاورة الراقية، ولكن، إذا تفق وظهرت هناك، فإن النسوة الفاضلات يسرعن إلى قطع الشارع ليخلصن من المرور إزاءها، وها إن ميلاني تحدثت إليها، فلا عجب أن يحتد غضب العم بيتر.

- «سأموت إذا اكتشفت العمة بيتي الأمر. إنك تعرفين أنها ستبكي وتخبر كل من في المدينة وسيعيّرني الناس» انتحبت ميلاني باكية، «وليست الغلطة غلطتي، فأنا... أنا لم أستطع الهرب منها، ولو فعلت لكان ذلك في منتهى الفظاظة يا سكارلت، شعرت - شعرت بالأسف من أجلها. هل تعتقدين أني رَديئة بسبب شعوري هذا؟».

بيد أن سكارلت لم تكترث لفلسفة القضية الخلقية، وكمعظم الصبايا الساذجات المهذبات، كان يتأكلها الفضول حول العاهرات.

- «ماذا كانت تبغي؟ ماذا أخبرتك؟».

- «آه، لقد تفوّهت بكلام زري، ولكني استطعت أن أدرك أنها كانت تحاول بكل جهدها أن تكون كيّسة، مسكينة! خرجت من المستشفى ولم أجد العم بيتر والعربة في انتظاري، ففكرت بالإياب سيراً على الأقدام، وعندما حاذيت ساحة إمرسون، لمحتها مختبئة وراء السور. ها، شكراً للّه، فآل إمرسون موجودون في ميكون. ثم

ابتدرتني: «أرجوك يا سيدة ويلكس، كلميني دقيقة واحدة»، لا أدري كيف عرفت اسمي، وأدركت أن عليَّ أن أجري بالسرعة المستطاعة. ولكن - يا سكارلت، كانت تبدو حزينة جداً، و متوسلة كذلك. وكانت ترتدي ثوباً أسود، وقبعة سوداء، ولا تضع مساحيق أبداً، وفي الحقيقة كانت تبدو محتشمة، إلا بالنسبة إلى ذلك الشعر الأحمر. وقبل أن أتمكن من الجواب، أردفت: «أعرف أني يجب ألّا أتحدث إليك، ولكني حاولت مكالمة تلك العجوز الثرثارة، السيدة إلسينغ، فطردتني من المستشفى»».

- «أحقاً دعتها ثرثارة؟» قالت سكارلت جذلة، معقبة بالضحك.

- «ها، لا تضحكي، فليس الأمر هزلاً، وظهر أن الآنسة - هذه المرأة، تريد القيام بعمل ما من أجل المستشفى، هل تتصورين ذلك؟ لقد عرضت القيام بالتمريض كل صباح، ولكن بالطبع، لا بد أن السيدة إلسينغ كادت تموت من هذه الفكرة، فطردتها من المستشفى، ثم قالت: «أريد أن أفعل شيئاً أيضاً، ألست حلفية، صالحة مثلك؟». ويا سكارلت، تأثرت تماماً برغبتها في المساعدة. أنت تعرفين أن ليس من الممكن أن تكون خسيسة كلياً، ما دامت تريد مؤازرة القضية. هل تعتقدين أني مخطئة بسبب شعوري هذا؟».

- «باللّه عليك يا ميلي، من يحفل إذا كنت مخطئة؟ ماذا قالت أيضاً؟».

- «قالت إنها كانت تراقب السيدات، يمضين على مقربة منها إلى المستشفى، واعتقدت أن - و . . . وجهي شفوق، ولذلك أوقفتني وفي حوزتها بعض المال، وطلبت مني أخذه والاستفادة منه لخير المستشفى، وعدم إطلاع مخلوق على مصدره، وقالت إن السيدة إلسينغ لن تسمح بصرفه إن هي درت بمصدره. وما مصدره؟! عندما أفكر في

ذلك يكاد يغمى عليَّ. لقد أُسقِط في يديَ وتملكتني الحيرة واللهفة للانصراف، ولم أنبس إلا بـ: «ها، نعم، حقاً، كم هو جميل منك!»، وبعض الكلمات البلهاء، ولكنها ابتسمت قائلة: «إن هذه إنسانية حقة» ودسّت هذا المنديل القذر بيدي، آه هل تشمّين العطر؟!».

ورفعت منديل رجل، ملوثاً ومشرباً بالعطر، صُرَّ في داخله بعض النقود.

- «وبينما كانت تشكرني، وتتفوّه ببعض الكلمات حول إعطائي مبلغاً مالياً كل أسبوع، إذا العم بيتر يمرّ بعربته ويراني»، وأجهشت في البكاء، مسندة رأسها على الوسادة، «وعندما رآني معها، زجرني، يا سكارلت، زجرني. لم يزجرني أحد في حياتي قبلاً، ثم قال: «اصعدي إلى هذه العربة العالية فوراً»، وطبعاً صعدت، وعكف طول الطريق يباركني من الرجس، ويمنعني من إيضاح الحقيقة، قائلاً إنه سيخبر العمة بيتي. سكارلت، انزلي والتمسي منه ألّا يقدم على ذلك، فربما أصغى لرجائك، سيقتل النبأ عمتي إن هي درت مجرد إني تطلعت في وجه تلك المرأة. ستنزلين؟»».

- «نعم، ولكن دعينا نرى مقدار المال في الصرة، إنها تبدو ثقيلة». وفكّت العقدة فانصلت على السرير حفنة نقود ذهبية.

- «سكارلت، هنا خمسون دولاراً، ومن الذهب» صاحت ميلي مرتاعة وهي تعدّ القطع البراقة.

- «أخبريني، هل تعتقدين أن من الصواب الاستفادة من نقود مكتسبة بهذه الطريقة للجنوب؟ ألا تعتقدين أن من الجائز أن يدرك اللّه أنها تريد تقديم المساعدة، فلا يكترث إن كانت ملوثة بالعار؟ عندما أفكر في المتطلبات العديدة التي يحتاج إليها المستشفى -».

ولكن سكارلت لم تكن مصغية، كانت تحدق في المنديل القذر وكيانها يموج بالغضب والضعة، ففي زاوية هذه الرقعة الرثة، كانت

ترتسم الحروف الثلاثة: ر، ك، ب. وفي أعلى أدراجها هي، كان يوجد منديل مماثل تماماً، منديل أعاره لها ريت باتلر بالأمس فقط، لتلفّ به جذوع باقة من الزهور البرية التي قطعاها معاً، وكانت قد ارتأت إعادته لريت عند قدومه إلى العشاء الليلة.

هكذا إذن، يصاحب ريت تلك المرأة الرذيلة، ويمنحها المال، فمن ذلك المصدر ترد الإعانات إلى المستشفى، من ذهب الحصار. واهٍ، كيف تعتقد أن ريت يجرؤ على النظر في وجه امرأة فاضلة، بعد أن يكون مع تلك المخلوقة! وكيف تفكر أن في وسعها الاعتقاد أنه يحبها؟! إن هذا يثبت استحالة مظانها.

إن النساء الساقطات، وكل ما يكتنفهن، أمور غامضة بالنسبة إليها. كانت تعرف أن الرجال يرعون هؤلاء النسوة، من أجل غايات، لا يليق بالسيدة التلفظ بها، وإن هي فعلت ذلك، فليكن همساً، وبطريقة غير مباشرة، وبعبارات لطيفة. وكانت تعتقد أيضاً أن الرعاع فقط، هم الذين يزورون نساء كهؤلاء، ولم يعنَّ لها قبل هذه اللحظة أن رجالاً محترمين - يعني رجالاً قابلتهم في بيوت رفيعة النسب، ورقصت معهم - يمكن أن يأتوا أعمالاً كهذه. وانفتح أمامها مجال فكري جديد بكليته، مجال مريع... ربما يقترف كل الرجال ذلك، إن من القحة البالغة أن يضطروا نساءهم إلى الخوض في حمأة تلك الإجراءات البذيئة، ثم يجرون فعلاً وراء نساء ساقطات، ينقدوهن المال مقابل ملذات كهذه. آه، كل الرجال أسياد الرذيلة، وريت باتلر على رأس الجميع.

ستأخذ هذا المنديل، وتطوّح به في وجهه، وتريه الباب، ولن تتكلم معه ثانية. ولكن لا، طبعاً لا يسعها تنفيذ ذلك، لا يسعها أبداً، أبداً، إطلاعه على أنها علمت بوجود نساء ساقطات، وعلى أنه زارهنّ، فالسيدة لا يمكنها مطلقاً الإقدام على مثل هذا.

«آه»، فكرت بغضب، «لو أني فقط لم أكن سيدة، فماذا كنت أقول لهذه الحشرة!».

وجمعت المنديل في يدها، هابطة السلّم إلى المطبخ، لتبحث عن العم بيتر، وعندما حاذت الموقد، دسّت الرقعة النتنة في ثنايا اللهيب وراحت تراقبها بغضب واهن.

14

أضاءت بشائر الأمل وهّاجة في قلوب الجنوبيين عند مطلع صيف 1863، فرغم الحرمان والشدائد، ورغم مضاربي الطعام وظلم ذوي القربى، ورغم الموت والمرض والجوع، تلك الأشياء التي خلفت آثارها الآن في كل بيت تقريباً، رغم هذا كله، عاود أهل الجنوب قولهم: «انتصار واحد وتنتهي الحرب». أصبحوا يرددون هذه العبارة حتى بتأكيد أكثر غبطة مما كانوا في الصيف الفائت. لقد أثبت الشماليون أنهم صخرة صلدة، صعبة التفتيت، ولكنهم يتفتتون الآن.

ومضى ميلاد السنة 1862 عيداً هنيئاً لأتلانتا والجنوب قاطبة، فقد أحرز الحلف انتصاراً ساحقاً في فردريكسبورغ، وأُحصي قتلى وجرحى الشماليين بالآلاف، ولذلك عمّت الاحتفالات السارة إجازة ذلك الموسم، احتفالات وشكر لتحوُّل دفة الحرب. وأضحى رجال الجيش بملابسهم الوطنية البنية اللون محاربين أكفاء، ذوي تدريب ودراية، وبرهن قادتهم على شدة مراسهم وحميتهم، وأدرك الجميع أنه عند استئناف الحملة في الربيع سيُسحق أبناء الشمال نهائياً.

وأقبل الربيع وتجدد القتال، وأحرز الحلف فوزاً كبيراً آخر في شانسلورزفيل، فدوّى الجنوب بفرحة النصر.

وفي ميدان آخر، أقرب إلى الوطن، تحولت كرة فرسان اتحادية إلى نصر حلفي، وما برح الناس يضحكون ويصفعون ظهور بعضهم

قائلين: «نعم يا سيدي، عندما يلحقهم ناتان بدفورد فورست، فأحرى بهم الهروب». وفي أواخر أبريل قام الكولونيل ستريت على رأس ألف وثمانمئة فارس شمالي، بهجوم مفاجئ على جورجيا، وهدفهم روما، التي تبعد عن أتلانتا شمالاً نيفاً وستين ميلاً فقط. وكانت تحدوهم خطة مغرية، تهدف إلى أن يقطعوا سكة الحديد، ذات الأهمية الحيوية، الممتدة بين أتلانتا وتنيسي، ثم أن ينعطفوا جنوباً إلى أتلانتا ليدمروا المصانع وذخائر الحرب المحشودة هناك، في تلك المدينة التي هي مفتاح الحلف.

كانت ضربة جريئة، وكان يمكن أن تكلف الجنوب ثمناً باهظاً لولا فورست الذي انطلق بثلث عددهم من الرجال والفرسان الأشاوس، ثم اشتبك معهم حتى قبل أن يبلغوا روما، وطفق يغير عليهم ليل نهار، وأخيراً أسر القوة بمجموعها.

بلغ النبأ أتلانتا في آن واحد تقريباً مع نبأ الفوز الكبير في شانسلورزفيل، واهتزت أصداء المدينة بحق، مهللة ضاحكة. قد يكون الظفر في شانسلورزفيل أكثر أهمية، ولكن أسر رجال ستريت الغزاة، وضع الشماليين حتماً في وضع يدعو إلى السخرية.

«لا يا سيدي، كان الأفضل أن لا يعبثوا مع فورست الكبير» كان أهل أتلانتا يردّدون جذلين، كلما أعيدت تلاوة القصة.

كان تيار سعد الحلف يجري الآن سريعاً زاخراً، يجرف الناسفرحين مهللين. حقاً لقد كان جنود الشمال بقيادة غرانت يحاصرون فيكسبورغ منذ منتصف مايو، وحقاً لقد تكبد الجنوب خسارة فادحة عندما جُرح ستونوول جاكسون جراحاً قاتلة في تشانسلورزفيل، وحقاً لقد فقدت جورجيا ابناً من أشجع وألمع أبنائها عندما قتل الجنرال ت.ر. كوب في فردريكسبورغ، ولكن الشماليين لن يستطيعوا

تحمُّل هزائم أكثر، كهزيمتي فردريكسبورج وشانسلورزفيل. سيُرغمون على الاستسلام، وعندئذ تضع هذه الحرب الضروس أوزارها.

وأقبلت أيام يوليو الأولى، تحمل معها الشائعة التي ما عتمت أن غدت حقيقة فيما بعد. الشائعة التي تقول إن «لي» يزحف إلى داخل بنسلفانيا. أي في ولاية العدو! لن يجبر العدو على الالتحام في المعركة! هذه آخر ملاحم الحرب!

وعمّ الهرج أتلانتا، الفرحة والتعطش المسعور للانتقام. سيعرف الشماليون الآن ماذا يعني نقل الحرب إلى بلادهم، سيعرفون الآن ماذا يعني تجريد الحقول المخصبة ونهب الأبقار والخيول وحرق البيوت، وجر الأولاد والعجزة إلى السجون، وحمل النساء والأطفال ليموتوا جوعاً.

كل إنسان يعرف ماذا فعل الشماليون في ميسوري وكنتاكي وتنيسي وفرجينيا، حتى الأطفال الصغار في وسعهم سرد الأهوال التي أنزلها الشماليون بالمقاطعات المحتلة، سردها بروح من الحقد والخوف، وعن ظهر قلب أيضاً. وكانت أتلانتا قد غصت الآن باللاجئين من شرقي تنيسي، وسمعت المدينة منهم قصص الأهوال التي كابدوها، تروى للمرة الأولى. ففي تلك المنطقة كان أنصار الحلف هم الأقلية، فطحنتهم رحى الحرب من دون رحمة، كما فعلت في كل ولايات الحدود: الجار يشي بجاره، والأخ يقتل أخاه. ولذلك هبَّ هؤلاء اللاجئون مطالبين برؤية بنسلفانيا كتلة واحدة من النيران المستعرة، وحتى أرقّ السيدات المسنات بدت على وجوههن علائم لذة التشفي.

ولكن عندما تسرب من الجبهة خبر أن «لي» أصدر أوامره بعدم التعرض لأي ملكية خاصة في بنسلفانيا، وأن النهب سيعاقب عليه بالموت، وأن الجيش سيدفع ثمن أي شيء يستولي عليه - عندئذ بدا أن الجنرال أصبح في حاجة إلى كل ما كان قد كسبه من حب واحترام

كي يحافظ على شعبيته. وبدأ الناس يتساءلون: لماذا لم يطلق أيدي الجنود في المستودعات الغنية في تلك الولاية الموسرة؟ بماذا كان يفكر الجنرال لي؟ وأبناؤنا يعانون أشد ألوان الجوع، ويحتاجون إلى الأحذية والثياب والخيل!

وحمل البريد إلى أتلانتا خلال تلك الأيام الأولى من يونيو، أول أخبار صادرة عن الجبهة مباشرة، رسالة قصيرة سريعة من دارسي ميد إلى والده الطبيب، فتداولتها جميع الأيدي والسخط يؤجّ في النفوس:

«بابا، هل في وسعك تدبر إرسال زوج من الأحذية إليّ؟ مضى عليَّ أسبوعان وأنا عاري القدمين، ولست أرى أي أمل في الحصول على زوج آخر. لو لم تكن لي هاتان القدمان الكبيرتان لأمكنني تدبير حذاءين من موتى الشماليين، كما يفعل سائر الجنود، ولكن لم أجد حتى الآن شمالياً بقدمين تقاربان ضخامة قدمي، فإذا أمكنك تدبير زوج، فلا ترسله بالبريد، سيسرقه بعضهم خلال الطريق، ولن ألومهم. أرسل «فل» معه بالقطار. وسأكتب لك قريباً أين سنكون. لا أدري في هذه اللحظة سوى أننا نزحف شمالاً. نحن الآن في ميريلاند، والجميع يقولون إننا نتابع المسير إلى بنسلفانيا.

بابا، حسبت أننا سنذيق الشماليين نفس ما أذاقونا، ولكن الجنرال يقول: لا! ولست شخصياً أبالي بالموت في سبيل أن أشفي غليلي بحرق بعض بيوت الشماليين. بابا، لقد سرنا اليوم خلال أعظم حقل قمح يمكن أن يراه المرء، حقل لا نملك نظيره في بلادنا. وعلى كل حال، لا بد أن أعترف بأننا قمنا بنهب فردي في ذلك الحقل، إذ كنا جميعاً في جوع مضنٍ، والذي لا يعلم به الجنرال لا يسوؤه. على أن ذلك القمح الأخضر لم يُجدِنا نفعاً، فالجميع كانوا مصابين بالزحار. بابا، حاول جيداً تدبير بعض الأحذية لي، فأنا كابتن الآن، ويتحتم على الكابتن ارتداء حذاء، حتى لو لم يكن ينعم ببذلة جديدة أو شريط مقصب».

بيد أن الجيش كان في بنسلفانيا - هذا أهم ما في الأمر. انتصار آخر وتنتهي الحرب، وعندئذ يستطيع دارسي ميد الحصول على ما يحتاج إليه من الأحذية، ويعود الجنود إلى بيوتهم سيراً على الأقدام، ويسعد الجميع ثانية. واغرورقت عينا السيدة ميد بالدموع، وهي تتخيل ابنها الجندي يرجع إلى البيت أخيراً. . . إلى البيت ليقيم فيه.

وفي الثالث من يوليو، صمتت فجأة أسلاك البرق التي تحمل أنباء الشمال، صمتت صمتاً استمر حتى منتصف اليوم الرابع، حيث بدأت تتسرب إلى القيادة في أتلانتا نتف من تقارير مجزوءة. كان هناك قتال ضارٍ في بنسلفانيا قرب مدينة صغيرة تدعى غتيسبورغ، معركة كبيرة، قذف فيها لي بجميع فريق جيشه. كان النبأ غير مؤكد، متأخر الوصول، لأن المعركة كانت تدور في أرض العدو، والتقارير تصل أولاً إلى ميريلاند، حيث يبرق بها إلى ريتشموند، ومن ثم إلى أتلانتا.

وقوي الشك، وزحفت بوادر الرعب بطيئة فوق أنحاء المدينة. لم يكن هناك شيء أسوأ من عدم معرفة ما يدور في الجبهة، وعكفت العائلات التي لها أبناء في الجبهة، تصلّي بحماس، بغية أن لا يكون أبناؤها في بنسلفانيا. ولكن أولئك الذين يعلمون بوجود أقربائهم في فصيلة دارسي ميد ذاتها، صرّوا أسنانهم قائلين إن مما يشرفهم أن يشاركوا في المعركة الكبيرة التي ستدحر الشماليين نهائياً.

وتبادلت النساء الثلاث في بيت العمة بيتي النظرات جزعات، دون أن يستطعن إخفاء الرعب في عيونهن. لقد كان آشلي في فصيلة دارسي ميد.

ووردت في اليوم الخامس أنباء مريعة. لا من الشمال بل من الغرب، لقد سقطت فيكسبورغ، سقطت بعد حصار طويل مرير، الأمر الذي يعني عملياً وقوع نهر الميسيسيبي كلّه، من سانت لويس إلى نيو أورليانز، في أيدي الشماليين. لقد انشطر الحلف شطرين. كان يمكن

لهذه الكارثة أن تنشر الهلع وتعم الأسى في أتلانتا في أي وقت آخر، غير أن الناس اليوم، لم يسعهم الإصغاء إلا بقليل من الاهتمام لفاجعة فيكسبورغ. إنهم يفكرون في لي يقود المعركة في بنسلفانيا، ولذا فإن جائحة فيكسبورغ لن تكون وبالاً إذا ما نجح لي في الجبهة الشرقية، فهناك تقع فيلادلفيا ونيويورك وواشنطن، المدن التي يشل سقوطها الشمال كله، ويعادل أكثر من إلقاء هزيمة الميسيسيبي.

ومضت الساعات تجر أذيال بعضها، والكارثة تمد ظلالها السوداء فوق المدينة، حاجبة قرص الشمس الحارة، حتى تطلَّع الناس مشدوهين نحو القبة الزرقاء كما لو أنهم لم يصدقوا أنها زرقاء صافية، لا مربدة متلبدة بالغيوم المنسابة. وانعقدت حلقات النساء في كل مكان، فاحتشدن في الشرفات الأمامية، وعلى الأرصفة، وحتى في عرض الشوارع، ينبئن بعضهن أنه حين لا ترد أخبار فالأخبار سارة، ويحاولن مواساة أنفسهن، ويحاولن كذلك الظهور بمظهرٍ شجاع. ولكن الأراجيف المهولة والقائلة إن لي قُتل، وإن المعركة خُسرت، وإن قوائم طويلة بأسماء القتلى في طريقها إلى المدينة، كانت تجوب الشوارع الواجمة، كالخفافيش المنطلقة. ومع أن الناس جاهدوا طاقتهم ضد تصديق هذه الشائعات، فإن أحياء بأسرها رنحها الرعب، فاندفعت إلى قلب المدينة، إلى مكاتب الصحف، وإلى القيادة، تلتمس الأخبار، أية أخبار، حتى الأخبار السيئة.

وتألّبت الجماهير في ساحة المحطة، تأمل أخباراً من القطارات القادمة وكذلك من دائرة البرق، وأمام القيادة، وأبواب الصحف الموصدة. جماهير واجمة، خلاف مألوفها، جماهير أخذت كتلها تتضخم من دون لجب، والجميع صامتون. وبين الفينة والأخرى، كان يرتفع صوت عجوز أبح، يلتمس الأخبار، صوت، بدلاً من أن يحرض الجمهور على الهياج والتبرم، كان يزيد في صمتهم وحسب، بينما

كانوا يسمعون العبارة المرددة مراراً: «لا تحمل الأسلاك شيئاً من الشمال، سوى أن القتال دائر».

واطردت أفواج النساء الواقفات والممتطيات عرباتهن، واحتقن الجو بحرارة الأجساد المنقبضة المغلقة، وبالغبار الخانق تثيره الأقدام الحرِكة. ولم تنفرج شفاه النساء عن كلمة، بيد أن وجوههن الصفراء الجامدة كانت تستصرخ ببلاغة خرساء، أشجى من العويل.

لم يكن في المدينة بيت واحد لم يرسل إلى المعركة ابناً أو أخاً، والداً أو عشيقاً، أو زوجاً، فكان الجميع ينتظرون ليتلقوا النبأ بأن ملاك الموت حلَّ في ديارهم. كانوا يتوقعون الموت ولم يتوقعوا الهزيمة، فذلك الخاطر طردوه من أفكارهم ويمكن أن يكون رجالهم يتجرعون كؤوس الموت الآن في هذه الدقيقة، مضرَّجين بدمائهم فوق أعشاب تلال بنسلفانيا، التي لفحتها حرارة الشمس. يمكن أن تكون صفوف جنود الجنوب الآن في هذه الدقيقة، تتداعى متقهقرة كما تتداعى حبات الرمل أمام عاصفة ثلجية. ولكن القضية التي يحاربون من أجلها لا يمكن أن تندحر أبداً. قد يكون الفناء يحصدهم بالألوف، ولكن كحصيلة أسنان التنين[1] سينبثق مكانهم ألوف من المحاربين الجدد، وعلى شفاههم صيحة الثورة، وليس من يعرف من أين ينبع هؤلاء الرجال. كل ما يعرفونه بثقة، كمعرفتهم بوجود إله عادل رحيم في السماء، أن لي قائد عجيب، وأن جيش فرجينيا عتيد لا يُقهَر.

* * *

جلست سكارلت وميلاني والآنسة بيتي بات داخل عربتهن أمام جريدة «ديلي إكزامينر» يتفيأن بمظلاتهن، وقد راحت يدا سكارلت

---

(1) إشارة إلى الأسطورة القائلة إنه كلما تحطمت أسنان التنين نبتت له مكانها أسنان جديدة - (المترجمان).

ترتعشان حتى إن مظلتها كانت تترنح فوق رأسها، بينما استولى الفزع على بيتي، بحيث كان أنفها ينتفض كأنف الأرنب في وجهها المستدير. ولكن ميلاني جلست كأنها قدَّت من حجر، تتسع حدقتا عينيها السوداوين كلما تخرَّم الوقت. ولم تنطق إلا بعبارة واحدة فقط خلال ساعتين، وذلك عندما تناولت قارورة الأملاح المنعشة من حافظتها الصغيرة وقدّمتها لعمتها، وهي المرة الوحيدة التي تكلمها بها، طوال حياتها، بتودد بالغ: «إليك هذه يا عمتي، واستعمليها إذا ما شعرت بالغشيان. وإني أحذرك، إذا ما أُغمي عليك فلا تقاومي، بل دعي العم بيتر يوصلك إلى البيت، لأني لن أبارح هذا المكان حتى أسمع عن - حتى أسمع خبراً. كما أني لن أدع سكارلت تتركني».

لم يكن في نية سكارلت مغادرة المكان، لم يكن في نيتها الذهاب إلى أي مكان لا تستطيع فيه تلقّي نبأ عن آشلي. لا، لا ولو نفقت روح الآنسة بيتي، لن تغادر هذه البقعة، لقد كان آشلي يحارب في مكان ما، وربما كان يلقى حتفه آنذاك، ومكتب الجريدة هو المكان الوحيد الذي تستطيع استقاء الحقيقة منه.

وسرحت طرفها بين الجمهور، تنقب عن الأصدقاء والجيران: ها هي السيدة ميد بقبعتها المائلة، وذراعها تتأبط ذراع ابنها فل، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره. وها هما الآنستان ماكلور، تحاولان إخفاء أسنانهما، الشبيهة بأسنان الظباء، وراء شفاههما العليا المختلجة. وها هي السيدة إلسينغ، منتصبة كأم إسبارطية، تفضح قلقها الداخلي، الخصل الشاردة الشائبة المتفلتة من تسريحة شعرها، وإلى جانبها فاني إلسينغ، شاحبة كالموتى (من المؤكد أن فاني لا يمكن أن تكون جزعة إلى هذا الحد خوفاً على شقيقها هيو، فهل لها عشيق حقيقي في الجبهة، لم يرتَبْ بأمره أحد؟) ثم تلك هي السيدة ميريويذر جالسة في عربتها تربت على يد مايبل التي بدت أعراض الحمل جلية

عليها، بحيث كان من العار ظهورها في المجتمع، حتى رغم تلفّعها بالشال بعناية. ولماذا هي مضطربة كل هذا الاضطراب؟ لم يسمع أحد بوجود فرقة لويزيانا في بنسلفانيا. وقد يكون زوافها الصغير الغزير الشعر، آمناً في ريتشموند، هذه الدقيقة ذاتها.

ودبَّت حركة في طرف الحشد، وأفسح الواقفون طريقاً لريت باتلر وهو يقود حصانه نحو عربة العمة بيتي. وهجست سكارلت: «يا له من شجاع، يأتي إلى هنا في هذا الوقت، حيث لن يتورع الجمهور أبداً عن تمزيقه إرباً إرباً، لتجرده من البزة العسكرية». وعندما اقترب منهن، تخيلت أن من المحتمل أن تكون أول من سيمزقه. كيف يجرؤ على الجلوس هناك، على صهوة ذلك الحصان الجميل، بحذائه اللامع، وبذلته الكتانية البديعة البيضاء، مهندماً على آخر طراز، حسن التغذية كما يدل مظهره، يدخن سيكاراً ثميناً، بينما آشلي وكل الشبان الآخرين يحاربون الشماليين، عراة الأقدام، يلهثون من شدة الغيظ وبطونهم خاوية أتلفها الوباء؟

ورمقته العيون شزراً، وهو يشق طريقه بطيئاً وسط الزحام، ودمدم العجزة في لحاهم، ونهضت السيدة ميريويذر بخفة في عربتها، وقالت بصوت واضح، وهي التي لا تخشى شيئاً: «مضارب». قالتها بلهجة جعلت من الكلمة أخس الصفات وأفعلها حقداً. بيد أنه لم يأبه لأحد، بل رفع قبعته لميلي والعمة بيتي، ثم سار إلى جانب سكارلت، وانحنى هامساً:

- «ألا تعتقدين أن هذا هو الوقت المناسب ليلقي علينا الدكتور ميد خطابه المألوف حول النصر الجاثم كالنسر الهادر فوق راياتنا؟».

فتوترت أعصابها، والتفتت نحوه بسرعة كقطة غضبى، والكلمات الحانقة تكاد تبلغ شفتيها، ولكنه ألجمها بإيماءة منه:

- «جئت أخبركن أيتها السيدات»، قال بصوت مرتفع، «أني كنت في القيادة وقوائم الإصابات الأولى ستصل الآن».

وما إن فاه بهذه الكلمات، حتى علت همهمة بين هؤلاء الواقفين على مقربة تمكنهم من سماعها، وماج الحشد متأهباً لينثني منطلقاً في شارع وايت هول نحو مقر هيئة الأركان.

- «لا تذهبوا» صاح معتدلاً فوق سرجه، رافعاً يده، «لقد أرسلت القوائم إلى كلتا الجريدتين، وهي الآن قيد الطبع، امكثوا حيث أنتم».

- «ها، كابتن باتلر» صاحت ميلي، واستدارات نحوه مخضلة العينين بالدموع: «ما ألطف أن تأتي وتخبرنا! ومتى ستنشر؟».

- «بين لحظة وأخرى يا سيدة. لقد مضى عليها نصف ساعة في مكاتب الصحف، فالضابط المسؤول لا يريد تسرب الأسماء، قبل أن يتم الطبع، خوفاً من أن يحطم الجمهور المكاتب، محاولاً الحصول على الأنباء... ها انظري».

وانفتحت النافذة الجانبية في مكتب الصحيفة، وامتدت يد منها تحمل رزمة من مطبوعات مسودة طويلة ضيقة، ملطخة بحبر لم يجف بعد، مكتظة بالأسماء المتراصة، فتنازعتها أيدي الجماهير، ومزقت رقعها أنصافاً أنصاف، وبينما كان الذين حصلوا على هذه الأنصاف يحاولون التملص خارجاً، كان الفريق الآخر يتدافع إلى الأمام صائحاً: «دعني أمرّ».

- «أمسك الزمام» قال ريت باقتضاب، مطوحاً بجسده من على صهوة جواده ودافعاً اللجام إلى العم بيتر، ثم رأين كتفيه العريضتين يبزان قامات الجمهور، وهو يشق طريقه بعنف، دافعاً شخصه خلالهم، وفي لحظات عاد وفي يده نصف دزينة من الأوراق، دفع بأحدها إلى ميلاني، ووزع البقية على السيدات اللواتي كن في أقرب العربات إليه، الآنستان ماكلور، السيدة ميد، السيدة ميريويذر، والسيدة إلسينغ.

- «أسرعي ميلي» صاحت سكارلت، وقلبها في حلقها، والفورة تجتاحها، وهي ترى يدي ميلي ترتعشان بحيث استحالت القراءة عليها.

- «إليك بها» همست ميلاني، وخطفتها سكارلت منها: «الاسماء التي تبدأ بواو، أين هي؟ هي في الأسفل، كل الأسماء ملطخة - «وايت»»، قرأت وصوتها يختلج، «ولكنز... ون... زبيلون... ها، ميلي! ليس بينهم! ليس بينهم! ها، باللّه عليك، عمتي بيتي! ميلي، التقطي القارورة. ارفعيها يا ميلي».

فأسندت ميلي، وعيناها تطفر بدموع الفرح، رأس بيتي المترنح ورفعت الأملاح تحت أنفها، بينما حضنت سكارلت السيدة المسنة البدينة من الجانب الآخر، وقلبها يهتف طرباً، إن آشلي حي، ولم يصب حتى بجراح، ما أرحمك يا اللّه، لأنك أنقذته، ما...

وأنَّ صوت وانٍ ضعيف، فالتفتت وإذا بها ترى بها فاني إلسينغ قد ألقت برأسها على صدر أمها، وقائمة الإصابات تهبط إلى أرض العربة، وشفتا السيدة إلسينغ الرقيقتان ترتجفان وهي تضم ابنتها بين ذراعيها مخاطبة الحوذي بهدوء: «إلى البيت بسرعة».

ألقت سكارلت نظرة عاجلة على القوائم، فلم تعثر على اسم هيو إلسينغ. لا بد إذن أن يكون لفاني عشيق قضى الآن. وبصمت خاشع، أفسح الجمهور طريقاً لعربة آل إلسينغ، وتبعتها عربة بنات ماكلور الصغيرة المصنوعة من أغصان مجدولة، والتي يجرها حصان صغير البنية. وكانت تقود الأخيرة الآنسة فيث، ووجهها صلد أصم كالصخرة، وشفتاها تخفيان أسنانها تماماً، وإلى جانبها جلست الآنسة هوب، وأمائر الموت تكسو وجهها، جلست منتصبة وهي تقبض بقوة على تنورة شقيقتها. لقد بانت عليهما مظاهر السن المتقدمة، فشقيقهما الفتي دلاس كان عزيزاً عليهما، وهو الرجل الوحيد الذي يمتّ إليهما بصلة القربى، وها هو الآن قد قضى.

- «ميلي! ميلي!» صاحت مايبل بصوتها النشوان، «رينيه حي آمن، وآشلي أيضاً. آه، شكراً للّه» كان الشال قد انزاح عن كتفيها، وبانت حقيقة الحبلى للعيان، ولكن، لا هي، ولا السيدة ميريويذر اكترثت لذلك. . . «ها، يا سيدة ميد، رينيه» وتغير صوتها فجأة، «ميلي! انظري! يا سيدة ميد، أليس دارسي؟».

كانت السيدة ميد مطأطئة الرأس، تنظر في حجرها، ولم ترفع رأسها عندما نودي باسمها، ولكن وجه فل الصغير، كان صفحة جلية، يمكن للجميع قراءتها.

- «هوّني عليك يا أماه!» قال مرتبكاً، ورفعت السيدة ميد رأسها، فالتقت عيناها بعيني السيدة ميريويذر:

- «لن يحتاج إلى ذلك الحذاء الآن» قالت.

- «آه يا عزيزتي» صاحت ميلي، وطفقت تنتحب، وهي تسند العمة بيتي إلى كتف سكارلت وتتحامل للنزول من العربة، ثم تتجه نحو عربة زوجة الطبيب.

- «أمي، أنا ما زلت في حوزتك» قال فل، باذلاً جهداً يائساً لمواساة المرأة ذات الوجه الشاحب التي في جانبه، «وإذا ما تركتني وشأني فقط، فسأذهب وأقتل جميع الشماليين».

فقبضت السيدة ميد على ذراعه، كأنها لن تتخلى عنه أبداً، وقال: «لا» في صوت مفجوع يكاد يغص.

- «فل ميد، الزم الصمت» قالت ميلاني بصوت مهموس، متسلقة إلى جانب السيدة ميد، ضامة إياها بين ذراعيها. . . «هل تعتقد أن مما يخفف عن أمك أن تدعك تمضي لتلقى حتفك أيضاً؟ لم أسمع في حياتي كلاماً أحمق كهذا. سر بنا إلى البيت، أسرع!».

والتفتت إلى سكارلت وهو يرفع العنان، ثم قالت: «تعالي رأساً

إلى منزل الدكتور ميد. كابتن باتلر، هل في وسعك إبلاغ النبأ للدكتور، إنه في المستشفى».

وانطلقت العربة وسط الجمهور المنصرف. كانت بعض السيدات يبكين فرحاً، ولكن معظمهن أفقدتهن النازلة صوابهن، فلم يدركن بعدُ فداحة الجائحة. وأكبت سكارلت برأسها فوق القوائم الملوثة بالحبر، تلتهم الأسماء بناظريها لتنقب عن أصدقائها، فالآن وقد اطمأنت لسلامة آشلي، في وسعها التفكير في الآخرين. ها، ما أطول القائمة! ما أفدح الضريبة من أتلانتا! من كل جورجيا!

يا للّه! «كالفرت - ريفورد، ملازم». ريفورد! وفجأة تذكرت ذلك اليوم، البعيد البعيد، عندما هربا معاً، ثم أزمعا العودة إلى البيت، والليل يرخي سدوله، إذ كانا جائعين وفي خشية من الظلام.

«فونتين - جوزيف. ك.، نفر». جو الصغير الحاد الطباع! ولم يمضِ على ولادة سالي إلا زمن يسير!.

«مونرو - لافاييت، كابتن». وكان لاف قد خطب كاثلين كالفرت. يا لكاثلين التعسة! إن خسارتها مزدوجة: أخ وحبيب، ولكن خسارة سالي أعظم: أخ وزوج.

آه، كان هذا مروِّعاً حقاً! وانهلع قلبها فرقاً، وكادت تعجز عن الاسترسال في القراءة. وكانت العمة بيتي تشهق وتتنهد على كتفها، فأزاحتها سكارلت نحو إحدى زاويتي العربة باحتفال بسيط وتابعت القراءة:

حتماً، حتماً - لا يمكن أن يكون ثلاثة أسماء «تارلتون» في تلك القائمة، فربما، ربما كرر عامل المطبعة المتسرع، الاسم خطأ. ولكن لا، ها هم ثلاثتهم: «تارلتون - برنت، ملازم»، «تارلتون - ستيوارت، عريف»، «تارلتون - توماس، نفر». وبويد، تخطَّفه الردى في السنة الأولى من الحرب، ولا يعرف إلا اللّه في أي مكان دُفن في فرجينيا.

لقد قضى جميع شباب تارلتون. توم والتوأمان الخاملان، الطويلا السيقان والمولعين بالثرثرة، والدعابات العملية الخبيثة، وبويد الذي ينعم برشاقة راقص ماهر، وبلسان زنبور لاسع.

ولم يسعها الاستمرار في القراءة أكثر، ولم تستطع أن تعرف إذا كان آخرون من أولئك الشبان الذين ترعرعت معهم، وراقصتهم، وغازلتهم، وقبلتهم في القائمة أيضاً. وتمنت لو تقدر على البكاء، لو تستطيع إتيان عمل يخفف من قبضة الأصابع الحديدية التي كانت تمزق حلقها.

- «إني آسف يا سكارلت» قال ريت، فتطلعت في وجهه، وقد سهت أنه ما زال إزاءها، «كثير من أصدقائك؟» فأطرقت رأسها وجاهدت لتتكلم: «كل عائلات المقاطعة تقريباً - وجميع - جميع أبناء تارلتون الثلاثة».

كان وجهه هادئاً، رزيناً تقريباً، وخلت عيناه من السخرية: «ولم تأتِ النهاية بعد» قال، «فهذه هي اللوائح الأولى فقط، وليست تامة. ستنشر لائحة أطول غداً» وخفض صوته لئلا يسمع أولئك الذين في العربات القريبة. «سكارلت، لا بد أن يكون الجنرال قد خسر المعركة. سمعت في القيادة أنه رجع القهقرى إلى ميريلاند».

فرفعت إليه عينين مذعورتين، ولكن ذعرها لم ينجم عن هزيمة لي. قوائم إصابات أطول غداً! غداً! لم تكن فكرت في الغد. فقد كانت سعيدة جداً أول الأمر، لأن اسم آشلي انتفى من القائمة. غداً، وكيف لا، وفي هذه الدقيقة بالذات، يمكن أن يكون ميتاً، ولن تدري بذلك، إلا غداً، أو ربما بعد غد بأسبوع.

- «آه يا ريت، لماذا لا مناص من وقوع الحروب؟ كان من الأفضل كثيراً لأهل الشمال أن يدفعوا ثمن العبيد - أو حتى يدفعوا لنا البدل، لنقدم لهم العبيد أحراراً، من أن يقع هذا...».

- «ليست القضية قضية العبيد يا سكارلت، وإنما هم الذريعة فقط. سوف تقع الحروب دائماً، لأن الرجال يحبون الحروب. النساء لا يحببنها، ولكن الرجال يحبونها - نعم، يحبونها حباً يتجاوز حب النساء عنفاً».

وزم شفتيه في بسمته المعهودة، وغاض الوقار من وجهه، ورفع قبعته الواسعة المصنوعة من قش باناما:

- «وداعاً، إني ذاهب لأبحث عن الطبيب ميد. أظن أن العبرة الساخرة في كوني أنا الذي سأخبره بوفاة ابنه، ستفوته الآن، ولكن فيما بعد، من المحتمل أن يمقت مجرد التفكير في أن مضارباً أتاه بنبأ وفاة بطل».

* * *

وسَّدت سكارلت للآنسة بيتي فراشها، ثم جرعتها كأساً من الشراب المنعش، وتركت برسي وكوكي تحت تصرفها وانطلقت في الشارع إلى بيت الطبيب ميد.

كانت السيدة ميد في الطابق العلوي مع فل، تنتظر عودة زوجها، بينما جلست ميلاني في ردهة الاستقبال، تتحدث بصوت خفيض إلى جماعة من الجارات الحزينات، وتعكف في الوقت ذاته، بإبرة ومقص، على تعديل خياطة ثوب حِداد، أعارته السيدة إلسينغ للسيدة ميد. وقد عبق البيت بالرائحة الحادة، المنبعثة من الثياب المغلية في صباغ أسود من صنع محلي، ذلك لأن الطاهية المنتحبة كانت تحرك جميع ثياب السيدة ميد، في قِدر الغسيل الضخمة، في المطبخ.

- «كيف حالها؟» استفسرت سكارلت بلهجة رقيقة.

- «لم تذرف دمعة» أجابت ميلاني، «إنه لأمر مؤلم عندما لا تستطيع النسوة البكاء. أنا لا أعرف كيف يجابه الرجال النوائب دون ذرف الدموع، أظن أن ذلك يعود إلى كونهم أقوى وأشجع من النساء.

تقول إنها ستذهب بنفسها إلى بنسلفانيا، لتحمله إلى البيت، فالطبيب لا يستطيع مبارحة المستشفى».

- «سيكون ذلك عملاً مريعاً بالنسبة إليها، لماذا لا يستطيع فل الذهاب؟».

- «تخاف أن يلتحق بالجيش، إذا ما فلت من تحت ناظريها، تعرفين أنه ضخم القامة كثيراً بالنسبة إلى سنه، وهم الآن يجندونهم وهم في السادسة عشرة».

وتسللت الجارات إلى بيوتهن، واحدة إثر الأخرى، محجمات عن البقاء أثناء حضور الطبيب، مخلفات سكارلت وميلاني وحدهما، تخيطان في الردهة. كانت ميلاني تبدو حزينة، ولكن رابطة الجأش، مع أن الدموع تساقطت على القماش الذي بين يديها. ومن الواضح أنها لم تفكر في احتمال استمرار المعركة إلى الآن، وفي أن آشلي قد يكون صريعاً في هذه اللحظة بالذات. واحتارت سكارلت، والرعب يقبض قلبها، أتكاشف ميلاني بما قال ريت، فتواسي بلواءها بالعزاء المستراب به، أم تحتفظ بالسر. وأخيراً قررت أن تلوذ بالصمت، لئلا يطرأ ببال ميلاني أنها قلقة جداً بشأن آشلي. وحمدت اللّه لأن الجميع، بمن فيهم ميلي وبيتي، قد استغرقوا في أحزِانهم، ذلك الصباح، بحيث لم يلحظوا سلوكها.

وانقضت فترة من الخياطة الصامتة، سمعتا على أثرها أصواتاً في الخارج. ومن خلال الستائر، لاح لهما شخص الدكتور ميد، يترجل عن حصانه، كتفاه متقوستان، ورأسه منحن إلى أسفل، بحيث انتشرت لحيته كالمروحة فوق صدره. ودخل البيت على مهل، ثم وضع قبعته ومحفظته، وقبَّل كلتا الفتاتين، دون أن ينبس بنت شفة، ثم صعد السلّم متعباً. وبعد لحظات، نزل فل بساقيه الطويلتين، وذراعيه المديدتين وطياشته المعهودة، ورنت إليه الفتاتان تدعوانه إلى الجلوس معهما،

ولكنه خرج إلى الشرفة الأمامية، وجلس على أعلى درجة، ورأسه فوق راحة يده المتكورة.

وتنهدت ميلي:

- «إنه حانق لأنهم لن يدعوه يذهب لقتال الشماليين. إنه في الخامسة عشرة من عمره! آه سكارلت، سيكون من رضى اللّه وفضله أن أرزق صبياً مثله!».

- «ثم تدعينه يُقتل؟!» قالت سكارلت بإيجاز، متأملة مصير دارسي.

- «لأن أرزق صبياً، حتى لو قُتل، خير من أن لا أرزق أبداً» قالت ميلي وبلعت ريقها... «ليس في وسعك إدراك هذه الحقيقة يا سكارلت، لأنك نعمت بويد الصغير، ولكن أنا - آه، سكارلت، إني أحن إلى طفل بولع جنوني. أعلم أنك تفكرين في أني فظة حين أصرح بهذا علانية، بيد أنها الحقيقة، والشيء الوحيد الذي ترجوه كل امرأة، وأنتِ تعرفين ذلك».

وما إن نطقت بهذا حتى حبست سكارلت أنفاسها.

- «إذا ما قضت مشيئة اللّه - باصطفاء آشلي إلى جواره، أظن أن في وسعي احتمال الفاجعة، مع أني أفضل الموت في تلك الحالة. ولكن اللّه سيمنحني القوة لاحتمال المصيبة. بيد أنه ليس في وسعي احتمال كونه ميتاً، دون أن - دون أن يكون لي طفل منه، عزاء لقلبي. آه، سكارلت، ما أسعد حظك! فمع أنك فقدت تشارلز، إلا أنك تهنئين بابنه، وإذا ما قضى آشلي، فليس لي منه أحد. سكارلت، سامحيني، لأني أحياناً أحسدك كثيراً -».

- «تحسدينني - أنا؟» صاحت سكارلت وقد انتابها الشعور بالإثم.

- «نعم لأن لك ابناً، وليس لي ولد، حتى إني تظاهرت أحياناً أن ويد لي، فمن المؤلم جداً أن لا تقر عين الأم بطفل لها».

- «هذا هراء» قالت سكارلت وهي تتنفس الصعداء، ثم رمت المخلوقة النحيلة ذات الوجه المورد، المكبة على الخياطة، بنظرة سريعة. قد ترغب ميلاني في إنجاب الأطفال، ولكنها من المؤكد لا تملك الكيان لتحمل به. فقامتها تكاد لا تتجاوز قامة طفلة في الثانية عشرة، وشفتاها رقيقتان كشفتي طفلة، وثدياها ضامران كثيراً. إن مجرد فكرة إنجاب ميلاني طفلاً تقزز سكارلت، إنها تثير العديد من الخواطر التي لا يسعها التفكير فيها. إذا ما حملت ميلاني طفلاً من آشلي، فسيكون الأمر كما لو أن شيئاً انتزع من سكارلت، شيئاً من أملاكها الخاصة.

- «أرجوك سامحيني لما قلته عن ويد. تعلمين أني أحبه كثيراً. إنك لن تحنقي عليَّ، أليس كذلك؟».

- «لا تكوني حمقاء» قالت سكارلت باقتضاب، «واخرجي إلى الشرفة وافعلي شيئاً من أجل فل، فهو يبكي».

15

عاد الجيش، وقد دُحر إلى فرجينيا، إلى ثكناته الشتوية على نهر رابيدان[1] - جيش منهوك منزوف القوى، منذ هزيمته في غتيسبورغ - وعندما اقترب موسم عيد الميلاد، رجع آشلي إلى أهله في إجازة، وارتعدت سكارلت، وهي التي تراه لأول مرة منذ سنتين، من جرّاء عنف أحاسيسها. ويوم وقفت في ردهة الاستقبال في تولف أوكس، ورأته يتم مراسم الزواج على ميلاني، اعتقدت أنها لن تستطيع حبه بطاقة تقضّ القلب، أكثر من حبها له في تلك اللحظة. ولكنها أدركت الآن أن أحاسيسها في تلك الليلة المنصرمة قديماً، كانت أحاسيس طفلة زائغة، استفزت ثائرتها دمية، بينما عواطفها الآن قد شحذتها أحلامها الطويلة به، وأجّجها الكبت الذي أرغمت لسانها عليه.

كان آشلي ويلكس هذا، وهو في بزته الباهتة المرقعة، وشعره الأشقر قد انقصر لونه فغدا كنسالة الكتان من جرّاء شمس الصيف، رجلاً يختلف عن ذلك الشاب، السهل القياد، النعس العينين، الذي أحبته لدرجة العبادة، قبل الحرب. لقد كان أروع منه اليوم بألف مرة. إنه الآن برونزي اللون هزيل أعجف، بينما كان في الماضي أشقر أهيف، وها هو شاربه الطويل الذهبي، المرتسم حول فمه على نسق

---

(1) نهر صغير في فرجينيا - (المترجمان).

فروسي، بمثابة آخر ضربة ريشة ضرورية، لتخلق منه صورة حقيقية للجندي.

وقف وقفة عسكرية، منتصب القامة، في حلته العتيقة، مسدسه في قرابه المهترئ، وغمده البالي يمس جزمته مساً خفيفاً، ومهمازاه يشعان شعاً كليلاً - «الرائد آشلي ويلكس، سي. إس. إي[1]». وقد علقت به الآن عادة إصدار الأوامر، وزانه مظهر رزين من الاعتماد على النفس، والشخصية المتسلطة، وطفقت خطوط عابسة تظهر حول فمه. وكان مقطع كتفيه المربع، وبريق عينيه البهي الهادئ يوحيان بشيء جديد غريب. فبينما كان ذات يوم ميالاً إلى الراحة والدعة، إذا به الآن نشيط خفيف الحركة كقطة جواسة، يتسم باليقظة الواعية لرجل ذي أعصاب دائمة التوتر كأوتار الكمان. وكانت عيناه ترنوان بنظرة منهوكة مكدودة، وبشرته التي لوَّحتها الشمس مشدودة على عظام وجهه المتناسقة البديعة. . . إنه آشليها البهي الطلعة ذاته، مع أنه متغير إلى أقصى حدود التغير.

كانت سكارلت قد اعتمدت قضاء عيد الميلاد في تارا، ولكن بعد ورود برقية آشلي، لن تستطيع قوة في الأرض، حتى ولا أمر مباشر من إيلين الخائبة، جرّها من أتلانتا. لو أن آشلي اعتزم الذهاب إلى تولف أوكس، لأسرعت إلى تارا لتكون على مقربة منه، غير أنه كتب إلى عائلته لتلاقيه في أتلانتا، وفعلاً وصل السيد ويلكس وإنديا إلى المدينة. أتذهب إلى تارا وتخسر رؤيته بعد غياب سنتين طويلتين؟! أتخسر سماع نبرة صوته التي تزيد قلبها وجيباً؟ أتخسر قراءة أنه لم ينسها في عينيه؟ أبداً ولا من أجل جميع الأمهات في العالم.

---

(1) تشير الحروف إلى أنه تابع إلى ولايات الحلف الأميركية؛ C.S.A: Confederate States of America - (المترجمان).

جاء آشلي إلى البيت، قبل عيد الميلاد بأربعة أيام، في رفقة جماعة من شبان المقاطعة كانوا في إجازات لهم كذلك. جماعة تضاءل عددها بصورة محزنة منذ غتيسبورغ. كان بينهم كيد كالفرت، كيد الحزين الشاحب اللون، الدائم السعال، واثنان من شبان آل مونرو، طروبان بفرحة إجازتهما الأولى منذ عام 1861، وألِكس وطوني فونتين وهما ثملان بصورة باهرة، صاخبان، نزّاعان إلى الشر. وكان لدى الرفقة ساعتان من الزمن وهي المدة الفاصلة بين قطارين. ولما كان من خطة أعضاء العصبة المتزنين منع الأخوين فونتين من المشاجرة معاً، أو معاركة الغرباء في المحطة، فقد اصطحبهم آشلي جميعاً إلى منزل العمة بيتي بات.

- «ربما تظنين أنهما خاضا غمار القتال في فرجينيا» قال كيد بلهجة لاذعة وهو يراقب الشقيقين ينتفضان كديكين شرسين وهما يتنافسان في أي منهما سيكون الأول في تقبيل العمة بيتي المضطربة المتملقة. . . «ولكن لا، فقد كانا عاكفين على الشراب، يتصيدان الشر منذ وصلنا ريتشموند. وقد ألقى رئيس الحرس القبض عليهما، ولولا لسان آشلي السليط، لقضيا عيد الميلاد في السجن».

على أن سكارلت لم تسمع كلمة مما قاله تقريباً، إذ كانت مشدوهة بفرط السرور لأنها وجدت مرة ثانية في الغرفة نفسها مع آشلي. كيف وسعها التفكير خلال هاتين السنتين أن سواه من الرجال الآخرين رائعون، وسيمون مثيرون؟ كيف أمكنها حتى مجرد احتمال سماعهم يغازلونها في الوقت الذي ما زال فيه آشلي على قيد الحياة؟ إنه في البيت ثانية، لا يفصلها عنه إلا عرض سجادة الصالة، وقد استنفدت كل قواها كي لا تذوب في دموع الفرح، كل مرة كانت تنظر فيها إليه، وهو يجلس هناك على الكنبة، وميلي إزاءه، وإنديا على الجانب الآخر، وهوني مرابطة خلفه. آه لو أن لها الحق فقط في أن

تجلس هناك بجانبه، ذراعها تتأبط ذراعه! أو أنها تمسك بيده وتمسح بمنديله دموع الفرح التي تترقرق في عينيه، فميلاني كانت تقوم بكل هذه الأعمال من دون حياء، تقيها سعادتها الغامرة من الخجل والتحفظ، لقد تعلقت بذراع زوجها وراحت تتعبده بعينيها، بابتساماتها وبدموعها. وأذهلت السعادة الطاغية سكارلت، فعطلت فيها شعور الامتعاض من ميلاني. لقد كانت في غاية الهناء، بحيث انكمشت روح الحسد فيها. . . لقد عاد آشلي إلى البيت أخيراً.

ومن حين إلى آخر، كانت تضع يدها على وجنتيها، حيث كان قد قبَّلها، فتستشعر همسة شفتيه ثانية، وتبتسم في وجهه. وهو لم يقبِّلها أول الجميع طبعاً، إذ كانت ميلي قد ألقت نفسها بين ذراعيه في بكاء متقطع متعلقة به، كأنها لن تدعه يذهب أبداً، ثم ضمّته إنديا وهوني إلى صدريهما، بعد أن انتزعتاه بحنق من ذراعي ميلي، ثم قبَّل هو والده، بضمّة وقورة مؤثرة، كشفت عن العاطفة القوية الرصينة، التي تشج بينهما. ثم جاء دور العمة بيتي، التي كانت تثب حوله صعوداً وهبوطاً منتشية، على قدميها المفرطتين في الصغر. وأخيراً التفت نحو سكارلت قائلاً، وقد أحاط به كل الشبان الذين أصروا على حقهم في القبل: «ها، سكارلت! أيتها الجميلة، الجملية» وطبع قبلته على وجنتيها.

ومع تلك القبلة، طارت جميع العبارات التي اعتمدت قولها ترحيباً به، ولم تفطن إلى أنه لم يقبِّلها من شفتيها، إلا بعد مضي ساعات، عندئذ وقعت فريسة حيرة ممضّة، إذ أخذت تتساءل: أكان يفعل ذلك لو أنها قابلته على انفراد، أكان ينحني بجسده الطويل فوق جسدها، ويرفعها نحوه، حتى تقف على رؤوس أصابعها، ويضمّها لفترة طويلة طويلة؟ وغمرتها الفرحة وهي تسرح مع هذه الخطرات، ولذلك اعتقدت أنه كان يقدم على هذا العمل، ولكن سيسنح الوقت لكل شيء. . . أسبوع كامل! في وسعها حتماً المناورة لتنفرد به وتقول

له: «أتذكر نزهات الركوب التي اعتدنا ممارستها في ممرات الخيل السرية؟ أتذكر كيف بدا القمر تلك الأمسية، عندما جلسنا على الدرجات في تارا، واستشهدت بتلك القصيدة؟ (يا اللّه، ماذا كان اسم تلك القصيدة على أي حال) أتذكر ذلك المساء عندما أُصيب كاحلي، وحملتني أنت على ذراعيك إلى البيت، في ضوء القمر؟».

ها، هناك أشياء كثيرة جداً يمكن أن تسبقها بـ«أتذكر»، ذكريات عزيزة عديدة، وستعيد إليه تلك الأيام الجميلة، عندما كانا يجوبان المقاطعة كطفلين خاليين من المسؤولية. أمور كثيرة جداً ستعود بالذاكرة القهقرى إلى تلك الأيام، قبل أن تدخل ميلاني هاملتون إلى المسرح. وبينما يكونان في الحديث، قد يكون في وسعها قراءة بعض ما في عينيه من اختلاج العاطفة نحوها، بعض ما يومئ إلى أن وراء حجاب حبه الزوجي لميلاني تكمن حقيقة أنه ما زال يحفل بها هي، يحفل بها بالقدر ذاته من العاطفة التي تجلت فيه يوم الباربكيو ذاك، عندما انفجر معلناً الحقيقة. ولم يدر في خلدها التفكير في ماذا سيعملان، إذا ما أعلن آشلي حبه لها في كلمات جلية واضحة. ستكتفي بمعرفة أن يحفل بها...

أجل! في وسعها أن تتريث، في وسعها أن تدع ميلاني تنعم بالساعة الهنيئة، ساعة ضغطِها ذراعه وذرفِها دموع الفرح، ففرحتها هي آتية. وفوق ذلك، ماذا تعرف عن الحب فتاة كميلاني؟

- «حبيبي، إنك تبدو كصعلوك!» قالت ميلاني بعد زوال سكرة اللقاء، «من رقع بزتك؟ ولماذا استعملوا خرقاً زرقاء؟».

- «ظننت أني أبدو بهيّ الطلعة» قال آشلي متأملاً مظهره، «قارنيني فقط بأولئك الزملاء الممزقي الثياب، وعندها تقدرينني أكثر. موسى رقع بذلتي، واعتقدت أنه أتقن صنيعه، آخذاً بعين الاعتبار أنه لم يمسك إبرة بيده قبل الحرب، أما في صدد الخرق الزرقاء، فعندما يصل

الأمر إلى الاختيار بين بقاء سروالك ممزقاً أو ترقيعه بخرقة زرقاء مقطوعة من بزة شمالي أسير. . . لن يكون هناك مجال للاختيار. وأما في صدد كوني أشبه صعلوكاً، فعليك أن تحمدي حسن طالعك لأن زوجك لم يعد إلى البيت عاري القدمين. لقد بلي حذائي تماماً في الأسبوع الماضي، وكنت سآتيكم بجوارب معقودة على قدمي، لو لم يسعدنا الحظ بإصابة كشافين شماليين. وافقت جزمة أحدهما قدمي كل الموافقة». ومد ساقيه الطويلتين بجزمتيهما المرتفعتين المخدشتين ليروهما، ويعجبوا بهما.

- «وأما جزمتا الكشاف الآخر، فلم يوافقا قدمي» قال كيد، «إنهما متفاوتتا القياس وصغيرتان جداً، تكادان تميتانني الآن. ولكن على كل حال سأذهب إلى البيت في زي واحد متناسق».

- «ولم يشأ الحنزير الأناني التنازل عنهما لأي منا»، قال طوني، «وهما توافقان تماماً أقدامنا الفونتينية الأرستقراطية الصغيرة. يا للجحيم المستعر! إني أخجل أن أقابل أمي بهذا المداس، الذي لم تكن تسمح لأحد من زنوجنا بلبسه قل الحرب».

- «هوِّن عليك» قال ألِكس، رامقاً جزمتي كيد، «سننزعهما من قدميه ونحن ذاهبان إلى البيت في القطار. أنا لا تقلقني مواجهة أمي، ولكني - أعني لا أريد أن ترى دمتي مونرو أصابع قدمي تبرز خارجاً».

- «كيف، إنهما جزمتاي. أنا طلبتهما أولاً» قال طوني ووجهه آخذ في التجهم على أخيه، الأمر الذي دفع ميلاني إلى التدخل وعقد السلم خشية نشوب أحد النزاعات الفونتينية الشهيرة.

- «كنت قد احتفظت بلحية طويلة لأريكن إياها» قال آشلي، دالكاً وجهه بأسف، حيث ما زالت تظهر آثار لجروح موسى، نصف مندملة. «كانت لحية ظريفة، رغم أني أنا الذي أقول ذلك، لا يملك جب

ستيوارت ولا ناتان بدفورد فورست أظرف منها. ولكن، عندما بلغنا ريتشموند، قرر هذان الوغدان»، وأشار إلى ابني فونتين، «أنه لما كانا حليقين، ينبغي أن تطير لحيتي أيضاً. وهكذا أجلساني وحلقاها، ومن العجيب أن رأسي لم يجز من اللحية، ولولا توسط إيفان وكيد، لما سلم شاربي».

- «ثعابين! يا سيدة ويلكس، ينبغي أن تشكريني، ما كنتِ لتميزي شخصه وتدعيه يدخل البيت» قال ألِكس، «فعلنا ذلك لنثبت له امتناننا له وتقديرنا لحديثه مع رئيس الحرس كي لا يزجنا في السجن. إذا تفوهت بكلمة، فسنجز شاربه لك فوراً».

- «ها، لا وأشكرك» قالت على الفور، قابضة على آشلي بارتياع، إذ كان في مقدور الرجلين الأسمرين الخشنين اقتراف أي خشونة رعناء، «أعتقد أنه بديع للغاية».

- «ذلك هو الحب» قال الأخوان فونتين، متبادلين النظر باتزان.

وعندما خرج آشلي إلى الباب في البرد القارص لتشييع الشبان الذاهبين إلى المحطة في عربة العمة بيتي، أمسكت ميلاني بذراع سكارلت:

- «أليست بزته فظيعة؟ ألا يكون تقديم معطفي له مفاجأة مدهشة؟ آه لو أني فقط أملك قماشاً يكفي لسروال أيضاً!».

إن تقديم ذلك المعطف لآشلي كان موضوعاً مراً لسكارلت، إذ كانت ترغب رغبة جامحة في أن تقدم هي، لا ميلاني، معطفاً له كهدية عيد الميلاد. كان الصوف الرمادي لصنع البذلات العسكرية قد أضحى الآن أغلى من الياقوت تقريباً، وكان آشلي يرتدي النسيج المحلي المألوف. وحتى هذا النسيج لم يعد وفيراً، واستعاض كثير من الجنود بحلل أسرى الشماليين التي حُوِّلت إلى اللون البني القاتم، بفعل صباغ

قشور الجوز، ولكن كيلاني، وقد حالفها حظ نادر، توصلت إلى امتلاك قطعة جوخ بنية، تكفي لصنع معطف - معطف قصير نوعاً ما، إلا أنه معطف على كل حال.

كانت قد مرضت جندياً شارلستونياً في المستشفى، وقبل أن توفّي جزَّ خصلة من شعره، وأرسلها إلى أمه، مع محتويات جيوبه الزهيدة القيمة ووصف مؤاسٍ لساعاته الأخيرة، لا يتضمن ذكراً للعذاب الذي قضى بتباريحه. وحدث أن قامت مراسلة بين ميلاني والأم، التي عندما علمت أن زوج ميلاني في الجبهة، أرسلت لها قطعة من القماش الرمادي، وأزراراً نحاسية، كانت قد ابتاعتها لابنها.

كانت قطعة من نسيج بديع، سميك يبعث الدفء، ذي لمعة باهتة، لا شك أنها من المواد المهربة، الثمينة ولا ريب. وهي الآن عند الخياط، الذي راحت ميلاني تستحثه لينجز صنعها ليلة عيد الميلاد وكان بودّ سكارلت أن تبذل كل غال ورخيص كي تتمكن من تأمين بقية البزة، ولكن المواد الضرورية لم تكن بصراحة متيسرة في أتلانتا.

وكانت سكارلت تحتفظ بهدية عيد الميلاد لآشلي، غير أن هديتها لم تكن ذات قيمة بالنسبة إلى معطف ميلاني الرمادي الفاخر. كانت عبارة عن دمية مجوفة من الفانيلا، تحتوي جميع الإبر الثمينة التي جلبها لها ريت من ناسو، بالإضافة إلى ثلاثة من مناديلها الكتانية، من المصدر ذاته، ولفافتي خيطان ومقص صغير. غير أنها كانت تودّ تقديم هدية ذات طابع شخصي أعمق، هدية يمكن أن تقدمها زوجة لبعلها: قميص، قفازان حربيان، أو قبعة. نعم قبعة بكل تأكيد، فتلك القلنسوة المغتصبة، المسطحة القمة، التي يضعها آشلي على رأسه، تدعو إلى السخرية. إنها تكره هذا النوع من القلانس أبداً، وإن ارتداء ستونوول جاكسون أحدها كبديل مفضل عن اللباداة المتهدلة لن يرفع من شأنها أدنى قيمة. ولكن النوع الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في أتلانتا

كان مصنوعاً من الصوف بطريقة بدائية، أقل أناقة من القلانس المقتضبة الصنع، الشبيهة بقلانس السعادين.

وعندما فكرت في القبعات، فكرت في ريت باتلر. إن في حوزته العديد منها: نوع الباناما الواسع للصيف، وتلك المصنوعة من جلد القندس[1] للمناسبات الرسمية، ثم قبعات الصيد، والقبعات الناعمة، العريضة واللينة الأطر، الحمراء القاتمة منها، والسوداء والزرقاء. أي حاجة به إلى هذا العدد الضخم، في الوقت الذي يسير فيه حبيبها آشلي تحت المطر الذي يسح من تحت ياقة قميصه، متسرباً من ظهر قبعته؟

«سأدع ريت يعطيني لبادته السوداء الجديدة» قررت في نفسها، «وسأضع حول حافتها شريطاً رمادياً وأخيط كثنة[2] آشلي عليه وستبدو رائعة».

وأطرقت هنيهة، وتراءى لها أن من العسير الحصول على القبعة، من دون سبب جلي، فهي لن يسعها إخبار ريت بصراحة أنها تريد القبعة لآشلي إذ سيرفع حاجبيه حينذاك بتلك الطريقة الخبيثة التي يتبعها دائماً، عندما تذكر حتى مجرد اسم آشلي، سواء أعجب بالفكرة أو استنكرها، فسوف يرفض منحها القبعة على كل حال. عليها إذن أن تلفِّق قصة تستدرّ الشفقة من جندي في المستشفى في حاجة إليها، ولن يكون من الضروري أن يعلم ريت الحقيقة أبداً.

وقضت ذلك المساء بطوله تناور لتنفرد بآشلي، ولو دقائق معدودات، ولكن ميلاني علقت إلى جانبه أبداً، بينما لاحقته إنديا وهوني، إينما ذهب في البيت، وعيونهما الشاحبة العديمة الأهداب تفيض بريقاً. حتى جون ويلكس، الذي بدا عليه الفخر بابنه، لم ينعم بجلسة هادئة هانئة يتحدث فيها إليه.

---

(1) كلب الماء - (المترجمان).

(2) شارة عسكرية تثبت على شريط القبعات - (المترجمان).

ولم يتغير الوضع عند العشاء حيث راح الجميع يمطرونه بالأسئلة عن الحرب. الحرب!! ومن يحفل بأمر الحرب؟ إن سكارلت لا تعتقد أن آشلي ذاته يأبه كثيراً لهذا الموضوع. وتحدّث طويلاً، وضحك مراراً، وسيطر على النقاش بصورة أتم مما عهدت به قبل، ولكن ظهر كأنه يرغب في الإقلال من كلامه. تلا على مسامعهم فكاهات وقصصاً مضحكة عن الأصدقاء، وقص عليهم مسروراً أساليب الحِيَل والأعذار، مستخفاً بما قاسوه من جوع، وما تجشموه من مسيرات طوال تحت الأمطار، وأسهب في وصف مظهر الجنرال لي وهو يركب بمحاذاتهم أثناء تقهقرهم من غتيسبورغ، ويقول لهم:

«أيها السادة، هل أنتم جنود جورجيا؟ حسناً، لن نستطيع الخلاص من دونكم يا أبناء جورجيا!».

وتراءى لسكارلت أنه كان يتكلم باندفاع، ليمنعهم من توجيه أسئلة لا يرغب في الإجابة عنها؟ وعندما رأت عينيه تختلجان ثم تطرفان، أمام نظرة والده الطويلة المتعبة، انتابها بعض القلق والحيرة حول ما يكمن في قلب آشلي، ولكن سرعان ما زاولها ذلك، إذ لم يكن في تفكيرها متسع لأي خاطر، عدا السعادة المشرقة، والرغبة الجامحة في الانفراد به.

واستمر ذلك الإشراق إلى أن طفق كل من المتحلقين حول الموقد يفغر فمه متثائباً، وانصرف السيد ويلكس وابنتاه إلى الفندق. وعندئذ، وبينما هي وآشلي وميلاني وبيتي بات يصعدون السلّم، الذي أضاءه العم بيتر، ألمّت بروحها قشعريرة باردة، فحتى تلك اللحظة وهم واقفون في القاعة العليا، كان آشلي لها، لها وحدها، حتى لو لم تكن قد انفردت به بكلمة واحدة طوال تلك الأمسية، بيد أنها الآن، وهي تودّعه، رأت أن وجنتي ميلاني قد تخضبتا فجأة، وأخذ جسدها يرتعش، وأغضت بطرفها نحو السجادة. ومع أنها بدت منذهلة

بإحساس مُقبِض، إلا أنها ظهرت سعيدة حيية، حتى إنها لم ترفع رأسها عندما فتح آشلي باب غرفة النوم، وإنما دلفت على عجل. وودّعها آشلي بإيجاز حتى دون أن تلتقي عيناه بعيني سكارلت.

وأغلقا الباب خلفهما، تاركين سكارلت فاغرة الفم مهجورة على حين غرة. وهكذا لم يبقَ آشلي لها بعد! إنه لميلاني، وما دامت ميلاني حية، فسيكون في وسعها ولوج الغرف مع آشلي، وإغلاق الباب - وإغلاق الباب دون بقية العالم.

* * *

والآن ها هو آشلي عائد إلى الجبهة، إلى فرجينيا، إلى المسيرات الطويلة تحت المطر الذي يصحبه البرد أحياناً، إلى الاستراحة في العراء فوق الثلج، إلى الجوع والألم والهول، وإلى المجازفة بكل ذلك الجمال الوضاء الذي يتألق به رأسه الذهبي الشعر، وجسده النحيل، ليشوَّه في لحظة عابرة كما تشوَّه نملة تحت أقدام إنسان عابث.

لقد انقضى ذلك الأسبوع بجماله المتألق كحلم وساعاته الحافلة بالسعادة.

لقد انقضى الأسبوع بسرعة كحلم، حلم معطر، عابق برائحة أغصان الصنوبر، وأشجار عيد الميلاد، اللألاءة بمصابيحها، وببهارجها المحلية الصنع، حلم تمضي دقائقه سريعة كدقات القلوب. إنه أسبوع منبهر النفس، حيث نداء من أعماق سكارلت دفعها بألم تمزجه المسرة، إلى استجماع وحشر كل دقائقه المليئة بالأحداث، لتتذكرها بعد رحيله، الأحداث التي تستطيع تمحيصها في أوقات الفراغ، خلال الشهور الطويلة القادمة، لتستخلص منها كل مبعث عزاء - ارقصي، غنّي، اضحكي، اجلبي واحلمي ما يريد آشلي من أجل آشلي، تنبَّئي بحاجاته، ابتسمي عندما يبتسم، اصمتي عندما يتكلم، تتبَّعي شخصة بعينيك، حتى إن كل عضو في جسده المنتصب، كل

إعلاءة لحاجبيه، كل مداورة ذكية في حديثه، تنطبع بحروف خالدة لن تمحى في ذاكرتك - لأن الأسبوع يمر سريعاً جداً، والحرب تستعر نيرانها إلى الأبد.

جلست على الكنبة في ردهة الاستقبال، تحمل في حجرها هديتها التي سترحل معه، وتنتظره وهو يودّع ميلي، متضرعة إلى ربها أن يهبط السلّم وحيداً، وأن يمنّ عليها بدقائق قليلة لتحادثه على انفراد. وأرهفت السمع إلى الأصوات الصادرة من الطابق العلوي، ولكن البيت كان ساكناً بشكل غريب، ساكناً جداً بحيث بدا صوت تنفسها مرتفعاً. كانت العمة بيتي بات تبكي صامتة فوق الوسادة في مخدعها، لأن آشلي ودّعها منذ نصف ساعة. ولم يسمع خلف باب مخدع ميلاني دندنة أصوات مغتمة، أو نشيج دموع، وتراءى لسكارلت كأن ساعات طوال انقضت عليه وهو في تلك الغرفة، واستنكرت بمرارة كل دقيقة قضاها في الداخل، يودّع زوجته، إذ كانت الدقائق تمضي تباعاً بسرعة فائقة، ووقته قصير جداً.

وفكرت في كل الأشياء التي كانت تنوي قولها له خلال هذا الأسبوع ولم تسنح الفرصة للإفضاء بها، وأدركت الآن أن من المحتمل أن لا تواتيها الفرصة أبداً للإفصاح عنها.

إنها مجرد عبارات صغيرة تافهة، هذا بعضها: «آشلي، ستكون حريصاً على نفسك، أليس كذلك؟»، «أرجوك ألّا تبلل قدميك، فأنت يصيبك الزكام بسهولة بالغة»، «لا تنسَ أن تضع جريدة بين صدرك وقميصك، فهي تمنع الرشح بصورة فعالة». بيد أن هناك أشياء أخرى ترغب في قولها، وأشياء أعظم أهمية بكثير ترغب في سماعها منه. أشياء ترغب في أن تقرأها في عينيه، حتى لو لم يفصح عنها.

أشياء كثيرة جداً تنوي قولها، ولا وقت الآن! حتى الدقائق القليلة المتبقية، يمكن أن تنتزع منها، إذا ما تبعته ميلاني إلى الباب ثم إلى

العربة. لماذا لم تغتنم الفرصة خلال هذا الأسبوع المنصرم؟ ولكن، دائماً كانت ميلاني إلى جانبه، عيناها تعانقه كعيني عابد، ولم يخلُ البيت أبداً من الأقرباء والأصدقاء والجيران، ومنذ الصباح حتى المساء كان الناس يحيطون بآشلي، وعندما يأتي الليل ينغلق باب غرفة نومه، ويختلي بميلاني.

خلال تلك الأيام الأخيرة، لم يفشِ آشلي لسكارلت، ولو لمرة واحدة، سواء بنظرة أو كلمة، بأي شيء، عدا العاطفة التي يمكن أن يبديها أخ نحو أخته، أو نحو صديقه، صديقه الدائم.

ليس في وسعها أن تدعه يرحل، وربما إلى الأبد، دون أن تعرف إن كان لا يزال يحبها، وعندئذ، وحتى لو قضى نحبه، تستطيع أن تتعلل بالعزاء الدافئ، عزاء حبه المكتوم، إلى نهاية أيامها.

وبعد انقضاء ما بدا لها كأنه الانتظار الأبدي، سمعت صوت حذائه في غرفة النوم في الطابق العلوي، ثم صوت الباب يفتح ويغلق، وسمعته ينزل الدرج وحيداً. شكراً للّه على ذلك، لا بدّ أن تكون ميلاني مترعة بأحزان الفراق، بحيث لم تستطع مغادرة غرفتها الآن. ستحوزه لنفسها دقائق قليلة ثمينة.

هبط الدرج ببطء ومهمازاه يصلصلان، واستطاعت سكارلت سماع الصدى الخافت لصوت ارتطام سيفه بجزمته الطويلة. وعندما أطل في الردهة، رأت عينيه مخضلتين مفتحتين، كان يحاول الابتسام ولكن وجهه كان أبيض غائض الدم، كوجه رجل ينزف من جرح أبدي. ونهضت فور دخوله، مفكرة، تزهوها كبرياء المالك. إنه أجمل جندي رأته في حياتها. كان حزامه وقراب سيفه الطويل يلمعان، وكان مهمازاه الفضيان وغمده يتلألآن من جرّاء المسح المكدود الذي قام به العم بيتر. ولم يكن معطفه الجديد دقيق الصنع كما ينبغي، لسرعة الخياطة، ولأن بعض دروزه منحرفة موروبة، غير أن البهاء الجديد

الزاهي، المنبعث من المعطف الرمادي، كان على خلاف ممض مع السروال المهترئ، المرقع، المصنوع محلياً، والجزمتين المخدشتين. ولكن لو أنه ألبس بذلة حربية فضية، لما كان في وسعه أن يبدو لناظريها فارساً أكثر رواء منه الآن.

- «آشلي» قالت متوسلة باقتضاب، «هل يمكنني مرافقتك إلى القطار؟».

- «أرجوك لا، فسيكون والدي وشقيقتاي في انتظاري هناك. وعلى كل حال، أفضل أن أذكرك وأنت تودعينني هنا، من أن أذكرك ترتجفين في المحطة، ثم إنه يوجد الكثير للذكرى».

وفي الحال، تخلت عن خطتها. فإذا كانت إنديا وهوني، اللتان تبغضهما كثيراً ستحضران عند فراقه، فلن يتاح لها الفرصة لكلمة خاصة.

- «إذن لن أذهب» قالت، «انظر يا آشلي، عندي هدية أخرى لك».

وحلَّت الرزمة وقليل من الخجل يورّد وجنتيها، فقد آن وقت تقديمها له.

كان حزاماً أصفر طويلاً، مصنوعاً من حرير صيني سميك، مطرفاً بتخاريج ثقيلة. ذلك أن ريت باتلر كان قد جلب لها شالاً أصفر من هافانا قبل عدة شهور، شالاً مطرزاً بالطيور والأزهار بلون أزرق، وأحمر أرجواني، فعكفت سكارلت بإصرار، خلال الأسبوع الأخير، على تنقيب خيوط التطريز، ثم قصّت قطعة الحرير المربعة، وخاطتها بطول الزنار.

- «إنه جميل يا سكارلت، هل صنعته بنفسك؟ إذن سأقدره أكثر وأكثر. منطقيني به يا عزيزتي، سيتوغل الحقد في صدور الجنود عندما يرونني بأبّهة وزنار جديدين».

لفَّت الزنار الزاهي حول خصره النحيل، فوق حزامه، وعقدت طرفيه بعقدة محب.

قد تكون ميلاني منحته معطفه الجديد، ولكن هذا الزنار كان هديتها هي، مكافأتها السرية له، ليتمنطق به في المعركة. إن هديتها ستجعله يتذكرها كلما نظر إليها. وتراجعت قليلاً، وتأملته فخورة مفكرة أنه حتى جب ستيوارت بزناره الفائق الروعة، وريشته، لا يمكن أن يبدو جذاباً هكذا، كفارسها.

- «إنه جميل» كرَّر عابثاً بالتخاريج بأصبعه، «بيد أني واثق أنك قصصت فستاناً أو شالاً في سبيل صنعه. كان ينبغي ألّا تفعلي يا سكارلت، فالأشياء الجميلة صعبة المنال كثيراً هذه الأيام».

- «آه، آشلي، إني. . .».

كانت قد شرعت في القول: «إني أقص قلبي في سبيلك لترتديه، إذا ما رغبت فيه» ولكنها عدلت ذلك القول: «إني أفعل كل شيء في سبيلك».

- «هل تفعلين؟» استوضح وكان قد زاول وجهه بعض الكآبة، «إذن يوجد شيء لتعتني به من أجلي يا سكارلت، شيء سيخفف عبء تفكيري، وأنا بعيد في الجبهة».

- «ما هو؟» سألت مبتهجة مستعدة أن تعد بصنع المعجزات.

- «سكارلت، هل تعتنين بميلاني من أجلي؟».

- «أعتني بميلاني؟».

وانكمش قلبها بخيبة الأمل المرير. هذا إذن آخر رجاء له منها بينما هي في أوج اللهفة لتعد بشيء جميل، شيء يبدو جذاباً للعيان. واستعر فؤادها غضباً. إذن هذه الدقيقة هي فرصتها مع آشلي، فرصتها وحدها، ومع ذلك، ومع أن ميلاني غائبة، إلا أن ظلها الشاحب يحول

بينهما. كيف يسعه ذكر اسمها في لحظة وداعهما؟! كيف يسعه طلب شيء كهذا منها؟

ولم يلحظ الخيبة في وجهها، فكما هو حاله معها قديماً، كانت عيناه تنظران خلالها، إلى ما وراءها، إلى شيء آخر، ولا تريانها هي أبداً.

- «نعم، حافظي عليها، اعتني بها، إنها سقيمة جداً، وهي لا تعي ذلك، ستفني نفسها في التمريض والخياطة، وهي رقيقة جداً، وحيية. وباستثناء العمة بيتي بات، والعم هنري، وأنت، ليس لها قريب حميم في الدنيا عدا آل بور في ميكون، وهم أبناء عمومتها من الدرجة الثالثة. والعمة بيتي بات يا سكارلت - تعرفين أنها طفلة، والعم هنري رجل مسن. إن ميلاني تحبك حباً جارفاً، ليس لأنك زوجة تشارلز وحسب، بل لأنك حسناء، لأنك أنت أنت، لشخصك، وهي تحبك كشقيقة لها. سكارلت، إن كوابيس تضغط على صدري عندما أفكر في الذي يمكن أن يحدث لها إذا ما قُتلتُ، فليس من أحد تلجأ إليه».

ولكنها لم تسمع حتى رجاءه الأخير، لقد استحوذ عليها الذعر، بفعل هذه الكلمات المشؤومة: «إذا ما قُتلتُ».

إن كل يوم كانت تقرأ فيه قوائم المصابين كانت تقرأها وقلبها في حلقها، مدركة أن العالم سينتهي إذا ما أصابه مكروه، بيد أنها دائماً وأبداً، كان ينتابها شعور داخلي، يطمئنها أنه حتى لو فني جيش الحلف بأسره، سينجو آشلي. غير أنه الآن يتفوّه بالكلمات المرعبة!

وأحست بالمطارق خفيفة تهوي على كل بقعة في جسدها، واجتاحها الرعب، رعب هائل لم تستطع مقاومته بالمنطق. كانت إيرلندية إلى حد تؤمن معه بالكهانة ونفاذ البصيرة، خصوصاً حيث يوجد شعور سابق بالموت. ورأت في عينيه الرماديتين الواسعتين حزناً

عميقاً، حزناً لم يسعها تفسيره، إلا أنه كحزن ذلك الرجل الذي أحس بيد الموت على كتفه، وسمع عويل البانش[1].

- «يجب ألّا تتفوه بهذه الكلمات. يجب ألّا تفكر فيها أبداً. إن التكلم عن الموت نذير سوء. اتلِ صلاة، أسرع -».

- «أنت اتليها من أجلي». كانت فرائصها ترتعد هلعاً بفعل ما يرسمه عقلها من صورة مريعة، آشلي فاقد الروح، ممدد على ثلوج فرجينيا... هناك، بعيداً عنها. وتابع هو حديثه، وكان في صوته رنة تميزه، رنة أسى، رنة فاقمت خوفها، حتى تبدد من وجهها كل أثر من آثار الغضب وخيبة الأمل.

- «لهذا السبب رجوتك يا سكارلت، فأنا لا أستطيع التنبؤ بما سيقع لي، أو ربما سيقع لأي منا، ولكن عندما تأتي النهاية، سأكون بعيداً جداً عن هنا، حتى لو كنت حياً، سأكون بعيداً جداً بحيث لن أستطيع العناية بميلاني».

- «النـ... النهاية؟».

- «نهاية الحرب... ونهاية العالم».

- «ولكن أحقاً يا آشلي أنك لا تستطيع التصور أن الشماليين سيغلبوننا؟ إذ طوال هذا الأسبوع، وأنت تتحدث عن مدى قوة الجنرال لي -».

- «طوال هذا الأسبوع كنت أتخرّص بالأكاذيب، كما يفعل جميع الرجال عندما يكونون في إجازاتهم. لماذا ألجأ إلى تخويف ميلاني والعمة بيتي، قبل أن توجد أي حاجة إلى تخويفهما؟ أجل يا سكارلت، أعتقد أن الشماليين سيغلبوننا، ولقد كانت غتيسبورغ بداية

---

(1) امرأة في الأساطير الاسكتلندية والإيرلندية، يؤخذ عويلها أنه نذير بوقوع موت محقق قريب - (المترجمان).

النهاية. إن الناس الذين كانوا قد عادوا إلى بيوتهم لا يعرفون ذلك إلى الآن، إذ إنهم لا يستطيعون تبيُّن حقيقة أوضاعنا، ولكن - يا سكارلت، إن بعض رجالي عراة الأقدام الآن، والثلج متراكم في فرجينيا، وعندما أشاهد أقدامهم المتجلدة التعسة، تلفّها الخرق والجوارب العتيقة، وأشاهد بقع الدم التي يخلفونها على الثلج، وأعلم أني حصلت على زوج كامل من الجزم - أشعر، أجل أشعر كأن من واجبي أن أقذف بجزمتي بعيداً، وأسير عاري القدمين مثلهم».

- «آهٍ يا آشلي، عدني ألّا تقذف بهما».

- «عندما أشاهد أموراً كهذه، ثم أنظر إلى جنود الشمال... عندئذ أرى نهاية كل شيء... إن الشماليين يا سكارلت يشترون الجنود من أوروبا بالألوف. وإن معظم الأسرى الذين أسرناهم مؤخراً، لا يستطيعون مجرّد التكلم بالإنكليزية. إنهم ألمان وبولنديون وإيرلنديون متوحشون. أما نحن فعندما نخسر رجلاً، لا يمكننا تعويضه. وعندما تبلى أحذيتنا، لا نجد بدلاً منها. لقد ضيقوا الخناق علينا يا سكارلت، وليس في وسعنا محاربة الدنيا جمعاء».

ففكرت آبدة: «ليتحطم الحلف بأسره ويستحيل هباء منثوراً، لتندثر الدنيا، ولكن أنت ينبغي ألّا تموت! لن أستطيع الحياة إن أنت غادرتها...»

- «آمل ألّا ترددي الذي قلته يا سكارلت، فأنا لا أريد إشاعة الخوف بين الناس. ويا عزيزتي، لم أكن لأرهبك بالتصريح بهذه الأمور، لو لم يكن من الضروري أن أوضح السبب الذي من أجله طلبت إليك الاعتناء بميلاني، فهي سقيمة جداً وضعيفة، وأنت قوية جداً يا سكارلت. وسيكون مما يجلب إلى قلبي العزاء والطمأنينة معرفة أنكما تعيشان معاً، إذا ما حل بي مكروه. ستعدينني الآن، أليس كذلك؟».

- «أي... نعم!» صاحت، لأنها في تلك الدقيقة، وقد رأت الموت بين عينيه، كان يمكن أن تعد بأي شيء... «آشلي! آشلي! ليس في وسعي أن أدعك ترحل بعيداً... أنا... حتماً لا أملك من الشجاعة ما أواجه به هذا المصير».

- «ينبغي أن تكوني شجاعة»، أجاب، وقد تغيرت نبرات صوته بدهاء، فأصبح صوته مجلجلاً عميقاً... وتتابعت كلماته سريعة، كأن إلحاحاً داخلياً يحثها على التوارد... «ينبغي أن تكوني شجاعة... لا وإلا فكيف يمكنني أنا مواجهة الأمر؟».

ونشدت عيناها وجهه بسرعة وسرور، متسائلة إن كان يعني أن فراقها سيحطم قلبه، تماماً كتحطيمه قلبها... وتجلى الوجه أمامها، ممتقع اللون، غائض الدم، كحاله عندما نزل بعد وداع ميلاني... بيد أنها لم تستطع استقراء عينيه أبداً، وانحنى بقامته وأخذ وجهها بين يديه، وقبّلها قبلة خفيفة على جبينها.

- «سكارلت! سكارلت! أنت رائعة جداً وقوية وطيبة... جميلة جداً... ليس فقط وجهك العذب... يا عزيزي، بل كل شيء فيك جميل، جسدك وعقلك وروحك».

- «آه، آشلي» همست سعيدة مبهورة بفعل كلماته، وملامسته وجهها... «لا إنسان آخر سواك -».

- «إني أرغب في التفكير في أن من المحتمل أن تكون معرفتي بك أفضل من معرفة معظم الناس، وأني أستطيع رؤية الأشياء الجميلة الكامنة عميقاً في شخصك، والتي لا يكترث لها الآخرون، ويمرون بها مراً سريعاً، بحيث لا يلحظونها -».

وكف عن الكلام، وأهوت يداه على وجهها، ولكن عينيه استمرتا مسمّرتين على عينيها، وانتظرت هنيهة وهي محتبسة النفس ليتم حديثه، ووقفت على رؤوس أصابعها، مشرئبة العنق، تهيُّؤاً لسماعه ينطق

بالكلمتين السحريتين، غير أن الكلمتين لم تخرجا. وبحثت في وجهه مهووسة، وشفتاها تنتفضان، إذ تبينت أنه ختم حديثه. . .

هذه النكسة الثانية لآمالها كانت أكثر مما يستطيع قلب احتماله، فصرخت: «آه» في همس صبياني، ثم تهالكت على المقعد، والدموع تحرق عينيها، ثم سمعت صوتاً مشؤوماً في الممشى، خارج النافذة، صوتاً وضع أمام عقلها المضطرب، بصورة أكثر إيلاماً من قبل، دنو رحيل آشلي، واغتمت نفسها، بحيث لا يمكن لوثني يسمع اصطفاق الماء حول زورق شارون[1] أن يشعر بالوحشة أكثر مما شعرت. كان العم بيتر متسربلاً بعباءة سميكة فضفاضة وهو يُخرج العربة لتحمل آشلي إلى القطار. وبأدب جم قال آشلي: «وداعاً»، متناولاً من على الطاولة القلنسوة اللباد الواسعة، التي كانت سكارلت قد تبلصتها من ريت، ثم مشى في القاعة الأمامية المعتمة. وبينما كان يضع يده على مقبض الباب استدار ونظر إليها نظرة طويلة يائسة، كأنه يريد أن يحمل معه كل تقاسيم وجهها وجسدها. ومن خلال غشاوة من الدموع المعمية، لمحت سكارلت وجهه، وأدركت، والألم الخانق يحز في حلقها، أنه راحل بعيداً. . . بعيداً عن عنايتها، بعيداً عن الملجأ الأمين في هذا البيت. . . بعيداً عن حياتها. . . وربما إلى الأبد، دون أن يكون قد نطق بالكلمتين اللتين تاقت كثيراً لسماعهما. . . كان الوقت يمضي سريعاً كالطاحون، لقد فاتت الفرصة الآن. وركضت متعثرة عبر الردهة إلى القاعة، وقبضت على أطراف زناره:

- «قبِّلني». . . همست، «قبِّلني قبلة الوداع».

وامتدت ذراعاه حولها بلطف، وأحنى رأسه فوق وجهها، وما إن

---

(1) بحسب الأساطير اليونانية، كان شارون ينقل بزورقه أرواح الموتى عبر نهر ستيكي في جهنم - (المترجمان).

لامست شفتاه شفتيها، حتى طوقت ذراعاها عنقه في قبضة رهيبة، وللحظة خاطفة، لا يمكن قياسها، ضغط جسدها قريباً من جسده، ثم أحست بتوتر فجائي لجميع عضلاته. وبسرعة أسقط القبعة على الأرض، واستقام منتصباً، مبعداً ذراعيها عن عنقه:

-«لا! يا سكارلت، لا!» قال بصوت خفيض، ممسكاً ذراعيها المتشابكتين، بقبضة موجعة.

- «أحبك» قالت غاصة بصوتها... «لقد أحببتك دائماً ولم أحب إنساناً غيرك أبداً... لقد تزوجت تشارلز، فقط لـ... لأحاول إغاظتك... آه، آشلي... إني أحبك كثيراً... أريد أن أمشي كل خطوة من الطريق إلى فرجينيا، فقط لأكون قريبة منك... وأريد أن أطبخ طعامك وألمع حذاءك، وأسوس حصانك - آشلي! قل إنك تحبني... سأعيش على هذه العبارة بقية عمري».

وانحنى فجأة ليسترد قبعته، ولم تنعم إلا بنظرة واحدة من وجهه. كان أيأس وجه يمكن أن تراه، وجه تلاشى منه كل ترفُّع، وعلى جبينه مسطور حبه لها، والبهجة بحبها له، ولكن كان يعارك المعنيين كليهما، اليأس والعار...

- «وداعاً» قال بصوت أجش.

وسمعت صوت انفتاح الباب، واجتاحت المنزل هبّة ريح باردة، حركت السجف، وأصابت سكارلت بالرجفة، وهي تتأمله يسرع في الممشى نحو العربة، وسيفه يلمع في ضوء شمس الشتاء الواهي، وتخاريج زناره تتراقص برشاقة.

16

مضى شهرا يناير وفبراير من عام 1864 غزيرين بالأمطار الباردة، عاصفين بالرياح العاتية، متلبّدين بسحب الكآبة الشاملة، والهمّ المقيم. فبالإضافة إلى الهزيمتين في غتيسبورغ وفيكسبورغ، شُلَّ مركز الخط الجنوبي، واستطاعت فرق الاتحاد بعد قتال ضار، احتلال جميع تنيسي تقريباً، ولكن حتى مع هذه الخسارة، التي فاقت الخسائر الأخرى، لم تنسحق روح الجنوب. صحيح أن التصميم الكئيب العنيد حل محل الآمال المشرقة البسامة، بيد أن الناس ما زال في وسعهم رؤية وميض فضي وسط غيوم البؤس، لسبب واحد، هو أن جنود الشماليين كانوا قد رُدّوا على أعقابهم، رداً عنيفاً، في سبتمبر، عندما حاولوا متابعة انتصارهم في تنيسي، وذلك بالتوغل في جورجيا.

وهنا في أقصى زاوية شمالية غربية من الولاية، في شيكاموغا، حدث قتال دامٍ فوق أرض جورجيا لأول مرة منذ ابتداء الحرب. وكان الشماليون قد استولوا على شاتانوغا، ثم زحفوا خلال الممرات الجبلية إلى جورجيا، ولكنهم دحروا بخسائر فادحة.

ولعب أتلانتا وسككها الحديد دوراً كبيراً في جعل معركة شيكاموغا نصراً باهراً للجنوب. ففوق تلك الخطوط الممتدة من فرجينيا إلى أتلانتا، ثم شمالاً إلى تنيسي، اندفعت كتائب الجنرال لونغستريت إلى ساحة المعركة، وعلى طول الطريق البالغة عدة مئات

من الأميال، أمنت الخطوط الحديدية بإزالة العوائق، وعبئت كل القاطرات والعربات الصالحة للاستعمال الموجودة في الجنوب الشرقي، استعداداً للعمل.

وشاهد أهل أتلانتا، عن كثب، والقطار يخترق المدينة تلو القطار، ساعة فساعة، كيف كانت مقاعد المسافرين، وعربات الشحن المغلقة، وعربات الشحن المكشوفة، مكتظة بالرجال الذين كانوا يصيحون حماساً ووطنية، جاؤوا مدون طعام ومن دون نوم، ومن دون خيول ومن دون عربات الإسعاف وقطارات المؤونة، ومن دون أن يأخذوا قسطهم من الراحة. ووثبوا من القطار إلى أتون المعركة، وطردوا الجنود الشماليين من جورجيا، وأرغموهم على التقهقر إلى تنيسي.

كانت تلك أعظم حوادث الحرب التي تنم عن مهارة، وازدهت أتلانتا بالكبرياء وبالرضى الذاتي، لأن خطوطها جعلت من النصر أمراً ممكناً.

لكن الجنوب كان في حاجة ماسة إلى أنباء شيكاموغا المفرحة ليقوي معنوياته، خلال فصل الشتاء، ولم يعد يوجد اليوم من ينكر أن الشماليين محاربون أكفاء، وأن لديهم أخيراً جنرالات مهرة. فالجنرال غرانت كان سفاحاً، لا يبالي بما يضحي من الأرواح لنيل النصر، فالنصر هو مبتغاه فحسب، وشريدان كان الاسم الذي يجلب الرعب لقلوب الجنوبيين، ثم كان هناك رجل يدعى شيرمان أخذ اسمه يردد أكثر فأكثر، وكان قد حلَّق في سماء الشهرة إثر الحملات على تنيسي والغرب، وكان صيته كمحارب عنيد عديم الرحمة يذيع باطراد. وبالطبع لم يكن لأحدهم ليُقارن بالجنرال لي، فالإيمان به وبالجيش كان لا يزال متيناً، والثقة بالنصر النهائي لم تتزعزع، غير أن الحرب طالت ونجم عنها عدد ضخم من القتلى، وعدد ضخم من الجرحى

والمشوَّهين العاطلين من الحياة، وعدد ضخم من الأرامل، وعدد ضخم من الأيتام. . . وما زال يوجد أمام الناس نضال قاس طويل، ما يعني زيادة في عدد القتلى، والجرحى، والأرامل والأيتام.

وفي سبيل أن تتفاقم الأمور سوءاً، بدأت تنتشر بين صفوف أهل المدينة ريبة غامضة، في هؤلاء المتسنّمين مراكز عالية في الدولة. وكانت الكثير من الصحف صريحةً في نقد الرئيس ديفيس ذاته، والأسلوب الذي يتابع به قضية الحرب، ودبَّ النزاع داخل مجلس وزراء الحلف، ونشأت خلافات بين الرئيس ديفيس وجنرالاته. وتوالى هبوط العملة بسرعة، وغدا وجود الأحذية والملابس للجيش نادراً. أما الذخائر والعقاقير، فغدت أندر. وأضحت الخطوط الحديدية في حاجة إلى عربات جديدة عوضاً عن القديمة، وقضبان جديدة عوضاً عن تلك التي دمّرها الشماليون. واستصرخ جنرالات الميدان ذوي الأمر يطلبون فرقاً جديدة، ولكن عدد الفرق التي تمكن الحصول عليها، كان في تدهور مستمر. وأسوأ من هذا كله أن بعض حكام الولايات، ومن بينهم براون حاكم جورجيا، كانو يرفضون إرسال فرق الميليشيا التابعة لولاياتهم، وكذلك السلاح، إلى خارج حدودهم، ولذا كان يود الآلاف من الرجال ذوي الأجسام القادرة على الحرب ضمن فرق الميليشيا، ممن كان الجيش في حاجة محمومة إلى سواعدهم، ولكن توسلات الحكومة في طلبهم كانت تذهب أدراج الرياح.

ومع سقوط العملة الجديد، حلّقت الأسعار ثانية، فوصل سعر الرطل الواحد من كلٍّ من لحم الخنزير ولحم البقر والزبدة إلى خمسة وثلاثين دولاراً، وسعر برميل الدقيق ألف وأربعمئة دولار، ورطل الصودا مئة دولار، والشاي خمسمئة دولار. أما أثمان الملابس الشتوية، إذا أمكن الحصول عليها، فقد ارتفعت إلى مثل هذه الأسعار المحظورة، بحيث إن سيدات أتلانتا كنّ يبطّن أثوابهن العتيقة بالخرق،

ويدعمنها بالجرائد ليمنعن تسرب الهواء. وتراوح سعر زوج الأحذية ما بين مئتين وثمانمئة دولار، تبعاً للمادة المصنوعة منها، فيما إذا كانت كرتونية، أو جلداً حقيقياً. وما عتمت السيدات أن ارتدين أطقمة مصنوعة من شالاتهن القديمة، ومن السجاجيد البالية، أما النعال فصارت تُصنع من الخشب.

والحقيقة أن الشمال كان مطبقاً على الجنوب في حصار فعال، مع أن الكثيرين لم يدركوا ذلك، فزوارق الشماليين الحربية أحكمت الطوق على موانئ الحلف، ولم يعد في وسع الزوارق، إلا عدد قليل جداً منها، التسلل عبر هذا الطوق.

كانت معيشة الجنوب تعتمد أبداً على بيع القطن، وشراء المواد التي لا ينتجها. ولكنه الآن لم يعد في مقدوره البيع أو الشراء، فكان جيرالد أوهارا مثلاً يخزن نتاج القطن الذي جناه في السنوات الثلاث الأخيرة، تحت الحظيرة، قرب المحجلة في تارا، هذا النتاج الذي يساوي في ليفربول مبلغ مئة وخمسين ألف دولار، ولكن تبخر الآن كل أمل في نقله إلى ليفربول. انتقل جيرالد من رجل ثري إلى رجل يحار كيف يؤمِّن طعام عائلته وزنوجه خلال الشتاء.

وفي سائر مناطق الجنوب تردّى معظم مزارعي القطن في الضائقة ذاتها. فمع اشتداد قبضة الحصار، لم يعد هناك طريق لإيصال محصول الجنوب، الذي يدرّ الأموال الطائلة، إلى أسواقه في إنكلترا، ولم يعد هناك طريق لإدخال الضروريات، التي كانت تُشترى بأموال القطن في السنين المنصرمة. وهكذا غدا الجنوب الزراعي، الخائض الحرب ضد الشمال الصناعي، في حاجة إلى أشياء عديدة جداً، أشياء لم يعنَّ له شراؤها زمن السلم.

كان وضعاً معداً للمضاربين والانتهازيين، وضعاً لم يعوزه الرجال لاستغلاله. وبينما كان الغذاء والكساء يزدادان ندرة، والأسعار ترتفع

أكثر فأكثر، كانت الصيحة العامة ضد المضاربين تشتد ارتفاعاً وتتأجج حقداً. ففي هذه الأيام الأولى من عام 1864، لم تبقَ جريدة مقروءة إلا وصدرت تحمل افتتاحيات جارحة، تُشهّر بالمضاربين كبزاة وعلق مصاص للدماء، وتحث الحكومة على إخضاعهم بيد من حديد. وبذلت الحكومة جهدها، ولكن هذا الجهد لم يثمر شيئاً، لأن الحكومة كانت تقلقها أمور كثيرة.

ولم يكن الشعور ضد أي إنسان أكثر مرارة مما هو ضد ريت باتلر. كان قد باع زوارقه عندما بلغت مخاطر التهريب أوجها، وتفرَّغ الآن علانية للمضاربة بالطعام، وجعلت القصص التي كانت ترد عنه في أتلانتا من ريتشموند وولمنفتون، أولئك الذين كانوا يرحبون به فيما مضى من الأيام، يتلوّون ألماً من أنياب العار.

وعلى الرغم من كل هذه المحن والشدائد، ارتفع عدد سكان أتلانتا البالغ عشرة آلاف نفس، إلى ضعفه خلال الحرب. حتى الحصار زاد في أهمية أتلانتا، فمن عهد مغرق بالقِدم، تحكمت المدينة الساحلية في الجنوب، من الناحية التجارية والنواحي الأخرى. ولكن، والموانئ مشلولة الآن، وكثير من المدن محتل أو محاصر، توقف خلاص الجنوب على نفسه، وأضحى الإقليم الداخلي هو المعوَّل عليه، إذا قُدِّر للجنوب كسب الحرب. وغدت أتلانتا الآن محور كل شيء، كان سكانها يعانون الأهوال من الحرمان والمرض والموت، بالقسوة ذاتها التي تعانيها مناطق الحلف الأخرى. بيد أن أتلانتا، المدينة، قد ربحت أكثر مما خسرت، نتيجة للحرب، فأتلانتا، قلب الحلف، ما زالت تحقق خفقاناً تاماً قوياً، وخطوطها الحديدية، التي هي بمثابة شرايينها، ما فتئت تنبض بجلبة الرجال والمؤن والذخيرة، وهي تتدفق أبداً، من دون انقطاع.

* * *

في أيام غير هذه الأيام، كان من الممكن أن تحس سكارلت بالمرارة وهي تتأمل أثوابها الرثة، وأحذيتها المرقعة، بينما هي الآن لا تأبه لذلك، لأن الشخص الوحيد الذي يهمها، لم يكن موجوداً ليراها. لقد كانت سعيدة في هذين الشهرين، أسعد مما كانت منذ سنين. ألم تهنأ بانفتاح قلب آشلي، عندما طوقت عنقه بذراعيها؟ ألم ترَ تلك النظرة اليائسة في وجهه، النظرة التي هي إقرار صريح، أصرح مما يمكن أن تفصح عنه كلمات، بأنه يحبها. إنها واثقة بذلك الآن، وهذا الوثوق الممتع جداً لها بحيث تستطيع معه زيادة عطفها على ميلاني. إن في وسعها أن تأسف لميلاني الآن، تأسف بقليل من الازدراء لأنها عمهة القلب غبية.

«عندما تنتهي الحرب!» هجست، «عندما تنتهي... عندئذ...». إنها أحياناً تهجس برعشة من الخوف خفيفة، «وماذا عندئذ؟!»، ولكنها تطرد الفكرة من عقلها. عندما تنتهي الحرب، سيستقر كل شيء بطريقة ما. فإذا كان آشلي يحبها، فمن الجلي أنه لن يستطيع متابعة حياته مع ميلاني.

ولكن حينذاك لا يمكن التفكير في الطلاق، إذ إن إيلين وجيرالد، وهما الكاثوليكيان المخلصان، لن يأذنا لها بالزواج برجل مطلّق، فهذا يعني التخلي عن الكنيسة. قلبت سكارلت المسألة على جميع وجوهها، وقررت أنه إذا ما خُيِّرت بين الكنيسة وآشلي، فإنها ستختار آشلي. ولكنها تذكرت أن الأمر سيكون فضيحة شائنة، فالناس المطلّقون ليسوا منبوذين من الكنيسة وحسب، بل من المجتمع أيضاً، إذ لم يرحب المجتمع بمطلّق يوماً. ومهما كان الأمر فستقدم حتى على تلك الخطوة، في سبيل آشلي، ستضحي بكل شيء من أجله، وعلى كل حال، سينتهي كل شيء إلى ما يرام عندما تضع الحرب أوزارها. فإذا كان آشلي متيماً بها، فسيدبّر الأمر. ستجعله يدبّر الأمر. وكل يوم يمر

يترسخ اعتقادها بإخلاصه، وتتوطد ثقتها بأنه سيرتب الأمور بشكل رضي، وذلك عندما ينـدحر الشـماليـون نـهائياً. طبعاً لقد قال إن الشماليين غلبوهم، بيد أن سكارلت تعتقد أن ذلك مجرد سخف عارض، إذ كان تعباً ومضطرباً عندما نطق بذلك. على أنها لا تكاد تحفل أربح الشماليون أم خسروا، إن ما يهمها بالنسبة إلى الحرب هو أن تنقضي عاجلاً، وبالنسبة إلى آشلي، هو أن يعود إلى البيت.

وفيما بعد، أيام حجزت أمطار أبريل المثلوجة الناس داخل بيوتهم، وقعت الضربة القاضية، وذلك عندما أخبرتها ميلاني - وعيناها تبرقان فرحاً، ووجهها مطأطئ بالكبرياء المشوبة بالخجل - أنها سترزق طفلاً.

- «يقول الطبيب ميد إنه سيولد في أواخر أغسطس أو مطلع سبتمبر» قالت، «لقد فكرت - غير أني لم أكن واثقة، حتى هذا اليوم. أليس ذلك مدهشاً يا سكارلت؟ لقد حسدتك على ويد كثيراً، ولقد تاقت نفسي إلى طفل توقاً عظيماً، وتملّكني الخوف من أنني قد لا أظفر بطفل أبداً في وقت أريد فيه «دزينة» يا حبيبتي».

كانت سكارلت تسرّح شعرها، استعداداً للنوم، عندما فاجأتها ميلاني بالنبأ الخطير، فتوقفت والمشط في الهواء.

- «يا للّه» قالت، وللوهلة الأولى لم تدرك خطورة الأمر، ثم فجأة قفز إلى مخيلتها باب مخدع ميلاني المغلق، وسرى في جسدها ألم حاد كطعن السكين، ألمٌ ضار كما لو أن آشلي كان زوجها ثم خانها. طفل... طفل آشلي، آه، كيف يمكن ذلك... في الوقت الذي يحبها هي لا ميلاني؟

- «أعرف أنك دهشت» تابعت ميلاني هذيانها محتبسة النفس، «أوليس ذلك مدهشاً جداً؟ لا أدري كيف سأكتب لآشلي يا سكارلت.

لا أظن أن الأمر يربكه إن أخبرته. أو - أو - حسناً، لن أقول له شيئاً، وإنما فقط أدعه يلاحظ ذلك تدريجياً، فأنت تعرفين -».

- «يا للّه» قالت سكارلت وهي تكاد تجهش بالبكاء، والمشط يهوي من يدها، فتمسك بقمة الصبهور الرخامية، لتسند جسدها.

- «حبيبتي. . . لا تفعلي ذلك. أنت تعلمين أن إنجاب مولوداً ليس أمراً سيئاً، لقد قلت ذلك بنفسك، وينبغي ألّا تجزعي من أجلي، مع أنني أقدر لك مثل هذا الجزع. بالطبع، قال الدكتور ميد إني - إني -» وتخضبت وجنتاها خجلاً. . . «ضيقة تماماً، ولكن من المحتمل أن لا ينتج عن ذلك ضرر ما و - سكارلت، هل كتبت إلى تشارلي وأبلغته يوم علمت أنك حبلى بويد، أم قامت أمك بذلك؟ أو ربما السيد أوهارا؟ آه، يا عزيزتي، لو أن لي أماً تقوم بالأمر عني، فأنا لا أعرف تماماً كيف -».

- «صه!» قالت سكارلت بعنف، «صه!».

- «عفواً يا سكارلت، إني في منتهى الغباوة، إني آسفة جداً. إن كل السعداء أنانيون على ما أظن. لقد غفلت عن أمر تشارلي، فقط في هذه اللحظة -».

- «صه!» قالت سكارلت ثانية، جاهدة في أن تسيطر على تعابير وجهها، وتهدئ من عواطفها. . . إذ لا ينبغي لميلاني أن تدرك أو ترتاب بحقيقة شعورها.

وتخضلت عينا ميلاني، أشد الناس حساسية، بالدموع، لما اقترفته من قسوة بحق سكارلت. إذ قد تكون أعادت لسكارلت الذكريات المؤلمة عن ويد. وهو الذي وُلد بعد أشهر من وفاة تشارلي التعس! كيف في وسعها أن تتصرف لهذا التسرع والطيش؟

- «دعيني أساعدك في خلع ثيابك يا أعز الناس»، قالت بنفس طيبة، «وأنا سأسرّح لك شعرك».

- «اتركيني وحدي»، قالت ووجهها صلد كالحجر، بينما هرعت ميلاني إلى خارج الغرفة وهي تجهش بالبكاء بفعل تأنيب الضمير، مخلّفة سكارلت لسرير عصي الدمع، وبكبرياء جريح، وبوعي تام يتآكلها التحرق لرفيق النوم.

وفكرت أن ليس في مقدورها بعد اليوم العيش تحت سقف واحد مع المرأة التي تحمل طفل آشلي. وفكرت أنها ستعود إلى البيت، إلى تارا، إلى موطنها الأصلي، فهي لا تدري كيف يمكنها بعد الآن رؤية ميلاني ثانية دون أن يقرأ سرَّها في وجهها.

وأفاقت في الصباح التالي يحدوها التصميم الأكيد على حزم حقيبتها فوراً، بعد الفطور. ولكن، بينما كن جالسات للمائدة: سكارلت صامتة كئيبة، بيتي مضطربة، ميلاني بائسة، وصلت برقية.

كانت لميلاني من موسى، وصيف آشلي:

- «بحثت في كل مكان فلم أجده، هل تجب عودتي إلى البيت؟».

لم يفهم أحد معناها، ولكن عيون الثلاثة تبادلت النظرات، متسعة من الرعب، ونسيت سكارلت كل فكرة عن الذهاب إلى البيت. ودون أن يفرغن من فطورهن، ركبن إلى المدينة ليبرقن إلى كولونيل فرقة آشلي، ولكن ما إن ولجن المكتب حتى وجدن برقية منه:

- «آسف أن أخبركم أن الرائد ويلكس مفقود منذ قيامه بحملة استكشافية، منذ ثلاثة أيام. سنتابع إعلامكم».

عُدنَ إلى البيت شاحبات اللون، صفراوات، كأشباح الفناء، والعمة بيتي تبكي في منديلها، بينما جلست ميلاني معتدلة، غائضة اللون، وسكارلت منهارة فاقدة الوعي، في زاوية العربة.

وما إن بلغن البيت، حتى صعدت سكارلت الدرج مترنحة إلى

مخدعها، وتناولت كتاب الصلوات عن المنضدة، وجثت على ركبتيها تحاول الصلاة. ولكن الآيات لم تلبّها، وإنما ساورها خوف سحيق المصدر، وأيقنت أن اللّه قد حوَّل وجهه عنها جزاء إثمها، لقد أحبت رجلاً متزوجاً، وحاولت انتزاعه من زوجته، ولقد عاقبها اللّه بقتله. ورغبت في الصلاة، بيد أنها لم تستطع رفع وجهها إلى السماء، ورغبت في البكاء ولكن الدموع لم تسعفها. لقد بدت دموعها كأنها تفيض في صدرها، دموع حارة تستعر في جوفها، دون أن تطفر من عينيها.

وانفتح باب الغرفة، ودخلت ميلاني، وكان وجهها كقلبٍ قص من ورق أبيض موضوع إزاء شعر أسود، كما كانت عيناها متسعتين كعيني طفل مذعور، تائه في الظلام.

- «سكارلت!» قالت مادة يديها، «ينبغي أن تسامحيني لما بدر مني أمس، لأنك كل ما أملكه الآن. آهٍ يا سكارلت! أنا أعلم أن حبيبي قد مات».

ومهما كان الأمر فقد أضحت بين ذراعي سكارلت، وثدياها الصغيران يخفقان بالنشيج، وألفت الاثنتان نفسيهما مستلقيتين معاً على السرير، متعانقتين برفق، وسكارلت تنشج هي الأخرى، تنشج ووجهها يضغط على وجه ميلاني، ودموع إحداهما تبلل وجنتَي الأخرى. إن من المؤلم جداً أن يبكي المرء، ولكن ليس بالقدر الكبير ذاته من الألم المنبعث عن عدم قدرته على البكاء... آشلي ميت - ميت، هجست، ولقد قتلته لأني أحببته. وطفر الدمع مجدداً من عينيها، وشددت ميلاني، وقد استشعرت العزاء بدموعها، قبضة ذراعيها حول عنق سكارلت.

- «على الأقل...» همست، «على الأقل... رزقت بطفل منه».

«أما أنا» فكرت سكارلت وقد بلغت منها المصيبة أوجها، بحيث

لم تعد تلتفت إلى أمور صغيرة جداً كالحسد. . . «فلم أنل منه شيئاً - لم أنل شيئاً. . . لا شيء إلا النظرة في وجهه، وهو يحيِّيني تحية الوداع».

* * *

كانت التقارير الأولى تقول: «مفقود - يُعتقد أنه قُتل» وهذا النص نفسه ظهر على لوائح الإصابات. وأبرقت ميلاني إلى الكولونيل سلون، عشر مرات، وأخيراً وصلت رسالة منه تفيض بالعطف وتوضح أن آشلي خرج برفقة فصيل صغير في حملة استكشافية، ولم يرجع منهم أحد، وأن تقارير ذكرت عن وقوع مناوشات عبر خطوط الشماليين، وأن موسى، وقد أمضّه الحزن، خاطر بحياته للبحث عن جثة آشلي، ولكنه لم يعثر على شيء. ولذلك أبرقت ميلاني التي تولاها الآن صمت غريب إلى موسى بالنقود والتعليمات القاضية بعودته إلى البيت.

وعندما صدرت قوائم الإصابات تحمل عبارة «مفقود، يُعتقد أنه أُسِر» أحيا الأمل والفرح أفراد البيت المحزون، وغدا من العسير إمكان جر ميلاني بعيداً عن دائرة البرق، وعكفت تنتظر كل قطار، آملة الحصول على رسالة. وانتابها المرض، وألمَّت بها أعراض الحمل بصورة متعددة منغصة، ولكنها رفضت إطاعة أوامر الطبيب ميد بالتزام سريرها، فقد تملكتها طاقة محمومة لم تدعها تهدأ أو تستقر. وفي الليل، بعدما كانت سكارلت تأوي إلى سريرها، بوقت طويل، كان في وسعها سماع خطوات ميلاني تذرع الأرض في الغرفة المجاورة.

وبعد ظهر أحد الأيام، عادت إلى البيت من المدينة، يقود عربتها العم بيتر المنذعر، ويسندها ريت باتلر. كان قد أُغمي عليها في مكتب البرق، وصدف أن ريت كان ماراً أثناء ذلك، فلاحظ الهرج، وما كان منه إلا رافقها إلى البيت، وحملها صاعداً السلّم إلى غرفتها. وبينما كان أفراد البيت المضربون يهرولون هنا وهناك، بجلب قرميد حار

وحرامات وويسكي، سندها ريت بين وسائد سريرها، ثم قال لها بصورة فجائية نابية:

- «يا سيدة ويلكس، ستلدين طفلاً، أليس كذلك؟».

لو لم تكن ميلاني دائخة جداً، عليلة جداً، ومهمومة جداً، لانهارت على أثر سؤاله، فحتى مع صديقاتها النساء كان يربكها أي ذكر لحالة حملها، بينما زياراتها لعيادة الطبيب ميد، كانت بمثابة معاناة سكرات الموت، وأما بالنسبة إلى رجل، خصوصاً ريت باتلر، فلم يكن يخطر في بالها أن يسأل مثل هذا السؤال. ولكنها، وهي الآن ممدّدة على السرير، مستخذية، لم يسعها إلّا أن تطرق بالإيجاب. وبعد أن أطرقت، لم يبدُ الأمر لها مريعاً، لأنها رأت فيه الكثير من اللطف والاهتمام.

- «إذن عليك أن تهتمي بنفسك أكثر، كل هذا التطواف والإنهاك لن يفيدك، وقد يؤذي الوليد. وإذا ما أذنت لي، أيتها السيدة ويلكس، فسأستعمل كل ما أملك من نفوذ في واشنطن لأعرف الحقيقة حول مصير السيد ويلكس، فإذا كان سجيناً فسيكون اسمه على القوائم الاتحادية، وإذا لم يكن سجيناً - فليس هناك ما هو أسوأ من عدم التحقق. ولكن لا بد من أن تعاهديني بأن تحرصي على نفسك وإلّا، يشهد اللّه، لن أحرك ساكناً».

- «آه، إنك لطيف جداً» صاحت ميلاني، «كيف يسع الناس التخرص بتلك الأقاويل المرعبة عنك؟!» وطفقت تبكي باستخذاء، مرتاعة من اكتشافها وقاحة تصرّفها، ومن كونها تحدثت بموضوع حبلها مع رجل.

وعندما دخلت سكارلت، بعد أن نهبت السلّم نهباً، وفي يدها قطعة قرميد حارة، ملفولة بخرقة من الفانيلا، وجدت ريت يربت على يد ميلاني.

أثبت باتلر أنه طيب ككلمته. لم يعرفن كيف ظفر بالجواب، وخشين سؤاله، إذ كن يدركن أن ذلك يتضمن اعترافاً منه بعلاقته الوثيقة جداً بالشماليين. فلم يمضِ شهر حتى حظي بالنبأ، النبأ الذي غمرهن بالسرور، عندما سمعنه للمرة الأولى، ولكن ما عتم بعد ذلك أن أوجد قلقاً نهاشاً في قلوبهن.

لم يكن آشلي ميتاً! لقد جُرح ثم اقتيد أسيراً. وأظهرت السجلات أنه موجود الآن في جزيرة روك التي هي معسكر للأسرى في مقاطعة إلينوي. وبادئ الأمر، بينما هن ثملات بنشوة الفرح، لم يسعهن التفكير في شيء إلا في أنه حي، ولكن ما إن بدأت السكرة تزاولهن، حتى تطلعن إلى بعضهن قائلات: «جزيرة رك!» وباللهجة نفسها هجسن: «في الجحيم» لأنه كما كان اسم أندرسونفيل تتقزز منه الأبدان في الشمال، كان اسم جزيرة روك يثير الرعب في قلب أي جنوبي، له أقرباء معتقلون هناك.

وعندما رفض لينكولن تبادل الأسرى، معتقداً أن ذلك سيعجل نهايةَ الحرب، لأنه سيزيد أعباء الحلف من جرّاء إطعام وحراسة أسرى الاتحاد، عصت أندرسونفيل، في جورجيا، بآلاف المعاطف الزرقاء. وكان الحلفيون على تغذية رديئة، ولا يملكون في الواقع العقاقير أو الضمادات لجراحهم، وهذا القليل القليل أشركوا فيه أسراهم. أطعموهم مما يأكل الجنود في الميدان: لحم الخنزير المدهن، والحمص الجاف، وبفضل هذه الحِمية، راح الأسرى الشماليون يتساقطون كالذباب، إذ كان يموتت منهم في اليوم، الأمر الذي أجج حقد الشمال، فعمد إلى تدابير أشد ضراوة بحق أسرى الحلف. ولم يكن الوضع في أي مكان أسوأ منه في جزيرة روك، حيث كان الطعام شحيحاً، وحيث كان يعطى حرام واحد لثلاثة رجال، أضف إلى ذلك أن غزوات الجدري وداء الرئة والتيفوئيد جعلت المكان جديراً باسم

«مستشفى الأمراض الوبائية»، إذ كان ثلاثة أرباع الذين يرسلون إليه لا يخرجون منه أحياء.

وآشلي كان في هذا المكان المخيف! آشلي كان حياً، ولكنه جريح، وفي جزيرة رك، ولا بد أن الثلج كان كثيفاً في إلينوي عندما اقتيد هنالك. هل قضى بتأثير جراحه منذ دري ريت بالنبأ؟ هل وقع ضحية الجدري؟ هل أصيب بداء الرئة، وما يلازمه من هذيان، دون أن يكون هناك حرام يغطي به جسده؟

- «آه يا كابتن باتلر! ألا توجد وسيلة ما - ألا تستطيع استعمال نفوذك فتبادله بأسير شمالي؟» صاحت ميلاني.

- «السيد لينكولن، الرجل الرؤوف والعادل، الذي ذرف الدموع الغزيرة على أولاد السيدة بكسبي الخمسة، لا يملك قطرة دمع ليسفحها على ألوف الشماليين الذين يموتون في أندرسونفيل»، قال ريت لاوياً شفتيه، «ولا يضيره لو فنوا جميعهم، فقد أصدر أمره بأن لا تبادل أسرى. وأنا - أنا لم أخبرك قبلاً يا سيدة ويكلس، بأن فرصة سنحت لزوجك في الخروج من الأسر، فأبى».

- «ها، لا!» صاحت ميلاني بارتياب.

- «بلى حقاً، فالشماليون يجندون رجالاً لحراسة الحدود في وجه الهنود، يجندونهم من بين أسرى الحلف، وأي سجين يقسم يمين الولاء ويتطوع لقتال الهنود مدة سنتين يُطلق سراحه ويُرسَل إلى الغرب. بيد أن السيد ويلكس رفض ذلك».

- «آه - كيف استطاع الرفض؟» صاحت سكارلت، «لماذا لم يُقسِم اليمين ثم يفر ويأتي إلى البيت حالما يخرج من السجن».

فاستدارت ميلاني نحوها محتجة غضبى:

- «كيف يسعك مجرد الاقتراح بأن يرتكب مثل هذا الشين؟ يخون حلفه بأخذ ذلك العهد، ثم يخون عهده للشماليين! إني أفضّل أن أعلم

أنه قضى في جزيرة روك على أن أسمع أنه أخذ على نفسه ذلك العهد. سأكون فخورة به إذا ما توفي في السجن، بينما لن أتطلع في وجهه أبداً، إذا هو أقدم على ذلك. . . أبداً. طبعاً لقد رفض ذلك».

وعندما شيَّعت سكارلت ريت إلى الباب سألته وهي ساخطة:

- «لو حصل الأمر معك، أما كنت تتطوع مع الشماليين لتجنيب نفسك الهلاك في ذلك المكان، ثم تفر؟».

- «طبعاً» قال ريت وقد بدت أسنانه تحت شاربيه.

- «إذن لماذا لم يفعل ذلك آشلي؟».

- «لأنه رجل نبيل» قال ريت.

وتساءلت سكارلت كيف يمكن تحميل تلك الكلمة الشريفة مثل هذه السخرية والازدراء.

القسم الثالث

17

أقبل مايو سنة 1864، وكان شهراً حاراً جافاً، أذوى الأزهار في أكمامها. أقبل وجنود الشمال يطأون بقيادة الجنرال شيرمان أرض جورجيا ثانية، شمال دالتون، وعلى مسافة مئة ميل إلى الشمال الغربي من أتلانتا. وراجت الشائعات بأن قتالاً ضارياً سينشب هنالك قرب الحدود بين جورجيا وتنيسي، إذ كان الشماليون يحشدون جنودهم تأهباً للهجوم على الخط الحديدي «الغربي والأطلنطي»، وهو الخط الذي يصل أتلانتا بتنيسي والغرب، والذي اندفعت فوقه الفرق الجنوبية، في الخريف الماضي، لتحقق ظفرها في شيكاموغا.

بيد أن معظم أهل أتلانتا لم يضطربوا جرّاء القتال قرب دالتون، فالبقعة التي يتمركز فيها جنود الشماليين لا تبعد إلا أميالاً قليلة عن الجنوب الشرقي من ميدان معركة شيكاموغا. لقد طُردوا مرة عندما حاولوا التسرب عبر الممرات الجبلية وسيُطردون مرة ثانية.

وأدرك اهل أتلانتا - وأهل جورجيا قاطبة - أن ولايتهم في غاية الأهمية بالنسبة إلى الحلف، بحيث لن يدع الجنرال جو جونستون جنود الشماليين يبقون داخل حدودها مدة طويلة. لن يدع جو الكبير ولا جيشه شمالياً واحداً يخترق جنوب دالتون، لأن أموراً كثيرة جداً كانت تعتمد على بقاء الحالة هادئة مطمئنة في جورجيا. فهذه الولاية التي

سلمت من الدمار حتى الآن، كانت مستودعاً ضخماً للحبوب، ومركزاً صناعياً، ومخزناً للحلف. ففيها كان يُصنع قسم كبير من ذخيرة الجيش وأسلحته، وكذلك معظم البضائع القطنية والصوفية. وبين أتلانتا ودالتون تقع مدينة روما بمصنعها للمدافع، وبصناعاتها الأخرى، ثم إيتواه وألاتونا بأضخم المصنوعات الحديدية، جنوب ريتشموند، وأخيراً أتلانتا التي لا تمتاز بمصانع المسدسات والسروج والخيام والذخائر فحسب، بل أيضاً بأكبر مصانع للقاطرات والعربات الحديدية في الجنوب، وبورشات سكك الحديد الرئيسة، وبالمستشفيات العديدة، وفي أتلانتا كذلك تقع نقطة التقاء الخطوط الحديدية الأربعة التي تتوقف عليها حياة الحلف ذاتها.

وهكذا لم يضطرب أحد بصورة خاصة. فقد كانت دالتون بعيدة بُعداً شاسعاً إلى الشمال، قرب حدود تنيسي، كما كانت الحرب مشتعلة الأوار في تنيسي لمدة ثلاث سنين بحيث أَلِف الناس اعتبار تلك الولاية ميداناً للحرب بعيداً عنهم بعد فرجينيا أو نهر الميسيسيبي تقريباً. هذا فضلاً عن أن جو الكبير ورجاله مرابطون بين جنود الشماليين وأتلانتا، ويعلم الجميع أنه بعد وفاة ستونوول جاكسون لم يبقَ هناك جنرال أعظم من جونستون (جو) باستثناء الجنرال لي نفسه.

وقد أوجز الدكتور ميد وجهة نظر الأهلين في هذا الأمر، عندما قال في إحدى أمسيات مايو الدافئة، في شرفة بيت العمة بيتي، إن أتلانتا لا تجد ما تخشاه لأن الجنرال جونستون يرابط في الجبال كمتراس حديدي. واستقبل سامعوه هذه العبارة بأحاسيس متفاوتة، لأن جميع الجالسين هناك الذين كانوا يتمايلون بهدوء وهم يتأملون يراعات الفصل الأولى تتحرك في ثنايا الغسق بشكل ساحر، كانت تشغل عقولهم قضايا خطيرة، وأملت السيدة ميد ويدها على ذراع ابنها فل، أن يكون الطبيب مصيباً، إذ كانت تعرف أن فل لا بد أن ينخرط في

الحرب إذا ما أضحت على الأبواب، فلقد كان في السادسة عشرة من عمره الآن، كما كان عضواً في الحرس الوطني.

أما فاني إلسينغ، التي شحب لونها وغارت عيناها منذ واقعة غتيسبورغ، فكانت تحاول إبعاد تفكيرها عن الصورة الممضّة التي حفرت أخدوداً في عقلها المُرهَق خلال بضعة الشهور المنصرمة - إذ توفي الملازم دلاس ماكلور في عربة ثور رجراجة تحت المطر، أثناء التراجع الطويل المرعب إلى ميريلاند.

وكان الكابتن كاري أشبورن قد عاود الألم ذراعه العطيل. كما كان بالإضافة إلى ذلك، متكدراً لأن مغازلته لسكارلت كانت قد انقطعت ورغم أن هذا الانقطاع بدا منذ ورود نبأ اعتقال آشلي، فإنه لم يخطر في باله الربط بين الحادثين. كانت ميلاني وسكارلت كلتاهما تفكران في آشلي، شأنهما دائماً، عندما لا تصرفهما مهمات مستعجلة أو ضرورة متابعة حديث. وكانت سكارلت تفكر بمرارة وأسف في أنه لا بد أن يكون ميتاً، وإلا لسمعن عنه شيئاً. أما ميلاني فكانت تحدّث نفسها وهي تطرد هواجس الخوف مرة بعد مرة: «لا يمكن ان يكون ميتاً، وإلا لعلمت بالأمر، ولأحسست بأنه قضى».

وأما ريت باتلر فكان يسترخي في الظلال، وساقاه الطويلتان، بجزميتهما البديعتين، متشابكتان بشكل لامبالٍ، ووجهه الأسمر صفحة خالية لا تقرأ، وعلى ذراعيه يغفو ويد رضي البال حاملاً في يده الصغيرة ترقوتي[1] ديك نظيفتين. وكانت سكارلت تسمح لويد دائماً أن لا ينام مبكراً عند زيارة ريت، لأن هذا الطفل الحيي كان مولعاً بذلك

---

(1) عظمتان بين ثغرة النحر والعاتق تشكلان طرفي مثلث، ومن العادة أن يشد بكل طرف صاحب رغبة حتى تكسر العظمتان في مكان، والذي يظفر بالقطعة الكبرى فمن حقه أن تتحقق رغبته - (المترجمان).

الغريب، كما كان ريت بدوره، وبشكل مستغرب، مولعاً بويد. بيد أن سكارلت كان يزعجها وجود ويد بصفة عامة، ولكنه كان يسلك دائماً سلوكاً حسناً بين يدي ريت. وأما العمة بيني فكانت تحاول جاهدة منع نفسها من التجشؤ، لأن الديك الذي تناولوه على العشاء كان طائراً مسناً قاسي اللحم.

ففي ذلك الصباح، توصلت العمة بيتي إلى القرار المؤلم القاضي بأن من الأفضل لها ذبح الديك، قبل أن تنفق روحه من جرّاء طعنه في السن، وذويه على زوجه التي التُهمت منذ زمن طويل، فقد مضت عليه أيام وهو يتسكع مترنحاً في حوش الدجاج الفارغ، كئيباً مستخذياً، بحيث لا يقوى على الصياح. وبعد أن قصف العم بيتر رقبته، وخز العمة بيتي ضميرها حين فكرت في أن التلذذ بأكله سيكون مقصوراً عليها وعلى عائلتها، في الوقت الذي لم يذق فيه عدد كبير جداً من أصدقائها طعم الدجاج منذ أسابيع. ولذا اقترحت دعوة جماعة على العشاء. وكانت ميلاني، التي هي الآن في شهرها الخامس، قد انزوت عن المجتمعات، وامتنعت عن استقبال الضيوف منذ أسابيع، ولذلك هالتها الفكرة، ولكن العمة بيتي أصرت للمرة الأولى على رأيها، إذ رأت أن من الأنانية أن تنعم بالديك من دون أصدقائها، وأن ميلاني إذا ما رفعت طوق فستانها إلى الأعلى قليلاً، فلن يلحظ أحد أنها حبلى، ولا سيما أنها مستوية تماماً عند الصدر.

- «ها، ولكن يا عمتي، أنا لا أريد مقابلة الناس في الوقت الذي فيه آشلي...».

- «ليس الأمر كما لو أن آشلي قد... قد قضى» قالت العمة بيتي، وصوتها يرتعد، إذ كانت تؤمن في قرارة نفسها أن آشلي لفظ أنفاسه الأخيرة. «إنه حي تماماً مثلك، وسينعش روحك وجود الأصدقاء، وسوف أدعو فاني إلسينغ أيضاً، فقد التمست مني السيدة

إلسينغ أن أقوم بعمل ما لرفع معنويات ابنتها، وحثها على الظهور أمام الناس».

- «ولكن يا عمتي، من الظلم إرغامها على ذلك، في الوقت الذي لم يمضِ على وفاة دلاس. . . ».

- «والآن يا ميلي، سأصرخ حنقى إذا ناقشتني. أظن أني عمتك وأني أعرف مواضع الأمور، وأريد إقامة مأدبة».

وهكذا أقامت العمة بيتي مأدبتها، وفي الدقيقة الأخيرة، جاء البيت ضيف لم تكن تتوقعه، أو ترغب في حضوره. فبينما كانت رائحة الديك المحمر تملأ البيت، قرع الباب ريت باتلر، عائداً من إحدى سفراته الغامضة، وتحت إبطه علبة كبيرة من الحلوى ملفوفة بورق مزخرف، وملء فمه تحيات لها ذات حدين. وعلى ذلك لم يكن في وسعها إلا دعوته للبقاء مع أنها كانت تعرف كيف ينظر إليه الطبيب ميد والسيدة قرينته، وأي شعور عدائي تكنّه فاني للذين لا يرتدون البزة العسكرية. ولم يكن آل ميد وآل إلسينغ ليتحدثوا إليه في الطريق العام، ولكن في منزل صديقة لهم كان عليهم طبعاً أن يتصرفوا بأدب نحوه. وعلاوة على ذلك فإنه أضحى اليوم أقوى مركزاً من أي وقت مضى تحت حماية ميلاني، السريعة التأثر. فبعد أن توسط للحصول على أنباء زوجها، أعلنت أمام الملأ أن بيتها مفتوح له ما دام حياً يُرزق، من دون أي اعتبار لما يقوله الناس عنه. على أن مخاوف العمة بيتي سكنت عندما رأت ريت يتصرف بأحسن ما عنده من أخلاق. ولقد كرس نفسه لرعاية فاني رعاية حدب وعطف، ما جعلها تبش في وجهه، وهكذا تمّت الوليمة بنجاح.

كانت وليمة فاخرة تليق بأمراء، فقد جلب كاري أشبورن قليلاً من الشاي، كان قد وجده في كيس تبغ لأسير شمالي وهو في طريقه إلى أندرسونفيل، فحظي كل من المدعوين بفنجان شاي مطعَّم بقليل من

التبغ. وكذلك خص كلٌّ منهم مقدار لقمة من الطائر المسن القاسي اللحم، ومقدار مناسب من الفطائر المنوعة من دقيق القمح، والمنكهة بالبصل، وصحن من الحمص، وكمية من الأرز والمرق، الذي كان عنصر الماء غالباً فيه نظراً إلى عدم وجود دقيق يكثفه. وكحلوى بعد الطعام قدمت فطائر من البطاطا الحلوة، تلتها سكاكر ريت. وعندما قدم ريت سجائر هافانية حقيقية للسادة، كي يضيف إلى متعتهم بكؤوس خمر العليق، وافق الجميع على أن المأدبة مأدبة لوكولية[1].

وعندما قام الرجال ليجلسوا مع السيدات في الشرفة الأمامية، اتجه الحديث إلى الحرب، وكان الحديث يتجه دائماً نحو موضوع الحرب في هذه الأيام، فكل الأحاديث، مهما اختلفت موضوعاتها، كانت تعود إليها وتصدر عنها - مغمّة بعض الأحيان، مفرحة في الغالب - إلا أنها دائماً تحتوي الحديث عن الحرب، خوارق الحرب، أعراس الحرب، الوفيات في المستشفيات والجبهات، الوقائع في المعسكرات والمعارك خلال الزحف، أخبار البطولة والجبن، روح المرح والحزن، واليأس والأمل، الأمل الذي كان دائماً رائد القوم، الأمل الوطيد الذي لم يتزعزع رغم هزائم الصيف الماضي.

وعندما أعلن الكابتن أشبورن أنه التمس أن ينتقل من أتلانتا إلى الجيش في دالتون، وأنه أجيب إلى التماسه، رمقت السيدات ذراعه المتيبسة بحنوٍّ زائد، وحقن كبريائهن بقولهن إنه لا يستطيع الذهاب، فمن سيلاطفهن من بعده؟

وبدا الارتباك والسرور على كاري الفتي إثر سماع عبارات كهذه من زوجات متزنات، كالسيدة ميد وميلاني والعمة بيتي وفاني. وعلل نفسه بالأمل في أن تكون سكارلت تعني ما قالته.

---

(1) نسبة إلى القنصل الروماني لوكولس المشهور بغناه وحياته المترفة - (المترجمان).

- «على كل حال، سيعود عاجلاً» قال الطبيب، واضعاً يده على كتف كاري، «فلن يتطلب الأمر أكثر من مناوشة قصيرة ليتداعى الشماليون، متقهقرين إلى تنيسي، وعندما يبلغونها سيكرمهم الجنرال فورست. وليس من داعٍ لفزعكن بسبب قرب الشماليين أيتها السيدات، لأن الجنرال جونستونْ وجنوده يرابطون هنالك في الجبال، كمتراس حديدي، أجل متراس حديدي» وكرر جملته الأخيرة ليبهر عباراته، ثم أردف، «لن يمر شيرمان، لن يزحزح جو الكبير أبداً».

فابتسمت السيدات مغتبطات، لأن أقل تصريح من الطبيب كان يؤخذ كحقيقة مقررة. هذا فضلاً عن أن الرجال يفهمون هذه الأمور أفضل بكثير من النساء، فإذا قال إن الجنرال جونستون كان متراساً حديدياً، فلا بد أن يكون الواقع كذلك. ولم يتكلم أحد سوى ريت الذي كان قد أخلد إلى الصمت منذ العشاء وجلس في ظلال العتمة الخفيفة يصغي إلى حديث الحرب بشفتين متدلّيتين إلى أسفل، وهو يسند الطفل النائم إلى كتفه: «أظن أن الشائعات ذكرت أن شيرمان يقود أكثر من مئة ألف رجل، بعد أن وصلته النجدات؟».

فأجابه الطبيب باقتضاب، وكان يعاني انفعالاً نفسياً منذ دخل البيت، ورأى أن أحد المدعوين إلى العشاء هو هذا الرجل الذي يمقته من كل قبله، ولم يمنعه من إظهار شعوره نحوه بصورة أوضح إلا احترامه للسيدة بيتي بات، ووجوده ضيفاً تحت سقف منزلها.

- «نعم يا سيدي؟» أجاب الطبيب وفي جوابه مسحة من تأنيب.

- «أظن أن الكابتن أشبورن قال منذ هنيهة فقط إن الجنرال جونستون يقود حوالى أربعين ألفاً فقط، حاسباً من ضمنهم الفارّين الذين شجعوا على العودة إلى ألويتهم، بتأثير النصر الأخير».

- «سيدي» قالت السيدة ميد ساخطة، «لا يوجد فارّون في جيش الحلف».

- «أرجو عفوك» قال ريت بتواضع ساخر، «قصدت أولئك الألوف الذين هم في إجازاتهم والذين نسوا العودة إلى فصائلهم، وأولئك الذين التأمت جراحهم منذ ستة أشهر، ولكنهم ظلوا في بيوتهم، يقومون بأعمالهم المعتادة، أو يكدحون بحراثة الربيع».

وبرقت عيناه بينما عضّت السيدة ميد شفتها مغتاظة، وتمنّت سكارلت أن تقهقه فرحاً لاندحارها إذ إن ريت انتصر عليها بجدارة، فقد كان يوجد حقاً مئات من الرجال متوارين في الأهوار والجبال، يتحدون رئيس الحرس أن يعيدهم إلى الجيش. إنهم من أولئك الرجال الذين صرحوا بأنها «حرب ينال جناها الغني ويصطلي بنيرانها الفقير»، وقد تجرعوا كأسهم المترعة منها. بيد أن ممن يفوق هؤلاء عدداً بدرجة كبيرة، أولئك الرجال الذين رغم ظهور أسمائهم على قوائم الفارّين، لم يكن في نيّتهم التهرب الدائم. لقد كانوا من أولئك الذي انتظروا إجازاتهم عبثاً خلال ثلاث سنوات، وبينما هم ينتظرون، تلقّوا رسائل مكدرة من عيالهم تقول: «نحن جائعون، لن ننعم بمحاصيل هذه السنة، فليس هنالك أحد يفلح الأرض. إننا جائعون»، وأخرى تقول: «إن فرقة التموين قد جرّدتنا من الخنانيص ولم نتسلَّم نقوداً منكم منذ شهور، إننا نعيش على الحمص الجاف».

وراح النغم المثير يتعالى: «نحن جائعون، زوجتك، أطفالك ووالداك. متى ستنتهي الحرب؟ متى ستعود إلى البيت؟ إننا جائعون، جائعون حقاً».

ولذا عندما رُفِض منح الإجازات من الجيش الذي كان يتضاءل عدده باطراد، عاد هؤلاء الجنود إلى بيوتهم من دون إجازات، عادوا ليحرثوا أراضيهم ويزرعوا حبوبهم ويرمّموا بيوتهم ويقيموا أسيجتهم. وعندما كان يدرك ضباط الفصائل، العارفون ببواطن الأمور، قرب نشوب قتال ضار، كانوا يكتبون لهؤلاء الرجال يدعونهم إلى العودة

والالتحاق بفصائلهم على أن لا يسألوا أيما سؤال يتعلق بتغيبهم. وكان الرجال في العادة يلبّون دعوة ضباطهم عندما يرون أن شبح الجوع قد ابتعد عن ذويهم لعدة شهور أخرى. ولم يكن ينظر إلى «إجازات الفلاحة» هذه بالمنظار ذاته الذي يُحاسَب في ضوئه الفارّون من وجه العدو، إلا أنها كانت تُضعِف الجيش على كل حال.

أسرع الدكتور ميد، وقطع فترة الصمت المقلقة بصوت هادئ:

- «كابتن باتلر، إن الفرق العددي بين جنودنا وجنود الشماليين لم يؤثر في يوم ما، فحلفيٌّ واحد يوازي اثني عشر شمالياً».

وأطرقت النساء موافقات، إذ إن كل فرد كان يعلم ذلك.

- «كان ذلك حقيقة في بدء الحرب» قال ريت، «وربما لم يزل حقيقة، شريطة أن يكون في حوزة الجندي الحليف رصاص لبندقيته، وحذاء لقدميه، وطعام لمعدته. أليس كذلك يا كابتن أشبورن؟».

كان صوته ما زال ناعماً مفعماً بتواضع غرار. وبدا الاستياء على وجه كاري أشبورن، إذ كان من الجلي أنه يمقت ريت بقوة. وكان يرغب، عن طيبة خاطر، دعم موقف الطبيب، ولكنه لم يستطع الكذب، فالسبب الذي من أجله التمس النقل إلى الجبهة، رغم ذراعه المشلولة، كان إدراكه لخطورة الوضع، الأمر الذي لم يدركه الأهلون هنا بعد. وكان هناك رجال آخرون يتوكأون على عكاكيز خشبية وبعين واحدة وأصابع مبتورة، وذراع واحدة، ينتقلون من دون ضجيج من فرقة التموين وخدمة المستشفى ومصلحة البريد والسكك الحديد، ينتقلون ثانية إلى وحداتهم القتالية الأولى، إذ كانوا يدركون أن جو الكبير كان في حاجة إلى كل رجل.

ولم يتكلم كاري، وثارت ثائرة الطبيب ميد مرعداً:

- «لقد حارب رجالنا من دون أحذية قبلاً، ومن دون طعام، وانتصروا وسوف يحاربون ثانية وينتصرون. قلت لك إن الجنرال

جونستون لا يمكن أن يزعزع. لقد كانت قلاع الجبال دائماً الملجأ الأمين، والحصن المنيع للشعوب المغزوة، المدافعة عن كيانها، منذ القِدم. فكر في - فكر في ترموبلي!».

وأعملت سكارلت فكرها في نشاط، ولكن ترموبلي لم تعنِ شيئاً لها.

- «لقد فنوا عن آخرهم في ترموبلي، أليس كذلك يا دكتور؟» قال ريت وشفتاه تختلجان بضحكة مكتومة.

- «هل أنت تهينني أيها الشاب؟».

- «دكتور! أرجوك! لقد أسأت فهمي، إني أسأل للاستيضاح فقط، فذاكرتي ضعيفة فيما يتعلق بالتاريخ القديم».

- «إذا ما احتاج الأمر فسيموت جنودنا حتى الرجل الأخير، قبل أن يَدَعوا الشماليين يتوغلون في جورجيا»، قال الدكتور محتداً، «بيد أن ذلك لن يقع، سيطردونهم خارج جورجيا بعد مناوشة واحدة».

نهضت العمة بيتي بات بسرعة، طالبة من سكارلت تكريم الضيوف بعزف مقطوعة مختارة على البيانو، ترافقها أغنية. لقد أدركت أن الحديث يتجه سريعاً نحو زوبعة عاصفة عاتية، وهي التي كانت متأكدة من حدوث المتاعب إذا ما دعت ريت إلى العشاء، فالمتاعب دائماً تلازم وجوده، أما كيف يخلقها، فلم تكن تعلم ذلك بالضبط. يا للّه، ماذا تجد سكارلت في هذا الرجل؟ وكيف يسع ميلاني العزيزة الدفاع عنه؟

وبينما دخلت سكارلت الردهة، ملبّية الطلب، خيّم السكون على الشرفة، سكون ينبض بالامتعاض من ريت. كيف يمكن لإنسان ألّا يؤمن قلباً وروحاً أن الجنرال جونستون ورجاله لا يُقهَرون؟ فالإيمان بذلك كان واجباً مقدساً. أما أولئك الذين بلغت خيانتهم حداً انتفى

معه الإيمان، فينبغي على الأقل أن يتذرعوا بالوقار، ويخلدوا إلى الصمت.

وضربت سكارلت على أوتار قليلة، وانساب صوتها نحوهم عبر الردهة، عذباً، حزيناً... في كلمات أغنية شائعة محببة:

«في ردهة ذات جدران بيضاء،
حيث يضطجع الموتى والمحتضرون
وجرحى الحراب والقنابل والبندق،
ولد يوماً حبيب إنسان.
حبيب إنسان! في شرخ الشباب، وذروة الشجاعة!
ما زال يزهو في وجهه العذاب الشاحب -
الذي سيوارى سريعاً تراب القبر -
الضوء الشعشاع لنضرة صباه»

وما إن أتت نغمة سكارلت الموجعة على «وخصلات شعره الذهبية، باهتة رطبة» حتى قامت فاني بنصف انتصابة، وقالت بصوت خافق مخنوق:

- «أنشدينا أغنية أخرى».

وفجأة توقّف العزف، عندما بهتت سكارلت بفعل المفاجأة والحيرة، ثم أسرعت متلعثمة بمطلع «المعطف الرمادي»، ووقفت فجأة عندما تذكرت أن تلك القطعة تقضّ القلب أيضاً. وثانية توقّف العزف، لأن الضياع اكتنفها تماماً. فكل الأغاني تمتّ إلى الموت والفراق والعذاب.

ونهض ريت بخفة، ناقلاً ويد إلى حضن فاني، وسار نحو الردهة.

- «اعزفي يا موطني القديم في كنتاكي»، اقترح بلطف.

فشرعت سكارلت شاكرة، ورافق صوتها صوت ريت الخفيض

الممتاز. وعندما انتقلا إلى المقطع الثاني، تنفس الذين في الشرفة الصعداء، مع أن اللّه يعلم أنها لم تكن أغنية مفرحة كذلك:

«أيام قليلة فقط، تحمل فيها العبء المرهق!
ومع ذلك لن يخف عبؤك أبداً!
أيام قليلة فقط... حتى نسقط في الطريق!
وعندئذ أقول مودعاً: عم مساء يا موطني القديم في كنتاكي!».

* * *

صدقت نبوءة الطبيب ميد - حتى المدى الذي ذهبت إليه، فقد صمد جونستون كمتراس حديدي في الجبال المشرفة على دالتون، على بعد مئة ميل. صمد بمنتهى الثبات، وقاتل قتالاً مريراً ضد شيرمان الذي كان يهدف إلى عبور الوادي نحو أتلانتا، بحيث أرغم الشماليون أخيراً على التراجع والتشاور فيما بينهم. وإذ أدركوا أنهم يستطيعون اختراق الصفوف الرمادية بهجوم مباشر، زحفوا تحت جنح الليل، عبر الممرات الجبلية، في خط نصف دائري، آملين الانقضاض على مؤخرة جونستون وقطع سكة الحديد خلفه، عند رساكا، التي تبعد خمسة عشر ميلاً جنوب دالتون.

وما إن أحدق الخطر بتلك السكة الحديد القيّمة حتى أخلى الحلفيون خنادقهم التي استماتوا في الدفاع عنها، واندفعوا تحت ضوء النجوم في مسيرة قصيرة إلى رساكا، فوق الطريق الرأسية القصيرة. وعندما انقضّت عليهم جموع الشماليين من بين التلال، كانوا في انتظارهم مخندقين خلف متاريسهم، مدفعيتهم مثبتة، وحرابهم متوهجة، تماماً كما كانوا في دالتون.

وعندما حمل الجرحى القادمون من دالتون أخباراً مشوَّهة عن تقهقر جو الكبير إلى رساكا، أجفل سكان أتلانتا وأصابهم بعض

القلق، وبدا كأن سحابة سوداء صغيرة ظهرت في الشمال الغربي، أول سحابة من عاصفة صيفية. فيمَ كان يفكر الجنرال وهو يدع الشماليين يتوغلون إلى عمق ثمانية عشر ميلاً في جورجيا؟ إن الجبال حصون طبيعية، تماماً كما قال الدكتور ميد، فلماذا إذن لم يصد الجنرال جو الشماليين هناك؟

استمات جونستون في القتال عند رساكا، وطرد جنود الشمال ثانية. على أن شيرمان، معتمداً حركة الالتفاف ذاتها، طوَّح بجيشه الكبير في نصف دائرة أخرى، عابراً نهر الأوستانولا، مهاجماً مرة ثانية سكة الحديد في مؤخرة الحلفيين. وثانية استنفر الجنود الرماديون من خنادقهم الحمراء، ليحموا الخط الحديدي. وهكذا، منهوكين من قلة النوم، منزوفي القوى من جرّاء السير والقتال، جائعين، جائعين كعادتهم دائماً، قاموا بمسيرة سريعة أخرى بمحاذاة الوادي، وبلغوا مدينة كالهون الصغيرة، على بُعد ستة أميال جنوب رساكا. وهناك أمام الشماليين، خندقوا وتأهبوا لهجوم العدو فور ظهوره. وحان الموعد، ودارت مناوشة عنيفة، رُدَّ الشماليون على أثرها إلى الوراء. وانطرح الجنود أرضاً بأسلحتهم مرهقين داعين اللّه من أجل مهلة من وقت يرتاحون فيها، قاذفاً جيشه حولهم في التفافة كبيرة وأرغمهم على تقهقر آخر، ليدافعوا عن سكة الحديد في مؤخرتهم.

سار الحلفيون وقد أسرهم النوم وأخذ منهم التعب كل مأخذ، بحيث لم يسع معظمهم التفكير، ولكن حين كانوا يُعمِلون فكرهم، كانوا يطمئنون لقائدهم الهرم جو. كانوا يعرفون أنهم يتقهقرون، بيد أنهم يعرفون أيضاً أنهم لم يغلبوا، وإنما فقط لا يمكلون من الرجال ما يكفي للمحافظة على خطوطهم وإحباط حركات شيرمان الالتفافية. إن في مقدورهم، وهذا ما جرى فعلاً، دحر الشماليين في كل مرة يشتبكون معهم في قتال، إلا أنهم لا يعرفون ماذا ستكون نهاية هذا

التراجع. أما جو الكبير فيعرف ماذا يفعل، وهذا كافٍ بالنسبة إليهم. لقد قاد التراجع وفق خطة باهرة، فلم يخسروا إلا قليلاً من الرجال، بينما بلغ عدد القتلى والأسرى من جنود الشمال حداً كبيراً. كذلك لم يخسروا عربة واحدة، ولم يخسروا الخط الحديدي خلفهم وكل ما خسروه أربعة بنادق فقط. وهكذا، فرغم جميع هجمات شيرمان على الجبهة، وانقضاضات فرسانه، وحركاته الالتفافية، لم يستطع احتلال موطئ قدم من الخط الحديدي: سكة الحديد! إنها لا تزال سكتهم، ذلك الخط الحديدي الضيق المتعرج خلال الوادي المشمس، نحو أتلانتا. وتهاوى الرجال نياماً، حيث استطاعوا رؤية القضبان تلمع لمعاناً خفيفاً في ضوء النجوم. وتهاوى غيرهم أمواتاً، وكان آخر ما صافح عيونهم البهيرة، منظر القضبان تتلألأ في الشمس العديمة الرحمة، والحرارة تتوهج منها.

وبينما هم ينحدرون عبر الوادي، انحدر أمامهم جيش من اللاجئين: مزارعون وأجلاف، أغنياء وفقراء، سود وبيض، نساء وأطفال، رجال وعجزة، محتضرين وكسحان وجرحى، نساء في آخر فترة الحمل. جميع هؤلاء غصت بهم الطريق إلى أتلانتا، في القطارات، على الأقدام، فوق ظهور الخيل، في العربات، وفي الشاحنات المكدسة إلى أعاليها بالحقائب ومتاع الأفراد. وعلى بُعد أميال أمام الجيش المتقهقر، سار اللاجئون متوقفين في رساكا، وفي كالهون، ثم في كانفستون، آملين عند كل وقفة، أن يسمعوا أن الشماليين دحروا، كي يستطيعوا العودة إلى منازلهم. ولكن لم تجرِ مطاردة فوق تلك الطريق المشمسة، ومر الجنود الرماديون بالدور الشاغرة، والمزارع المهجورة، والغرف المعزولة، وقد فتحت أبوابها قليلاً. وكانت قد تخلفت هنا وهناك، امرأة وحيدة بصحبة بضعة زنوج مذعورين، هرعوا إلى الطريق ليحيّوا الجنود، وليجلبوا دلاء من مياه

الآبار للرجال الظامئين، وليضمّدوا الجراح ويدفنوا الموتى في مدافن عائلاتهم. بيد أن معظم الوادي المشمس كان مهجوراً موحشاً، وقد انتشرت الفلال التي ليس هناك من يرعى أمورها، في الحقول اللافحة الحر.

وحدثت حركة التفاف أخرى عند كالهون، تراجع جونستون إثرها إلى أديرسفيل، حيث وقعت مناوشات حامية، ثم إلى كاسفيل، ثم جنوب كارترسفيل. فيكون العدو قد تقدم بذلك خمسة وخمسين ميلاً جنوب دالتون. وعند كنيسة «الأمل الجديد»، حفر الجنود الرماديون خنادقهم بقصد وقفة عنيدة، وتبعهم الجنود الزرق، بعزم لا يلين، كثعبان هائل، يتلوى ويضرب نافثاً سمومه، ساحباً أطواله الجريحة خلفه، ولكنه دائماً يضرب ثانية. ونشب قتال يائس عند كنيسة «الأمل الجديد»، قتال استمر أحد عشر يوماً. وكل هجمة شمالية فيه كانت ترتد دامية. إلا أن جونستون تعرّض لتطويق جديد، فسحب صفوف جيشه المتضائل أميالاً قليلة إلى الوراء.

بلغ عدد القتلى والجرحى الحلفيين في معركة الكنيسة عدداً كبيراً وتدفق المصابون إلى أتلانتا في قطارات عارمة، وارتاع الناس، إذ لم ترَ مدينتهم قبلاً، حتى إثر معركة شيكاموغا، هذا العدد المخيف من الجرحى. فضاقت المستشفيات بقادميها، ومدد الرجال على أرض المخازن الشاغرة، وفوق بالات القطن في المستودعات. كل الفنادق وبيوت الإيجار، والمساكن الخاصة، ازدحمت بالمقاسين، ونالت العمة بيتي نصيبها رغم أنها احتجت بقولها من غير اللائق مطلقاً، نزول رجال غرباء في البيت، وميلاني في وضع حساس، والمناظر البشعة قد تؤدي إلى ولادة في غير أوانها. ولكن ميلاني رفعت طوقها العلوي قليلاً، لتحجب تضخم هيكلها، ثم غزا الجرحى البيت، وقام العمل على قدم وساق، طبخ دائم، ورفع ولفٌّ وتهوية بصورة مستمرة،

ساعات لا تنتهي في الغسل، وفي لف الأربطة ثانية، وفي تنقية نسالة الكتان، وليال حارة ليس لها آخر، انقضت بلا نوم، من جرّاء الحمى الهاذية التي تنتاب الرجال في الغرفة المجاورة. وأخيراً لم تتمكن المدينة الغاصة من الاعتناء بأكثر مما حشر فيها، فأرسل فيض الجرحى إلى المستشفيات في ميكون وأوغستا.

بهذا العبء الذي خلّفته المعركة، من الجرحى الحاملين أخباراً متضاربة، ومن ارتفاع عدد اللاجئين المذعورين، المزدحمين في المدينة المزدحمة قبلاً، عمَّ أتلانتا قلق صاخب. لقد امتدت السحابة الصغير في الأفق سريعاً، فأضحت سحابة كبيرة مربدة عاصفية كأن ريحاً خفيفة قارّة تهبّ منها.

لم يفقد أحد ثقته بمناعة الجنود، ولكن الجميع، والمدنيين على الأقل، فقدوا ثقتهم بالجنرال. إن كنيسة «الأمل الجديد» تبعد خمسة وثلاثين ميلاً فقط عن أتلانتا، لقد ترك جنود الشمال يدحرونه خمسة وستين ميلاً في ثلاثة أسابيع. لماذا لم يوقفهم بدلاً من التراجع المستمر؟ لقد كان غبياً، وأسوأ من غبي، وها هم عجزة بلحى شائبة من رجال الحرس الوطني وأعضاء في ميليشيا الولاية يؤكدون أن في وسعهم إدارة العمليات بشكل أفضل، راسمين الخرائط الحربية على شراشف الطاولات، ليبرهنوا مزاعمهم.

وعندما تضاءل عدد جنوده، وأُجبِر على مزيد من التراجع، استنجد الجنرال مستميتاً بالحاكم براون، يطلب هؤلاء الرجال ذاتهم. ولكن جنود الولاية كانوا يشعرون بالأمان إلى حد معقول، بالإضافة إلى أن الحاكم كان قد رفض بإصرار طلب رجاله من قبل جف ديفيس. فلماذا يتعيَّن عليه الموافقة على طلب الجنرال جونستون؟

قتال وتراجع! قتال وتراجع! وخلال مسافة سبعين ميلاً، ولمدة خمسة وعشرين يوماً، والحلفيون يخوضون قتالاً كل يوم تقريباً. وهكذا

أضحت كنيسة «الأمل الجديد» خلف الجنود الرماديين الآن، مجرد ذكرى يصحبها انذهال جنوني، كمثيلاتها من الذكريات، ذكرى حرارة وغبار، جوع وإنهاك، خطو وئيد فوق الطريق المحفوفرة الحمراء، خوض بطيء خلال الوحل الأحمر، تقهقر ثم حرب خنادق - تقهقر ثم حفر خنادق فحرب. لقد كانت كنيسة «الأمل الجديد» تمثل حلماً رهيباً عن حياة أخرى. وهكذا كانت وقعة بيغ شانتي، حيث ارتدوا وقاتلوا الشماليين كالشياطين. ولكن، رغم نزالهم المستمر للشماليين، ذلك النزال الذي لوَّن الحقول بالزرقة لكثرة قتلاهم، فإنه كان ينبع دائماً شماليون جدد، شماليون آخرون. كان يرتسم دائماً ذلك الخط المنحني المشؤوم من الجنود الزرق، المتجه نحو مؤخرة الحلفيين، نحو سكة الحديد - ونحو أتلانتا.

من بيغ شانتي تقهقر الجنود المنهوكون الذين لم يذوقوا طعم النوم، على الطريق جنوباً إلى جبل كنيساو، قرب بلدة مارينا الصغيرة، حيث انتشروا في خط منحنٍ يبلغ عشرة أميال طولاً، حافرين خنادقهم على سفوح الجبل الشديد الانحدار، مثبتين مدافعهم على قممه الشاهقة، تلك المدافع الثقيلة التي جرّها الرجال على المنزلقات الخطيرة الانحدار، بنفوس برمة، نزقة، ناقمة، وبوجوه تتصبب عرقاً. إذ لم يكن في وسع البغال تسلق السفوح. وكان الجرحى والرسل الوافدون إلى أتلانتا ينقلون أخباراً مطمئنة إلى أهل المدينة، المنذعرين، أن مرتفعات كنيساو منيعة لا تُقهَر، وهكذا الحال مع جبل باين، وجبل لوست، القريبين، واللذين حصنا أيضاً. لن يستطيع جنود الشمال زحزحة رجال جو الكبير عن أماكنهم، وقد لا يقوون على تطويقهم الآن، لأن المدافع المثبتة على قمم الجبال، تسيطر على كل الطرق لمسافة أميال. وهكذا تنفست أتلانتا الصعداء، ولكن - ولكن جبل كنيساو كان على بُعد اثنين وعشرين ميلاً فقط منهم!

وفي اليوم الذي وصل فيه المدينة أول فوج من جرحى جبل كنيساو، وقفت عربة السيدة ميريويذر على باب العمة بيتي، في الغداة، الساعة السابعة، وبعث العم ليفي الأسود بكلمة تقضي بأن ترتدي سكارلت ثيابها فوراً استعداداً للذهاب إلى المستشفى.

وعلى المقعد الخلفي داخل العربة، كانت فاني إلسينغ، وبنات بونل، وقد نهضن من نومهن باكراً، يتثاءبن نعسات، بينما جلست مربية آل إلسينغ على الصندوق، وكأنها غير موجودة، وعلى حجرها سلة من الضمادات المغسولة حديثاً.

وغادرت سكارلت البيت كارهة، لأنها كانت قد رقصت حتى فجر الليلة الماضية في حفلة الحرس الوطني، فكانت قدماها تعبتين. ودون أن تحرك شفتيها، لعنت السيدة ميريويذر، القديرة التي لا تكل، والجرحى وكل الحلف الجنوبي، بينما كانت برسي تزرر لها أعتق وأبلى فساتينها الخامية، الفستان الذي تستعمله لمهام المستشفى. وبعد أن ارتشفت جرعات البيرة المرة المصنوعة من قمح مشيط، مع البطاطا الحلوة التي تقدم مع القهوة عادة، خرجت لتلحق بالبنات.

كانت قد سئمت من كل هذا التمريض، وفي هذا اليوم بالذات كانت ستخبر السيدة ميريويذر أن إيلين كتبت لها تدعوها إلى البيت، في زيارة. وقد أفادتها الخطة كثيراً، إذ إن تلك السيدة الجليلة، المشمّرة عن ساعديها، والتي غاب جسدها القوي داخل ثوب فضفاص، رمقتها بنظرة حادة، قائلة: «لا تدعيني أسمع سخافات كهذه بعد اليوم يا سكارلت هاملتون. سأكتب لأمك اليوم، وأخبرها شدة حاجتنا إليك، وأنا واثقة بأنها ستقدر الوضع وتسمح لك بالبقاء. والآن البسي دثارك، وهرولي إلى الدكتور ميد، فهو يحتاج إلى من يساعده في التضميد».

«آه، يا إلهي!» فكرت سكارلت مغمومة، «تلك هي المشكلة بعينها، أمي ستدعني أمكث هنا، وأنا سوف أموت إذا أرغمت على

شم هذه الروائح العفنة بعد اليوم. آه لو كنت امرأة مسنة، لكان في وسعي أن أتحكم بالصبايا بدلاً من أن يستبد بي، وأن آمر العجائز الحقودات كالسيدة ميريويذر ليذهبن إلى هاليفاكس!».

أجل، كانت قد سئمت من المستشفى، من الروائح العفنة، من القمل، من الأنين والأجسام القذرة. وإذا كانت هناك أية جِدَّة مثيرة، أو لذة حول التمريض، فقد تلاشت منذ سنة، علاوة على أن هؤلاء الرجال الجرحى ليسوا جذابين كأسلافهم. إنهم لا يُظهِرون أدنى اهتمام بها، ولا يضيفون إلا بضع كلمات بعد: «كيف يدور القتال؟»، «ماذا يفعل جو الكبير الآن؟»، «يا له من رجل ذكي قوي!». إنها لا تعتقد أن جو الكبير رجل ذكي قوي، فكل ما فعله هو أن ترك جنود الشماليين يتوغلون مسافة ثمانية وثمانين ميلاً في جورجيا. لا، إنهم ليسوا زمرة جذابة، وفوق ذلك، إنهم كانو يموتون، يموتون بسرعة، وبصمت، إذ لم يبقَ لديهم إلا قليل من قوة يقاومون بها تسمم دمائهم، والغنغرينا والتيفوئيد وداء الرئة، التي ألمّت بهم قبل أن يتمكنوا من بلوغ أتلانتا والوصول إلى الطبيب.

كان النهار حاراً، وتدفق الذباب من النوافذ المفتوحة، أسراباً أسراباً، ذباب خمول كبير، هدَّ معنويات الرجال في الوقت الذي عجز فيه الألم عن ذلك. وارتفعت موجة الروائح والأوجاع من حولها، وبلل العرق ثوبها المنشى حديثاً وهي تتنقل خلف الدكتور ميد والطشت في يدها.

آه من لعيان النفس ومحاولة منع التقيؤ حين تقف بجانب الطبيب وهو يقطع بسكينه اللامع اللحم الميت، وآه من الرعب القابض الناجم عن سماع الصراخ من قسم العمليات حيث تجري أعمال البتر، والمرضى! إنك تعدم وسيلة للشفقة، وأنت ترى الوجوه الشاحبة المتصلبة، لرجال مشوَّهين ينتظرون وصول الطبيب إليهم، رجال

امتلأت آذانهم بالصراخ، رجال ينتظرون الكلمات المريعة: «آسف يا بني، ولكن لا بد من بتر يدك. نعم، نعم، إني أعرف ذلك، ولكن انظر، ألا ترى هذه العروق الحمراء؟ لا بد من بترها».

كان الكلوروفورم قد أضحى نادراً جداً الآن، بحيث لم يعد يستعمل إلا في أسوأ حالات البتر، شأن الأفيون الذي غدا يستعمل فقط لتخفيف آلام الذين ينازعون سكرات الموت، لا الذين يعيشون مبرَّحين بأوجاعهم، وانقطع وجود الكينا واليود انقطاعاً تاماً.

أجل، لقد سئمت سكارلت من كل هذه الملمة، وتمنّت ذلك الصباح لو تحظى كميلاني بعذر الحمل، العذر الوحيد تقريباً الذي يقبل به المجتمع للتخلف عن التمريض هذه الأيام.

ما إن بلغت الشمس منتصف السماء، حتى نزعت دثارها، وتسللت من المستشفى، بينما كانت السيدة ميريويذر منهمكة في كتابة رسالة لجبليّ أميّ أخرق. لقد أحست سكارلت أن ليس في مقدورها تحمّل ذلك أكثر. إن هذا أمر مفروض عليها، وهي تعرف أنه عندما كان يأتي الجرحى في قطار الظهيرة، يتراكم العمل بحيث تظل منهمكة إلى الليل - ومن المحتمل أن تبقى من دون طعام طوال هذه الفترة.

مضت بسرعة فوق العبّارتين القصيرتين إلى شارع بيتشتري، تتنشق الهواء النقي، بجرعات كبيرة، على قدر ما يسمح لها مشدُّها الضاغط بقوة.

وقفت في الزاوية، مترددة في الخطوة التالية، خجلة من الذهاب إلى بيت العمة بيتي، ولكن مصمِّمة على عدم العودة إلى المستشفى. وبينما هي كذلك إذا بعربة باتلر تمر إزاءها يقودها باتلر نفسه.

- «إنك تشبهين ابنة متسول» قال وعيناه تتفحصان الثوب الخامي الأزرق المرقع، المبلل بخطوط من العرق، والملطخ هنا وهناك ببقع الماء الفائض عن الطست. وثارت سكارلت مرتبكة ساخطة. لماذا

يراقب دائماً ملابس السيدات، ولماذا أسف بهذه الوقاحة فعلّق على عدم أناقتها الحالية؟

- «لا أريد سماع كلمة منك. انزل وساعدني على الصعود، وقدني إلى مكان لا يراني فيه أحد. لن أعود إلى المستشفى حتى لو شنقوني! يا للّه، إني لم أشعل هذه الحرب، وأنا لا أرى أي سبب لإرغامي على العمل حتى الموت و -».

- «إنك خائنة لقضيتنا المجيدة!».

- «القِدر تُعيِّر الغلاية بالسواد! ساعدني على الدخول، لا يهمني أين كنت تقصد، فستحملني الآن، راكبة».

فطوَّح بجسده نحو الأرض، وعنَّ لها فجأة، وهي تتأمله، كم من المبهج أن ترى رجلاً سليم البنية، غير فاقد عينيه أو أضلاعه، وليس شاحباً بفعل الألم، أو أصفر اللون من جرّاء الملاريا، تبدو عليه النعمة، ويطفح بالصحة. وكان ريت بالإضافة إلى ذلك جيد اللباس للغاية، معطفه وسرواله من المادة ذاتها فعلاً، يناسبانه تماماً، بدلاً من أن يكونا مجمعين في طيات، أو ضيقين كثيراً، يعيقان الحركة، وكانا جديدين ليسا رثين ولا يبين خلالهما جلد عارٍ وسخ وساقان كثيفتا الشعر. وبدا كأن لا يعير الدنيا أدنى اهتمام، الأمر الذي كان في حد ذاته يدعو إلى الدهشة في هذه الأيام التي كانت تنطق فيها وجوه الرجال الآخرين بنظرات القلق والكآبة.

كان وجهه الأسمر أنيساً، وفمه ذو الشفتين الحمراوين، المبدعتين تماماً كشفتي أنثى، الصريحتين بالشهوة، يبتسم من دون اكتراث، وهو يرفعها إلى العربة.

وعندما دخل جالساً إلى جانبها، تبدت عضلات جسده الضخم من خلال تموُّج ثوبه الحسن الصنع، وكما يحدث دائماً، طرق تفكيرها كاللطمة موضوع قواه الجسدية الهائلة، فراحت تتأمل انتفاخ الثوب عند

كتفيه القويتين، بافتتانٍ مزعج، مرعبٍ قليلاً، إن جسده يبدو صلباً قاسياً كعقله الحاذق، في الوقت الذي يظهر فيه قوة مرنة رشيقة، وهو خامل كنمر متمدد في الشمس، يقظ كنمر يتأهب للوثب والبطش.

- «أيتها الخائنة الصغيرة!» قال ناهراً حصانه، «ترتعين طوال الليل مع الجنود، وتقدمين لهم الورود والشرائط، وتخبرينهم أنك تتمني الموت في سبيل القضية، وعندما يصل الأمر إلى تضميد بعض الجراح، وتنقية قليل من النسالة، تفرّين بسرعة».

- «ألا تستطيع التحدث عن شيء آخر، وتسرع في السواقة؟ سيكون من سوء طالعي تماماً أن يخرج غراندبا ميريويذر من مخزنه ويراني ويخبر العجوز - أعني السيدة ميريويذر».

فساط الفرس لمساً، وهرولت هذه خبباً عبر فايف بوينتس ثم عبر قضيبي السكة الحديد التي تشطر المدينة شطرين. وكان قطار الجرحى قد وصل الآن، وهرع حاملو المحفات يعملون في الشمس الحارة، ناقلين الجرحى إلى سيارات الإسعاف، والعربات العسكرية المغطاة.

لم تشعر سكارلت بتأنيب الضمير، وعينها تقع على المشهد أمامها، وإنما ساورها فقط شعور الفرح بالخلاص المؤكد، لأنها فرَّت من هذه الورطة.

- «إني ضجرة مرهقة، من ذلك المستشفى القديم» قالت مثبتة تنورتها المتموجة، رابطة شريط قبعتها، ربطاً أشد حزماً تحت ذقنها، «وكل يوم يتدفق المزيد من الجرحى. إن ذلك كله خطأ الجنرال جونستون، لو أنه فقط صمد في وجه الشماليين في دالتون، لكانوا -».

- «ولكنه صمد في وجههم أيتها الطفلة الجاهلة. ولو ظل واقفاً هناك لطوّقه شيرمان وسحقه بين جناحي جيشه، ولكان خسر الخط الحديدي، والخط الحديدي هو ما يحارب جونستون من أجله».

- «لا بأس»، قالت سكارلت، التي لا تفقه شيئاً من الاستراتيجية

العسكرية، «إنها غلطته على كل حال، كان عليه أن يفعل شيئاً في صدد ذلك، وأعتقد أنه ينبغي تنحيته. لماذا لم يصمد ويقاتل بدلاً من أن يتراجع؟».

- «أنت كالآخرين، تصيحين: «اقطعوا رأسه» لأنه لا يستطيع فعل المستحيل. لقد اعتُبر يسوع المخلص في دالتون، والآن يُعتبر يهوذا الخائن في جبل كنيساو. كل ذلك خلال ستة أسابيع فقط. أجل، دعيه يطرد الشماليين عشرين ميلاً إلى الوراء، وسيصبح يسوع ثانية. إن شيرمان يا طفلتي يملك ضعف رجال جونستون، وفي وسعه التضحية برجلين مقابل كل رجل من غلماننا الأفذاذ، بينما لا يسع جونستون التضحية برجل واحد. إنه في حاجة ملحة إلى النجدات، فما الذي يحصل عليه منها؟ إنه يحصل على «مدلّلي جو براون» فأي عون سيكونون له!».

- «هل ستستدعى الميليشيا حقاً؟ والحرس الوطني أيضاً؟ لم أسمع بذلك، كيف دريت؟».

- «هناك شائعة في هذا الخصوص، وصلت مع القطار القادم من ميلدجفيل هذا الصباح. كلا الميليشيا والحرس الوطني سيرسلون لنجدة الجنرال جونستون، أجل! مدللو الحاكم براون، من المحتمل أن يشموا رائحة البارود أخيراً، وأظن أن معظمهم ستذهله المفاجأة. من المؤكد أنهم لم يتوقعوا أبداً مجرد رؤية القتال، فقد بلغت طيبة الحاكم حداً وعدهم معه بذلك. واعتقدوا أنهم في حرز من القنابل، لأن الحاكم صمد حتى لجف ديفيس، رافضاً إرسالهم إلى فرجينيا، وقائلاً إن الدفاع عن الولاية في حاجة إليهم. ومن كان يفكر يوماً أن الحرب ستصل إلى ساحة بيوتهم الخلفية، وأن عليهم الدفاع عن ولايتهم حقاً؟».

- «آه، كيف يسعك الضحك أيها المخلوق القاسي؟! فكِّر في

السادة المسنين، والفتيان الصغار الذين في الحرس الوطني. كيف! فل ميد الصغير! سيضطر إلى الذهاب! وكذلك غراندبا ميريويذر، والعم هنري هاملتون!».

- «أنا لا أتكلم عن الفتيان الصغار، وعن الذين تضرسوا بالحرب المكسيكية. إني أتكلم عن الشبان الشجعان، أمثال ويلي غوينان، الذي يحب ارتداء البزات العسكرية الجميلة، وتلويح السيوف...».

- «وحضرتك!».

- «عزيزتي، هذ لا يضيرني مطلقاً، فأنا لا أرتدي بزة عسكرية ولا ألوِّح بالسيف، ومستقبل الحلف لا يعنيني شيئاً البتّة. علاوة على أني لا أريد أن أُقتل في صفوف الحرس الوطني أو في أي جيش آخر من أجل الحلف. لقد تعلمت الكثير من الأمور العسكرية في وست بوينت لتخدمني بقية عمري... ومهما كان الأمر، فإني أدعو لجو الكبير بالتوفيق، فالجنرال لي لا يستطيع إنجاده بأي عون لأن الشماليين يشاغلونه أبداً في فرجينيا... وهكذا فإن النجدات الوحيدة التي يقدر جونستون على الحصول عليها، هي جنود ولاية جورجيا. إنه يستحق مصيراً أفضل، لأنه عسكري عظيم، ماهر في وضع الخطط الحربية - إنه يستطيع دائماً احتلال المواقع قبل الشماليين، ولكن عليه أن يستمر في التراجع إذا ما أراد حماية الخط الحديدي. وانتبهي لكلماتي، عندما سيجلونه من الجبال نحو الأرض المغرية (الأكثر استواء)، حولنا، سيقع في مجزرة رهيبة».

- «حولنا!» صاحت سكارلت. «أنت تعرف تمام المعرفة أن الشماليين لن يبلغوا هذا الحد».

- «إن كنيساو على بعد اثنين وعشرين ميلاً فقط، وأنا أراهنك».

- «ريت، انظر إلى أسفل الشارع! ذلك الجمهور من الرجال والنساء ليسوا جنوداً... أي شيء هم؟ كيف! إنهم زنوج!».

كانت تتقدم في الشارع سحابة عظيمة من الغبار الأحمر، ينبعث منها وقع خطوات أقدام عديدة، وأصوات مئة زنجي أو أكثر، أصوات عميقة مستهترة تنشد نشيداً دينياً.

قاد ريت عربته نحو الرصيف، وتطلعت سكارلت بفضول إلى الرجال السود، المتصبّبين عرقاً، وعلى أكتافهم معاول ومجارف، وكان يسوقهم ضابط وفصيل من الرجال، يحملون شارات سرية المهندسين.

- «أي شيء هؤلاء؟» بادرت ثانية.

ثم وقعت عيناها على زنجي متأنق، يسير في المقدمة مرتلاً، ذي قامة تبلغ ستة أقدام ونصف تقريباً، رجل مارد أدكن بلون الأبنوس، يتقدم وهو يخطو بخفة حيوان قوي، وأسنانه التي تلمع، ويقود زمرة المرتلين في «انزل يا موسى». حتماً لا يوجد زنجي في الدنيا يماثله طولاً وعلو صوت، عدا سام الكبير، رئيس عمال تارا. ولكن، ماذا يفعل سام الكبير هنا، بعيداً جداً عن البيت، خصوصاً في هذه الأيام، حيث لا يوجد ناظر في المزرعة، وهو ساعد جيرالد الأيمن!

وعندما نهضت من مقعدها نصف نهضة، لترى عن كثب، وقع بصر المارد عليها، وانفرج وجهه الأسود في ابتسامة تنم عن المعرفة السارة، ثم توقف مسقطاً مجرفته، متجهاً نحوهما، منادياً الزنوج القريبين منه:

- «يا للّه القدير! إنها الآنسة سكارلت. انتبه إيليا! أبوسل! بروفت! ها هي الآنسة سكارلت!».

واضطربت الصفوف، وتوقف الحشد حائراً مبتسماً، بينما هرع سام الكبير يتبعه ثلاثة من الزنوج الضخام عبر الطريق إلى العربة، ووراءهم عن كثب ضابطهم المستاء، يصرخ فيهم:

- «ارجعوا إلى الصف، أنتم أيها الرجال، آمركم بالرجوع

وإلا . . . ها، هذه السيدة هاملتون. صباح الخير يا سيدة، وأنت أيضاً يا سيد، ما بالكما على وشك الحث على التمرد والعصيان؟ اللّه وحده يعلم كم عانيت من جهد مع هؤلاء الشبان هذا الصباح».

- «ها كابتن راندال، لا تعنّفهم. إنهم جماعتنا. هذا سام الكبير رئيس عمالنا، وإيليا وأبوسل وبروفت من تارا. من البدهي أن من واجبهم مكالمتي. كيف حالكم أيها الشباب؟».

وصافحتهم جميعاً وغابت يدها البيضاء الصغيرة في مخالبهم الضخمة. وقفز الأربعة فرحاً بهذا اللقاء، مزدهين كبرياء وهم يعرضون أمام زملائهم الآنسة الرائعة التي ينتمون إليها.

- «ماذا تفعلون أيها الشبان في هذا المكان النائي، بعيداً عن تارا؟ لقد هربتم، إني أراهن، ألا تعرفون أن الحراس سيلقون القبض عليكم حتماً؟».

فصاحوا مسرورين من هذه الدعابة.

- «هربنا؟!» قال سام الكبير، «لا، نحن لسنا هاربين، لقد استدعونا وأخذونا لأننا كنا أكبر وأقوى أربعة عمال في تارا». ولمعت أسنانهم البيض متباهية، «لقد بحثوا عني بصورة خاصة لأنني أستطيع الغناء جيداً. نعم يا آنسة، السيد فرانك كنيدي جاء وأخذنا».

- «ولكن لماذا يا سام الكبير؟».

- «اللّه اللّه، يا آنسة سكارلت، ألم تدري؟ إننا سنحفر الخنادق للسادة البيض ليختبئوا داخلها عندما يأتي الشماليون».

خنق الكابتن راندال وراكب العربة ابتساماتهما على هذا التفسير السليم الطوية لحفر الخنادق.

- «ولأن السيد جيرالد كان سيصاب بنوبة عصبية حين أخذوني، وقال إنه لا يستطيع تصريف الأمور من دوني، ولكن الآنسة إيلين

قالت: «خذه يا سيد كنيدي، فالحلف يحتاج إلى سام الكبير، أكثر من حاجتنا إليه»، وأعطتني دولاراً وأخبرتني أن أقوم بما يأمرني السادة البيض. وهكذا جئنا هنا».

- «ماذا يعني كل هذا يا كابتن راندال؟».

- «ها، الأمر في غاية البساطة، علينا أن نقوي تحصينات أتلانتا بحفر أميال أخرى من الخنادق، وليس في وسع الجنرال الاستغناء عن أي رجل من الجبهة للقيام بهذا العمل، ولذلك جمعنا أقوى الزنوج في الريف لينفّذوا المهمة».

- «ولكن. . .».

وبدأت موجة صغيرة من خوف بارد تختلج في صدر سكارلت، أميال أخرى من الخنادق؟ لماذا يحتاجون إلى أميال أخرى؟ خلال السنة الماضية أقيمت حول أتلانتا بأسرها سلسلة استحكامات أرضية ضخمة، مع مركز للمدفعية، لا تبعد أكثر من ميل عن وسط المدينة. هذه الاستحكامات الأرضية اتصلت بخنادق وامتدت ميلاً بعد ميل لتحيط بالمدينة إحاطة تامة، فلماذا حفر خنادق أخرى؟!

- «ولكن. . . لماذا ينبغي أن نتحصن أكثر مما نحن عليه الآن؟ إننا لن نحتاج إلى ما عندنا من تحصين، حتماً، فلن يدع الجنرال. . .».

- «تحصيناتنا الحالية تبعد ميلاً واحداً فقط عن المدينة»، قال الكابتن راندال بانقباض. «وهذا قريب جداً بحيث يمنع الراحة والأمان. هذه الحفر الجديدة ستكون أبعد بكثير. إن تقهقراً آخر كما يبدو يمكن أن يوصل رجالنا إلى أتلانتا». وفوراً ندم على عبارته الأخيرة حين رأى عينيها تتسعان من الرعب: «ولكن بالطبع، لن يقع تقهقر آخر» أضاف على عجل، «فخطوط الدفاع أمام كنيساو منيعة لا

تُقهَر، والمدفعية مزروعة على القمم طلّها، مسيطرة على جميع الطرق، ومن المحتمل أن لا يستطيع الشماليون المرور».

ولكن سكارلت رأته يغضي بعينيه أمام نظرات ريت الباردة النفاذة، وخامرها الذعر، وتذكرت عبارة ريت: «عندما سيجلونه عن الجبال إلى هذه الأرض الأكثر استواء حولنا، سيقع في مجزرة رهيبة».

- «ها، كابتن، هل تعتقد...».

- «... طبعاً لا! لا تشغلي عقلك دقيقة واحدة، فالقضية هي أن جو الكبير يؤمن باتخاذ إجراءات احتياطية، وذلك هو السبب الوحيد لحفر خنادق أخرى... ولكن لا بد أن أذهب الآن، لقد كان من دواعي سروري أن أتحدث إليك... ودّعوا سيدتكن أيها الشبان، ودعونا نتابع المسير».

- «وداعاً أيها الشبان، انتبهوا، إذا ما ألمّ بكم مرض أو مكروه أو وقعتم في مشكلة فأعلموني بالأمر. إني أسكن تماماً في نهاية شارع بيتشتري. هناك في النهاية، آخر بيت في طرف المدينة تقريباً. انتظروا هنيهة...».

وتحسست داخل كيسها الشبكي الصغير: «يا للّه! لا أحمل سنتاً واحداً، ريت! أعطني قليلاً من النقود الورقية، خذ، يا سام الكبير، اشترِ بعض التبغ لنفسك ولزملائك، وكن صالحاً وافعل ما يأمرك به الكابتن راندال».

وانتظم الصف الشارد ثانية، وثانية علا الغبار في سحابة حمراء وهم ينطلقون، وسام الكبير يشرع في الغناء مجدداً:

«انزل يا موسى واهبط في أرض مصر،
وأخبر فرعون العجوز
أن يحل من إسار شعبي».

- «ريت، كان الكابتن راندال يكذب عليَّ، تماماً كما يفعل جميع الرجال. . . إنهم يحاولون حجب الحقيقة عنا نحن النساء، خوفاً من أن يغمىٰ علينا. أما كان يكذب؟ آه يا ريت، لو لم يكن يوجد خطر، فلماذا يحفرون هذه التحصينات الجديدة؟ هل الجيش بهذا النقص الهائل في الرجال، بحيث اضطروا إلى استخدام العبيد؟».

نهر ريت الفرس:

- «إن الجيش في حاجة ماسّة إلى الرجال، وإلا فلماذا يستدعى الحرس الوطني؟ وأما بصدد الخنادق، فلا بأس، إذ يفرض بالتحصينات أن تكون ذات قيمة ما في حالة الحصار. إن الجنرال يتأهب لجعل وقفته الأخيرة هنا».

- «حصار! رد حصانك، فأنا عائدة إلى بيتي، إلى بيتي في تارا، حالاً».

- «وماذا يضيرك؟».

- «حصار! يا للّه، حصار! لقد سمعت عن الحصارات، لقد انحجز أبي في أحدها، أو ربما كان ذلك والده، وأبي أخبرني. . .».

- «أي حصار؟».

- «حصار دروغيدا، عندما انتصر كرومويل على الإيرلنديين، ولم يبقَ لديهم ما يقتاتون به، وقال أبي إنهم تضوروا جوعاً، وماتوا في الشوارع وأخيراً أكلوا جميع القطط والجرذان وحتى الصراصير وأشباهها. وقال إنهم أكلوا بعضهم بعضاً كذلك، قبل أن يستسلموا، مع أني لا أدري أأصدق ذلك أم لا. وعندما احتل كرومويل المدينة، كانت جميع النساء. . . حصار! يا للّه!».

- «أنت أعظم الشابات اللواتي عرفتهن جهلاً مزرياً. إن حصار دورغيدا حدث بعد عام 1600 بقليل، وليس من الممكن أن يكون

السيد أوهارا عائشاً آنذاك، هذا بالإضافة إلى أن شيرمان ليس كرومويل».

- «لا، ولكنه أسوأ. يقولون...».

- «وأما بصدد المأكولات الغريبة التي أكلها الإيرلنديون أثناء الحصار... فأنا شخصياً أتمنى لو آكل في الحال جرذاً طرياً لذيذاً من ضمن المأكولات التي يقدمونها لي مؤخراً في الفندق. أعتقد أنه ينبغي لي العودة إلى ريتشموند، فهم يقدمون هنالك طعاماً جيداً، إذا كان لديك الثمن الكافي لذلك». وهزأت عيناه بالخوف البادي على وجهها.

وصاحت سكارلت، وقد أزعجها افتضاح نفسيتها الفزعة:

- «أنا لا أرى السبب الذي جعلك تقيم هنا هذه المدة الطويلة. كل ما تفكر فيه هو راحتك وأكلك و... وأمور كهذه».

- «لا أعرف طريقاً أكثر إمتاعاً في تزجية الوقت من الأكل... وأمور كهذه» وقال مستطرداً، «أما لماذا أقيم هنا... حسناً. لقد قرأت كثيراً عن الحصارات، وعن مدن مطوقة وأمثال ذلك، ولكن لم أختبر حصاراً بنفسي. ولذلك فإني أفكر في البقاء هنا، لأراقب الحالة عن كثب. ولن يضيرني شيء، لأني لست محارباً، عدا عن أني أرغب في التجربة. إياك أن تفوّتي التجارب الجديدة يا سكارلت، فهي تغني العقل».

- «عقلي غني بما فيه الكفاية».

- «ربما تعرفين أكثر مني عن ذلك - ولكن ينبغي القول - على أن ذلك سيكون من غير اللائق. من المحتمل أنني أمكث هنا لإنقاذك عندما يقع الحصار، فلم يحدث أن أنقذت صبية في محنة، إن في ذلك تجربة جديدة لي أيضاً».

وأدركت أنه يستفزها، بيد أنها أحست بلهجة جدية صادقة طي كلماته، ثم دفعت رأسها إلى الوراء:

- «لن أحتاج إليك كي تنقذني، ففي وسعي الاهتمام بنفسي... شكراً».

- «لا تقولي ذلك يا سكارلت، فكّري في الأمر إذا شئت، ولكن إياك - إياك أن تقوليها لرجل. تلك هي المشكلة مع الفتيات الشماليات، يمكن أن يكنّ في منتهى السحر والجمال، لولا أنهن يدأبن أبداً على القول إن في وسعهن الاهتمام بأنفسهن... وعموماً، يكنّ صادقات، كان اللّه بعونهن. وعلى ذلك يدعهن الرجال يهتممن بأنفسهن».

- «كيف تمضي بهذا الحديث؟» قالت ببرود، إذ لم تكن توجد إهانة مثل الإهانة الناجمة عن المقارنة بالشماليات... «أعتقد أنك لا تقول الواقع فيما يتعلق بالحصار، فأنت تعرف أن الشماليين لن يبلغوا أتلانتا مطلقاً».

- «أراهنك أنهم سيكونون هنا في مدى شهر واحد، أراهنك على علبة سكاكر مقابل...» وحامت عيناه السوداوان حول شفتيها، «مقابل قبلة».

ولهنيهة قصيرة أخيرة، غمر قلبها الخوف من غزو الشماليين، ولكن، عند كلمة «قبلة» نسيت كل شيء يتعلق بالغزو، فهذه أرض أنيسة، وأكثر إمتاعاً، لدرجة كبيرة، من العمليات العسكرية. وبصعوبة منعت ابتسامة الفرح من الظهور.

منذ اليوم الذي منحها ريت القبعة الخضراء، لم يتقدم بأي خطوات أخرى، يمكن أن تفسر على أنها خطوات محب. إنه لا يمكن أن يورط في أحاديث شخصية، رغم محاولاتها في اجتذابه إلى ذلك. ولكن ها هو الآن، ومن دون مداورات من جانبها، يتحدث عن القبل.

- «أنا لا أهتم بأحاديث شخصية كهذه» قالت ببرود، متظاهرة بالعبوس، «وعلاوة على ذلك فإنني يمكن أن أقبِّل خنزيراً في أي وقت».

- «لا يوجد مقياس للأذواق، ولقد سمعت مراراً أن الإيرلنديين يميلون كثيراً إلى الخنازير، ويحتفظون بها تحت أسِرَّتهم في الواقع. ولكن يا سكارلت، أنت في حاجة ماسّة إلى التقبيل. تلك هي مشكلتك. لقد بالغ جميع أحبائك باحترامك، مع أن اللّه وحده يدرك سر ذلك، أو أنهم كانوا جد خائفين منك، بحيث لم يمارسوا حقيقة عواطفهم نحوك، وكانت النتيجة اعتداداً منك بالنفس لا يحتمل. ينبغي أن يقبِّلك من يعرف كيف يكون التقبيل».

لم يجرِ الحديث على الوتر الذي تريده، شأنه دائماً أثناء اجتماعهما، فهو بمثابة مبارزة تخرج منها خائبة، مكسورة الجناح.

- «وأظن أنك تعتقد أنك الشخص المناسب؟» استوضحت متهكّمة، وقد عانت كثيراً في كبح جماح نفسها.

- «ها، نعم، إذا كلفت نفسي مشقة ذلك الجهد» قال باستهتار، «يقولون إني أُحسن التقبيل».

- «ها» طفقت ترد وهي ساخطة لأن مفاتنها أهينت، «كيف، إنك. . . ».

بيد أن حيرة مفاجئة تملكت عينيها. كان يبتسم، ولكن في أعماق عينيه السوداوين تلألأ ضوء ناعس لهنيهة قصيرة، ضوء كلهبٍ بارد صغير.

- «طبعاً، من الراجح أن تكوني قد تساءلت لماذا لم أحاول متابعة تلك القبلة العفيفة العارضة التي منحتك إياها، يوم جلبت لك القبعة».

- «أنا . . . أبداً. . . لا -».

- «إذن لست فتاة جميلة يا سكارلت، ويؤسفني قول ذلك. فكل الفتيات اللطيفات حقاً، يدهشن عندما لا يحاول الرجال تقبيلهن. إنهن يعرفن أنه لا يجب عليهن إظهار رغبتهن في أن يقبّلوهن، ويعرفن أن عليهن تلبُّس ثوب المعتدى على كرامته إذا ما قبّلوهن، ولكن النتيجة هي ذاتها تماماً: فإنهن يرغبن في أن يحاول الرجال ذلك... حسناً، يا عزيزتي، تشجعي، فيوماً ما سأقبّلك وستطربين لعملي، ولكن ليس الآن ولذلك أرجوك ألّا تستعجلي الأمر كثيراً».

وعرفت أنه يستفزها، ولكن، كما هو الحال دائماً، أذهلها استفزازه، فهناك أبداً الكثير من الحقائق فيما يقول. على كل حال، إن حديثه هذا كشفه تماماً، وإذا ما أسف يوماً وحاول انتهاك أي من حرماتها فستُريه.

- «هل تتكرم بالانعطاف بالعربة يا كابتن باتلر! فأنا أرغب في العودة إلى المستشفى».

- «أترغبين حقاً يا ملاكي الرحيم؟ إذن، نسالة الكتان والمياه القذرة أفضل من محادثتي... حسناً، إن من غير المعقول أن أمنع يدين راغبتين في العمل عن العمل في سبيل قضيتنا المجيدة».

وأدار رأس الحصان، وانطلقا عائدين نحو فايف بوينتس.

- «أما لماذا لن أتقدم بخطوات أخرى» تابع بلهجة رقيقة، كما لو أنها لم تأتِ بما يشير إلى نهاية الحديث، «فأنا أنتظرك حتى تكبرين قليلاً، وأنت تعرفين أنه ليس مما يلذني أن أقبِّلك الآن، وأنا حريص كل الحرص على ملذاتي. لم أتخيل نفسي يوماً أقبِّل الأطفال» وخنق ابتسامته، بعد أن رأى صدرها من زاوية عينه يختلج بثورة صامتة. «ثم إني أيضاً» استطرد برفق، «كنت أنتظر انطفاء ذكرى آشلي ويلكس، الجدير بالتكريم».

وعند ذكر اسم آشلي، انتابها ألم مفاجئ، ولذعت أجفانها دموع

مفاجئة حارة. انطفاء! ذكرى آشلي لا تنطفئ أبداً! حتى بعد انقضاء ألف سنة على وفاته! وخطر لها آشلي جريحاً، يغالب الموت في سجن شمالي بعيد ناء، ولا دثار عليه، ولا محب يمسك بيديه، واستعرت في قلبها كراهية لهذا الرجل، المتخم المعدة، الجالس إلى جانبها، والسخرية تحت سطح لسنه المتشدق. . .

كان الغضب قد استبدّ بها، فلم تقوَ على الكلام، وسارت العربة فترة من الوقت، والصمت ضارب جرانه.

«إني أفهم عملياً الآن، كل شيء عن علاقتك بآشلي» استأنف ريت، «لقد بدأت بالمشهد المنفر الذي مثلته في تولف أوكس. ومنذ ذلك الوقت استنتجت أشياء كثيرة عن طريق إبقاء عيني مفتحتين. أي أشياء؟ ها، إنك ما زلت ترعين عاطفة خيالية نحوه، عاطفة تلميذة مدرسة، عاطفة يبادلك هو منها بقدر ما يسمح له أصله الشريف، وإن السيدة ويلكس لا تدري شيئاً، وإنك فيما بينكما قد خدعتها جيداً. إني أفهم عملياً كل شيء، عدا شيء واحد يثير فضولي. هل حدث أن جازف آشلي الشريف بروحه الخالدة يوماً وقبَّلك؟»

صمتٌ متحجر، ورأس مشدوه، كان الجواب عن سؤاله.

- «ها، حسناً، إذن قبَّلك. أظن أن ذلك حدث عندما كان هنا في إجازته. والآن قد يكون ميتاً على الأرجح، فإنك تحتفظين بذكرى هذه القبلة عزيزة في قلبك. ولكني واثق أنك ستتخطين هذه المرحلة، وعندما تنسين قبلته، سوف -».

والتفتت نحوه غاضبة:

- «اذهب إلى - هاليفاكس» قالت متوترة النفس، وعيناها الخضراوان ينشقان عن وميض السخط، «دعني أنزل من هذه العربة قبل أن أقفز فوق العجلات. لا أريد أن أتحدث إليك ثانية».

فأوقف العربة، ولكن قبل أن يتمكن من النزول ومساعدتها، قفزت نحو الأرض، وعلقت تنورتها بالدولاب، وشاهد الجمهور في فايف بوينتس لهنيهة منظراً خاطفاً للصداري والسراويل. ثم انحنى ريت وخلص الثوب بخفة، وغادرته هي مدلَّة بعينيها دون أن تنبس بكلمة، من دون حتى التفاتة إلى الوراء، وضحك هو ضحكة رقيقة، ناهراً حصانه.

18

للمرة الأولى منذ ابتداء الحرب، استطاعت أتلانتا سماع دوي المعركة. ففي ساعات الصباح الأولى، قبل أن يستيقظ ضجيج المدينة، كان يمكن سماع المدافع من على جبل كنيساو خافتة الأصداء، بعيدة جداً، تهدر هديراً خفيفاً واهناً، قد يمضي كأنه رعد الصيف. بيد أنه من وقت إلى آخر كان يدوّي عالياً بحيث يسمع أعلى من ضوضاء حركة المرور عند الظهيرة. وحاول الناس ألّا يصغوا إليه. حاولوا أن يتحدثوا، وأن يضحكوا وأن يستمروا في أعمالهم، تماماً كما لو أن الشماليين ليسوا هناك على بعد اثنين وعشرين ميلاً منهم. غير أن الآذان دائماً كانت ترهف لسماع الدوي، وعلت وجوه الناس نظرة قلق إذ لم يعد يهمّهم ما بين أيديهم من عمل. كانوا جميعاً ينصتون، وكانت قلوبهم تقفز فجأة من مواضعها مئة مرة في اليوم. هل اشتد الدوي، أم أنهم يتوهمون أنه اشتد؟ هل سيصدّهم الجنرال جونستون هذه المرة؟ هل سيوقفهم؟

كان الذعر على قاب قوسين أو أدنى من النفوس، وكانت الأعصاب التي كانت تزداد توتراً في كل يوم من أيام التقهقر، قد قاربت الآن بلوغ نقطة الانفجار. ولم يكن أحد ليتحدث عن مخاوفه بسبب تحريم ذلك، ولكن الأعصاب المتوترة وجدت متنفساً لها في نقد الجنرال علانية، فقد كان الشعور العام يغلي بحمى النقمة، وأمسى

شيرمان على أبواب أتلانتا، وغدا تقهقر آخر يمكن أن يقذف بالحلفيين إلى داخل المدينة، فأضحى لسان الحال يقول:

«نريد جنرالاً لن يتقهقر، نريد رجلاً يصمد ويقاتل».

وزحف رجال ميليشيا الولاية (مدلّلو جون براون) والحرس الوطني إلى خارج أتلانتا، وهدير المدافع البعيد في آذانهم، خرجوا ليدافعوا عن جسور ومعابر نهر تشاتاهوشي في مؤخرة جونستون. وكان اليوم يوماً معتماً ملبّداً بالغيوم. وبينما كانوا يسيرون عبر فايف بوينتس إلى طريق ماريتا، شرع مطر خفيف بالسقوط. وكانت المدينة بأسرها قد خرجت لتشييعهم، ووقف الناس بعضهم فوق بعض، تحت رفاريف المخازن الخشبية في شارع بيتشتري، يحاولون تحيتهم.

وكانت سكارلت ومايبل ميريويذر بيكارد قد سُمح لهما بمغادرة المستشفى ومشاهدة الرجال الذاهبين لأن غراندبا ميريويذر (ميريويذر الجد) والعم هنري كانا من بين أعضاء الحرس الوطني، فوقفتا مع السيدة ميد وسط الجمهور، مشرئبات على رؤوس أصابعهن ليتمكنَّ من رؤية أفضل. ومع أن سكارلت كانت مفعمة بالرغبة الجنونية الإجماعية في تصديق أكثر الأنباء إبهاجاً وأشدها تطميناً عن تقدم القتال وحسب، إلا أنها أحست ببرودة وهي تتأمل الصفوف غير المتجانسة، المختلفة الأشكال والألوان، تمر أمامها تباعاً. لا بد إذن أن تكون الأمور قد بلغت مأزقاً حرجاً، إذا كان هذا الرعاع من العجزة والفتيان قد استدعي للخدمة وصد القنابل!

حقاً لقد كان بين الصفوف المارة شبان ورجال قادرون على القتال، يزدهون ببذلاتهم الحربية الزاهية، رجال من الصفوة الاجتماعية انخرطوا في وحدات الميليشيا وأخذ الريش يتمايل على قبعاتهم، وتتراقص أطراف زنانيرهم. ولكن، كان بينهم أيضاً الكثير الكثير من العجزة والفتيان الذين جعل منظرهم قلب سكارلت ينكمش شفقة

وخوفاً. كانوا عجزة بلحى شائبة، أكبر سناً من والدها، يحاولون الخطو بمرح وخفة، تحت الرذاذ، مجارين أنغام سرية المزامير والطبول.

كان غراندبا ميريويذر يسير في الصف الأول، وعلى كتفيه أجمل شال صوفي مخطط تملكه السيدة ميريويذر، يتقي به الأمطار. وقد حيا الفتاتين بابتسامة خفيفة، فردّتا ملوّحتين بمنديليهما، هاتفتين بتحية الوداع المشجع. بيد أن مايبل الممسكة بذراع سكارلت همست قائلة: «يا للحبيب المسن التعس. إن عاصفة ماطرة خفيفة قد تودي بحياته! وإن مرضه اللمباغو...».

كان العم هنري هاملتون يسير في الصف الثاني خلف غراندبا ميريويذر، وياقة معطفه الطويل الأسود مرفوعة لتحمي أذنيه، وفي حزامه مسدسان من حرب المكسيك، وفي يده كيس سفر، وإلى جانبه مشى العبد الأسود الذي كان يقاربه سناً، يرفع مظلة مفتوحة فوق رأسيهما.

وجنباً إلى جنب مع العجزة، مشى الفتيان الذين لم يبدُ على أي منهم أنه تجاوز الثالثة عشرة. وكان الكثير من هؤلاء قد هرب من المدرسة ليلتحق بالجيش، بينما انتظمت هنا وهناك جماعات منهم ترتدي بذلات المدارس الحربية، وعلى قبعاتهم الرمادية المحكمة الوضع، المبللة بالمطر، ريش الديوك السوداء، وعبر صدورهم شرائط خشنة نظيفة مبتلة، كان فل ميد بينهم، يحمل سيف أخيه القتيل ومسدساته باعتزاز وفخر، وقد ثبت قبعته على جانب رأسه بظرف ظاهر. وأخذت السيدة ميد تبتسم وتلوّح له حتى تجاوزها ثم أسندت رأسها هنيهة إلى خلف كتف سكارلت، كما لو أن قواها قد خانتها فجأة.

كان العديد من الرجال عزلاً من السلاح، لأن الحلف لم يكن يملك بنادق وذخائر لتجهيزهم. وكان هؤلاء الرجال يأملون بتسليح

أنفسهم من قتلى الشماليين وأسراهم، بينما علق الكثيرون خناجير بووي في جزماتهم، وحملوا في أياديهم قضباناً غليظة طويلة ذات رؤوس حديدية مسننة تُعرف بـ«رماح جو براون». أما المحظوظون فقد ظفروا ببنادق كانت متدلية من أكتافهم، وبأوطاب للبارود متصلة بأحزمتهم.

وكان جونستون قد فقد أثناء تراجعه حوالى عشرة آلاف رجل في الوقت الذي كان هو في حاجة إلى عشرة آلاف جندي آخر جديد، وهذا ما حصل عليه الآن، فكرت سكارلت مذعورة.

وفيما راحت المدفعية تقعقع قريباً ناشرة الوحول بين الجمهور المتفرج، قيد بصرها منظر زنجي على بغل يركب إزاء مدفع. كان زنجياً يافعاً، ذا لون كلون السروج، ووجه مهيب وقور. وعندما رأته صاحت: «إنه موسى! موسى آشلي! ماذا يفعل هنا؟» وشقت طريقها وسط الجمهور إلى الرصيف ونادت: «موسى! قف!».

جذب موسى زمام بغله عندما رآها، وابتسم مبتهجاً ومحاولاً الترجل، ولكن جاويشاً مبلل الثياب، يركب خلفه، صاح به:

- «لا تنزل عن ذلك البغل أيها الشاب، وإلا سأشعل النار من تحتك، علينا أن نبلغ الجبل في أقرب وقت».

وراح موسى ينقل نظره حائراً بين الجاويش وسكارلت التي خاضت في الوحل مقتربة من العجلات المارة، وأمسكت بحلقة ركاب موسى:

- «ها، دقيقة واحدة فقط أيها الجاويش. لا تنزل يا موسى، ماذا تعمل هنا؟».

- «إني ذاهب إلى الحرب ثانية يا آنسة سكارلت. هذه المرة مع السيد جون العجوز، بدلاً من السيد آشلي».

- «السيد ويلكس؟!» صعقت سكارلت. فقد كان يناهز السبعين عاماً، «أين هو؟».

- «في المؤخرة، مع المدفع الأخير يا آنسة سكارلت... في المؤخرة هناك».

- «آسف أيتها السيدة، سر أيها الشاب».

وقفت سكارلت هنيهة وقدماها غائصتان في الوحل حتى الكاحلين، بينما كانت المدافع تترنح أمامها.

«ها، لا»، هجست، «لا يمكن أن يحدث ذلك، إنه طاعن في السن، وهو لا يحب الحرب أكثر مما يحبها آشلي». وخطت إلى الوراء قليلاً، تجاه الرصيف، تنعم النظر بكل وجه يمر، ثم عندما وصل المدفع الأخير، وكان والعربة التي تجرّه يزمجران ناثرين الوحول، رأته نحيلاً، منتصب القامة، وشعره الفضي الطويل مبلل فوق رقبته، يركب آمناً ظهر فرس ضامرة توتية اللون، تأخذ طريقها بين أخاديد الوحل، كسيدة في ثوب حريري: تلك الفرس هي نيلي، نيلي السيدة تارلتون، حبيبة بياتريس تارلتون، حبيبتها المدخرة!

وعندما رآها تقف في الوحل، جذب السيد ويلكس عنان فرسه مبتسماً مسروراً، ثم ترجّل متوجهاً نحوها، وقال:

- «لقد رجوت أن أراك يا سكارلت، فقد كُلِّفت بحمل رسائل كثيرة لك من أهلك، ولكنني لم أجد متسعاً من الوقت لإبلاغك إياها، فقد وصلنا هذا الصباح، وها هم ينطلقون خارجاً على التو، كما ترين».

- «آه، سيد ويلكس» صاحت قانطة، ممكسة بيده، «لا تذهب، لماذا يتحتم عليك الذهاب؟».

- «ها، وهكذا أنت تفكرين أني طاعن في السن!» ابتسم، كانت ابتسامة آشلي في وجه أسنّ. «ربما كنت كبيراً على المشي، لكني لست كذلك على ركوب الخيل وإطلاق النار. وقد تلطفت السيدة تارلتون وأعارتني نيلي، ولذا حظيت بركوب جيد. وأرجو ألّا تصاب نيلي

بأذى، لأنه إذا ما أصابها مكروه، فلن يكون في وسعي العودة إلى البيت ومواجهة السيدة تارلتون، فنيلي آخر فرس بقيت لها».

واستغرق ضاحكاً، مبدداً مخاوفها:

- «أمك وأبوك والبنات بصحة جيدة، وهم يبلغونك تحياتهم. كان والدك على وشك أن يرافقنا هذا اليوم!».

- «ها، ليس بابا!» صاحت سكارلت هلعة، «ليس بابا، فهو لن يذهب إلى الحرب، أليس كذلك؟».

- «نعم، ولكنه كان سيذهب. طبعاً إنه لا يستطيع المشي طويلاً بركبته المتيبسة، ولكنه تأهب للرحيل ركوباً معنا، ووافقت أمك، شريطة أن يكون قادراً على القفز فوق حاجز المرعى، لأن، كما قالت، ستجابهنا في الحرب ضرورات من الركوب الصعب.

واعتقد والدك أن ذلك أمر سهل، ولكن - هل تصدقين؟ عندما بلغ حصانه الحاجز، وقف كالموتى ودفع أباك من فوق رأسه، ومن العجيب أنه لم يكسر رقبته! إنك تعرفين مدى عناده، فلقد قام حالاً وحاول امتطاءه ثانية، وبعدئذ يا سكارلت، هوى عنه ثلاث مرات قبل أن تساعده السيدة أوهارا وبورك على الوصول إلى سريره. وقد أخذته الدهشة من ذلك، وأقسم إن والدتك قد همست بكلمة صغير في أذن الحصان. إنه لا يصلح للخدمة العسكرية وحسب يا سكارلت، فلا حاجة بك إذن للشعور بالعار من جرّاء ذلك، فضلاً عن أنه لا بد من بقاء البعض في البيت، كي ينتجوا الغلال للجيش».

لم تشعر سكارلت بالعار مطلقاً، وإنما شعرت بشعور دافق من الفرح.

- «لقد أرسلت إنديا وهوني إلى ميكون لتقيما مع آل بور، وسيعتني السيد أوهارا بتولف أوكس إلى جانب تارا. ينبغي أن أفارقك يا عزيزتي، دعيني أقبِّل وجهك الحلو».

فرفعت سكارلت شفتيها وقد أحست بألم خانق في حلقها، إذ كانت مولعة جداً بالسيد ويلكس، ومرة فيما مضى أملت أن تكون كنة له.

- «وعليك أن توصلي هذه القبلة إلى بيتي بات، وهذه إلى ميلاني»، قال ذلك مقبّلاً إياها قبلتين خفيفتين، «وكيف حال ميلاني؟».

- «إنها في حالة جيدة».

- «آه!» ورنت عيناه إليها، ولكن خلالها - إلى ما وراءها، كما كانت تفعل عينا آشلي، عينان رماديتان ساهمتان تنظران إلى عالم آخر، «كنت أحب أن أرى أول أحفادي، وداعاً يا عزيزتي».

وطوّح بجسده ممتطياً نيلي، وانطلق خبباً وقبعته في يده وشعره الفضي يستقبل المطر. وعادت سكارلت فوقفت إلى جانب مايبل والسيدة ميد، قبل أن يصعقها مرمى كلماته الأخيرة. وعندئذ رسمت علامة الصليب على صدرها برعب هائل، وحاولت تلاوة صلاة. لقد تكلم عن الموت، تماماً كما فعل آشلي، والآن آشلي - لا ينبغي أن يتحدث أحد عن الموت! إنها العناية الإلهية التي تدفع الإنسان إلى ذكر الموت.

وعندما قفلت النسوة الثلاث راجعات إلى المستشفى بألسنة صامتة، تحت المطر، كانت سكارلت تصلي: «ليس هو، أيضاً، يا اللّه. ليس هو وآشلي! أيضاً!».

استغرق التقهقر من دالتون إلى جبل كنيساو طوال المدة من أول مايو إلى منتصف يونيو. وعندما انقضت أيام يونيو الحارة الماطرة، وفشل شيرمان في إجلاء الحلفيين عن السفوح الشديدة الانحدار، رفع الأمل رأسه ثانية، وازداد الجميع بهجة وقويت لهجة العطف على الجنرال جونستون في أحاديث الناس. وعندما تصرّمت أيام يونيو الرطبة، لتعقبها أيام يوليو الأكثر رطوبة. وما زال الحلفيون مستميتين

في القتال حول المرتفعات المحصنة، موقفين شيرمان عند حده، استولت على أتلانتا فرحة عارمة، وسرى الأمل إلى رؤوسهم كالشمبانيا.

مرحى! مرحى! إننا نصدّهم! وعمّت المدينة موجة من الولائم وحفلات الرقص. وكلما حضرت جماعة من المحاربين في الجبال لقضاء الليل في المدينة، نصبت موائد العشاء، وتلا ذلك رقص وتكريم وترفيه من البنات اللواتي كن يفقنهم بالعدد عشرة أضعاف، كل تنافس زميلتها لتراقصهم.

وازدحمت أتلانتا بالزوار واللاجئين، بعائلات الجرحى في المستشفيات، بزوجات الجنود المحاربين في الجبال وأمهاتهم، ممن رغبن في أن يكنّ قرب ذويهم في حالة إصابتهم، هذا بالإضافة إلى أسراب من الحسناوات المتسللات من الريف، حيث لم يبقَ من الرجال إلا من هو دون السادسة عشرة، أو فوق الستين. وقد اشمأزت العمة بيتي كثيراً من هذه الفئة الأخيرة، لأنها أحست أنهن لم يأتين إلى أتلانتا إلا لسبب واحد: صيد الأزواج. وصفاقة هذا المطلب جعلها تتساءل إلى أين كانت الدنيا تسير.

واشمأزت سكارلت أيضاً دون أن تأبه للمنافسة الغيورة، التي أوجدتها صبايا السادسة عشرة عاماً، ذوات الخدود الموردة، والابتسامات المشرقة التي تنسي المرء منظر أثوابهن المقلوبة مرتين، وأحذيتهن المرقعة.

لقد كانت ملابسهن أجمل وأجدّ من ملابس معظمهن، ويعود الفضل في ذلك إلى القماش الذي جلبه لها ريت باتلر في الزورق الأخير الذي هرّبه. ولكن مع ذلك، كانت في التاسعة عشرة، وكل يوم كان يزيد في سنّها، والرجال لهم مزاج في مطاردة الفتيات الصغيرات البلهاوات.

إن أرملة بطفل ليست في مركز متكافئ مع هؤلاء الصبايا الجميلات الخليعات، فكرت سكارلت، بيد أن ترملها وأمومتها كانا في هذه الأيام المضطربة أخف عبئاً على كاهلها من قبل، إذ بين مهمات المستشفى في النهار، والحفلات في الليل، كادت لا ترى ويد، والحقيقة أنها كانت أحياناً تنسى لفترات طويلة أن لها ولداً.

وفي ليالي الصيف الحارة الرطبة، كانت منازل أتلانتا تظل مفتوحة الأبواب للجنود المدافعين عن المدينة، وكل البيوت الكبيرة من شارع واشنطن إلى شارع بيتشتري كانت تتلألأ بالأنوار، بينما كان يكرم داخلها المحاربون الملوثون بالوحل الوافدون من الخنادق، فيحمل هواء الليل بعيداً أنغام البانجو والكمان، وخفق الأقدام الراقصة والضحك الخفيف. جماعات تلتف حول البيانو، وأصوات تغني بقوة، الأغنية الحزينة: «لقد وصلت رسالتك، ولكنها وصلت متأخرة جداً»، بينما يتطلع المحاربون الأمجاد، المهترئو الثياب، بشراهة، على الفتيات اللواتي كن يضحكن خلف مراوح مصنوعة من ذيول الديوك الرومية، يرجونهن ألّا ينتظرن حتى يضحي الوقت متأخر جداً...

والحقيقة أن جميع الفتيات لم يكنّ لينتظرن إذا ما نجحن في الاصطياد، فمع موجة المسرة الهستيرية، والمرح الذي غمر المدينة، اندفعن نحو الزواج، وتمّت الأعراس عديدة جداً في ذلك الشهر بينما كان جونستون يصد الأعداء عند جبل كنيساو، أعراس كانت العروس فيها تزدهي بالسعادة الخفرة، وبالثياب والحلى المستعارة على عجل من دزينة من الصديقات، وكان العريس يحمل سيفاً يرتطم على سروال مرقع. حفلات عديدة جداً، ومفاجآت عديدة جداً. مرحى! إن جونستون يصد الشماليين على بعد اثنين وعشرين ميلا!

* * *

أجل! لقد كانت خطوط الدفاع حول جبل كنيساو منيعة لا تُقهَر،

فبعد خمسة وعشرين يوماً من القتال، اقتنع بهذا حتى الجنرال شيرمان، لأن خسائره كانت بالغة. وبدلاً من متابعة الهجوم المباشر، قذف بجيشه في دائرة واسعة مرة ثانية، محاولاً عزل الحلفيين عن أتلانتا، وثانية فعلت الاستراتيجية فعلها، وأرغم جونستون على إخلاء المرتفعات التي دافع عنها دفاعاً مجيداً، ليحمي مؤخرته. كان قد فقد ثلث رجاله في ذلك القتال، واتخذ الباقون طريقهم تحت الأمطار، مترنحين منهوكين، وعبروا الريف نحو نهر تشاتاهوشي، ولم يكن في وسعهم توقع نجدات أخرى، بينما كان الخط الحديدي الذي أضحى في حوزة الشماليين الآن من تنيسي جنوباً حتى خط المعركة، ينقل لشيرمان في كل يوم، جنوداً جدداً ومؤناً. وهكذا تقهقرت الصفوف الرمادية عبر الحقول الموحلة، تقهقرت نحو أتلانتا.

وبخسارة الموقع الذي كان قد افترض عدم إمكانية احتلاله، اجتاحت المدينةَ موجةُ رعب جديدة. لقد كان الجميع طوال خمسة وعشرين يوماً قضوها في ابتهاج خارق، يؤكدون بعضهم لبعض أن هذا لا يمكن أن يقع، وها هو قد وقع الآن، ولكن حتماً، سيوقف الجنرال الشماليين على ضفة النهر المقابلة، مع أن اللّه يعلم أن النهر كان قريباً جداً، على بعد سبعة أميال فقط.

غير أن شيرمان التف حولهم مرة أخرى، عابراً النهر خلفهم واضطرت الطوابير الرمادية المنهوكة إلى الإسراع عبر المياه الصفراء، ولقذف أنفسهم مرة ثانية بين أتلانتا والغزاة، وعلى عجل، اندسوا في خنادق ضحلة، شمال المدينة، في وادي جدول بيتشتري، وأطل شبح الموت فوق أتلانتا وساد الرعب.

قتال وتقهقر! قتال وتقهقر! وكل التقهقر كان يدني الشماليين من المدينة. إن جدول بيتشتري على بُعد خمسة أميال وحسب. في أي خطة يفكر الجنرال؟

وانطلقت صيحات «نريد رجلاً يصمد ويقاتل» إلى ريتشموند التي كانت تدرك أنه إذا ما خسرت أتلانتا، خسرت الحرب. ولذلك، وبعد أن عبر الجيش نهر تشاتاهوشي، أبعد الجنرال جونستون عن القيادة واستلم إمرة الجيش الجنرال هود، أحد أركان قيادته. وتنفست المدينة الصعداء، فهود لن يتراجع، إذ ليس هو ذلك الكنتاكي الطويل، ذا اللحية المتهدلة، والعين البراقة! لقد اشتهر بأنه شجاع عنيد. إنه سيطرد الشماليين من الوداي... أجل... سيطردهم عبر النهر... وسيظل يطادرهم فوق كل خطوة من الطريق حتى دالتون. ولكن الجنود كانوا يصيحون: «أعيدوا لنا جو الكبير» لأنهم كانوا قد رافقوا جو الكبير على طول الأميال المنهكة من دالتون، وكانوا يعرفون أي عقبات شاذة جابهته، بينما لم يكن في وسع الأهلين معرفة ذلك.

لم ينتظر شيرمان حتى يعدّ هود نفسه للهجوم، ففي اليوم الذي تلا تغيير القيادة، انقض الجنرال الشمالي بخفة، على بلدة ديكاتور التي تبعد ستة أميال وراء أتلانتا، فاحتلها قاطعاً السكة الحديد هناك، وهي السكة التي تصل أتلانتا بأوغستا، وبشارلستون، وبولمنفتون ثم بفرجينيا. لقد ضرب شيرمان الحلف ضربة قاصمة، وآن وقت العمل. إن أتلانتا تصرخ مطالبة ببدء العمل.

وبعد ظهر من أظهار يوليو، قائظ الحر، نالت أتلانتا أمنيتها، فلم يكتفِ الجنرال هود بالصمود والقتال، بل هاجم الشماليين بضراوة في وادي بيتشتري، قاذفاً برجاله من خنادقهم في وجه الصفوف الزرقاء، حيث عدد رجال شيرمان يفوق رجاله أكثر من الضعف.

كان الجميع ينصتون، والخوف في قلوبهم، والدعاء على ألسنتهم بأن يبعد هجوم هود الشماليين عن ديارهم، ينصتون إلى دوي المدافع، وقعقعة آلاف البنادق، التي كانت رغم كونها تبعد خمسة أميال عن وسط المدينة، تئز ملعلعة، كأنها تكاد تكون في البناء المجاور.

واستطاع الناس سماع دوي المدافع، ورؤية الدخان الذي يحلق كغيوم منخفضة، عالقة فوق الأشجار، ولكن لمدة ساعات، لم يدرِ أحد شيئاً عن سير القتال.

وفي ساعة متأخرة بعد الظهر، وصلت الأنباء الأولى، إلا أنها كانت مريبة متضاربة، مرعبة، حملها على علاتها جرحى الساعات الأولى من المعركة. طفق هؤلاء الرجال يهيمون على وجوههم نحو المدينة، فرادى وجماعات، يُعِين ذوو الجروح الخفيفة منهم الذين يعرجون ويتعثرون. ثم تبعهم في الحال سيل مستمر ثابت من الجرحى، يشقون طريقهم المترعة بالآلام نحو المستشفيات في قلب المدينة. وجوههم سوداء كوجوه الزنوج من لطخ البارود، والعرق والغبار، جروحهم بلا تضميد، وقد جفّت الدماء عليها، وتجمعت أرتال الذباب حولها.

كان بيت العمة بيتي، أحد البيوت الأولى، التي بلغها الجرحى وهم يفدون قادمين من شمال المدينة، فراحوا يطوحون بأجسادهم على البوابة، رجل في أثر رجل، متهاوين فوق المرجة الخضراء، مدمدين:

- «ماء!».

وطوال بعد ظهر ذلك اليوم، وقفت العمة بيتي في الشمس، وجميع أفراد عائلتها، سوداً وبيضاً، يحملون دلاء الماء والضمادات، يفرغون جرع الماء، ويربطون الجراح حتى لم يبقَ ضمادات، وحتى نفدت كذلك الملاءات والمناشف الممزقة. ونسيت العمة بيتي تماماً أن منظر الدم يصيبها بالإغماء، واستمرت تعمل إلى أن تورّمت قدماها الصغيرتان داخل حذائها المفرط في الصغر، ولم يعد يمكنها الوقوف. حتى ميلاني، التي أضحت الآن منتفخة بحملها، نسيت حشمتها، وعملت كالمحمومة جنباً إلى جنب مع برسي وكوكي وسكارلت، وكان وجهها مجهداً كوجه أي جريح. وعندما أُغمي عليها أخيراً، لم يجدوا

مكاناً يمددونها فوقه، سوى منضدة المطبخ، لأن جميع أسِرَّة البيت والكراسي والكنبات كان يشغلها الجرحى.

قبع ويد الصغير، وقد نُسي وسط هذه الجلبة، خلف الدرابزين في الشرفة الأمامية، يرنو بناظريه إلى المرجة كأرنب حبيس مذعور، حدقتاه متسعتان من الرعب، يمص إبهامه ويفوق، واتفق أن رأته سكارلت، فصاحت بحدة:

- «اذهب والعب في الساحة الخلفية يا ويد هامتلون!».

ولكنه كان هلعاً جداً، مبهوراً جداً بهذا المشهد المجنون أمامه، بحيث لم يسعه تلبية الأمر.

وكانت المرجة مغطاة بالرجال المنطرحين فوقها، وقد بلغ منهم الإعياء حداً لم يقووا معه على متابعة السير، واستنزفت قواهم فلم يستطيعوا حراكاً. هؤلاء حملهم العم بيتر في عربته إلى المستشفى، شحنة بعد شحنة، إلى أن علت الرغوة مشفري حصانه المسن، فأرسلت السيدتان ميد وميريويذر عربتيهما، فساهمتا في عملية النقل أيضاً، حتى تقوست الزبارك تحت ثقل الجرحى.

وبعد ذلك، خلال الغسق الصيفي المديد الحار، وصلت سيارات الإسعاف تهدر فوق الطريق من أرض المعركة، وتبعتها شاحنات التموين مغطاة بالخيش المطلخ بالوحل، ثم عربات المزارع وعربات الثيران، وحتى العربات الخصوصية التي صادرتها الكتيبة الطبية. واجتازت القافلة بيت العمة بيتي، متهادية فوق الطريق الكثيرة الحفر والنتوءات، غاصة بالجرحى، وبالذين يعانون سكرات الموت، تنقط دماً على التربة الحمراء. وعند رؤية النساء يحملن الدلاء والكؤوس توقف الركب، وانبعث النغم همساً وصراخاً:

- «ماء!».

ومضت سكارلت تسند الرؤوس المترنحة كي تتمكن الشفاه

المتحرقة ظمأ من شفاء غليلها، وتسكب دلاء الماء فوق الأجساد المحمومة المغبرة، وفي الجراح المفتوحة، كي يقوى الرجال على تنفس الصعداء، ولو لدقيقة واحدة. ثم مشت على رؤوس أصابعها، لتناول سواقي سيارات الإسعاف كؤوس الماء، سائلة كلاً منهم، وقلبها في حلقها: «ما الأخبار؟ ما الأخبار؟».

ورجع الجواب من جميع الأفواه:

«لا نعرف بدقة يا سيدة، فما زال الوقت باكراً جداً على الأخبار».

وأقبل الليل، ليل حار محتبس الهواء، أججح سعيره المشاعل الصنوبرية المتقدة التي حملها الزنوج، وسد الغبار منخري سكارلت وجفف الهواء الساخن شفتيها، ولطخ الدم والعرق والوسخ ثوبها الخامي اللاوندي، المنظف والمنشى حديثاً، ذلك الصباح بالذات. هذا إذن ما عناه آشلي عندما كتب أن الحرب ليست المجد، وإنما هي القذارة والبؤس.

وأضفى الضنى والإرهاق على كلية المشهد طابع حلم رهيب يصعب تصديقه. لا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً، وإذا كان حقيقاً، فالدنيا إذن جنّت وأفلتت من عقالها، وإلا فلماذا يتوجب عليها أن تقف هنا في الساحة الأمامية الآمنة في بيت العمة بيتي وسط الأضواء المرتعشة، تسكب الماء على العشاق المائتين؟ فقد كان العديد منهم خلّانها، وحاولوا الابتسام عند رؤيتها. وقد كان هناك أيضاً من الرجال الذين كانوا فوق هذه الطريق المظلمة، ممن تعرفهم جيداً، الكثير من الرجال الذين كانوا يعانون سكرات الموت هنا، أمام ناظريها، والبعوض والبرغش تتهافت جموعها على وجوههم الدامية. رجال رقصت معهم، وضحكت وإياهم، وعزفت الموسيقى من أجلهم، وغنّت الأناشيد، وأثارت ولاطفت وأحبّت - قليلاً.

وألفت سكارلت كاري أشبورن في عداد الطبقة السفلية من طبقات الجرحى في عربة ثيران. كان على شفير الموت بفعل جرح رصاصة في رأسه، ولكن لم يكن في وسعها انتشاله من بينهم دون مضايقة ستة منهم، ولذلك تركته يتم رحلته إلى المستشفى. وفيما بعد، سمعت أنه مات قبل أن يراه الطبيب، ودُفن في مكان ما، لم يعرفه أحد على وجه الدقة. وهكذا دفن العديد من الرجال ذلك الشهر، في قبور ضحلة، حُفرت على عجل، في مقبرة أوكلاند. وتأثرت ميلاني كثيراً لأنهم لم يستطيعوا الحصول على خصلة من شعر كاري ليرسلوها إلى أمه في ألاباما.

وبينما الليلة الحارة تجر أذيالها، وظهورهن تؤلمهن، وركبهن يابسة من الضنى، كانت سكارلت وبيتي تستوضحان من رجل بعد رجل:

«ما الأخبار؟ ما الأخبار؟».

وجاءهما الجواب بينما كانت الساعات الطويلة تمر بطيئة بطيئة، جواب جعلهما تتبادلان النظرات بوجهين شاحبين غاضت منهما الدماء.

- «إننا نتراجع»، «لقد أرغمنا على التراجع»، «إنهم يفوقوننا عدداً بالألوف»، «عزل الشماليون فرسان ويلر قرب ديكاتور، فاضطررنا لنجدتهم»، «سيصل جنودنا إلى المدينة في الحال».

تمسكت سكارلت وبيتي كل بالأخرى، لتسندا بعضهما بعضاً.

- «هل... هال الشماليون قادمون؟».

- «نعم... إنهم قادمون فوراً... ولكنهم لن يستطيعوا التوغل بعيداً يا سيدة»، «لا تجزعي يا آنسة، لن يستطيعوا الاستيلاء على أتلانتا»، «لا يا سيدة، فلدينا مليون من أميال الاستحكامات المحصنة

حول هذه المدينة»، «سمعت جو الكبير بنفسي يقول: في وسعي الاحتفاظ بأتلانتا إلى الأبد»، «ولكن لسنا نملك جو الكبير، إننا نملك...»، «اخسأ أيها الأحمق، هل تريد إفزاع السيدات؟!»، «لن يحتل الشماليون هذا المكان أبداً يا سيدة»، «لماذا لم تذهبن أيتها السيدات إلى ميكون، أو إلى أي مكان آخر آمن من هنا، أليس لكُنّ أقرباء هناك؟»، «لن يحتل الشماليون أتلانتا، ولكن الوضع يبقى غير آمن بالنسبة إلى النساء، أثناء محاولتهم احتلالها»، «سيكون هناك قصف قوي بالقنابل».

وتحت مطر دافئ متبخر، في اليوم التالي، تدفق الجيش المنهزم بالآلاف إلى داخل أتلانتا. وكان رجاله خائري القوى من الجوع والإرهاق، ناضبي النشاط بفعل خمسة وستين يوماً من المعارك والتقهقر، خيولهم تتضور جوعاً كأنها الأشباح، مدافعهم وعربات ذخائرهم مشدودة بأطراف الحبال ونتف من السياط وأدوات غريبة أخرى. بيد أنهم لم يدخلوا المدينة كغوغاء منهزمين دبّت فيهم الفوضى، وإنما مشوا في نظام تام، رافعي الرؤوس، رغم ثيابهم الرثة، تخفق راياتهم الحربية الحمراء الممزقة في ثنايا الغيث. لقد تدربوا على التراجع تحت إمرة جو الكبير، الذي جعل من التراجع مأثرة باهرة في الحقل الاستراتيجي، تماماً كالتقدم.

زحفت الطوابير الملتحية، الزرية المنظر، إلى نهاية شارع بيتشتري على أنغام نشيد «ميريلاند، ميريلاندنا»، وخرج أهل المدينة بأسرهم يحيّونهم، فهم أبناؤهم في النصر أو الهزيمة سواء.

كان من الصعب تمييز أعضاء ميليشيا الولاية، الذين غادروا البلدة منذ قليل ببزهم الباهية، من الجنود المتمرسين، فقد أضحوا في غاية القذارة وسوء الهندام. وقد أخذت عيونهم تبرق بنظرات جديدة، بعد أن خلفوا وراءهم تلك السنوات الثلاث التي كانوا قد قضوها بانتحال

الأعذار وشرح أسباب عدم كونهم في الجبهة. كانوا آنذاك قد اشتروا السلامة خلف خطوط القتال بأهوال المعارك، وكثيراً منهم بادل الموت الصعب بالحياة الرضية. أما الآن فقد غدوا مجربين، مجربين بالخدمة القصيرة، إلا إنهم مجربون على كل حال. لقد شرفوا ساحتهم كما ينبغي، مكفرين عن ماضيهم. كانوا ينقبون عن أصدقائهم بين الجمهور، ويرنون إليهم فخورين، متحدين، فلقد كان في وسعهم الآن رفع رؤوسهم.

ثم مر عجزة وفتيان الحرس الوطني، ولا يكاد ذوو اللحى الشائبة منهم يقوون على نقل خطاهم، بينما بدا الفتيان بوجوه أطفال، أضناهم العناء، فلقد واجهتهم مشاكل الشباب في وقت مبكر جداً. ووقع بصر سكارلت على فل ميد، وبالكاد استطاعت تمييزه، فقد كان وجهه شديد السواد من البارود والقذارة، بالغ الانقباض من الجهد والخور. ثم مرّ العم هنري وكان يعرج على إحدى قدميه، لا قبعة تقي رأسه من المطر، ولذلك دسه في جوف قطعة من مشمع عتيق. وخلفه مشى غراندبا ميريويذر، يركب عربة مدفع، وقدماه العاريتان ملفوفتان بخرق من لحاف. ورغم أن سكارلت بحثت جهدها المستطاع، فإنها لم تعثر على أي أثر لجون ويلكس.

ومرَّ رجال جونستون المتمرسون بتحمّل جميع الظروف، مروا بخطواتهم المتمهلة التي لا تكل، والتي حملتهم مدة ثلاث سنوات. وبدا أنهم ما زالوا يمكلون القوة ليضحكوا ويلوّحوا بأيديهم للفتيات الجميلات، وليصيحوا بسخرية سليطة على الرجال الذين لم يكونوا يرتدون البزات العسكرية. كانوا في طريقهم إلى الاستحكامات التي تحيط بالمدينة، نلك الاستحكامات التي لم تكن خنادق ضحلة، ولا سريعة الحفر، وإنما كانت من تراب يرتفع حتى الصدر تدعمه أكياس من الرمل مطرفة بألواح خشبية مسننة. لقد كانت تكتنف المدينة ميلاً

بعد ميل أخاديد حمراء، تعلوها متاريس حمراء، تنتظر الرجال الذين سيملأونها.

حيّت الجماهير الجيش كما يمكن أن تحيّيه في موكب النصر... كان الرعب يكمن في كل القلوب، ولكن الآن وقد عرفوا الحقيقة، الآن وقد وقع المحذور، الآن وقد أضحت الحرب في ساحتهم الأمامية، طرأ تغير في الموقف العام، وانتفى الرعب، وتلاشت الهستيريا، ولم يعد يظهر على الوجوه شيء مما يكمن في القلوب، وبدا الجميع مرحين رغم انقضاء المرح، وحاول كل فرد أن يظهر أمام الجنود بوجه شجاع واثق، وردد الجميع ما قاله جو الكبير، قبيل تنحيته عن القيادة، «إن في وسعي الصمود في أتلانتا إلى الأبد». والآن كذلك، وبعد أن اضطر هود إلى التقهقر، تمنى عدد كبير من المدنيين، بالإضافة إلى الجنود، لو يعود جو الكبير، ولكنهم امتنعوا عن التصريح بذلك، مستلهمين الشجاعة من عبارته: «إن في وسعي الصمود في أتلانتا إلى الأبد».

لم تكن خطط جونستون الحذرة من رأي هود، فلقد هاجم الشماليين في الشرق، وهاجمهم في الغرب، وكان شيرمان يحاصر المدينة كمصارع يبحث عن مقتل سانح في جسد خصمه، ولم يقبع هود خلف المتاريس ينتظر الشماليين أن يهاجموه، بل خرج بجرأة ليقابلهم، وانقضّ عليهم بلا رحمة. وخلال أيام قليلة خاض الطرفان معركتي أتلانتا وكنيسة عزرا، المعركتين الرئيستين اللتين جعلتا معركة وادي بيتشتري تبدو أمامهما كأنها مناوشة صغيرة.

غير أن الشماليين استمروا في جلب النجدات. لقد تكبدوا خسائر فادحة، إلا أنه كان في وسعهم تعويض الخسائر. وظلت مدفعيتهم طوال المدة تصبّ حممها على أتلانتا، تقتل الآمنين في بيوتهم، وتمزق سقوف المباني، وتحفر في عرض الشوارع حفراً كفوّهات

البراكين. ووقى أهل المدينة أنفسهم على خير ما يستطيعون، فلجأوا إلى الأقبية، وإلى الكهوف الأرضية وأنفاق السكك الحديد القليلة العمق. لقد أضحت أتلانتا بين فكي الحصار.

وخلال الأحد عشر يوماً التي انقضت منذ تسلّم الجنرال هود القيادة، فقد عدداً من الرجال يساوي ما فقده جونستون خلال الأربعة والسبعين يوماً من القتال والتقهقر. هذا علاوة على إحداق الخطر بأتلانتا من ثلاث جهات.

أضحى الخط الحديدي من أتلانتا إلى تنيسي بأسره في يدي شيرمان الذي كان جيشه يقطع الخط الشرقي الآن، كما قطع الخط الممتد جنوباً بغرب إلى آلاباما. فلم يبقَ في أيدي الحلفيين سوى الخط المتجه جنوباً إلى ميكون وسافانا. ولما كانت المدينة تزدحم بالجنود، وتغص بالجرحى، وتعج باللاجئين، أمسى هذا الخط الوحيد عاجزاً عن تلبية الحاجات الصارخة للمدينة المذعورة. ولكن، رغم ذلك، كان في وسع أتلانتا الاستمرار في المقاومة، ما دام هذا الخط في منأى عن السقوط.

وارتعدت سكارلت فرقاً، عندما أدركت مدى الأهمية التي صار إليها هذا الخط، وعندما تصورت عنف القتال الذي سيخوضه شيرمان من أجل الاستيلاء عليه، وكيف سيستميت هود في الدفاع عنه، لأنه الخط الذي يمر خلال الإقليم، خلال جونسبورو التي لا تبعد عن تارا سوى أميال خمسة، تارا التي تتراءى لها الآن ملجأ أميناً، إذا ما قيس بجحيم أتلانتا.

* * *

جلست سكارلت والكثيرات من النساء فوق سطوح المخازن، تظللهن مظلاتهن الصغيرة، يراقبن القتال في اليوم الأول من معركة أتلانتا. ولكن عندما بدأت القنابل تتساقط في الشوارع للمرة الأولى،

هرعن إلى الأقبية، وفي الليلة ذاتها بدأ رحيل النساء والأطفال والعجزة من المدينة قاصدين ميكون، وكان العديد من الذين أخذوا قطار تلك الليلة، قد لجأوا حتى الآن خمس أو ست مرات قبل هذه المرة، أي منذ طفق جونستون يتراجع من دالتون. ولكنهم حملوا معهم الآن أثقالاً أخف من تلك التي كانوا قد حملوها معهم إلى أتلانتا، لقد حمل معظهم كيساً صغيراً وغذاء مصروراً في منديل ملون كبير، وكنت ترى الخدم المرتاعين يهرولون هنا وهناك، يحملون كؤوساً وشوكات وسكاكين فضية، ورسماً أو رسمين عائليين، مما أمكن إنقاذه أثناء الفرار الأول.

رفضت السيدتان، ميريويذر وإلسينغ مغادرة المدينة، فلقد كان المستشفى في حاجة إليهما، بالإضافة إلى أنهما، كما صرحتا باعتزاز وفخر، ليستا خائفتين، ولا يستطيع شمالي تشريدهما من بيتهما. ولكن مايبل وطفلها، وفاني إلسينغ، نزحوا إلى ميكون. أما السيدة ميد فقط عصت زوجها للمرة الأولى في حياتها الزوجية ورفضت الإذعان لأمره بأخذ القطار إلى موطن السلامة، قائلة إن الطبيب في حاجة إليها، علاوة على أن فل قابع في مكان ما في الخنادق، وهي تريد أن تكون قربه إذا ما. . . .

غير أن السيدة ويتينغ سافرت هي وكثيرات من النساء اللواتي يعملن في حلقة سكارلت. أما العمة بيتي التي كانت أول من انتقد جو الكبير لسياسة التقهقر التي اتبعها، فقد كانت في مقدم الذين حزموا أمتعتهم، فإن أعصابها، كما قالت، حساسة جداً، وليس في وسعها تحمّل الهزات، وهي تخاف أن يغمى عليها إثر انفجار، فلا تقوى على بلوغ القبو. لا، إنها ليست خائفة. . . وحاول فمها الطفلي انتحال الملامح العسكرية، ولكنه فشل. . . سوف تذهب إلى ميكون وتقيم مع ابنة عمها، السيدة العجوز بور، وعلى الفتاتين أن ترافقاها.

كانت سكارلت لا تود الذهاب إلى ميكون، فعلى الرغم من ذعرها من القنابل، فضلت البقاء في أتلانتا على النزوح إلى ميكون، إذ كانت تكره السيدة العجوز بور من صميم قلبها، لأن هذه قالت منذ سنين أن سكارلت داعرة، وذلك بعد أن اكتشفتها تقبِّل ابنها ويلي في إحدى حفلات آل ويلكس. . . لا! أخبرت العمة بيتي، سأذهب إلى تارا، وفي وسع ميلي مرافقتك إلى ميكون.

وما إن سمعت ميلاني جواب سكارلت حتى طفقت تبكي بكاء المرعوبة الكسيرة القلب، وبينما هرعت العمة بيتي إلى إحضار الطبيب، قبضت ميلاني على ذراع سكارلت متوسلة قائلة:

- «عزيزتي، لا تذهبي إلى تارا وتتركيني! فسأصبح في وحشة تامة بعيدة عنك. . آه سكارلت، سأموت إن بدأ المخاض ولست في جانبي، أجل، أجل أعرف أن معي العمة بيتي، وأنها حنونة، ولكن مع ذلك، لم تخبر شؤون الولادة مطلقاً، كما أنها أحياناً تثير أعصابي بشدة، بحيث أكاد أزعق. لا تهجريني يا عزيزتي، لقد كنت بمثابة الشقيقة لي تماماً، وفضلاً عن ذلك. . .» وابتسمت ابتسامة شاحبة صفراء، «لقد وعدت آشلي أنك ستعتنين بي، لقد أخبرني أنه سيطلب إليك ذلك».

فحملقت سكارلت بها مشدوهة. كيف يسع ميلاني أن تحبها كل هذا الحب، مع بغضها الشديد لها، بغضها الذي تكاد لا تستطيع إخفاءه؟ كيف يسعها أن تكون بمثل هذه الحماقة المطلقة، بحيث لا تفطن إلى سر حبها لآشلي؟ لقد فقدت رشدها مئة مرة خلال شهور العذاب هذه، وهي تنتظر إخباره، ولكن ميلاني لم تلحظ شيئاً، ميلاني التي لا تحسن رؤية شيء في أي إنسان تحبه، سوى نزعات الخير فقط. . . نعم. . . لقد وعدت آشلي أن تحرص على ميلاني، آه آشلي! آشلي! لا بد أنك ميت، ميت كل هذه الشهور الطويلة، وها هو وعدك الآن يبلغ سويداء قلبي، ويقبض عليّ!

- «حسناً» قالت باقتضاب، «لقد وعدته بذلك، وأنا لا أحنث بوعودي، ولكني لن أذهب إلى ميكون، وأقيم مع تلك العجوز الحقود بور، وإن أنا ذهبت فسأقتلع عينيها بمخالبي بُعيد خمس دقائق... إني ذاهبة إلى تارا وفي وسعك الذهاب معي. وستسر أمي كثيراً بقدومك».

- «آه، إني أود ذلك! إن أمك فائقة الطيبة، ولكنك تعلمين أن عمتي ستموت فعلاً إن لم تكن إلى جانبي أثناء المخاض. وأنا أعرف أنها لن تذهب إلى تارا، لأنها قريبة جداً من خط النار، وعمتي تنشد السلام».

ثارت ثائرة الدكتور ميد وزمجر كثيراً، عندما وصل مقطوع الأنفاس وهو يتوقع رؤية ميلاني تعاني ولادة مبكرة على الأقل، كما استنتج من استدعاء بيتي المذعورة له. ولكنه عندما اطلع على سبب الإغماء، فصل في الأمر بكلام قاطع لم يترك مجالاً للنقاش.

- «آنسة ميلي، إن ذهابك إلى ميكون ليس موضوع بحث، ولن ألبّي دعوتك إذا سافرت واستدعيتني، فالقطارات مزدحمة ولا يعتمد عليها، إذ من المحتمل إنزال الركاب إلى الغابات في أي وقت، إذا ما احتيجت العربات لنقل الجرحى أو الجنود أو المؤن. وفي مثل وضعك...».

- «ولكن إذا ذهبتُ مع سكارلت إلى تارا...».

- «قلت لك إني أريدك أن لا تسافري، فقطار تارا هو نفسه قطار ميكون، والظروف ذاتها هي السائدة، وفوق ذلك لا يعرف أحد أين هم الشماليون الآن؟ غير أنهم منتشرون في كل مكان، ويمكن للقطار أن يؤسر. وحتى إذا ما بلغت جونسبورو بأمان، فسيكون أمامك خمسة أميال من الركوب الصعب، كي تصلي إلى تارا. إنها رحلة لا تلائم سيدة في وضع حساس، بالإضافة إلى أنه لا وجود لطبيب في المقاطعة منذ التحاق الدكتور فونتين العجوز بالجيش».

- «ولكن، هناك قابلات. . .».

- «قلت طبيب» أجاب بخشونة، بينما مرّت عيناه فوق هيكلها الصغير من دون وعي منه، «لا أريدك أن تسافري، يمكن أن تكون ولادتك خطرة، وأنت لا ترغبين في وضع الوليد في القطار أو في عربة خيل، أليس كذلك؟».

هذه الصراحة الطبية أفضت بالسيدتين إلى صمت وخجل مربك.

- «عليك أن تقيمي هنا حيث أستطيع مراقبتك، وأن تلتزمي السرير. لا تصعدي أو تهبطي السلّم ركضاً إلى القبو. لا، حتى ولو دخلت القنابل من النافذة مباشرة، وعلى كل حال فإنه لا وجود لخطر كبير هنا، فسوف نردّ الشماليين مهزومين في أسرع وقت. . . والآن، يا آنسة بيتي، سافري رأساً إلى ميكون ودعي السيدتين الشابتين هنا».

- «بلا رقيب؟!» صاحت مذهولة.

- «إنهما متزوجتان» قال الطبيب برماً، «والسيدة ميد على بُعد منزلين منهما فقط، وعلى كل حال، فهما لن ترحبا بمقدم أي رجل، والآنسة ميلي حبلى. باللّه يا آنسة بيتي! هذا زمن حرب، ولا نستطيع التفكير في أصول اللياقة الآن، علينا أن نفكر في الآنسة ميلي!».

وخطا إلى خارج الغرفة، وتوقف في الشرفة الأمامية، إلى أن لحقت به سكارلت:

- «سأتكلم معك بصراحة يا آنسة سكارلت» ابتدرها وهو يحرك بيده لحيته الشائبة، «يبدو أنك صبية تنعمين بإدراك سليم، ولذلك جنّبيني خجلك. فأنا لا أريد سماع كلام أكثر عن إمكانية نقل السيدة ميلي. إني أشك في استطاعتها احتمال عناء السفر. ستواجه وقتاً عصيباً، حتى في أحسن الحالات. . . إنها ضيقة جداً عند الوركين كما تعلمين وقد نحتاج إلى استعمال الآلة لتوليدها، ولذلك لا أريد أن تتدخل في شأنها أي قابلة زنجية جاهلة. إن النساء مثيلاتها لا ينبغي

لهن إنجاب الأطفال، ولكن - على كل حال احزمي حقيبة الآنسة بيتي وابعثيها إلى ميكون. إنها جبانة جداً بحيث ستربك الآنسة ميلي، الأمر الذي لن يعود علينا بشيء من الخير. والآن يا آنسة» وسدد نظرة نفاذة إليها، «لا أريد كذلك أن أسمع أنك سافرت إلى مسقط رأسك، أقيمي مع الآنسة ميلي إلى أن تضع الوليد. لست خائفة، أليس كذلك؟».

- «ها، لا» كذبت سكارلت رابطة الجأش.

- «إنك فتاة شجاعة، ستقدم لك السيدة ميد كل ما تحتاجين إليه من رعاية، وسأرسل بيتسي العجوز لتطهي الطعام لكما إذا أرادت الآنسة بيتي اصطحاب الخدم معها. لن يطول الأمر كثيراً، فلا بد من ولادتها بعد خمسة أسابيع، ولكنك لا تستطيعين أبداً التكهن بميعاد الطفل الأول وكل هذا القذف الداوي مستمر، فقد تلد في أي يوم».

وهكذا سافرت العمة بيتي إلى ميكون، والدموع تطفر من عينيها، وفي صحبتها العم بيتر وكوكي. وقبل الرحيل، وهبت الحصان والعربة إلى المستشفى في دفقة من الوطنية، سرعان ما ندمت عليها، الأمر الذي زاد في انهمار دموعها. أما ميلاني وسكارلت فبقيتا وحيدتين مع ويد وبرسي في بيت أضحى أكثر هدوءاً على الرغم من استمرار دوي المدافع.

19

في هـذه الأيام الأولى من الحصار، عندما كان الشماليون يُسحقون هنا وهناك أمام المدافعين عن المدنية، استولى الرعب على سكارلت من القنابل المتفجرة، بحيث لم تستطع إلا الانحناء خوفاً وهي عديمة الحيلة، ويداها على أذنيها، تتوقع في كل دقيقة أن يعصف بها الفناء إلى عالم الأبدية. كانت كلما سمعت الصفير الذي ينذر باقتراب القنبلة، تندفع إلى غرفة ميلاني وتقذف بنفسها على السرير إلى جانبها فتمسك كل بصاحبتها وتأخذان بالزعيق: «آه! آه!» دافنتين رأسيهما بين الوسائد. أما برسي وويد فكانا يفران إلى القبو، ويجلسان القرفصاء في ظلمته التي يتخللها نسيج العنكبوت: برسي تولول بأعلى صوتها، وويد يشهق ويفوق.

كانت سكارلت، وهي تكاد تختنق تحت وسائد الريش، والموت يزأر فوق رأسها، تلعن ميلاني في سرها، لأنها كانت تمنعها من الالتجاء إلى الزوايا الأكثر أماناً تحت السلالم. ذلك لأن الطبيب منع ميلاني من المشي، فاضطرت سكارلت إلى البقاء معها. وبالإضافة إلى فزعها من أن تتطاير إرباً إرباً، كان هناك فزع رهيب يعادله، فزع ناجم من احتمال مقدم طفل ميلاني في كل لحظة، ولذا كان العرق يسح منها رطباً دبقاً كلما طرق هذا الموضوع تفكيرها... فماذا تفعل إذا دب المخاض؟ كانت تعرف أنها تفضل ترك ميلاني تموت على أن تخرج

إلى الشارع وتبحث عن الطبيب تحت القنابل المتساقطة كأمطار أبريل، وكانت تعرف أيضاً أن برسي قد تُضرب حتى الموت، قبل أن توافق على المخاطرة والخروج. فماذا تفعل إذا دب المخاض؟

وذات مساء، بحثت هذه الأمور مع برسي في نقاش مهموس، وكانتا تعدّان صينية العشاء لميلاني، وأدهشها كثيراً أن تسكن برسي روعها قائلة:

- «يا آنسة سكارلت، حتى لو لم نستطع إيجاد الطبيب أثناء ولادة ميلاني، فلا تجزعي، إن في وسعي تدبر الأمر، لأني أعرف كل ما يتعلق بالتوليد. ألم تكن والدتي قابلة؟ ألم تدربني لأكون قابلة كذلك؟ اتركي الأمر لي وحسب!».

فتنفست سكارلت الصعداء، وقد علمت بوجود الأيدي الخبيرة على مقربة منها، ولكنها مع ذلك تلهفت للانتهاء من المحنة وتخطيها، فراحت تصلّي كل ليلة، تحثها الرغبة الجنونية في الابتعاد عن القنابل المتفجرة، ويحرقها الشوق القاتل للعودة إلى تارا، موطنها الآمن. وكان لسانها يلهج داعياً أن يقع الحدث المرجو في الصباح التالي، وبذلك تتحرر من وعدها، وتستطيع مغادرة أتلانتا. ولقد كانت تارا تبدو آمنة جداً لها، بعيدة جداً عن كل هذه البأساء.

تاقت سكارلت إلى بيتها، وإلى أمها، كما لم تتق إلى أي شيء آخر في عمرها كله. لو أنها فقط قرب إيلين، لما أحست بالخوف، ولما همَّها الذي حدث. كانت في كل ليلة، وبعد نهار حافل بالزعيق والقنابل التي تصم الآذان، تأوي إلى فراشها عازمة على إخبار ميلاني في الصباح التالي أن ليس في وسعها بعد احتمال أتلانتا يوماً آخر، وأن لا بد من السفر إلى البيت، وأن على ميلاني الانتقال إلى بيت السيدة ميد، ولكن ما كانت تضع رأسها على الوسادة، حتى كان

ينتصب أمام ذاكرتها وجه آشلي، كما ظهر في آخر مرة رأته، مجهوداً كأنه يعاني من ألم داخلي، إلا أن ابتسامة خفيفة كانت تزين شفتيه:

- «ستعتنين بميلاني... أليس كذلك؟ أنت قوية جداً... عديني»

ولقد وعدته. وها هو الآن يرقد في مكان ما تحت الثرى. وحيثما كان، فهو يراقبها، يربطها إلى ذلك الوعد، وهي لا تستطيع تبديد أمله حياً كان أو ميتاً ومهما كان الثمن الذي تدفعه. وعلى ذلك ظلت في أتلانتا يوماً بعد يوم.

وفي الرد على رسائل إيلين التي كانت تلتمس قدومها إلى البيت، كانت سكارلت تقلل من شأن أخطار الحصار، شارحة مأزق ميلاني، واعدة بالقدوم فور ولادة الطفل. وأجابتها إيلين، التي كانت تراعي أواصر القرابة، دموية أو زوجية، موافقة على مضض، على وجوب بقائها، شريطة أن يرحل ويد وبرسي إلى البيت فوراً، وقد رحبت برسي بهذه الفكرة كثيراً، بعد أن أضحت الآن في خبل من صرير الأسنان إثر كل صوت مفاجئ، وبعد أن كانت تقضي معظم الوقت قابعة في القبو، بحيث كان يمكن أن يسوء غذاء الفتاتين، لولا بيتسي العجوز البليدة، خادمة السيدة ميد.

كانت سكارلت متلهفة كأمها، إلى إبعاد ويد عن أتلانتا، ليس من أجل سلامة الطفل وحسب، بل لأن خوفه الدائم كان يرمضها.

كانت الانفجارات تروعه وتصيبه بالبكم. وحتى بعد عودة الهدوء، كان يظل متعلقاً بأهداب أمه، شديد الذعر، لا يقوى على الصراخ. كان يخاف الذهاب إلى سريره في الليل، يخاف الظلمة، يخاف أن ينام لئلا يأتي الشماليون ويقتادوه. وكان صوت نحيبه في الليل يؤرق أعصابها لدرجة لا تُحتمل. وكانت هي أيضاً ترتعد فرقاً في سريرها، ولكن الذي كان يمضّها أن وجهه المتوتر المتغضن كان يذكّرها بذعرها كل دقيقة، أجل! إن تارا هي المكان الأمين لويد،

وعلى برسي أن تصحبه إلى ذلك المكان وتعود فوراً، لتكون حاضرة ساعة الولادة.

ولكن قبل أن تتمكن سكارلت من إرسال الاثنين في رحلتهما إلى تارا، وصلت أنباء تقول إن الشماليين زحفوا جنوباً، وإنهم يناوشون الجنوبيين على طول السكة الحديد بين أتلانتا وجونسبورو... هب أن الشماليين استولوا على القطار الذي يحمل ويد وبرسي... وغاض الدم من وجهي سكارلت وميلاني من جرّاء هذا الخاطر لأن الجميع يعرفون أن فظائع الشماليين في الأطفال القاصرين كانت أبشع حتى من تنكيلهم بالنساء. وهكذا خافت ترحيله إلى البيت، فبقي في أتلانتا شبحاً صغيراً صامتاً مذعوراً، يجرجر قدميه خلف أمه، ويخشى إفلات تنورتها من يده، ولو لدقيقة واحدة.

استمر الحصار خلال أيام يوليو الحارة، أيام راعدة تنصرم بعد ليال من الوحشة والسكون المشؤومة. وبدأت المدينة تنظم نفسها. كان الأمر المحذور قد وقع، فلم يكن ما يخافونه بعد، لقد خافوا الحصار وها هم الآن قد وقعوا فيه، ولم يكن هو على الرغم من كل هذا بالشر الأكبر، ففي إمكان الحياة معه أن تستمر على وتيرتها كما حصل معهم. لقد عرفوا أنهم كانوا يعيشون فوق بركان، ولكن إلى أن يثور هذا البركان، لم يكن في مقدورهم عمل شيء، وإذن فلماذا يقلقون الآن، وقد لا يثور البركان أبداً؟ ثم تأمل فقط كيف يصد الجنرال هود الشماليين خارج المدينة! وانظر كيف يحمي الفرسان السكة الحديد المؤدية إلى ميكون... لا، لن يقوى شيرمان على احتلال أتلانتا.

ولكن على الرغم من كل اللامبالاة التي كانت متجلية في وجوههم، اللامبالاة بالقنابل المتساقطة والغذاء المتضائل، وعلى الرغم من كل تجاهلهم للشماليين الذين كادوا لا يبعدون ميلاً واحداً عنهم، وعلى الرغم من كل ثقتهم المطلقة بالجنود الرماديين المرهقين

في الخنادق، كانت تنبض تحت جلودهم تماماً ريبة نهاشة، ريبة بما سيحمله لهم يومهم التالي، ريبة، قلق، أسف، جوع، وعذاب يسعره الأمل المشرق تارة والخابي طوراً... كل هذا كان يبري تلك الجلود... جلودهم.

واستمدت سكارلت تدريجياً الشجاعة من وجوه أصدقائها الشجعان، ومن التكييف الرحيم الذي تفرضه الطبيعة، عندما يتوجب احتمال ما لا بد منه. غير أنها بالطبع ظلت تثب عند سماع الانفجارات، ولكنها لم تكن تجري زاعقة لتخبئ وجهها تحت وسادة ميلاني، لقد صار في وسعها الآن أن تبلع ريقها وتقول باستخذاء:

- «لقد انفجرت تلك في مكان قريب، أليس كذلك؟».

وكذلك قل خوفها، لأن الحياة قد اتخذت صفة حلم، حلم رهيب جداً بحيث لا يمكن أن يكون حقيقياً، فمن المستحيل أن تكون هي، سكارلت أوهارا، في مأزق كهذا المأزق، وخطر الموت يتهددها في كل ساعة، بل في كل دقيقة.

من المستحيل أن يكون مجرى الحياة الهادئة قد تغير إلى هذه الدرجة الكلية، وفي وقت قصير كهذا. لا، إنه غير حقيقي، غير حقيقي بصورة غريبة فاضحة، أن تكون سماء الصباح التي تنبلج زرقاء حنونة قد تدنّست بدخان المدافع السابح فوق المدينة كغيوم الرعد المنخفضة، وأن تكون الظهيرة الزاخرة بالجمال الآخاذ، وبعناقيد أزهار العلندا والورود المتسلقة قد استحوذ عليها كل هذا الخوف بينما القنابل تزأر في الشوارع، تنفجر كدويّ الدينونة، يوم ينفخ في الصور، قاذفة بشظايا الحديد إلى بُعد مئات الياردات، ممزقة الإنسان والحيوان شر ممزق.

لقد انقضى عهد قيلولة بعد الظهر الناعسة الهادئة. فعلى الرغم من أن ضجيج المعركة كان يسكن من وقت إلى آخر، فإن شارع بيتشتري كان لا ينقطع عن الحياة والضجيج طوال جميع الساعات: فسيارات

الإسعاف وعربات المدافع كانت تهدر فوق أرضه، والجرحى يتعثرون فيه قادمين من الخنادق، وفصائل الجنود تندفع في مضاعف سرعتها، وقد أمرت بالانتقال من خنادق أحد جوانب المدينة إلى نقطة من التحصينات في جانب آخر، نقطة تعاني ضغطاً شديداً، ثم كان هنالك المراسلون، ينطلقون كالبرق في الشارع باتجاه القيادة، كأن مصير الحلف كان متوقفاً عليهم.

حملت ليالي الحر في طياتها هدوءاً نسبياً، ولكنه هدوء مشؤوم، فحين كان يهدأ الليل، كان هدوؤه تاماً شاملاً، حتى كأن الخوف كان يستولي فيه على ضفادع الأشجار والصراصير والعصافير، بحيث لم تكن تقوى على رفع أصواتها بألحانها المعتادة أثناء ليالي الصيف. وكان يشق السكون بين الفينة والأخرى أزيز رصاصة منطلقة في آخر مرحلة من مراحل الدفاع.

وغالباً ما ظلت سكارلت في ساعات الليل الأخيرة مستيقظة فوق سريرها، والأضواء مطفأة، وميلاني نائمة، وهي تسمع صرير مزلاج البوابة الأمامية، وقرعات خفيفة مستعجلة تطرق الباب الأمامي. فقد كان يقف دائماً في الشرفة المظلمة جنود مجهولون، وتخاطبها أصواتهم من الشرفة الحالكة، أصوات كثيرة متباينة اللهجات، صوت مهذب طوراً، منبعث من الظلال، يقول:

- «اعتذاراتي المتواضعة يا سيدة لأني أزعجتك، ولكن هل في وسعي الحصول على شربة ماء لي ولحصاني؟».

وصوت أجش تارة أخرى، يرتفع من جندي جبلي، وصون أخن حيناً، يصدر عن رجل ريفي من سهول وايرغراس الواقعة في أقصى الجنوب، ثم صوت بطيء هادئ من أحد أبناء الساحل، صوت كان يعلق بقلبها، لأنه كان يذكّرها بصوت إيلين:

- «إن معي زميلاً هنا يا آنسة، كنت أريد إيصاله إلى المستشفى،

ولكن يبدو أنه لن يبقى على قيد الحياة حتى نبلغه، فهل في وسعك إدخاله؟».

- «من المؤكد يا سيدة أن في إمكاني الاكتفاء ببعض البلغة ومن المؤكد أني سأستسيغ قطعة من خبز الذرة، على أن لا تبقيك بلا خبز».

- «اصفحي عن دخولي بلا إذن يا سيدة، هل في وسعي قضاء الليلة على شرفتك؟ لقد رأيت الورود، وتنسمت رائحة العلندا، وشعرت كأنه بيتي إلى حد كبير، ولذلك تجرأت على الدخول».

لا! لم تكن هذه الليالي حقيقية، بل كانت حلماً رهيباً فيه رجال بلا أجساد ولا وجوه، وإنما هم أصوات مرهقة تخاطبها من الظلمة الدافئة. أضف إلى ذلك أن أعمالها كانت مستمرة، من تقديم الماء وجلب الطعام ووضع الوسائد على الشرفة الأمامية إلى تضميد الجراح ومسك رؤوس المائتين القذرة. . . لا، لا يمكن أن يكون قد حدث لها كل هذا!

ومرة في آواخر يوليو، كان طارق الليل هو العم هنري هاملتون، العم هنري ولكنه الآن من دون مظلته ومزداته، ومن دون معدته البدينة أيضاً. كانت بشرة وجهه السمين المورد، تتدلى في طيات مرتخية كلغد كلب كبير، وكان شعره الأبيض الطويل قذراً بصورة لا توصف، وقدماه حافيتين تقريباً، والقمل يسري في جسده، والجوع يعضه بنابه، غير أن روحه النزقة كانت لا تزال هي هي.

وعلى الرغم من عبارته «لا شك أنها حرب حمقاء، تلك التي يخرج فيها العجزة الأغبياء مثلي لجر المدافع» كان لدى الفتاتين انطباع أن العم هنري كان يمتع نفسه. فقد كان الجيش في حاجة إلى أمثاله، حاجته إلى الشبان، وكان العم هنري يقوم بعمل شاب، بل إنه استطاع أن يجاري الشباب، الأمر الذي خرج عن طوق غراندبا ميريويذر، كما

أخبرهما جدلاً. فقد كان أسفل ظهر غراندبا يؤلمه كثيراً، وقد أراد الكابتن فصله، ولكن غراندبا رفض العودة إلى البيت قائلاً بصراحة إنه يفضّل مذمة الكابتن وتأنيبه على دلال كنته وطلباتها الدائمة في أن يبطل مضغ التبغ، ويغسل لحيته كل يوم.

كانت زيارة العم هنري قصيرة، إذ لم يكن في حوزته إلا إجازة أربع ساعات كان يحتاج إلى نصفها للمسيرة الطويلة من الخندق وإليه.

- «يا فتاتي، سوف أنقطع عنكما مدة» أعلن ذلك وهو يجلس في مخدع ميلاني، محركاً بسرور قدميه المقرحتين، في دلو الماء البارد الذي وضعته سكارلت أمامه. «ستخرج فرقتنا في الصباح».

- «إلى أين؟» سألت ميلاني مذعورة، قابضة على ذراعه.

- «لا تضعي يدك عليّ. . .» قال العم هنري منفعلاً، «فالقمل يسرح في جسدي، الآفة التي لولاها، ولولا الزحار، لكانت الحرب مجرد نزهة ممتعة، أما إلى أين أنا ذاهب، فلم أبلغ عن ذلك غير أني كوَّنت فكرة صحيحة عن خطة سيرنا. سنتجه جنوباً نحو جونسبورو في الصباح إن لم أكن على خطأ كبير».

- «ها! لماذا نحو جونسبورو؟».

- «لأنه سينشب قتال ضارٍ هناك يا آنستي، سيستولي الشماليون على ذلك الخط الحديدي إن استطاعوا. وإذا ما حدث ذلك فوداعاً يا أتلانتا!».

- «آه، عم هنري، هل تعتقد أنهم قادرون على ذلك؟».

- «ماذا تقولان أيتها الفتاتان! كيف يقدرون وأنا موجود هناك؟» أجاب العم هنري ساخراً من الرعب في وجهيهما، ثم أردف جاداً: «لا بد أنه سيكون قتالاً ضارياً يا فتاتي، ولا بد لنا من النصر. أنتما تعلمان، لا شك، أن الشماليين استولوا على كافة الخطوط الحديدية

سوى ذاك الخط الممتد إلى ميكون، غير أن الخطوط الحديدية ليست كل ما استولى عليه الشماليون، فقد لا تكونان تعلمان أنهم استولوا على كل طريق، وكل زقاق عربة، وكل ممر خيل عدا طريق ماك دونو. لقد أضحت أتلانتنا في جوف كيس، وخيوط هذا الكيس متجمعة في جونسبورو، فإذا ما احتل العدو السكة الموجودة فيها، فسيكون في وسعه عندئذ شد الخيط، واصطيادنا، تماماً كاصطياد سنجاب داخل كيس، ولذلك لم نضع في حسابنا السماح لهم بالاستيلاء على ذلك الخط... يمكن أن أنقطع عنكما فترة يا فتاتي. لقد أتيت لوداعكما فقط، ولأطمئن إلى أن سكارلت ما زالت إلى جانبك يا ميلي».

- «طبعاً إنها إلى جانبي، فلا تقلق علينا يا عم هنري، واحرص على نفسك كل الحرص».

مسح العم هنري قدميه المبتلتين بقطعة السجاد المهترئة، وأنَّ وهو يرتدي حذاءه المهترء قائلاً:

- «ينبغي أن أذهب، فعليَّ أن أقطع خمسة أميال سيراً على الأقدام. هيا يا سكارلت جهّزي بعض الطعام لآخذه معي، أي طعام في حوزتك».

ونزل إلى المطبخ بعد أن ودّع ميلاني بقبلة، فوجد سكارلت تلفّ رغيفاً من خبز الذرة مع بعض التفاح في فوطة سفرة.

- «عم هنري... هل... هل الأمر في الحقيقة خطر إلى هذا الحد؟».

- «خطير؟ يا للّه، نعم! لا تكوني جبانة، فنحن في الخندق الأخير».

- «هل تظن أنهم سيبلغون تارا؟».

- «كيف...» طفق العم هنري يجيب مغتاظاً من العقلية النسوية

التي لا تفكر إلا في مصالحها الخاصة، من خلال القضايا العامة، غير أنه عندما لمح الهلع والكآبة في وجهها، هدأ صوته وقال: «طبعاً لن يبلغوا تارا، فهي على بُعد خمسة أميال من الخط الحديدي، الخط الذي يبغيه الشماليون. على أن وعيك يا آنستي ليس أكثر من وعي بقة يونيو». قالها وقد انفجرت ثورته فجأة «إني لم أقطع هذه المسيرة الطويلة الليلة لأودعكما فقط، وإنما أتيت لإطلاع ميلي على نبأ مؤسف. ولكني عندما هممت بالكلام، لم أستطع البوح، ولذلك سأدع الأمر لك لتنفذيه عني».

- «ليس آشلي - ألم تسمع شيئاً... أنه... ميت؟».

- «أصغي إليَّ، كيف يمكنني سماع شيء عن آشلي في الوقت الذي أنا فيه في الخندق، غائص في الوحل حتى مقعد سروالي؟» سأل الرجل العجوز محتداً، «لا، إن النبأ يتعلق بوالده، لقد قضى جون ويلكس».

جلست سكارلت فجأة والطعام في يدها لم يتم رزمه بعد. وأردف هنري قوله: «وقد جئت لأخبر ميلاني... ولكني لم أستطع، فعليك أن تخبريها وتقدّمي لها هذه».

وأخرج من جيوبه ساعة ذهبية ثقيلة تتدلى منها بعض الأختام، ورسماً يدوياً صغيراً للسيدة ويلكس الجدة المتوفاة منذ ردح من الزمن، وزوجاً من أزرار الردن الكبيرة. وعندما وقع بصر سكارلت على الساعة التي كانت قد رأتها مئات المرات في يد جون ويلكس، تجلت أمامها الحقيقة الأكيدة تعلن وفاة والد آشلي. وأذهلتها الصدمة فلم تستطع بكاء ولا كلاماً، بينما تململ العم هنري وسعل دون أن يتطلع إليها، لئلا يقع نظره على قطرات الدمع فيضطرب ويرتبك.

- «كان رجلاً شجاعاً يا سكارلت، أخبري ميلي بهذا، أخبريها أن تكتب بذلك لابنتيه. وكان جندياً ماهراً على الرغم من سنه الكبيرة. لقد

أصابته قنبلة نزلت رأساً عليه وعلى فرسه التي تمزق جسدها - لقد أجهزت عليها بنفسي، تلك المخلوقة التعسة. لقد كانت فرساً صغيرة جميلة، ومن الأفضل أن تكتبي عنها للسيدة تارلتون أيضاً، فهي تعلق الكثير عليها. صرّي الزاد يا بنيتي، فعليّ أن أنطلق. كفى يا عزيزتي. خففي عنك. أي طريقة أفضل من أن يموت العجوز وهو يقوم بعمل الشباب؟».

- «آه، كان ينبغي ألّا يموت، كان ينبغي ألّا يذهب مطلقاً إلى الحرب، كان ينبغي أن يعيش ويرى حفيده ينمو، وعندها يموت هانئاً مطمئناً في سريره. آه! لماذا ذهب؟ إنه لم يكن يؤمن بالانفصال، وكان يمقت الحرب...».

- «الكثيرون منا يحملون العقيدة نفسها، ولكن ما الفائدة؟» ومخط بشكل قبيح وأردف: «هل تعتقدين أني أسر في أن أدع رماة الشماليين يتخذونني هدفاً لبنادقهم، وأنا في هذه السن؟ لكن لا مجال للاختيار أمام الإنسان في هذه الأيام. قبِّليني قبلة الوداع يا بنيتي، ولا تجزعي من أجلي، سأخرج من هذه الحرب سالماً».

فقبَّلته سكارلت وسمعته يهبط السلّم في الظلام، ثم سمعت صرير مزلاج البوابة الأمامية. ووقفت هنيهة تتأمل ذكرياتها، ثم صعدت السلّم لتنبئ ميلاني.

* * *

في نهاية يوليو، وصلت الأنباء المؤسفة التي تنبأ بها العم هنري، والقائلة إن الشماليين قاموا بحركة التفاف في اتجاه جونسبورو. كان الشماليون قد قطعوا الخط الحديدي في نقطة تبعد أربعة أميال جنوب البلدة، ولكن فرسان الحلف أجلوهم عنها وعملت سرية المهندسين على إصلاح الخط تحت أشعة الشمس المحرقة والعرق يتصبب من رجالها.

واستبد قلق جنوني بسكارلت، ومضت أيام ثلاثة والرعب يتضخم في قلبها، إلى أن وصلت رسالة مطمئنة من جيرالد تؤكد أن العدو لم يبلغ تارا، وأن سكانها سمعوا ضجيج المعركة دون أن يروا شمالياً واحداً.

كان كتاب جيرالد زاخراً بالجعجعة والمباهاة عن معركة الخط الحديدي، كأنه هو الذي أنجز هذا العمل الباهر من دون مُعين. ثلاث صفحات كاملة حبّرها عن بطولة الجنود، وأخيراً في نهاية الرسالة، تحدث بإيجاز عن أن شقيقتها كارين كانت مريضة بالتيفوئيد كما تقول السيدة أوهارا، وأن لا داعي للقلق عليها. ولكن ينبغي عدم قدوم سكارلت إلى البيت الآن، حتى لو أصبح السفر بالقطار آمناً، فالسيدة أوهارا مسرورة جداً لأن سكارلت وويد لم يجيئا إلى البيت عند بدء الحصار، وهي تطلب من سكارلت الذهاب إلى الكنيسة للصلاة من أجل شفاء كارين.

أحست سكارلت بتأنيب الضمير وهي تقرأ هذه الفقرة الأخيرة، إذ كان قد مضى عليها شهور لم تدخل كنيسة، ولقد عنَّ لها يوماً أن هذا التقاعس إثم كبير، ولكن، ولسبب ما، شعرت أن التخلف عن الكنيسة هذه الأيام أخف وزراً منها فيما مضى. بيد أنها أطاعت أمها ودخلت الغرفة وجمجمت صلاة عجلة، وعندما نهضت من الركوع، لم تحس براحة النفس كما كانت تحس قبلاً بعد كل صلاة. وكانت سكارلت قد شعرت منذ مدة أن اللّه لم يعد يرعاها، ولم يعد يرعى الحلفيين والجنوب، على الرغم من ملايين الصلوات التي كانت تتصاعد إليه كل يوم.

جلست في الشرفة الأمامية تلك الليلة، وكتاب جيرالد إلى صدرها، حيث تستطيع لمسه بين الفينة والأخرى، فتقترب من تارا ومن إيلين. وكان مصباح نافذة الردهة يرسل أشعة ذهبية غريبة على الشرفة

المظلمة بورق الدوالي، وكانت شجيرات الورود الكثيفة الصفراء المتسلقة وأزهار العلندا تؤلف سوراً من مزيج عطري حولها. وكان السكون تاماً شاملاً بحيث لم يسمع منذ الغروب صوت قعقعة بندقية، فتراءت لها الدنيا بعيدة بعيدة. ومضت تترنح إلى الأمام وإلى الخلف، وحيدة يائسة منذ قراءة أنباء تارا، راجية لو كان إلى جانبها إنسان ما، أي إنسان حتى ولو السيدة ميريويذر. غير أن هذه كانت في عملها في المستشفى، كما كانت السيدة ميد تقيم حفلة تكريم لابنها فل العائد من الجبهة إلى البيت، أما ميلاني فكانت نائمة. ولم يكن ثمة أمل بقدوم زائر طارئ، فقد تضاءل عدد الزوار إلى الصفر هذا الأسبوع الأخير، لأن كل رجل قادر على المشي أمسى في الخنادق، أو في مطاردة الشماليين بالريف، بالقرب من جونسبورو.

والحقيقة أنها قلّما بقيت وحيدة كما هي الآن، وهي التي تمقت الوحدة، الوحدة التي تدفعها إلى التفكير، وأفكار هذه الأيام لم تكن سارة. وها هي تغرق كالآخرين في عادة التفكير في الماضي الميت.

وكان في وسعها هذه الليلة، وأتلانتا ساكنة هادئة، أن تغمض عينيها، وتترك العنان لخيالها، كي يحملها ثانية إلى سكون تارا الريفي، ويصور لها أن الحياة لن تتغير ولا تتغير. بيد أنها كانت تدرك أن الحياة في المقاطعة لن تعود إلى ماضيها أبداً. وفكرت في أبناء تارلتون الأربعة - التوأمين ذوي الشعر الأحمر، وتوم، وبويد - وأمسك الحزن الصامت بعنقها. أجل، كان يمكن لستيوارت أو برنت أن يكون زوجها، ولكن الآن. . . وبعد أن انتهت الحرب ورجعت لتعيش في تارا، لن تسمع صيحاتهما المدوية، وهما يندفعان في ممشى أشجار الأرز العريض. وفكرت في ريفورد كالفرت الذي كان يرقص رقصاً ساحراً. . . إنه لن يختارها ثانية لتكون شريكته في الرقص. . . وفكرت في ابني مونرو، وفي جو فونتين الصغير و. . . .

«آه، آشلي» شهقت مطرقة رأسها بين يديها، «لن أقوى على فراقك».

وسمعت صوت البوابة الأمامية تفتح، فرفعت رأسها بسرعة، وأمرت يدها تمسح عينيها المخضبتين. وعندما نهضت رأت ريت باتلر يتقدم في الممشى، حاملاً بيده قبعة باناما عريضة، ولم تكن قد رأته منذ اليوم الذي قفزت فيه من عربته العالية في فايف بوينتس، حيث عبّرت عن رغبتها آنئذ في أن لا تقع عيناها عليه في المستقبل. ولكنها الآن أحست بالسرور يغمرها، لظفرها بإنسان تتحدث معه، إنسان يروّح عن أفكارها عن آشلي. ولذلك سرعان ما أبعدت ذكراه عن مخيلتها. وكان من الواضح أن ريت نسي الحادث السيّئ العارض أو قد يكون تظاهر بنسيانه، فقد جلس على أعلى درجة عند قدميها، دون أن يتطرق إلى موضوع الخلاف بينهما.

- «هكذا لم تلجئي إلى ميكون! سمعت أن الآنسة بيتي قد نزحت، وعندئذ ظننت بالطبع أنك نزحت أيضاً، لذلك دهشت عندما رأيت المنزل مضاء فأتيت لأستوضح عن سبب تخلفك؟».

- «بقيت لأكون بجانب ميلاني. أنت تعرف أنها... حسناً، ليس في وسعها النزوح في هذا الوقت بالذات».

- «يا للهول» قال، وفي ضوء المصباح استطاعت رؤية وجهه يتجهّم، «أنت لا تقصدين القول لي إن السيدة ويلكس ما زالت هنا؟! لم أسمع في حياتي بلهاً كهذا، إن خطراً بالغاً يتهدد من في مثل حالتها».

وصمتت مرتبكة، فحالة ميلاني ليست مما يبحث مع رجل، وكذلك أربكها أن يشعر ريت باتلر بالخطر على ميلاني، فذاك الشعور كان يمضّ أي عزباء.

- «ليس من الشهامة مطلقاً أن لا تفكر في أن من المحتمل أن يلمّ بي سوء كذلك» قالت بحدة.

فرقصت عيناه طرباً:

- «سأحميك من الشماليين في أي وقت».

- «لست واثقة بأن هذا إطراء لي» قالت بارتياب.

- «لا، ليس هو إطراء» أجاب، «متى ستكفّين عن تقصّي الإطراء في أبسط أقوال الرجال».

- «عندما أكون على فراش الموت» أجابت مبتسمة، وهي تفكر أنه لا بد أن يوجد دوماً رجال يطرونها، حتى لو أن ريت لم يفعل ذلك أبداً.

- «غرور... غرور» قال، «لقد جاهرت به على الأقل».

وفتح علبة السيجار وأخذ واحدة، وقربها من أنفه لحظة، ثم أشعل عود ثقاب وأحنى قامته، مسنداً ظهره إلى عمود الشرفة، ومحتبياً بيديه، ثم راح يدخن بصمت لهنيهة قصيرة، بينما عاودت سكارلت ترنحها، والظلمة تلفهما بسكونها الشامل، ودفئها الليلي. وارتفع من زاوية الورود والعندليب نغم ليّن حييّ من طيور الحداء[1] المعششة فيها، والتي أفاقت من نومها، ولكنها ما عتمت أن أغرقت في الصمت ثانية كأنها قد فكرت في الأمر بشكل أفضل.

وفجأة ارتفعت ضحكة ريت من بين ظلال الشرفة، ضحكة خفيفة ناعمة.

- «وهكذا مكثت السيدة ويلكس! إن هذه أغرب حالة قابلتها في حياتي».

- «لا أرى أي غرابة فيها» أجابت مغيظة، متنبهة إلى قصده على الفور.

---

(1) ومعناها الطيور الساخرة - (المترجمان).

- «لا؟ ولكن في هذه الحال، تعوزك وجهة النظر المحايدة. كانت انطباعاتي منذ وقت مضى توحي بأن من العسير عليك احتمال السيدة ويلكس، فأنت تعتقدين أنها سخيفة حمقاء، كما أن آراءها الوطينة ترمضك، وقل أن تمر فرصة دون أن يزل لسانك بعبارة تحقير لها، ولذلك فمن الطبيعي أن يبدو غريباً بالنسبة إليَّ اختيارك الإقدام على هذه التضحية، والبقاء إلى جانبها وسط هذا القصف من المدفعية. ما هو السبب الحقيقي الذي دفعك إلى هذا العمل؟».

- «لأنها شقيقة تشارلي - وكشقيقة لي» أجابت بما استطاعت من وقار ورزانة مع أن الحرارة ارتفعت في وجنتيها.

- «تقصدين لأنها أرملة آشلي ويلكس».

فنهضت وهي تغالب سخطها.

- «كنت على وشك أن أصفح عن فعلتك السالفة الفظة، ولكن الآن لن أفعل ذلك. والحقيقة أني ما كنت لأدعك تطأ هذه الشرفة أبداً، لولا أني كنت منقبضة الصدر كئيبة و. . .».

- «اجلسي ورتبي شعرك المشعث» قال وقد تغيّرت لهجته، ثم نهض وأمسك بيديها، وأعادها إلى كرسيها، «لماذا أنت منقبضة الصدر؟».

- «آه، تلقيت اليوم رسالة من تارا، تقول إن الشماليين على مقربة من بيتنا، وإن شقيقتي الصغرى مريضة بالتيفوئيد و. . . و. . . ولذلك، حتى لو كان في وسعي الآن الذهاب إلى البيت، كما هي رغبتي، فلن تدعني أمي، لئلا يصيبني الداء أيضاً. آه، يا اللّه، إنني شديدة الرغبة في العودة إلى البيت!».

- «على كل حال، لا تبكي من أجل ذلك» قال وقد ازدادت لهجته عطفاً، «فأنت آمن هنا منك في تارا، حتى لو فتح الشماليون المدينة، فلن يؤذوك، بينما سيؤذيك التيفوئيد».

- «الشماليون لن يؤذوني؟! كيف تستطيع التفوّه بكذبه كهذه؟».
- «يا فتاتي العزيزة، ليس الشماليون شياطين، وليس لهم قرون أو حوافر كما يبدو أنك تعتقدين، إنهم شديدو الشبه بالجنوبيين... عدا أنهم بالطبع أسوأ أخلاقاً، ويتكلمون لهجات غريبة جداً».
- «كيف، الشماليون سوف...».
- «يغتصبون عفافك؟ لا أعتقد، مع أنهم طبعاً سوف يودّون ذلك».
- «إذا كنت ستسرف بالحديث، فسأدخل البيت» صاحت مبتهجة شاكرة لأن الظلمة تكتنف وجهها القرمزي.
- «كوني صريحة، ألم يكن ذلك ما فكرت فيه؟».
- «حتماً لا!»
- «ها، ولكن كان ذلك بعينه! ولا فائدة من ثورتك عليّ، لأني أقرأ أفكارك، وذلك ما تفكر فيه كل سيداتنا الجنوبيات، ذوات التربية الرقيقة والعقول الساذجة، إنهن يضعن ذلك نصب أعينهن بشكل دائم. أراهنك أن حتى المسنات كالسيدة ميريويذر...».

بلعت سكارلت ريقها بصمت، وتذكرت أنه حيثما اجتمعت سيدتان أو أكثر في هذه الأيام العصيبة، فإنهن كن يتهامسن بوقائع كهذه كانت تحدث دائماً في فرجينيا وتنيسي ولويزيانا، لا في الأنحاء القريبة مطلقاً، كان الشماليون يغتصبون عفاف السيدات، يبقرون بطون الأطفال بحرابهم، يحرقون البيوت على رؤوس الكبار والعجائز، وكان الجميع يعلم أن هذه الأنباء حقائق واقعة، على الرغم من أنهم لم يكونوا يتفوهوا بها جهراً في زوايا الشوارع. ولو كان ريت يملك قليلاً من الحشمة لآمن بواقعية هذه الأحداث، ولما تكلم عنها، علاوة على أن المسألة لم تكن مبعث مزاح.

واستطاعت سماعه يضحك سراً، ضحكة ناعمة. إنه مقيت

أحياناً، بل الحقيقة أنه مقيت معظم الأحيان. إن من الزري بالرجل أن يعرف ما يدور في خاطر المرأة ويتحدث به، إذ إن ذلك يجعلها تحس كأنها عارية تماماً، كما أن أحداً من الرجال لم يطلع على أنباء كهذه من السيدات الشريفات، ولذلك غضبت سكارلت لأنه قرأ ما يدور في خاطرها، وهي التي ترغب في الاعتقاد بأنها شيء غامض بالنسبة إلى الرجال، مع أنها كانت تعرف أن ريت يعتبرها شفافة كالزجاج.

- «بمناسبة الحديث في هذا الموضوع» تابع قوله، «هل عندك في البيت من يحميك أو يرعاك؟ السيدة المحترمة ميريويذر أو السيدة ميد؟ كلتاهما تنظران إليَّ دائماً كأنهما تعتقدان بأن وجودي هنا لا يحمل قصداً شريفاً».

- «السيدة ميد تأتي عادة في الليل» أجابت سكارلت مغتبطة بتغيير موضوع الحديث، «بيد أنها لا تستطيع المجيء هذه الليلة لأن ابنها فل عاد إلى البيت».

- «إن من حسن طالعي أن ألقاك وحيدة» قال برقّة، ولكن شيئاً في صوته جعل قلبها يقرع في تسارع سار، وأحست بوجهها يحمر خجلاً. لقد سمعت تلك النغمة كثيراً في أصوات الرجال، بحيث تدرك أنها تمهد لإعلان الحب. آه، ما ألذها مناسبة. إن هو فقط صرح الآن بأنه يحبها، فكيف ستعذبه وتسوي حسابها معه، مقابل كل تلك العبارات الساخرة التي لذعها بها خلال السنوات الثلاث الماضية. ستقوده إلى مأزق حرج يعادل في وطأته ذلك الإذلال الرهيب الذي انتابها يوم شاهدها تصفع آشلي، ثم تخبره بكياسة أن في وسعها اعتباره كشقيق لها وحسب، وبعدئذ تنسحب بكل أمجاد الحرب الظافرة. وقهقهت بعنف، متوقعة ما يسرّها.

- «لا تقهقهي» قال آخذاً بيدها، ثم قبَّلها ضاغطاً شفتيه على راحتها. وما إن لمس فمه الدافئ بشرتها، حتى شعرت بشيء كهربائي

دافق ينتقل منه إليها، شيء هزّ جسدها بعنف. وزحفت شفتاه إلى معصمها، وأدركت أنه لا بد سيحس بخفقان نبضها، لأن قلبها كان يتسارع وجيبه، ولذلك حاولت جذب يدها. ولم تكن قد ساومت من قبل على مثل هذا... هذا الدفق الدافئ الخائن من الأحاسيس، الذي جعلها ترغب في إمرار يديها بين شعره، وفي أن تحس شفتيه تلثمان فمها.

إنها ليست أسيرة حبه، حدّثت نفسها مرتبكة، إنها أسيرة حب آشلي، ولكن كيف يمكن تفسير هذا الشعور الآني الذي جعل يديها ترتعشان وقرارة معدتها تحس. وضحك برقة:

- «لا تجذبيها، فلن أؤذيك».

- «تؤذيني؟ أنا لست خائفة منك يا ريت باتلر، أو من أي رجل ينتعل حذاء جلدياً!» صاحت وهي تتميز غيظاً بحيث ارتعش صوتها ويداها.

- «عاطفة تدعو إلى الإعجاب، ولكن أخفضي صوتك، فقد تسمعك السيدة ويلكس. أرجوك تهدئة ثائرتك».

وجاءت كلماته كما لو أنه كان مغتبطاً لفورتها: «سكارلت أنت تميلين إليّ، أليس كذلك». لقد كان ذلك أكثر مما كانت تتوقع.

- «... بعض الأحيان» أجابت بحذر، «عندما لا تتصرف كوغد».

فضحك ثانية رافعاً راحة يدها إلى وجنته:

- «أعتقد أنك تميلين إليّ لأني وغد. لقد عرفت قليلاً جداً من الأوغاد المختبئين وراء ثيابهم خلال حياتك المحصنة، بحيث إن مجرد اختلافي عنهم يحمل سحراً غريباً بالنسبة إليك».

لم يكن هذا هو الدور الذي توقعت حدوثه، ولذلك حاولت ثانية نزع يدها من قبضته، دون أن تفلح.

- «ليس صحيحاً ما تقول، فأنا أميل إلى الرجال الشرفاء، الرجال الذين يمكن الاعتماد على مروءتهم دائماً».

- «تقصدين الرجال الذين يمكنك العربدة عليهم دائماً. القضية تنحصر في اختلاف التعريف وحسب وليس هناك أي فرق».

وقبَّل راحتها ثانية، وثانية دبَّ جلد ظهر رقبتها بشكل مثير.

«ها» فكرت منتشية بالفوز، لقد وقع في يدي الآن! ثم أجابت ببرود مقصود: «في الحقيقة لا، يعني... لن يكون ذلك قبل أن تحسن أخلاقك تحسيناً بالغاً».

- «ليست لدي نية على تحسينها، وإذن لن يمكنك أن تحبّيني؟ وهذا ما كنت أرجوه، لأني لا أحبك، رغم ميلي العظيم إليك. وعلى ذلك سيكون من المؤلم حقاً بالنسبة إليك أن تعاني الأمرّين من حب غير متبادل. أليس كذلك يا عزيزتي؟ هل تسمحين بأن أدعوك «عزيزتي» يا سيدة هاملتون؟ سأدعوك عزيزتي، شئت أم أبيت، لا فرق عندي فاللياقة لا بد أن تراعى».

- «ألا تحبّني؟».

- «لا، لا أحبّك، في الحقيقة، هل كنت تأملين في أن أحبك؟».

- «لا تكن وقحاً إلى هذا الحد».

- «كنت تأملين! وا أسفاه على تحطيم آمالك. كان ينبغي أن أحبك لأنك ساحرة وموهوبة في مآثر كثيرة تافهة. بيد أن كثيراً من السيدات ينعمن بالسحر والمواهب وهنّ عديمات الجدوى مثلك. لا، أنا لا أحبّك، ولكن أميل إليك ميلاً هائلاً لمرونة ضميرك، لأنانيتك التي نادراً ما كلفت نفسك عناء إخفائها، ولواقعيتك الماكرة التي أخشى أن تكوني ورثتها من جد إيرلندي ريفي، لا يبعد عنك كثيراً».

ريفي! ما هذا! إنه يهينها! طفقت تجمجم بإبهام.

- «لا تقاطعيني» رجاها ضاغطاً يدها، «إني أميل إليك لأني أملك

هذه الصفات ذاتها، والنظير يخلق في النفس الهوى. لقد ثبت أنك ما زلت تكرمين ذكرى السيد ويلكس، شبيه الآلهة، وذي الرأس الخشبي، والذي من المرجح أن يكون في قبره خلال هذه الشهور الستة، ولكن ينبغي أن يوجد لي في قلبك متسع أيضاً. سكارلت كفّي عن الحركة، إني أصارحك. لقد رغبت فيك منذ المرة الأولى التي وقع بصري فيها عليك في قاعة تولف أوكس، عندما كنت تخلبين عقل تشارلي هاملتون المسكين، رغبت فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى».

وتولتها الدهشة، وشخصت نحوه محتبسة النفس، بفعل كلماته الأخيرة. فعلى الرغم من جميع إهاناته، كانت تحس أنه يحبها، ولكن كان مشاكساً بحيث لم يشأ التصريح بذلك قولاً، خوفاً من أن تقابل تصريحه بالضحك... حسناً، سوف تريه، الآن فوراً.

- «هل تسألني الزواج بك؟».

فأفلت يدها، وقهقه بصوت مرتفع مدوٍّ جعلها تتراجع منكمشة في كرسيها.

- «يا للّه! لا! ألم أخبرك أني لست رجل زواج؟!».

-« ولكن... ولكن... ماذا...».

ونهض على قدميه في الحال، ووضع يده على قلبه وانحنى أمامها فجأة انحناءة سخرية:

- «عزيزتي» قال بهدوء، «إني أطري مواهبك عندما أسألك أن تكوني محظيتي دون أن أكون أنا الذي أغويتك أول مرة».

محظية!

صاح عقلها بالكلمة، صاح بأنها أهينت بصورة مرذولة. ولكن، في جفلة الوهلة الأولى، لم تشعر بالإهانة، وإنما فقط بموجة حانقة من السخط، لأنه يعتبرها غبية إلى هذه الدرجة. ولا بد أنه يعتبرها غبية طالما أنه قدم لها اقتراحاً كهذا بدلاً من اقتراح الزواج الذي توقعته.

واشترك الغضب والغرور الجزع والخيبة المريرة في قذف عقلها في دوامة رهيبة، وقبل أن تفكر حتى في الأصول الخلقية الرفيعة، التي ستوبخه على أساسها، تعجلت في الهذر بالكلمات الأولى التي بلغت شفتيها:

- «محظية! ماذا ينالني من ذلك غير مجموعة من أولاد السفاح؟».

ثم فغرت فاها مذعورة، عندما أدركت بشاعة ما نطقت به، وأغرق هو في الضحك حتى كاد يغص ورنا إليها من بين الظلال، وهي تجلس هلعة خرساء، تضغط منديلها على فمها.

- «ذلك هو سبب ميلي إليك. إنك المرأة الصريحة الوحيدة التي أعرفها، المرأة الوحيدة التي تنظر إلى النواحي العملية من الأمور، دون أن تشوه النتائج بالهذيان حول الخطيئة والفضيلة. كما أن أي امرأة أخرى كان يمكن أن يغمى عليها أولاً، ثم تريني الباب».

فوثبت على قدميها ووجهها مخضب بالعار. كيف وسعها أن تتفوّه بكلام كهذا! كيف وسعها وهي ابنة إيلين، بتربيتها الراقية، أن تجلس هناك وتصغي إلى كلمات فاسقة كتلك ثم ترد بجواب سليط كهذا؟ كان ينبغي أن تزعق، كان ينبغي أن يغمى عليها، كان ينبغي أن تدير ظهرها، وتنسحب ببرود وسكينة، وتغيب عن الشرفة، لقد تأخرت كثيراً الآن.

- «سأريك الباب» صرخت دون أن تبالي بما إذا كانت ميلاني أو آل ميد يسمعونها من الشارع، «اخرج، كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الأمور؟ ما الذي بدر مني لتشجيعك... لعلك تظن... اخرج وإياك العودة إلى هنا، إني أعني ما أقوله هذه المرة. إياك العودة إلى هنا بأي من رزمك التافهة من الإبر والشرائط. تعتقد أني سوف أعفو عنك، سوف... سوف أخبر والدي وسيقتلك».

فالتقط قبعته وانحنى، ورأت فمه في ضوء القنديل، يفترّ عن

ابتسامة تحت شاربيه، وتراءى لها أنه يشعر بالعار وإنما طرب فرحاً بما قاله، وأنه كان يراقبها باهتمام متيقظ.

آه، لقد كان مقيتاً لا يطاق! واستدارت على قدميها، ومشت إلى داخل البيت ثم أمسكت بمصراع الباب لتغلقه في قذفة مدوية، ولكن الكلابة التي كانت تحتفظ به مفتوحاً كانت أثقل مما تستطيع رفعه، فبذلت كل ما في وسعها وهي تلهث.

- «هل تسمحين بمساعدتك؟» سأل.

ولكنها انطلقت تصعد السلّم، وقد أحست أنها ستتفجر دماً إن هي انتظرت دقيقة أخرى. وعندما بلغت الطابق العلوي، سمعته يغلق الباب عنها بعنف، وهو شاكر.

20

بينما كانت أيام أغسطس الحارة الصاخبة تقارب نهايتها، انقطع سقوط القنابل فجأة، واستولى العجب على أهل المدينة من هذا الهدوء الشامل الذي اكتنفهم، وراح الجيران يتلاقون في الشواراع يتبادلون النظرات مشدوهين مرتابين، قلقين مما قد يتهددهم. لم يكن هذا السكون الذي تلا تلك الأيام الهادئة يحمل في شموله نهاية لتوتر الأعصاب المرهقة، بل إنه، إذا أمكن القول، زاد في توترها وإرهاقها. ولم يدرِ أحد لماذا صمتت مدفعية الشماليين، ولم يسمع من الأنباء إلا أن الجنود ينسحبون من استحكاماتهم حول المدينة، ينسحبون بأعداد كبيرة متجهين إلى الجنوب، للدفاع عن السكة الحديد. ولم يكن أحد يعرف أين يدور القتال، إذا كان يوجد قتال حقاً، أو كيف تسير المعركة إذا كان هناك من معركة.

ففي هذه الأيام، كان النبأ الوحيد هو ذلك الذي ينتقل من فم إلى آخر، وذلك بسبب النقص في الورق والحبر والرجال، الأمر الذي اضطر الجرائد إلى التوقف عن الصدور، فراحت أغرب الإشاعات تنبع من مصادر مجهولة وتجتاح المدينة.

والآن في هذه الهدأة المغلقة، حاصرت الجماهير مركز قيادة الجنرال هود تنشد الأنباء. وكذلك تجمعت جماهير أخرى حول دائرة البرق والمحطة، تأمل في سماع البشائر، البشائر الطيبة. فقد كان

الجميع يأملون أن يكون صمت مدافع شيرمان يعني تقهقر الشماليين تقهقراً تاماً ومطاردة الحلفيين لهم شمالاً على الطريق إلى دالتون. ولكن لم يصل أي نبأ. وظلت أسلاك البرق ساكنة، والقطارات منقطعة عن القدوم فوق الخط الحديدي الوحيد الذي ظل يصل المدينة بالجنوب، كما أن الخدمة البريدية كانت متوقفة.

كان الخريف يتسلل بحرارته التي تقطع الأنفاس والمصحوبة بالغبار، يتسلل ليخنق المدينة التي هدأت فجأة، ليضيف عبئه الجاف الراكد إلى القلوب القلقة المتعَبة. وبدا لسكارلت، المتلهفة حتى الجنون لسماع شيء عن تارا، والتي حاولت على الرغم من ذلك الاحتفاظ بمظهر الشجاعة، بدا كأن زمناً سرمدياً انقضى منذ بدء الحصار، وكأنها قضت حياتها ودوي المدافع دائماً في أذنيها، إلى أن خيّم هذا السكون المشؤوم. ومع ذلك، لم يكن قد مضى على بدء الحصار أكثر من ثلاثين يوماً، ثلاثين يوماً من الحصار والمدينة محاطة بالخنادق الحمراء التربة، ودوي المدافع المجلجل لا ينقطع، وسيل عربات الإسعاف وعجلات الثيران التي كانت تنقط الدم على الشوارع المغبرة، تتجه نحو المستشفيات، وفرق الدفن المنهوكة تجرجر الرجال الذين لم تكن جثثهم قد بردت، وتودعهم التراب ككتل خشبية، في صفوف لا تنقطع من الحفر الضحلة! فقط ثلاثون يوماً!

ولقد مضت أربعة أشهر فقط منذ زحف الشماليون جنوب دالتون! فقط أربعة أشهر! هجست سكارلت عائدة بالذكرى إلى ذلك اليوم البعيد، الذي كان كأنه وقع في حياة أخرى. آه لا! حتماً ليست شهوراً أربعة فقط... بل عمراً مديداً.

منذ أربعة أشهر! فقط منذ أربعة أشهر لم تكن دالتون ورسكا وجبل كنيساو بالنسبة إليها سوى أسماء نقاط على الخط الجنوبي وحسب، بينما هي الآن أسماء معارك، معارك حاسمة سفح الدم في

أرضها سدى، بعد أن تراجع جونستون نحو أتلانتا. وكذلك وادي بيتشتري وديكاتور وكنيسة عزرا ووادي يوتوي، لم تعد بعد اليوم أسماء بهيجة لأماكن بهيجة. ولم يعد في وسعها أبداً التفكير في هذه الأسماء كقرى وادعة تزخر بالأصدقاء الكرماء، أو كبقاع خضراء تذهب إليها للنزهة مع الضباط الوسام على ضفاف النهيرات البطيئة الجريان. لقد كانت هذه الأسماء تعني المعارك أيضاً، ولقد تقطعت الحشائش الطرية الخضراء، حيث كانت تجلس إرباً إرباً بفعل عربات المدافع الثقيلة. كانت تدوسها الأقدام اليائسة كلما تصافحت الحراب، كانت تلتصق بالأرض عندما تتدحرج عليها الأجسام هاذية بسكرات الموت. . .

وتلك الجداول الخاملة أمست الآن ذات لون أكثر احمراراً مما استطاع وحل جورجيا تخضيبها به في أي يوم. لقد غدا جدول بيتشتري قرمزياً كما يقولون، وذلك بعد أن عبره الشماليون. إن جدول بيتشتري وكنيسة عزرا وجدول يوتوي لم تعد أسماء أماكن أبداً، بل أسماء مقابر يرقد فيها الأصدقاء، أسماء أنجم متشابكة وغابات كثيفة، تتعفن فيها الأجساد دون أن توارى في الثرى، أسماء جهات أتلانتا الأربع، حيث حاول شيرمان التوغل بجيشه وحيث رده رجال هود بشراسة.

وأخيراً وصلت الأنباء من الجنوب إلى المدينة المتوترة الأعصاب. كانت أنباء مذهلة، خصوصاً لسكارلت، أنباء تقول إن الجنرال شيرمان يحاول اقتحام الجهة الرابعة من المدينة مرة ثانية، ضارباً مرة ثانية الخط الحديدي عند جونسبورو، وإن أعداداً هائلة من الشماليين تتأهب في جانب المدينة الرابع وإنها ليست وحدات استكشافية أو فصائل فرسان، بل قوى الجيش الرئيسة. ولذلك سحب ألوف الحلفيين من الخطوط القريبة من المدينة، ليطوحوا بأنفسهم في وجه العدو، وهذا ما يفسر السكون المفاجئ.

«لماذا جونسبورو؟» هجست سكارلت والرعب يقرع قلبها، وهي تفكر في قرب تارا من المكان. «لماذا يتوجب عليهم دائماً مهاجمة جونسبورو؟ لماذا لا يجدون مكاناً آخر يهاجمون منه السكة الحديد؟».

ومنذ أسبوع لم تكن قد تلقّت شيئاً من تارا، والرسالة الأخيرة الموجزة من جيرالد، زادت من مخاوفها. لقد أصيبت كارين بنكسة، وهي الآن مريضة جداً جداً. وهكذا ستمضي أيام قبل أن يصل البريد، أيام قبل أن تسمع ما إذا كانت كارين حية أو ميتة. آه، لو أنها فقط ذهبت إلى البيت في بدء الحصار، دون أن تلتفت إلى ميلاني أو غير ميلاني!

لقد كان هناك قتال في جونسبورو - هذا كل ما علمت به أتلانتا، ولكن لم يكن في وسع أحد معرفة سير القتال. وراحت الإشاعات المفزعة ترهق أعصاب المدينة. وأخيراً وصل ساعٍ من جونسبورو بالنبأ المطمئن القائل إن الشماليين قد دُحروا، إلا أنهم كانوا قد قاموا بهجوم على جونسبورو وأحرقوا المحطة وقطعوا أسلاك التلغراف، ونسفوا ثلاثة أميال من الطريق قبل انسحابهم. واندفعت سرية المهندسين تعمل كالمجانين في إصلاح الخط. ولكن ذلك سيستغرق وقتاً، لأن الشماليين دمّروا العوارض الخشبية وأحرقوها في نيران هائلة، واضعين فيها القضبان الحديدية الملوية، حتى أضحت حمراء كالجمر، ثم ثنوها حول أعمدة التلغراف التي بدت كلوالب ضخمة. وكان تأمين قضبان حديدية أمراً صعباً في هذه الأيام، شأن كل المواد الحديدية.

لا، لم يدخل الشماليون تارا، لقد أكد ذلك الساعي نفسه الذي حمل الرسائل إلى الجنرال هود، أكد ذلك لسكارلت، وكان قد قابل جيرالد في جونسبورو بعد المعركة، في اللحظة ذاتها التي كان يهم فيها بالانطلاق إلى أتلانتا، وقد رجاه جيرالد أن يحمل رسالة إلى ابنته.

ولكن ماذا كان يعمل بابا في جونسبورو؟ فبدا القلق على وجه

الساعي، وهو يجيب عن سؤالها. كان جيرالد يبحث عن أحد أطباء الجيش ليصحبه إلى تارا.

وبينما هي واقفة في الشمس على الشرفة الأمامية، تشكر الشاب على جهوده، أحسّت بركبتيها لا تقويان على حملها. لا بد أن تكون كارين بين أنياب الموت إذا كانت حالتها قد تجاوزت مهارة إيلين الطبية إلى درجة اضطرت جيرالد إلى البحث عن طبيب. وعندما غادرها الساعي في زوبعة صغيرة من الغبار الأحمر، شقت الغلاف بأصابعها المرتعشة، فإذا بجيرالد قد كتب رسالته بين سطور رسالتها الأخيرة، نظراً إلى كون الورق نادراً جداً في بلاد الحلف في هذا الوقت. ولذلك ألفت سكارلت صعوبة في قراءة الرسالة.

«ابنتي العزيزة: لقد أصاب التيفوئيد أمك وشقيقتك. إنهما في حالة شديدة من المرض، ولكن ينبغي أن نأمل تحسن حالتهما. عندما لزمت أمك الفراش، رجتني أن أكتب إليك، كي لا تجيئي هنا بأي وجه من الوجوه، لئلا تعرّضي نفسك ووِيد للوباء. إنها تبعث لك بتحياتها وتطلب منك الصلاة من أجلها».

«الصلاة من أجلها!» ونهبت سكارلت السلّم نهباً إلى غرفتها، وركعت على ركبتيها إزاء السرير، وصلت كما لم تصل من قبل، من دون تقيد بعبارات التسابيح الشكلية، وإنما بتكرار الكلمات نفسها مرات عديدة: «يا مريم العذراء، لا تدعيها تموت! سأكون صالحة جداً إذا لم تدعيها تموت! أرجوك، لا تدعيها تموت!».

وخلال الأسبوع التالي، كانت سكارلت تجول في البيت كحيوان مذعور تنتظر الأخبار، ترهف السمع عند سماع أدنى وقع حوافر الخيل، وتندفع هابطة السلّم المظلم في الليل، عندما يقرع الجنود الباب، ولكنها لم تسمع شيئاً عن تارا. وتراءى لها كأن عرض القارة

الأميركية كان يفصلها عن البيت، بدلاً من خمسة وعشرين ميلاً من الطريق المغبر.

كان البريد ما زال يتعرض للتلف، ولم يكن أحد يعرف مكان الحلفيين، أو إلى أين وصل الشماليون، ولم يكن أحد يعلم شيئاً سوى أن الآلاف من الجنود الرماديين والزرق يتمركزون في مكان ما، بين أتلانتا وجونسبورو. ومضى أسبوع، ولم تصل كلمة واحدة من تارا.

لقد رأت سكارلت إصابات كثيرة من التيفوئيد في مستشفى أتلانتا، بحيث كانت تعرف ما يعنيه أسبوع من ذلك المرض الرهيب.

إن إيلين مريضة، وربما كانت تعاني سكرات الموت. وها هي سكارلت هنا في أتلانتا عاجزة عن إتيان أي عمل، وامرأة حامل بين يديها، وجيشان يقفان بينهما وبين البيت. إن إيلين مريضة... وربما كانت تعاني سكرات الموت. ولكن إيلين لا يمكن أن تمرض! إنها لم تمرض مطلقاً في الماضي، إن مجرد فكرة مرض إيلين أمر لا يمكن تصديقه، أمر يقرع الأسس ذاتها التي تقوم عليها طمأنينة حياة سكارلت. كل إنسان آخر انتابه المرض؟ ولكن إيلين لم ينتبها أبداً. إن إيلين كانت تعتني بالمرضى من الناس وتنقذهم من أمراضهم، فلا يمكن أن تمرض هي... إن سكارلت تريد الذهاب إلى تارا، إنها تريد بلوغ تارا بالرغبة الجامحة لطفلة مرتاعة مهووسة تنشد الملجأ الوحيد الذي عرفته في حياتها.

البيت! البيت الأبيض المسطح، ذو السجف المؤّاجة البيضاء على نوافذه، والبرسيم الكثيف في مرجته التي يزدحم النحل حولها، والصبي الأسود الصغير على الدرجات الأمامية يهش على البط والديوك الرومية، يبعدها عن أحواض الزهور والحقول الحمراء الوقورة الساكنة، والأميال العديدة من القطن، المكتسبة لونها الأبيض في أشعة الشمس! البيت!

لو أنها فقط عادت إلى البيت عند بدء الحصار، عندما شرع الجميع بالنزوح، لكان في وسعها إذّاك اصطحاب ميلاني بأمان، ولكانت وفّرت على نفسها هذه الأسابيع المضنية.

«آه، لعنة اللّه على ميلاني» هجست ألف مرة، «لماذا لم تتمكن من الذهاب إلى ميكون مع العمة بيتي؟ فذاك مكانها، تبقى فيه، مع أقربائها وليس معي، فأنا لست قريبتها. لماذا تتعلق بي بهذه القوة؟ لو أنها ذهبت إلى ميكون، لكان في وسعي العودة إلى البيت، إلى أمي. حتى الآن... وحتى الآن، لولا هذا الوليد لاغتنمت أي فرصة وعدت إلى البيت، على الرغم من الشماليين، ربما منحني الجنرال هود حرساً لمرافقتي، فهو رجل طيب، وأنا واثقة أن في وسعي جعله يمنحني حرساً وعلم هدنة أبيض يحميني عبر الخطوط الحربية... ولكن عليَّ أن أنتظر قدوم هذا الوليد...

آه، أماه! أماه! لا تموتي... لماذا لم يأتِ هذا الوليد بعد؟ سأقابل الدكتور ميد اليوم وأسأله عما إذا كان هناك أي وسيلة للإسراع بالولادة كيما أستطيع العودة إلى البيت - إذا ما تمكنت من الحصول على حرس. لقد قال الدكتور ميد إنها ستعاني أثناء الولادة. يا للّه! هب أنها ماتت، ميلاني ميتة. ميلاني ميتة وآشلي - لا، لا ينبغي أن أفكر في هذا، فليس هذا حسناً. ولكن آشلي - لا، ينبغي ألّا أفكر في ذلك لأنه من المحتمل أن يكون ميتاً على كل حال. ولكنه ساقني إلى الوعد بأن أعتني بها، فإذا لم أعتنِ بها، وماتت، وظهر أن آشلي لا يزال حياً - لا، ينبغي ألّا أفكر في ذلك. إنه تفكير آثم، ولقد وعدت اللّه أن أكون صالحة إذا هو فقط لم يأذن بموت أمي. آه لو أن الوليد يولد الآن، لو أن في وسعي الرحيل من هذا المكان - الرحيل إلى البيت، الرحيل إلى أي مكان غير هذا المكان».

وكرهت سكارلت منظر المدينة الصامتة الموحي بالشر، ذلك

المنظر الذي كانت قد أحبته ذات يوم. لم تعد أتلانتا ذلك المكان البهيج، البهيج جداً، لم تعد المكان الذي أحبّته ذات يوم. لقد أمست مكاناً مخيفاً أشبه بمدينة موبوءة بالطاعون، يشملها السكون ويلفها الهدوء بشكل مرعب، كل ذلك بعد ضوضاء وقت الحصار. كان هناك آنذاك ما يثير الشعور، ويوقظ الأحاسيس أثناء دوي القنابل وضجيجها، بينما الآن لا ينجم عن هذا الهدوء الذي تلا إلا الرعب والفزع. وبدت المدينة مسكونة بالخوف والريبة والذكريات، وبدت وجوه الناس ملتاعة، كما أن الجنود القليلين الذين رأتهم سكارلت ظهروا بوجوه منهكة، وجوه متبارين يدفعون أنفسهم دفعاً لقطع المسافة الأخيرة من مباراة بانت خسارتها.

وأقبل اليوم الأخير من أغسطس، يحمل معه الإشاعات المؤكدة بأن أعظم قتال منذ ابتداء معركة أتلانتا، كان يدور الآن، في مكان ما إلى الجنوب. وانتظرت أتلانتا تحوُّل مجرى المعركة، منقطعة حتى عن محاولة الضحك أو المزاح، فالجميع يعرفون الآن ماذا عرفه الجنود منذ أسبوعين - أن أتلانتا في الخندق الأخير، وأنه إذا ما سقط خط حديد ميكون، سقطت أتلانتا أيضاً.

* * *

وفي صباح أول سبتمبر، استيقظت سكارلت يتملكها شعور خانق من الرعب يجثم على صدرها، رعب اصطحبته معها إلى وسادتها في الليلة السابقة. وفكرت والنوم في عينيها: «ما الذي كان يؤرقني عندما أويت إلى فراشي ليلة الأمس... ها، إنه القتال، كانت هناك معركة في مكان ما أمس! آه، من كسبها؟» وجلست في سريرها على عجل ورزح عبء الأمس على قلبها المؤرق ثانية.

كان الهواء مزعجاً حتى في ساعات الصباح الأولى، حاراً لافحاً ينذر في ظهيرة مزرقة السماء متوهجة، وشمس برونزية لا ترحم.

وكانت الطريق خارج البيت تمتد صامتة، لا عربات تصوت ولا جنود يثيرون عجاج الغبار الأحمر بوطء أقدامهم، وليس من أصوات زنجية خاملة صادرة من المطابخ المجاورة، ولا أصوات سارة منبعثة أثناء تحضيرات الفطور، لأن جميع الجيران عدا السيدة ميد والسيدة ميريويذر كانوا قد لجأوا إلى ميكون. ومع ذلك لم تستطع سكارلت سماع أي صوت صادر من بيتهما أيضاً. وكان القسم الصناعي من المدينة، الواقع على مسافة قليلة من نهاية الشارع، ساكناً كذلك، بينما كان العديد من المخازن والمكاتب مغلقة الأبواب، محصنة بألواح خشبية، قد نزح أصحابها إلى مكان ما في الريف والبنادق في أيديهم.

هذا السكون الذي حياها هذ الصباح تراءى لها أكثر شؤماً حتى من سكون أي من صباحات الأسبوع الصامت القريب الذي سبقه. نهضت مسرعة دون أن تمارس تثنّيها وتمطّيها المعتاد تمهيداً لمباشرة أعمال اليوم، واتجهت إلى النافذة، آملة رؤية وجه أحد الجيران، أحد المناظر المشجعة، ولكن الطريق كانت خالية. وشاهدت سكارلت كيف أن أوراق الشجر لا تزال خضراء اللون قاتمة، لكنها جافة مكسوة بطبقة كثيفة من الغبار، وكيف أن الأزهار المهملة كانت تبدو ذابلة حزينة في الساحة الأمامية.

وبينما هي واقفة تسرح النظر من النافذة، تناهى إلى سمعها صوت بعيد جداً، صوت خافت كئيب كالرعدة القصية الأولى لعاصفة تقترب.

«مطر» فكرت للوهلة الأولى، ثم أضافت بعقلها الريفي المنبثّ «نحن في حاجة إليه حتماً»، بيد أنها ما عتمت أن أردفت على الفور «مطر؟ لا! ليس مطراً! إنه مدفع!».

وانحنت فوق النافذة وقلبها يتسارع وجيبه، وأذنها مرهفة إلى الدوي البعيد البعيد، تحاول اكتشاف الجهة الصادر عنها. ولكن الهدير الخافت كان بعيداً جداً، بحيث لم تستطع لهنيهة معرفة المصدر.

«اجعله من مارييتا يا إلهي» صلّت، «أو من ديكاتور أو وداي بيتشتري، لا من الجنوب! لا من الجنوب!» وأمسكت بالنافذة بقوة أشد، وأرهفت أذنيها، وبدا الدوي البعيد كأنه أشد ارتفاعاً. . . وكان آتياً من الجنوب.

مدافع إلى الجنوب، وإلى الجنوب تقع جونسبورو وتارا وإيلين.

ربما كان الشماليون في تارا الآن، هذه الدقيقة! وأصغت ثانية، ولكن ضجيج الدم ملأ أذنيها مختلطاً بدوي المدافع البعيدة. لا، لا يمكن أن يكونوا في جونسبورو الآن، فلو كانوا على ذلك البعد، لكان الصوت أخفت، وأقل جلاء. لا بد أن يكونوا على بُعد عشرة أميال على الأقل، على الطريق المؤدية إلى جونسبورو. قد يكونون قرب مستعمرة رف آند ريدي، ولكن جونسبورو لا تكاد تبعد عن رف آند ريدي عشرة أميال.

مدافع إلى الجنوب، وقد يكون القوم يقرعون ناقوس سقوط أتلانتا. ولكن بالنسبة إلى سكارلت، المريضة هلعاً على سلامة أمها، كان القتال في الجنوب يعني القتال قرب تارا. ومشت في الغرفة وهي تعصر يديها، وحضرتها الفكرة بكل مضامينها، أن الجيش الرمادي يمكن أن ينهزم. ولقد جلا ذلك أمام مخيلتها التفكير في آلاف شيرمان القريبين جداً من تارا، التفكير الذي جلب لها الرعب التام من الحرب، كما لم تستطع مدافع الحصار، وهي تهشم زجاج النوافذ، ولا حرمان الغذاء والكساء، ولا الصفوف اللانهائية من الموتى، أن جيش شيرمان على بعد أميال قليلة من تارا! وحتى لو هُزم الشماليون فسيتراجعون عبر الطريق المؤدي إلى تارا، ولن يسع جيرالد النزوح من طريقهم بثلاث نساء مريضات.

آه، ليتها هناك الآن وحسب، سواء أكان يوجد شماليون أم لا.

وخطت على الأرض بقدميها العاريتين وثوب نومها ملتصق بساقيها،

وكلما تتابعت خطواتها، تفاقم تشاؤمها. إنها ترغب في أن تكون في البيت، إنها ترغب في أن تكون على مقربة من إيلين.

ومن المطبخ في الطابق السفلي، سمعت قرقعة الصحون الصينية بينما كانت برسي تعدّ الفطور، ولكنها لم تسمع ما يشير إلى وجود بيتسي آل ميد، ثم علا صوت برسي الكئيب الحاد بأغنية «أيام قليلة بقيت، لتحمل العبء المنهك...» وجرحت الأغنية شغاف قلب سكارلت، وهالتها معانيها الحزينة، فتسربلت بدثار وخرجت إلى القاعة ثم إلى السلّم الخلفي صائحة:

- «كفّي عن ذلك الغناء يا برسي!».

وحمل الهواء إلى أذنيها، «نعم يا سيدتي»، كئيبة النغم، وشهقت شهيقاً عميقاً، وفجأة شعرت بالخجل من نفسها.

- «أين بتسي؟».

- «لا أدري، لم تأتِ».

ومشت سكارلت إلى باب غرفة ميلاني، وفتحته قليلاً، متفرسة في الغرفة المشمسة. كانت ميلاني تضطجع على سريرها في ثياب النوم، عيناها مغمضتان يحوطهما السواد، ووجهها الشبيه بالقلب المنتفخ، وجسدها النحيل مشوه مخيف، فتمنت سكارلت، تحثها نزعة الشر، لو يرى آشلي زوجته الآن، فهي تبدو أبشع منظراً من أي حامل رأتها. وبينما هي تتأملها، فتحت ميلاني عينيها، وأضاءت بسمة ناعمة دافئة أسارير وجهها:

- «ادخلي» دعتها، مستديرة على جنبها بعناء، «لقد استيقظت منذ الشروق، وما زلت أفكر، ويوجد شيء لا بد أن أسألك عنه يا سكارلت».

دخلت سكارلت الغرفة وجلست على السرير الذي كان يتلألأ بأشعة الشمس الحارقة.

واشرأب عنق ميلاني، وأخذت يد سكارلت في قبضة خفيفة تنم عن الثقة، وقالت:

- «عزيزتي، إني آسفة بسبب هذه المدافع، إنها باتجاه جونسبورو، أليس كذلك؟».

فأجابت: «نعم. . . .» وطفق قلبها يتسارع خفقانه عندما عادت الفكرة إلى خاطرها.

- «إني أعرف مدى جزعك، وأعرف أنك كنت ستذهبين إلى البيت في الأسبوع الماضي عندما علمت بمرض أمك، لولا مسألة ولادتي، أليس كذلك؟».

- «بلى» قالت سكارلت بفظاظة.

- «سكارلت، عزيزتي، لقد كنت ودودة جداً إليّ، وليس في وسع الشقيقة أن تكون أشجع أو أكثر طيبة منك، ولذلك فإني أحبك. إني آسفة أني أحس بالمخاض».

فجحظت عينا سكارلت. تحبها! هل تحبها حقاً؟! إنها لحمقاء!

- «ويا سكارلت، إني مضطجعة هنا وأفكر. إني أريد أن أسألك إحساناً كبيراً» وشدّت قبضتها، «إذا ما متّ، فهل تأخذين طفلي؟».

كانت عينا ميلي تتسعان، تشعان بإلحاح حنون: «هل تأخذينه؟».

فأفلتت سكارلت يدها، وقد اجتاحها الخوف، الخوف الذي هدج صوتها، فأصبح أجشَّ:

- «لا تكوني جبانة يا ميلاني. إنك لن تموتي. كل امرأة تعتقد أنها ستموت أثناء الولادة الأولى، وأنا أذكر أني اعتدت ذلك».

- «لا، إنك لم تعتقدي ذلك، إنك لم تخافي يوماً من أي شيء، إنما تقولين هذا لتشجيعي وحسب. أنا لست خائفة من الموت، ولكني خائفة من أن أترك الوليد وحيداً. إذا كان آشلي - سكارلت، عديني أنك ستأخذين وليدي إذا ما لفظت روحي، وعندها لن أخاف شيئاً. إن

العمة بيتي بات مسنة جداً بحيث لن يسعها تربية طفل، وهوني وإنديا طيبتان. ولكن - أريدك أنت أن تأخذي طفلي. نشئيه نشأة آشلي، وإذا ما كانت طفلة - يا عزيزتي فأريدها أن تكون مثلك».

- «يا للّه!» صاحت سكارلت قافزة من السرير، «أليست الأمور على ما يكفي من السوء، حتى تتحدثي عن الموت؟».

- «آسفة يا عزيزتي. ولكن عديني، أظنها ستكون اليوم، إني واثقة أنها اليوم، أرجوك عديني».

- «حسناً، إني أعدك» قالت سكارلت رانية بعينين حائرتين.

هل كانت ميلاني حمقاء إلى هذه الدرجة، بحيث إنها حقاً لا تدري بتعلّقها بآشلي، أو أنها تعرف كل شيء وتعتقد أنه بسبب ذلك الحب ستعتني سكارلت اعتناء تاماً بطفل آشلي. وشعرت سكارلت برغبة خارقة لتصيح مستوضحة، ولكن الأسئلة ماتت على شفتيها عندما أخذت ميلاني يدها، وضغطتها لهنيهة على وجنتيها، ثم عادت الطمأنينة إلى عينيها.

- «لماذا تعتقدين أنها ستكون اليوم يا ميلاني؟».

- «منذ الفجر وأنا أحس بآلام - ولكنها ليست مبرّحة على كل حال».

- «أهكذا؟ حسناً، لماذا لم تستدعيني؟ سأبعث برسي في طلب الدكتور ميد».

- «لا، لا تفعلي ذلك الآن. إنك تعرفين مدى انشغاله الآن، مدى انشغال الجميع. ابعثي فقط له بكلمة تنبئه أننا سنحتاج إليه في وقت ما هذا اليوم. ابعثي فوراً إلى السيدة ميد وأخبريها أن تأتي في الحال، وتجلس إلى جانبي، فهي تعرف متى ينبغي استدعاء الطبيب تماماً».

- «كفي عن هذه التضحية. أنت تعرفين أنك في حاجة إلى طبيب، كأي إنسان آخر في المستشفى. سأستدعية الآن على التو».

- «لا ، أرجوك ألّا تفعلي، فأحياناً يستغرق المخاض النهار بطوله، وأنا لا أستطيع حجز الطبيب ليجلس هنا ساعات، في الوقت الذي يحتاج إليه جميع أولئك الشبان التعساء. استدعي فقط السيدة ميد، فهي تعرف».

- «حسناً»، قالت سكارلت.

21

بعد أن بعثت صينية فطور ميلاني إلى الطابق العلوي، أرسلت سكارلت برسي في طلب السيدة ميد، وجلست وويد لتناول فطورهما، ولكنها افتقدت الشهية تماماً، فبسبب مخاوفها، لم تستطع الأكل إلا بصعوبة. كان قلبها يقرع بشكل غريب جداً، يدق بانتظام لدقائق معدودة، ثم تسمع وجيبه عالياً متسارعاً بحيث يكاد يسقم معدتها. ولصقت عصيدة الذرة الثقيلة بحلقها كالغراء، ولم تحس من قبل بهذا المزيج من الذرة المجففة ومسحوق البطاطا الحلوة، الذي يقدم بدلاً من القهوة، بغيضاً جداً كما هو الآن. كان مراً كالعلقم، بدون سكّر وقشدة، لأن السيقان النباتية التي تستعمل في التحلية الطويلة الأمد عادة، لم تفعل إلا القليل في تحسين مذاق المزيج، وبعد جرعة واحدة، أزاحت كوبها بعيداً. إن هذا السبب وحده من دون الأسباب الأخرى يكفي لجعلها تمقت الشماليين، إذ إنهم حرموها من القهوة الحقيقية التي تحوي السكّر والقشدة الكثيفة.

كان ويد أهدأ مما هو في العادة، ولم يتذمر كعادته كل صباح من عصيدة الذرة التي كان يمقتها كثيراً، بل التهم صامتاً الملاعق التي كانت أمه تدفعها في فمه، وغسل ذلك بجرعات من الماء بادية الصوت. وكانت عيناه العلسيتان الناعمتان تتبعانها طوال الوقت، عينان كبيرتان مستديرتان كدولارين، تنطقان بحيرة الطفل، كما لو أن

مخاوفها المحجوبة بصعوبة، قد انتقلت إليه. وعندما فرغ من الطعام، أرسلته إلى الساحة الخلفية كي يلهو ويلعب، وتأملته براحة نفسية كبيرة وهو يدلف عبر العشب المشعث إلى مكان لعبه.

ونهضت سكارلت، ثم وقفت على أسفل السلّم مترددة، غير مستقرة على رأي. ينبغي أن تصعد وتجلس إلى ميلاني وتبعد تفكيرها عن محنتها القادمة، بيد أنها لم تحس بكفاءتها للقيام بذلك العمل. وعلى ميلاني أن تختار هذا اليوم ذاته لولادتها! وعليها أن تختاره من دون غيره للتحدث عن الموت!

وجلست على درجة السلّم السفلى، تحاول جمع أباديد جأشها، متسائلة مرة أخرى، كيف دارت معركة الأمس، وكيف يسير القتال اليوم. ما أغرب أن تكون المعركة الكبيرة دائرة على بعد أميال قليلة منك، وأنت تجهل كل شيء عنها! ما أغرب هدوء هذا الطريق المهجور من المدينة إذا ما قيس بما كان عليه يوم القتال في وادي بيتشتري! كان بيت العمة بيتي أحد البيوت المتطرفة في ناحية أتلانتا الشمالية، ولما كان القتال يدور في مكان ما إلى الجنوب البعيد، لذلك لم تمر بجانب البيت نجدات بالسرعة المضاعفة، ولا سيارات إسعاف، ولا صفوف مرنحة من الجرحى العائدين على أقدامهم، وتساءلت سكارلت ما إذا كانت مناظر كهذه قد فرضت على الناحية الجنوبية من المدينة، وشكرت اللّه على أنها ليست هناك.

آه، ليت جميع الذين نزحوا، باستثناء آل ميد وآل ميريويذر، لم يغادروا ناحية بيتشتري الشماليه هذه. إنها تشعر بالعزلة والوحدة، وتمنّت بلهفة حارة لو كان العم بيتر معها، إذن لاستطاع الذهاب إلى القيادة والاطّلاع على الأنباء، لو لم تكن قضية الولادة هذه، لانطلقت هي إلى المدينة في هذه الدقيقة ذاتها، وعرفت الأخبار بنفسها، ولكنها

لا تستطيع مغادرة البيت، إلى أن تصل السيدة ميد. لماذا لم تصل بعد؟ وأين برسي؟

ونهضت خارجة إلى الشرفة الأمامية، وبحثت عنهما بفارغ صبر غير أن منزل آل ميد كان يقع خلف منعطف ظليل من الشارع فلم تستطع رؤية أحد. وبعد فترة طويلة ظهرت برسي للعيان وحيدة، تمشي متسكعة متوانية كما لو أن النهار بطوله أمامها، تطوح بتنورتها من جانب إلى جانب، ثم تنظر من على كتفها لتراقب النتيجة.

- «إنك بطيئة ثقيلة كالدبس في يناير» صاحت سكارلت بينما كانت برسي تفتح البوابة، «ماذا قالت السيدة ميد، بعد كم من الوقت ستكون هنا؟».

- «ليست في البيت» قالت برسي.

- «وأين هي؟ متى ستعود إلى البيت؟».

- «لقد» أجابت برسي متشدقة بكلماتها لتفضي أهمية أكثر على أنبائها، «قالت طاهيتهم إن السيدة ميد خرجت مبكرة هذا الصباح لأن السيد فل الصغير أصيب برصاصة، فامتطت السيدة ميد العربة مع تالبوت العجوز وبتسي وذهبوا لإحضاره إلى البيت. وتقول الطاهية إن إصابته بليغة، وإن السيدة لن تفكر في القدوم هنا».

فجحظت عينا سكارلت وهي تحدق فيها، وساورتها الرغبة في هزها، فالزنوج دائماً يشعرون بالكبرياء وهم ينقلون الأخبار السيئة.

- «حسناً، لا تقفي هناك كالحمقاء. اذهبي إلى بيت السيدة ميريويذر، واسأليها الحضور أو إرسال مربيتها. هيا، أسرعي».

- «ليسوا في البيت يا آنسة سكارلت، لقد عرّجت عليهم وأنا في طريقي إلى البيت لأزجي النهار مع مربيتهم فلم أجد أحداً، وألفيت الباب موصداً. أظن أنهم في المستشفى».

- «إذن هكذا أضعت وقتك! حين أرسلك إلى مكان عليك أن

تذهبي حيث أخبرك، ولا تقفي لتزجي شيئاً من الوقت مع أي إنسان. هيا اذهبي. . . ».

وصمتت لتصفّي ذهنها ولتفكر في الذين بقوا في المدينة من أصدقائهم، ممن يمكن أن يساعدوها. كان هناك السيدة إلسينغ. طبعاً إن السيدة إلسينغ لم تكن تميل إليها أبداً هذه الأيام، ولكنها كانت دائماً مغرمة بميلاني.

- «اذهبي إلى بيت السيدة إلسينغ، واشرحي لها كل شيء بعناية، والتمسي قدومها. أصغي إليَّ يا برسي، لقد حانت ولادة السيدة ميلاني ومن المحتمل أن تحتاج إليك في أي دقيقة الآن، فأسرعي وعودي إلينا رأساً».

- «أجل» قالت برسي، والتفتت وهي تسير فوق الممشى بسرعة السلحفاة.

- «أسرعي، أسرعي أيتها الخاملة».

- «سمعاً وطاعة يا سيدتي».

فحثت برسي خطاها بسرعة ضئيلة لا تُذكر، وعادت سكارلت إلى داخل البيت، وترددت ثانية قبل الصعود إلى ميلاني. . . ستضطر إلى أن تشرح لها سبب عدم تمكن السيدة ميد من القدوم، وقد يكظها معرفة أن فل ميد أصيب بجراح بليغة. . . حسناً، ستختلق كذبة في هذا الموضوع.

ودخلت غرفة ميلاني، ورأت صينية الفطور لم تمس، بينما اضطجعت ميلاني على جنبها، ووجهها غائض الدم.

- «السيدة ميد في المستشفى» قالت سكارلت، «لكن السيدة إلسينغ قادمة. هل تحسّين بألم شديد؟».

- «ليس شديداً. . . » كذبت ميلاني، «سكارلت، كم استغرقت من وقت حتى ولدت ويد؟».

- «أقل من أن يذكر» أجابت سكارلت بمرح لم تستشعره أبداً، «كنت آنذاك في الساحة خارج البيت، وبالكاد استطعت بلوغ غرفتي في الداخل. لقد قالت مامي إنها ولادة فاضحة - تماماً كولادة إحدى الزنجيات».

- «أرجو أن أكون كإحدى الزنجيات أيضاً» قالت ميلاني مستجمعة قواها في ابتسامة اختنقت فجأة عندما غضن الألم وجهها.

ونظرت سكارلت إلى وركي ميلاني الصغيرتين بأمل غير قوي، بيد أنها قالت مطمئنة: «ها، ليستا في الحقيقة ضيقتين كثيراً».

- «آه، أعرف ذلك، وأخشى أن أكون جبانة نوعاً ما. هل السيدة إلسينغ قادمة على الفور؟».

- «نعم على الفور» قالت سكارلت، «سأنزل وأجلب بعض الماء النظيف لأمسح العرق عن جسدك، فالنهار حار جداً».

وتوانت في إحضار الماء بحيث بددت ما استطاعت من وقت، وكانت تجري نحو الباب الأمامي بين الدقيقة والأخرى، لترى ما إذا كانت برسي قادمة.

لم يكن هناك أثر لبرسي، ولذلك صعدت إلى الطابق العلوي ومسحت جسد ميلاني الناضح عرقاً، ومشطت شعرها الأسود الطويل.

وبعد انقضاء ساعة، سمعت وقع خطوات ضعيفة لزنجية قادمة من أعلى الشارع، وعندما نظرت من النافذة، رأت برسي عائدة على مهل تطوح بتنورتها كما في المرة الأولى، وتدفع رأسها إلى الوراء، بكثير من الحركات المتكلفة الرشيقة، كما لو كان جمهور كبير يتأملها باهتمام.

«سأحمل السوط ذات يوم على تلك اللكاع الصغيرة» هجست سكارلت حانقة، مسرعة على الدرج لتقابلها.

- «إن السيدة إلسينغ في المستشفى. لقد رأت طاهيتهم مجموعة كبيرة من الجنود الجرحى قادمين باكراً في القطار. وها هي الآن تحضر حساء لتأخذه معها إلى المستشفى، وقد قالت -».

- «لا بأس مما قالت» قاطعتها سكارلت وقلبها يفور.

- «ارتدي ثوباً نظيفاً لأني أريدك أن تذهبي إلى المستشفى، سأحمّلك رسالة إلى الدكتور ميد، وإذا لم تجديه أعطيها للدكتور جونز أو أي من الأطباء الآخرين، وإذا لم تعودي سريعاً هذه المرة فسأسلخ جلدك».

- «سمعاً وطاعة».

- «واسألي أياً من السادة عن أنباء القتال، فإذا لم يعرفوا، اذهبي قرب المحطة واسألي المهندسين الذين أحضروا الجرحى. اسألي ما إذا كان القتال في جونسبورو أو على مقربة منها».

- «يا اللّه، يا آنسة سكارلت» واربدت سحنتها السوداء بجزع مفاجئ:

- «الشماليون ليسوا في تارا، هل هم في تارا؟».

- «لا أدري. قلت لك اسألي كي نطّلع على الأخبار».

- «يا اللّه يا آنسة سكارلت، ماذا سيفعلون بماما؟».

وفجأة طفقت تنتحب بصوت مرتفع، ما زاد من انفعال سكارلت.

- «كفّي عن العويل، ستسمعك الآنسة ميلاني، وهلمّي الآن بدّلي ثوبك، هيا».

هرولت برسي خلف البيت، بعد أن حثتها سكارلت على السرعة، وبعد أن خطّت لها رسالة سريعة على هامش رسالة جيرالد الأخيرة، وهي قصاصة الورق الوحيدة في البيت، لتحملها إلى الطبيب. وبينما سكارلت تطوي الرسالة بحيث تأتي رسالتها في أعلى الورقة، لمحت

كلمات جيرالد «إن أمك - تيفوئيد - مهما كانت الظروف - تأتي إلى البيت» وكادت تجهش بالبكاء. . . لولا مسألة ميلاني لرحلت إلى البيت فوراً، في هذه الدقيقة، لو كتب عليها أن تمشي كل خطوة من الطريق.

انطلقت برسي خبباً، تقبض على الرسالة بيدها، وعادت سكارلت إلى الطابق العلوي، تحاول التفكير في كذبة معقولة لتعليل عدم تمكن السيدة إلسينغ من القدوم. بيد أن ميلاني لم تطرح أي سؤال، بل استمرت مستلقية على ظهرها، ووجهها مطمئن عذب، الأمر الذي هدأ من روع سكارلت لفترة وجيزة.

وجلست تتحدث عن أمور غير ذات بال، ولكن خواطر تارا واحتمال هزيمة الحلفيين وخزتها بعنف، وفكرت في إيلين تعاني سكرات الموت وفي الشماليين يدخلون أتلانتا، يحرقون كل شيء، يقتلون كل إنسان. وتخلل خواطرها هذه الدوي الخافت البعيد المستمر الذي كان يخترق أذنيها في موجات من الرعب. وأخيراً عجزت عن النطق، ولم يسعها إلا التحديق خارج النافذة، في الشارع الساكن الحار، وعلى الأوراق المغبرة المتدلية من الأشجار عديمة الحركة. وكانت ميلاني صامتة أبداً، غير أن وجهها كان بين الفينة والأخرى يتلوى من الألم.

وكانت تقول بعد كل نوبة ألم: «لم تكن في الحقيقة مؤلمة جداً» وتدرك سكارلت أن ميلاني لا تقول الواقع. وكانت سكارلت تفضل الزعيق المرتفع على هذه المعاناة الصامتة، وكانت تدرك أن عليها أن تشعر بالأسف من أجل ميلاني، ولكنها لسبب ما، لم تستطع منع أحاسيسها في بادرة عطف خافتة، فعقلها كان مشتت الذهن بهمومها الخاصة. وحدث مرة أن ألقت نظرة متفحصة على الوجه المتغض وتساءلت لماذا كتب عليها هي من بين جميع الناس في الدنيا، أن تكون هنا برفقة ميلاني، في هذا الظرف المعين - هي التي لا تشارك

ميلاني في أي ناحية بل تبغضها وقد تسر برؤيتها ميتة - حسناً، ربما تحققت رغبتها هذه وقبل أن ينقضي النهار أيضاً.

واجتاحها خوف وهمي بارد على أثر هذه الخاطرة، إن من الشؤم أن يرجو الإنسان موت إنسان آخر. إن ذلك من الشؤم تماماً، كما لو أنك لعنت مخلوقاً، إذ إن اللعنات تعود إلى مطلقها لتستقر عليه، هكذا قالت مامي، ولذلك أسرعت سكارلت في الصلاة، راجية اللّه أن لا تموت ميلاني، وشرعت في حديث قصير محموم، لم تعِ مرماه إلا لماماً. وأخيراً مدت ميلاني يداً حارة إلى معصم سكارلت:

- «لا تضايقي نفسك من أجل محادثتي يا عزيزتي، إني أعرف مدى قلقك وإني آسفة جداً لكوني عبئاً ثقيلاً».

أخلدت سكارلت إلى الصمت، غير أنها لم تستطع الجلوس مطمئنة البال. ماذا ستعمل إن لم يأتِ الدكتور، أو لم تصل برسي في الوقت المناسب؟ ومشت نحو النافذة، ونظرت إلى الشارع، ثم عادت أدراجها وجلست ثانية، ثم نهضت ونظرت من النافذة التي في الجانب الآخر من الغرفة.

ومرّت ساعة، تلتها أخرى، وانتصف النهار، وبلغت الشمس كبد السماء، واشتد سعيرها، وليس من نسمة ريح تحرك أوراق الشجر المغبر. وتفاقمت آلام ميلاني، وتبلل شعرها الطويل عرقاً، ولصق ثوبها بجسدها في عدد من البقع الرطبة، ومسحت سكارلت وجه ميلاني بصمت، ولكن الخوف كان ينهش لحمها... يا اللّه، هب أن الوليد وُلد قبل وصول الطبيب، فماذا ستفعل؟ إنها لا تعرف شيئاً في موضوع التوليد. إن هذه هي الجائحة الطارئة التي كانت تخشى وقوعها منذ أسابيع. كانت قد اعتمدت على برسي لتدبر الأمر، إذا تعذر إحضار الطبيب، فبرسي تعرف كل شيء عن التوليد، وقد أكدت ذلك مراراً، ولكن أين هي برسي؟ ولماذا لم يأتِ الطبيب؟ وقامت إلى

النافذة ونظرت ثانية، وأرهفت السمع، وفجأة تساءلت ما إذا كان هو الوهم، أو أن دوي المدافع البعيد قد تلاشى حقاً. وإذا ما كان الدوي قد ابتعد، فإن هذا يعني أن القتال اقترب من جونسبورو كما أنه يعني أيضاً . . .

وأخيراً رأت برسي قادمة في الشارع في خبب سريع، فاتكأت على عتبة النافذة. وعندما رفعت برسي بصرها ورأتها فغرت فمها لتصيح، بيد أن سكارلت، وقد قرأت الرعب مسطوراً على الوجه الأسود الصغير، وخشيت أن تنذعر ميلاني من جرّاء صوت برسي المرتفع بالأخبار السيئة، أسرعت في وضع إصبعها على شفتيها وغادرت النافذة.

- «سأجلب ماء أبرد» قالت، رانية إلى عيني ميلاني السوداوين الغائرتين المستديرتين، محاولة الابتسام، ثم غادرت الغرفة على عجل مغلقة الباب خلفها برفق.

كانت برسي جالسة تلهث على الدرجة السفلى في القاعة:

- «يوجد قتال في جونسبورو يا آنسة سكارلت. يقولون إن جنودنا هزموا. يا اللّه يا آنسة سكارلت، ماذا سيحل بماما وبورك؟ يا اللّه يا آنسة سكارلت؟ ماذا سيحل بنا إذا ما بلغ الشماليون هذا المكان، يا اللّه. . . ».

لطمت سكارلت الفم المنتحب بيدها:

- «من أجل اللّه، اصمتي!».

أجل! ماذا سيحل بهم إذا ما أتى الشماليون - ماذا سيحل بتارا؟ وأبعدت الفكرة عن عقلها بجزم، واهتمت بالجائحة الأكثر إلحاحاً. إنها إذا فكرت في هذه الأمور فستشرع في النحيب والزعيق قبل برسي.

- «أين الدكتور ميد؟ متى سيأتي؟».

- «إني لم أره أيضاً يا آنسة سكارلت».

- «ماذا؟».

- «لا يا سيدتي، هو ليس في المستشفى، وكذلك السيدتان ميريويذر وإلسينغ، ليستا هناك أيضاً. أخبرني رجل أن الطبيب موجود قرب حظيرة السيارات في المحطة مع الجرحى القادمين من جونسبورو، ولكني يا آنسة سكارلت خشيت الذهاب إلى هناك، إلى المحطة - يوجد أناس يموتون هناك، وأنا أخاف رؤية الناس المائتين -».

- «وماذا عن الأطباء الآخرين؟».

- «آنسة سكارلت، واللّه، بالكاد استطعت إيجاد من يقرأ رسالتك منهم. إنهم يشتغلون في المستشفى كأنهم جميعاً قد أصابهم مس من جنون، وخاطبني أحدهم قائلاً: «لعن اللّه رأسك، هل أتيت إلى هنا لتضايقيني بالأطفال، في الوقت الذي يعاني فيه آلاف الرجال الموت بين أيدينا، خذي إحدى النسوة لتساعدك». وعندئذ تجولت في الأنحاء لأستوضح الأخبار كما طلبت مني، فأنبأني الجميع أن القتال يدور في جونسبورو وأنا -».

- «تقولين إن الدكتور ميد في المحطة؟».

- «نعم يا سيدتي، إنه -».

- «أصغي إليَّ بانتباه تام، سأذهب لإحضار الدكتور ميد، وأريدك أن تجلسي بجانب الآنسة ميلاني، وتفعلي ما تطلبه منك، وإذ ما تنفست أمامها مجرّد تنفس عن مكان القتال، فسأبيعك حتماً للجنوب. هل تسمعين؟».

- «نعم يا سيدتي».

- «امسحي عينيك، وأحضري إبريق ماء نظيف، واصعدي إليها. امسحي بشرتها، أخبريها أني ذهبت لإحضار الدكتور ميد».

- «هل اقترب وقتها يا آنسة سكارلت؟».

- «لا أدري، أخشى ذلك، ولكن لا أدري، ينبغي أن تعرفي أنت. هيا اصعدي»، وتناولت سكارلت من المشجب قبعتها العريضة، المصنوعة من القش ورطمتها على رأسها، ثم نظرت في المرآة، وبحركة آلية رفعت بعض خصل شعرها المنفلت دون أن تتأمل وجهها. كانت موجات الخوف الصغيرة الباردة، التي بدأت تترك في أعماق معدتها، قد بلغ مفعولها ظاهر الجلد، بحيث إن أصابعها التي لمست وجنتها غدت باردة، مع أن سائر جلدها كان يتصبب عرقاً. وانطلقت من داخل البيت إلى حرارة الشمس المتوهجة التي كانت تبهر الأبصار، وبينما هي تنحدر مسرعة في شارع بيتشتري بدأ صدغاها ينتفضان بفعل الحرارة. ومن أسفل الشارع البعيد، استطاعت سماع لغط أصوات كثيرة تعلو وتنخفض، وعندما وقع بصرها على منزل آل ليدن، كانت قد شرعت في اللهاث، لأن مشدّها كان مضغوطاً إلى درجة كبيرة، ومع ذلك لم تخفف من سرعتها. وارتفع لغط الأصوات.

ومن بيت آل ليدن، إلى فايف بوينتس كان الشارع يغلي بالنشاط، بنشاط خلية نحل قد انهارت الآن. كان الزنوج يروحون ويجيئون ركضاً والرعب يلوح في وجوههم، وعلى الشرفات جلس أطفال بيض يبكون من دون مَن يلتفت إليهم، وعربات الجيش والإسعاف المكتظة بجثث الجرحى كانت تزدحم في عرض الطريق، كما كانت عربات الركوب مكدسة إلى أعلاها بالحقائب وقطع الأثاث، بينما كان يندفع من الشوارع الفرعية رجال على صهوات الخيل، يندسون بين الناس في طريق بيتشتري، متجهين إلى مركز قيادة الجنرال هود، ورأت سكارلت آموس العجوز، يقف أمام منزل آل بونل، ممسكاً برأس حصان عربته، وعندما شاهد سكارلت حيّاها بعينين مضطربتين.

- «ألم ترحلي إلى الآن؟».

- «أرحل؟ إلى أين؟».

- «اللّه يعلم إلى أين يا آنسة، إلى أي مكان، فالشماليون قادمون».

حثت خطاها دون أن تلقي عليه تحية الوداع - الشماليون قادمون، وعند كنيسة وسلي وقفت لتلتقط أنفاسها، وتنتظر كي يخف وجيب قلبها، إذ أدركت أنها إذا لم تهدئ نفسها، فسيغمى عليها حتماً. وبينما هي تقف قابضة على عمود الكهرباء لتسند جسدها، رأت ضابطاً على صهوة جواده ينهب الشارع نهباً، قادماً من فايف بوينتس، فركضت نحو الشارع ولوَّحت له بيدها، يحفزها دافع داخلي:

- «قف! أرجوك قف».

جذب الفارس عنان فرسه فجأة، حتى إن الحصان ارتد على عجزه، رافساً الهواء، ورأت سكارلت في وجه الرجل أمائر واضحة من العناء والعجلة، بينما طارت قبعته البالية عن رأسه:

- «سيدتي؟».

- «أخبرني! هل الشماليون قادمون حقاً؟».

- «أخشى أن يكون الأمر كذلك».

- «هل دريت به؟».

- «نعم يا سيدة، دريت به. لقد وصلت رسالة إلى القيادة منذ نصف ساعة من المعركة في جونسبورو».

- «في جونسبورو؟ هل أنت واثق؟».

- «نعم واثق. لا فائدة من إخبار السيدات بالأكاذيب الخادعة يا سيدة. كانت الرسالة من الجنرال هاردي يقول فيها: لقد خسرت المعركة، وقواتي تنسحب انسحاباً تاماً».

- «آه، يا إلهي!».

فحدق بها الرجل المنهوك الأسمر، دون أن تشوبه أية عاطفة، ثم أمسك بزمام فرسه ثانية، وارتدى قبعته.

- «آه يا سيدي، أرجوك دقيقة واحدة فقط، ماذا نعمل؟».
- «سيدتي، لا أستطيع أن أقول شيئاً، فالجيش سيخلي أتلانتا فوراً».
- «سينسحب ويتركنا للشماليين؟».
- «أخشى ذلك».

انطلقت الفرس المهموزة كما لو كانت تسير على زبارك، وبقيت سكارلت واقفة في وسط الشارع، والغبار الأحمر يتكاثف على كاحليها.

الشماليون قادمون. الجيش ينسحب. الشماليون قادمون. ماذا ينبغي أن تفعل؟ إلى أين ينبغي أن تلجأ؟ لا! لن يسعها النزوح، فهناك ميلاني ترقد في السرير، تنتظر وليدها. آه، لماذا تحمل النساء أطفالاً؟ لولا ميلاني لأمكنها اصطحاب ويد وبرسي والاختفاء في الغابات حيث لن يقوى الشماليون أبداً على اكتشافهم، بيد أنها لا تستطيع اصطحاب ميلاني إلى الغابات، لا، ليس الآن، آه لو أنها فقط وضعت الطفل في وقت أبكر، لو في الأمس، لكان من المحتمل أن تستطيع إحضار عربة إسعاف وحملها بعيداً وتخبئتها في مكان ما. ولكن الآن، ينبغي أن تجد الدكتور ميد وتحضره إلى البيت معها، إذ ربما تمكن من تعجيل الولادة.

لملمت أطراف ثوبها وانطلقت في الشارع، وكان نغم خطواتها «الشماليون قادمون! الشماليون قادمون!».

كانت فايف بوينتس مزدحمة بالناس، ويندفعون هنا وهناك، بعيون زائغة عمهة، والمكان غاص بشاحنات وعربات الإسعاف وعربات الثيران وعربات الركوب المحملة بالجرحى، وكان يرتفع من هذا الحشد الهائل صوت هادر كصوت ارتطام الأمواج بصخور الشطآن.

ثم شده بصرها منظر غريب غير متوقع، جموع من النساء قادمات

من ناحية السكة الحديد، يحملن لحوم الخنزير المقددة على أكتافهن، وإلى جوانبهن كان يسرع أطفال صغار، يترنحون تحت عبء دلاء من الدبس المائع، بينما كان غلمان آخرون يجرّون أكياساً من الحنطة والبطاطا، ورجل عجوز يحاول رفع برميل من الدقيق على عربة يد بعجلة واحدة. . . رجال ونساء وأطفال، سود وبيض، يسرعون، يسرعون ووجوههم متوترة، يحملون الرزم والأكياس من أعناقها، وصناديق الطعام - طعام وفير أوفر مما رأته خلال سنة. وفجأة، فسح الجمهور ممراً لعربة صغيرة كانت تسير متهادية، وقد وقفت على مقدمتها السيدة إلسينغ الهزيلة الكيسة، تمسك زمام الفرس بيدها، والسوط باليد الأخرى. كانت حاسرة الرأس، ووجهها شاحب اللون، وشعرها الطويل الرمادي متهدل على ظهرها وهي تسوط الحصان كواحدة من الفيورز[1]. وعلى مقعد العربة الخلفي، كانت مربيتها السوداء، مليسي، تهتز وهي تمسكٍ بإحدى يديها الجانب الدهني من قطعة لحم خنزير، بينما تحاول باليد الأخرى وبالقدمين تثبيت الصناديق والأكياس المكدسة حولها. وقد انشق أحد هذه الأكياس، وكان مملوءاً بالحمص الناشف، فانتشر الحب في الشارع، وصاحت سكارلت تناديها، ولكن ضوضاء الجمهور غيَّب صوتها، وتابعت العربة طريقها مترنحة.

لم تدرك سكارلت للوهلة الأولى ما يعنيه كل هذا الذي كان يجري حولها، ولكنها تذكرت أن مخازن التموين كانت هناك قرب المحطة، وأدركت أن الجيش قد فتح الأبواب للناس كي ينقذوا ما يستطيعون إنقاذه قبل وصول الشماليين.

---

(1) حسب الأساطير الكلاسيكية، هن آلهات في شعورهن حيات، تعاقبن على الجرائم غير المنتقم لها - (المترجمان).

شقت سكارلت طريقها بسرعة بين الجمهور، وتجاوزت الرعاع المتألب الصاخب بنوبة هستيرية، الرعاع الذي كان يتدفق في ساحة فايف بوينتس المكشوفة، ثم حثت خطاها وسارت بأقصى سرعة ممكنة فوق العبّارة الصغرى باتجاه المحطة. ومن خلال حاجز سيارات الإسعاف، وسُحب الغبار المتكاثف، استطاعت رؤية الأطباء وحاملي المحفات ينحنون وينهضون مسرعين. وشكرت ربها لأنها ستجد الدكتور ميد فوراً. وعندما دارت حول المنعطف الذي يقع عليه فندق أتلانتا، وأشرفت تماماً على المحطة والسكة الحديد، وقفت مرتاعة.

كان هناك مئات الجرحى ممددين في الشمس الحارقة، الكتف بجانب الكتف، والرأس يلامس القدم، مصففين فوق قضبان السكة وعلى الرصيف وفي حظيرة السيارات، مصففين في خطوط لا نهاية لها، البعض يضطجع متصلباً ساكناً، ولكن الكثيرين يتلوّون ويئنّون تحت أشعة الشمس الحارة، وحولهم في كل مكان، تجمع الذباب يتسكع فوق الجثث، ويطن ويدب على الوجوه. وانتشرت بقع الدم والضمادات القذرة في كل مكان، وعلت الأنّات وشتائم الرجال المتألمين بينما كان حاملو المحفات يرفعون الأجساد الممددة، وهبَّت على سكارلت موجات من رائحة العرق والدم والجثث القذرة والبراز، هبّت في حرارة لاذعة، حتى إن الرائحة الزنخة كادت تقلب معدتها.

كان رجال الإسعاف يسرعون هنا وهناك بين الأجساد المنبطحة وكثيراً ما داسوا على الجرحى، لقرب أجسادهم بعضها من بعض. أما أولئك الذي كانت تطأهم الأقدام، فكانوا يجحظون بأعينهم وانين، ينتظرون دورهم.

وانكمشت سكارلت متراجعة إلى الوراء، صافقة يدها على فمها، شاعرة أنها توشك أن تتقيأ، وأنها لن تستطيع التقدم. كانت قد رأت

رجالاً جرحى في المستشفيات وفي مرجة منزل العمة بيتي إثر معركة الوادي، ولكن أبداً ليس كهذا الذي تراه أمامها الآن، أبداً ليس كهذه الرائحة النتنة، كهذه الأجساد النازفة دماً تتقلّى تحت أشعة الشمس اللاهبة. . . إن هذا جحيم من الألم والرائحة والضجيج والسرعة - والسرعة! الشماليون قادمون! الشماليون قادمون! وضمت كتفيها ومشت بينهم، تحدق بعينيها في الأشخاص الواقفين لتمييز الدكتور ميد من بينهم، ولكنها اكتشفت أنها لن تستطيع البحث عنها لأنها إذا لم تخطُ بحرص فائق، فستدوس على أحد الجنود المنكودي الطالع، ولذلك رفعت أهداب تنورتها وحاولت التنقيب عن طريقها خلالهم باتجاه زمرة من الرجال كانوا يوجهون حاملي المحفات.

وبينما كانت تنقل خطاها، كانت تتعلق أيد محمومة بأهدابها وتئن أصوات محزونة قائلة:

- «أرجوك أيتها السيدة ماء، من أجل المسيح ماء!».

وتصبب العرق غزيراً من وجهها، وهي تجذب تنورتها من الأيدي المتعلقة بها. . . لو داست أحد هؤلاء الرجال ستزعق ويغمى عليها. . . بيد أنها خطت فوق رجال موتى، فوق رجال بردت عيونهم، وتشابكت أيديهم على بطونهم، حيث غرى الدم الجاف البزز الممزقة بالجراح، فوق رجال تيبست لحاهم بالدم، وانبعثت من فكوكهم المتكسرة أصوات لا بد أنها كانت تعني: «ماء. . . ماء!».

سوف تشرع بالزعيق بدافع هستيري إذا هي لم تجد الدكتور ميد حالاً، وتطلعت نحو زمرة الرجال الواقفين تحت حظيرة السيارات، وصاحت بأعلى ما في طوقها:

- «دكتور ميد! هل الدكتور ميد موجود هناك؟».

وانفصل رجل عن الزمرة وتطلع نحوها. كان ذلك الشخص هو

الدكتور ميد. لقد نزع معطفه، ورفع ردنيه حتى كتفيه، وبدا قميصه وسرواله أحمرين كثياب الجزار، وحتى طرف لحيته الرمادية اللون، كان ملطخاً بالدم. أما وجهه فكان وجه رجل ثمل بالعناء والغضب الواهن والشفقة المتلظية، وكان وجهاً مربداً مغبراً، قد شق العرق عبر وجنتيه مجاري طويلة، بيد أن صوته كان حازماً هادئاً عندما صاح بها.

- «شكراً للّه على أنك هنا. إن في وسعي الاستفادة من كل زوج من الأيدي».

وحملقت به للوهلة الأولى مرتبكة، مفلتة أهداب تنورتها في فزع، فتدلت هذه على رأس رجل جريح، حاول إدارة رأسه بتوان ليتفادى طياتها الخانقة... ماذا يقصد الدكتور؟ ولفح الغبار الجاف الخانق وجهها، الغبار المنبعث من سيارات الإسعاف، وفغمت منخريها الروائح النتنة التي كانت كسائل آسن.

- «أسرعي يا بنيتي، تعالي هنا».

فرفعت أهداب ثوبها واتجهت إليه بما وسعها من سرعة، عبر صفوف الجرحى، وعندما بلغته وضعت يدها على ذراعه، وشعرت بأنها ترتعش من الإعياء. ولكن وجهها خلا من أي أثر للإنهاك.

- «آه، آه يا دكتور» صاحت، «ينبغي أن تأتي، فميلاني تعاني المخاض».

فحدق بها كما لو أن كلماتها لم تنطبع في عقله، بينما علق رجل كان يضطجع على الأرض عند قدميها، متوسداً كيس طعامه، علق بابتسامة ودية وبروح مرحة:

- «سوف يفعلونها».

غير أنها هزت ذراع الدكتور دون أن تلتفت إلى الجريح:

- «إنها ميلاني... الوليد... دكتور! ينبغي قدومك، فهي...».

لم يكن هذا هو وقت المجاملات، ولكن كان من الصعب النطق بشيء، وآذان مئات الرجال الغرباء مصغية إلى ما يقال.

- «إن آلامها تتفاقم يا دكتور!».

- «وليد؟ يا للّه العظيم!» هدر الطبيب وتجهّم وجهه فجأة بالكراهية والغضب، الغضب الذي لم يكن موجهاً ضدها أو ضد أي إنسان، وإنما ضد عالم يمكن أن تقع فيه أمثال هذه المفارقات. . . «هل أنت مجنونة؟ ليس في وسعي ترك هؤلاء الرجال. إنهم يموتون بالمئات، ليس في وسعي تركهم من أجل وليد سيّئ الحظ. دبّري امرأة لمساعدتك، خذي امرأتي».

وفتحت فمها لتخبره بسبب عدم استطاعة السيدة ميد القدوم إلى بيت العمة بيتي، ثم أغلقته بغتة، فهو لا يعرف أن ابنه جريح. وتساءلت ما إذا كان سيظل هنا إن هو علم بمصاب ابنه، وأنبأها هاجس أنه سيظل واقفاً في هذ المكان يساعد المجموع بدلاً من الفرد.

- «لا! ينبغي أن تأتي أنت يا دكتور، أنت تعرف أنك قلت إنها ستعاني ولادة عسيرة» أكانت هي حقاً سكارلت التي تقف هنا، وتتفوه بهذه الألفاظ الفظة المرعبة بأعلى صوتها، في هذا الجحيم من الحرارة والأنين؟

- «ستموت إن لم تأتِ!».

فدفع يدها بخشونة وأجاب كأنه يكاد لا يسمعها، لا يكاد يعرف عما تتكلم.

- «تموت؟ نعم، جميعهم سيموتون - جميع هؤلاء الرجال، لا ضمادات، لا مراهم، لا كلوروفورم. آه يا اللّه، أمددنا ببعض المورفين، فقط قليل من المورفين لأتعس المصابين، فقط قليل من الكلوروفورم. . لعن اللّه الشماليين! لعن اللّه الشماليين!».

- «ليأخذهم اللّه إلى الجحيم يا دكتور!» قال الرجل الممدد على الأرض وقد بدت أسنانه من خلال لحيته.

طفقت سكارلت ترتجف وعيناها تتحرقان بدموع الرعب. لن يأتي الدكتور معها. ستموت ميلاني وقد تمنّت يوماً لو تموت ميلاني... لن يأتي الدكتور معها.

- «باللّه يا دكتور! أرجوك!».

عض الطبيب شفته، وتصلب فكه عندما شحب وجهه ثانية.

- «ايه يا بنيتي، سأحاول. لا أستطيع أن أعدك، ولكني سأحاول عندما نفرغ من الاهتمام بهؤلاء الرجال... الشماليون قادمون! الشماليون قادمون والجنود ينسحبون من المدينة، ولا أدري ماذا سيفعلون بالجرحى، إذ لا توجد قطارت بعد أن احتل العدو خط ميكون، ولكني سأحاول. اذهبي الآن بسرعة ولا تضايقيني، فليس هناك صعوبة في ولادة طفل، فقط اعقدي السرة».

وعندما لمس أحد مساعديه ذراعه، استدار وشرع يزأر بتوجيهاته الصارمة، مشيراً إلى هذا وذاك من الجرحى. ورفع الرجل المنبطح عند قدميها بصره نحوها ونظر إليها بعطف، ولكنها انثنت بعيداً لأن الطبيب سها عنها، وشقت طريقها بسرعة بين الجرحى، قافلة إلى شارع بيتشتري... لن يأتي الدكتور، وعليها أن تتدبر الأمر بنفسها، شكراً للّه، إن برسي تعرف كل ما يتعلق بالتوليد. وانصدع رأسها من الحرارة، واستطاعت تحسس قميصها مشرباً بالرطوبة من جرّاء العرق، تحسسته يلتصق بجسدها، وتخدر عقلها، وكذلك ساقاها، تخدرا كأنها في حلم رهيب، وعندما حاولت الجري لم تستطع تحريكهما. وفكرت في المسير الطويل الذي ينتظرها كي تبلغ البيت، وتراءى لها مسيراً لا نهاية له. ثم شرعت عبارة «الشماليون قادمون» تقرع لازمتها في عقلها مرة ثانية وطفق قلبها يخفق، وزحفت حياة جديدة في عروقها واخترقت

صفوف الجماهير في فايف بوينتس بسرعة، حيث ازدحم الناس بصورة غريبة، فلم تعد توجد فسحة شاغرة فوق الأرصفة الضيقة، ما أرغمها على السير في الشارع. وكان يمر في الشارع آنذاك صفوف طويلة من الجنود، يكسوهم الغبار ويُضنيهم الإعياء، آلاف منهم، قذرون، طوال اللحى، بنادقهم تتدلى من أكتافهم، يمشون بسرعة في خطوات المنسحب، وتبعتهم المدافع التي كان سائقوها يسلخون البغال الهزيلة بسياطهم الطويلة، وخلفهم سارت شاحنات التموين بأغطيتها الخيشية المهترئة متهادية فوق الحفر والأخاديد، وتلاها الفرسان يثيرون عجاج الغبار الخانق، في صفوف لا تنتهي. ولم تكن سكارلت قد رأت قبلاً جنوداً بهذا العدد الضخم... تقهقر! تقهقر! إن الجيش ينسحب.

وألجأتها الصفوف المسرعة إلى الرصيف المزدحم ثانية، وعبقت في أنفها رائحة الويسكي المصنوع من الذرة الرخيصة، وشاهدت بين الغوغاء قرب شارع ديكاتور نساء يرتدين ثياباً تبهر الأنظار، تنم حلاهن المتلألئة ووجوههن المطلية بالمساحيق عن طابع أعياد، مخالف لمقتضى الحال، وكان معظمهن ثملاً ولكنه أقل ثملاً من الجنود الذين تعلقن بأذرعهم. ولمحت بينهن بنظرة خاطفة رأساً بجعدات شعر أحمر، فرأت تلك المخلوقة بيل وينغ، وسمعت قهقهتها الحادة السكرى وهي تتعلق بجندي ذي ذراع واحدة، كيما تسند جسدها بينما كان صاحبها يترنح متعثراً في مشيته.

وبعد أن اندست سكارلت بين الجمهور، شاقة طريقها دفعاً، قاطعة إلى ما وراء فايف بوينتس، خف ازدحام الغوغاء قليلاً، فجمعت أطراف ثوبها وبدأت في الجري ثانية. وما إن بلغت كنيسة وسلي حتى ضاق نفسها وزاغ بصرها وأحست بالألم في معدتها. وكان مشدّها يكاد يبتر أضلاعها شطرين، فتهالكت على درجات الكنيسة، ووضعت رأسها بين يديها، كيما تستطيع التنفس بسهولة أكثر. وتمنّت لو أنها

فقط تستطيع أخذ نفس عميق واحد، عميق إلى جوفها، لو أن قلبها يكف فقط عن القرع والخفق والفوران، لو أن هناك فقط إنساناً في هذا المكان الأحمق تستطيع الاستعانة به.

إنها لم تُقسَر يوماً على قضاء حاجة لنفسها طوال حياتها، فلقد كان يوجد دائماً من يقوم بالأعمال من أجلها، من يعتني بها، من يؤويها ويحميها ويفسدها. إن ما لا يصدق العقل أنها يمكن أن تقع في مثل هذه الورطة، دون أن يكون هناك صديق أو جار يساعدها. لقد كان يوجد دائماً حولها الأصدقاء والجيران والأيدي الحاذقة للزنوج الرضيين، أما الآن، وفي هذه الساعة ذات الحاجة القصوى، لا يوجد أحد البتّة. إن مما لا يصدقه العقل أنها يمكن أن تكون وحيدة تماماً، ومذعورة وبعيدة عن البيت.

البيت! لو أنها فقط في البيت، سواء كان شماليون أو لم يكونوا... البيت، حتى لو كانت إيلين مريضة... إنها لتتلهف لرؤية وجه إيلين العذب. تتلهف لساعدي مامي القويين كي يحوطاها.

ونهضت على قدميها وهي دائخة، وبدأت المسير ثانية. وعندما أصبح المنزل في مدى البصر رأت ويد يتأرجح على البوابة الأمامية، فلما شاهدها تغضن وجهه وطفق يبكي رافعاً إصبعاً جريحاً مرضوضاً.

- «جريح!» نشج، «جريح!».

- «صه! صه! وإلا صفعتك. أسرع إلى الساحة الخلفية واصنع فطائر من الوحل ولا تغادر ذلك المكان».

- «ويد جائع» نشج واضعاً إصبعه الجريح في فمه.

- «لا يهمني، اذهب إلى الساحة الخلفية و...».

ورفعت بصرها ورأت برسي متكئة على حافة النافذة العليا والذعر والقلق مسطوران على وجهها، ولكنها ما إن لمحت سيدتها حتى زال فوراً ما شاب وجهها من هلع، وأومأت سكارلت إليها تنزل، ودخلت

هي البيت، حيث شعرت برطوبة الغرفة المتناهية، ثم حلت عقدة قبعتها وقذفت بها إلى المنضدة، وأمرّت مقدم ذراعها عبر جبينها المبلل. وبعدئذ سمعت صوت انفتاح باب الطابق العلوي، وبلغ أذنيها أنين خفيض منصهر من أعماق روح معذبة تحتضر. وهبطت برسي السلّم كل ثلاث درجات بخطوة واحدة.

- «هل الطبيب قادم؟».

- «لا! لا يستطيع القدوم».

- «اللّه يا آنسة سكارلت، إن الآنسة ميلي في حالة سيئة».

- «ليس في وسع الطبيب المجيء، وليس في وسع أحد القدوم. عليك أن تسحبي الولد وأنا أساعدك».

فانفغر فم برسي وولول لسانها دون أن تنبس بكلمة، وتطلعت في وجه سكارلت بنظرة جانبية وجرجرت قدميها وثنت جسدها النحيل.

- «لا تظهري بهذه السذاجة!» صاحت سكارلت مغتاظة من هذه الحركات. «ما الأمر؟».

فتراجعت برسي صاعدة السلّم على رؤوس أصابعها.

- «من أجل اللّه يا آنسة سكارلت...» قالت والذعر والألم يبدوان في عينيها القلقتين، «ينبغي أن نحضر الطبيب، فأنا... فأنا يا آنسة سكارلت، أنا لا أعرف شيئاً عن التوليد. إن أمي لم تكن تسمح لي أبداً بالاقتراب من اللواتي كانت تولدهن».

زفرت سكارلت زفرة خوف، زفرة جملت كل ما في رئتيها من هواء، قبل أن يجتاحها الغضب.

واندفعت برسي إزاءها وانحنت لتفر، ولكن سكارلت قبضت عليها.

- «أيتها السوداء الكذابة... ماذا تقصدين؟ لقد قلت إنك تعرفين

كل شيء عن التوليد، فأي قوليك هو الحقيقة؟ أخبريني». وهزتها حتى ترنح الرأس المشوه ترنح الثمل.

- «لقد كذبت يا آنسة سكارلت، ولا أدري كيف حدث وافتريت هذا البهتان. لقد رأيت ولادة واحدة فقط طوال حياتي، كما أن أمي كانت تعاقبني إن حاولت مراقبتها أثناء عملها في التوليد».

فحملقت سكارلت بها، وتراجعت برسي محاولة الإفلات. ومرّت هنيهة، وعقل سكارلت يأبى تصديق الحقيقة، ولكنها عندما أدركت أخيراً أن برسي لا تعرف عن التوليد أكثر من معرفتها هي، اجتاحها الغضب كاللهيب. ولم تكن قد ضربت زنجياً طوال حياتها، ولكنها الآن صفعت الوجة الأسود بكل ما يملك ساعدها المرهق من قوة، وزعقت برسي بأعلى صوتها، مصعوقة من الرعب أكثر من الألم، وبدأت ترقص صعوداً وهبوطاً، تتلوى لتفلت من قبضة سكارلت.

وبينما الزنجية تزعق، انقطع الأنين المنبعث من الطابق العلوي، ومرّت دقيقة سُمع على أثرها صوت ميلاني خفيضاً مرتعشاً:

- «سكارلت؟ أهذا أنت؟ أرجوك تعالي، أرجوك!».

أفلتت سكارلت ذراع برسي وارتمت اللكاع تنشج فوق الدرجات. ووقفت سكارلت هنيهة تنظر إلى أعلى، مصغية إلى الأنين الخافت، الذي بدأ ثانية. وبينما هي تقف هناك، أحست كأن نيراً ثقيلاً رزح على عنقها، وأن عبئاً ثقيلاً قد شد إليه، عبئاً ستحس به حالما تخطو أول خطوة.

وحاولت التفكير في كل الإجراءات التي اتخذتها مامي وإيلين يوم ولادة ويد، بيد أن الزوغان الرحيم المرافق لآلام المخاض، يغيب كل شيء تقريباً في ضباب مظلم، ولذلك لم تتذكر إلا أشياء قليلة، ثم خاطبت برسي على عجل، وصوتها يحمل لهجة السلطة:

- «هيا أشعلي ناراً في الموقد، واغلي ماء في القدر، واجلبي كل

المناشف التي تجدينها، ولفافة الخيطان تلك، واحضري المقص. ولا تأتي لتخبريني أنك لم تجديها، أحضريها، وأحضريها بسرعة. هيا اسرعي». . . ونشلت سكارلت برسي وأوقفتها على قدميها، ودفعتها باتجاه المطبخ، ثم ضمّت كتفيها وصعدت الدرج. . . سيكون من الصعب إخبار ميلاني أنها وبرسي ستسحبان وليدها.

22

لن يمر بعد ظهر يوم طويلاً كذاك، أو حاراً مثله، أو غنياً بالذباب الخامل الملحاح غناه. لقد راح هذا يتهافت على ميلاني رغم المروحة التي ظلت سكارلت تحركها باستمرار. ورغم ما أصاب ذراعيها من ألم لهذا التلويح بورقة النخيل العريضة، فإن كل جهودها ذهبت أدراج الرياح، إذ بينما كانت تطرد الذباب عن وجه ميلاني الرطب، كان يتجمع فوق قدميها وساقيها الدبقتين فتضطر إلى هزهما بتوانٍ صائحة:

- «أرجوك، إنه على قدمي!».

كانت الغرفة نصف مظلمة لأن سكارلت قد أسدلت الستائر لتمنع الحرارة ووهج الشمس. وتسرب خلال الثقوب الصغيرة في السجف نقاط دقيقة من ضوء الشمس كرؤوس الدبابيس، فاحترّت الغرفة وغدت كالأتون، ولم يقدَّر لثياب سكارلت المبللة بالعرق أن تجف، بل زادت رطوبة والتصاقاً بجسدها مع مرور الوقت. وكانت برسي قد قبعت في إحدى الزوايا، يتفصد منها العرق أيضاً، وتنبعث رائحة كريهة جداً، بحيث إن سكارلت رغبت في إخراجها من الغرفة لولا أنها خشيت أن تهرب إذا ما أفلتت من تحت بصرها.

أما ميلاني فقد استلقت على السرير، ينضح جسدها بالعرق، ويستشعر الرطوبة في المواطن التي أراقت سكارلت الماء عليها. كانت

تتلوى بلا انقطاع، تستدير من جانب إلى آخر، إلى اليسار ثم إلى اليمين، وهكذا دواليك. . .

وكانت تحاول الجلوس في سريرها بين الفينة والأخرى، ولكنها كانت تهوى خاوية وتشرع في التلوي ثانية. ولقد حاولت في بادئ الأمر أن تمتنع عن البكاء فراحت تعض شفتيها حتى دميتا، ما دفع سكارلت، التي كانت متوترة الأعصاب توتر شفتي ميلاني، إلى أن تخاطبها بصوت أجش:

- «باللّه يا ميلاني، لا تحاولي أن تكوني شجاعة، اصرخي إذا شئت فلن يسمعك أحد سوانا».

وبينما كان بعد الظهر ينقضي كانت ميلاني تئن، سواء شاءت أن تكون شجاعة أم لم تشأ. وكان زعيقها أحياناً يرتفع فتلقي سكارلت برأسها بين يديها، وتغطي أذنيها، وتلوي جسدها، وتتمنى لو كانت هي نفسها ميتة، فأي حالة كانت أفضل من كونها تشهد هذه الآلام وهي عاجزة عن تخفيفها، وأي وضع كان أفضل من كونها تجلس هنا مقيدة، تنتظر وليداً استغرق قدومه وقتاً طويلاً كهذا، وتنتظره في الوقت الذي كانت تعلم فيه أن الشماليين أصبحوا حقاً في فايف بوينتس.

وتمنّت من كل قلبها لو كانت قد أرهفت السمع إلى المحادثات المهموسة التي كانت تدور بين المتزوجات عن موضوع الولادة، لو انتبهت فقط! لو اهتمت أكثر بهذه الأمور، لعرفت الآن إذا كانت ميلاني قد استغرقت وقتاً طويلاً أم لا، وعنّت لها ذكرى غامضة لإحدى قصص العمة بيتي عن صديقة استمرت مطلوقة طوال يومين ثم توفيت دون أن تلد. هب أن ميلاني استمرت على هذه الوتيرة طوال يومين! غير أن ميلاني هزيلة جداً بحيث لن تستطيع المقاومة مدة يومين وهي بمثل هذا الألم، ستموت عاجلاً إذا لم يحث الوليد خطاه. وكيف

يسعها مواجهة آشلي إن كان لا يزال حياً، وإعلامه أن ميلاني لفظت روحها بعد أن وعدته بالاعتناء بها؟

عندما تفاقم الألم بادئ الأمر، أرادت ميلاني أن تمسك بيدي سكارلت، غير أنها ضغطتهما بشدة بالغة حيث كادت تهشم عظامها، ولم تمضِ ساعة على هذا الحال حتى تورّمت يدا سكارلت وازرقّ لونهما ولم يعد في وسعها قبض راحتيها إلا بصعوبة، ولذلك عمدت إلى ربط منشفتين طويلتين معاً ثم ربطت طرفهما إلى أسفل السرير ووضعت الطرف الآخر في يد ميلاني، فتعلقت هذه به، كما لو كان حبل الحياة، إذ راحت تشده وتجذبه بعصبية، ثم ترخيه وتقطعه. واستمر جئيرها خلال بعد الظهر كحيوان يموت في الفخ. وكانت تفلت المنشفة بين الفينة والأخرى وتفرك يديها بتوانٍ، وتتطلع إلى سكارلت بعيني يطفر منهما الألم:

- «تحدثي إليّ، أرجوك تحدثي إليّ» هكذا كانت تهمس، فتجيبها سكارلت بأن تهذي ببعض الحديث إلى أن تقبض ميلاني على المنشفة ثانية وتبدأ في ليها.

غرقت الغرفة المعتمة في بحر من الألم والحر والذباب المتهافت، وتصرّم الوقت بطئياً يجرجر دقائقه على قدمين متلكئتين، بحيث لم يسع سكارلت تذكّر الصباح إلا بصعوبة، وشعرت كما لو قضت في هذا المكان المعتم الحار الخانق طوال حياتها، وتمنت متحرقة أن تزعق كلما زعقت ميلاني، ولولا عضها شفتيها بعنف مؤلم لما استطاعت كبح جماح نفسها وطرد الهستيريا.

وحدث أن أقبل ويد مرة، صاعداً الدرج على رؤوس أصابعه، ثم وقف خارج الباب ينتحب.

- «ويد جائع» فنهضت سكارلت لتتجه إليه، ولكن ميلاني همست

«لا تدعيني وحدي أرجوك، ففي وسعي احتمال الألم وأنت إلى جانبي».

وهكذا أرسلت سكارلت برسي إلى الطابق السفلي لتسخن عصيدة الذرة وتطعم ويد. أما هي فقد أحست أن ليس في وسعها ازدراد الطعام أبداً بعد هذه الأمسية.

كانت الساعة التي على رف الموقد قد توقفت، ولم تجد سكارلت وسيلة لمعرفة الوقت، ولكن عندما خفّت حرارة الغرفة وقلَّت نقاط الضوء تلألؤاً، سحبت الستائر جانباً، فأدهشها ما رأت، إذ كان الوقت قد شارف الطفل والشمس قد قاربت الغروب، وبدت كرة قرمزية اللون... بينما كان قد خيّل لسكارلت أن الزمن سيستمر إلى الأبد ظهيرة حارة مستعرة.

وتساءلت بانفعال عمّا كان يجري في المدينة. هل انسحب جميع الجنود؟ هل دخل الشماليون؟ هل سيتراجع الحلفيون حتى من دون أي قتال؟ ثم تذكرت والرجفة المريضة تنتاب معدتها، مدى قلة الحلفيين، وضخامة جيش شيرمان وجودة تغذيته... شيرمان! إن اسم الشيطان ذاته لم يفزعها نصف هذا الفزع. ولكن لا مجال للتفكير الآن وميلاني تتطلب ماء وتتطلب منشفة مبللة على رأسها وتتطلب من يهوي لها ويذبّ الذباب بعيداً عن وجهها.

وعندما زحفت عتمة الغسق، ومرقت برسي كطيف أسود لتضيء المصباح، زادت ميلاني وهناً على وهن، وشرعت في نداء آشلي، ورددت الاسم مرة بعد مرة كما لو كانت غارقة في بحر من الهذيان، حتى إن سكارلت شعرت برغبة جامحة لتخنق الطبيب أخيراً... آه لو أنه يأتي بسرعة! ورفع الأمل رأسه، فالتفتت نحو برسي وأمرتها أن تهرع إلى بيت آل ميد وترى ما إذا كان الطبيب موجوداً هناك أو السيدة ميد:

- «وإن لم تجديه، اسألي السيدة ميد أو كوكي عما ينبغي أن نعمله. التمسي منهما الحضور».

وانطلقت برسي تقرقع بقدميها، بينما راحت سكارلت تراقبها وهي تنحدر مسرعة في الشارع، تجري بسرعة أكثر مما تصورت سكارلت أن تستطيعه هذه البنية الحقيرة، ولكنها عادت بخفّي حنين بعد فترة بدت طويلة:

- «لم يأتِ الطبيب إلى البيت طوال النهار، وعلى ذلك قد يكون رافق الجنود. لقد قضى السيد فل يا آنسة سكارلت».

- «مات؟».

- «أجل!» قالت برسي منتفخة ومصطنعة أهمية لذاتها، «أخبرني ذلك حوذيهم تالبوت، قال إنه أصيب».

- «لا بأس».

- «ولم أرَ السيدة ميد، ولكن كوكي أخبرتني أنها كانت تغسل جسد فل وأنها معنية بتدبير دفنه الآن لأن الشماليين قادمون هنا، كما أخبرتني أيضاً أنه إذا ما اشتدت آلام الآنسة ميلي فعليك بوضع سكين تحت سريرها، فينشطر الألم شطرين».

همَّت سكارلت أن تصفعها ثانية جزاء هذا العلاج العجيب، ولكن ميلاني جحظت عينيها المتسعتين هامسة:

- «عزيزتي، هل الشماليون قادمون؟».

- «لا» أجابت سكارلت بجرأة، «إن برسي تكذب».

- «نعم إني واثقة بذلك» أيدت برسي قولها بحماس.

- «إنهم قادمون» همست ميلاني غير مصدقة كلام سكارلت، دافنة رأسها في الوسادة، ثم أنَّ صوتها خفيضاً:

- «يا لطفلي المسكين! يا لطفلي المسكين!» وصمتت هنيهة طويلة

ثم عاد الصوت الواني: «آه سكارلت، ينبغي ألّا تظلي هنا، ينبغي أن ترحلي وتأخذي ويد معك».

لم يكن هذا الذي تفوّهت به ميلاني، يعدو ما تفكر فيه سكارلت، ولكن سماعه ألفاظاً تنطق، أحنق سكارلت وجعلها تشعر بالعار، لقد بدا الأمر كأن جبنها الخفي مسطور على وجهها بوضوح.

- «لا تكوني جبانة، فأنا لست خائفة، تعرفين أني لن أتركك».

- «في وسعك ذلك إن شئت فأنا سوف أموت» وشرعت في النحيب ثانية.

* * *

نزلت سكارلت السلم ببطء، وكأنها امرأة عجوز تتحسس طريقها، وتتمسك بالدرابزين خشية السقوط. كانت ساقاها مثقلتين واهنتين ترتجفان من الإنهاك والجهد، وكان جسدها يرتعش من البرد الناجم عن العرق الدبق الذي بلل جسمها. واتخذت طريقها إلى الشرفة الأمامية بتخاذل، وتهالكت على الدرجة العليا، متكئة على أحد الأعمدة، وفكّت أزرار قميصها حتى منتصفه بيد مرتعشة. وكانت الليلة غارقة في ظلام دافئ منعش لذيذ، فاستلقت تحدق في ستائر الظلمة بلهاء كالثور.

لقد انتهى كل شيء! نجت ميلاني من الموت، وحُمل الوليد الذكر الذي يموء كقطيطة صغيرة، ليأخذ حمامه الأول على يدي برسي بينما أخلدت أمه إلى النوم... عجباً! كيف يسعها النوم بعد ذلك الذي يشبه الحلم الرهيب من الألم والصراخ، وبعد عملية التوليد تلك، التي أجرتها الأيدي الجاهلة، العملية التي آلمتها أكثر مما ساعدتها... عجباً! لماذا لم تمت؟ إن سكارلت تعرف أنها هي نفسها كان يمكن أن تموت بفعل إجراءات كهذه، ولكن عندما انتهت الولادة، همست ميلاني بصوت خافت جداً، أرغم سكارلت على الانحناء لتسمعه:

- «أشكرك» ثم غرقت في النوم. كيف استطاعت النوم؟ ونسيت سكارلت أنها هي أيضاً كانت قد استغرقت في النوم إثر ولادة ويد، نسيت كل شيء. لقد كان عقلها فراغاً. لقد كانت الدنيا فراغاً. ولم تكن هناك حياة قبل هذا النهار السرمدي. ولن تكون هناك حياة بعده. وإنما فقط ليلة مشبعة بالحرارة، فقط صوت تنفسها الأجش، والعرق يسيل بارداً من تحت الإبط إلى الخصر، من الورك إلى الركبة، عرق دبق لزج مرعش.

وسمعت سكارلت صوت تنفسها يتحول من النغم المنسجم إلى النحيب المتشنج، غير أن عينيها كانتا جافتين ملتهبتين، كما لو أنهما لن تنضحا بالدمع بعد اليوم. وببطء وجهد أزاحت نفسها عن مقعدها وجذبت تنورتها الثقيلة حتى فخذيها. كانت تحس بالدفء والبرد واللزوجة في الوقت ذاته، وكان مس هواء الليل لجوانبها منعشاً. وفكرت ببلادة، ماذا يمكن أن تقول العمة بيتي لو رأتها رابضة هنا وتنورتها مرفوعة وسروالها السفلي بادٍ للعيان، ولكنها لم تأبه، لم تأبه لأي شيء. إن الزمن يمضي ساكناً، وقد يكون الوقت بعيد الغسق وقد يكون منتصف الليل... إنها لا تعرف شيئاً ولا تأبه لشيء كذلك.

وسمعت صوت أقدام تتحرك في الطابق العلوي، وهجست قبل أن تغمض عينيها «ليلعن اللّه برسي» وغمرها شيء كالنوم، ورأت بعد هنيهة مظلمة تائهة برسي تقف إلى جانبها تثرثر بأسلوب سار:

- «لقد قمنا بعمل حسن يا آنسة سكارلت. أعتقد أن ماما لا تستطيع عمل أفضل منه».

ومن ثنايا الظلام، رنت سكارلت إليها وهي خائرة القوى، بحيث لا تستطيع تشهيراً ولا توبيخاً، ولا إحصاء مساوئ برسي - ادعاؤها المتعجرف بخبرة لا تملك منها شيئاً - هلعها، ارتباكها الأثيم، قصورها التام عندما اشتدت الحاجة، وضعها المقص في المكان

الخاطئ، إراقة طشت الماء على السرير، إسقاط الوليد، وها هي الآن تهذي بصنيعها العظيم.

والشماليون يريدون تحرير الزنوج! أجل إن الزنوج يرحّبون بقدوم الشماليين.

عادت سكارلت فأسندت ظهرها إلى العمود صامتة، بينما تسللت برسي على رؤوس أصابعها، وقد تنبهت إلى ما يراود سيدتها... فمضت بعيداً وسط الشرفة. وسمعت سكارلت بعد برهة طويلة، وقد هدأ تنفسها واستقر تفكيرها، سمعت صدى أصوات خافتة صادرة من أعلى الطريق، وقع خطوات عديدة قادمة من الشمال، جنود! فاعتدلت في جلستها ببطء، مسدلة تنورتها، مع أنها كانت تعلم أن ليس في استطاعة أحد رؤيتها في الظلمة. وعندما حاذى الرجال المجهولو العدد السائرون كالأشباح، بيت العمة بيتي استوقفتهم سكارلت صائحة:

- «ها! أرجوكم!».

فانفصل شبح عن الجماعة وأتى إلى البوابة.

- «هل أنتم راحلون؟ هل ستتركوننا؟».

وبدا كأن الشبح ينزع قبعته، ثم انبعث صوت هادئ من خلال الظلام.

- «أجل يا سيدة، هذا ما نفعله الآن، نحن آخر رجال يغادرون الاستحكامات التي تقع على مسافة ميل شمالاً».

- «هل أنتم - هل الجيش يتراجع حقاً؟».

- «نعم يا سيدة، كما ترين، فالشماليون قادمون».

الشماليون قادمون! كانت قد نسيت ذلك، وتقلص حلقها فجأة، ولم تستطع قول شيء آخر، وابتعد الشبح، وانضمّ إلى زملائه، وتابعت الأقدام خطواها بعيداً في الليل الحالك... الشماليون قادمون!

الشماليون قادمون! ذلك ما كان يقوله وقعُ أقدامهم، ذاك ما كان يجيب به قلبها الخافق في كل ضربة من ضرباته. . . الشماليون قادمون!

- «الشماليون قادمون!» نشجت برسي مقتربة منها، «آه يا آنسة سكارلت، سيقتلوننا جميعاً، سيبقرون بطوننا بحرابهم، سـ. . . ».

- «ها، اصمتي» كان مجرد التفكير في هذه الأمور من دون سماعها ينطق بعبارات مرتعشة، مدعاة إلى رعب هائل، ولذلك اجتاحها الخوف مجدداً. . . وتساءلت، ماذا يمكنها أن تفعل؟ كيف يسعها الهرب؟ أين تستطيع الهرع طلباً للمساعدة؟ لقد خيَّب جميع الأصدقاء آمالها.

وفجأة خطر في بالها ريت باتلر، فأزالت الطمأنينة مخاوفها، وتساءلت: لماذا لم تفكر فيه هذا الصباح حين كانت تنط جيئة وذهاباً كفرخ ذبيح؟ إنها تبغضه ولكنه رجل قوي وأنيق، ولا يخشى الشماليين، كما أنه ما زال في المدينة. . . طبعاً لقد ثارت عليه. . . ولقد تفوّه بعبارات لا يمكن الصفح عنها، وذلك في آخرة مرة رأته فيها، غير أن في وسعها التغاضي عن مثل هذه الأمور في وقت كهذا. . . كما أنه كان يملك حصاناً وعربة. . . آه! لماذا لم تفكر فيه قبلاً. . . إنه يستطيع أخذهم جميعاً إلى مكان بعيد عن هذا المكان الجهنمي، بعيد عن الشماليين، إلى مكان ما، إلى أي مكان.

والتفتت إلى برسي وقالت بإلحاح محموم:

- «أنت تعرفين أين يقيم الكابتن باتلر - في فندق أتلانتا؟».

- «نعم يا سيدتي، ولكن -».

- «حسناً، اذهبي إلى هناك، الآن، بأسرع ما تستطيعين من جري وأخبريه أني أريده، وأريده أن يأتي على عجل ويحضر حصانه وعربته أو سيارة إسعاف إذا ما استطاع الحصول على واحدة. أخبريه عن

الوليد، أخبريه أني أريده ليحملنا بعيداً من هنا، اذهبي الآن، أسرعي».

واعتدلت مستقيمة في جلستها، ودفعت ببرسي تحثها على السرعة.

- «يا اللّه يا آنسة سكارلت، إني أخاف الذهاب وحدي في الظلام، هبي أن الشماليين قبضوا عليَّ».

- «إذا ركضت بسرعة، فستلتقين بهؤلاء الجنود، ولن يدعوا الشماليين يقبضون عليك. أسرعي».

- «إني خائفة، هبي أن الكابتن باتلر ليس في الفندق».

- «عندئذ اسألي أين هو، ألا تملكين شيئاً من الذكاء؟ إذا لم يكن في الفندق، اذهبي إلى الحانات في شارع ديكاتور واستفسري عنه. اذهبي إلى منزل بيل وتلينغ وابحثي عنه أيتها الحمقاء. ألا ترين أنك إن لم تسرعي وتجديه فسيقبض الشماليون حتماً علينا، جميعاً؟».

- «آنسة سكارلت، ستجلدني أمي بقضيب من سيقان القطن إذا أنا دخلت حانة أو منزل دعارة».

فنهضت سكارلت على قدميها وقالت:

- «وسأسلخ جلدك إذا لم تذهبي، إن في وسعك الوقوف في الشارع، خارج الحانة ونداءه. ألا تستطيعين؟ أرسلي أحد الناس يستدعيه إذا كان موجوداً في الداخل. هيا اذهبي».

وعندما استمرت برسي في المماطلة، وهي تراوغ بقدميها وبفمها، دفعتها سكارلت ثانية حتى كادت تطيح بها رأساً إلى ما وراء الدرجات الأمامية.

- «ستذهبين وإلا بعتك جنوب النهر، ولن تري أمك أبداً أو أياً من الناس الذين تعرفينهم. سأبيعك كعاملة حقل أيضاً. أسرعي».

- «باللّه يا آنسة سكارلت!».

ولكن برسي نزلت الدرجات تحت ضغط يد سيدتها المصممة، ثم سُمع صوت البوابة الأمامية تفتح وتلا ذلك صوت سكارلت صائحة:

- «اركضي أيتها الجبانة».

وعلى الأثر سمعت صوت قدميها وهي تشرع في جري خبب، ثم تلاشى الصوت فوق الأرض الطرية.

23

بعد ذهاب برسي دخلت سكارلت وهي متعبة إلى القاعة السفلى وأضاءت مصباحاً، وكان البيت شديد الحرارة، كما لو أنه كان يحوي في جدرانه كل حرارة الظهيرة. كان قد زال بعض خمولها الآن وطفقت معدتها تجأر صارخة من أجل الطعام. وتذكرت أنها لم تذق شيئاً منذ الليلة الماضية، سوى ملعقة من عصيدة الذرة، فحملت المصباح وقصدت المطبخ. كانت نار الموقد قد خمدت، ولكن الغرفة ما زالت حارة خانقة. ووجدت سكارلت في المقلى نصف رغيف من خبز الذرة الجاف، فالتهمته بنهم، بينما كانت عيناها تبحثان عن طعام آخر. وكان في القِدر بقية من عصيدة الذرة فتناولتها بملعقة طهي كبيرة دون أن تنتظر حتى تسكبها في الصحن. وعلى الرغم من نقص الملح الفاضح فيها، لم يدعها جوعها الفاجر تبحث عن الملح. وبعد أن ازدردت ملء أربع ملاعق، لم يعد في وسعها احتمال حرارة الغرفة المتصاعدة، فحملت المصباح بإحدى يديها، وقطعة من الخبز باليد الأخرى وخرجت إلى القاعة.

كانت سكارلت تعرف أن واجبها الصعود إلى الطابق العلوي والجلوس بجانب ميلاني، لأن إذا ما طرأ مكروه، فلن تقوى ميلاني على الصياح من جرّاء وهنها البالغ، بيد أن فكرة الرجوع إلى تلك الغرفة التي أمضت فيها عدة ساعات رهيبة، كانت مفزعة تنفر منها

النفس. وحتى لو كانت ميلاني تعاني سكرات الموت، فإنها لا تستطيع الصعود ثانية إلى تلك الغرفة، إنها لا تريد رؤيتها ثانية، ووضعت المصباح على قاعدة الشموع إزاء النافذة، وعادت إلى الشرفة، حيث كان الجو أرطب كثيراً، مع أن الليلة كانت غارقة في دفء ناعم.

جلست سكارلت على الدرجات تظللها دائرة من الضوء الباهت، منبعثة من المصباح، واستمرت تقضم الخبز، وعندما فرغت منه أحست بشيء من القوة يعاودها، ومع هذه القوة، رجعت إليها وخزات الخوف. واستطاعت سماع صدى جلبة بعيدة في أسفل الشارع، غير أنها لم تعرف ما كانت تنذر به تلك الضوضاء. وكل ما أمكنها التحقق منه هو هذا الهدير من الصوت يرتفع وينخفض، ومدت عنقها وأرهفت السمع تحاول الإصغاء، ولكنها سرعان ما أحست بعضلاتها تؤلمها جرّاء توتر أعصابها. وتلهفت لسماع وقع الخطوات، ولرؤية عيني ريت الباردتين الواثقتين تسخران من مخاوفها، تلهفت لذلك أكثر من تلهفها إلى أي شيء في الدنيا، فريت سيحملهم بعيداً، إلى مكان ما... إنها لا تعرف أين... ولا يهمّها أن تعرف.

وبينما هي تجلس مصيخة السمع باتجاه المدينة، شع وهج خافت فوق الأشجار، الأمر الذي حيرها، فراحت تراقبه وإذا به يزداد تألقاً، وإذا بالسماء الفاتحة تتحول إلى لون وردي ثم إلى لون أحمر باهت. وفجأة رأت فوق الأشجار لساناً ضخماً من اللهيب يتطاول عالياً نحو كبد السماء، فوثبت واقفة على قدميها، وقد شرع قلبها في الخفقان ثانية، وفي الوجيب الممرض. لقد أتى الشماليون! إنها تعرف أنهم دخلوا وأنهم يحرقون المدينة. وبدت ألسنة اللهيب بعيدة، شرق وسط المدينة. كانت تتطاول أعلى فأعلى، تتسع بسرعة في دائرة عريضة، دائرة حمراء أمام عينيها الذاهلتين... وهجست، لا بد أن بناية تحترق بأكملها... وهبّ نسيم خفيف حار حاملاً رائحة الدخان إلى منخريها.

فولّت الأدبار صاعدة السلّم إلى غرفتها، وأشرعت النافذة لتتمكن من رؤية أفضل. كانت السماء مكفهرة اللون، كالحة المنظر، تتثنى في صفحتها حلقات من الدخان الأسود لتعلق في السحب المتموجة فوق ألسنة اللهيب. واشتدت رائحة الدخان، واندفع عقلها في كل الاتجاهات من دون هدف، يسوقه التفكير في أن اللهيب سرعان ما سينتشر متقدماً في شارع بيتشتري ليحرق هذا البيت، وأن الشماليين سرعان ما سيدخلون المنزل ويغتصبونها، فأين ستفر؟ وماذا ستفعل؟ إن جميع شياطين الجحيم تبدو كأنها تزعق في أذنيها، وكان عقلها يدور في دوامة من الضياع والرعب القاتل بحيث إنها تعلقت إلى عتبة النافذة لتسند نفسها.

«ينبغي أن أفكر» هجست في نفسها مرة بعد مرة، «ينبغي أن أفكر».

ولكن الأفكار خذلتها، إذ كانت تطرأ وتنفلت من عقلها كطيور طنانة فزعة. وبينما هي تقف متكئة على حافة النافذة مزق أذنيها دويّ انفجار يصمّ الآذان، أشدّ عنفاً من أي دويّ سمعته في حياتها، واندفع لهيب هائل في السماء، وتلا ذلك انفجارات أخرى واهتزت الأرض، وارتج زجاج النوافذ فوقها وسقط متناثراً حولها.

وأضحت الدنيا جحيماً من الضجيج واللهيب، وكانت الأرض تزلزل زلزالها كلما تلا انفجار انفجاراً آخر في تتابع يمزق الأسماع، واخترقت كتل من الشرر أجواء السماء ثم هبطت متباطئة متوانية خلال غيوم من الدخان، مصطبغة بلون الدم. وخيّل لسكارلت أنها سمعت نداء وانياً من الغرفة المجاورة، ولكنها لم تعره اهتمامها، فليس لديها الآن وقت لميلاني، بل ليس لديها وقت لأي شيء، إلا لخوف يلعق من عروقها بسرعة كسرعة ألسنة اللهب التي تراها. لقد أضحت مجرد طفلة أطار الفزع صوابها فودّت لو تدفن رأسها في حجر أمها، وتغمض

عينيها من هذا المنظر الرهيب. آه لو أنها في البيت فقط، في البيت مع أمها.

وسمعت سكارلت خلال تلك الأصوات المثيرة، صوتاً آخر، صوت أقدام يحثها الخوف، وهي تصعد الدرجات ثلاثاً ثلاثاً، صوتاً نابحاً كصوت كلب ضائع. واخترقت برسي الغرفة وهرعت نحو سكارلت، وأمسكت بذراعها في قبضة كادت تمزق لحمها إرباً إرباً.

- «الشماليون. . .» صاحت سكارلت.

- «لا، إنهم جنودنا» صاحت برسي لاهثة، غارزة أظافرها أعمق في ذراع سكارلت، «إنهم يحرقون المصانع ومخازن تموين الجيش وعنابر الذخيرة. باللّه يا آنسة سكارلت، لقد فجروا بها ملء سبعين عربة من البارود وقنابل المدافع. يا للمسيح! سنحترق جميعاً».

وبدأت تجأر بزعيق حاد، وتقرص سكارلت بقوة بالغة حتى إن هذه صاحت من الألم وانتزعت يدها.

لم يدخل الشماليون بعد! وما زال هناك متسع للهرب! واستجمعت أباديد جأشها المذعور:

«إذا لم أحتفظ برباطة جأشي» فكرت، «فسأولول كقطة يشتعل بها اللهيب!».

وساعد منظر هلع برسي الخسيس على تهدئة روعها، فأمسكت بكتفيها وهزتها قائلة:

- «كفي عن هذه العربدة وتكلمي في ما هو معقول، فالشماليون لم يدخلوا بعد أيتها الحمقاء. هل رأيت الكابتن باتلر؟ ماذا قال؟ هل هو آتٍ؟».

كفت برسي عن الزعيق، غير أن أسنانها استمرت تصطك من الرعب.

- «نعم يا سيدتي، وجدته أخيراً في إحدى الحانات كما أخبرتني، إنه. . .».

- «لا يهمني أين وجدته، أخبريني هل هو قادم؟ هل أخبرته أن يجلب فرسه؟».

- «نعم يا آنسة سكارلت. لقد قال إن جنودنا أخذوا حصانه وعربته ليتسعملوها كعربة إسعاف».

- «يا للّه العزيز في السماء!».

- «ولكنه آتٍ. . .».

- «وماذا قال؟».

استعادت برسي نفسها وبعض السيطرة على اضطرابها، بيد أن عينيها ظلّتا قلقتين.

- «حسناً يا سيدتي، كما أخبرتني وجدته في حانة. وقفت في الخارج وناديته، فخرج ورآني مباشرة. وعندما باشرت في إبلاغه حديثك، نسف الجنود أحد المنازل الحجرية في أسفل شارع ديكاتور، فاشتعلت النيران، ولذلك طلب إليَّ أن أرافقه، وأمسك بيدي، وركضنا نحو فايف بوينتس، وهناك قال لي: «والآن ماذا؟ هيا تكلمي!» فأجبته أنك أخبرتني أن يأتي الكابتن باتلر على عجل ويحضر حصانه وعربته، وأن الآنسة ميلي ولدت طفلاً، وأنك تتلهفين للخروج من المدينة، فأجابني: «وأين تفكر في الذهاب»، فقلت: لا أدري يا سيدي، ولكن لا بد من ذهابك، لأن الشماليين يدخلون البلد وهي تريد الخروج معك. فضحك قائلاً إنهم أخذوا حصانه».

غار قلب سكارلت عندما غادرها الأمل الأخير. لقد كانت غبية إذ لم تفكر في أن من الطبيعي أن يصادر الجيش المتقهقر كل عربة وحصان في المدينة، ووقفت هنيهة وهي في حالة من الصرع الذاهل،

بحيث لم تسمع ما قالته برسي، بيد أنها سرعان ما استعادت رشدها لتصغي إلى بقية القصة.

- «ثم قال اخبري الآنسة سكارلت أن تحتفظ بسكينتها، فسأسرق حصاناً من أجلها من خارج ممتلكات الجيش، حتى لو لم يعد في المدينة أي حصان. لقد سرقت خيولاً قبل هذه الليلة. أخبريها أني سأجلب حصاناً حتى لو دفعت روحي ثمن ذلك. ثم ضحك ثانية وأردف: «اجري الآن إلى البيت» وقبيل أن أبدأ بالجري سمعت صوت دوي هائل، وكدت أقع في الطريق، ولكنه طمأنني قائلاً إن جنودنا يدمرون ذخائرهم لئلا تقع في أيدي الشماليين و. . .».

- «هل هو آتٍ؟ هل سيجلب حصاناً؟».

- «هكذا قال».

فتنفست سكارلت الصعداء. إنها تعرف أنه إذا كان يوجد أي مجال للحصول على حصان، فريت باتلر لا بد فائز بواحد. إن ريت رجل حاذق ذكي. سوف تعفو عن كل شيء فعله إن هو أخرجهم من هذه الورطة. الهرب! ومع ريت لن تخشى شيئاً، ريت سيحميهم. . . شكراً للّه على ريت. . . لقد أضحت سكارلت إنساناً عملياً وهي تفكر في سلامتها.

- «أيقظي ويد وألبسيه، وأخرجي بعض الثياب لنا. جميعاً. ضعيها في الحقيبة الصغيرة، ولا تخبري الآنسة ميلاني أننا ذاهبون فلم يحن الوقت بعد، ولكن دثري الطفل بمنشفتين سميكتين وتأكدي من راحته واحزمي ثيابه».

كانت برسي لا تزال متعلقة بأهداب تنورة سكارلت، لا تكاد عينيها تُظهران سوى البياض، بيد أن سكارلت دفعتها مفلتة إياها من قبضتها، وصاحت بها:

- «أسرعي» وهرولت برسي كالأرنب.

كانت سكارلت تعرف أن عليها ولوج غرفة ميلاني لتهدئة مخاوفها، وتعرف أيضاً أن ميلاني لا بد أن تكون هلعة فاقدة الرشد من جرّاء هذه الانفجارات الراعدة التي استمرت دون أن يخف دويها، ومن جرّاء هذا الوهج الذي خضب السماء. إن كل شيء يبدو ويصوت كما لو أنها نهاية الدنيا.

غير أنها لم تكن تستطيع حتى الآن حمل نفسها على الدخول إلى تلك الغرفة، ولذا هبطت السلّم جرياً، يحثها التفكير برزم بعض أدوات الآنسة بيتي، الخزفية والفضية التي خلفتها في البيت يوم نزحت إلى ميكون. ولكنها عندما بلغت غرفة الطعام، أحست بيديها ترتعشان بعنف، بحيث سقط منهما ثلاث صحاف، تهشمت على الأرض. ثم أسرعت ركضاً إلى الشرفة لتصيخ السمع، ومن ثم قفلت راجعة إلى غرفة الطعام حيث أسقطت مرة أخرى إحدى الأواني الفضية التي علا صليلها عندما اصطدمت بالأرض. وهكذا هوى إلى الأرض كل شيء لمسته يداها.

وبينما هي في غمرة سرعتها، زلّت قدمها فوق السجاد، فوقعت مرتطمة بالأرض، غير أنها سرعان ما نهضت دون أن تشعر بالألم. واستطاعت سماع خطوات برسي من الطابق العلوي، وهي تخب خباً كحيوان بري، الأمر الذي أفزعها لأنها هي أيضاً كانت تحوم بلا هدف.

وللمرة الثانية عشرة خرجت ركضاً إلى الشرفة، ولكنها لم تعد هذه المرة إلى عملية الرزم العقيمة، بل جلست واثقة بأن من المستحيل عمل أي شيء سوى الجلوس وانتظار ريت. وبدا لها أن ساعات طويلة ستنقضي قبل أن يصل. وأخيراً، ومن أعلى الطريق البعيدة، تناهى إلى سمعها صرير عجلات تقاوم، عجلات من دون تزييت، كما سمعت أيضاً صوتاً غامضاً لحوافر حصان بطيء يكدح في مشيته... لماذا لم يسرع؟! لماذا لم يحث الحصان كي ينطلق خبباً؟

واقترب الصوت، ووثبت واقفة على قدميها ونادت ريت، ثم لاح لها شخصه بغموض، وهو يترجل من على مقعد عربة صغيرة، وسمعت صرير البوابة وهو يتجه نحوها. وعندما أضحى تحت بصرها كشف ضوء المصباح وجهه بوضوح. كان ثوبه ظريفاً كما لو أنه ذاهب إلى حفلة رقص: معطف وسروال كتانيان جيدا الصنع وصدرة حريرية رمادية مطرزة، وقميص بقليل من الكشاكش، أما قبعته الباناما الواسعة فكانت موضوعة على جانب رأسه بشكل مثير. وقد دس في حزام سرواله مسدسي مبارزة طويلي الماسورة، عاجيي المقبض، وانتفخ جيبا معطفه بالذخيرة.

وصعد الممشى بالخطو المرن لرجل همجي، وبدا رأسه محمولاً على كتفيه كرأس أمير وثني... إن أهوال الليلة التي أودت بسكارلت في مهاوي الرعب قد أثرت عليها تأثير مادة مسكرة. كان وجهه ينطق بشراسة مكبوحة حذرة، بقسوة كان يمكن أن تفزعها لو ملكت الفطنة لاستجلائها.

وكانت عيناه السوداوان تتراقصان كأنهما مسرورتان بهذا الوضع الجديد، وكأن أصوات الانفجارات المزلزلة واللهيب الخفيف مجرد أمور تروّع الأطفال. وبينما كان يصعد الدرجات ترنحت سكارلت نحوه، وجهها شاحب وعيناها الخضراوان محمومتان.

- «عمّي مساء» قال بلهجته المتشدقة وهو يرفع قبعته بإيماءة سريعة، «إننا ننعم بطقس بديع. سمعت أنك ستقومين برحلة».

- «إذا ما مزحت، فلن أكلمك أبداً» قالت بصوت مرتعش.

- «لا تخبريني أنك فزعة!» وتظاهر بالدهشة وابتسم بطريقة جعلتها تتحرق لدفعه إلى الوراء، كي يتدحرج فوق الدرج الشديد الانحدار.

- «أجل! إني فزعة حتى الموت، ولو كنت تملك العقل الذي

وهبه اللّه للماعز، لفزعت أيضاً. ولكن ليس لدينا الوقت للحديث، فعلينا أن نغادر المكان».

- «أنا في خدمتك يا سيدة. فقط أين عولت على الذهاب؟ لقد دفعني الفضول للخروج والقدوم إلى هنا، لأرى فقط أين عزمت على الرحيل، إذ ليس في وسعك الذهاب شمالاً أو شرقاً، جنوباً أو غرباً. إن الشماليين يحيطون بجميع النواحي، ولا يوجد إلا طريق واحدة فقط للخروج من المدينة، طريق لم يحتلها الشماليون بعد، ولكن جنودنا يتراجعون فوقها، ولن تستمر في أيديهم مدة طويلة، ففرسان الجنرال ستيف لي يقومون بقتال في المؤخرة عند رف آند ريدي، كحركة تغطية للاحتفاظ بالطريق المذكورة أطول مدة ممكنة، وذلك كي يتسنى للجيش الانسحاب، فإذا ما تبعت الجيش على طريق ماك دونو، فسيجردك رجاله من الحصان، الذي على الرغم من أنه شبه حصان فإني تجشمت الكثير من المشقة في سرقته. . . أريد أن أعرِف فقط أين تريدين الذهاب؟».

وقفت سكارلت تنتفض فرقاً، تصغي لكلماته ولا تكاد تسمعها. ولكنها عرفت فجأة، على أثر سؤاله، أين تريد الذهاب، عرفت أنها كانت تدرك طوال هذا اليوم المشؤوم إلى أين تريد الذهاب، إلى المكان الوحيد:

- «إني ذاهبة إلى البيت» قالت.

- «البيت؟ أتقصدين تارا؟».

- «أجل، أجل! إلى تارا. آه يا ريت، ينبغي أن نسرع».

فنظر إليها كما لو كانت قد فقدت عقلها:

- «تارا؟ يا للّه يا سكارلت! ألا تعرفين أن القتال دار في جونسبورو طوال هذا اليوم؟ قتال امتد عشرة أميال شمال الطريق من رف آند ريدي وجنوبها، حتى في قلب شوارع جونسبورو؟ من المحتمل

أن يكون الشماليون قد استولوا على تارا كلّها الآن، بل على المقاطعة بأسرها. لا يعرف إنسان أين هم الآن بالضبط، ولكنهم في تلك الناحية على كل حال. لا يمكنك الذهاب إلى البيت، لا يمكنك اختراق الجيش الشمالي».

- «سأذهب إلى البيت!» صاحت، «سأذهب! سأذهب!».

- «أيتها الحمقاء الصغيرة» قال بصوت سريع أجش، «لا يمكنك الذهاب من تلك الطريق، إذ حتى إذا تجنبت خطوط الشماليين، فستعترض سبيلك الغابات المليئة بالضالين طريقهم والفارين من كلا الجيشين. ثم إن جموعاً كبيرة من جنودنا ما زالت تتراجع من جونسبورو، وسينتزع أفرادها الحصان منك فور أن يشاهدوه، الأمر الذي يمكن أن يفعله الشماليون كذلك. وإذن ففرصتك الوحيدة هي في اتباع جنودنا فوق طريق ماك دونو، واسألي اللّه أن لا يروك في الظلام... لا! لا تستطيعين الذهاب إلى تارا. حتى لو قُدِّر لك بلوغها، فمن المحتمل أن تجديها خاوية محترقة... لا! لن أدعك تذهبين إلى البيت، إن هذا عمل جنوني.»

- «سأذهب إلى البيت»، صاحت وعلا صوتها في زعيق حاد، «سأذهب إلى البيت ولن تستطيع منعي. سأذهب إلى البيت. إني أريد الوصول إلى أمي، وسأقتلك إن أنت حاولت منعي. سأذهب إلى البيت».

وهمت دموع الخوف والهستيريا على وجهها. وقد انهارت مقاومتها أخيراً بعد ذلك التوتر النفسي الطويل، وراحت تقرع على صدره بقبضتيها وتصيح ثانية:

- «سأذهب! سأذهب! حتى لو كُتب عليَّ أن أمشي كل خطوة في الطريق».

وفجأة أضحت بين ذراعيه، خدها المخضب على كشكش قميصه

المنشى، ويداها القراعتان ما زالتا على صدره، وداعبت أصابعه شعرها المشعث بلطف محاولة تهدئة روعها، وكان صوته رقيقاً كذلك، رقيقاً جداً، هادئاً جداً، خالياً من أي سخرية، كأنه لم يعد صوت ريت باتلر أبداً، بل صوت رجل غريب قوي رحيم، تنبعث منه رائحة البراندي والدخان والخيل، تلك الرائحة التي واستها لأنها ذكّرتها بجيرالد.

- «يكفي، يكفي يا عزيزتي» قال بلطف، «لا تبكي، ستذهبين إلى البيت يا فتاتي الشجاعة. ستذهبين إلى البيت. لا تبكي».

وأحست بشيء يمس شعرها، وتساءلت وهي على هذه الحال من الاضطراب، ما إذا كان ذلك الشيء هو شفتيه. لقد كان عطوفاً جداً، مواسياً إلى آخر حدود المواساة، وتاقت لو تظل بين ذراعيه إلى الأبد، فلن يقدر أي مكروه على إيذائها أبداً ما دامت هي بين ذراعين قويتين كهاتين.

وعبث ريت في جيبه، ثم أخرج منديلاً مسح به عينيها.

- «والآن امخطي كالفتاة الطيبة» قال وفي عينيه بصيص من ابتسامة، «وأخبريني ما أفعل، فينبغي العمل بسرعة».

فمخطت ملبية طلبه، دون أن تكف عن الرجفان، ودون أن تستطيع التفكير فيما ينبغي عليه فعله، غير أنه قد رأى كيف كانت شفتاها ترتعشان، وعيناها تشخصان إليه حائرتين، استلم المبادرة:

- «لقد ولدت السيدة ويلكس؟ سيكون من الخطر نقلها، من الخطر حملها مسافة خمسة وعشرين ميلاً في هذه العربة الكسيح، فمن الأفضل إذن بقاؤها مع السيدة ميد».

-« آل ميد ليسوا في البيت. لا يمكنني إبقاؤها».

- «حسناً جداً، ستذهب في العربة. أين تلك اللكاع الغبية الصغيرة؟»

- «في الطابق العلوي تحزم الحقيبة».

- «حقيبة؟! لن تستطيعي أخذ أي حقيبة في هذه العربة، فهي تكاد تكون أصغر من أن تسعكم جميعاً، كما أن عجلاتها على استعداد للإفلات دونما حافز. ناديها وأخبريها أن تحضر أصغر فرشة ريش في البيت، وتضعها في العربة».

كانت سكارلت لا تزال عاجزة عن الحركة، ولذلك أخذ ريت بذراعها في قبضة قوية، وبدا كأن بعض حيويته التي كانت تنعشه انتقلت إلى جسدها. آه، لو أنها تستطيع فقط أن تكون باردة الأعصاب، عديمة المبالاة مثله. وقادها إلى القاعة، غير أنها لم تلبث أن وقفت تنظر إليه بعينين حائرتين، وتدلت شفته في حركة ساخرة:

- «هل يمكن أن تكون هذه هي المرأة الشابة البطلة التي أكدت لي يوماً أنها لا تخاف اللّه ولا الإنسان». وانفجر في الضحك فجأة، مفلتاً ذراعها من قبضته. ورمقته مصعوقة، بنظرات الكراهية.

- «لست خائفة» قالت.

- «أجل، إنك خائفة، وسيغمى عليك بعد لحظات، ولست أحمل حبوباً منعشة».

ضربت سكارلت الأرض بقدم واهنة، إذ لم تستطع التفكير في أي شيء آخر تفعله - ودون أن تنبس بكلمة، حملت المصباح وصعدت الدرج، وسار هو خلفها، على مقربة منها بحيث استطاعت سماع ضحكته الخفيضة، الأمر الذي يبس عمودها الفقري، فدخلت غرفة ويد، حيث ألفته قابعاً متعلقاً بذارعي برسي، نصف عار، يفوق بهدوء، بينما كانت برسي تنشج، فأمرتها سكارلت أن تحمل فرشة ويد الريشية الصغيرة وتضعها في العربة. وأطاعت الزنجية الأمر، ملقية الصبي من يديها، ولكن هذا تبعها على السلّم، وقد صمت فواقه لاهتمامه بالإجراءات الجديدة.

- «تعال» قالت سكارلت واتجهت إلى باب ميلاني، يتبعها ريت وقبعته في يده.

كانت ميلاني تضطجع ساكنة، يغطيها الشرشف حتى ذقنها. وكان وجهها شاحباً كوجوه الموتى، ولكن عينيها السوداويين كانتا وقورتين. وعندما رأت باتلر في غرفتها لم تبدِ أي دهشة، بل ظهر أنها تعتبر ذلك أمراً طبيعياً. وحاولت واهنة أن تبتسم، ولكن الابتسامة تلاشت قبل أن تبلغ شفتيها.

- «نحن ذاهبون إلى البيت، إلى تارا» أوضحت سكارلت على عجل، «فالشماليون قادمون، وسينقلنا ريت. إنه المفر الوحيد يا ميلاني».

حاولت ميلاني بضعف أن تطرق برأسها موافقة، ثم أشارت ناحية الطفل، وعندئذ حملت سكارلت الوليد، ولفَّته بسرعة بمنشفة سميكة، بينما خطا ريت نحو السرير.

- «سأحاول ألّا أؤلمك» قال بهدوء، ولفّ الشرشف حولها. «جرّبي، إن استطعت وضع ذراعيك حول عنقي».

فلبّت رجاءه إلّا أن الذراعين تهاوتا، فانحنى إذّاك، داساً إحدى ذراعيه تحت كتفيها، والأخرى عبر ركبتيها، ودفعها برفق. لم تزعق ولكن سكارلت لمحتها تعض شفتيها ويفيض الدم من وجهها تماماً. وحملت سكارلت المصباح عالياً، كي يرى ريت طريقه، واتجهت نحو الباب، وعندئذ أومأت ميلاني بحركة ضعيفة إلى الحائط.

- «ماذا؟» سأل ريت برفق.

- «أرجوك» همست ميلاني محاولة الإيماء، «تشارلز».

فنظر إليها ريت كأنه ظنها تهذي ولكن سكارلت فهمت قصدها وكانت ساخطة، لقد عرفت أن ميلاني تريد صورة تشارلز النحاسية المعلقة على الجدار تحت سيفه ومسدسه.

- «أرجوك» همست ميلاني ثانية، «السيف».

- «ها، حسناً» قالت سكارلت، وبعد أن أضاءت لريت طريق السلّم، عادت فنزعت السيف والمسدس بحزاميهما... لقد كان من العسير حملهما والوليد والقنديل، ولكن هذا كان منطق ميلاني الحقيقي. لا يهمها أبداً أنها على شفير الموت وأن الشماليين في أعقابها، وإنما يهمها الحفاظ على أمتعة تشارلز.

وبينما هي تنزل الصورة النحاسية، لمحت وجه تشارلز، وقابلتها عيناه العسليتان الكبيرتان، فوقفت هنيهة تتطلع إلى الصورة يدفعها الفضول... لقد كان هذا الرجل زوجها، لقد اضطجع إلى جانبها ليالي قليلة، لقد منحها طفلاً بعينين عسليتين وادعتين كعينيه ومع ذلك فهي لا تكاد تتذكره.

ولوَّح الوليد الذي بين يديها بقبضتيه الصغيرتين، وماء مواء رقيقاً فتطلعت في وجهه، وللمرة الأولى، تحققت أن هذا الوليد كان ابن آشلي، وفجأة، تمنّت بكل ما بقي فيها من قوة لو كان هذا الوليد ابنها هي وآشلي.

صعدت برسي الدرج بخطوات صاخبة، فناولتها سكارلت الطفل ثم هبطتا السلّم مسرعتين، والقنديل يلقي ظلالاً حائرة على الجدار، ورأت سكارلت وهي تعبر القاعة إحدى القبعات، فارتدتها على عجل، وعقدت الشريط تحت ذقنها. كانت قبعة الحِداد السوداء التي تخص ميلاني، فلم تناسب رأس سكارلت، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أين وضعت قبعتها.

خرجت من المنزل ونزلت الدرجات الأمامية، حاملة القنديل ومحاولة منع السيف من الارتطام بساقها. وعندما بلغت العربة رأت ميلاني تضطجع على عرض مؤخرتها وقد جلس ويد بجانبها وإزاءه

الوليد الملفوف بالمنشفة. ثم صعدت برسي إلى داخل العربة وتناولت الوليد بين ذراعيها.

كانت العربة صغيرة جداً، وكانت ألواحها الخشبية الجانبية منخفضة كثيراً، كما أن العجلات مالت إلى الداخل منذ الدورة الأولى، كأنها ستنفصل عن العربة.

وما إن ألقت سكارلت نظرة على الحصان حتى غار قلبها. كان حيواناً صغيراً أعجف، يقف كسير النفس، خافضاً رأسه بين قائمتيه الأماميتين تقريباً، وكان ظهره مسلوخاً من القروح ومن حزات العدة، وكان يتنفس بصورة لا تنم مطلقاً على أنه سليم البنية.

- «إنه ليس بالحيوان الطبيعي، أليس كذلك؟» قال ريت مبتسماً، «يبدو كأنه سيموت بين العارضتين، على أنه أفضل ما استطعت الحصول عليه، سأنبئك يوماً في حديث منمق، كيف ومن أين سرقته، وكيف تفاديت القتل بأعجوبة. والحقيقة أن لا شيء سوى إخلاصي لك يمكن أن يجعلني أنقلب وأنا في هذه المرحلة من حياتي إلى سارق خيل - سارق لمثل هذا النوع من الخيل. والآن دعيني أساعدك على الصعود».

وتناول المصباح من يدها، ووضعه على الأرض. كان المقعد الأمامي عبارة عن لوح خشبي صغير ضيق، ممتد بين جانبي العربة، فحمل ريت سكارلت وأجلسها عليه. وهجست سكارلت، ما أدهش أن يكون المرء رجلاً وقوياً كريت، ولفَّت تنورتها الواسعة حول ساقيها. والآن، وريت إلى جانبها، لم تعد تخشى شيئاً لا النار ولا الضجيج ولا الشماليين.

وصعد باتلر إلى المقعد وجلس إلى جانبها، والتقط عنان الفرس.

- «ها! انتظر» صاحت، «نسيت إيصاد الباب الأمامي».

فانفجر في قهقهة مدوية، وساط ظهر الحصان بحبل الزمام.

- «علام تضحك؟».

- «عليك... تريدين منع الشماليين من الدخول». قال وقد تحرك الحصان بطيئاً مكرهاً. وكان مصباح الرصيف يصنع دائرة صغيرة من الضوء الأصفر أخذت في التضاؤل كلما ابتعدوا عنها.

* * *

وجَّه ريت خطوات الحصان البطيئة شرق شارع بيتشتري، وراحت العربة المتهادية تترنح بشدة، فوق الزقاق المحفوفر، تترنح ترنحاً شديداً اعتصر أنّة فجائية حادة من ميلاني. وتشابكت أشجار قاتمة فوق رؤوسهم، ولاحت أمامهم على كلا الجانبين بيوت قاتمة صامتة، وبانت أعمدة الأسيجة البيضاء، بانت باهتة كصف من شواهد القبور. كان الشارع الضيق عبارة عن نفق معتم ولكن من خلال سقف الأوراق الكثيفة الذي ظللهم، اخترق الظلام بضآلة وهج السماء الأحمر المخيف، وتتابعت الظلال على طول الطريق المعتمة، طيفاً في أثر طيف كالأشباح المجنونة. وأخذت رائحة الدخان تقوى شيئاً فشيئاً، وحملت أجنحة النسيم الحار خليطاً من الأصوات تنذر بالشر، صادرة من وسط المدينة: صيحات، وهدير بعيد لشاحنات الجيش الثقيلة، وخطو ثابت لأقدام تسير سيراً عسكرياً. وعندما جذب ريت رأس الحصان وأداره إلى شارع آخر، مزق الهواء انفجار مصم آخر وارتفع في الغرب صاروخ ضخم من اللهيب.

- «لا بد أن يكون ذلك آخر قطارات الذخيرة» قال ريت رابط الجأش، «لماذا لم ينقذوها هذا الصباح، أولئك الحمقى، كان في حوزتهم المديد من الوقت... على كل حال، إن ذلك أمر سيّئ جداً بالنسبة إلينا، فقد كنت أظن أننا، بدورانا حول وسط المدينة، سنتجنب النيران وأولئك الطغام السكارى في شارع ديكاتور، كما سنتوغل باتجاه الجزء الجنوبي الغربي من المدينة دون أن نتعرض لأي خطر،

غير أنه لا بد لنا من أن نعبر شارع ماريتا في أحد أجزائه، وهذا الانفجار على مقربة من شارع ماريتا، أو أن أكون قد أخطأت التخمين».

- «هل يتوجب... يتوجب علينا المرور خلال النار؟» سألت سكارلت وهي ترتعد.

- «لا، إن نحن أسرعنا» قال ريت، وقفز من العربة مختفياً في ظلام إحدى الساحات، وعندما رجع كان يحمل بيده غصن شجرة صغيراً ضرب به ظهر الحصان المسلوخ دونما رحمة، فانطلق الحيوان عندئذ في خبب متثاقل، يتنفس لاهثاً منهوكاً بينما اندفعت العربة مترنحة بوثبة أفقدت الجميع توازنهم وقذفت بهم كما تُقذف حبات الذرة في المقلى، وأعول الطفل وصاحت برسي وويد وقد ارتطما بجانبي العربة، ولكن صوتاً ما لم يصدر عن ميلاني.

وعندما اقتربوا من شارع ماريتا، خفّت الأشجار كثافة، وأضفت ألسنة اللهيب الطويلة المندلعة فوق المباني، أضفت على الشارع والبيوت وهجاً من الضوء آلق من نور النهار، صنع ظلالاً هائلة، تتلوى بمدى واسع كأشرعة ممزقة تخفق خلال العاصفة فوق مركب غريق.

واصطكت أسنان سكارلت، غير أن فزعها كان هائلاً جداً بحيث إنها لم تلتفت إلى كل ما حولها. وكانت ترتجف من البرد مع أن حرارة اللهيب أضحت الآن تلفح وجوههم... إن هذا هو الجحيم وها هي في جوفه، ولو أنها فقط تستطيع السيطرة على ركبتيها الراجفتين لوثبت من العربة وعادت أدراجها تزعق فوق الطريق المظلمة، عادت إلى الملجأ في بيت الآنسة بيتي بات. وانكمشت على نفسها مقتربة من ريت وأخذت ذراعه بأصابع مرتعشة، وتطلعت إليه تلتمس كلماته، تلتمس مواساة، تلتمس أي شيء مطمئن. وفي الوهج القرمزي الدنس

الذي غمرهم، بدا منظر جانب وجه ريت واضحاً وضوح رأس منقوش على عملة نقدية قديمة، وجه جميل صارم ومنحط.

وعندما لمسته، استدار نحوها وعيناه تشعان ببريق مخيف كالنار، وتراءى لها أنه مبتهج ساخر، كأنه يستمد سروراً عظيماً من هذا الوضع، وكأنه يرحب بهذا الجحيم الذي يقتربون منه.

- «دونك هذا» قال واضعاً يده على أحد المسدسين ذوي الماسورتين الطويلتين في حزامه، «إذا ما امتطى إنسان، أسود أو أبيض، العربة من ناحيتك، وحاول أن يمد يداً إلى الحصان، أطلقي النار عليه وسنوجه الأسئلة فيما بعد، ولكن باللّه، لا تقتلي الحصان الصغير أثناء اضطرابك».

- «معي - معي مسدس» همست قابضة على السلاح الذي في حجرها، واثقة تماماً بأنه إذا ما رأت الموت يتهددها فستكون أخوف من أن تتمكن من ضغط الزناد.

- «معك؟ - من أين حصلت عليه؟».

- «إنه مسدس تشارلز».

- «تشارلز؟».

- «أجل تشارلز - زوجي».

- «هل كان لك في الحقيقة زوج يا عزيزتي؟» همس ضاحكاً ضحكة ناعمة.

لو أنه فقط يتحلى بالجد! لو أنه فقط يسرف السير!

- «وكيف تظن أني رزقت بولدي؟» صاحت ساخطة.

- «ها، هناك طرق أخرى غير الأزواج -».

- «هل لك أن تصمت وتسرع؟».

ولكنه جذب العنان فجأة، وكانوا قد بلغوا شارع ماريتا تقريباً، فوقفت العربة في ظلال مخزن حربي لم تصله ألسنة اللهيب بعد.

- «أسرع!» تلك كانت الكلمة الوحيدة في عقلها. . . أسرع! أسرع!

- «جنود» أجابها.

كانت فصيلة من الجنود قادمة في شارع ماريتا، تسير بين المباني المحترقة، بخطوات خاصة بالانسحاب، تسير منهوكة، يحمل أفرادها بنادقهم كيفما اتفق، مطأطئي الرؤوس، هدّهم الإعياء بحيث لا يقوون على السرعة، ولا يأبهون لتحطم الألواح الخشبية على يمينهم وعلى يسارهم، وانبعاث الدخان من حولهم. وكان الجميع متسربلين ببزز رثّة جداً، حتى إن المرء لم يكن يستطيع أن يلحظ أي شارات فارقة بين الضباط والجنود، سوى بعض حواش القبعات الممزقة، التي كانت تحمل شريطاً مجدلاً بالحروف «سي. إس. إي»، كان الكثيرون منهم حفاة، يتخللهم عدد من ذوي الرؤوس والسواعد المضمدة بخرق قذرة.

وتجاوز الجنود العربة، دون أن ينظروا يمنة أو يسرة. لقد أخلدوا إلى الصمت بحيث كان يمكن أن يُعتبروا مجرد أشباح، لولا وقع خطواتهم الثابتة.

- «تأمليهم جيداً» طرق أذنيها صوت ريت الساخر. . . «حتى تستطيعي إخبار أحفادك أنك رأيت حرس المؤخرة للقضية المجيدة أثناء تقهقرهم».

وفجأة كرهته، كرهته بشدة وتغلبت في تلك اللحظة على خوفها، وجعلته يبدو صغيراً تافهاً أمام قوة كراهيتها لريت. كانت تدرك أن سلامتها وسلامة الآخرين الذين في مؤخرة العربة تعتمد عليه، وعليه وحده، ولكنها كرهته بسبب تهكمه على أولئك الجنود المهلهلي الثياب. وفكرت في تشارلز الميت، وفي آشلي الذي قد يكون ميتاً، وفي كل الشبان الشهام المرحين الذين كانت أجسادهم تتعفن في قبور قليلة العمق، ونسيت أنها هي أيضاً كانت يوماً ما تعتبرهم حمقى. ولم

تستطع الكلام، بيد أن الكراهية والاشمئزاز اتقدا في عينيها وهي تحدق فيه بقوة.

وعندما مرّت مؤخرة الفصيل، توقف رجل صغير من الصف الخلفي. كان جسده يترنح وكعب بندقيته يجرجر في التراب. توقف عن المسير وراح يرنو خلف زملائه الباقين بوجه قذر أنهكه الإعياء، بحيث ظهر كمن يمشي في نومه. كان قصير القامة كسكارلت، صغيراً جداً حتى إن بندقيته كانت تضاهيه طولاً. وكان وجهه القذر أجرد عديم اللحية، فلم يكن يتجاوز السادسة عشرة على أكثر تقدير، كما خطر لسكارلت عرضاً، ولا بد أن يكون أحد أعضاء الحرس الوطني أو تلميذاً هارباً من المدرسة. وبينما كانت تراقبه، انثنت ركبتاه تدريجياً وهوى إلى الأرض، بينما انقلب نحوه رجلان من الصف الأخير دون أن ينبسا بكلمة. كان أحدهما هزيلاً طويل القامة ذا لحية سوداء تتدلى إلى حزامه، ناول بندقيته وبندقية الفتى إلى زميله بصمت، ثم انحنى وطوح بالصبي على كتفيه بسهولة فائقة جعلت العملية تبدو كأنها خدعة يدوية، وانكفأ بعدئذ راجعاً وراء القافلة المنسحبة وقد تقوّست كتفاه من الحمل، بينما راح الصبي الضعيف، الذي اغتاظ كما يغتاظ طفل استفزه من هم أكبر منه سناً، راح يصيح:

- «أنزلني! ليلعنك اللّه. أنزلني، ففي استطاعتي المشي».

ولم يقل الرجل ذو اللحية شيئاً وإنما استمر متئداً في مشيته، وغاب عن الأنظار عند منعطف الطريق.

كان ريت يجلس على مقعد العربة صامتاً يترنح الزمام في يده، وهو يتابع المشهد بعينيه، وقد غمرت وجهه نظرة كئيبة غريبة، ثم علا على مقربة منهم، صوت أغصان ساقطة تتحطم، ورأت سكارلت لساناً رفيعاً من اللهب يندلع فوق سطح مستودع الذخيرة الذي قبعوا في ظلاله الساترة. ثم ارتفعت نحو السماء فوقهم رايات وأعلام حربية من ألسنة

اللهيب تتموج كأعلام النصر. وأحست سكارلت بالدخان يحرق منخريها، وشرع ويد وبرسي يسعلان، بينما أخذ الوليد يعطس عطساً خفيفاً.

- «آه، باسم الإله يا ريت! هل أنت مجنون؟ أسرع! أسرع!».

ولم يُجب ريت، بل هوى بغصن الشجرة على ظهر الحصان بقوة عنيفة لا ترحم، جعلت الحيوان يثب إلى الأمام بكل ما استطاع من سرعة. وراحت العربة تتهادى وتترنح بهم عبر شارع ماريتا، ورأوا أمامهم نفقاً من النيران إذ كان المباني تشتعل على كلا جانبي الشارع الصغير الضيق، الذي يؤدي إلى خطوط السكة الحديد. وعندما بلغوا النفق اخترقوه فبهرت أبصارهم بفعل ضوء أكثر تلألؤاً من أنوار دزينة من الشموع، وجففت الحرارة اللافحة جلودهم، وقرعت أصوات الدوي والتحطيم والتكسير آذانهم بتموجات أليمة، وبدا للحظة سرمدية كأنهم في غمرة عذاب مستعر، ثم ألفوا أنفسهم فجأة، وللمرة الثانية، في نصف عتمة.

وبينما هم ينطلقون نحو أسفل الشارع، يعلون ويهبطون فوق قضبان السكة الحديد، كان ريت يستعمل السوط بصورة آلية، ووجهه ساكن شارد كأنه نسي أين هو، وكتفاه العريضتان منحنيتان إلى الأمام، وذقنه بارزة عن مستوى فمه، كأن الأفكار التي كانت تراوده لم تكن سارة، وقد فصدت حرارة النار العرق من جبينه ووجنتيه فسحّ أنهاراً، ولكنه لم يمسحه.

ثم انحرفوا في شارع جانبي، ثم في آخر، ثم عطفوا وانثنوا من شارع فرعي إلى آخر حتى فقدت سكارلت صبرها تماماً، وحتى تلاشى دوي اللهيب خلفهم. وما زال ريت صامتاً لا يتكلم، بل استمر يضرب بالسوط فقط، بصوة آلية منتظمة. وكان الوهج الأحمر في السماء قد اضمحل الآن، وأمست الطريق مظلمة جداً، مخيفة جداً، بحيث غدت

سكارلت ترحب بالكلام، بأي كلام منه، حتى الكلام الساخر المهين، الكلام الجارح، ومع ذلك فإنه لم يتكلم.

وسواء كان صامتاً أم غير صامت، فإنها تشكر اللّه على ما تحسه من طمأنينة في وجوده. إن من الخير أن يكون رجل إلى جانبها، تتكئ عليه وتستشعر جبروت ساعده المتين، وتدرك أنه يقف حائلاً بينها وبين أهوال مجهولة، حتى ولو جلس ساكناً يتطلع وحسب.

- «ها، ريت!» همست ممسكة بذراعه، «ماذا كنا سنفعل من دونك؟ إني مسرورة جداً لكونك خارج عداد الجيش!».

فأدار وجهه نحوها، وألقى عليها نظرة واحدة، نظرة جعلتها تفلت ذراعه وتنكمش إلى الوراء. لم يكن في عينيه الآن شيء من السخرية، كانتا صريحتين تنطقان بالغضب، وبشيء من الحيرة. ودلى شفته وأشاح برأسه عنها. وانقضت فترة طويلة وهم يتهادون في طريقهم، يخيّم عليهم صمت مطبق، لا يشقه سوى عويل الوليد الخافت ونشقات مخاط برسي. ولمّا لم يعد في وسع سكارلت احتمال صوت نشق برسي، التفتت نحوها وقرصتها، فعلا زعيقها بصورة جادة قبل أن تخلد إلى صمت الفزع.

وأخيراً انثنى ريت بالحصان في منعطفات قائمة الزوايا، وبعد فترة وجيزة كانوا يدرجون فوق طريق أوسع وأكثر تمهيداً. وأخذت ظلال البيوت القاتمة تتباعد أكثر فأكثر، وطفقت الغابات الكثيفة المتصلة على جانبي الطريق تمتد كجدار شاهق.

- «نحن الآن خارج المدينة»، قال ريت باقتضاب، جاذباً العنان على الطريق الرئيسة الموصلة إلى رف آند ريدي.

- «أسرع. لا تقف!».

- «دعي الحيوان يتنفس قليلاً» ثم استدار نحوها وسألها ببطء: «سكارلت أما زلت مصممة على تنفيذ هذا العمل الأحمق؟».

- «تنفيذ ماذا؟».

- «أما زلت تريدين أن تجرّبي الوصول إلى تارا؟ إنها عملية انتحار، فبينك وبين تارا يعسكر فرسان ستيف لي والشماليون».

آه، يا للّه! هل سيرفض إيصالها إلى تارا، بعد كل الذي قاسته طوال هذا اليوم الرهيب؟

- «نعم! نعم! أرجوك ريت، دعنا نسرع فالحصان ليس تعباً».

- «دقيقة واحدة. لن تستطيعي الاستمرار في هذه الطريق إلى جونسبورو، ولن يمكنك اتباع طريق السكة الحديد، فقط ظلوا يحاربون هناك كراً وفراً طوال النهار ابتداء من رف آند ريدي جنوباً. هل تعرفين أي طريق آخر، طريق عربات صغيرة أو زقاقاً لا يمر عبر رف آند ريدي أو جونسبورو؟».

- «ها نعم» صاحت متنفسة الصعداء، «عندما تقترب تماماً من رف آند ريدي، سأدلك على ممر عربات يتفرع عن طريق جونسبورو الرئيسة، ويمتد متعرجاً مسافة أميال. لقد اعتدت وأبي استعماله، وهو ينفذ تماماً قرب منزل ماكنتوش الذي يبعد عن تارا ميلاً واحداً فقط».

- «حسناً، من المحتمل أن يكون في وسعك اجتياز رف آند ريدي بسلام، فقد كان الجنرال ستيف لي هناك أثناء بعد الظهر يغطي عملية الانسحاب، ومن المحتمل أن لا يكون الشماليون قد احتلوا المكان بعد. ربما تستطيعين اجتياز المنطقة إذا لم يصادر رجال ستيف لي حصانك».

- «أنا - أنا أستطيع اجتياز المنطقة؟».

- «نعم أنت» قالها بصوت خشن قاس.

- «ولكن ريت - أنت - ألن تقودنا أنت؟».

- «لا، سأغادركم هنا».

فتطلعت حولها بعينين زائغتين، تطلعت إلى السماء الزرقاء المربدة

خلفهم، إلى الأشجار القاتمة في كلا الجانبين، تغيّبهم في جوفها كأنها أسوار السجن، إلى الأشخاص الهلعين في مؤخرة العربة - وأخيراً إليه. «هل جنّت؟ هل خانتها أذناها؟».

ورأته يبتسم، وفي الضوء الباهت استطاعت رؤية أسنانه البيضاء، وقد عادت السخرية إلى عينيه.

- «سأذهب مع الجيش أيتها الفتاة العزيزة».

فتنهدت تنهد الفرج والغيظ. لماذا اختار هذا الوقت من بين جميع الأوقات كي يمازحها؟ ريت في الجيش! بعد كل الذي قاله عن الحمقى الأغبياء الذين غرر بهم وفقدوا أرواحهم بفعل دوي الطبول وكلمات الخطباء المنمقة - الحمقى الذين قتلوا أنفسهم كيما يجمع الرجال العقلاء الثروة.

- «آه، كنت أود أن أخنقك لأنك أفزعتني هكذا، دعنا نتابع المسير».

- «أنا لا أمزح يا عزيزتي. وإني متألم يا سكارلت، لأنك لم تنظري إلى تضحيتي الشماء بروح أفضل. أين وطنيتك؟ أين حبك لقضيتنا المجيدة؟ الآن حانت لك الفرصة لتخبريني أن أعود بدرعي أو فوق درعي. ولكن أجيبي بسرعة لأني أحتاج إلى وقت كيما ألقي خطاباً منمقاً قبل أن أفارقك إلى الحرب».

واخترق صوته المتهكم المتشدق أذنيها. لقد كان يسخر منها، ولكنها أحست بطريقة ما أنه كان يسخر من نفسه أيضاً. عمَّ كان يتكلم؟ الوطنية، الدروع، الخطب المنمقة. من المحال أن يكون يعني الذي قاله. إن مما لا يمكن تصديقه أبداً أن يستطيع ريت التحدث ببشاشة كهذه عن تركها هنا، في هذه الطريق المظلمة، وبصحبتها امرأة يمكن أن تكون على حافة القبر، وطفل حديث المولد، وزنجية لكاع حمقاء،

وولد يرتعد فرقاً، يتركها تقودهم مسافة أميال من أرض المعركة، خلال الضالين طريقهم، خلال الشماليين والنيران، واللّه يعلم خلال ماذا أيضاً. . .

ذات يوم فيما مضى، عندما كانت في السادسة من عمرها، هوت من شجرة ووقعت بطحاً على معدتها، وما زالت تذكر تلك الدقائق المرضية الأليمة التي عانتها قبل أن يعود التنفس إلى رئتيها. والآن، وبينما هي تنظر إلى ريت، شعرت بالإحساس ذاته الذي عانته آنئذ، شعرت بأنها منقطعة النفس، مشدوهة، دائخة.

- «ريت! إنك تمزح».

وتناولت ذراعه وأحست بدموع الرعب تتناثر على معصمها، بينما رفع هو يدها وقبَّلها بخفة.

- «أنانية للغاية، ألست كذلك يا عزيزتي؟ إنك تفكرين في نفسك فقط وليس في الحلف المقدام. فكري كيف سترتفع معنويات جنودنا بظهوري بينهم في الساعة الحادية عشرة[1]» قال ذلك وفي صوته رقّة ماكرة.

- «آه ريت!» ولولت، «كيف يمكنك فعل هذا معي؟ لماذا ستتركني؟».

- «لماذا؟» ضحك طرباً، «ربما بسبب الاندفاع العاطفي الخاذل الذي يكمن فينا نحن الجنوبيين، ربما - ربما لأني خجل من نفسي. من يعلم؟».

- «خجل؟ ينبغي أن تموت خجلاً إذا ما تركتنا هنا وحيدين عاجزين -».

---

(1) باعتبار أن الساعة الحادية عشرة ترمز في الإنجليزية إلى أخطر الساعات - (المترجمان).

- «عزيزتي سكارلت! أنت لست عاجزة. كل إنسان أناني حازم مثلك لا يمكن أن يعجز. كان اللّه في عون الشماليين إن هم أسروك».

وقفز من العربة على حين غرة. وبينما هي تراقبه وقد أُسقِط في يدها، دار حول العربة وأتى إلى جانبها الآخر، وقال بلهجة الآمر:

- «انزلي».

فحدقت فيه، وتطاول هو نحوها بفظاظة، وأمسك بها من تحت إبطيها وطوح بجسدها إلى الأرض إزاءه، ثم أحكم قبضته عليها وجرّها بضع خطوات بعيدة عن العربة، وأحست بالتراب والحصى داخل خفَّيها، يؤلمان قدميها، ولفّها الظلام الحار الساكن كأنه حلم صامت.

- «أنا لا أطلب منك فهم تصرفاتي أو العفو عن شخصي، ولن أحفل أبداً إن أنت فعلت ذلك أو لم تفعليه، لأنني أنا شخصياً لن أفهم عملي أو أعفو عن نفسي مطلقاً لارتكاب هذه الحماقة. إني مستغرب من نفسي لاكتشافي أن كثيراً من الخبل ما زال معششاً فيها. إن بلادنا الجنوبية الجميلة في حاجة إلى كل رجل الآن، ألم يقل براون حاكم ولايتنا الشجاع هذا الكلام بالذات؟ ومهما يكن الأمر فإني ذاهب إلى الحرب». وقهقه فجأة قهقهة مدوية طليقة، أجفلت أصداء الغابات المظلمة.

- «لم أكن لأحبك يا عزيزتي بهذا القدر العظيم لو لم أكن أحب الشرف أكثر، هذا حديث في وقته، أليس كذلك؟ ولكنه حتماً أفضل من أي كلام يمكن أن أبدعه بنفسي في الدقيقة الحاضرة، لأني أحبك يا سكارلت رغم ما قلته تلك الليلة من الشهر الماضي، ونحن جالسان على الشرفة».

كان كلامه المتباطئ ملاطفة وتدليلاً، وانسابت راحتاه فوق ذراعيها العاريتين، راحتان قويتان دافئتان. «أحبك يا سكارلت لأننا متشابهان إلى حد كبير، كلانا مارقان يا عزيزتي، ووغدان أنانيان. لا

يحفل أي منا مثقال ذرة إذا ما احترقت الدنيا بأسرها ما دام هو آمناً هانئاً».

واستمر صوته ينبعث في الظلام، وسمعت هي الكلمات، بيد أنها لم تفهم شيئاً. كان عقلها يحاول جاهداً استيعاب الحقيقة المُرّة المتعلقة بمغادرته لها هنا، لتواجه الشماليين وحيدة، كان يهذي: «إنه سيغادرني، إنه سيغادرني» دون أن يحرك ساكناً.

ثم التفَّت ذراعاه حول خصرها وكتفيها، وأحست بعضلات فخذيه القوية تضغط على جسدها، وبأزرار معطفه تغرز في صدرها، واجتاحتها موجة من الشعور الحار، شعور مربك مفزع، أزال من عقلها كل ما يتعلق بالزمان والمكان والوضع الحرج، وأحست أنها مسترخية عرجاء كدمية بالية، دافئة ضعيفة عديمة الحيلة، وأحست بذراعيه اللتين تسنداها ممتعتين للغاية.

- «ألا تريدين تغيير رأيك حول ما قلته لك في الشهر الماضي؟ ليس كالخطر والموت حافزاً لإعادة النظر. كوني وطنية يا سكارلت. فكري كيف أنك ستبعثين بجندي إلى قبره وهو يحمل ذكريات حلوة».

كان يقبِّلها الآن، وشاربه يدغدغ فمها، يقبِّلها بشفتين حارتين وئيدتي الحركة، تتصرفان على مهل كأن صاحبهما يملك الليل بطوله لينعم به كيف يشاء. لم يقبِّلها تشارلز كهذا التقبيل، ولم تذق يوماً قبلاً من أبناء تارلتون وكالفرت كهذه القبل التي جعلتها تحس بالتهيج والبرد والارتعاش. ثم ثنى جسدها إلى الخلف، وزحفت شفتاه نزولاً على عنقها، إلى حيث يشبك الدبوس المزخرف قميصها.

- «حلوة» همس، «حلوة».

ورأت العربة الباهتة في الظلام، وسمعت عويل ويد، وقد تضاعف علوه ثلاث مرات:

- «أيتها الأم! إن ويد خائف!».

وعاد الإدراك السليم الفاتر مندفعاً إلى تفكيرها الحائر المظلم، وتذكرت ما كانت قد نسيته في هذه الدقيقة - تذكرت أنها هي أيضاً خائفة، وأن ريت سيغادرها، سيغادرها، ذلك السافل اللعين. وفوق كل ذلك، فقد اختار هذا المكان البالغ الوحشة ليقف هنا في الطريق، ويهينها بهذه العروض الشائنة. واجتاحها السخط والكراهية، فتيبَّس عمودها الفقري، وبجذبة واحدة خلّصت جسدها من بين يديه، بعد أن كاد يتمزق.

- «أيها السافل» صاحت، وانطلق عقلها يحاول التفكير في ألقاب أسوأ لتصمه بها، ألفاظ كانت قد سمعت جيرالد ينعت بها السيد لينكولن، وآل ماكنتوش والبغال الحرونة، ولكن الكلمات لم تسعفها. «أيها المنحط، أيها المخلوق الجبان العفن النذل»، ولما لم تستطع التفكير في ألفاظ زرية كما ينبغي، أرجعت ذراعها إلى الوراء، وصفعته على فمه بكل ما بقي لها من قوة، فتقهقر خطوة إلى الخلف، وصعدت يده إلى وجهه.

- «آه» قال بهدوء، وظلا هنيهة يقفان متواجهين في الظلام. واستطاعت سكارلت سماع تنفسه العميق، بينما كانت هي تلهث لهاثاً متقطعاً كأنها قامت بعملية جري شاقة.

- «كانوا صادقين، كلهم كانوا على حق، فأنت لست نبيلاً».

- «فتاتي العزيزة» قال، «ما أقل وفائي بالغرض».

وأدركت أنه يسخر منها، يستفزها.

- «هيا، هيا الآن، أريدك أن تذهب بسرعة، ولست أرغب في رؤيتك ثانية. أرجو أن تنقضّ عليك قنبلة مدفع. أرجو أن تحيلك هباء منثوراً فتتطاير مليون ذرة. إني -».

- «لا تهتمي بتتمة حديثك، فقد علمت مجمل رأيك، وعندما أستشهد على مذبح وطني، آمل أن يؤنبك ضميرك».

وسمعته يضحك وهو يستدير قافلاً نحو العربة، ثم رأته يقف بجانبها وسمعته يتكلم وقد تغير صوته فغدا محترماً، شأنه دائماً عندما يتحدث إلى ميلاني:

- «سيدة ويلكس».

فأجابه صوت برسي المذعور، منبعثاً من داخل العربة:

- «باللّه يا كابتن باتلر، لقد أُغمي على الآنسة ميلاني قبل مسافة طويلة من هنا».

- «ليست ميتة؟ ألا تتنفس؟».

- «بلى يا سيدي، تتنفس».

- «إذن فمن المحتمل أن تكون أكثر راحة وهي في حالة الإغماء هذه، لأني أشك في إمكان بقائها على قيد الحياة مع هذه الآلام، إذا ما كانت واعية. اعتني بها جيداً يا برسي، خذي هذا الدولار لك[1] وحاولي ألّا تكوني أكثر غباء مما أنت».

- «سمعاً وطاعة يا سيدي، أشكرك يا سيدي».

- «وداعاً، سكارلت».

وأدركت أنه استدار قبالتها ولكنها لم تتكلم، فقد خنق البغض كل محاولة للنطق من قبلها. وداست قدماه حصباء الطريق، ورأت كتفيه العريضتين تلوحان في الظلام، ثم اختفى عن الأنظار، واستطاعت سماع خطواته فترة وجيزة، ثم تلاشى الصوت ورجعت هي إلى العربة ببطء وقدماها ترتجفان.

لماذا ذهب؟ لماذا مضى بعيداً في الظلام، إلى الحرب، إلى القضية الخاسرة، إلى العالم المجنون؟ لماذا ذهب، ريت الذي يحب

---

(1) كانت قيمة دولارات الجنوب هابطة جداً بحيث كانت تلصق على الجدران للزينة - (المترجمان).

متع النساء والشراب ولذائذ الطعام الشهي والأسِرَّة الوثيرة وملمس الكتان الناعم والجلد المصقول، ريت الذي يبغض الجنوب ويهزأ بالأغبياء الذين حاربوا في سبيله؟

ها هو الآن يضع حذاءه اللامع فوق طريق الشقاء، حيث الجوع يدوس بخطى لا تكل، وحيث الجراح والإعياء وفواجع القلوب تربض كذئاب عواءة، وحيث نهاية الطريق هي الموت. إن ريت لم يكن في حاجة إلى الذهاب. كان آمناً هانئاً غنياً، ومع ذلك فقد ذهب وتركها وحيدة في ليلة حالكة السواد كالعمى، والجيش الشمالي يقف بينها وبين تارا.

وتذكرت الآن كل النعوت البذيئة التي أرادت أن تنعته بها، غير أن هذه الألقاب الزرية جاءت متأخرة كثيراً، وأسندت رأسها إلى عنق الحصان المنحنية وراحت تبكي.

24

أيقظ وهج الصباح المتألق، المنبعث من أشعة الشمس المنسابة بين قمم الأشجار، أيقظ سكارت، ولكنها ظلت هنيهة متيبسة الأعضاء بفعل الموضع الضيق المحشور الذي نامت فيه. ولم تستطع أن تتذكر أين هي، وبهر ضوء الشمس بصرها، وتململ جسدها ألماً بسبب ألواح العربة الخشبية الصلبة التي نامت عليها. وأحست بعبء ثقيل يرزح على ساقيها، وحاولت أن تجلس، فاكتشفت أن العبء كان ابنها ويد، الذي كان قد استلقى نائماً ورأسه يتوسد ساقيها، بينما كانت قدما ميلاني العاريتين تقابلان وجهها، في حين تكوّمت برسي كالقطة على نفسها تحت مقعد العربة، حاشرة الطفل بينها وبين ويد. ثم تذكرت سكارلت كل شيء، واعتدلت في جلسة مشرفة، وألقت نظرة خاطفة على ما حولها. شكراً للّه، إن بصرها لم يقع على شماليّ واحد، وإن مخبأها لم يُكتشَف خلال الليل. وعادت إليها الآن كل أحداث الأمس، الرحلة الرهيبة بعد أن تلاشى وقع أقدام ريت، والليل الطويل اللانهائي، والطريق المظلم المحفوفر ذو الصخور الناتئة التي تهادوا فوقها، والأخاديد العميقة التي انزلقت إليها العربة، على كلا الجانبين، والجهد المخبول الخائف الذي بذلته وبرسي لدفع عجلات العربة خارج الأخاديد. وتذكرت وهي ترتعش كيف أنها قادت الحصان الحرون مراراً بين الحقول والغابات، كلما سمعت الجنود يقتربون

منها، غير عالمة أكانوا أصدقاء أم أعداء - وتذكرت أيضاً عذابها المبرح الناجم عن خوفها أن تفضح سعلة، أو عطسة، أو فواق ويد، مكانهم للجنود المارين.

آه من تلك الطريق السوداء، التي كان الرجال يمرون إزاءها كأشباح، صامتين بلا ضوضاء إلا جلبة الأقدام الداعسة فوق التربة الطرية، وصليل الألجمة الخافت، وحفيف السروج المشدودة. وآه من تلك اللحظة الرهيبة، عندما حرن الحصان المريض، ومر فرسان إزاءهم، ومرّت المدفعية تجلجل في الظلام، قريبة جداً بحيث كان في وسع سكارلت لمسها إذا مدت يدها، قريبة جداً بحيث استطاعت شم رائحة العرق النتن على أبدان الجنود.

وأخيراً، وعندما اقتربوا من رف آند ريدي رأوا بعض نيران المعسكرات مشتعلة. هناك كان ينتظر أوامر الانسحاب آخر فوج من حرس مؤخرة ستيف لي، هناك انحرفت في طريقها عبر حقل محروث، إلى أن تلاشى ضوء النيران خلفها، ثم أضاعت طريقها في ثنايا الظلام، وشرعت في النحيب عندما لم تجد ممر العربات القصير الذي كانت تعرفه جيداً. وأخيراً عندما وجدته هوى الحصان على الأرض ورفض متابعة المسير، ورفض حتى النهوض ساعة أخذت وبرسي تشدّان زمامه.

ثم خففت عنه عدته، وزحفت وعرق الإعياء يتصبب منها، نحو مؤخرة العربة، حيث مدت ساقيها المتألمتين. وإنها لتذكر بغموض صوت ميلاني قبل أن يُغمض النوم جفنها، صوتاً ضعيفاً يعتذر حتى وهو يلتمس:

- «سكارلت! هل يمكنني الحصول على جرعة ماء، أرجوك».

- «لا يوجد قطرة من ماء» أجابتها وأغرقت في النوم قبل أن تخرج الكلمات من فمها.

والآن ها قد أشرف الصباح وبدت الدنيا ساكنة وقورة، خضراء ذهبية بأشعة الشمس التي رقطت الأرض، وليس من جندي يقع عليه بصرها. كانت جائعة ظامئة، فيها غلة للماء، تترمض ألماً وتشد على معدتها وتتولاها الدهشة كيف أنها هي سكارلت أوهارا، التي لا يمكن أن يهنأ لها مضجع إلا بين شراشف الكتان، وعلى ألين الفرش الريشية، قد أمضت ليلتها كعاملة حقل، فوق الألواح الخشبية الصلبة.

وفتحت عينيها في ضوء الشمس، فوقع بصرها على ميلاني وشهقت من الفزع. كانت ميلاني متمددة بلا حراك البتّة وهي شاحبة اللون. واعتقدت سكارلت أنها لا بد ميتة، فهي تبدو تماماً كعجوز لفظت أنفاسها، بوجهها المعذب المعروق، وشعرها الأسود المتشابك المتناثر عليه. بيد أنها لم تلبث أن رأت وفرحة الفرج تنهرها، حركة تنفس ميلاني الضعيف، حركة وانية تصعد وتهبط، فاطمأنت إلى أنها لم تفقد روحها خلال الليل.

ظلَّلت سكارلت بيديها عيني ميلاني، ثم تطلعت حولها، فاتضح لها أنهم أمضوا الليل تحت أشجار ساحة أمامية تخص أحد الناس، فقد كان يمتد أمامها ممشى رملي محصوصب، يتعرج في ظلال طريق من أشجار الأرز.

«ماذا! إنها مزرعة آل مالوري!» هجست، وطار قلبها فرحاً وهي تفكر في العون والأصدقاء.

غير أن صمتاً يشبه صمت القبور، كان يخيّم على المكان، وكانت شجيرات المرجة وأعشابها مقطعة إرباً إرباً، إذ مزقتها بصورة رهيبة حوافر الخيل ودواليب العربات وأقدام الجنود التي كانت تروح وتجيء فوقها، حتى إن التربة قلبت رأساً على عقب. وأرسلت سكارلت بصرها نحو البناء وإذا بها لا ترى في مكان المنزل الخشبي الأبيض الذي كانت تعرفه تمام المعرفة غير مستطيل مديد من حجارة الأساس

الرخامية المسودة، ومدخنتين طويلتين ترتفعان بآجرهما الملطخ بالسخام بين أوراق سوداء فاحمة لأشجار ساكنة.

وتنفست سكارلت نفساً عميقاً مرتعشاً، وتساءلت هل ستجد تارا على مثل هذا الحال، مستوية مع سطح الأرض، صامتة كالموتى؟

«ينبغي ألّا أفكر في هذا الآن» طمأنت نفسها بسرعة، «ينبغي ألّا أدع نفسي تفكر في هذا الأمر، وإلا انخلع قلبي فزعاً». إن قلبها زاد خفقاناً على الرغم منها، وبدت كل ضربة من ضرباته كالرعد: «إلى البيت! أسرعي! إلى البيت! أسرعي!».

ينبغي أن يشرعوا ثانية في المسير نحو البيت، غير أنه يتوجب عليهم قبل ذلك إيجاد بعض الطعام والماء، وخصوصاً الماء. ووخزت برسي لتوقظها، فأدارت هذه عينيها وهي تنظر حولها:

- «يا للّه يا آنسة سكارلت. ما كنت أتوقع أن أستيقظ ثانية إلا في الأرض الموعودة».

- «ما زلت على مسافة بعيدة منها» قالت سكارلت وهي تحاول إعادة تسوية شعرها المشعث. كان وجهها مبللاً بحبات العرق وكذلك جسدها، وأحست بالقذارة والتشويش والدبق بحيث كادت تنبعث منها رائحة كريهة. وكان ثوبها مجعداً عديم الاتساق بسبب نومها به. ولم يتفق لها يوماً أن أحست بمثل هذا التعب والألم طوال حياتها، فالعضلات التي لم تكن تعرف أن جسمها يشتمل عليها، كانت تتلوى ألماً بفعل الجهد غير المعتاد الذي بذلته في الليلة السابقة، بحيث كانت كل حركة تأتيها تبعث ألماً حاداً.

وتطلعت إلى ميلاني ورأت أن عينيها السوداوين مفتوحتان، كانتا منتفختين تشعان بوهج الحمى، تحوطهما من الأسفل دوائر متورمة قاتمة. ثم فتحت شفتين متشققتين وهمست متوسلة:

- «ماء».

- «انهضي يا برسي» أمرت سكارلت، «سنذهب إلى البئر ونجلب بعض الماء».

- «ولكن يا آنسة سكارلت، لا بد أن تكون أرواح شريرة متربصة هناك، هبي أن أحداً مات هناك؟!».

- «سأجعل منك روحاً شريرة إن لم تخرجي من هذه العربة» قالت سكارلت التي لم تكن في وضع نفسي تستطيع معه النقاش. قالت ذلك وهي تعرج أثناء نزولها من العربة.

ثم فكرت في الحصان. يا للّه! هب أن الحصان قضى في الليل، لقد كان يبدو قاب قوسين أو أدنى من الموت وهي تُنزل عنه العدة. وركضت حول العربة ورأته مضطجعاً على جانبه، لو أنه قضى للعنت اللّه وماتت في إثره، تماماً كما فعل أحد الأشخاص الذين ذكرهم الإنجيل، إذ لعن اللّه ومات، وهي تدرك تمام الإدراك أي شعور انتاب ذلك الشخص. غير أن الحصان كان حياً - يتنفس تنفساً ثقيلاً، وعيناه مريضتان نصف مغمضتين، ولكنه حي. حسناً، إن بعض الماء سينعشه هو أيضاً. ونزلت برسي مترددة من العربة، تئن تباعاً، ثم تبعت سكارلت فوق الطريق المشجر، خشية عقابها.

خلف بقايا الدار، كانت مساكن الزنوج تحت الأشجار المتشابكة، ساكنة خاوية، وبين هذه المساكن وحجارة الأسس المسودة وجدتا البئر. كان سقفها لا يزال سليماً والدلو متدلياً إلى عمق سحيق، فطفقتا تلفان الحبل متعاونتين، حتى إذا ما ارتفع الدلو يطفح بالماء البارد المشعشع، خارجاً من الأعماق، أمالته سكارلت نحو شفتيها وارتشفت جرعات بصوت مسموع، ساكبة الماء على جسدها. وهكذا ظلت ترتشف الماء إلى أن جعلتها عبارة برسي المتلهفة: «وأنا أيضاً أتحرق ظمأ للماء يا آنسة سكارلت» تتذكر حاجة الآخرين.

- «حلي عقدة الحبل وخذي الدلو إلى العربة واسقيهم بعض الماء

ثم ضعي البقية أمام الحصان. ألا تعتقدين أنه ينبغي لميلاني إرضاع وليدها؟».

- «آه يا آنسة سكارلت، إن الآنسة ميلاني لا تدرّ حليباً، ولن تدرّ شيئاً منه».

- «كيف عرفت؟».

- «لقد رأيت كثيرات في مثل حالها».

- «لا تتبجحي كذباً أمامي. إن ما عرفته عن التوليد كان شيئاً تافهاً جداً في الأمس. أسرعي الآن، وسأحاول أنا إيجاد شيء نقتات به».

ذهب بحثُ سكارلت عن الطعام سدى، إلى أن وجدت أخيراً في البستان قليلاً من التفاح. كان الجنود قد سبقوها إلى المكان، ولم يدعوا ثمرة على الشجرة، أما الحبات القليلة التي ظفرت بها فكانت عفنة في معظمها، إلا أنها ملأت تنورتها بأفضل الموجود، وعادت أدراجها فوق التربة الطرية، والحصى يتجمع في خفَّيها. لماذا لم تفكر في ارتداء حذاء أمتن ليلة أمس؟ لماذا لم تفكر في وضع قبعة تقيها حر الشمس؟ لقد تصرفت كفتاة حمقاء، بيد أنها بالطبع اعتقدت أن ريت سيعتني بهم.

ريت! وبصقت على الأرض، لأن مجرد اسمه كان كافياً لتقزيز النفس. ما أشد ما تبغضه! ما أكثر ما كان زرياً! ومع ذلك فقد وقفت هنالك في الطريق وتركته يقبِّلها، استطابت قبلته. لقد كانت مجنونة ليلة الأمس، آه ما كان أحقره!

وعندما بلغت الجماعة، وزعت التفاح عليهم، وقذفت بالبقية في مؤخرة العربة. كان الحصان واقفاً على قدميه الآن، ولكن لم يبدُ أن الماء أنعشه كثيراً، بل ظهر في ضوء النهار أسوأ بكثير مما كان عليه في الليل السابق. لقد برزت عظام وركيه كعظام بقرة مسنة، وبدت أضلاعه

كألواح خشبية. وكان ظهره كتلة من القروح، فحرصت على أن لا تلمسه وهي تضع العدة فوقه. وعندما أدخلت الشكيمة في فمه، رأته أنه كان بلا أسنان فعلاً، فلقد كان هرماً بعمر الجبال. لماذا سرق ريت حصاناً كهذا، لماذا لم يستطع سرقة حصان قوي؟

واعتلت المقعد، وهوت بقضيب الجوز على ظهره فصهل الحصان ثم تحرك، بيد أنه سار بطيئاً جداً، وهي تنعطف به فوق الطريق الذي تعرفه، بحيث وثقت أن في وسعها المشي أسرع منه دون أن تبذل أي جهد. حبذا لو لم يكن معها ميلاني وويد والرضيع وبرسي، يعيقونها وتعاني في سبيلهم، إذن لكان في وسعها الإسراع في المشي، بل كان في وسعها أن تجري جرياً إلى البيت، تجري كل خطوة تدنيها من تارا ومن أمها.

ليس من الممكن أن يكونوا الآن على بعد أكثر من خمسة عشر ميلاً من البيت، ولكن بهذه السرعة التي يخطوها هذا الحيوان الهرم، ستستغرق المسافة النهار بطوله، فقد كان عليها أن تتوقف مراراً كيما تريحه. النهار بطوله! ونظرت إلى الطريق الحمراء المتوهجة فرأت الحفر العميقة التي كانت تتخللها، حيث درجت عجلات المدافع وعربات الإسعاف! ستمضي ساعات قبل أن تعرف ما إذا كانت تارا لا تزال موجودة، وما إذا كانت إيلين موجودة أيضاً. ستمضي ساعات قبل أن تتم رحلتها هذه تحت شمس سبتمبر المحرقة.

ونظرت إلى الخلف، إلى ميلاني الممددة بعينين مريضتين مغضّنتين في وجه الشمس، ثم حلت عقدة قبعتها، ودفعتها إلى برسي:

– «ضعيها فوق وجهها فستمنع الشمس عن عينيها»، ولكن عندما أخذت الشمس تشوي رأسها المكشوف هجست: «سأمسي نمشاء كبيضة دجاجة الوادي، قبل أن تغيب شمس هذا النهار».

ولم يحدث لها أن خرجت في الشمس طوال حياتها، من دون

قبعة أو نقاب، وكذلك لم يتفق لها أن أمسكت بزمام فرس من دون قفازات تقي بها بشرة يديها البيضاء، يديها ذاتي الغمازات. ومع ذلك فها هي هنا معرضة للشمس فوق عربة مهترئة، وحصان هدّته السنون. ها هي هنا قذرة عرقى دبقة، عاجزة عن إتيان شيء سوى الترنح فوق الطريق بخطى السلحفاة، عبر أرض مهجورة.

ما أقلّها وما أقصرها من أسابيع حيث كانت آمنة سالمة، بل ما أوجزها فترة زمنية منذ كانت هي وجميع الناس يفكرون في أن أتلانتا لا يمكن أن تسقط، وفي أن جورجيا لا يمكن أن تهاجم. ولكن السحابة الصغيرة التي ظهرت في أفق أتلانتا الشمالي الغربي، منذ أربعة أشهر، قد تحولت إلى زوبعة عاتية ثم إلى إعصار مدوٍّ دمر عالمها، واجتاحها بعيداً عن حياتها الآمنة، قاذفاً بها في وسط هذه الأرض المهجورة الصامتة التي تسكنها الأرواح.

أما زالت تارا قائمة فوق الأرض؟ أو أنها ذهبت مع الريح كذلك، الريح التي اجتاحت جورجيا؟

وساطت ظهر الحصان المتعب برفق، وحاولت أن تحث خطاه، بينما كانت العجلات المتهادية تترنح بهم من جانب إلى آخر.

* * *

كان الهواء يفوح برائحة الموت. وبدت كل الأحراج الصغيرة والحقول التي كانت تعرفها جيداً خضراء ساكنة في أشعة شمس الأصيل، ساكنة سكوناً غير طبيعي أثار الرعب في قلب سكارلت. كان كل بيت فارغ مزقته القنابل من البيوت التي مروا بها في ذلك اليوم، وكل مدخنة نحيلة من المداخن التي كانت تقف كالحراس فوق الخرائب المسودة بالسخام، يفاقم رعبها. ولم يكونوا قد رأوا منذ ليلة أمس إنساناً واحداً أو حيواناً، وكل ما رأوه كان رجالاً أمواتاً وخيولاً

ميتة، نعم، وبغالاً ميتة أيضاً مبعثرة على جانبي الطريق، منتفخة الجثث، يغطيها الذباب، ولكن لا مخلوق حياً البتّة، لا خوار بقر بعيد، ولا أغاريد طير، ولا صوت ريح تهز الأشجار، وإنما وقع أقدام الحصان المتعب وعويل طفل ميلاني الضعيف يشقان هذا السكون المطبق وحسب.

كان الريف كأنه واقع تحت تأثير سحر مخيف، بل كان أسوأ حالاً من ذلك، كما فكرت سكارلت، والقشعريرة تهزها، فلقد بدا لها كوجه أم أليف عزيز بدا ساكناً جميلاً في ساعاته الأخيرة بعد سكرات الموت. وشعرت كأن الغابات المألوفة لديها فيما مضى كانت تعج بالأشباح. لقد مات الألوف في معركة قرب جونسبورو، وهم الآن هنا في هذه الأحراج المسكونة بالأرواح، حيث تتلألأ أشعة شمس الخريف المائلة، رهيبة بين الأوراق الساكنة. أصدقاء وأعداء كانوا يشخصون إليها وهي في عربتها المتهادية، يشخصون إليها بعيون يغشيها الدم والتراب الأحمر، عيون مقززة مرعبة.

«أماه! أماه!» همست، حبذا لو أنها تستطيع الفوز ببلوغ إيلين، حبذا لو تكون تارا، بمعجزة من اللّه، لا تزال قائمة فوق الأرض، وتستطيع هي أن تقود العربة في ممشى الأرز ثم تدخل البيت، وتنعم برؤية وجه أمها الرقيق الرحيم. حبذا لو أنها تستطيع أن تتحسس مرة ثانية تينك اليدين الناعمتين القادرتين اللتين تطردان الخوف، أو أنها تستطيع أن تتعلق بأهداب إيلين وتدفن رأسها بتنورتها. إن أمي تعرف ما يجب عمله ولن تدع ميلاني ووليدها يموتان، ستطير كل الأشباح والمخاوف بعيداً، بعبارتها الرقيقة: «صه! صه!». آه، غير أن أمي مريضة، وربما تعاني من سكرات الموت.

وأنزلت السوط خفيفاً على كفل الحصان المرهق. ينبغي أن يسرعوا، لقد انقضى النهار الحار بطوله، وهم يزحفون فوق هذه

الطريق اللانهائية، وسرعان ما سيحل الليل ويحتويهم الظلام، وهم وحيدون في هذا الضياع الذي هو بمثابة الموت. وقبضت على الزمام بإحكام بيدين منتفضتين، وهوت به على ظهر الحصان، حتى أوشكت راحتاها المتألمتان أن تشتعلا من جرّاء الاحتكاك.

لو أنها فقط تستطيع بلوغ ذراعي تارا وإيلين الرحيمتين ثم تلقي بأعبائها الثقيلة جداً على كتفيها الفتيتين - أعبائها الكائنة في المرأة المائتة والرضيع الذاوي وولدها الصغير الجائع، والزنجية الهلعة فزعاً. كلهم كانوا يتطلعون إليها من أجل الحماية والهداية. كلهم كانوا يقرأون في ظهرها المستقيم الشجاعة التي لا تملك منها شيئاً، والقوة التي خذلتها منذ زمن طويل.

ولم يلبِّ الحصان الخائر ضربة السوط ولا صفعة الزمام، بل تابع خطاه المتثاقلة، يجرجر حوافره، ويتعثر بالحجارة الصغيرة، مترنحاً كأنه على وشك الوقوع على ركبتيه. ولكن ما إن حان الغسق حتى دخلوا أخيراً المرحلة النهائية من رحلتهم الطويلة، فداروا حول منعطف ممر العربات، وانعطفوا نحو الطريق الرئيس. . . لقد أضحت تارا على بعد ميل واحد منهم فقط!

هنا كان يمتد السياج الضخم القاتم من الشجيرات ذات الأزهار الشبيهة بزهر البرتقال، السياج الذي يعلن ابتداء ملكية آل ماكنتوش. وبعيد هذا الحد الفاصل بمسافة قصيرة، جذبت سكارلت زمام الحصان، أمام ممشى شجر السنديان الممتد بين الطريق ومنزل أنغوس ماكنتوش العجوز، وحدقت خلال الغسق المتجمع بين الأشجار القديمة. كان الظلام يغمر كل شيء، وليس من ضوء واحد يشع من البيت أو من مساكن العبيد. وعندما حملقت بعينيها أكثر، استطاعت أن تميز بغموض مشهداً أضحى مألوفاً لديها خلال ذلك اليوم الرهيب - مدخنتين طويلتين كشاهدي قبرين ضخمين، تشمخان فوق الطابق

العلوي المدمر، بينما كانت النوافذ المكسرة المعتمة تبدو على الجداران كعيون جامدة عمياء.

- «هالو» صاحت مستجمعة كل قواها، «هالو» وانقضّت برسي عليها بأناملها في نوبة من جنون الرعب، وعندما استدارت سكارلت نحوها رأت عينيها قد زاغتا في رأسها.

- «لا تصيحي يا آنسة سكارلت، أرجوك، لا تصيحي ثانية!» همست بصوت مرتجف، «فليس هناك من يجيب! من عساه يجيبك؟».

«يا للّه!» فكرت سكارلت والرعشة تجتاحها، «يا للّه إنها على حق، فقد يخرج كل شيء من هناك!».

وحركت الزمام وحثت الحصان على التقدم. لقد ثقب منزل ماكنتوش فقاعة الأمل الأخيرة التي بقيت لها، كان محروقاً مدمراً مهجوراً ككل المزارع التي مرّت بها ذلك اليوم. إن تارا تقع على مسافة نصف ميل منه فقط، على الطريق ذاتها تماماً، أي في طريق الجيش، وإذن فقد سوّيت بالأرض هي أيضاً. وستلمس سكارلت قطع الآجر المسودة فقط، وستشاهد أضواء النجوم تشع بين الجدران العديمة السقف، وستجد أن إيلين وجيرالد قد ذهبا وشقيقتيها ذهبتا ومامي ذهبت والزنوج ذهبوا، ولا يعلم أين ذهبوا إلا اللّه وحده. وستجد هذا السكون الرهيب يخيّم على كل شيء.

لماذا تجشمت عناء هذه الرحلة الحمقاء، معارضة كل إدراك سليم، مجرجرة ميلاني وطفلها؟ كان من الأفضل أن يموتا في أتلانتا من أن يعذبا بشمس النهار المحرقة، وبعربته المترنحة، ليلقيا حتفيهما أخيراً بين خرائب أتلانتا الموحشة.

بيد أن آشلي ترك ميلاني في عهدتها، «اعتني بها» قال، حبذا ذلك اليوم الجميل المضني للقلوب، عندما قبَّلها قبلة الوداع قبل أن يمضي بعيداً إلى الأبد! «ستعتني بها أليس كذلك؟ عديني» ووعدته. لماذا

ربطت نفسها بوعد كهذا، تضاعف إلزامه لها الآن بعد أن قضى آشلي؟ إنها تبغض ميلاني حتى وهي في حالة الإعياء هذه. تبغض مواء طفلها الصغير الضعيف الذي كان يشق السكون بنغم يخفت باطراد، غير أنها وعدت، وهما الآن ضمن مسؤوليتها، تماماً كويد وبرسي، وعليها أن تكافح وتجاهد في سبيلهما ما دامت فيها قوة أو رمقٌ من حياة. لقد كان في وسعها تركهما في أتلانتا، كان في وسعها أن تلقي ميلاني في المستشفى وتغادرها هناك. ولكنها لو أقدمت على هذا العمل، لما وسعها مطلقاً مواجهة آشلي سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، ولما وسعها إخباره أنها تركت زوجته وابنه يموتان بين الغرباء.

آه - آشلي! أين يقبع هذه الليلة، وهي تكدح فوق الطريق، التي تسكنها الأرواح، مع زوجته وطفله؟ هل هو حي؟ وهل يفكر فيها وهو قابع خلف القضبان في جزيرة رك؟ أو أنه مات بالجدري منذ شهور وتعفن جسده في أحد الخنادق الطويلة مع مئات من الحلفيين الآخرين؟

كادت أعصاب سكارلت المتوترة تنفجر عندما قرع مسامعها صوت مفاجئ صادر من بين الشجيرات القريبة، وزعقت برسي زعيقاً حاداً وقذفت نفسها إلى أرض العربة فوق الطفل، وتحركت ميلاني وانية وبحثت يداها عن ابنها بينما غطى ويد عينيه وهو على ركبتيه هلعاً لا يقوى على الصراخ، ثم انشقت طريق بين الشجيرات إزاءهم بفعل وقع حوافر ثقيلة وقرع آذانهم خوار منخفض يئن.

- «إنها مجرد بقرة» قالت سكارلت وصوتها أجش من الخوف، «لا تكوني حمقاء يا برسي. لقد سحقت الطفل وأفزعت الآنسة ميلاني وويد».

- «إنه شبح» أنّت برسي حانية وجهها إلى الأسفل على أرض العربة الخشبية.

فاستدارت سكارلت نحوها باتزان ورفعت قضيب الجوز الذي

كانت تستعملة كسوط، وهوت به على ظهر برسي. لقد كانت في غاية الإنهاك والضعف من جرّاء الخوف، بحيث لم تقوَ على احتمال ضعف أي إنسان آخر.

- «اجلسي منتصبة أيتها الحمقاء» قالت، «قبل أن أكسّر هذا القضيب على جسدك».

فرفعت برسي رأسها وهي تولول، شاخصة ببصرها من فوق جانب العربة، حيث رأت أن الشبح كان في الحقيقة بقرة، بقرة حمراء وبيضاء، تقف متطلعة إليهم تتوسل بعينين كبيرتين خائفتين، ثم فتحت فمها وخارت ثانية كأن ألماً كان يبرح بها.

- «هل تتألم؟ إن صوتها لا يبدو كخوار طبيعي».

- «إنه يبدو لي كما لو أن درّتها مليئة وتحتاج إلى الحلب حاجة ماسّة» قالت برسي، وقد استرجعت بعض السيطرة على نفسها، «أظن أنها إحدى أبقار السيد ماكنتوش، التي ساقها الزنوج إلى الغابة وضل الشماليون عنها».

- «سنأخذها معنا» قررت سكارلت بسرعة، «وعندئذ نستطيع تأمين حليب للرّضيع».

- «كيف يسعنا أخذ بقرة معنا يا آنسة سكارلت؟ لن نستطيع أخذ بقرة معنا فهي لن تفيدنا شيئاً الآن، إذ إنها لم تحلب منذ مدة، ودرّتها منتفخة مؤلمة، وذلك هو سبب أنينها».

- «بما أنك تعرفين الكثير عن البقر، انزعي صدرتك ومزقيها قطعاً طويلة واربطي بها البقرة إلى مؤخرة العربة».

- «آنسة سكارلت، أنت تعلمين أني لم أظفر بصدرة منذ شهر، والآن وبعد أن نعمت بواحدة، لا يمكن أن أضحي بها عبثاً، كما أني لم أخبر حياة البقر أبداً. إني أخشى البقر كثيراً».

وضعت سكارلت الزمام ورفعت تنورتها، كانت الصدرة المزركشة

بالدنتلة هي آخر قطعة ثياب طريفة تملكها - آخر قطعة لم يصبها التلف، ومع ذلك فقد حلّت شريط الخصر، وزلقت الصدرة نزولاً ثم مزقت الطيات الكتانية بيديها، وكان ريت قد جلب لها ذلك الكتان وتلك الدنتلة من ناسو في آخر زورق هرّبه عبر الحصار، وقضت أسبوعاً في صنع الثوب، وها هي الآن تشده بإرادة ثابتة من حاشيته وتجذبه ثم تمسك به بفمها وتقرضه إلى أن تمزق القماش أخيراً وانشق طولاً. وتابعت قرضه بعنف، وتمزيقه بكلتا يديها حتى أضحت الصدرة خرقاً في كفيها، خرقاً عقدت أطرافها بأصابع تنزف دماً من القروح، وترتجف من الإعياء.

- «طوِّقي قرنيها بهذا الشريط» أمرت سكارلت، غير أن برسي حرنت ولم تتحرك.

- «إني أخاف من البقر يا آنسة سكارلت، لم يسبق لي أن عملت في شؤون البقر، لم أكن يوماً عاملة حقل، إني زنجية بيتية».

- «إنك زنجية حمقاء، وإن أحمق عمل ارتكبه والدي هو شراؤك» قالت سكارلت ببطء وبجهد بالغ بحيث لم تستطع الغضب، «وإذا ما قُدِّر لي استعمال ذراعي ثانية فسأكسر هذا القضيب على جسدك».

وفكرت فجأة: «لقد قلت زنجية، وأمي لا ترتاح لذلك أبداً».

أما برسي فقد أدارت عينيها الزائغتين، وشخصت أولاً إلى وجه سيدتها الحازم ثم إلى البقرة التي كانت تجأر بصوت شجن، وتراءى لها أن سكارلت أقل الاثنتين خطراً، ولذلك تمسكت بجانب العربة وظلت حيث هي.

نزلت سكارلت من المقعد متشنجة الأعضاء، وكانت كل حركة أتتها كأنها سكرة موت لعضلاتها المتألمة. لم تكن برسي الإنسانة الوحيدة التي تخشى البقرة، فقد كانت سكارلت نفسها تخاف هذا الحيوان أبداً، حتى إن أودع الأبقار كانت تبدو شؤماً في ناظريها،

ولكن لم يكن هذا هو وقت الاستسلام للمخاوف الصغيرة، في حين تتراكم المخاوف الكبيرة فوق رأسها. ولحسن حظها كانت البقرة لينة العزيمة، قد دفعها ألمها إلى أن تطلب رفقة الإنسان وعونه. وبينما سكارلت تلفّ الصدرة الممزقة حول قرنيها لم يبدر منها أي نذير شر، ولذا ربطت سكارلت طرف الصدرة الآخر إلى مؤخرة العربة، ربطاً وثيقاً بقدر ما مكنتها أصابعها المرتبكة. وبينما هي عائدة لتصعد إلى مقعد القيادة، اجتاحها إعياء شامل، فطفقت تترنح زائغة البصر، وتمسكت بجانب العربة لئلا تقع على الأرض.

فتحت ميلاني عينيها، وعندما وقع بصرها على سكارلت تقف إزاءها، همست: «عزيزتي - هل بلغنا البيت؟».

البيت! واغرورقت عينا سكارلت بالدموع الحارة لدى سماع كلمة البيت! إن ميلاني لا تعلم أنه لم يعد يوجد بيت، وأنهم أضحوا الآن وحيدين في عالم مهجور مجنون.

- «لم نبلغه بعد» قالت بقدر ما سمح لها تقبُّض حنجرتها من رقة، «بيد أننا سنصل فوراً. لقد وجدت الآن بقرة، وسنحصل في الحال على حليب لك ولطفلك».

- «يا له من طفل مسكين!» همست ميلاني بينما زحفت يدها تجاه ابنها بتوانٍ، ولكن اليد ما عتمت أن هوت سريعاً.

كان الصعود إلى العربة ثانية يتطلب كل ما تستطيع سكارلت جمعه من قوة، ولكنها صعدت أخيراً وأمسكت بالزمام. كان الحصان يقف ورأسه مطرق بصورة تثبط الهمم، وعندما نهرته رفض التحرك، فهوت بالسوط عليه دونما رحمة، آملة أن يغفر اللّه لها إيذاء حيوان متعب، وإن هو لم يغفر فإنها تأسف لذلك، هذا علاوة على أن تارا كانت تقع أمامهم تماماً، وبعد ربع ميل آخر سيكون في وسع الحصان أن يتخلص من نير العربة إذا شاء.

وأخيراً أسرع الحيوان المرهق يتحرك ببطء، بينما راحت العربة تصر والبقرة تخور خواراً محزناً عند كل خطوة، خواراً كان ينهش أعصاب سكارلت، حتى إنها همَّت بالتوقف عن المسير وإطلاق سراح البقرة. . . أي فائدة يمكن أن يسديها لهم هذا الحيوان إن هم لم يجدوا أحداً في تارا؟ إنها لن تستطيع حلبها، وحتى لو استطاعت، فمن المحتمل أن ترفس البقرة أي إنسان يلمس ضرعيها المتألمين. بيد أن البقرة في حوزتها وفي وسعها أن تحتفظ بها. لذلك، فإن ما تحوزه الآن في هذه الدنيا قليل قليل.

وعندما بلغوا أخيراً أسفل منحدر خفيف، اغرورقت عينا سكارلت بالدموع. ففوق هذا المرتفع تماماً كانت تنتصب تارا، ثم غار قلبها. . . لن يصعد الحصان الهرم التلة. لقد كان السفح يبدو دائماً قليل الانحدار، في غاية التدرج، أيام كانت تخب عليه على ظهر فرسها السريعة، ومن غير الممكن أن يكون السفح قد ازداد انحداراً منذ رأته آخر مرة، ومع ذلك فإن الحصان لن يقوى على صعوده بهذا الحمل الثقيل.

وترجّلت خائرة القوى، وأمسكت بلجام الحيوان: «انزلي يا برسي» أمرت، وأنزلي ويد معك، إما أن تحمليه أو تجعليه يمشي. ضعي الطفل بجانب الآنسة ميلاني.

وانفجر ويد بالشهيق والنشيج الذي لم تستطع سكارلت أن تميز من كلماته سوى «ظلام - ظلام - ويد خائف».

- «آنسة سكارلت، إني لا أستطيع المشي. إن قدميَّ مقرحتان، وحذائي مهترئ، وويد وأنا لا نزن كثيراً -».

- «انزلي قبل أن ألقي بك خارجاً، وإن أنا فعلت ذلك فسأتركك هنا في هذا المكان بالذات، تبقين فيه وحدك في الظلام. هيا انزلي الآن!».

ونحبت برسي وألقت نظرة على الأشجار المعتمة المحيطة بهم من جانبي الطريق، الأشجار التي يمكن لأغصانها أن تتطاول وتختطفها إذا هي غادرت الطريق، إذا هي غادرت ملجأ العربة الآمن. ولكنها وضعت الطفل بجانب ميلاني، وزحفت إلى الأرض ثم مدت يديها وأنزلت ويد، الذي أخذ يبكي إلى جوار مربيته.

- «أسكتيه، فأنا لا أستطيع سماع عويله» قالت سكارلت ذلك وأخذت الحصان من لجامه ودفعت به إلى الأمام فتحرك متمنعاً. «كن رجلاً صغيراً يا ويد وكف عن البكاء وإلا سآتي وأصفعك». لماذا خلق اللّه الأولاد، هجست سكارلت باستنكار، حين التوى كاحلها بقوة فوق الطريق المعتمة - إنهم عديمو الفائدة، مزعجون ببكائهم، يتطلبون العناية أبداً، ويقفون في طريق كل شيء! كان التعب والإعياء قد بدّدا من قلبها كل ذرة من عطف على الصبي الهلع الذي كان يهرول بجانب برسي وهو يمسك بيدها وينشق مخاطه - وإنما كانت تحس بالألم لأنها ولدته، وبالعجب الممض من أنها تزوجت تشارلز هاملتون.

- «آنسة سكارلت!» همست برسي ممسكة بذراع سيدتها، «لا تدعينا نذهب إلى تارا، فهم ليسوا هناك. لقد ذهب الجميع. ربما ماتوا - أمي والآخرون».

وثارت سكارلت عندما سمعت صدى أفكارها ألفاظاً، فدفعت أصابع برسي الممسكة بها، بعيداً عنها.

- «إذن أعطيني يد ويد، وفي وسعك الجلوس هنا والبقاء».

- «لا يا سيدتي! لا يا سيدتي!».

- «إذن اخرسي».

ما أبطأ الحصان! كان الزبد ينقط من فمه على يدها، وتذكرت فجأة بضع كلمات من الأغنية التي أنشدتها يوماً مع ريت - ولم تستطع تذكّر البقية:

«أيام قليلة فقط بقيت لحملنا العبء المرهق -».

«خطوات أخرى قليلة فقط» ردّد عقلها مرة بعد مرة، «خطوات أخرى قليلة فقط ويخف العبء المرهق».

ثم أشرفوا على القمة وانتصبت أمامهم أشجار سنديان تارا، كتلة متشاهقة سوداء تطاول السماء المظلمة. وأسرعت سكارلت تنظر إن كان يوجد ضوء في الأنحاء ولكن بصرها لم يعثر على بصيص من ضوء.

«لقد ذهبوا!» هجس قلبها، قلبها الذي غدا كالرصاص البارد في صدرها، «ذهبوا»، وأدارت رأس الحصان باتجاه الممشى، واحتوتهم أشجار الأرز المتعانقة فوق رؤوسهم في عتمة كظلام منتصف الليل. وبينما أرسلت نظرها يحدّق في النفق المظلم، رأت أمامها - هل رأت حقاً؟ أم كانت عيناها المتعبتان تخدعانها؟ - رأت آجر تارا الأبيض أغبش غير جلي. البيت! البيت! الجدران العزيزة البيضاء! النوافذ ذات السجف المواجة، الشرفات الواسعة - أكانت جميعها قائمة أمامها في الظلام، أم أن الظلام يخفي في ثناياه، رحمة بها، حقيقة مرعبة كالحقيقة التي صدمتها عند منزل آل ماكنتوش؟

وبدا الممشى طويلاً طويلاً يبلغ الأميال وأخذ الحصان، وهو يجرجر حوافره متمنعاً، يبطئ خطاه، على الرغم من أنها كانت تجرّه بيدها. وراحت عيناها تبحثان بلهفة خلال الظلام، فتراءى لها أن السقف ما زال سليماً على حاله. أيمكن أن يكون ذلك، أيمكن أن يكون؟ لا، ليس من الممكن، فالحرب لم توفر شيئاً، حتى ولا تارا التي بنيت لتبقى خمسمئة عام. لا يمكن أن تكون الحرب قد تجاوزت تارا.

ثم أخذ الهيكل المبهم تتضح معالمه، فاندفعت تسحب الحصان بقوة مطردة، وبدت الجدران البيضاء خلال الظلام غير مسودة

بالدخان. لقد نجت تارا! البيت! وأفلتت الزمام وركضت الخطوات القليلة الباقية، ووثبت بقوة إلى الأمام تريد أن تلمس الجدران بيديها. ثم لمحت شبحاً غامضاً في العتمة، يبرز من سواد الشرفة الأمامية، ويقف على أعلى الدرجات... وإذن لم تهجر تارا! إن هناك من يسكنها!

وارتفعت صيحة فرح إلى حنجرتها، ولكنها ماتت هناك. لقد كان البيت مظلماً جداً، ساكناً جداً، ولم يتحرك الشبح ولم ينادها. فماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟ إن تارا تقف سالمة على حالها، مع أن السكون المخيف ذاته يخيّم عليها، السكون الضارب جرانه في كل الريف المذعور. ثم تحرك الشبح مبتسماً بطيئاً، وهبط الدرجات.

- «بابا؟» همست بصوت أجش وهي تكاد تشك أنه والدها... «هذا أنا - كيتي سكارلت... لقد عدت إلى البيت».

فاتجه جيرالد نحوها، صامتاً كسائر أثناء نومه، يجر ساقيه المتيبّستين، واقترب منها وحدّق في وجهها مبهوراً كأنه يعتقد أنها جزء من حلم، ثم مد يده ووضعها على كتفها، وأحست هي أن ذراعه ترتجف، ترتجف كما لو أنه استيقظ من حلم رهيب إلى يقظة نصف واعية.

- «ابنتي» قال بعناء، «ابنتي» وأخلد إلى الصمت.

«ما باله - إنه رجل مسن»، فكرت سكارلت.

وأحنى جيرالد كتفيه، ولم ترَ سكارلت في الوجه الذي استطاعت تمييزه بغموض فقط، لم ترَ أمائر الرجولة، رجولة جيرالد الجياشة التي لا تكل، كما أن العينين اللتين رنتا إلى عينيها، كانت تشوبهما نظرة الذعر المجهول، وهي النظرة ذاتها التي تنبعث من عيني ويد الصغير... لقد كان مجرد رجل هرم قصير القامة، هدته السنون.

والآن، كان الخوف من المجهول يشلّ تفكيرها، لقد انقضّ عليها

من الظلام فجأة، فلم يسعها إلا الوقوف والتحديق في أبيها، وقد تجمّع فوق شفتيها كل فيض الأسئلة.

وعلا البكاء الخافت من العربة ثانية، وبدا على جيرالد أنه يحاول إيقاظ نفسه بجهد بالغ.

- «إنها ميلاني ووليدها» همست سكارلت على عجل، «إنها مريضة جداً - أحضرتهما معي إلى البيت».

فأنزل يده من على كتفيها واستقام بكتفيه، وعندما اتجه ببطء نحو جانب العربة بدا كأنه نظير طيفي لمضيف تارا القديم وهو يرحّب بضيوفه... كان كأنه يلفظ كلماته من ذاكرة طيفية غامضة.

- «ابنة العم ميلاني!».

وتمتم صوت ميلاني غير جلي.

- «يا ابنة العم ميلاني، إن هذا بيتك. لقد أُحرقت تولف أوكس، وعليك أن تقيمي معنا».

أما سكارلت، فإن تفكيرها فيما قاسته ميلاني من آلام مستمرة دفعها إلى العمل فوراً. وقد أدركت أن المبادرة في يدها مرة ثانية، فمن الضروري إذن إضجاع ميلاني ووليدها على سرير ليِّن، وتأمين تلك الأشياء الصغيرة التي تتطلبها حالة ميلاني، الأشياء التي يمكن تنفيذها.

- «ينبغي حملها، فهي لا تستطيع المشي».

وسمع وقع أقدام، وبرز على الأثر شخص أسود من ظلام القاعة الأمامية... ونزل بورك الدرجات جرياً.

- «آنسة سكارلت! آنسة سكارلت!» صاح.

فأمسكت سكارلت بذراعيه، بورك! جزء وقطعة من تارا، إنه عزيز كقطع الآجر وممرات البيت المنعشة الهواء. وأحست بدموعه تنهمر

على يديها وهو يربت على ظهرها بخشونة صائحاً: «إني مسرور جداً بعودتك! جداً».

وانفجرت برسي بالبكاء، وهي تغمغم كلاماً متقطعاً «بورك! بورك عزيزي».

وتشجع ويد وهو يرى استخذاء من هم أكبر منه سناً. فراح ينشق مخاطه ويقول: «ويد عطشان!».

وأمسكت سكارلت زمام الأمر بيدها:

- «الآنسة ميلاني وابنها في العربة، فعليك يا بورك أن تحملها إلى الطابق العلوي برفق، وتضجعها في غرفة الجلوس الخلفية. أما أنت يا برسي، فخذي الطفل وويد إلى الداخل واسقي ويد جرعة ماء. هل مامي هنا يا بورك؟ أخبرها أني أريدها».

تقدم بورك نحو العربة منقاداً بلهجة السيطرة التي في صوت سكارلت، وهنا جاست يداه في مؤخرة العربة. وبينما هو يرفع ميلاني ويجرجرها من فرشة الريش التي استلقت عليها ساعات طويلة، اعتصر الألم أنَّة من صدرها، ثم أضحت بين ذراعي بورك القويتين ورأسها يتدلى خلف كتفه كرأس طفل. وتبعت برسي والدها وهي تحمل الطفل وتسحب ويد من يده، ثم صعدت الدرجات العريضة وغابت في ظلام القاعة.

ونشدت أصابع سكارلت النازفة يد والدها على عجل، ثم قالت:

- «بابا، هل شفين جميعاً؟».

- «الفتاتان في طريق الشفاء».

وران الصمت، وتبلورت خلاله في رأس سكارلت فكرة رهيبة جداً يصعب التعبير عنها بالكلام. لا، لن يسعها، لن يسعها النطق بها.

وبلعت ريقها، وبلعت، وفجأة أحست كأن جفافاً ألصق جدران حلقها معاً، وتساءلت أهذا هو الجواب على السر الرهيب، سر سكون تارا؟

وتكلّم جيرالد كأنه يجيب تساؤل عقلها:

- «أمك -» نطقها وصمت.

- «و - أمي؟».

- «أمك توفيت أمس».

* * *

تحركت سكارلت متأبطة ذراع والدها بقوة، متحسسة طريقها في القاعة الواسعة المظلمة، القاعة التي كانت حتى في ظلمتها، أليفة لنفسها ألفة تفكيرها. وتحاشت النظر إلى الكراسي ذات الظهور العالية، وإلى مشجب البنادق الشاغر والخزانة العتيقة بأقدامها الناتئة المخالب. وأحست كأنها تنجذب بالغريزة نحو المكتب الصغير في مؤخرة البيت، حيث كانت إيلين تجلس دائماً، تُجري حساباتها اللانهائية... حتماً... عندما تدخل تلك الغرفة ستجد أمها ثانية تجلس إلى المنضدة وسترفع إيلين بصرها واليراع متزن في يدها، ثم تنهض بروائحها الطيبة وبحفيف ثوبها لتستقبل ابنتها التعبة... لا! لا يمكن أن تكون إيلين ميتة، حتى لو قال ذلك بابا... وإن قد قالها مرة بعد مرة كببغاء يحفظ جملة واحدة فقط «ماتت أمس - ماتت أمس...».

من الغريب أنها لا تشعر بشيء الآن، اللهم إلا بوهن يقيد أعضاءها بأغلال حديدية ثقيلة، وبجوع جعل ركبتيها ترتجفان... ستفكر في أمها فيما بعد... ينبغي أن تبعد أمها عن تفكيرها الآن... وإلا ستهذي مخبولة كجيرالد أو تنشج برتابة كويد.

ونزل بورك الدرجات العريضة المعتمة واتجه نحوهما ليدس نفسه قريباً من سكارلت، كحيوان مبرد يسرع إلى النار.

- «أين الأنوار؟ ولماذ يغرق البيت في هذا الظلام يا بورك؟ أحضر الشموع»، قالت.

- «لقد أخذوا كل الشموع يا آنسة سكارلت، جميعها عدا واحدة ما زلنا نستعملها للبحث عن الأمتعة في السرداب المظلم، وقد كادت تنفد. إن مامي تستعمل للإنارة خرقة تضعها في صحن مليء بشحم الخنزير، وذلك أثناء قيامها بتمريض الآنسة كارين والآنسة سولين».

- «أحضر ما تبقّى من الشمعة» قالت، «أحضرها إلى غرفة أمي - إلى المكتب».

واتجه بورك إلى غرفة الطعام بخطوات مسموعة، بينما تلمست سكارلت طريقها إلى الغرفة الصغيرة الحالكة السواد، وهناك تهالكت على الأريكة، وذراع والدها ما زالت فوق مرفقها، ذراع عاجزة مستنجدة مستسلمة، كما يمكن أن تكون أيدي العجزة والأطفال.

«إنه رجل هرم، رجل هرم متعب» هجست ثانية، وتساءلت بغموض، لماذا لم تهتم بهذا الأمر؟

وتماوج الضوء في الغرفة عندما دخل بورك يحمل عالياً شمعة نصف مستهلكة ملتصقة بصحن فنجان قهوة. وعاد الكهف المظلم إلى الحياة، فبدت فيه: الأريكة العتيقة المتقعرة التي جلسا عليها، المنضدة المرتفعة التي تكاد تبلغ السقف، وأمامها كرسي إيلين المنحوت القصيم، ثم رفوف الملفات داخل خزائنها المكدسة بالأوراق المكتوبة بخطها الدقيق، وكذلك السجادة البالية - كل شيء، كل شيء كان كما عهدته، سوى أن إيلين لم تكن هناك، إيلين برائحة أغصان الليمون الخفية المنبعثة من محفظتها، إيلين بالنظرة الحنون في عينيها المنحرفتي الطرفين. وساور ألم خفيف قلب سكارلت، كأنه انبعث من أعصاب تخدرت بفعل جرح عميق وعادت الآن لتثبت وجودها. وهجست سكارلت: «ينبغي ألّا أدعها تعود إلى الحياة ثانية، في هذه الآونة، فما

زال أمام أعصابي كل المرحلة الباقية من عمري، حيث يسعها إيلامي، ولكن ليس الآن، أرجوك يا إلهي ليس الآن!».

ونظرت إلى وجه جيرالد ذي الألوان المتداخلة، وللمرة الأولى في حياتها رأت والدها غير حليق، وقد كسا وجهه المورد فيما مضى شعر قاسٍ فضي اللون.

وضع بورك الشمعة فوق الحاملة وأتى إلى جانبها، وأحست سكارلت أنه لو كان كلباً لوضع خطمه في حجرها وعوى متلمساً يداً رحيمة تربت على رأسه.

- «بورك، كم زنجي هنا؟».

- «آنسة سكارلت، لقد فرَّ الزنزج الأنذال، وارتحل بعضهم مع الشماليين و -».

- «كم زنجي بقي؟».

- «الباقون هم أنا يا آنسة سكارلت، ومامي التي كانت تمرض الآنستين طوال اليوم، ودلسي، وهي تجلس الآن برفقة الآنستين. نحن الثلاثة يا آنسة سكارلت».

«نحن الثلاثة» حيث كان يوجد مئة! وبجهد مضن رفعت سكارلت رأسها على عنقها المتألم. كانت تدرك أن عليها أن تحتفظ بصوتها ثابت اللهجة، غير أن الذي أدهشها أن الكلام خرج من فمها مطمئناً طبيعياً كما لو لم تكن هناك حرب البتّة، وكما لو كان في وسعها، وبمجرد التلويح بيديها، أن تستدعي عشرة خدم.

- «بورك، إني أتضور جوعاً، هل يوجد شيء للأكل؟».

- «لا يا سيدة، لقد أخذوا كل شيء».

- «ولكن الحديقة؟».

- «لقد أفلتوا خيولهم فيها».

- «حتى التلال المزروعة بالبطاطا الحلوة؟».

فعلا شفتيه الغليظتين شيء أشبه بالابتسامة الرضية:

- «آنسة سكارلت، إني لم أنسَ البطاطا، وأعتقد أنها سالمة هناك. لم يرَ الشماليون شيئاً من البطاطا فاعتقدوا أنها مجرد جذور...».

- «سيطلع القمر سريعاً، وعندئذ اخرج واقتلع لنا بعضها، ثم اقلِها... ألا يوجد خبز ذرة؟ ولا فاصولياء جافة ولا دجاج؟».

- «لا يا سيدتي، الدجاج الذي لم يأكلوه هنا حملوه معهم فوق سروج الخيل».

لقد فعلوا - وفعلوا - وفعلوا - أليس من نهاية لما فعلوه؟

ألم يكفِهم الحرق والقتل؟ أكان لا بد لهم أيضاً من ترك النساء والأطفال والزنوج العديمي الحيلة يتضورون جوعاً في بلاد خربوها هم أنفسهم.

- «آنسة سكارلت، عندي بعض التفاح الذي طمرته مامي تحت البيت، وقد أكلنا اليوم منه».

- «أحضره قبل اقتلاع البطاطا. واسمع يا بورك - إني - إني أشعر بدوار شديد. هل يوجد خمر في السرداب؟ حتى لو خمر ثمر عليق؟».

- «آه يا آنسة سكارلت، كان السرداب أول مكان يمَّموا شطره».

وفجأة اجتاحها غثيان دافق بسبب الجوع والأرق والإعياء والضربات الصاعقة، وتمسكت بالورود المنحوتة التي كانت تحت يدها.

- «لا يوجد خمرة» قالت مكتئبة... متذكرة الصفوف اللانهائية من قوارير الخمر التي كانت مصفوفة في السرداب... لقد تحركت ذاكرتها.

- «بورك، وماذا حصل لويسكي الذرة الذي دفنه بابا في برميل السنديان تحت العريشة المخرمة؟».

وأضاء الوجه الأسمر شبح ابتسامة أخرى، ابتسامة سرور وتقدير.

- «إنك حتماً فتاة مغيظة يا آنسة سكارلت، إني لم أنسَ أيضاً ذلك البرميل. ولكن يا آنسة سكارلت، ذلك الويسكي ليس في حالة جيدة إذ مضى عليه وهو في ذلك المكان نحو سنة. علاوة على أن الويسكي لا يصلح للسيدات في أي حال».

ما أغبى الزنوج! إنهم لا يفكرون في شيء ما لم ينبهوا إليه ومع ذلك يريد الشماليون تحريرهم.

- «سيكون مفيداً جداً لميلاني ولبابا. أسرع يا بورك وأخرجه من الأرض، وهات لنا كأسين وبعض النعناع وسكّراً وسأصنع من ذلك المزيج شراب الجلاب».

وتجهّم وجهه مؤنباً.

- «آنسة سكارلت، تعلمين أنه لا وجود للسكّر في تارا منذ زمن، وقد التهمت خيولهم كل النعناع، كما أنهم هشّموا جميع الكؤوس».

«إذا ما أشار إليهم مرة أخرى فسأصرخ، إذ لم يعد في وسعي احتمال ذلك»، قالت في نفسها، ثم أردفت بصوت مرتفع: «حسناً، أسرع واجلب الويسكي، سنحتسيه غير ممزوج بشيء» وعندما استدار ليمشي أردفت القول:

- «انتظر يا بورك، يوجد أمور كثيرة ينبغي القيام بها، والظاهر أني لا أستطيع التفكير فيها الآن... ها أجل! لقد أحضرت معي إلى البيت حصاناً وبقرة تحتاج إلى الحلب بإلحاح. أنزل عن الحصان عدته واسقه، ثم اذهب وأبلغ مامي أن تعتني بالبقرة، أبلغها أن عليها أن تربط البقرة في مكان ما. إن طفل ميلاني سيموت إن لم يحصل على شيء يقتات به و -».

- «الآنسة ميلي لا - تستطيع - ؟» وصمت بورك بلباقة.

- «الآنسة ميلاني لا تدرّ حليباً». يا للّه! إن أمي كان من المحتمل أن يغمى عليها بسبب مثل هذا التصريح!

- «حسناً يا آنسة سكارلت، دلسي زوجتي تستطيع إرضاع طفل ميلاني. لقد أنجبت مولوداً جديداً، وعندها من الحليب ما يكفي لرضيعين».

- «هل رزقت بطفل جديد يا بورك؟».

أطفال، أطفال، أطفال. لماذا يخلق اللّه هذا العدد الكبير من الأطفال؟ ولكن لا، إن اللّه لم يخلقهم، بل الناس الأغبياء هم الذين فعلوا ذلك.

- «نعم يا سيدة، إنه صبي أسود كبير بدين. . .إنه -».

- «اذهب وأبلغ دلسي أن تترك الفتاتين، سأعتني أنا بهما. أبلغها أن تعتني بطفل الآنسة ميلي، وتفعل الذي تستطيعه من أجل والدته، أبلغ مامي أن تعتني بالحصان وأن تضع البقرة المسكينة في الإسطبل».

- «لم يعد يوجد إسطبل يا آنسة سكارلت، فقد استعملوه لخزن الحطب».

- «لا تنبئني بأي شيء آخر عما فعلوه هم. أبلغ دلسي أن تعتني بهما واذهب أنت يا بورك وأخرج ذلك الويسكي من الأرض ثم اقتلع بعض البطاطا».

- «ولكن يا آنسة سكارلت، ليس في حوزتي أي ضوء لأحفر على نوره».

- «في وسعك استعمال قضيب من حطب الموقد، أليس كذلك؟».

- «لا يوجد حطب موقد، فهم -».

- «افعل أي شيء... لا يهمّني ماذا... ولكن أخرج هذه الأشياء... وأخرجها بسرعة... هيا الآن».

وعندما اشتد صوتها دلف بورك خارجاً من الغرفة تاركاً سكارلت وحيدة مع جيرالد. وعندئذ ربتت على ساق والدها برفق، ولاحظت مدى هزال فخذيه اللتين كانتا فيما مضى منتفختين بعضلات نجمت عن ركوب الخيل. وفكرت... أنه ينبغي أن تقوم بعمل ما كي تنقذه من هذا الضياع - ولكنها لا تستطيع سؤاله عن إيلين... سيحين موعد ذلك فيما بعد... عندما تقوى على احتماله.

- «لماذا لم يحرقوا تارا؟».

فحملق في وجهها هنيهة كأنه لم يسمع كلامها، وكررت هي السؤال.

- «إنهم -» أجاب متلعثماً، «إنهم اتخذوا البيت مقراً للقيادة».

- «شماليون - في هذا البيت؟».

وثار فيها الشعور بالنقمة، لأن الجدران العزيزة عليها قد دُنِّست... هذا البيت المقدس لأن إيلين عاشت فيه، يُدنِّسه أولئك - أولئك...

- «أجل يا بنيتي... لقد رأينا الدخان يتصاعد من تولف أوكس خلف النهر، قبل أن يصلوا إلينا. على أن الآنسة هوني والآنسة إنديا وبعض عبيدهم كانوا قد لجأوا إلى ميكون، ولذلك لم نقلق عليهم، بيد أنه لم يكن في وسعنا نحن الذهاب إلى ميكون، فشقيقتاك كانتا مريضتين جداً - وأمك - لم يكن في وسعنا الذهاب... وفرّ زنوجنا - لست أدري إلى أين... وسرقوا العربات والبغال. أما مامي ودلسي وبورك - فلم يفرّوا - شقيقتاك - وأمك - لم يكن في وسعنا نقلهن».

- «نعم. نعم». ينبغي ألّا يتحدث عن أمي، ليتحدث عن شيء آخر. ليقلع حتى عن ذلك الحديث المتعلق باستخدام الجنرال نفسه

لهذه الغرفة، لمكتب أمي، كمقر لقيادته. . . وليتحدث بأي حديث آخر.

- «كان الشماليون يزحفون إلى جونسبورو كي يقطعوا السكة الحديد، وقد صعدوا الطريق القادم من النهر - كانوا ألوفاً مؤلفة - ومعهم مدافع وخيول - وقابلتهم على الشرفة الأمامية».

«آه، يا لجيرالد الصغير الشهم!» فكرت سكارلت وقلبها ينتفخ زهواً. . . جيرالد يقابل العدو واقفاً على درجات تارا، كما لو كان جيش يقف وراءه، بدلاً من هذا الجيش الذي تجمّع أمامه.

- «وأنذروني أن أغادر البيت لأنهم سيحرقونه، فأجبتهم إذن أحرقوه فوق رأسي. إذ لم يكن في وسعنا مغادرته - فشقيقتاك - وأمك كن -».

- «وبعدئذ؟» ألا بد له من الرجوع إلى ذكر إيلين دائماً؟

- «أبلغتهم عن وجود مرضى في البيت. . . بالتيفوئيد. . . وأن نقلهن يعني الموت، وأن في إمكانهم حرق البيت على رؤوسنا، فأنا لا أريد مغادرته على أيه حال - لا أريد مغادرة تارا -».

وتهدج صوته متلاشياً بينما راح ينقل بصره الشارد بين الجدران، وأدركت سكارلت معنى نظراته. لقد كان هناك عدد كبير جداً من السلف الإيرلنديين يحتشدون خلف كتفي جيرالد، رجال ماتوا في أراضيهم الصغيرة بعد أن قاتلوا حتى الرمق الأخير، رافضين مغادرة الأرض التي عاشوا فيها وحرثوا وأحبّوا ورزقوا أولاداً.

- «وقلت لهم إنهم سيحرقون البيت فوق رؤوس ثلاث نساء، يعانين سكرات الموت، ومع ذلك فلن نغادره. . . لقد كان الضابط الشاب - كان رجلاً فاضلاً».

- «فاضل؟ ماذا تقول يا بابا؟!!».

- «نعم فاضل. لقد انطلق مخباً على حصانه وسرعان ما رجع وبرفقته كابتن وجرّاح وألقى نظرة على شقيقتيك وأمك».

- «أسمحت لشماليّ لعين الدخول إلى غرفتهن؟».

- «كان لديه أفيون ولم يكن في حوزتنا شيء منه. لقد أنقذ شقيقتيك. كانت سولين تنزف دماً، وكان هو لطيفاً بقدر معرفته. وعندما قدم تقريراً بأن الثلاث - مريضات - لم يحرقوا البيت، بل دخلوه. دخله الجنرال مع هيئة معاونيه، فازدحم بهم المكان، وعجت بهم جميع الغرف إلا غرفة المريضات الثلاث. أما الجنود -».

وصمت ثانية، كما لو كان متعباً جداً، لا يقوى على متابعة الحديث، وهوت ذقنه القصيرة على صدره بتجاعيد بشرتها المتهدلة، ثم استأنف حديثه بجهد.

- «وعسكروا حول البيت، عسكروا في كل مكان، في حقول القطن والذرة، واصطبغ المرعى بلون بززهم الزرقاء. واشتعلت آلاف من نيران المعسكرات في تلك الليلة، وقد اقتلعوا الحواجز الخشبية وأحرقوها ليطهوا طعاماً، وكذلك فعلوا بالمخازن والاصطبلات والفرن. كما أنهم ذبحوا البقر والخنازير والدجاج - حتى ديوكي الرومية». ديوك جيرالد الرومية الثمينة، هكذا ضاعت إذن... «وأخذوا كل المتاع، حتى الصور وبعض الأثاث والأواني الصينية».

- «والفضية؟».

- «قام بورك ومامي بعمل ما من أجل الاحتفاظ بالأواني الفضية - وضعاها في البئر - ولكنني لا أذكر كل شيء الآن». كان يتكلم بصوت نزق، ثم أردف: «ثم شنوا المعركة من هنا - من تارا - فعلا الضجيج وراح الجنود يصعدون خبباً ويضربون الأرض بأرجلهم، ثم سمعنا زئير المدافع تقصف جونسبورو - كانت تقصف كالرعد - حتى

شقيقتاك استطاعتا سماع الدوي، رغم ما هما عليه من مرض، وظلتا ترددان: «بابا أسكت الدوي»».

- «و - وأمي؟ هل عرفت أن الشماليين كانوا في البيت؟».

- «إنها - لم تعرف شيئاً البتّة».

- «شكراً للّه» قالت سكارلت، لقد سلمت أمها من ذلك الشين. لم تدرِ أبداً ولم تسمع مطلقاً بوجود الشماليين في غرف الطابق السفلي، لم تسمع دوي المدافع في جونسبورو، ولم تعلم أن الأرض التي كانت جزءاً من قلبها أصبحت تحت أقدام الشماليين.

- «ولقد رأيت القليل منهم، لأني أقمت في الطابق العلوي مع شقيقتيك وأمك. رأيت الجرّاح الشاب أكثر من غيره، كان لطيفاً جداً يا سكارلت، فبعد أن كان يعمل طوال النهار مع الجرحى، كان يأتي ويجلس معهن، حتى لقد ترك بعض الأدوية. وعندما غادرونا أخبرني أن شقيقتيك ستشفيان، ولكن أمك - كانت هزيلة جداً، هكذا قال، هزيلة جداً بحيث لن تستطيع مقاومة المرض. لقد قال إنها أنهكت قواها...».

ورأت سكارلت أمها في الظلام المخيم، رأتها كما لا بد أن تكون في تلك الأيام الأخيرة، برجاً نحيلاً من القوة، منتصباً في تارا، يمرض ويشتغل ويعمل بلا نوم ولا طعام، كيما يرتاح الآخرون ويأكلون.

- «ومن ثم تابعوا زحفهم، ثم تابعوا زحفهم...».

وصمت فترة طويلة، وراح يعبث بيدها:

- «إني مسرور لأنك في البيت» قال بسذاجة.

وعلا صوت مسح نعال من الشرفة الأمامية... مسكين... إنه بورك... لقد اعتاد طوال أربعين سنة على أن ينظف حذائيه قبل ولوج البيت، وها هو لم ينسَ واجبه حتى في مثل هذا الوقت. ثم دخل

يحمل قلتين باحتراس، وقد سبقته إلى داخل الغرفة الرائحة القوية المنبعثة من الخمر المتقطر.

- «إنني أهرقت خمراً كثيراً يا آنسة سكارلت، فمن العسير جداً أن يسكب الخمر في قرعة[1] من ثقب سداد».

- «لا بأس يا بورك. شكراً لك».

وأخذت منه كيلة القرعة المبللة، فتجعد منخراها باشمئزاز عندما عبق بخار الشراب.

- «اشرب هذا يا أبي» قالت ذلك ودفعت بقدح الويسكي القريب في يده، ثم تناولت من يد بورك القرعة الثانية المملوءة بالماء.

ورفع جيرالد القدح، مطيعاً أمر ابنته كصبي صغير، وارتشف الويسكي بصوت مسموع، وعندما ناولته سكارلت قرعة الماء اكتفى بأن هز رأسه ممتنعاً.

ولكنها، وهي تأخذ الويسكي من يده وترفعه إلى فمها رأت عينيه تتبعانها باستنكار غامض.

- «لا أعرف سيدة تشرب الكحول الروحية» قال باقتضاب.

- «ولكنني لست سيدة اليوم، يا بابا، ويوجد عمل ينبغي عليَّ إنجازه هذه الليلة».

ورفعت القدح، وسحبت نفساً عميقاً، وارتشفت الويسكي بسرعة. وانحدر السائل الحار حارقاً بلعومها، انحدر إلى معدتها وجعلها تغص، وجعل عينيها تغرورقان بالدموع، ثم سحبت نفساً آخر، ورفعت القدح ثانية.

- «كيتي سكارلت» قال جيرالد وصوته يحمل أول نبرة متسلطة

---

(1) كانوا يتخذون من القرع المجفف أحياناً آنية يشربون بها ويأكلون - (المترجمان).

سمعتها منذ عودتها، «حسبك ما شربت، إنك لا تعرفين تأثير الكحول، إنها ستسكرك».

- «تسكرني؟» وضحكت ضحكة نكراء. «تسكرني؟ إني أرجو أن تسكرني، إني أود أن أسكر وأنسى كل هذا الذي يكتنفني».

واحتست جرعة ثانية، وسرى في عروقها تيار من الدفء، تسلل إلى أنحاء جسدها، حتى أحست بأصابعها تتخدر... أي إحساس مبارك... هذه النار الرحيمة كأنها ستخترق حتى قلبها المتجلد المغلق، وعادت القوة تجري في جسدها. وعندما رأت وجه أبيها المستاء الحائر، ربتت على ركبته مرة ثانية، وتصنّعت الابتسامة الوقحة التي اعتاد محبتها.

- «كيف تقوى الخمرة على إسكاري يا بابا؟ إني ابنتك، ألم أرث أقوى الرؤوس مقاومة لها في مقاطعة كلايتون؟».

فابتسم تقريباً في وجهها المتعب. وكان الويسكي قد أنعشه هو أيضاً، فناولته القدح ثانية.

- «سترتشف الآن جرعة أخرى، ومن ثم سأصعد معك إلى الطابق العلوي وأضعك في السرير».

وفطنت لنفسها... ماذا! إن هذه هي الطريقة التي تتحدث بها إلى ويد - ينبغي ألّا تخاطب والدها بمثل هذا الأسلوب، إنه أسلوب مهين، بيد أن جيرالد أصغى لكلامها.

- «أجل سأضعك في السرير» أضافت برفق، «وأعطيك جرعة أخرى - ربما ملء القدح، ثم أدعك تذهب للنوم. أنت في حاجة إلى النوم، وما دامت كيتي سكارلت موجودة هنا، فلا حاجة بك إلى التفكير في أي شيء. اشرب».

وشرب ثانية ملبياً طلبها، ثم أنهضته على قدميه، داسة ذراعها تحت ذراعه:

- «بورك...».

حمل بورك القرعة بإحدى يديه، وأمسك بالأخرى ذراع جيرالد، بينما التقطت سكارلت الشمعة المضيئة، ومشى الثلاثة ببطء في القاعة المظلمة ثم صعدوا السلّم المتعرج، قاصدين غرفة جيرالد.

* * *

كانت الغرفة التي تتمدد فيها سولين وكارين وهما تجمجمان وتتقلبان على سرير واحد، تعبق بالرائحة الكريهة المنبعثة من الخرقة الملفوفة المشتعلة في صحيفة مملوءة بدهن الخنزير، والتي هي مصدر الضوء الوحيد في الغرفة. وعندما فتحت سكارلت الباب، كاد جو الغرفة الكثيف يصيبها بالدوار، نظراً إلى أن جميع النوافذ مغلقة والهواء مشبع بروائح غرفة المرضى والدواء والشحم النتن. قد يقول الأطباء إن تيار الهواء الطلق ضار إذا ما دخل غرفة المريض، ولكن إذا كان عليها أن تجلس هنا فلا بد لها من الهواء الطلق أو أن تموت. ولذلك فتحت النوافذ الثلاث، سامحة لرائحة أوراق السنديان والتراب بالدخول، غير أن الهواء النقي لم ينجح إلا قليلاً في طرد الروائح المرضية التي كانت قد تراكمت خلال أسابيع داخل الغرفة.

كانت كارين وسولين النحيلتان الشاحبتان تنامان نوماً متقطعاً وتستيقظان لتغمغما بعيون واسعة تحملق في السرير ذي الأعمدة الأربعة الطويلة حيث كانتا تتهامسان في أيام ماضية، أيام أفضل وأكثر سعادة من هذه. وكان في إحدى زوايا الغرفة سرير شاغر ضيق من طراز (الإمبراطورية الفرنسية) له رأس وقدم لولبيتان، كانت إيلين قد جلبته من سافانا، وكانت تنام عليه قبل وفاتها.

جلست سكارلت إلى جانب شقيقتيها، تحدق بهما كالبلهاء. وكان الويسكي الذي انصبّ في معدة فارغة منذ زمن، قد بدأ يفعل فعله في عينيها، فكانت شقيقتاها تبدوان لعينيها تارة بعيدتين، وصوتاهما

المتقطعان يبلغان مسامعها كطنين الحشرات، وطوراً تبدوان ضخمتين، مندفعتين نحوها بسرعة البرق. لقد كانت تعبة جداً، تعبة حتى العظم، وكان في وسعها التمدد والاستغراق في النوم أياماً وأيام.

آه، لو أنها فقط تستطيع التمدد والنوم، ثم الاستيقاظ وهي تحس يد إيلين تهز ذراعها قائلة: «سكارلت، لقد تأخرت في النوم، يبنغي ألّا تكوني خمولة إلى هذا الحد»، غير أنها لن تستطيع فعل ذلك ثانية. آه لو أن إيلين فقط موجودة، لو أن أي إنسان أكبر وأعقل منها، غير منهوك مثلها، إنسان يستطيع أن تستند إليه، وتضع رأسها في حجره، إنسان تستطيع أن تلقي بأعبائها على كتفيه!

وفتح الباب بسرعة، ودخلت دلسي تحمل طفل ميلاني على صدرها وقرعة الويسكي في يدها، فبدت في الضوء الحائر المدخن أنحف مما كانت عليه في آخر مرة رأتها سكارلت، وبدا الدم الهندي أوضح في وجهها، وعظام الوجنتين المرتفعة أكثر بروزاً، والأنف المعقوف أكثر دقة، وبشرتها النحاسية تشع بلون أكثر لمعاناً. وكان ثوبها الخامي الباهت مفتوحاً من الأعلى حتى خصرها، وصدرها البرونزي الكبير بادياً للعيان، وقد حملت عليه طفل ميلاني الذي كان يضغط بفمه المورد الشاحب على حلمة ثديها السوداء، يرتضع الحليب ويشد بقبضتيه الصغيرتين على الثدي الطري كهريرة هانئة في شعر بطن أمها الدافئ.

نهضت سكارلت مترنحة ووضعت يدها على ذراع دلسي.

- «كان جميلاً منك أن تبقي هنا يا دلسي».

- «كيف يسعني الرحيل مع أولئك الزنوج الأنذال يا آنسة سكارلت، وقد أحسن إليَّ والدك إحساناً عظيماً بشرائي وابنتي الصغيرة برسي، وقد كانت أمك رحيمة بي؟».

- «اجلسي يا دلسي كي يستطيع الطفل الرضاع كما ينبغي. وكيف هي الآنسة ميلاني؟».

- «ليس من علة في هذا الطفل سوى أنه جائع، غير أن لديّ من الحليب ما يكفي لتغذية طفل جائع... لا يا سيدة إن الآنسة ميلاني بخير... لن تموت يا آنسة سكارلت. لا تشغلي بالك. لقد رأيت الكثيرات في مثل حالتها من كلا البيض والسود... إنها مرهقة للغاية، خائفة على هذا الطفل... ولكني طمأنتها، وقدمت لها بعض ما تبقى في تلك القرعة، فأغرقت في النوم».

وهكذا استفادت العائلة كلها من ويسكي الذرة! وفكرت سكارلت تفكيراً مخبولاً، في أنه قد يكون من الأفضل إعطاء ويد الصغير جرعة ويسكي إذا كان ذلك سيضع حداً لفواقه - وميلاني لن تموت. وعندما سيعود آشلي إلى البيت - إذا ما قُدِّر له أن يعود... لا! ستفكر في ذلك فيما بعد أيضاً... يوجد الكثير من الأشياء للتفكير فيها - فيما بعد! أمور كثيرة جداً تنتظر الحل - تنتظر البتّ بها. لو أنها فقط تستطيع تأجيل ساعة الحساب إلى الأبد! وأجفلت فجأة، عندما شق سكون الهواء الخارجي صوت رتيب على إيقاع واحد: كربونك - كربونك - كربونك.

- «تلك هي مامي تنتشل الماء من البئر لتمسح به جسدَي الآنستين. إنها في حاجة إلى - مسح دائم» أوضحت دلسي، مسندة القرعة على المنضدة بين قوارير الأدوية وإحدى الكؤوس.

وضحكت سكارلت فجأة... لا مناص من أن تتحطم أعصابها ما دام أن صوت دولاب البئر استطاع إفزاعها... الصوت الكامن في ذكرياتها الأولى... وعندما ضحكت نظرت دلسي إليها نظرة ثابتة ووجهها في وقاره، إلا أن سكارلت شعرت أن الزنجية أدركت ما يدور في خلدها، فتراخت في كرسيها. لو أنها فقط تستطيع الخلاص من

مشدها الضاغط، من طوقها الذي يخنقها، من خفَّيها اللذين ما فتئا مليئين بالرمل والحصى الذي يدمي قدميها.

وراح دولاب البئر يصر بطيئاً بينما كان الحبل يلتف عليه، وكانت كل صرة تدني الدلو من القمة، وسرعان ما ستكون مامي بجانبها - مامي، مربية إيلين، مربيتها هي، وجلست صامتة ورأيها لم يستقر على شيء، بينما شرع الطفل الذي أضحى الآن متخماً بالحليب، يبكي لفقدانه الحلمة الودودة، الأمر الذي دفع دلسي الصامتة هي أيضاً إلى أن توجه فم الرضيع نحو الحلمة ثانية، لتسكته على ذراعيها، بينما كانت سكارلت ترهف السمع لوقع أقدام مامي البطيئة عبر الساحة الخلفية، ما أشد سكون هواء الليل! إن أخف الأصوات تزأر مدوية في أذنيها.

وبدا كأن القاعة العليا تهتز بينما كان جسد مامي الثقيل يتجه نحو الباب. ثم دخلت مامي الغرفة... بكتفيها المنحنيتين من حمل دلوين خشبيين ثقيلين، بوجهها الأسود الحنون، يغمره حزن كالحزن الغامض الذي يغمر وجه قرد.

وأضاءت عيناها عند رؤية سكارلت، ولمعت أسنانها البيضاء وهي تُنزل الدلوين، وهرعت سكارلت نحوها، وأسندت رأسها إلى الصدر العريض المترهل، الصدر الذي أسند رؤوساً كثيرة، سوداء وبيضاء. هنا يوجد شيء من الطمأنينة، من الاستقرار، هجست سكارلت، شيء من الحياة القديمة التي لم تكن تتبدل، بيد أن كلمات مامي الأولى أزالت هذا الوهم من نفسها:

- «لقد عادت ابنة مامي إلى البيت! آه يا آنسة سكارلت، الآن وقد رقدت إيلين تحت التراب، ماذا سنفعل؟ آه، يا آنسة سكارلت، ليتني أرقد إلى جانبها! فأنا لا أستطيع العمل من دونها... لم يبقَ شيء الآن

سوى البؤس والشقاء فقط. . . أعباء ثقيلة يا حلوتي، فقط أعباء ثقيلة».

وبينما سكارلت متكئة، يحتضن صدر مامي رأسها، شدَّت انتباهها كلمتا «أعباء ثقيلة». إنهما الكلمتان اللتان كانتا تدويان في دماغها طوال بعد ظهر ذلك اليوم، بنغم مطرد أسقم نفسها. وتذكرت الآن بقية الأغنية، تذكرتها بقلب غائر:

«أيام قليلة فقط بقيت، نحمل خلالها العبء الثقيل!
لا بأس، فلن يخفّ هذا العبء أبداً! -
أيام قليلة فقط حتى نسقط في الطريق. . .».

* * *

«لا بأس، فلن يخف هذا العبء أبداً» - واستوعبت الكلمات في عقلها المتعب. ألن يخف عبئها أبداً؟ ألا يعني القدوم إلى تارا نهاية العبء المباركة، أم أنه يعني فقط حمل أعباء أخرى؟ وأفلتت من ذراعي مامي، واستقامت مربتة على الوجه الأسود المغضن.

- «حلوتي، يداك!» وأخذت مامي يديها الصغيرتين المتنفطتين المقرحتين الداميتين وتأملتها باستنكار مريع: «آنسة سكارلت، لقد أخبرتك وأخبرتك أن في وسعك دائماً معرفة السيدة من يديها - ووجهك قد لوَّحته الشمس أيضاً».

يا لمامي المسكينة، إنها ما زالت متزمِّتة بمثل هذه الأمور التافهة، مع أن الحرب والموت قد مرّا الآن فوق رأسها! وستقول بعد لحظة إن الآنسات ذوات الأيدي المقرحة والوجوه الكلفة لا يحرزن أزواجاً في معظم الأحيان. . . ولكن سكارلت استبقت هذه الملاحظة.

- «مامي، أريدك أن تخبريني عن أمي، فليس في وسعي سماع بابا يتحدث عنها».

اغرورقت عينا مامي بالدموع وهي تنحني لتلتقط الدلوين، ثم

حملتهما في صمت إلى جانب السرير، وطوت الشرشف وجرَّدت سولين وكارين من ثيابهما الليلية. وبينما كانت سكارلت ترنو إلى شقيقتيها في الضوء المرتعش الباهت، رأت أن كارين كانت ترتدي ثوب نوم نظيفاً ولكنه خرق بالية، بينما اضطجعت سولين متسربلة بثوب بنّي عتيق فضفاض، حلة من الكتان البني مثقلة بأهداب موصولة من الدنتلة الإيرلندية. وطفقت مامي تبكي بكاء صامتاً وهي تمسح الجسدين النحيلين من ميدع قديم عوضاً عن قطعة قماش:

- «آنسة سكارلت، إن آل سلاتري الحقيرين المشردين، آل سلاتري البيض الفقراء المنحطين، هم الذين قتلوا الآنسة إيلين. لقد أخبرتها وأخبرتها أن لا فائدة من الإحسان إلى الناس الأنذال، ولكن الآنسة إيلين كانت حازمة جداً في أعمالها، رحيمة القلب كثيراً، بحيث إنها لم تكن ترفض نداء محتاج إليها».

- «آل سلاتري!» سألت سكارلت مروعة، «كيف دخلوا هنا؟».

- «كانوا مرضى بهذا المرض ذاته» وأومأت مامي بخرقتها إلى الفتاتين العاريتين منقطة الماء على شرشفهما الرطب. «إن إيمي، ابنة السيدة سلاتري العجوز، أصيبت به، ثم أقبلت السيدة سلاتري على الفور تستدعي السيدة إيلين، شأنها دائماً كلما حدث مكروه. لماذا لا تمرّض هي ابنتها! إن الآنسة إيلين كانت تحمل من الأعباء أكثر مما تستطيع في أي حال من الأحوال، ولكنها مع ذلك ذهبت إليهم ومرّضت إيمي. ولم تكن الآنسة إيلين نفسها في صحة جيدة أبداً يا آنسة سكارلت. إن أمك لم تكن تنعم بصحة جيدة منذ مدة طويلة، ولم تكن توجد مؤونة وافرة من المواد الغذائية في المنطقة حولنا، نظراً إلى أن دائرة التموين تنهب كل ما ننتجه. وعلى كل حال، فالسيدة إيلين تأكل كالعصفور. ولقد أخبرتها وأخبرتها أن تدع البيض الأنذال وشأنهم، ولكنها لم تعرني انتباهاً. ومهما كان الأمر، فقد أصيبت

الآنسة كارين بالداء في نحو الوقت الذي بدأت فيه إيمي بالتحسن. نعم يا سيدتي، لقد اجتازت ذبابة التيفوئيد الطريق وحطت على الآنسة كارين، ثم أصيبت الآنسة سولين. وهكذا أخذت السيدة إيلين على عاتقها تمريضهما أيضاً.

وبسبب القتال الدائر في أعلى الطريق ووجود الجنود الشماليين عبر النهر، ولأننا لم نكن نعرف الذي سيحدث لنا، ولفرار العمال الزراعيين في كل ليلة، لهذا كله كدت أجن، ولكن السيدة إيلين احتفظت بهدوئها ورباطة جأشها، سوى أنها غدت كالشبح من جرّاء قلقها على الآنستين، وذلك نظراً إلى عجزنا عن الحصول على الأدوية أو على أي شيء آخر. وفي إحدى الليالي، قالت لي، بعد أن كنا قد مسحنا جسدي الفتاتين عشر مرات تقريباً:

«مامي! آه لو في استطاعتي بيع روحي! إذن لبعتها مقابل بعض الثلج، أضعه على رأسي ابنتي». ولم تكن تسمح للسيد جيرالد بالدخول إلى هنا، ولا لروزا ولا لتينا، ولا لأحد سواي، لأني كنت قد أصبت بالتيفوئيد سابقاً. وبعد ذلك أصيبت هي به يا آنسة سكارلت، ولقد أدركت منذ البداية أن لا فائدة ترجى منها».

واستقامت مامي في وقفتها، ثم رفعت ميدعها وجففت دموع عينيها المنهمرة:

- «وغاب وعيها يا آنسة سكارلت، وحتى ذلك الطبيب الشمالي اللطيف لم يستطع عمل شيء من أجلها. لم تعد تميز شيئاً البتّة. قدمت إليها وتحدثت إليها ولكنها لم تعرف حتى مربيتها».

- «هل حدث وذكرت اسمي - أو نادتني؟».

- «لا يا حلوتي - ظنت نفسها مجرد فتاة صغيرة لا تزال كما كانت في سافانا، فلم تدعُ أحداً باسمه -».

وهنا تحركت دلسي وأضجعت الطفل النائم على ركبتيها:

- «أجل يا سيدتي، نادت شخصاً».

- «أغلقي فمك أيتها الزنجية الهندية» والتفتت مامي نحو دلسي بقسوة متوعدة.

- «اصمتي يا مامي. من نادت يا دلسي؟ بابا؟!».

- «لا، ليس والدك. كان ذلك في الليلة التي احترق فيها القطن عندما -».

- «هل احترق القطن؟ أخبريني بسرعة».

- «نعم يا سيدة، احترق كله. دحرجه الجنود خارج الحظيرة، إلى الساحة الخلفية وأخذوا يصيحون «هنا سنشعل أكبر حريق في جورجيا» والتهمته النيران».

نتاج ثلاث سنوات من القطن المخزون! مئة وخمسون ألف دولار ضاعت كلها في شعلة واحدة!

- «وأضاءت النار المكان كما لو كان الوقت نهاراً - وخشينا على البيت أن يحترق أيضاً. وتلألأت الأنوار هنا في هذه الغرفة بحيث كان في وسعك تقريباً التقاط الإبرة عن الأرض. وعندما شع النور من النافذة، ظهر كأن السيدة إيلين استيقظت، ثم جلست معتدلة في سريرها وصاحت بصوت مرتفع مرة بعد مرة «فيليب! فيليب!» ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل، إلا أنه كان اسم إنسان وكانت تناديه».

وقفت مامي كما لو أنها انقلبت إلى هيكل حجري، وقفت ترمق دلسي، ولكن سكارلت أسقطت رأسها بين يديها. فيليب - من هو هذا الإنسان؟ وما كانت علاقته بأمي، حتى إنها ماتت وهي تناديه باسمه؟

* * *

لقد انتهت الطريق الطويلة من أتلانتا إلى تارا، انتهت إلى سور صلد عقيم، الطريق التي كانت ستنتهي بذراعي إيلين. ولن يسع سكارلت بعد اليوم أن تنام كطفلة آمنة تحت سقف والدها، بحماية حب أمها، يكتنفها كما يكتنفها اللحاف. ليس هنا أمان أو ملجأ تستطيع أن تأوي إليه الآن. لن يستطيع انثناء أو انعطاف أن يجنبها هذه النهاية الميتة التي انتهت إليها، فليس من أحد تستطيع أن تضع أعباءها على كتفيه. كان أبوها عجوزاً مصروعاً وكانت شقيقتاها مريضتين، وميلاني هزيلة ضعيفة، والأطفال عاجزين، والزنوج يتطلعون إليها بثقة كثقة الأطفال، يتعلقون بأهدابها مدركين أن ابنة إيلين ستكون الملجأ الذي كانته إيلين دوماً.

ومن خلال النافذة، وفي الضوء الباهت يبعثه القمر الصاعد إلى كبد السماء، امتدت تارا أمام عينيها وقد هجرها الزنوج وأقحلت مزارعها ودُمِّرت مخازن غلالها، امتدت كجسد ينزف دماً تحت ناظريها، كجسدها ينزف الدم بطيئاً... تلك كانت نهاية الطريق: رجل مسن يرتجف وهناً، مرضى، أفواه جائعة، أيد عاجزة تتمسك بأهدابها... لم يكن يوجد شيء في نهاية تلك الطريق - أي شيء، سوى سكارلت أوهارا هاملتون، أرملة في التاسعة عشرة من عمرها مع طفل صغير.

ماذا ستفعل بكل هذا! إن في وسع العمة بيتي وآل بور في ميكون احتضان ميلاني وطفلها، وإذا ما شفيت الفتاتان فستأخذهما عائلة إيلين في سافانا، سواء رغبت في ذلك أم لم ترغب، أما هي وجيرالد، ففي إمكانهما الالتجاء إلى العمَّين جويس وآندرو.

ونظرت إلى الهيكلين النحيلين يتقلبان أمامها، وقد بدت الشراشف حولهما قاتمة رطبة بفعل الماء المنقط عليها. إنها لم تحب سولين، وإنها لترى ذلك واضحاً أمامها الآن بشكل مفاجئ، إنها لم تحبها أبداً

في حياتها، وهي لم تحب كارين بصورة خاصة - فليس في وسعها محبة أي إنسان ضعيف. ولكنهما من دمها، جزء من تارا، لا، ليس في وسعها تركهما تقضيان بقية حياتهما في بيتي خالتيهما كالأقرباء الفقراء. أيكون أوهاري قريباً فقيراً يعيش على خبز الإحسان والذل! لا! أبداً، إن هذا لن يكون.

أليس من مهرب من هذه النهاية الميتة؟! وتحرك دماغها المتعب ببطء شديد، ورفعت يدها إلى رأسها بتوان بالغ، كما لو كان الهواء ماء تغالبه يداها. وتناولت القرعة من بين الكأس والقارورة، ونظرت داخلها. كان يوجد بعض الويسكي في القعر، ولكن لم يكن في وسعها تبيُّن مقداره بسبب الضوء المرتعش. واستغربت كيف أن الرائحة القوية لم تؤذ منخريها الآن. وشربت ببطء، ولكن السائل لم يشتعل هذه المرة، وإنما تبع ذلك دفء خفيف وحسب.

وضعت سكارلت القرعة الفارغة، ثم تطلعت حولها، وبدا كأن كل ما حولها كان حلماً، فهذه الغرفة المعتمة المليئة بالدخان، وهاتان الفتاتان النحيلتان، ومامي العديمة الهيئة، الجالسة القرفصاء بجانب السرير، ودلسي الهيكل البرونزي الساكن وعلى صدرها الأسود الطفل الصغير المورد النائم - كل هذا كان حلماً ستستيقظ منه لتشم رائحة لحم الخنزير المشوي تنبعث من المطبخ، ولتسمع ضحك الزنوج الحاد، وصرير العربات وهي تسير نحو الحقل، ولتحس يد إيلين الملحة الرقيقة توقظها.

ثم اكتشفت أنها كانت في غرفتها، وعلى سريرها، وضوء القمر الباهت تشق خيوطه الظلام، بينما راحت مامي ودلسي تنزعان ثيابها، ولم يعد المشد المضني يؤلم خصرها، واستطاعت التنفس بعمق وهدوء حتى قرار رئتيها، وحتى أسفل بطنها. وأحست بجوربيها ينزعان برفق عن ساقيها، وسمعت مامي تدمدم أصواتاً مبهمة مواسية، وهي تغسل

قدميها المتنفطتين. ما أبرد الماء! وما ألذ أن يستلقي المرء هنا متنعماً كالطفل! وتنهدت واسترخت، وبعد فترة قد تكون سنة، وقد تكون دقيقة، تركت وحدها، بينما زاد تألق الغرفة عندما انسابت أشعة القمر عبر السرير.

ولم تعرف أنها مخمورة، مخمورة بالإعياء والويسكي، وإنما عرفت فقط أنها تركت جسدها المضني، وطفقت فوقه في مكان ما حيث لا ألم ولا ضنى، وحيث غدا دماغها يرى الأشياء بوضوح لا عهد للبشر به.

لقد غدت ترى الأشياء بعينين جديدتين لأنها في مكان ما على الطريق الطويلة المؤدية إلى تارا، قد تركت فتوّتها خلفها، ولم تعد بعد طيناً لدناً، يستسلم طواعية أمام كل تجربة جديدة. لقد تصلّب الطين في ساعة من ساعات هذا اليوم اللانهائي الذي دام ألف سنة. وإن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة التي ستدلل بها كطفلة. لقد أضحت امرأة الآن، أما الشباب فقد ولى.

لا، إنها لا تستطيع، ولا توافق على أن تلتجئ إلى عائلة جيرالد، أو عائلة إيلين، فآل أوهارا لم يتقبلوا الصدقات يوماً. إنهم يهتمون بأنفسهم. إن أعباءها لها والأعباء تُلقى عادة على الأكتاف التي تقوى على حملها. وفكرت من دون دهشة، وهي تنظر من علٍ، أن كتفيها تقويان على تحمّل أي عبء الآن، بعد أن حملتا أسوأ ما يمكن أن يقع لها. لا، لن تستطيع هجر تارا. إنها تنتمي إلى الفدادين الحمراء أكثر جداً مما يمكن للفدادين الحمراء أن تنتمي إليها. إن جذورها تنزل عميقاً في التربة الحمراء بلون الدم، وتمتص الحياة منها، كما يفعل القطن. ستقيم في تارا وستحافظ عليها. وكيفما كان الأمر، ستحافظ على والدها وشقيقتيها وميلاني وطفل آشلي، والزنوج. غداً! آه، غداً سوف تُحكم النير على عنقها، غداً سيكون هناك أعمال كثيرة لتعمل.

ستذهب إلى تولف أوكس، وإلى منزل آل ماكنتوش وترى إذا كان قد ترك شيء في الحدائق المهجورة. ستذهب إلى أهوار النهر، وتطرقها بحثاً عن خنازير شاردة أو دجاج ضال. ستذهب إلى جونسبورو ولافجوي بمجوهرات إيلين - فلا بد من وجود أحد باقٍ هناك يبيع شيئاً للأكل. غداً - غداً - وأخذ عقلها يدق بطيئاً... بطيئاً كساعة دقاقة، بيد أن صفاء الرؤيا استمر أمام مخيلتها.

وفجأة، بدت حكايات العائلة التي رويت مراراً، والتي كانت تستمع إليها منذ الطفولة بشيء من الضيق ونفاد صبر، ولكن بفهم جزئي، بدت تلك الحكايات جلية كالبلور. كيف أن جيرالد المعدم أنشأ تارا، وكيف أن إيلين تسامت على بعض الأحزان الغامضة، وأن الجد روبيلارد الذي امتدت حياته إلى ما بعد سقوط عرش نابليون، أقام ثرواته مجدداً على ساحل جورجيا الخصيب، وأن الجد الأكبر برودهوم قد نحت لنفسه مملكة صغيرة من الأدغال المظلمة في هايتي، ثم فقدها وعاش ليرى اسمه مكرماً في سافانا.

ثم كان هنالك آل سكارلت الذين حاربوا مع المتطوعين الإيرلنديين من أجل حرية إيرلندا، وأعدموا بسبب نضالهم الشاق، ثم الأوهاريون الذين ماتوا في معركة بوين، بعد أن قاتلوا حتى الرمق الأخير من أجل الحفاظ على أملاكهم.

لقد قاسى الجميع نوائب ساحقة، ولم يُسحقوا... لم يُسحقوا بانهيار الإمبراطوريات، ولا بخناجر العبيد الثائرين، ولا بالحرب أو التمرد أو النفي أو مصادرة الأملاك. قد يكون القدر المشؤوم كسر رقابهم ولكنه لم يكسر قلوبهم أبداً... إنهم لم يندبوا حظهم، وإنما قاتلوا، وعندما ماتوا، ماتوا مستنزفي القوى، ولكن دون أن تخمد أرواحهم. إن جميع هؤلاء الناس المبهمين الذين تجري دماؤهم في عروقها، تراءوا كأنهم يمشون في الغرفة بهدوء، الغرفة المضاءة بنور

القمر، ولم تدهش سكارلت لرؤيتهم، رؤية هؤلاء الأقرباء الذين نالوا أسوأ ما يستطيع القدر سوقه، فصاغوه وصنعوا منه أفضل ما يمكن صنعه. وقد كانت تارا نصيبها، معركتها، ويجب أن تربحها.

واستدارت على جانبها، تكتنف عقلها ظلمة زاحفة بطيئة. أكانوا حقاً هناك، يهمسون في أذنها عبارات التشجيع غير الملفوظة! أو أن هذا كان جزءاً من حلمها! «أكنتم هناك أم لا» دمدمت والنوم ملء جفونها، «عموا مساء وشكراً لكم».

25

في الصباح التالي أحست سكارلت بجسدها متصلباً متألماً من جرّاء المشي والترنح في العربة مسافة الأميال الطويلة، حتى إن كل لحظة كانت كأنها سكرة من سكرات الموت بالنسبة إليها. كان وجهها قرمزي اللون قد لوَّحته الشمس، وكانت راحتاها المنفطتان مقرَّحتين وكان لسانها أبيض وحلقها جافاً محترقاً كأن اللهيب لفحه ولن تستطيع أي كمية من الماء نقع غليله. وأحست برأسها متورماً، وتألمت حتى وهي تدير عينيها. ولم تستطع احتمال حتى رائحة البطاطا المشوية الموضوعة على مائدة الفطور نظراً إلى تقززها الناجم عن فساد معدتها، الأمر الذي ذكّرها بأيام الحمل. وكان في وسع جيرالد أن يخبرها أنها كانت تعاني الأثر الطبيعي لأولى تجاربها في تعاطي الشراب المسكر، ولكنه لم يلحظ شيئاً. لقد كان يجلس على رأس المائدة، مجرد رجل مسن شائب الشعر، بعينين ذاويتين شاردتين مسمّرتين على الباب، وبرأس شامخ قليلاً، ينتظر سماع حفيف تنورة إيلين وشم رائحة ليمون حقيبتها.

وعندما جلست سكارلت إلى المائدة سمعته يغمغم: «سننتظر السيدة أوهارا، لقد تأخرت». وعندئذ رفعت رأساً مصدوعاً، ونظرت إليه مجفلة غير مصدقة، والتقت عيناها بعيني مامي المتوسلتين، وكانت هذه تقف خلف كرسيه. ثم نهضت سكارلت بتثاقل، ويدها على

بلعومها، ونظرت إلى والدها في ضياء شمس الصباح، وتطلّع هو إليها، فرأت أن يديه ترتجفان وأن رأسه يرتعش قليلاً.

ولم تكن قد تبيَّنت حتى هذه الدقيقة إلى أي مدى كانت قد عولت على جيرالد في إدارة الأمور، وفي إبلاغه إياها ما ينبغي عمله، وها هو الآن - عجباً، لقد بدا في الليلة الماضية طبيعياً تقريباً. نعم، لم يكن به شيء من العنجهية والحيوية ولكنه على الأقل، أخبرها قصة محبوكة... أما الآن - الآن، فإنه لا يتذكر حتى إن إيلين ميتة... لقد أذهلته الصدمة المضاعفة الناجمة عن قدوم الشماليين وموت زوجته. وبدأت سكارلت بالكلام، ولكن مامي هزت رأسها بعنف رافعة ميدعها إلى أعلى وماسحة عينيها الحمراوين به.

«آه، أيمكن أن يكون بابا فقد عقله؟» هجست سكارلت وهي تشعر أن رأسها الدائخ يكاد يتصدع بوطأة هذا العبء الجديد... «لا، لا، إنه فقط زائغ شارد اللب بفعل كل الذي حدث. إن الأمر يبدو كما لو أن بابا مريض... سيجتاز الأزمة... بل ينبغي أن يجتازها... وماذا سأعمل إن هو لم يجتزها؟ لن أفكر في ذلك الآن. لن أفكر فيه الآن أو في أمي أو في أي من هذه الأمور المريعة! لا، لا... إلى أن أستطيع احتمالها... إن هناك أموراً كثيرة جداً لأفكر فيها الآن - أموراً يمكن معالجتها دون أن أفكر في تلك التي لا أستطيع احتمالها».

وغادرت غرفة الطعام دون أن تأكل شيئاً، وخرجت إلى الشرفة الخلفية، وهناك وجدت بورك حافي القدمين، يرتدي البقايا الرثة لأحسن بذلة عنده. كان يجلس على الدرجات وهو يقشر الفول السوداني. أما رأسها فكان يطرق وينبض، وأشعة الشمس المتلألئة تطعن بعينيها. لقد كان مجرد الاحتفاظ بجسدها منتصباً يتطلب مجهوداً ثابتاً، ولذلك خاطبت بورك وبأوجز عبارة ممكنة، مستغنية عن أساليب المجاملة التي كانت إيلين تعلمها إياها دائماً لتستعملها مع الزنوج.

طفقت تسأل أسئلة فظة جداً، وتصدر أوامر نهائية مبرمة، حتى إن بورك رفع حاجبيه حائراً. . . فالسيدة إيلين لم تتكلم يوماً مع أي إنسان بمثل هذا الإيجاز المقتضب، حتى ولا عندما كانت تقبض عليهم يسرقون الفراخ والبطيخ. وها هي سكارلت تسأل مرة ثانية عن الحقول والجنائن والمواشي، وعيناها تتألقان ببريق حاد لم يره بورك فيهما قبلاً.

- «أجل يا سيدتي، لقد مات ذلك الحصان. هو ذا متمدد هناك حيث ربطته، وقد تدلى أنفه في دلو الماء الذي قلبه بنفسه. لا يا سيدتي، لم تمت البقرة، ألم تعرفي بذلك؟ لقد ولدت عجلاً في الليلة الماضية، وكان ذلك سبب خوارها المستمر».

- «ستغدو ابنتك برسي قابلة ماهرة» علّقت سكارلت بتهكم لاذع، «لقد قالت إن خوار البقرة كان بسبب حاجتها إلى الحلب».

- «حسناً، إن برسي لا تريد أن تصبح قابلة أبقار يا آنسة سكارلت» أجاب بورك بلباقة، «وليس من فائدة ترجى من التكبُّر في قبول النعم، فذلك العجل سيعني بقرة تامة وكمية وافرة من القشدة للآنستين، المادة التي قال الطبيب الشمالي إنهما في حاجة إليها».

- «حسناً. . . استمر في حديثك، أي حيوانات بقيت لنا؟».

- «لا، لا شيء سوى خنزيرة هرمة وخنانيصها، كنت قد سقتها جميعاً إلى الهور يوم وصول الشماليين، ولكن اللّه وحده يعرف كيف نستطيع الحصول عليها الآن، فتلك الخنزيرة شرسة».

- «سنحصل عليها فوراً، في وسعك أن تنطلق وبرسي حالاً وتصيداها».

فانذهل بورك ساخطاً.

- «آنسة سكارلت، تلك مهمة عامل الحقل، ولقد كنت دائماً زنجياً بيتياً».

فبدا كأن شيطاناً صغيراً يحمل ملقطاً حاراً انتصب خلف بؤبؤ عين سكارلت:

- «كلاكما ستقبضان على الخنزيرة - أو اخرجا من هنا كما خرج عمال الحقل».

فاغروقت عينا بورك المكلومتان بالدموع... آه، حسناً لو كانت الآنسة إيلين موجودة! إنها تدرك مثل هذه الأمور الدقيقة، وتدرك الهوة الواسعة بين واجبات عامل الحقل وواجبات زنجي البيت.

- «أخرج، يا آنسة سكارلت؟ إلى أين أخرج يا آنسة سكارلت؟».

- «لا أعرف، ولا أبالي، غير أن كل إنسان في تارا لا يريد أن يعمل، في وسعه الذهاب ليلحق بالشماليين... وفي إمكانك إبلاغ هذا الكلام للآخرين».

- «سمعاً وطاعة».

- «والآن، ماذا عن الذرة والقطن يا بورك؟».

- «الذرة؟ يا للّه يا آنسة سكارلت، لقد رعوا خيولهم في حقول الذرة، ثم حملوا معهم ما لم تستطع خيولهم أكله أو إتلافه، كما أنهم ساقوا مدافعهم وعرباتهم فوق شجيرات القطن حتى تلف جميعه، سوى فدادين قليلة هناك في أسفل الوادي، لم يلحظوها. بيد أن ذلك القطن لا يستحق التعب في سبيله، لأنه لا يزيد على ثلاث بالات».

ثلاث بالات. وفكرت سكارلت في عشرات البالات التي كانت تنتجها تارا عادة، وازداد رأسها تصدعاً... ثلاث بالات، أي أكثر بقليل مما ينتجه آل سلاتري العديمو الحيلة. وفي سبيل أن تتفاقم الأمور سوءاً، كانت هناك مشكلة الضرائب. لن تكفي حتى لتسديد الضرائب، مع أن القضية لم تعد ذات بال بالنسبة إليها أو إلى الحلف، نظراً إلى أن جميع عمال الحقل قد فروا، وليس من يقطف القطن الآن.

«على كل حال، لن أفكر في ذلك الأمر أيضاً» حدّثت نفسها، فالضرائب ليست من شؤون المرأة بحال من الأحوال، ومن واجب بابا الاهتمام بأمور كهذه... ولكن بابا - لن أفكر في بابا الآن... وليصنع الحلف ما يشاء من أجل ضرائبه. إن ما نحتاج إليه الآن هو القوت.

- «بورك! هل ذهب أحدكم إلى تولف أوكس أو إلى مزرعة آل ماكنتوش ليرى ما إذا كان بقي شيء فيها؟».

- «لا يا سيدة، نحن لم نغادر تارا، وإلا قبض الشماليون علينا».

- «سأرسل دلسي إلى مزرعة آل ماكنتوش، لعلها تجد شيئاً هناك، وسأذهب أنا إلى تولف أوكس».

- «برفقة من أيتها الفتاة؟».

- «وحدي. ينبغي بقاء مامي إلى جانب الفتاتين المريضتين، ولن يستطيع السيد جيرالد -».

أطلق بورك صيحة عالية أثارت سخط سكارلت... قد يكون هناك شماليون أو زنوج أوغاد في تولف أوكس... فينبغي ألّا تذهب وحدها.

- «يكفي يا بورك، أخبر دلسي أن تنطلق فوراً واذهب أنت وبرسي واجلبا الخنزيرة وخنانيصها» قالت باقتضاب واستدارت على كعبيها.

كانت قبعة مامي الصيفية، الباهتة النظيفة، معلقة على المشجب في الشرفة الخلفية، فوضعتها سكارلت على رأسها، وتذكرت، كما لو كانت الذكرى من عالم آخر، القبعة ذات الريشة الخضراء المتدلية، التي جلبها لها ريت من باريس، ثم التقطت سلة سنديان كبيرة ونزلت الدرجات الخلفية ورأسها ينط فوق كل درجة، حتى أحست أن سلسلتها الفقرية تحاول أن تنفذ من أعالي جمجمتها.

كانت الطريق المنحدرة إلى النهر، تمتد حمراء لافحة بين حقول القطن التي عيث بها فساداً، ولم يكن هناك أشجار مظللة، فراحت

الشمس تخترق قبعة مامي التي غدت كأنها مصنوعة من الترلتان[1]، بدلاً من الخام المضرب الثقيل، بينما كان الغبار المتطاير إلى أعلى يتسرب داخل منخريها وبلعومها حتى شعرت أن الأغشية المخاطية ستتشقق من الجفاف إن هي تكلمت. كانت الطريق مليئة بالأثلام والحُفر العميقة حيث جرَّت الخيول المدافع الثقيلة فوقها، وكانت الأخاديد الحمراء على كلا الجانبين قد عمقتها الدواليب، وكان القطن مدوساً ممزقاً، حيث زحف المشاة والفرسان خلال شجيرات القطن الخضراء، في الطريق الضيقة التي شقتها لهم المدفعية، فانسحقت النباتات والتصقت بالأرض. وقد تناثرت هنا وهناك، فوق الطريق وفي الحقول، أبازيم ومزق من جلد عدد الخيل ومطرات داستها الحوافر وعربات الذخيرة، كما تناثرت أيضاً أزرار وقبعات زرقاء وجوارب بالية وقطع من خرق دامية، كل المخلفات المتبقية وراء الجيش الزاحف.

وتجاوزت سكارلت أجمة أشجار الأرز وجدار الآجر المنخفض الذي يحدد مقبرة العائلة، وحاولت ألّا تفكر بالقبر الجديد القائم قرب القبور القصيرة الثلاثة لإخوانها الصغار... آه، إيلين - ودبت فوق التلة الغبراء، مارة بكومة الرماد، وبالمدخنة القصيرة الضخمة، حيث كان يقوم منزل آل سلاتري. واجتاحتها رغبة عنيفة لو كانت كل قبيلة آل سلاتري جزءاً من هذا الرماد... آه لولا آل سلاتري - لولا إيمي النتنة تلك، التي ولدت ابناً غير شرعي من ناظر تارا - لما ماتت إيلين.

وأنّت سكارلت عندما خدشت حصاة مدببة الرأس قدمها... ماذا كانت تعمل هنا؟ لماذا كانت سكارلت أوهارا، حسناء المقاطعة وفخر تارا الآمنة، تتعثر فوق هذه الطريق الوعرة، حافية القدمين تقريباً؟ إن قدميها الصغيرتين خُلقتا للرقص لا للعرج، وكذلك خفّاها الأنيقان قد

(1) نوع من الموسلين الهندي المخرم - (المترجمان).

صُنعا ليبدوا بكبرياء من تحت الحرير الزاهي، لا ليجمعا التراب والحصى المدبب الرؤوس. لقد وُلدت لتُدلَّل وتُخدَم... ولكن ها هي هنا الآن مريضة رثة الثياب يسوقها الجوع للبحث عن الطعام في جنائن جيرانها.

كان النهر يجري عند أسفل التلة الطويلة الجانب، وما كان أسكن وأنعش هواء الأشجار المتشابكة فوق مياهه. وتهالكت سكارلت على الضفة المنخفضة، ونزعت بقايا خفَّيها وجوربيها ثم دسَّت قدميها الملتهبتين في الماء البارد... سيكون من الممتع جداً أن تجلس هنا طوال النهار بعيدة عن الأعين العاجزة في تارا... هنا حيث لا يشق السكون سوى حفيف الأوراق وخرير المياه البطيئة... غير أنها عاودت ارتداء جوربيها وحذاءها كارهة، مشت بتعب على الضفة ذات الطحلب الإسفنجي، تحت الأشجار الظليلة. وكان الشماليون قد حرقوا الجسر، ولكنها كانت تعرف جسراً خشبياً يستعمله المشاة، عبر نقطة ضيقة من مجرى النهر على بعد مئة ياردة جنوباً. عبرت هذا الجسر حذرة ثم راحت تدب بقدميها صعوداً على سفح التلة، لتقطع في أشعة الشمس الحارة، نصف الميل الذي يفصلها عن تولف أوكس.

هناك كانت تنتصب السنديانات الاثنتا عشرة شامخة كالأبراج كما انتصبت منذ أيام الهنود، ولكنها الآن تنتصب بأوراقها التي قتمتها النيران وأغصانها الملفوحة المحترقة، وضمن دائرتها يتراكم حطام منزل جون ويلكس... البقايا المتفحمة لذلك البيت الفخم فيما مضى، الذي كان يتوِّج التلة بوقار يقوم على أعمدة بيضاء. وكانت الحفرة العميقة التي كانت سرداباً في السابق والأسس الحجرية المسودة والمدختنان الضخمتان، كانت جميعها تحدد موقع البيت. وكان أحد الأعمدة الطويلة، المحترق نوعاً ما، قد هوى عبر المرجة، ساحقاً شجيرات الياسمين العالية.

جلست سكارلت على العمود، وقد أمضَّها المنظر، فلم تستطع متابعة السير. واخترقت وحشة المكان قلبها بشكل لم تخبر مثله... هنا ترقد كبرياء آل ويلكس في التراب عند قدميها، هنا كانت نهاية المنزل الكريم الطيب الذي كان يرحّب بها دائماً... المنزل الذي تلهفت في أحلامها العميقة إلى أن تكون سيدته... هنا كانت قد رقصت وأكلت وغازلت، وهنا كانت قد راقبت، بعينين حسودتين وبقلب حقود، ابتسام ميلاني لآشلي... وهنا أيضاً في ظلال الأشجار المعتدلة الهواء، ضغط تشارلز هاملتون على يدها طروباً عندما قالت إنها ستتزوجه.

«آه، آشلي» هجست، «أرجو أن تكون ميتاً! فلن يسعني أبداً احتمال قدومك ومشاهدتك هذا الدمار...».

لقد تزوج آشلي عروسه هنا... ولكن ابنه وحفيده لن يُحضرا عروسيهما إلى هذا المنزل... ولن يحدث أو يتم زواج أولاده تحت هذا السقف الذي أحبته كثيراً وتاقت إلى أن تكون ربته. كان المنزل ميتاً، وتراءى لها كأن جميع الويلكسيين موتى في الرماد.

«لن أفكر في هذا الآن، فأنا لن أستطيع احتمال التفكير فيه... سأفكر فيه فيما بعد» قالت بصوت مرتفع، مشيحة بوجهها بعيداً.

وقصدت الحديقة ومشت تعرج حول الركام إزاء أحواض الورود التي كانت بنات آل ويلكس يحافظن عليها بحماس بالغ، ثم عبرت الساحة الخلفية، ومنها عبر بقايا بناء الطهي، فالأهراء وأقنان الدجاج. وكان حاجز القضبان الحديدية الذي يكتنف حديقة المطبخ قد هدم، كما أن صفوف النباتات الخضراء المنسقة فيما مضى قد عانت المعاملة ذاتها التي عانتها مثيلاتها في تارا. وكانت التربة الطرية محفوفرة بمواطئ الحوافر والعجلات الثقيلة، بينما كانت الخضار مسحوقة في التراب، ولم يكن يوجد شيء تستفيد منه هنا. ورجعت أدراجها عبر

الساحة واتخذت طريقها في الممر المفضي إلى صف الغرف المبيضة الساكنة في الأطراف. وبينما كانت تسير صاحت «هالو!» غير أنها لم تسمع جواباً... حتى ولا نباح كلب... كان من الجلي أن زنوج آل ويلكس قد فروا أو تبعوا الشماليين، وكانت سكارلت تعرف أن كل زنجي كان يملك رقعة صغيرة من الحديقة، فعندما بلغت الغرف أملت أن تكون هذه الرقع الصغيرة المزروعة قد سلمت من الدمار...

وكوفئ بحثها... غير أنها كانت تعبة جداً بحيث لم تشعر بالسرور عند رؤية اللفت والملفوف الذابلين من جرّاء العطش الشديد، المنتصبين بعض الشيء رغم ذلك. وكذلك رأت نبات الفاصوليا المنتشر والفول مصفرَّين لكنهما صالحان للأكل. وجلست بين الأثلام وراحت تحفر التراب بيدين مرتجفتين، وملأت سلَّتها ببطء... ستنعم تارا بوجبة طعام جيدة هذه الليلة، على الرغم من نقص اللحم الذي يُسلق مع الخضار... ربما أمكن استعمال بعض دهن الخنزير الذي تستعمله دلسي للإنارة، كي يدسم الطعام. ينبغي إخبار دلسي أن تستعمل براعم الصنوبر للإنارة في سبيل توفير الدهن للطهي.

وعلى مقربة من العتبة الخلفية لإحدى الغرف، وجدت صفاً صغيراً من الفجل، وفجأة أحست بالجوع ينهش معدتها... إن فجلة حادة لاذعة الطعم هي ما تشتهيه معدتها تماماً، وبالكاد تصبرت حتى مسحت التراب بتنورتها عن الفجلة ثم قضمت نصفها وابتلعتها بسرعة. كانت فجلة قديمة يابسة حادة الطعم كثيراً بحيث اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تكد القطعة المقضومة تبلغ معدتها الفارغة المهتاجة حتى ثارت كوامن هذه واستلقت سكارلت على التراب تتقيأ بعناء.

وزادت الرائحة الخفيفة المنبعثة من غرف الزنوج لعيان نفسها، واستمرت تتقيأ بصورة مزرية، وهي لا تملك القوة على إيقاف هذا القيء، بينما كانت الغرف والأشجار تدور حولها بسرعة.

وبعد فترة طويلة، استلقت متخاذلة على وجهها، التراب تحتها ليِّن مريح كوسادة من ريش، وعقلها يتجه مجهداً هنا وهناك. . . ها هي، سكارلت أوهارا، تضطجع خلف غرفة زنجي في وسط الدمار، وهي مريضة جداً، ضعيفة جداً بحيث لا تقوى على الحركة، ولا يعرف بحالها أحد في الدنيا، بل إن أحداً لن يأبه لها إذا ما علم بأمرها لأن لكل إنسان متاعبه الكثيرة بحيث لن يجزع من أجلها. . . كل هذا كان يحدث لها، فهي، سكارلت أوهارا، التي لم ترفع يوماً يدها حتى لتتناول جوربيها المرميَّين على الأرض، أو لعقد شريطي خفَّيها - سكارلت التي ما كانت لتصاب بصداع خفيف أو يضطرب مزاجها حتى يغالي الجميع في تدليلها والترفيه عنها.

وبينما هي تضطجع منطرحة على الأرض، ضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تطرد الذكريات والمنغصات، اندفعت هذه نحوها بقوة وأحاطت بها إحاطة النسور بفريسة تنتظر الموت، فلم يعد في مقدورها أن تقول: «سأفكر في أمي وبابا وآشلي وكل هذا الدمار فيما بعد، أجل فيما بعد، حين أقوى على احتمال ذلك». لم يكن في وسعها الآن احتمال التفكير في هذه الأمور، ولكنها انساقت إلى التفكير فيها، شاءت ذلك أم أبت. وتحلقت الأفكار حولها، وانقضّت عليها وأنشبت مخالب قاطعة ومناقير حادة في عقلها. . . وهكذا ظلت مستلقية بلا حراك مدة مديدة، وجهها في التراب، والشمس تلفحها بحرارتها الملتهبة، وهي تتذكر الأحداث والناس الذين قضوا، وتتذكر نمطاً من الحياة انقضى إلى الأبد - وتتأمل المرحلة القاسية التي سيحملها المستقبل المظلم.

وعندما نهضت أخيراً، ورأت ثانية حطام تولف أوكس الأسود، شمخ رأسها إلى العلاء، وغاض من وجهها إلى الأبد عنصر الشباب والجمال والرقة الكامنة. إن الذي فات مات، وإن الذين قضوا مضوا،

وإن الرفاهية الرتيبة التي زانت هذه الأيام الحالية قد ذهبت ولن تعود. وبينما هي تركز السلة الثقيلة على ذراعها، كانت قد حزمت أمرها وقررت مصير حياتها.

لم تكن هناك عودة إلى الماضي، وكانت تسير إلى الأمام.

سوف تجد في أنحاء الجنوب خلال الخمسين سنة القادمة، نساء بعيون ملتاعة، يتطلعن إلى الخلف، إلى الأوقات الفانية، إلى الرجال الموتى، يستحضرن الذكريات المؤلمة من دون جدوى، نساء يتحملن بكبرياء مرير لأنهن يملكن تلك الذكريات، غير أن سكارلت لن تتطلع إلى الوراء أبداً.

ورنت إلى الحجارة السوداء، وللمرة الأخيرة رأت تولف أوكس ينتصب أمام ناظريها كما كان في يوم مضى، غنياً فخوراً، رمزاً لجنس وأسلوب حياة. ثم انطلقت فوق الطريق إلى تارا، والسلة الثقيلة تحز في جلدها.

وعض الجوع ثانية معدتها الفارغة. وقالت بصوت مرتفع: «ليكن اللّه شهيدي، ليكن اللّه شهيدي، لن يسحقني الشماليون، سأعيش رغم هذه المحنة، وبعد انكشافها، لن أجوع ثانية. لا، ولا أي من رعاياي، حتى لو اضطررت إلى السرقة أو القتل - ليكن اللّه شهيدي، لن أجوع ثانية».

* * *

في الأيام التي تلت، كان يمكن اعتبار تارا جزيرة كروزو القاحلة، فلقد غدت ساكنة جداً، في عزلة تامة عن بقية الدنيا. ورغم أن الدنيا كانت تقع على بعد أميال قليلة وحسب، فإن ألف ميل من العثرات والحواجز يمكن أن يكون قد امتد بين تارا وجونسبورو وفايتفيل ولافجوي، حتى بين تارا والمزرعة المجاورة. وبموت

الحصان الهرم فقدت العائلة الوسيلة الأخيرة للتنقل، ولم يكن ليوجد الوقت أو القدرة على قطع الأميال الحمراء المنهكة سيراً على الأقدام.

وأحياناً، خلال أيام العمل القاصم للظهر، خلال النضال اليائس من أجل القوت، وأثناء العناية الدائمة المستمرة بالفتيات الثلاث المريضات، كانت سكارت تجد نفسها مرهفة أذنيها إلى سماع أصوات أليفة - ضحك الزنوج في مساكنهم، مدير العربات العائد من الحقول، زئير حصان جيرالد الفحل وهو يعبر المرعى، قرقعة دواليب العربات في الممشى، أصوات الجيران القادمين لقضاء أمسية في الأحاديث، غير أنها كانت تصغي عبثاً. كانت الطريق تمتد ساكنة مهجورة، وليس من سحابة غبار أحمر تعلن عن اقتراب زوار. كانت تارا بمثابة جزيرة في بحر من التلال الخضراء المتموجة والحقول الحمراء.

وفي مكان ما، كانت توجد الدنيا والعائلات التي تأكل وتنام آمنة تحت سقوف بيوتها، في مكان ما كانت الصبايا يرتدين أثوابهن المقلوبة للمرة الثالثة، يغزلن هنيئات ويغنّين «حين تنتهي هذه الحرب الضروس» كما غنّت هي منذ أسابيع قليلة فقط. في مكان ما، كانت توجد حرب ومدفعية تدوي وتحرق المدن والرجال الذين تتآكل أجسادهم في المستشفيات وسط الروائح النتنة الممرضة. في مكان ما، كان يوجد جيش حافي الأقدام في ثياب قذرة محلية الصنع، يزحف ويحارب وينام جائعاً خائر القوى، يتردى بالخذلان الذي ينتاب المرء عندما يفقد الأمل، وفي مكان ما، كانت تلال جورجيا مزرقة بالشماليين، الشماليين الحسني التغذية، الذين يمتطون خيولاً سمينة متخمة بطونها بالذرة.

وراء تارا، كانت الحرب وكانت الدنيا، ولكن الحرب والدنيا لم تكونا موجودتين في تارا إلا كذكريات ينبغي طردها ساعة تهرع إلى العقل في لحظات التعب الشديد. كانت الحياة قد قررت ذاتها في فكرتين متصلتين ببعضهما: القوت وكيفية الحصول عليه. القوت!

القوت! لماذا تحتفظ المعدة بذكرى أطول بقاء من ذكريات العقل؟ لقد كان في وسع سكارلت طرد آلام قلبها الكسير، ولكن لم يكن في وسعها طرد آلام الجوع. وفي كل صباح، وبينما هي تضطجع نصف نائمة، وقبل أن تعيد الذاكرة إلى تفكيرها موضوع الحرب والجوع، كانت تتثنى ناعسة متوقعة شم الروائح الشهية تنبعث من لحم الخنزير المشوي والكعك المخبوز. وكانت كل صباح تتنشق عميقاً جداً لتشم الطعام حقيقة، بحيث كانت توقظ نفسها.

كان يوجد على مائدة تارا تفاح وبطاطا وفول سوداني وحليب، ولكن لم يكن هناك كمية كافية أبداً حتى من هذا القوت الأساسي، وكانت سكارلت كلما رأت هذه الأصناف، تعود بالذاكرة سريعاً إلى الأيام القديمة، إلى وجبات الأيام القديمة، إلى المائدة المضاءة بالشموع، وإلى الطعام الذي كانت رائحته تعبق في الهواء.

ما كان أقل اهتمامهم بالقوت في ذلك الوقت! ما كان أشدهم تبذيراً! كعك، فطائر ذرة، بسكويت، زبدة مائعة، كلها في وجبة واحدة. فخذ خنزير على أحد جانبي الطاولة، ودجاجة محمرة على الجانب الآخر، كرنب يسبح في مرقه الوفير في الوعاء وهو يلمع بالدهن الكثير، مقادير هائلة من القوت في صحاف من الخزف الصيني اللألاء المزهر، يقطين مقلي، بامية مطهية، جزر في صلصة القشدة الكثيفة إلى درجة يمكن معها قطعها، ثم ثلاثة أنواع من الحلوى كي يستطيع كل شخص اختيار ما يشاء: كعك مطلي بطبقة من الشوكولا، كعك مصنوع بالفانيليا المسحوقة البيضاء، تعلوه قشدة حلوة مخفوقة. كانت ذكرى هذه الأطعمة الشهية تستطيع جلب الدموع إلى عينيها، بينما فشل الموت والحرب في إتيان ذلك. كان في وسع هذه الذكرى قلب معدتها الدائمة التعذيب، من حالة الفراغ المصحوب بالقرقعة إلى حالة الغثيان، لأن الشهية التي كانت مامي تندب من أجلها دائماً،

الشهية القوية لفتاة في التاسعة عشرة من عمرها، تضاعفت الآن أربع مرات من جرّاء العمل الخشن الذي لم تكن تعرفه قبلاً.

ولم تكن شهية سكارلت الشهية الوحيدة المتعبة في تارا، فحيثما كانت تلتفت كانت عيناها تقعان على وجوه جائعة، سوداء وبيضاء، وسرعان ما سينتاب الجوع الشره، الذي يلازم فترة النقاهة من التيفوئيد عادة، كلاً من كارين وسولين، بينما كان ويد يعول من قبل «ويد لا يحب البطاطا، ويد جائع».

وكان الآخرون يتذمرون أيضاً:

- «آنسة سكارلت، ما لم أحصل على طعام أكثر، فلن يكون في وسعي إرضاع أي من الطفلين».

- «آنسة سكارلت - آنسة سكارلت... إن لم آكل أكثر فلن أستطيع تكسير الحطب».

- «يا حملي، إنني أذوي نظراً إلى حاجتي إلى غذاء أساسي».

- «يا ابنتي، هل لا بد لنا من تناول البطاطا أبداً؟».

إلا أن ميلاني فقط لم تتذمر، ميلاني التي كان وجهها يزداد هزالاً وشحوباً، وينتفض ألماً حتى في نومها.

- «أنا لست جائعة يا سكارلت، أعطي حصتي من الحليب لدلسي، إنها في حاجة إليه كي تُرضع الطفلين... إن المرضى لا يحسون بالجوع بتاتاً».

هذه البسالة الرقيقة هي التي كانت تثير سكارلت أكثر مما كانت تثيرها أصوات الآخرين المتذمرة النكدة. كان في استطاعتها - وهذا ما فعلته - إسكاتهم بتهكمها اللاذع، ولكنها كانت تقف عاجزة مستاءة أمام إيثار ميلاني. وكان جيرالد والزنوج وويد قد تعلقوا الآن بميلاني، لأنها حتى وهي في ضعفها كانت ودودة رحيمة، بينما لم تكن سكارلت تتحلى بشيء من هذا، في هذه الأيام.

وكان ويد بصورة خاصة يلازم غرفة ميلاني. لقد انتاب الصبي شيء غير عادي، ولكن لم يكن في حوزة سكارلت الوقت الكافي لاكتشاف حقيقة هذا الشيء وركنت إلى قول مامي إن الطفل يعاني من الدود، فجرَّعته مزيجاً من العشب ولحاء الشجر، مزيجاً كانت إيلين تستعمله دوماً في علاج الزنوج. غير أن دواء الديدان هذا جعل الطفل يبدو أكثر شحوباً. وكانت سكارلت هذه الأيام لا تكاد تفكر في ويد كشخص، بل كان في نظرها مجرد عبء آخر، فم آخر ليُطعَم... وفيما بعد عندما تنكشف هذه الغمة، ستلعب وإياه، ستقص عليه الأقاصيص، وتعلّمه الحروف الهجائية، بينما هي الآن لا تملك الوقت ولا الرغبة في ذلك... لقد كانت تزجره في أغلب الأحيان لأنه كان يتعثر دائماً بين قدميها، وهي في منتهى الضيق والإعياء.

وكان يزعجها أن يجلب تأنيبها السريع له مثل هذا الرعب الشديد لعينيه المستديرتين، فقد كان يبدو في غاية البله ساعة يتملكه الرعب. ولم تدرك سكارلت أن الصبي الصغير يعيش جنباً إلى جنب مع فزع هائل أكبر من أن يدرك كنهه شاب يافع. كان الخوف يعيش مع ويد، الخوف الذي يهز روحه، ويجعله يستيقظ في الليل مولولاً. كان كل صوت غير متوقع، وكل كلمة حادة، يجعلانه يرتعد فزعاً، لأن الأصوات والكلمات الحادة، كانت في تفكيره مختلطة بصورة معقدة مع الشماليين الذين كان يخافهم أكثر مما يخاف لسعات برسي.

ولم يكن ويد يعرف شيئاً غير الحياة الهادئة السعيدة المطمئنة، إلى الوقت الذي بدأ فيه قصف مدافع الحصار، وحتى مع أن أمه لم تكن تعيره إلا القليل من الانتباه، لم يَخبَر الصبي شيئاً إلا الدلال والكلمات الحنونة، إلى أن حلت الليلة التي وثب فيها من نومه ليجد السماء ملتهبة والهواء يصم الآذان بالانفجارات. في تلك الليلة وفي اليوم الذي تلا، صفعته أمه للمرة الأولى في حياته، وسمع صوتها يرتفع عليه

بكلمات قاسية. لقد انقرضت الحياة في البيت الآجري السعيد القائم في شارع بيتشتري، الحياة الوحيدة التي عرفها، انقرضت في تلك الليلة، ولم يصحُ الفتى من صدمة فقدها. ولم يسعه فهم شيء أثناء الهرب من أتلانتا سوى أن الشماليين يلحقونه... وها هو لا يزال إلى اليوم يعيش في خوف من أن يقبض عليه الشماليون، ويمزقوه إرباً إرباً. وكلما رفعت سكارلت صوتها لتعنيفه، كان يتخاذل من الرعب لأن مخيلته الفتية الغامضة كانت تذكّره بأهوال المرة الأولى التي عنّفته فيها. وهكذا أضحى الشماليون الآن، مقترنين في تفكيره أبداً، بصوت تعنيفها. ولذلك صار يخاف أمه.

ولم تستطع سكارلت احتمال رؤية ابنها وقد طفق يتجنبها، الأمر الذي كان يمضّها كثيراً كلما فكرت فيه خلال الدقائق النادرة التي كانت تسمح بها واجباتها التي لا نهاية لها. لقد كان ذلك أسوأ من تعلقه بأهدابها طوال الوقت، وكان يغيظها أن يكون ملجأه سرير ميلاني، حيث كان يلهو هادئاً بألعاب تقترحها عليه هذه، أو يصغي إلى قصص تقصها له. وعبد ويد عمّته الناعمة الصوت، المبتسمة دائماً، والتي لم تقل له يوماً: «صه يا ويد! لقد صدعت رأسي» أو «كف عن النكد يا ويد، من أجل اللّه».

لم يكن لدى سكارلت الوقت لتدليله أو الرغبة في ذلك، لكنها كانت تغار عندما ترى ميلاني تفعل ذلك مع ابنها. وفي أحد الأيام عندما ألفته يقف على رأسه فوق سرير ميلاني ثم يسقط عليها، صفعته قائلة:

- «ألا تعرف شيئاً أفضل من أن تهز عمتك هكذا، في الوقت الذي هي فيه مريضة. هيا اخرج الآن إلى الساحة والعب هناك، وإياك أن تدخل هنا ثانية».

إلا أن ميلاني مدّت ذراعاً ضعيفة وجذبت الطفل المولول نحوها.

- «كفى، كفى يا ويد، أنت لم تقصد أن تهزني، أليس كذلك؟ إنه لا يضايقني يا سكارلت، دعيه يمكث معي. دعيني أعتني به، فهذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع عمله إلى أن أشفى، وأنت مرهقة بالعمل من دونه».

- «لا تكوني طفلة يا ميلي» قالت سكارلت باقتضاب، «فأنت لا تتحسنين كما ينبغي، ولن ينفعك وقوع ويد فوق معدتك. اسمع يا ويد، إذا اتفق وألفيتك فوق سرير عمتك مرة ثانية فسأسلخ جلدك. كف عن تنشق مخاطك إنك دائم التنشق، حاول أن تكون رجلاً صغيراً».

فرَّ ويد باكياً ليختبئ تحت البيت، بينما عضت ميلاني شفتها، واغرورقت عيناها بالدموع، أما مامي التي كانت تقف في القاعة، تراقب المشهد، فقد قطبت جبينها وتنفست بصعوبة. ولكن لم يكن أحد يعارض سكارلت في هذه الأيام، بل كانوا جميعاً يخشون لسانها اللاذع، يخشون الإنسان الجديد الذي يمشي في جسدها.

كانت سكارلت الآن تحكم متنفذة في تارا، وكالآخرين الذين يُرفعون فجأة إلى سدة الحكمة، طفت غرائز طبيعتها العاتية إلى السطح. ولم يكن ذلك لأنها عديمة الرحمة أصلاً، بل لأنها كانت خائفة جداً، غير واثقة بنفسها، فتشددت في حكمها لئلا يكتشف الآخرون عدم كفاءتها ويرفضوا سلطتها، هذا فضلاً عن وجود بعض اللذة في الصياح على الآخرين، ومعرفة أنهم خائفون، واكتشفت سكارلت أن هذا التآمر قد أراح أعصابها المرهقة. ولم تكن هي تجهل حقيقة تغيُّر شخصيتها، ففي بعض الأحيان، عندما كانت أوامرها المقتضبة تدفع بورك إلى أن يمد شفته السفلى، ومامي إلى أن تدمدم قائلة: «بعض الناس يحلقون عالياً جداً هذه الأيام» كانت تتساءل أين ذهبت أخلاقها الطيبة؟ كل الدماثة، كل اللطف الذي جاهدت إيلين في

سبيل تلقينها إياه، قد زال منها سريعاً كما تسقط أوراق الأشجار في أول ريح خريفية باردة.

لقد كانت إيلين تردد على مسامعها المرة تلو الأخرى: «كوني حازمة مع من هم أقل منك مركزاً ولكن بلطف، خصوصاً مع الزنوج». ولكن إذا تلاطفت الآن، سيجلس الزنوج في المطبخ طوال اليوم يتحدثون حديثاً لا ينتهي عن الأيام الجميلة الماضية، عندما لم يكن يتوجب على زنجي البيت أن يقوم بعمل عامل الحقل.

«أحبي وراعي شقيقتك. كوني رحيمة مع المحزونين. أظهري الرأفة بالمهزومين والمعذبين». هكذا كانت تقول إيلين.

ولكن سكارلت لا تستطيع أن تحب شقيقتيها الآن، فلقد كانتا مجرد عبء ثقيل على كتفيها، وأما بصدد مراعاتهما... أفلم تكن تحممهما، تمشط شعريهما، وتطعمهما حتى ولو اقتضى ذلك المشي مسافة أميال كل يوم، في سبيل أن تجد لهما الخضار؟ ألم تكن تتعلم حلب البقرة، حتى رغم أن قلبها كان يصل إلى حلقها دوماً عندما يهز ذلك الحيوان المخيف قرونه عليها؟ وأما أن تكون رحيمة فذلك مضيعة للوقت، وإذا هي بالغت في الرحمة معهما، فمن المحتمل أن تطيلا مكثهما في السرير، بينما هي تريدهما أن تنهضا بأسرع وقت ممكن حتى توجد أربع أيدٍ أخرى لمساعدتها.

كانتا شقيقتاها تنقهان ببطء، وكانتا تضطجعان في سريرهما نحيلتين ضعيفتين. ويوم كانتا غائبتين عن الوعي، كانت الدنيا تتغير من حولهما، فقد جاء الشماليون وفرّ الزنوج وماتت إيلين. ثلاث أحداث يصعب تصديقها، وبالفعل عجز عقلاهما عن استيعاب هذه الأحداث. فكانتا تعتقدان أحياناً أنهما ما زالتا حتماً في طور الهذيان وأن هذه الأحداث لم تقع البتّة. غير أن سكارلت كانت قد تغيرت كثيراً، إلى درجة لا يمكن تصديقها، فعندما كانت تقف عند مقدمة سريرهما،

وتسرد العمل الذي تتوقع منهما القيام به بعد إبلالهما من المرض، كانتا تنظران إليها كما لو كانت «غولاً». وكان مما لا يخدع إدراكها حقيقة أن عائلتهما لم تعد تملك مئة عبد ليقوموا بالأعمال، وأن سيدة من آل أوهارا يتوجب عليها القيام بعمل يدوي.

- «ولكن يا شقيقتي» قالت كارين ووجهها الطفلي العذب ينبئ بالذعر، «لا أستطيع تكسير الحطب، فيداي ستتلفان».

- «انظري إلى يدي» أجابت سكارلت بابتسامة مفزعة وهي تدفع راحتيها المنفطتين المتقرِّحتين نحو أختها.

- «أعتقد أنك مقيتة عندما تتحدثين إلى طفلة، وإليّ، بمثل هذا الحديث» صاحت سولين، «أعتقد أنك تكذبين وتحاولين إفزاعنا. حبذا لو أن أمك حية، إذن لما تركتك تتحدثين إلينا بمثل هذا!... تكسير الحطب، حقّاً!».

نظرت سولين إلى أختها باشمئزاز واهن وهي متأكدة من أن سكارلت أعلنت هذه الأمور لتنفذ وحسب.

لقد كادت سولين تموت بدائها، كما أنها فقدت أمها وعانت من الوحدة والخوف الشيء الكثير، ولذا فإنها كانت تشعر برغبة إلى أن تدلل وترفه، ولكن ها هي سكارلت بدلاً من ذلك تنظر كل يوم من مقدمة السرير، تتأمل مدى تحسنها وشقيقتها ببريق جديد مقيت يشع من عينيها الخضراوين المائلتين، ثم تتحدث عن ترتيب الأسرَّة وتحضير الطعام وحمل دلاء الماء وتكسير الحطب، وتبدو كأنها مسرورة للإعلان عن هذه الأمور القبيحة.

والحقيقة أن سكارلت كانت تسر بذلك. فلقد كانت تنهر الزنوج وتجرح شعور شقيقتيها ليس فقط لأنها في غاية الجزع والإجهاد والتعب بحيث لا يسعها فعل أي شيء آخر، بل لأن ذلك كان يساعدها

على نسيان خيبتها المريرة الناجمة عن أن كل شيء لقَّنتها إياه أمها عن الحياة كان خطأ.

لم يكن يوجد شيء كما علمتها إياه ذو فائدة تذكر الآن، وقد حار قلب سكارلت وتألم، إذ لم يخطر في بالها أن إيلين لم تستطع التنبؤ بانهيار الحضارة التي نشأت بناتها فيها، وأنها لم تستطع توقع انعدام مراكز المجتمع التي دربتهن على تبوئها تدريباً بارعاً. ولم يخطر في بال سكارلت أن إيلين تنبأت بحقبة طويلة من سنين المستقبل الهادئة، التي تشبه سنين حياتها الخاصة المفتقرة للحوادث، تنبأت بذلك حين كانت تعلمها أن تكون رقيقة رحيمة، لطيفة نبيلة، متواضعة صادقة، فالحياة، كما كانت تقول، تعامل النساء معاملة حسنة إذا هن تعلمن هذه الدروس.

وفكرت سكارلت وهي يائسة: «لا، لم تعلمني شيئاً ذا نفع لي! ماذا ستفيدني الرحمة الآن؟ وأي قيمة للطف! كان من الأفضل لو تعلمت الحرث أو قطاف القطن كالزنوج. آه يا أمي، لقد كنتِ مخطئة».

ولم تتريث لتفكر في أن دنيا إيلين المنظمة قد مضت، وأن دنيا وحشية قد حلت محلها، دنيا تغيرت فيها كل القيم وكل المقاييس الاجتماعية. لقد رأت فقط، أو اعتقدت أنها رأت، أن أمها كانت مخطئة، وأنها تحولت بسرعة لتواجه هذه الدنيا الجديدة التي لم تهيأ لها.

والذي لم يتغير قط، شعورها نحو تارا، فلم يحدث أن أتت يوماً منهوكة عبر الحقول ورأت البيت الأبيض إلا وعمر قلبها الحب والفرح لأنها بلغت تارا، ولم تنظر يوماً عبر نافذتها إلى المراعي الخضراء والحقول الحمراء وإلى أشجار الأجمة الباسقة المتشابكة، إلا وملأ نفسها الإحساس بالجمال. كان حبها لهذ الأرض بتلالها الخفيفة

الانحدار، الأرض ذات التراب الأحمر المتلألئ، التراب الجميل المصطبغ بلون الدم، التراب الحقيقي اللون، التراب الآجري، القرمزي، الذي ينبت بصورة عجيبة للغاية، الشجيرات الخضراء، ترصعها الأزهار النجمية البيضاء. كان حبها لهذه الأرض جزءاً منها لم يتغير، بينما كانت جميع الأجزاء الأخرى في تغير مستمر... ليس في كل الدنيا أرض كهذه الأرض.

وعندما كانت سكارلت تنظر إلى تارا كانت تدرك جزئياً لماذا تخاض الحروب. لقد أخطأ ريت عندما قال إن الرجال يخوضون الحرب من أجل المال. لا! إنهم يقاتلون من أجل المزارع الشاسعة التي حفر المحراث أثلامها برفق، من أجل المراعي الخضراء بأعشابها القصيرة المرعية، من أجل الأنهار البطيئة الصفراء والبيوت البيضاء المعتدلة الهواء القائمة وسط أشجار الماغنوليا. هذه فقط الأشياء التي تستحق القتال في سبيلها، الأرض الحمراء التي هي ملكهم وستكون ملك أبنائهم، الأرض الحمراء التي ستحمل القطن من أجل أبنائهم وأبناء أبنائهم.

كانت فدادين تارا المداسة الممتهنة هي كل ما بقي لها، بعد أن ذهبت إيلين وآشلي، بعد أن شاخ جيرالد بفعل الصدمة، وبعد أن اختفى المال والزنوج والأمان والمركز الاجتماعي في الليلة السالفة. وتذكرت، كما لو كانت تتذكر شيئاً من عالم آخر، تذكرت حديثاً مع أبيها عن الأرض، وعجبت كيف أمكن أن تكون في ذلك الوقت صغيرة جداً، جاهلة جداً، بحيث لم تدرك الذي عناه والدها عندما قال إن الأرض هي الشيء الوحيد في هذه الحياة الذي يستحق القتال من أجله.

- «لأنها الشيء الوحيد الذي يدوم في الدنيا... وبالنسبة إلى كل إنسان يملك نقطة دم إيرلندي، تكون الأرض التي يعيش عليها

كأمه... إنها الشيء الوحيد الذي يستحق العمل من أجله... القتال حتى الموت في سبيله...».

أجل! إن تارا تستحق القتال من أجلها، وتقبلت سكارلت ببساطة ومن دون نقاش فكرة القتال... لن ينتزع أحد تارا من يديها، لن يشردها أحد... هي أو عائلتها... لتعيش على إحسان الأقرباء... لا، ستحافظ على تارا حتى لو اضطرت إلى قصم ظهر كل من يعيش فيها.

26

كان قد مضى على سكارلت أسبوعان منذ عودتها من أتلانتا عندما بدأت القرحة الكبرى في قدمها تتقيح وتتورم حتى أضحى من المستحيل عليها ارتدارء حذائها، أو إتيان شيء أكثر من التنقل قريباً على كعبها. وانتابها اليأس عندما نظرت إلى القرحة الملتهبة في إبهام قدمها. هب أنها تآكلت كما كانت تتآكل جراح الجنود، وقُدِّر لها أن تموت بعيداً عن طبيب؟ إنها لا ترغب في مغادرة الحياة رغم كونها مُرَّة كما هي الآن، فمن سيعتني بتارا إذا هي قضت؟!

كانت قد أملت أول وصولها إلى البيت أن روح جيرالد القديمة ستنتعش فيستلم قيادة الأمور، ولكن ذلك الأمل غاض بعيد هذين الأسبوعين. وأدركت سكارلت أنها الآن تحمل مسؤولية تارا وكل من في تارا بين يديها العديمتي التجربة، سواء أشاءت ذلك أم أبت، ذلك لأن جيرالد ما زال جالساً صامتاً كرجل في حلم، يجلس بهدوء بالغ غائباً عن تارا بصورة مريعة. وكان يرد، كجواب على التماساتها من أجل النصح، بهذه العبارة الوحيدة: «افعلي ما تعتقدين أنه الأفضل يا ابنتي»، أو يرد بعبارة أسوأ: «تشاوري مع أمك يا ابنتي».

لن يتحسن أبداً، وأدركت سكارلت هذه الحقيقة الآن، وتقبلتها من دون تأثر - إنه سيظل إلى حين موته، دائماً في انتظار إيلين... دائماً مصغياً إلى قدومها. لقد كان في بلاد غامضة مجهولة... حيث الزمن

متوقف لا يمضي، وحيث إيلين دائماً في الغرفة المجاورة. لقد انتزع باعث وجوده يوم توفيت، ومضت مع هذا الباعث ثقته المحدودة، وجرأته وحيويته الدفاقة. كانت إيلين بمثابة الجمهور المتفرج الذي تمثل أمامه مسرحية جيرالد أوهارا الصاخبة، ولقد أسدلت الستارة الآن إلى الأبد، وأطفئت أضواء المسرح، واختفى المتفرجون فجأة، بينما ظل الممثل المبهور على مسرحه الشاغر ينتظر الإشارة.

كان المنزل ساكناً في ذلك الصباح، لأن الجميع كانوا في الهور لاصطياد الخنزيرة، ما عدا سكارلت وويد والمريضات الثلاث. حتى جيرالد كان قد تنشط قليلاً فتمشى عبر الحقول المثلمة، وإحدى يديه على ذراع بورك والأخرى تحمل لفة حبال. وكانت سولين وكارين قد بكتا حتى أخذهما النوم، كما كانتا تفعلان على الأقل مرتين يومياً كلما فكرتا في إيلين، إذ كانتا تسفحان دموع الحزن والضعف على وجناتهما الغائرة. أما ميلاني التي كانت قد دعمت بالوسائد لأول مرة في ذلك اليوم، فقد اضطجعت يغطيها شرشف مرقع، بين طفلين، رأس أحدهما الأزغب الملفوف بالكتان محضون بذراعها، بينما حملت برفق بالذراع الأخرى، رأس طفل دلسي الأسود العكش. وأما ويد فقد جلس عند أسفل السرير يصغي إلى قصة خرافية.

كان السكون في تارا لا يمكن احتماله بالنسبة إلى سكارلت، لأنه كان يذكّرها تذكيراً قوياً بالسكون الشبيه بالموت الذي غمر الريف الذي اجتازته ذلك اليوم الطويل، وهي في طريقها إلى البيت، عائدة من أتلانتا.

ومضت ساعات، ولم يصدر أي صوت من البقرة أو العجل، ولم يكن هناك طيور تغرد خارج نافذتها، وحتى سرب الطائر الحداء الصخاب الذي كان يعيش بين أوراق الماغنوليا ذات الحفيف الخشن، منذ أجيال، لم يغرد ذلك اليوم.

وكانت سكارلت قد سحبت كرسياً واطئاً إلى قرب نافذة مخدعها المفتوحة، وجلست تنظر إلى الخارج، إلى الطريق الأمامي وإلى مرجة المرعى الأخضر الخالي خلف الطريق. كانت تجلس وقد رفعت تنورتها فوق ركبتيها، ووضعت ذقنها على ذراعيها المتكئتين على حافة النافذة. وعلى الأرض بجانبها كان دلو من ماء البئر، تغطس فيه قدمها المنفطة بين الفينة والأخرى، وهي تجعد وجهها بإحساس الألم اللاذع.

وضغطت ذقنها فوق ذراعها، والغيظ ينهشها. أكان لا بد لهذا الإصبع من أن يتقيح، في هذا الوقت بالذات الذي هي فيه بحاجة قصوى إلى قدمها. إن أولئك الأغبياء لن يقبضوا على الخنزيرة، لقد استغرقوا أسبوعاً كاملاً في القبض على الخنانيص، واحداً واحداً، والآن، وبعد أسبوعين، ما زالت الخنزيرة حرة طليقة. لقد كانت سكارلت تعرف أنها لو كانت موجودة في الهور معهم، لاستطاعت ثني ثوبها حتى ركبتيها، ولأخذت الحبل وربطت الخنزيرة قبل أن يكون في وسعك التلفظ باسم جاك روبنسون.

ولكن حتى بعد أن يُقبض على الخنزيرة - إذا قُبض عليها - ماذا سيحدث؟ ثم ماذا، بعد أن تُلتهَم هي وخنانيصها! ستستمر الحياة، وكذلك الشهيات. كان الشتاء يقترب ولن يبقى طعام، حتى ولا البقايا الزهيدة من خضار حدائق الجيران. ينبغي إذن تجفيف الفاصوليا والذرة واللحم والأرز و - و - آه، وأصناف أخرى كثيرة جداً... ذرة وبذور قطن للبذار في الربيع القادم، وملابس جديدة أيضاً... من أين سيأتي كل ذلك، وكيف ستدفع الثمن!

كانت قد فتشت في السر جيوب جيرالد وحافظة نقوده، وكل ما وجدته كان رزماً من سندات الحلف، وثلاثة آلاف دولار على شكل فواتير حلفية، وكان ذلك يكفي تقريباً لشراء وجبة دسمة واحدة لهم جميعاً... فكرت بتهكم، بعد أن أصبحت العملة الحلفية الآن لا

تساوي شيئاً البتّة. ولكن إذا ما حصلت على نقود واستطاعت إيجاد الطعام، فكيف ستنقله إلى البيت؟ لماذا جعل اللّه الحصان الهرم يموت؟ حتى ذلك الحيوان الحزين الذي سرقه ريت كان يمكن أن يؤثر كل التأثير في حياتها... آه يا لتلك البغال البديعة السمينة التي اعتادت ضرب حوافرها بعنف في أراضي المرعى خلف الطريق... وخيول العربات الجميلة ، وفرسها الصغيرة، ومهرتا شقيقتيها، وحصان جيرالد الكبير الفحل، يجري ممزقاً العشب بسنابكه - آه على واحد منها... حتى لو كان أخرق بغل.

لكن، لا بأس - عندما تشفى قدمها ستذهب إلى جونسبورو مشياً، وستكون تلك أطول مسيرة مشتها في حياتها، ولكنها ستمشيها. وحتى لو كان الشماليون قد أحرقوا البلدة بأكملها، ستجد حتماً أحد الناس في الجوار يستطيع إخبارها من أين يمكنها شراء القوت. وتمثلت أمام عينيها، عينا ويد الفاترتين. إنه لا يحب البطاطا، هكذا كان يردد، إنه يريد فخذ دجاجة وبعض الأرز والمرق.

وفجأة تجمع الغيم حاجباً أشعة الشمس المتلألئة عن الساحة الأمامية، وغابت الأشجار خلال الدموع، وأسقطت سكارلت رأسها على ذراعيها، وجاهدت كي لا تبكي. إن البكاء عديم الفائدة الأن، والوقت الوحيد الذي كان البكاء فيه يجدي نفعاً، كان أثناء وجود رجل في جوارها تلتمس منه معروفاً. وبينما هي تقبع هناك، تعصر عينيها بشدة، كي تمنع انهمار الدموع، أجفلت عندما طرق مسماعها صوت حوافر خابّة، ولكنها لم ترفع رأسها... فلقد كانت تتوهم سماع ذلك الصوت مراراً، في ليالي ونهارات هذين الأسبوعين الأخيرين، تماماً كما كانت تتوهم سماع حفيف تنورة إيلين. وخفق قلبها، شأنه دائماً في مثل هذه اللحظات، قبل أن تخاطب نفسها بحزم قائلة: «لا تكوني غبية».

غير أن الحوافر بطؤ وقعها بطريقة غريبة مثيرة، حتى أضحى وقع خطى تسير على مهل أخذت تسمع صرير اصطدامها بالحصى. . . إنه وقع حصان - فمن يكون القادم؟ أبناء تارلتون. . . أبناء فونتين؟! وتطلعت إلى أعلى بسرعة، وإذا به فارس شمالي.

واندست خلف الستار بحركة آلية ورنت إليه مذهولة، خلال طيات القماش القائمة. كانت فزعة جداً بحيث إن النفس خرج على شكل تنهدة من رئتيها.

كان الشمالي يجلس مسترخياً على سرج حصانه. رجل بدين خشن المظهر، بلحية سوداء غير مشذبة تتهادى فوق معطفه الأزرق غير المزرر. وكانت عيناه صغيرتين متقاربتين تخزران في وهج الشمس وتعاينان المنزل بسكينة، من تحت مقدم قبعته الزرقاء الضيقة. وعندما ترجل متباطئاً، وألقى زمام فرسه فوق عمود المربط، عاد نفس سكارلت إليها بصورة مفاجئة مؤلمة، كما يعود على أثر تلقّي ضربة في البطن. شمالي، شمالي ومسدس طويل على جنبه! وهي وحيدة في البيت مع ثلاث فتيات مريضات والأطفال!

وعندما سار متمهلاً في الممشى ويده على قراب مسدسه، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بحبتي سبحة تتطلعان يمنة ويسرة، انتسج أمام مخيلتها شريط من الصور المختلطة: قصص كانت العمة بيتي قد همست لها بها عن هجمات على نساء ليس هناك من يحميهن، رقاب قطعت، وبيوت أحرقت على رؤوس نساء مائتات، وأطفال ذبحوا بحراب البنادق لأنهم بكوا. . . كل الأهوال التي تصعب رؤيتها والتي تكمن في نفسها مرتبطة باسم «شمالي».

كان رجعها الأول ناجم عن الخوف ورغبتها في أن تختبئ في المرحاض، أن تزحف تحت السرير، أن تهبط الدرج الخلفي بسرعة البرق وتجري زاعقة إلى الهور. . . أن تلجأ إلى أي طريقة للتخلص

منه. ثم سمعت خطواته على الدرجات الأمامية، ووطء خطوه المتلصص وهو يدخل القاعة فأدركت أن طريق الهرب قد قطع عليها. وبينما هي تقف يغمرها شعور الخوف البارد ولا تستطيع حراكاً سمعته يتقدم من غرفة إلى أخرى في الطابق السفلي، وكان وقع خطواته قد ازداد ارتفاعاً وجرأة حين لم يكتشف وجود أحد... إنه الآن في غرفة الطعام وسيخرج منها إلى المطبخ بعيد لحظات.

وعند ذكر المطبخ، انتفض الغضب فجأة في صدر سكارلت، انتفض بعنف بالغ حتى إنه وخز قلبها كطعنة سكين وأزال الخوف بثورته الطاغية... المطبخ، هناك فوق موقد المطبخ المفتوح يوجد قِدران إحداهما مملوءة بتفاح قيد الطهي، والأخرى بخضار متنوعة جُلبت من تولف أوكس ومن مزرعة ماكنتوش بشق النفس. غداء ينبغي أن يقدم إلى تسعة أناس جائعين بينما هو لا يكاد يكفي شخصين اثنين، ولقد مضى على سكارلت ساعات وهي تكبح شهيتها، في انتظار عودة الآخرين، ولذلك اهتزت غضباً وهي تتخيل الشمالي يلتهم وجبتهم الزهيدة.

ليلعنهم اللّه جميعاً! لقد انحدروا كالجراد وتركوا تارا تموت بطئياً من الجوع وها هم الآن يعودون ثانية ليسرقوا البقية الضئيلة. وتلوَّت معدتها الفارغة في جوفها... واللّه إن هذا شمالي واحد لا يستيطع سرقة شيء آخر.

ونزعت حذاءها البالي وهرولت سريعاً حافية القدمين إلى المكتب دون أن تحس بآلام إصبعها المتقيح؟ ثم فتحت الجرار العلوي دون أن تُحدِث صوتاً وتناولت المسدس الثقيل الذي أحضرته من أتلانتا، والذي كان قد حمله تشارلز لكنه لم يستعمله أبداً. وبحثت في الصندوق الجلدي المعلق على الجدار تحت السيف وأخرجت كبسولة وأنزلتها في مكانها بيد عديمة الرجفة، وبسرعة، ومن دون أن تُحدِث

ضجيجاً، ركضت إلى القاعة العليا ثم هبطت السلّم وثبتت نفسها على الدرابزين متمسكة به بيد واحدة حاملة المسدس باليد الأخرى قريباً من فخذها وضمن طيات تنورتها.

- «مَن هناك؟» صاح صوت أخن. فوقفت على منتصف السلّم والدم يتخبط في أذنيها بصوت عالٍ جداً، بحيث لم تستطع سماع الشمالي إلا بصعوبة، «قفي وإلا أطلقت النار» ارتفع الصوت ثانية.

وقف الفارس في باب غرفة الطعام، ساكناً متوتر الأعصاب، مسدسه في يده، وفي يده الأخرى علبة خياطة إيلين الصغيرة المصنوعة من خشب الورد، والتي كانت تحوي كشتباناً ذهبياً ومقصاً ذا مقبض ذهبي وقطعة من السنباذج على شكل ثمر البلوط محلاة الرأس بالذهب.

وأحست سكارلت بساقيها تبترادن حتى الركبتين، ولكن الغضب ألهب وجهها، رأت علبة خياطة إيلين بين يديه وشاءت أن تصرخ: «ضعها من يدك! ضعها من يدك القذرة!» ولكن الكلمات لم تسعفها، وكل ما استطاعته هو التحديق فيه من على الدرابزين ومراقبة وجهه يتغير من حالة توتر عنيف إلى ابتسامة نصفها ازدراء ونصفها استعطاف.

- «إذن يوجد إنسان في البيت» قال معيداً مسدسه إلى قرابه، ماشياً في القاعة إلى أن وقف تحتها مباشرة، «وحدك فقط أيتها السيدة الصغيرة؟».

وبسرعة البرق، دفعت سلاحها فوق الدرابزين وصوَّبته إلى الوجه المجفل الملتحي، وحتى قبل أن يتمكن من البحث في حزامه، ضغطت الزناد وتهادى جسدها بفعل ردة المسدس الخلفية بينما ملأ دوي الانفجار أذنيها، ولسع الدخان الحاد الرائحة منخريها. أما الرجل فقد هوى إلى الخلف وارتطم بالأرض وتدحرج إلى غرفة الطعام بعنف وهز قطع الأثاث، وانفلتت العلبة من يديه، وانتشرت محتوياتها حوله.

وهبطت سكارلت السلّم، وهي تكاد لا تعي أنها تتحرك، ووقفت فوقه محملقة في ما تبقى من الوجه فوق اللحية. كان هناك ثقب دامٍ في موضع الأنف، وعينان براقتان محترقتان بالبارود. وبينما هي تتأمل الرجل كان مجريان من الدم يسيلان عبر الأرض اللماعة، أحدهما خرج من وجهه والثاني من مؤخرة رأسه.

أجل! لقد مات، بلا ريب. لقد قتلت رجلاً.

وارتفعت حلقات الدخان بطيئة نحو السقف، واتسع المجريان الأحمران حول قدميها، وظلت واقفة هناك فترة غير محدودة. وفي السكون الحار لذلك الصباح الصيفي، بدت جميع الأصوات والروائح متضخمة مهولة: خفقان قلبها السريع الذي بدا كدويّ الطبل، وحفيف أوراق الماغنوليا الخافت الأجش، والصوت الشجي البعيد المنبعث من طائر في الأجمة والرائحة الشذية المتضوعة من الأزهار خارج النافذة.

لقد قتلت رجلاً، تلك التي كانت تحرص على أن لا تشاهد عملية قتل أثناء الصيد، تلك التي لا تستطيع احتمال قباع خنزير أثناء الذبح أو صراخ أرنب وهو في الفخ - جريمة قتل! فكرت بعقل كليل. لقد اقترفت جريمة قتل. آه. إن هذا لا يمكن أن يكون قد حدث لي! واتجهت عيناها إلى اليد الغليظة الشَّعِرة على الأرض، القريبة جداً من علبة الخياطة، وفجأة عاودتها حيوية الحياة، حيوية السرور بفرحة النمر المنتصر. لقد كان في وسعها أن تدوس بكعبها في الجرح الفاغر، أي في أنفه، وتشعر باللذة المنعشة وهي تحس بالدم الحار يبلل قدميها الحافيتين. لقد سددت ضربة انتقام لتارا ولإيلين.

ثم سمعت خطوات متعثرة مسرعة في القاعة العليا، وتلا ذلك لحظة صمت ثم خطوات أكثر، ولكنها الآن خطوات ضعيفة تجرجر أقدامها، يتخللها صليل معدني، وعندئذ عاودت سكارلت الشعور بقيمة

الزمن وحقيقة الموقف. وبينما هي ترفع بصرها رأت ميلاني في أعلى السلّم، ترتدي الجلباب الممزق فقط، الجلباب الذي تستعمله كثوب للنوم، وذراعها الضعيفة مثقلة بسيف تشارلز.

وقابلت عيناها عيني سكارلت في صمت. كان في وجهها الرقيق وهج من الكبرياء المتجهمة، وفي ابتسامتها العذبة رضى وفرح صارم، يعادل الاضطراب الناري الذي كان يضطرم في صدر سكارلت.

«كيف لا، كيف لا، إنها مثلي، إنها تفهم شعوري»، فكرت سكارلت في هنيهة الصمت الطويلة، «لو كان الأمر معها لفعلت نفس ما فعلت». وبرجفة حادة تطلعت إلى الفتاة النحيلة المترنحة التي لم تشعر سكارلت يوماً نحوها بغير شعور البغض والازدراء. غير أنها الآن، أحست بشعور من الإعجاب والرفقة يجيش في صدرها ويقف في وجه شعور الكراهية لزوجة آشلي. ورأت في ومضة من الصفاء الذي لا يشوبه شيء من العواطف الصغيرة، رأت أن تحت صوت ميلاني الناعم وتحت عينيها الشبيهتين بعيون الحمام، يكمن نصل رفيع براق من فولاذ لا يكسر، وأحست أيضاً أن هناك أعلاماً وأبواقاً من الشجاعة تهتز في دم ميلاني الهادئ.

- «سكارلت! سكارلت!» صاح صوتا سولين وكارين الضعيفان المذعوران، المنبعثان من وراء باب غرفتهما المغلق، بينما ارتفع صوت ويد: «عمتي! عمتي!» وعلى عجل وضعت ميلاني أصبعها على فمها، وحطت السيف على أعلى درجة من السلّم، ثم اتخذت طريقها بعناء في القاعة العليا، وفتحت باب غرفة المريضتين.

- «لا تخافا أيتها الدجاجتان» علا صوتها مرحاً مثيراً، «لقد كانت شقيقتكما الكبرى تحاول إزالة الصدأ من مسدس تشارلز فانطلق وأرعبها رعباً هائلاً!... اسمع يا ويد هاملتون، لقد أطلقت ماما مسدس والدك العزيز، وعندما تكبر، ستدعك تطلقه».

- «يا لها من كذابة باردة الأعصاب!» فكرت سكارلت معجبة بها، «لم يكن في وسعي التفكير في ذلك سريعاً. . . ولكن لماذا تكذب؟ ينبغي أن يعرفوا أني فعلتها».

ونظرت إلى الجثة ثانية، وغمرها الاشمئزاز في هذه المرة، بعد أن كان الغضب والرعب قد زاولاها، وطفقت ركبتاها ترتجفان من جرّاء رد الفعل، بينما جرجرت ميلاني نفسها إلى أعلى السلم ثانية وبدأت تهبط الدرجات، متمسكة بالدرابزين، عاضّة شفتها السفلى الفائضة بالدم.

- «ارجعي إلى سريرك أيتها الحمقاء، ستقتلين نفسك» صاحت سكارلت، ولكن ميلاني تابعت طريقها المؤلم إلى القاعة السفلى.

-« سكارلت» هجست، «ينبغي أن نخرجه من هنا وندفنه، فمن المحتمل أن لا يكون وحيداً، وإذا ما وجدوه هنا -» وأسندت نفسها على ذراع سكارلت.

- «لا بد أنه وحيد» أجابت سكارلت، «فأنا لم أشاهد أحداً غيره من النافذة العليا، لا بد أن يكون فاراً من الجيش».

- «حتى لو كان وحيداً، ينبغي ألّا يعلم أحد بالحادث، فقد يتحدث الزنوج بالأمر، وعندئذ سيأتون ويأخذونك يا سكارلت. ينبغي أن نخفيه قبل أن تعود الجماعة من الهور».

وتحرك عقلها للتفكير بفعل الإلحاح المحموم في صوت ميلاني، وفكرت جدياً: «في وسعي دفنه في زاوية الحديقة تحت العريشة - التربة طرية هناك حيث حفر بورك وأخرج برميل الويسكي. ولكن كيف سأنقله إلى ذلك المكان؟».

- «سنتعاون كلانا على جرّه من ساقيه» قالت ميلاني بحزم وتصميم.

وعلى الرغم منها، استمر إعجابها يزداد بميلاني.

- «ليس في وسعك سحب هرة، سأجرّه وحدي» قالت سكارلت بصرامة، «ارجعي إلى السرير، ستقتلين نفسك، ولا تحاولي أن تساعديني، وإلا حملتك إلى سريرك بنفسي».

فانفرج وجه ميلاني الشاحب بابتسامة عتب مكدرة، «أنت عزيزة جداً يا سكارلت» قالت ذلك وجرت شفتيها بلطف على وجنة سكارلت. وقبل أن تفيق هذه من دهشتها، تابعت ميلاني القول: «إذا كان في وسعك جرّه خارجاً، فسأمسح الدم قبل أن تبلغ الجماعة البيت يا سكارلت -».

- «ماذا؟».

- «هل تعتقدين أنه سيكون من العار تفتيش جيوبه؟ فقد نجد معه شيئاً للأكل».

- «لا أعتقد ذلك» قالت سكارلت متضايقة لأنها لم تفكر في هذا الأمر هي نفسها، «خذي مزادته وسأبحث أنا في جيوبه».

وانحنت بنفور فوق الرجل الميت، وفكت الأزرار الباقية في معطفه، وشرعت بتفتيش جيوبه واحداً تلو الآخر.

- «يا للّه العزيز» همست ساحبة محفظة منتفخة ملفوفة بخرقة، «ميلاني... ميلي، أعتقد أنها ملأى بالنقود».

لم تقل ميلاني شيئاً، غير أنها جلست على الأرض فجأة، وأسندت ظهرها إلى الحائط:

- «انظري ما فيها»، قالت وهي ترتعش، «إني أشعر بقليل من الإعياء».

مزقت سكارلت الخرقة، وفتحت الطيات الجلدية بيدين مرتجفتين.

- «انظري ميلي - فقط انظري».

نظرت ميلاني واتسعت عيناها. لقد رأت رزمة من السندات

مكدسة على بعضها: نقود ورقية اتحادية مختلطة بنقود حلفية، يلمع من بينهما قطعة ذهبية من فئة العشرة دولارات وقطعتان فضيتان من فئة الخمسة دولارات.

- «لا تعدّيها الآن» قالت ميلاني عندما بدأت سكارلت تعد السندات، «فليس لدينا وقت...».

- «هل تستنتجين يا ميلاني أن هذه النقود تعني أننا سنجد ما نأكله؟».

- «نعم، نعم يا عزيزتي، إني أستنتج ذلك ولكن ليس لدينا وقت الآن. ابحثي في جيوبه الأخرى، وسآخذ أنا المزادة».

لقد كرهت سكارلت أن تضع المحفظة جانباً، فإن آفاقاً مشرقة تتفتح أمامها الآن - نقود حقيقية، حصان الشمالي، طعام! لقد ظهر الإله أخيراً، ولقد رزقهم، على الرغم من أنه استعمل أساليب شاذة في رزقهم. وجلست على ردفيها وحدقت في المحفظة وهي تبتسم، ولكن ميلاني أخذتها من يدها.

- «أسرعي!» قالت.

ولكن البحث في جيوب السروال لم يسفر عن شيء سوى بقية شمعة وسكين وعلبة تبغ وقطعة من القنب، بينما أخرجت ميلاني من المزادة صرة قهوة صغيرة شمّتها كما لو كانت ألذ من العطور، ثم رغيف خبز، وصورة فتاة صغيرة ضمن إطار ذهبي مرصع بحبات اللؤلؤ - وقد تغير وجهها وهي تخرج الصورة - كما أخرجت أيضاً دبوساً من العقيق، وسوارين ذهبين عريضين بسلاسل ذهبية صغيرة متدلية، وكشتباناً ذهبياً وكأساً فضية لطفل صغير، ومقص تطريز ذهبياً، وخاتماً ذا فص واحد، وقرطين بفصّين متدليين من الماس بشكل الكمثرى، فصين يمكن لأيديهما العديمة الخبرة أن تقدر أن كلاً منهما يزيد وزنه على قيراط.

- «لص!» همست ميلاني مرتدة عن الجثة الهامدة، «سكارلت! لا بد أنه سرق كل هذا».

- «طبعاً» قالت سكارلت، «ولقد قدم هنا الآن آملاً أن يسرق منا أشياء أخرى».

- «إني مسرورة لأنك قتلته» قالت ميلاني وعيناها الناعمتان تقدحان، «والآن أسرعي يا عزيزتي وأخرجيه من هنا».

فانحنت سكارلت وأمسكت بالرجل الميت من حذائه وشدّته... ما أثقله! وما أضعفها! هكذا أحست فجأة. ما العمل إن لم تستطع تحريكه؟ واستدارت بحيث أضحت الجثة خلفها وأمسكت بحذائه الثقيل تحت ذراعها وقذفت بجسدها إلى الأمام، فتحركت الجثة. ثم جرّت ثانية، لكن قدمها المتقرحة والتي نسيت في هذه الجلبة، آلمتها الآن إيلاماً رهيباً جعلها تصر بأسنانها وتنقل ثقل جسدها إلى كعبها. والعرق يتصبب من جبينها بسبب الشد والإجهاد، جرّته عبر القاعة، يتبعها خط من الدم الأحمر.

- «إذا ما نزف عبر الساحة، فلن يسعنا إخفاء الأثر» قالت وهي تلهث، «أعطيني جلبابك يا ميلاني، فسألفه حول رأسه».

فتخضب وجه ميلاني الأبيض باللون القرمزي.

- «لا تكوني حمقاء، لن أنظر إليك» قالت سكارلت، «لو كنت أرتدي تنورة أو سروالاً لاستعملته».

وجلست ميلاني القرفصاء مقابل الحائط، وخلعت الدثار الكتاني البالي من فوق رأسها، ثم دفعته إلى سكارلت دون أن تنبس بكلمة، ساترة جسدها بذراعيها بقدر ما تستطيع.

- «شكراً للّه، إني لست حيية مثلها» فكرت سكارلت، إذ أحست، وهي تلف القماش الرث حول الوجه المهشم، بنوبة الضيق التي انتابت ميلاني قبل أن تشاهدها بعينيها.

استطاعت سكارلت بعد سلسة من الدفعات المتقطعة، أن تسحب الجثة من القاعة باتجاه الشرفة الخلفية. ثم توقفت قليلاً لتمسح جبينها بظهر يدها، وألقت نظرة على ميلاني خلفها. وكانت هذه ما زالت تجلس مستندة إلى الحائط ضامة ركبتيها النحيلتين إلى ثدييها العاريين... ما أحمق ميلاني وهي تحفل بالحشمة في وقت كهذا! فكرت سكارلت نزقة... لقد كانت بعض أساليب تصرفاتها الحكيمة تدفع سكارلت دائماً إلى احتقارها... غير أن هذه سرعان ما أحست بالعار، فرغم هذا التصرف، نعم رغم هذا التصرف، فقد جرت ميلاني نفسها من السرير ولم يمضِ على ولادتها سوى فترة وجيزة جداً، وأتت لمساعدتها بسلاح ثقيل جداً حتى بالنسبة إليها هي. وقد تطلب ذلك شجاعة تعرف سكارلت معرفة صادقة أنها لا تملك من نوعها، شجاعة حريرية النسج، فولاذية الجوهر، تجلت في ميلاني ليلة سقوط أتلانتا الرهيبة، وخلال الرحلة الطويلة إلى تارا. إنها الشجاعة الخفيفة الكامنة نفسها التي يتحلى بها جميع الويلكسيين. إنها الميزة التي لم تفهمها سكارلت ولكنها كانت تقابلها بالإعجاب الحقود.

- «ارجعي إلى سريرك» قالت من فوق كتفها، «ستموتين إن لم ترجعي، وسأنظف أنا الدم بعد أن أدفنه».

- «سأنظفه أنا بإحدى قطع السجاد البالية» همست ميلاني وهي تنظر إلى بركة الدم بعين مريضة.

- «حسناً، اقتلي نفسك إذن وانظري إن كنت أعبأ بك! إذا جاء أحد من الجماعة قبل أن أفرغ من دفنه، فأبقيه داخل البيت وأخبريه أن الحصان دخل المزرعة من حيث لا ندري».

جلست ميلاني ترتجف في شمس الصباح، وقد أصمت أذنيها حتى لا تسمع سلسلة الرطمات الممرضة الناجمة عن رأس القتيل على درجات الشرفة.

لم يستوضح أحد عن المكان الذي أتى منه الحصان، فقد كان من الجلي أنه شارد من المعركة الأخيرة. . . ولقد سرّوا كثيراً بالحصول عليه. أما الشمالي فقد قبع في الحفرة الضحلة التي حفرتها سكارلت له، تحت عريشة الكرمة الصفراء. وكانت الأعمدة الخشبية التي تحمل عروق الكرمة الغليظة قد تلفت، فأجهزت سكارلت عليها في تلك الليلة بسكين المطبخ إلى أن سقطت على الأرض فغطت كتلة الأغصان المتشابكة القبر تغطية تامة. وكان وضع أعمدة جديدة محل المهترئة أحد الإصلاحات التي لم تشر إليها سكارلت، ولو عرف الزنوج سبب ذلك لاحتفظوا بصمتهم.

ولم يرتفع شبح من ذلك القبر ليلازم سكارلت في الليالي الطوال، التي كانت تضطجع خلالها مستيقظة وهي مرهقة جداً بحيث لا تستطيع النوم. ولم يجتح ذاكرتها كذلك أي إحساس بالرعب أو بتقريع الضمير. ولقد استغربت سبب ذلك، إذ تعلم أنها لم تكن في وسعها الإقدام على ذلك العمل قبل شهر من هذا التاريخ فقط. . . تصور السيدة هاملتون، الفتية الجميلة، بغمازتها وقرطيها الرنانين، وبأساليبها البسيطة العاجزة، تصورها تهشم وجه رجل وتحيله إلى عجينة ثم تدفنه في حفرة حُفرت على عجل! وابتسمت سكارلت ووجهها متجهم قليلاً، وهي تفكر في الخبل الذي يمكن أن تسببه فكرة كهذه لأولئك الذين يعرفونها.

- «لن أفكر في هذا بعد اليوم» قررت في نفسها، «لقد مضى وقضي أمره، وكنت سأُعتبر حمقاء غبية لو لم أقتله. أحسب - أحسب أن لا بد أني تغيرت قليلاً منذ عودتي إلى البيت، وإلا لما استطعت إتيان هذه الفعلة».

ولم تفكر في فعلتها عن وعي، ولكن الفكرة كانت تتربص في مؤخرة تفكيرها، تمنحها القوة كلما اعترضتها مهمة صعبة غير سارة:

«لقد اقترفت جريمة، ولذلك في وسعي حتماً تنفيذ هذه المهمة».
والحقيقة أن سكارلت كانت قد تغيرت أكثر مما هي تصورت، فالقشرة الصلبة التي بدأت تتكون حول قلبها عندما استلقت في حديقة الرقيق في تولف أوكس، كان تتمسك ببطء.

* * *

والآن وقد حصلت سكارلت على فرس، صار في وسعها أن تكتشف بنفسها ما الذي حدث للجيران... لقد تساءلت منذ قدومها إلى البيت ألف مرة من دون جدوى: «هل نحن الوحيدون الذين بقوا في المقاطعة؟ هل احترق جميع الآخرين؟ هل لجأوا كلهم إلى ميكون؟» ونظراً إلى أن ذكرى آثار تولف أوكس ومزرعة ماكنتوش وكوخ آل سلاتري ما زالت حية في ذاكرتها، فإنها كادت تفزع من اكتشافها للحقيقة. غير أنه كان من الأفضل معرفة أسوأ الأمور على البقاء فريسة للشك والحيرة. وقررت أن تركب إلى منزل آل فونتين أولاً، ليس لأنهم أقرب الجيران، بل لأن من المحتمل وجود الطبيب العجوز فونتين هنالك، إذ كانت ميلاني في حاجة إلى طبيب، فهي لم تكن تتحسن كما ينبغي، وكانت سكارلت تفزع من ضعفها الشاحب.

وهكذا امتطت حصان الشمالي في اليوم الذي اندملت فيه قدمها بصورة تمكنها من احتمال ارتداء الخف. ووضعت إحدى قدميها في الركاب المقصر، ولفت الساق الأخرى حول قربوس السرج، في شبه ركوب جانبي، ثم انطلقت دون أن تخبر أحداً عبر الحقول باتجاه ميموسا فوجدتها محترقة. غير أن الذي أدهشها وسَرَّها في الوقت نفسه هو أنها ألفت البيت الأصفر الباهت قائماً وسط أشجار السنط، ولقد بدا وهو على حالته المعتادة. ففاضت نفسها بالسعادة الحارة، السعادة التي تذرف الدموع غالباً، فاضت عندما خرجت نساء آل فونتين الثلاث من البيت يرحّبن بها بالقبل وصيحات الفرح.

ولكن، بعد أن تمّت عبارات اللقاء الحارة الأولى، ودلف الجميع ليجلسن في غرفة الطعام، انتابت سكارلت قشعريرة باردة. إن الشماليين لم يبلغوا ميموسا لأنها بعيدة جداً عن الطريق الرئيس، ولذلك فما زال آل فونتين بحتفظون بمخزونهم ومؤنهم. بيد أن ميموسا كان يغمرها السكون الغريب ذاته الذي كان يخيم على تارا، وعلى الريف كله، وكان جميع العبيد فيها عدا زنجيات أربع بيتيات قد فروا مذعورين بفعل اقتراب الشماليين ولم يكن يوجد أي رجل في المزرعة إلا إذا أمكن اعتبار ابن سالي الصغير، جو، الذي خلص من القماط مؤخراً، رجلاً. لقد كانت النسوة الثلاث يعشن في البيت الكبير وحيدات. غراندما فونتين في عقدها الثامن، وكنّتها التي كانت تود أن تدعى دائماً بالآنسة الفتية رغم كونها في العقد السادس ثم سالي التي كانت تشارف العشرين. لقد كن بعيدات جداً عن الجيران، يعشن دون من يحميهن، غير أن وجوههن لم تكن تفصح عما إذا كن خائفات أم لا. وفكرت سكارلت في أن ذلك قد يكون عائداً إلى كون سالي والآنسة الشابة تخافان كثيراً العجوز غراندما الضعيفة ضعف الخزف القصم، ولكن التي لا تلين، بحيث كانتا لا تجرؤان على المصارحة بما كان يساورهما من المخاوف. ولقد كانت سكارلت نفسها تخشى السيدة العجوز، لأن لها عينين حادتين ولساناً أحدّ، ولقد ذاقت سكارلت لذع الثلاثة فيما مضى.

وعلى الرغم من عدم وجود قربى الدم، وعلى الرغم من فارق السن الكبير، كانت هناك قرابة في الروح والتجربة تربط هؤلاء النسوة معاً. لقد كن ثلاثتهن يرتدين ثياب الحِداد والمصبوغة محلياً، وكنّ جميعاً خائرات القوى، حزينات جزعات، تعبات تعاسة لا تتجهم ولا تتذمر ولكنها مع ذلك تطل من خلف بسماتهن وعباراتهن الترحيبية، تعاسة ناجمة عن هروب زنوجهن وصيرورة نقودهن العديمة القيمة.

يضاف إلى ذلك أن جو زوج سالي كان قد توفي في غتيسبورغ، كما أن الآنسة الفتية كانت قد ترملت كذلك، إذ قضى الدكتور فونتين الصغير بالزحار في فيكسبورغ. أما الشابان الآخران، ألِكس وطوني، فكانا في مكان ما في فرجينيا ولم يكن أحد يعرف ما إذا كانا حيين أو ميتين. وأما الدكتور فونتين العجوز فقد كان بعيداً في مكان ما مع فرسان ويلر.

- «والعجوز الأحمق في الثالثة والسبعين من العمر، مع أنه يحاول أن يتصرف كأنه أصغر سناً، وهو مفعم بالروماتيزم كخنزير مملوء بالبراغيث» قالت غراندما فخورة بزوجها، وبريق عينيها يناقض كلماتها الجارحة.

- «هل سمعت إحداكن أي نبأ عما حدث في أتلانتا؟» سألت سكارلت بعد أن استقر بهن المقام المريح، «نحن مدفونون تماماً في تارا».

- «واللّه أيتها الفتاة» قالت الآنسة العجوز، مستلمة دفة الحديث كما كانت عادتها، «نحن في الورطة نفسها مثلكم، ونحن لا نعرف شيئاً سوى أن شيرمان قد احتل المدينة أخيراً».

- «إذن احتلها، وماذا يفعل الآن؟ وأين يدور القتال؟».

- «وكيف تدري ثلاث سيدات وحيدات يعشن هنا في الريف في الوقت الذي لم نرَ فيه رسالة أو جريدة منذ أسابيع؟!» قالت السيدة العجوز محتدة، «لقد تحدث أحد زنوجنا مع زنجي كان قد رأى زنجياً قادماً من جونسبورو، ولم نسمع شيئاً سوى ذلك، والذي قاله ذلك الزنجي هو أن الشماليين كانوا فقط يستجمّون في أتلانتا، يريحون رجالهم وخيولهم. أما أصادق هذا الحديث أم لا ففي استطاعتك أنت الحكم عليه مثلي. إنهم حتماً لا بد أن يحتاجوا إلى الراحة بعد القتال الشديد الذي خضناه ضدهم».

- «ما أغرب أن تكونوا في تارا طوال هذه المدة دون أن ندري!»
تدخلت الآنسة الفتيّة في الحديث، «آه، كم ألوم نفسي لأني لم أركب إلى هنالك وأستطلع الأمر. ولكن كان يوجد الكثير من الأعمال لدينا، بعد أن ذهب معظم الزنوج، بحيث لم يسعني مغادرة المكان. ومع ذلك فقد كان يجب عليَّ تدبير الوقت الكافي للذهاب. إن موقفي لم يكن وفياً للجيرة، غير أننا بالطبع كنا نعتقد أن الشماليين أحرقوا تارا كما فعلوا بتولف أوكس ومنزل ماكنتوش، وأن أهلك ذهبوا إلى ميكون، ولم نحلم أبداً بأنك كنت في البيت يا سكارلت».
- «بالطبع كيف كان يمكننا معرفة ذلك في الوقت الذي رأينا فيه عبيد السيد أوهار يمرون من هنا وهم جاحظو العيون من شدة الفزع، وأخبرونا أن الشماليين سيحرقون تارا!» قاطعت غراندما.
- «واستطعنا أن ندرك. . . » بدأت سالي.
- «إني أنبئها بهذا، أرجوك» قالت السيدة المسنة باقتضاب، «وقالو إن الشماليين معسكرون في جميع أنحاء تارا وإن أهلك عازمون على الذهاب إلى ميكون. وفي تلك الليلة شاهدنا وهج النار ينبعث من ناحية تارا، ودام الوهج ساعات أربع، أفزع خلالها زنوجنا الأغبياء إلى حد كبير حتى إنهم هربوا جميعاً. . . ما الذي احترق؟»».
- «كل أقطاننا. ما قيمته مئة وخمسون ألف دولار» قالت سكارلت بمرارة.
- «اشكري اللّه على أنه لم يكن منزلكم» قالت غراندما متكئة بذقنها على عصاها، «إن في وسعكم دائماً إنتاج المزيد من القطن، ولكن ليس في وسعكم بناء البيت. وفي هذه المناسبة، هل كنتم قد بدأتم بقطف القطن؟»».
- «لا!» قالت سكارلت، «إن معظمه قد تلف الآن. إني لا أتصور أن ما سلم من التلف ينتج أكثر من ثلاث بالات، وهو موجود في حقل

بعيد في أسفل الوادي. أي نفع يمكن أن يزجيه مقدار كهذا؟ كل عمال حقلنا قد ذهبوا وليس هناك من يقطفه».

- «يا سلام! كل عمال حقلنا قد ذهبوا وليس هناك من يقطفه!» رددت غراندما ساخرة، رامقة سكارلت بنظرة تأنيب، «وما شأن أناملك الظريفة وأنامل شقيقتيك!».

- «أنا؟! أقطف قطناً؟». صاحت سكارلت مشدوهة، كما لو كانت غراندما تقترح عليها القيام بجريمة شنعاء، «كعاملة الحقل! كالبيض الحقيرين! كنساء آل سلاتري!».

- «البيض الحقيرين! حقاً! حسناً، أليس هذا الجيل ناعماً وكالسيدات! دعيني أخبرك، يا آنسة، أني عندما كنت فتاة فقد والدي جميع نقوده، فلم أترفع عن العمل الشريف بيدي، وفي الحقول أيضاً، إلى أن أصبح مع والدي نقود تكفي لشراء بعض الزنوج. لقد غرقت أرضي بالمجرفة، وقطفت قطني، وفي وسعي أن أفعل ذلك ثانية إذا ما اقتضى الأمر، ويبدو كأنني سأضطر إلى ذلك. البيض الحقيرين! حقاً!».

- «ولكن يا ماما فونتين» صاحت كنّتها، ملقية نظرات متوسلة على الفتاتين تحثهما على مساعدتها في تهدئة السيدة العجوز، «لقد كان ذلك منذ زمن بعيد، زمن مختلف تماماً عما نحن فيه، ولقد تغيرت الأيام».

- «الأيام لا تتغير عندما توجد حاجة إلى القيام بعمل شريف» قالت السيدة العجوز الحادة النظرات بحزم، رافضة أن تهدأ، «وإني لأخجل عن أمك يا سكارلت عندما أسمعك وأنت تقفين هنالك وتتحدثين كما لو أن العمل الشريف يجعل من الناس الطيبين بيضاً حقيرين. عندما حفر آدم ونسجت حواء...».

وهنا أسرعت سكارلت، في سبيل تغيير الموضوع، إلى الاستفسار:

- «وماذا عن آل تارلتون وآل كالفرت؟ هل احترقوا؟ هل لجأوا إلى ميكون؟».

- «لم يصل الشماليون إلى آل تارلتون، فهم بعيدون عن الطريق الرئيس شأننا نحن، ولكنهم بلغوا منزل آل كالفرت وسرقوا كل مخزونهم وطيورهم، وفرَّ معهم جميع الزنوج...» بدأت سالي، ولكن غراندما قاطعتها قائلة:

- «ها! لقد وعدوا جميع العاهرات السوداوات بفساتين حريرية وأقراط ذهبية... هذا ما فعلوه. ولقد قالت كاثلين كالفرت إن بعض الجنود انطلقوا حاملين الزنجيات الغبيات على السروج خلفهم. حسناً، إن كل ما سيجنينه سيكون أطفالاً صفر اللون، ولا أستطيع القول إن الدم الشمالي سيحسن الأصل».

- «ماما فونتين!».

- «لا، لا تذهلي يا جين، فكلنا متزوجات، أليس كذلك؟ واللّه يعلم أننا قد رأينا أطفالاً خلاسيين[1] قبل الآن».

- «لماذا لم يحرقوا منزل آل كالفرت؟».

- «لقد نجا البيت بواسطة لهجة السيدة كالفرت الثانية، ولهجة ذلك الناظر الشمالي هيلتون الذي يعمل عندهم» قالت السيدة العجوز التي كانت تشير دائماً إلى المربية السابقة. «السيدة كالفرت الثانية» رغم أن السيدة كالفرت الأولى كانت قد ماتت منذ عشرين سنة.

- «نحن مؤيديون أوفياء للاتحاد» قالت السيدة العجوز مقلدة السيدة كالفرت جاعلة الكلمات تخن عبر أنفها الطويل الرفيع، «ولقد

(1) الولد الذي يأتي نتيجة زواج رجل أبيض بامرأة سوداء - (المترجمان).

قالت كاثلين إن كليهما أقسما بجميع الأيمان أن كل آل كالفرت شماليون، هكذا، بينما الحقيقة هي أن السيد كالفرت قد قتل في قفر الولدرنس، وريفورد في غتيسبورغ وكيد يحارب الآن مع الجيش في فرجينيا. . . ولقد أذلت كاثلين كثيراً حتى إنها صرحت أنها كانت تفضل لو أحرقوا البيت، كما قالت إن كيد سيتميز غيظاً عندما يعود إلى البيت ويسمع القصة. على أن هذا هو ما يصيب الرجل جزاء تزوجه بامرأة شمالية. . . لا أنفة لديهن. . . ولا حشمة. . . إنهن دائماً يفكرن في أبناء جلدتهن. . . كيف حدث ولم يحرقوا تارا يا سكارلت؟».

صمتت سكارلت هنيهة قبل أن تجيب. لقد أدركت أن السؤال التالي سيكون. . . وكيف حال جميع الأهل، وكيف حال أمك العزيزة؟ وأدركت أنها لن تستطيع إخبارهن أن إيلين ماتت، وأدركت أنها إذا نطقت بهذه الكلمات، أو حتى إذا سمحت لنفسها مجرد التفكير في هذه الكلمات في حضور هؤلاء النسوة العطوفات، فستنفجر في عاصفة من الدموع، وستبكي حتى تمرض. . . في الوقت الذي لا تستطيع فيه السماح لنفسها بالبكاء. . . فهي في الحقيقة لم تبكِ منذ عودتها إلى البيت، ولذلك أدركت أنها إذا ما سمحت مرة بانسياب الدمع من شؤونها، فإن شجاعتها الموفرة ستذهب كلها. ولكنها أدركت أيضاً، وهي تنظر حائرة إلى الوجوه الصديقة حولها، أنها إذا كتمت نبأ موت إيلين، فلن يسامحها الفونتينيون أبداً، خصوصاً أن غراندما كانت مخلصة لإيلين، ولم يكن يوجد في المقاطعة سوى عدد قليل جداً من الناس الذين تقدرهم السيدة العجوز.

- «هيا، تكلمي» قالت غراندما، ناظرة إليها نظرة حادة، «ألا تعرفين يا آنسة؟».

- «إن المسألة هي أني لم آتِ إلى البيت حتى اليوم الذي تلا المعركة». أجابت على عجل، «لقد كان جميع الشماليين قد ذهبوا

حينئذ. بابا - بابا أخبرني ذلك - إنه استطاع إقناعهم بعدم إحراق البيت، لأن سولين وكارين كانتا مريضتين بالتيفوئيد، بحيث لم يكن نقلهما مستطاعاً».

- «هذه أول مرة أسمع فيها أن شمالياً يقوم بعمل نبيل» قالت غراندما، وكأنها آسفة لسماع شيء حسن عن الغزاة، «وكيف حالة الفتاتين الآن؟».

- «إنهما أحسن من قبل، أحسن بكثير. شفيتا تقريباً ولكنهما لا تزالا ضعيفتين» أجابت سكارلت، ثم أسرعت، وقد رأت السؤال الذي تخشاه يحوم على شفتي السيدة العجوز، تبحث عن موضوع آخر للحديث.

- «هل لي - هل لي أن أعلم إن كنتن ستقرضننا شيئاً نأكله. لقد سلبنا الشماليون كل شيء، كما يفعل سرب الجراد، ولكن إن كنتن تفتقرن إلى الغذاء فأخبرنني بصراحة».

- «أرسلي بورك مع عربة، وسنبعث لك بنصف ما عندنا من الأرز والدقيق واللحمة وبعض الدجاج» قالت السيدة العجوز ملقية على سكارلت نظرة حادة فجائية.

- «إن ذلك كثير جداً! في الحقيقة إني...».

- «ولا كلمة، لا أريد أن أسمعها... فلأي شيء يكون الجيران؟».

- «أنت لطيفة جداً بحيث إني لا أستطيع... ولكن ينبغي أن أذهب الآن، فسيكون الأهل في البيت قلقين عليَّ».

نهضت غراندما فجأة، وأخذت سكارلت من ذراعها قائلة: «ابقيا أنتما هنا»، ثم اتجهت وإياها نحو الشرفة الخلفية وأردفت: «عندي حديث خاص سأقوله لهذه البنية. ساعديني على نزول الدرجات يا سكارلت».

ودَّعت الآنسة الفتية وسالي، ووعدتاها بالزيارة سريعاً. وكانتا تتحرقان لمعرفة ما الذي ستقوله غراندما لسكارلت، ولكنهما لن تعرفا شيئاً عن ذلك ما لم تبادر هي إلى إخبارهما. إن العجائز عسيرات جداً، همست الآنسة الفتية في أذن سالي، وهما عائدتان لاستئناف الخياطة.

وقفت سكارلت ويدها على لجام الحصان، وقلبها ينتابه شعور غامض.

- «والآن» قالت غراندما متفرسة في وجهها، «ماذا حدث في تارا؟ ماذا تكتمين؟».

نظرت سكارلت في العينين الحادتين المسنتين، وعرفت أن في وسعها قول الحقيقة دون أن تذرف الدمع، فلم يكن في وسع إنسان البكاء في حضور غراندما فونتين من دون إذنها الصريح.

- «لقد ماتت أمي» قالت سكارلت بفتور.

واشتد ضغط اليد التي على ذراعها حتى آلمتها، وأطرف الجفنان المتغضان على العينين الصفراوين.

- «هل قتلها الشماليون؟».

- «ماتت بالتيفوئيد. ماتت... في اليوم الذي سبق وصولي».

- «لا تفكري في ذلك» قالت غراندما بحزم، ورأتها سكارلت تبلع ريقها... «ووالدك؟».

- «والدي... والدي ليس على طبيعته».

- «ماذا تعنين؟ أفصحي... هل هو مريض؟».

- «إن الصدمة... إنه غريب الأطوار كثيراً... إنه ليس...».

- «لا تخبريني أنه ليس على طبيعته... هل تعنين أن عقله اختل؟».

كان سماع الحقيقة تُنطق جهاراً أمراً مفرِّجاً عن النفس. ما أحسن

السيدة العجوز لأنها لم تبدِ من التأثر ما كان سيدفع سكارلت إلى البكاء. «نعم» قالت باكتئاب، «لقد فقد عقله. إنه يتصرف تصرف الشدة، وأحياناً يبدو كأنه لا يستطيع تذكّر أن أمي ميتة... آه أيتها السيدة، إن أكثر مما أستطيع احتماله أن أراه يجلس في وقت معيّن، ينتظر قدومها، ويصبر أيضاً... وهو الذي اعتاد ألّا يصبر أكثر من طفل... بيد أن أسوأ من هذا كله، حالته عندما يتذكر أنها قضت... فبين الفينة والأخرى، وبعد أن يكون قد جلس صامتاً وأذنه منتصبة لسماعها، يثب فجأة ويخرج منفعلاً من البيت متجهاً إلى مدفنها، ثم يعود مجرجراً قدميه، والدموع تغمر وجهه، ويردد القول التالي مرة بعد مرة، حتى إني أكاد أصرخ: «كيتي سكارلت، لقد ماتت السيدة أوهارا. لقد ماتت أمك» وأحس تماماً كما لو أني أسمع العبارة للمرة الأولى. وأحياناً، وفي ساعة متأخرة من الليل أسمعه يناديها فأغادر سريري وأذهب إليه وأخبره أنها في حي الزنوج مع عبد مريض، فيثور لأنها دائماً تُتعب نفسها في تمريض الناس، وحينذاك تصعب إعادته إلى السرير... إنه كالطفل. آه، أتمنى لو كان الدكتور فونتين هنا! إني أعرف أن في وسعه عمل شيء من أجل بابا! كما أن ميلاني في حاجة إلى طبيب أيضاً، فهي لم تتحسن كما ينبغي بعد أن وضعت طفلها».

- «ميلاني... طفل؟ وهي معك؟».

- «نعم».

- «ماذا تفعل ميلاني معك؟ لماذا هي ليست في ميكون مع عمتها وأقربائها؟ لم أعتقد يوماً أنك تميلين إليها كثيراً يا آنسة. على الرغم من أنها شقيقة تشارلز. والآن أخبريني كل ما في الأمر».

- «إنها قصة طويلة يا سيدة. ألا تريدين العودة إلى داخل البيت للجلوس؟».

- «في وسعي الوقوف» قالت غراندما باقتضاب، «وإذا أنت رويت

قصتك أمام الأخريين، فستولولان وتجعلانك تتألمين. والآن دعينا نسمعها».

بدأت سكارلت متلعثمة بالحديث عن الحصار وعن حالة ميلاني، ولكن بينما كانت تتقدم بسرد قصتها أمام عيني العجوز النافذتين اللتين لن يرف لهما جفن أثناء تحديقهما، وجدت ألفاظاً تسعفها، ألفاظاً ذات قوة ورهبة، وحضرتها كل الأحداث: ولادة الطفل في اليوم الشديد القيظ، نوبة الخوف الرهيبة التي انتابتها آنذاك، ثم الهرب ومغادرة ريت لهم. وتحدثت عن ظلام الليل البهيم، وعن نيران المعسكرات المتأججة، التي كان يمكن أن تكون نيران أصدقاء او أعداء... وتحدثت عن المداخن الهزيلة التي واجهت عينيها الشاخصتين خلال شمس الصباح، وعن الرجال والخيول الميتة مدى الطريق، وعن الجوع والدمار، والخوف من أن تكون تارا قد احترقت.

- «... وفكرت لو أستطيع فقط بلوغ البيت... بلوغ أمي، فستدبر هي كل شيء وأستطيع بذلك أن ألقي عن نفسي العبء المضني. واعتقدت وأنا في طريقي إلى البيت أن أسوأ الأحداث قد حلَّت بي، ولكني عندما علمت بموتها عرفت ما كان أسوأ الأحداث حقاً».

وأطرقت عينيها إلى الأرض تنتظر غراندما أن تتكلم، وطال الصمت كثيراً بحيث تساءلت ما إذا كانت غراندما قد فشلت في إدراك حالتها اليائسة. وأخيراً سُمع الصوت الهرم، وكانت لهجته شفوقة أكثر من أي لهجة سمعت سكارلت غراندما تخاطب بها أي إنسان.

- «يا بنيتي، إن من السيّئ جداً للمرأة أن تواجه أسوأ ما يمكن أن ينتابها من أحداث، لأنها بعد أن تكون قد واجهت الأسوأ، لن تستطيع أن تخاف شيئاً البتّة. ومن السيّئ جداً للمرأة أيضاً أن لا تخاف شيئاً. أتعتقدين أني لم أفهم ما رويته لي... ما كابدته من أهوال؟ لا، إني

أفهم ذلك جيداً، إذ عندما كنت في مثل سنك، شهدت ثورة الوادي، التي حدثت بعد مذبحة قلعة ممس تماماً. . . أجل». قالت ذلك بصوت عميق عميق، «في مثل عمرك تماماً. فقد حدث ذلك منذ نيف وخمسين سنة. واستطعت الدخول بين الشجيرات والاختباء، وتمددت هناك، ورأيت بيتنا يحترق، والهنود يسلخون جلود رؤوس إخوتي وأخواتي. ولم يسعني إلا التمدد هناك والدعاء أن لا يفضح ضوء اللهيب مخبئي. ثم جرّوا أمي إلى الخارج، وقتلوها على بعد عشرين قدماً تقريباً من المكان الذي كنت مستلقية فيه، وسلخوا جلدة رأسها كذلك. وتكررت عودة الهنود فرادى إليها، وكل منهم يغز حربته في جمجمتها. ولقد كنت. . . كنت محظية أمي، واستلقيت هناك ورأيت المشهد بأكمله. وفي الصباح انطلقت نحو أقرب مستعمرة، وكانت على بُعد ثلاثين ميلاً، فقضيت ثلاثة أيام حتى بلغتها عبر الأهوار والهنود، وفيما بعد، اعتقدوا أني سأفقد عقلي. . . وفي ذلك المكان، قابلت الدكتور فونتين الذي اعتنى بي. . . آه. . . لقد حدث ذلك منذ خمسين سنة كما قلت، ومن ذلك الحين لم أخف شيئاً أو إنساناً لأني كنت قد بلوت أسوأ ما يمكن أن يحدث لي. ولقد أوقعني عدم الخوف ذلك في عديد من المشاكل وكلفني كثيراً من السعادة. لقد أراد اللّه للنساء أن يكنّ مخلوقات هيابة جبانة، ولذلك يوجد شيء غير طبيعي في المرأة التي لا تخاف. . . سكارلت، احتفظي دائماً بشيء لتخافيه - تماماً كما تحتفظين بشيء لتحبيه. . .».

وتلاشى صوتها ووقفت صامتة، وعيناها تنظران إلى الماضي، إلى ما قبل نصف قرن، إلى اليوم الذي كانت فيه خائفة. وتحركت سكارلت وقد نفد صبرها. . . لقد اعتقدت أن غراندما ستفهم، ولربما تدلّها على بعض الوسائل لحل مشاكلها. ولكنها كجميع المسنين، أغرقت في الحديث عن الأمور التي حدثت قبل أن يولد أي إنسان،

الأمور التي لم يكن أحد ليحفل بها. وتمنّت سكارلت لو أنها لم تثق بها.

- «حسناً، عودي إلى البيت يا بنية، وإلا سيجزعون عليك» قالت غراندما فجأة، «وأرسلي بورك مع العربة بعد ظهر اليوم... ولا تظني أن في إمكانك إلقاء العبء عن نفسك يوماً... إني أعرف ذلك».

* * *

تلكأ الصيف الهندي في تلك السنة فامتد حتى نوفمبر، وكانت أيامه الدافئة أياماً رائعة بالنسبة إلى قاطني تارا. لقد انقضت أسوأ الأيام. أما اليوم فهم يملكون حصاناً وفي وسعهم الركوب بدلاً من المشي، وهم ينعمون ببيض مسلوق للفطور وبلحم مشوي للغداء في سبيل تغيير ديمومة البطاطا والفول والتفاح المجفف، وفي إحدى المناسبات المفرحة ظفروا حتى بالدجاج المحمر.

وكان قد قبض على الخنزيرة الهرمة في النهاية، فقبعت هي وخنانيصها هانئة تحت البيت، حيث زربت. وكانت بعض الأحيان تقبع قباعاً عالياً جداً بحيث لا يستطيع أحد التحدث داخل البيت، ولكنه كان صوتاً ساراً رغم ذلك، فقد كان يعني لحماً طازجاً للبيض ومقانق للزنوج، وذلك عندما يبرد الطقس ويحين أوان ذبح الخنازير، وهو يعني أيضاً طعاماً للجميع خلال فصل الشتاء.

لقد قوَّت زيارة سكارلت لآل فونتين عزمها أكثر مما أحست. فإن مجرد معرفتها بوجود جيران لها، وأن بعض أصدقاء العائلة والبيوت القديمة ما زالت باقية، أبعدت عنها الخسارة الفادحة والشعور بالوحدة اللذي أمضّاها خلال أسابيعها الأولى في تارا. وكان آل فونتين وآل تارلتون الذين لم تكن مزرعتاهما في طريق الجيش الزاحف، كرماء جداً في إشراك تارا بالقليل الذي يملكون، لقد كان من تقاليد المقاطعة أن يساعد الجار جاره، ولذلك رفضوا قبول بنس واحد من سكارلت،

قائلين إنها كانت ستفعل الشيء ذاته معهم لو هم أصيبوا، وإن في وسعها سدادهم من المحاصيل، عندما تعود تارا إلى الإنتاج في السنة التالية.

أضحت سكارلت الآن تملك طعاماً لأفراد بيتها، وتملك حصاناً ونقوداً ومصاغاً أُخِذت من الشمالي الشارد، صار أشد ما تحتاج إليه الآن هو الكساء الجديد. كانت تعرف أن من المخاطرة إرسال بورك جنوباً لشراء الثياب، حيث يمكن أن يُسلب الحصان سواء من قبل الشماليين أو الجنوبيين، غير أنها على الأقل كانت تملك النقود التي تستطيع بها شراء الثياب، وتملك حصاناً وعربة من أجل الرحلة، وقد يستطيع بورك القيام بالرحلة دون أن يُقبض عليه... أجل لقد انقضى الأسوأ.

كانت سكارلت عندما تستيقظ كل صباح، تشكر اللّه على السماء الشاحبة الزرقة وعلى الشمس الدافئة، لأن كل يوم من هذا الطقس الجيد، كان يؤخر الوقت الذي لا مناص منه والذي سيكون فيه الرهط في حاجة إلى الملابس الشتوية، كما أن كل يوم دافئ يمر كان يلازمه قطن أكثر وأكثر من سابقه يتكوم عالياً في غرف الزنوج الفارغة، المكان الوحيد الذي بقي للخزن في المزرعة. ويبدو أن حقول المزرعة كانت تحوي قطناً أكثر مما خمنت هي وبورك، فقد يبلغ النتاج أربع بالات، وسرعان ما ستمتلئ الغرف.

ولم تكن سكارلت قد قررت قطاف شيء من القطن بنفسها، حتى بعد سماع ملاحظة غراندما فونتين اللاذعة. لقد كان مما لا يمكن التفكير فيه، أن يكون عليها هي، إحدى سيدات آل أوهارا وسيدة تارا الآن، العمل في الحقل، فإن ذلك يضعها في نفس مستوى السيدة سلاتري ذات الشعر الجعدي، وابنتها إيمي. لقد قررت أن يكون من واجب الزنوج القيام بعمل الحقل، بينما تعتني هي وشقيتاها النقهتان

بشؤون البيت. غير أنها جوبهت بشعور طبقي أعنف حتى من شعورها هي، ذلك أن بورك ومامي وبرسي استنكروا صائحين فكرة تشغيلهم في الحقل، مردّدين القول إنهم زنوج بيتيون لا عمال حقل، كما أعلنت مامي، بصورة خاصة، أنها لم تكن يوماً ما حتى زنجية ساحة. لقد ولدت في بيت آل روبيلارد العظيم، لا في غرفة الزنوج، ولقد تنشأت في غرفة نوم السيدة الجليلة، تنام على فرشة قش عند أسفل السرير. أما دلسي فهي الوحيدة التي لم تقل شيئاً، بل إنها أخضعت ابنتها برسي بعين لا تطرف جعلتها تتلوى فزعاً.

رفضت سكارلت سماع الاحتجاجات، وساقتهم جميعاً إلى أثلام القطن، ولكن مامي وبورك اشتغلا ببطء شديد، وبكثير جداً من عبارات التذمر، ما دفع سكارلت إلى إعادة مامي إلى المطبخ لطهي الطعام، وإلى إرسال بورك إلى الغابات والنهر، ومع فخاخ لصيد الأرانب والسناجب وشباك لصيد السمك. لقد كان قطاف القطن يحط من كرامة بورك ولكن الصيد لم يكن كذلك.

جربت سكارلت بعد ذلك شقيقتيها وميلاني في عمل الحقل، ولكن ذلك لم يسفر عن نتيجة أفضل، لقد قطفت ميلاني بعناية وسرعة وطيبة خاطر مدة ساعة في الشمس الحارة، ثم أُغمي عليها من دون ضجيج، واضطرت إلى أن تلزم فراشها طوال أسبوع. أما سولين فقد تظاهرت بالإغماء وهي متجهمة الوجه منهمرة الدموع، ولكنها عادت إلى رشدها وهي تبصق كقطة غضبى، عندما سكبت سكارلت قِدر ماء على وجهها، وأخيراً أعلنت رفضها جهاراً قائلة:

- «لن أشتغل في الحقول كزنجية، وليس في وسعك إرغامي على ذلك. وماذا لو سمع أحد أصدقائنا بذلك؟ ماذا لو... لو علم السيد كنيدي؟ آه لو أن أمك علمت بهذا!».

- «إذا ما ذكرت اسم أمك مرة أخرى فقط يا سولين أوهارا،

فسأصفعك علناً»، صاحت سكارلت، «لقد كانت ماما تشتغل بجد أكثر من أي زنجي في هذا المكان. وأنت تعرفين ذلك أيتها الآنسة المغناج».

- «لا، لم تكن تشتغل! على الأقل ليس في الحقل، وليس في وسعك تشغيلي. سأخبر بابا عنك، فهو لن يجبرني على الشغل».

- «إياك أن تقدمي على إزعاج بابا بأي من مشاكلنا!» صاحت سكارلت حائرة بين السخط على شقيقتها وبين الخوف على أبيها.

- «أنا أساعدك يا أختاه» تدخلت كارين بسذاجة، «سأشتغل عن سولين وعن نفسي أيضاً. إنها لم تنقه بعد وينبغي ألّا تخرج في الشمس».

فأجابت سكارلت مقرَّة بجميلها:

- «أشكرك يا حلوتي» ولكنها نظرت مكتظة إلى سولين.

لم تعد كارين التي كانت دائماً بيضاء موردة الوجه كأزهار البستان التي نثرتها ريح الربيع، لم تعد متوردة الوجه، بيد أنها ما زالت تحمل في وجهها العذب المفكر صفة شبيهة بصفات الزهور، فقد كانت صامتة مبهورة قليلاً، منذ استعادت وعيها واكتشفت أن إيلين لفظت روحها وأن سكارلت أصبحت فظة وأن الدنيا تبدلت وأن نظام العهد الجديد هو العمل الدائم الذي لا يتوقف. ولم يكن في طبيعة كارين الرقيقة القدرة على تكييف نفسها مع هذا التطور، ولم تستطع ببساطة فهم الذي حدث ولذا راحت تتجول في تارا كمن يسير في نومه. تفعل تماماً ما تؤمر بفعله. كانت تبدو كما هي نحيلة، ولكنها كانت ذات إرادة قوية، مطيعة مفضالة، وعندما لم تكن منهمكة في تنفيذ أوامر سكارلت، كانت سبحتها دائماً في يديها، وشفتاها تتحركان في الصلاة لأمها ولبرنت تارلتون. ولم يخطر في بال سكارلت أن كارين قد

اعتبرت موت برنت بمثل هذه الفداحة، وأن حزنها عليه لم ينضب بعد، إذ كانت كارين في نظرها لا تزال طفلة صغيرة جداً أصغر من أن تنتابها قضية حب جدي حقاً.

وبينما كانت سكارلت تقف في الشمس بين صفوف القطن وظهرها مقصوم من الانحناء، ويداها متخشنتان من لوزات القطن الجافة، تمنت لو كان لها شقيقة تجمع بين حيوية سولين وقوّتها ومزاج كارين الطيب. فقد كانت كارين تقطف بنشاط ولهفة، ولكنها بعد أن عملت مدة ساعة، ثبت بوضوح أنها هي لا سولين التي لم تنقه بعد لتستطيع القيام بعمل كهذا، وهكذا أعادت سكارلت كارين إلى البيت أيضاً.

ولم يبقَ معها الآن بين صفوف القطن الطويلة سوى دلسي وبرسي فقط، برسي تقطف بتوان ونزق، متذمرة من قدميها وظهرها ودواعي شقائها الداخلية وإعيائها التام، حتى اضطرت أمها إلى أن تأخذ ساق قطن وتجلدها به إلى أن صاحت. وعلى أثر ذلك حسّنت عملها قليلاً، وحرصت على أن تقف بعيداً عن متناول أمها.

أما دلسي فكانت تعمل صامتة دون إعياء كالآلة، وفكرت سكارلت وظهرها يؤلمها وكتفها منفطة من جرّاء حمل كيس القطن الثقيل، فكرت أن دلسي تساوي وزنها ذهباً.

- «دلسي» قالت، «عندما تعود الأوقات الطيبة، لن أنسى كيف كنت تشتغلين، لقد كنت طيبة للغاية».

لم تبتسم العملاقة البرونزية سروراً، ولم تتهادَ إعجاباً بتأثير الإطراء، كما كان يفعل الزنوج الآخرون، بل أدرات وجهها رصيناً نحو سكارلت وقالت بوقار:

- «أشكرك يا سيدة، ولكن السيد جيرالد والسيدة إيلين كانا كريمين معي، لقد اشترى السيد جيرالد ابنتي برسي لئلا أحزن من

أجلها ولن أنسى صنيعه. إني هندية جزئياً، والهنود لا ينسون من أحسن إليهم. إني آسفة لتصرف برسي، فهي عديمة الفائدة تماماً، ويظهر أنها زنجية مئة في المئة كأبيها... لقد كان أبوها في منتهى الطيش».

على الرغم من فشل سكارلت في الحصول على عون الآخرين من أجل قطاف القطن، وعلى الرغم مما أصابها من ضنى بسبب قيامها بالمهمة بنفسها، فقد ارتفعت معنوياتها والقطن يأخذ طريقه ببطء إلى غرف الزنوج، إذ كان هناك شيء في هذا القطن يطمئنها ويقوي عزمها... لقد ارتقت تارا إلى الثروة عن طريق القطن، تماماً كما ارتقى الجنوب كله، ولقد كانت سكارلت جنوبية إلى درجة تجعلها تؤمن بأن تارا والجنوب سيرتقيان ثانية عن طريق الحقول الحمراء.

طبعاً، لم يكن هذا القطن الذي جمعته مقداراً كبيراً، ولكنه كان شيئاً له قيمته إذ سيتيح لها الظفر بقليل من العملة الحلفية، وسيساعدها هذا القليل على توفير أوراق النقد والذهب المدخرين في حافظة الشمالي إلى أن يحين الوقت اللازم لصرفهما. وستحاول في الربيع التالي أن تجعل حكومة الحلف تعيد إليها سام الكبير وزنوج الحقل الآخرين الذين جنّدتهم، وإذا لم تطلق الحكومة سراحهم، فستستغل نقود الشمالي لاستئجار عمال حقول من الجيران... ستزرع في الربيع القادم، ستزرع الكثير... ورفعت ظهرها المتعَب وأرسلت نظرها فوق حقول الخريف البنية اللون، ورأت نباتات السنة التالية، تنتصب قوية خضراء، فداناً إثر فدان.

الربيع القادم! قد تنتهي الحرب وتعود الأوقات الطيبة في الربيع القادم. وسواء ربح الحلف أم خسر، ستكون الأيام أفضل من هذه. أي شيء سيكون أفضل من خطر الغارات الدائم من كلا الجيشين... عندما تنتهي الحرب، سيكون في وسع المزرعة أن توفر معيشة شريفة

لقاطنيها. . . آه لو أن الحرب منتهية وحسب، لاستطاع الناس حينئذ أن يزرعوا الغلال، وفي قلوبهم بعض الثقة بأنهم سيحصدونها.

لقد لاح الأمل الآن، فالحرب لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وهي تملك قطنها القليل وقوتاً وحصاناً، وتملك بالإضافة إلى ذلك نقودها المكنوزة. . . أجل لقد انقضى الأسوأ.

27

عند ظهر من أظهار منتصف نوفمبر، كان آل أوهارا يجلسون مجتمعين حول مائدة الغداء يأكلون بقية الحلوى التي ابتدعتها مامي من دقيق الذرة والتوت، وحلَّتها بنبات السورغوم[1]. وكان الهواء يحمل لذعة باردة، اللذعة الباردة الأولى لهذه السنة، وفرك بورك، الذي كان يقف وراء كرسي سكارلت، يديه فرحاً ثم استوضح:

- «أليس هذا هو أوان ذبح الخنازير يا آنسة سكارلت؟».

- «في وسعك تذوّق تلك المقانق منذ الآن، أليس كذلك؟»، قالت سكارلت مبتسمة، «على كل حال في وسعي أنا تذوّق لحم الخنزير الطازج، وإذا احتفظ الطقس بحالته أياماً قليلة أخرى، فسوف. . .».

وهنا قاطعتها ميلاني، وملعقتها على شفتيها، قائلة:

- «أصغي يا عزيزتي. . . هناك شخص قادم».

- «شخص يصرخ» قال بورك مضطرباً.

وحمل هواء الخريف الجاف صوت حوافر خيل، تدق الأرض سريعة كطرقات قلب مذعور، وحمل الهواء أيضاً صوت امرأة تصيح بأعلى صوتها:

---

(1) نبات شبيه بقصب السكر - (المترجمان).

- «سكارلت! سكارلت!».

والتقت العيون حول المائدة في لحظة رهيبة، قبل أن تدفع الكراسي إلى الخلف، ويقفز الجميع. وعلى الرغم من أن الخوف أحال الصوت إلى زعيق حاد، فإن كل من في الغرفة ميَّز فيه صوت سالي فونتين، التي كانت قد توقفت في تارا لحديث قصير، وهي في طريقها إلى جونسبورو وقبيل ساعة فقط. وعندما اندفع الجميع في هرج ومرج ليتجمهروا على الباب الأمامي، رأوها تصعد الممشى بسرعة الريح فوق حصان مزبد، وقبعتها متدلية بالشرائط.

لم تجذب سالي عنان فرسها، ولكن فيما كانت تعدو كالمجنونة نحوهم، راحت تلوِّح بيدها إلى الخلف، في الاتجاه الذي جاءت منه.

- «الشماليون قادمون! لقد رأيتهم في أسفل الطريق! الشماليون...» وضربت بعنف على فم الحصان، تماماً في الوقت الملائم، لتمنعه من الوثب على الدرجات الأمامية، فاستدار الحيوان باندفاع، وقطع المرجة الجانبية في قفزات ثلاث، وقادته سالي عبر الحاجز البالغ ارتفاعه أربعة أقدام كما لو كانت في ميدان الصيد. ثم سمع الواقفون وقع حوافره الثقيلة وهو يجري في الساحة الخلفية، ومنها نزولاً إلى الزقاق الضيق، بين غرف العبيد، وأدركوا أنها تعدو عبر المزارع نحو ميموسا.

وقف الجميع هنيهة مشلولين بلا حراك، ثم شرعت سولين وكارين بالنشيج، ممسكتين بأصابع بعضهما، ووقف ويد الصغير مسمّراً في الأرض، يرتجف وهو غير قادر على البكاء. لقد وقع الذي كان يخافه منذ الليلة التي غادر فيها أتلانتا... إن الشماليين قادمون ليأخذوه.

- «الشماليون؟» قال جيرالد مخبولاً، «ولكن الشماليين كانوا هنا منذ فترة وجيزة».

- «يا للّه» صاحت سكارلت وعيناها تقابلان عيني ميلاني

المذعورتين. وعادت بها الذكرى في لحظة خاطفة. إلى أهوال ليلتها الأخيرة في أتلانتا، إلى البيوت المدمرة المنتشرة في الريف، إلى كل قصص الاغتصاب والعذاب والتقتيل، ورأت ثانية الجندي الشمالي يقف في القاعة وفي يده علبة خياطة إيلين وفكرت: «سوف أموت الآن هنا، لقد ظننت أننا انتهينا من كل هذا، سوف أموت، لا يسعني احتمال أي مصيبة أخرى».

ثم وقعت عيناها على الحصان مسرجاً مربوطاً ينتظر بورك ليركبه في مهمة إلى مزرعة آل تارلتون. حصانها! حصانها الوحيد! سيأخذه الشماليون ويأخذون البقرة والعجل أيضاً، والخنزيرة وخنانيصها - آه، كم ساعة متعبة استغرقت عملية القبض على تلك الخنزيرة وصغارها الخفاف الحركة! وسيأخذون الديك والدجاجات الرابضة فوق البيض والبط الذي أعطاها إياه آل فونتين، والتفاح والبطاطا الحلوة التي في صندوق المؤونة، والدقيق والأرز والحمص، والنقود التي في حافظة الشمالي. سيأخذون كل شيء، وسيتركونهم ليموتوا جوعاً.

- «لا، لن يأخذوها» صاحت بصوت مرتفع، والتفت الجميع نحوها ووجوههم مجفلة، وقد خشوا أن يكون قد أصاب عقلها سوء من جرّاء النبأ، «لا، لن أجوع! لن يأخذوها!».

- «ما هي يا سكارلت؟ ما هي؟».

- «الحصان! البقرة! الخنازير! لن يأخذوها! لن أدعهم يأخذونها!».

والتفتت بسرعة إلى الزنوج الأربعة، الذين ازدحموا في البوابة، يظلل وجوههم السوداء لون رمادي غريب، وقالت على عجل:

- «الهور!»

- «أي هور؟»

- «هور النهر أيها الأغبياء. خذوا الخنازير إلى الهور، جميعكم،

بسرعة. بورك أنت وبرسي ازحفا نحو البيت وأخرجا الخنازير. سولين! أنت وكارين املآ السلال بالقدر الذي تستطيعان من الطعام، واسرعا إلى الغابات، مامي! ضعي الأواني الفضية في البئر ثانية، وبورك أصغِ إليّ، لا تقف هناك هكذا، خذ بابا معك، لا تسلني أين! إلى أي مكان! اذهب مع بورك يا بابا... إنه والد طيب».

وحتى وهي على هذه الحالة من الجنون، فكرت فيما يمكن أن يفعل منظر المعاطف الزرقاء في عقل جيرالد المترجرج. ووقفت تلوي يديها، وزاد في هلعها نشيج الذعر ينبعث من ويد الصغير، وهو يتمسك بتنورة ميلاني.

- «ماذا أعمل يا سكارلت؟» ارتفع صوت ميلاني هادئاً وسط العويل والدموع والأقدام الهارعة. ومع أن وجهها كان أبيض كالورق، وجسدها كان يرتجف كله، إلا أن مجرد الهدوء في صوتها قوّى من جأش سكارلت، إذ أبان لها أنهم جميعاً يتطلعون إليها لتلقّي الأوامر، لتلقّي الإرشاد.

- «البقرة والعجل» قالت بسرعة، «إنهما في المرعى القديم. خذي الحصان وسوقيهما إلى الهور، و...».

وقبل أن تتمكن من إنهاء عبارتها، نفضت ميلاني قبضتَي ويد عن تنورتها، وانطلقت تنزل الدرجات الأمامية، وجرت نحو الحصان رافعة تنورتها وهي تركض. ولمحت سكارلت في نظرة خاطفة ساقين نحيلتين وتنورة تتطاير، وثياباً داخلية تخفق، ثم أضحت ميلاني فوق السرج، قدماها تتدليان أعلى من الركابين بمسافة كبيرة، بيد أنها جمعت الزمام بيدها وصفقت بقدميها على جنبي الحيوان ثم جذبته فجأة، ووجهها ينتفض فزعاً.

- «ولدي!» صاحت، «آه ولدي! سيقتله الشماليون! أعطني إياه!».

كانت يدها على عجرة السرج، وكانت تستعد للرحيل، ولكن سكارلت صاحت بها:

- «تابعي المسير. تابعي المسير! خذي البقرة! وسأعتني أنا بولدك. إني أقول لك تابعي المسير! هل تعتقدين أني سأدعهم ينالون ابن آشلي بسوء؟ تابعي المسير!».

وتطلعت ميلاني إلى الوراء بوجه يائس، ولكنها ضربت الحصان بقدميها، وانطلقت في الممشى نحو المرعى، بعد أن بعثرت الحصباء تحتها.

وهجست سكارلت: «لم أكن أتوقع أبداً أن أرى ميلاني هاملتون تهمز حصاناً بساقيها»، ثم جرت إلى داخل البيت وويد في أعقابها ينشج محاولاً إمساك تنورتها المتطايرة. وبينما هي تصعد الدرجات ثلاثاً ثلاثاً، رأت سولين وكارين وسلال السنديان على أذرعهما، تركضان باتجاه غرفة المؤونة، كما رأت بورك يشد ذراع جيرالد من دون رفق، يجرّه نحو الشرفة الخلفية، بينما جيرالد يغمغم متذمراً ويحاول الإفلات منه كصبي صغير.

وسمعت صوت مامي المجلجل، صادراً من الساحة الخلفية:

- «أنت يا برسي، انزلي تحت البيت وناوليني الخنانيص. إنك تعرفين تمام المعرفة أني سمينة جداً، لا أستطيع الزحف عبر هذا الممر. دلسي، تعالي هنا واجعلي هذه البنية العديمة الجدوى...».

«ولقد اعتقدتُ أن حفظ الخنازير تحت البيت خطة سليمة جداً، بحيث لن يستطيع أحد سرقتها» هجست سكارلت وهي تركض إلى غرفتها، «كيف! ها لماذا لم أبتنِ لها حظيرة في الهور؟».

وفتحت أعلى جارور في خزانتها بعنف، وبحثت بين الثياب إلى أن أضحت حافظة الشمالي في يدها. وبسرعة، تناولت الخاتم الثمين ذا الفص الواحد والقرطين الماسيَّين من حيث كانت تخبئهما في علبة

خياطتها ودسّتهما في الحافظة. ولكن أين ستخبئ الحافظة؟ في الفرشة؟ في أعلى المدخنة؟ ترميها في البئر؟ تضعها في صدرها، لا، ليس هناك أبداً! فقد تبين معالم الحافظة من خلال قميصها، وإذا رآها الشماليون فسوف يجرّدونها من ملابسها ويفتشونها.

«سأموت إن هم فعلوا ذلك» فكرت منذهلة.

ومن الطابق السفلي، كان يُسمع هدير الأقدام المتسابقة والأصوات الناشجة. حتى وهي في حالة جنونها هذه، تمنّت سكارلت لو كانت ميلاني معها، ميلاني بصوتها الهادئ، ميلاني التي تحلت بالشجاعة يوم قتلت الشمالي. إن ميلاني تساوي ثلاثة من الآخرين، ميلاني... ماذا قالت ميلاني؟ ها، نعم، الطفل!

وقربت الحافظة منها، وجرت عبر القاعة إلى الغرفة التي كان ينام فيها بو الصغير في مهده المنخفض، فانتشلته بين ذراعيها، واستيقظ هو، ملوِّحاً بقبضتيه الصغيرتين، مرغياً ناعساً. وسمعت سولين تصيح:

- «هيا يا كارين، لقد أخذنا الكفاية، هيا يا أختاه، أسرعي».

وعلا زعيق حاد وقباع ساخط من الساحة الخلفية. وعندما أسرعت سكارلت إلى النافذة، رأت مامي تتهادى مسرعة عبر حقل القطن بخنوص يحاول الهرب من تحت ذراعها، وخلفها كان بورك يحمل خنوصين ويدفع أمامه جيرالد، الذي كان يدوس عبر الأثلام، ملوِّحاً بعصاه.

وانحنت سكارلت عبر النافذة وصاحت:

- «خذي الخنزيرة يا دلسي! دعي برسي تطردها إلى الخارج. في وسعك سَوْقها عبر الحقول».

ورفعت دلسي بصرها، وكانت في ميدعها كومة من أدوات المائدة الفضية، وعلى وجهها أمائر الضيق، ثم أشارت إلى تحت البيت قائلة: «لقد عضت الخنزيرة برسي، وحبستها تحت المنزل».

«شكراً للخنزيرة» هجست سكارلت، وقفلت راجعة إلى غرفتها بسرعة. وعلى عجل، جمعت من مخبئها الأساور والدبوس والرسم الصغير والكأس التي وجدتها مع الشمالي القتيل، ولكن أين ستخبئها؟ كان الوضع مربكاً، فهي تحمل بو الصغير في إحدى ذراعيها، وتحمل المحفظة والحلى في الأخرى. وهرعت لتضع الرضيع على السرير. ولكن الطفل شرع في العويل عندما غادر ذراعها، وإذّاك خطرت لها فكرة سارة، أي مخبأ يكون أفضل من قماط الطفل؟ وبسرعة، قلبته على وجهه، ورفعت ثوبه ودفعت الحافظة في القماط، فزاد عويله حدّة بفعل ذلك، ولكنها بسرعة أحكمت وضع الخرقة المثلثة حول ساقيه الملبطتين.

«الآن» فكرت متنفسة نفساً عميقاً، «الآن إلى الهور».

واندفعت في القاعة العليا، حاشرة بو المولول تحت ذراعها، ضامة المصاغ إلى صدرها بالذراع الأخرى. وفجأة توقفت قدماها المسرعتان، وثنى الرعب ركبتيها... ما أشد سكون البيت! ما أدعى صمته إلى الفزع! هل ذهب الجميع وتركوها؟ ألم ينتظرها أحد؟ إنها لم تقصد أن يتركوها وحيدة هنا! ففي هذه الأيام يمكن أن يحدث كل شيء لامرأة وحيدة... والشماليون قادمون عليها...

ووثبت إثر سماع صوت خفيف، وعندما استدارت بسرعة، رأت ابنها المنسي يجلس القرفصاء بجانب الدرابزين، وعيناه متسعتان من الرعب. وحاول الصبي أن يبكي، ولكن بلعومه تحرك بصمت وحسب.

- «انهض يا ويد هاملتون» أمرته بسرعة، «انهض وسر على قدميك، فإن أمك لا تستطيع حملك الآن».

فجرى نحوها كحيوان صغير مذعور، وقبض على تنورتها الواسعة، دافناً رأسه فيها، واستطاعت أن تحس بيديه وهما تتلمسان

طريقهما بين ثنايا الثوب لتمسكا بساقيها. وشرعت تهبط السلّم، وَيَدا ويد تعرقلان كل خطوة من خطواتها، الأمر الذي جعلها تخاطبه بعنف: «اتركني يا ويد، اتركني وسر على قدميك» ولكن الطفل ازداد تعلقاً بها.

وعندما بلغت بسطة الدرج، وثب جميع الطابق السفلي نحوها، وبدا لها كأن جميع قطع الأثاث المألوفة المحبوبة كانت تهمس «وداعاً!» وارتفعت تنهدة إلى بلعومها ووقع بصرها على باب المكتب المفتوح، حيث كانت تعمل إيلين بنشاط فائق، واستطاعت أن تلمح زاوية المنضدة العتيقة. ورأت غرفة الطعام، الكراسي فيها مدفوعة جانبياً، والطعام ما زال في الصحاف، وعلى الأرض امتدت قطع السجاد الخشنة التي كانت إيلين قد حاكتها وصبغتها بنفسها، وكان هناك الرسم القديم لغراندما روبيلارد بثديين نصف عاريين، وبشعر مجموم عالياً، وبمنخرين مرسومين بشكل بارز جداً كي يضفيا على وجهها طابعاً تهكمياً رفيعاً خالداً. وبدت كل الأشياء التي كانت جزءاً من ذكرياتها الأولى، كل الأشياء المرتبطة بها بأعمق الجذور بدت كأنها تقول:

«وداعاً! وداعاً! سكارلت أوهارا!».

سيحرق الشماليون كل شيء... كل شيء!

إن هذه آخر رؤية لها للبيت، آخر رؤية لها، سوى الذي يمكن أن تراه من خلال حجب الغابات، أو من الهور، كالمداخن الطويلة يلفّها الدخان، والسقف يدمّره اللهيب.

«لا، لا أستطيع ترككم» فكرت وأسنانها تصطك من الخوف، «لا أستطيع ترككم... بابا لا يود ترككم... لقد أخبرهم أن يحرقوكم فوق رأسه. إذن ليحرقوكم فوق رأسي، لا أستطيع ترككم أنا أيضاً... إنكم كل ما أملك».

وبهذا القرار، زاولها بعض الخوف، ولم يبقَ فقط سوى إحساس متصلب في صدرها، كما لو أن كل الأمل والخوف قد تجمدا. وبينما هي تقف هناك، سمعت من ناحية الممشى الواسع، صوت أقدام خيل عديدة، جلجلة حديد أعنة، وقعقعة سيوف في أغمادها، وصوتاً أجش يصيح آمراً:

- «ترجلوا!» فانحنت بسرعة نحو الصبي الذي بجانبها، وقالت بصوت ملح ولكنه رقيق على غير عادته:

- «اتركني، ويد، حبيبي! هيا انزل السلّم جرياً واقطع الساحة الخلفية إلى الهور، ستكون مامي والعمة ميلي في انتظارك، اركض بسرعة يا عزيزي ولا تخف».

وتطلع الصبي إلى أعلى، يدفعه التغير في لهجة أمه، وارتاعت سكارلت من النظرة التي انتابت عينيه إذ بدا بها كأرنب صغير في الفخ.

«يا مريم العذراء!» ابتهلت، «لا تدعيه يتشنج من الخوف! لا، ليس أمام الشماليين، ينبغي ألّا يعرفوا أننا خائفون».

وعندما بالغ الطفل في تعلقه بأهدابها، خاطبته بصوت جلي:

- «كن شاباً يا ويد، إنهم مجرد زمرة من الشماليين اللعينين!»

ونزلت الدرج لتقابلهم.

* * *

كان شيرمان يزحف عبر جورجيا، من أتلانتا إلى البحر، وخلفه يتراكم حطام أتلانتا الداخن، التي أشعلت فيها النار ساعة غادرها الجيش الأزرق، وأمامه كانت تمتد مئات الأميال من ولاية تكاد تكون خالية من وسائل الدفاع عملياً، اللهم إلا من عدد قليل من ميليشيا الولاية وأفراد الحرس الوطني من العجزة والفتيان.

هنا تقع الولاية الخصبة، تنتشر فيها المزارع، وتأوي إليها النساء والأطفال والعجزة المسنون والزنوج، وعلى خط عرضه ثمانون ميلاً

منها، كان الشماليون ينهبون ويحرقون. كان هناك مئات من المنازل المشتعلة، مئات من المنازل تتصادى بوقع أقدامهم. ولكن، بالنسبة إلى سكارلت التي كانت تراقب المعاطف الزرقاء وهي تندفع في القاعة الأمامية من البيت، لم يكن الأمر قضية بلاد عامة، بل كان أمراً شخصياً محضاً، عملاً خبيثاً موجهاً إليها وإلى ممتلكاتها.

وقفت على أسفل السلّم، والطفل بين ذراعيها وويد يلتصق بها بقوة ورأسه مختفٍ في تنورتها، بينما أخذ الشماليون يتجمهرون داخل البيت، وينطلقون إزاءها بخشونة، صاعدين الدرج، جارّين قطع الأثاث إلى الشرفة الأمامية، غارزين الحراب والخناجر في المفروشات، نابشين بطونها بحثاً عن أشياء ثمنية مخبأة.

وفي الطابق العلوي راحوا يشقون الفراش وحشايا الريش، حتى امتلأ هواء القاعة بالريش الذي أخذ يتطاير ببطء هابطاً على رأسها. وبينما كان الجنود ينهبون ويسرقون ويدمّرون، وقفت هي حائرة عديمة الحيلة، وقد طرد الغضب الواهن ما تبقى من خوف قليل في قلبها.

كان الجاويش المسؤول رجلاً صغير الحجم شائباً مقوَّس الساقين، داخل فمه مضغة تبغ كبيرة، وكان قد بلغ موضع سكارلت قبل جميع رجاله، فابتدرها باقتضاب، باصقاً على الأرض، وعلى تنورتها جهاراً:

- «دعيني آخذ ما بيدك يا سيدة».

كانت سكارلت قد نسيت الحلى التي اعتزمت تخبئتها، فقذفت بها إلى الأرض باستهزاء أملت أن يكون بيّن الدلالة، كذلك الاستهزاء الذي ينطق به وجه غراندما روبيلارد في الصورة، وابتهجت تقريباً إذ رأت ما نتج عن قذف الحلي من تدافع ضارٍ بين الجنود في سبيل اغتنامها.

- «سأزعجك من أجل الخاتم وذينك القرطين» قال.

فحشرت سكارلت الطفل تحت ذراعها بصورة أكثر أماناً، بحيث تدلى وجهه نحو الأرض مخضباً مولولاً، ثم نزعت القرطين اللذين كانا هدية جيرالد لإيلين في عرسها. وبعد ذلك جرَّدت إصبعها من الخاتم ذي الياقوتة الزرقاء الكبيرة، الذي كان قد قدّمه لها تشارلز كخاتم للخطوبة.

- «لا تقذفيها، ناوليني إياها» قال الجاويش ماداً يديه، «لقد نال أولاد الزانية الآن ما يكفيهم. . . ماذا تملكين أيضاً؟» ومرَّت عيناه فوق قميصها بتمعُّن.

وفي الحال شعرت سكارلت لفترة بالإغماء، وأحست بيدين خشنتين تندفعان إلى صدرها وتعبثان بأحزمتها:

- «هذا كل ما أملك، ولكن أظن أن من المألوف لديكم تجريد ضحاياكم؟».

- «ها، سأثق بكلمتك» قال الجاويش بنيّة سليمة، وبصق ثانية وهو يستدير منصرفاً عنها. وعدلت سكارلت وضع الطفل، وحاولت تهدئته واضعة يدها فوق موضع المحفظة المخبأة في الدثار، شاكرة اللّه أن لميلاني طفلاً، وأن للطفل دثاراً.

واستطاعت سماع وقع الجزمات الثقيلة من الطابق العلوي، وقعقعة الأثاث وهو يقاوم جره على الأرض، وقرقعة الأواني الخزفية والمرايا المهشمة، وصوت اللعنات تنبعث عندما كان لا يجد الناهبون شيئاً قيماً. وبلغت مسامعها الصيحات العالية ترتفع من الساحة: «اقطعوا رؤوسها، لا تدعوها تفلت!»، وسمعت قوقأة الدجاج ورفرفة وبطبطة البط والإوز، وساورتها الغصة وهي تسمع قباعاً معذباً أُسكت فجأة بطلقة مسدس، وأدركت أن الخنزيرة قُتلت. . . ليلعن اللّه برسي! لقد هربت وتركتها، لو أن الخنانيص سلمت فقط! لو أن العائلة بلغت الهور بأمان فقط! ولكن ليس من سبيل لمعرفة شيء.

ووقفت ساكنة في القاعة، والجنود يتَّقدون غيظاً من حولها، صائحين لاعنين، وأصابع ويد تقبع داخل تنورتها بقبضة مذعورة. وأحست جسده يرتجف وهو يلتصق بها، ولكنها لم تتكمن من استعادة رباطة جأشها وطمأنينتها، كما لم تتمكن من استعادة رباطة جأشها ومخاطبة الشماليين بكلمة واحدة، سواء كانت كلمة توسل أو احتجاج أو سخط، لقد كان في وسعها فقط أن تشكر اللّه لأن ركبتيها ما زالتا تملكان القوة لحمل جسدها، ولأن عنقها ما زالت قوية إلى الدرجة التي تستطيع معها حمل رأسها عالياً. ولكن عندما أقبل جماعة من الرجال الملتحين، ينزلون السلّم ببطء، ويحملون تشكيلة من الأدوات المسروقة، ورأت سيف تشارلز في يدي أحدهم، صرخت باستنكار:

- «ذلك سيف ويد، كان يخص والده وجدّه».

وكانت سكارلت قد قدّمت السيف إلى ابنها الصغير في عيد ميلاده الأخير حيث أقاموا له احتفالاً رائعاً، وحيث بكت ميلاني بدموع الفخر والذكرى الأليمة ثم قبَّلت ويد قائلة إن عليه أن يكبر ليكون جندياً شجاعاً كأبيه وجده. وكان ويد فخوراً بسيفه، وكثيراً ما ارتقى المنضدة الموضوعة تحت الموضع الذي عُلِّق عليه السيف وربت عليه. وكان في وسع سكارلت رؤية ممتلكاتها تخرج من البيت في أيدٍ أجنبية مقيتة، ولكن ليس هذا، ليس فخر ابنها الصغير. أما ويد فإنه على أثر سماع صرخة والدته، حدّق من خلف تنورتها الواقية، ووجد الكلام والشجاعة فصرخ في نهدة قوية، ماداً يده:

- «سيفي!».

- «لا تستطيع أخذ ذلك السيف!» قالت سكارلت بسرعة، مادة يدها هي أيضاً.

- «لا أستطيع؟!» قال الجندي الصغير الذي كان يحمله، وكشر عن أنيابه بوقاحة وأردف: «بلى أستطيع، إنه سيف ثائر».

- «إنه. . . إنه ليس كذلك، إنه سيف من حرب المكسيك. . لا تستطيع أخذه، إنه لابني الصغير. لقد كان يخص جده، ها كابتن!» صاحت ملتفتة إلى الضابط: «أرجوك، مَرْهُ كي يعطيني إياه».

فخطا الجاويش إلى الأمام، مسروراً بلقبه الجديد الكبير:

- «دعني أرى ذلك السيف يا بوب».

فناوله الجندي الصغير السيف بتردد قائلاً:

- «إن له مقبضاً ذهبياً خالصاً».

فقلَّبه الضابط في يده، ورفع المقبض عالياً إلى ضوء الشمس ليقرأ الكتابة المنقوشة عليه:

- «إلى الكولونيل وليم ر. هاملتون. من هيئة قيادته لشهامته. بوينا فستا 1847».

- «ها يا سيدة» قال، «لقد كنت في بوينا فستا بنفسي».

- «حقاً» قالت سكارلت ببرود ظاهر.

- «أكنت أنا؟ كان هناك قتال ضارٍ، دعيني أخبرك. لم أشهد قتالاً في هذه الحرب كذاك الذي رأيناه في تلك. إذن هذا السيف كان سيف جد هذا الصبي الصغير؟».

- «أجل».

- «حسناً، في وسعه أخذه» قال الجاويش الذي قنع بالمجوهرات والحلى المصرورة في منديله.

- «ولكن له مقبض ذهبي خالص» أصر الخيّال الصغير.

- «سندعه لها لتذكرنا به» قال الجاويش ضاحكاً.

وأخذت سكارلت السيف، حتى دون أن تقول «أشكرك». ولماذا يتوجب عليها شكر هؤلاء اللصوص، وقد أعادوا إليها ملكها الخاص؟ ووضعت السيف على صدرها بينما كان الخيّال الصغير يجادل الجاويش ويتشاجر معه.

- «والله، سأعطي هؤلاء المتمردين الملعونين شيئاً يتذكرونني به» صاح الخيّال أخيراً عندما قال له الجاويش، وقد خرج عن طبعه، أن يذهب إلى الجحيم وأن لا يعارضه. وذهب الرجل الصغير ناقماً، واتجه إلى مؤخرة البيت، وتنفست سكارلت بسهولة أكثر... إنهم لم يقولوا شيئاً عن إحراق البيت، إنهم لم يبلغوها وجوب مغادرة البيت، كي يستطيعوا إشعال النار به. ربما... ربما... وأقبل الرجال من الطابق العلوي، ومن خارج البيت، إلى القاعة:

- «هل وجدتم شيئاً؟» سأل الجاويش.

- «خنزيرة واحدة وبعض الدجاج والبط».

- «بعض القمح وقليلاً من البطاطا الحلوة والفاصوليا. لا بد أن تكون تلك القطة البرية التي رأيناها على الحصان قد أنذرتهم بالشكل المطلوب. لا بأس».

- «ماذا أيها الجندي بولديفير؟».

- «لا يوجد الكثير هنا يا جاويش. لقد نلت أنت أفضل الموجود. دعنا نتابع المسير قبل أن تعلم جميع المنطقة بقدومنا».

- «هل حفرت يا ديدجا تحت الفرن؟».

- «لا يوجد فرن».

- «وهل حفرت في غرف الزنوج؟».

- «لا يوجد شيء سوى القطن في الغرف وقد أشعلنا النار فيه».

ولهنيهة قصيرة، تذكرت سكارلت الأيام الطويلة الحارة التي قضتها في مزارع القطن، وشعرت ثانية بالألم الرهيب في ظهرها، وأحست بجلد كتفيها المنفط المرضوض... كل ذلك ذهب سدى... فلقد ضاع القطن.

- «إنك لا تملكين كثيراً في الحقيقة، أليس كذلك يا سيدة؟».

- «لقد كان جيشكم هنا من قبل» قالت بفتور.

- «هذا هو الواقع، فلقد كنا هنا في هذه الناحية في سبتمبر» قال أحد الرجال، مقلباً شيئاً في يده، «لقد نسيت ذلك».

ورأت سكارلت ما كان يحمله الرجل، هو كشتبان إيلين الذهبي. آه، كم مرة رأته يلمع وإيلين تقوم بصنع زخارفها الجميلة. وأعاد منظره إلى تفكيرها ذكريات عديدة أليمة عن اليد النحيلة التي كانت تستعمله. وها هو الآن في راحة هذا الغريب القذرة الخشنة، وسرعان ما سيجد طريقه إلى الشمال، إلى أصبع امرأة شمالية تعتز بارتداء أشياء مسروقة... آه، إنه كشتبان إيلين!

وأطرقت سكارلت برأسها كي لا يراها العدو وهي تبكي، وسقط الدمع بطيئاً على رأس الرضيع، ومن خلال الدموع، رأت الرجال يتجهون نحو البوابة، وسمعت الجاويش يصيح آمراً بصوت مرتفع أجش. كانوا ذاهبين، وقد نجت تارا، ولكن سكارلت قلما شعرت بالسرور لأن ألم ذكرى إيلين كان يساورها. غير أن صليل السيوف ووقع حوافر الخيل جلبا لها قليلاً من الراحة، وفجأة وقفت ضعيفة فاقدة الأعصاب، بينما هم يبتعدون في الممشى الواسع، وكل رجل منهم مثقل بالمتاع المسروق من ألبسة وحرامات وصور ودجاج وبط وخنزيرة.

ثم حمل الهواء إلى منخريها رائحة الدخان، فالتفتت وقد وهنها جهد متضائل بحيث جعلها لا تعبأ بالقطن. ومن خلال النوافذ المفتوحة في غرفة الطعام، رأت الدخان يتعالى ببطء من غرف الزنوج. لقد ضاع القطن، وضاعت بضياعه أموال الضرائب وجزء من النقود التي كانت ستفرج عنها خلال هذا الشتاء المرير. ولم يكن في وسعها عمل شيء تجاه ذلك سوى مشاهدة أتعابها تحترق. لقد رأت النيران تلتهم أقطاناً من قبل، وعرفت صعوبة إخمادها، حتى مع وجود رجال كثيرين يكافحون من أجل ذلك. شكراً لله، فالغرف بعيدة جداً عن

البيت، وشكراً له لأنه لا توجد ريح اليوم لتحمل الشرر إلى سقف تارا.

وفجأة ترنحت في مكانها وهي متيبّسة كقضيب خشبي، وحملقت بعينين مذعورتين عبر القاعة، عبر الممر المسقوف المؤدي إلى المطبخ. كان هناك دخان يتصاعد من المطبخ.

وفي مكان ما بين القاعة والمطبخ، ألقت الرضيع من يدها، وفي مكان ما، طوَّحت بقبضة ويد قاذفة به إلى الحائط، واندفعت داخل المطبخ العابق بالدخان وقفلت منه مترنحة وهي تسعل وعيناها تذرفان الدموع بفعل الدخان. وثانية وثبت إلى الداخل وقد رفعت تنورتها إلى أنفها.

كانت غرفة المطبخ معتمة يأتيها النور من نافذة صغيرة مفتوحة من قبل، ويغشاها دخان كثيف أعمى سكارلت. غير أنها استطاعت سماع زفير النار وصفيرها، فمررت يدها عبر عينيها وحدقت خزراً، فرأت خيوطاً رفيعة من اللهيب تزحف عبر أرض المطبخ باتجاه الجدران... لقد نثر أحدهم كتل الخشب المتأججة التي كانت في الموقد المكشوف، في أنحاء الغرفة، التي كانت أرضها مصنوعة من ألواح الصنوبر الجاف السريع الاشتعال، تتشرب النار ثم تلقي بها عالياً كأنها الأمواه.

واندفعت سكارلت خلفاً إلى غرفة الطعام، واختطفت قطعة سجاد خشنة من أرضها بعد أن أوقعت كرسيين بصوت داوٍ:

«لن أتمكن من إخمادها أبداً - أبداً، أبداً! يا إلهي. لو كان أحد معي ليساعدني. إن تارا تحترق - تحترق!... آه يا إلهي! هذا ما عناه ذلك الوغد الصغير عندما قال إنه سيعطيني ما يذكّرني به. آه لو أنني تركته يأخذ السيف!».

وفي طريقها إلى القاعة مرّت بابنها مستلقياً في الزاوية مع سيفه. كانت عيناه مغمضتين، وفي وجهه استرخاء غير طبيعي.

«يا إلهي، إنه ميت، لقد أفزعوه حتى الموت» فكرت في كرب عظيم، ولكنها تجاوزته مندفعة نحو دلو ماء الشرب الذي كان يوضع دائماً في الممر قرب المطبخ.

غطّست سكارلت طرف السجادة في الدلو، وتنفست تنفساً عميقاً، ثم اخترقت الغرفة العابقة بالدخان مرة أخرى، صافقة الباب خلفها بعنف، واستمرت خلال فترة سرمدية، تترنح وتسعل وتضرب بالسجادة ألسنة اللهيب المندلعة أمامها بسرعة فائقة. وعلقت النار بتنورتها مرتين فأطفأتها بضربات يديها، واستطاعت أن تشم الرائحة المسقمة المنبعثة من شعرها المحترق، وقد أفلت من دبابيسه وانسدل على كتفيها. واستمرت ألسنة اللهيب تندلع أمامها نحو جدران الممر المسقوف، أفاعٍ نارية تتلوى وتثب. وأدركت والإعياء يجتاحها، أن لا أمل في الأمر.

ثم اندفع الباب بعنف، ودفع تيار الهواء المتسرب ألسنة اللهيب إلى أعلى، وانغلق الباب بدويّ شديد، ورأت سكارلت وهي تقف عمياء، ميلاني تدوس بقدميها فوق النيران وتقذفها بشيء قاتم ثقيل. ورأتها تترنح، وسمعتها تسعل، وبنظرة خاطفة كالبرق، لمحت وجهها المتصلب الشاحب، وعينيها وقد ضيقتهما اتقاءً للدخان فأمستا كثيفتين طويلتين، ورأت جسدها الصغير ينحني إلى الأمام والوراء، وهي تدفع سجادتها هبوطاً وصعوداً. ولفترة سرمدية ثانية، كافحتا وترنحتا جنباً إلى جنب، واستطاعت سكارلت أن تلحظ أن ألسنة اللهيب كانت تتقلص، ثم استدارت ميلاني نحوها فجأة، وبصيحة عالية، ضربتها على كتفيها بكل ما أوتيت من قوة فسقطت سكارلت وسط دوامة من الدخان والظلام.

وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها مضطجعة في الشرفة الخلفية ورأسها يتوسد حضن ميلاني مرتاحاً، وأشعة شمس الأصيل تصافح وجهها. وكان وجهها ويداها وكتفاها، جميع هذه الأطراف كانت تؤلمها ألماً لا يطاق من جرّاء الحروق، وكان الدخان لا يزال يتصاعد من غرف العبيد ويحجبها بسحبه الكثيفة، كما كانت رائحة القطن المحترق تنبعث شديدة قوية. ورأت سكارلت خيوطاً من الدخان تخرج من المطبخ فتحركت بعصبية تريد الوقوف.

ولكن ميلاني ردعتها وصوتها الهادئ يقول:

- «نامي مطمئنة يا عزيزتي، لقد أخمدت النار».

واستلقت سكارلت لهنيهة قصيرة وعيناها مغمضتان، وهي تتنفس الصعداء، ثم سمعت خرخرة الرضيع المرغية، وفواق ويد المطمئن... وهكذا لم يكن ميتاً، شكراً للّه! وفتحت عينيها، ورفعت بصرها نحو ميلاني، وإذا بخصلات شعرها قد احترقت أطرافها، وإذا بوجهها سوَّده السخام، ولكن عينيها كانتا تومضان عزيمة وهي تبتسم.

- «إنك تشبهين زنجية» دمدمت سكارلت، ودفنت رأسها من الإعياء في وسادته الطرية.

- «وأنت تشبهين الرجل الأخير في عرض شاعر متجول» أجابت ميلاني جواباً موافقاً.

- «لماذا اضطررت إلى ضربي؟».

- «لأن ظهرك يا عزيزتي كان يشتعل ناراً، ولم أتصور أنك ستقعين مغمياً عليك، مع أن اللّه يعلم أنك بَلَوْتِ اليوم ما يكفي لقتلك... لقد عدت حالما أوصلت الحيوانات سالمة إلى الغابات، وكدت أموت وأنا أفكر فيك وفي الطفل وحيدين. هل أساء الشماليون إليك؟».

- «إذا كنت تقصدين هل هتكوا عرضي، فلا» قالت سكارلت

وهي تئن محاولة النهوض، فمع أن حضن ميلاني كان طرياً، إلا أن الشرفة التي كانت تستلقي فوقها كانت أبعد من أن تكون مريحة، «ولكنهم سرقوا كل شيء، كل شيء، فقدنا كل شيء... على كل حال، ماذا يوجد لنتطلع إليه بعين قريرة هانئة؟».

- «إننا لم نفقد بعضنا، وولدانا في صحة جيدة، وعندنا سقف يظلل رؤوسنا» قالت ميلاني بصوت تشوبه نغمة هانئة، «وهذا كل ما يمكن أن يرجوه إنسان في الوقت الحاضر... يا للّه... ولكن بو مبلل! أظن أن الشماليين سرقوا حتى دثاره الإضافي، إنه... سكارلت، ماذا يوجد في دثاره؟».

وفجأة مدت يدها المرتعشة نحو أسفل ظهر الطفل وأخرجت المحفظة، وظلت تتأملها هنيهة، كأنها لم تكن قد رأتها من قبل، ثم طفقت تضحك، قهقهة إثر قهقهة لا يشوبها شيء من الخبل، بسبب ما اعتراها من فرح.

- «لا أحد سواك يمكن أن يفكر بهذه الطريقة» صاحت مطوِّحة بذراعها حول عنق سكارلت وقبَّلتها.

- «أنت أشقى شقيقة رأيتها في حياتي».

سمحت سكارلت بالعناق لأنها كانت تعبة جداً لا تستطيع المقاومة، ولأن كلمات الثناء كانت تجلب البلسم لروحها، ولأنه كان قد وُلد في المطبخ العابق بالدخان احترام أعظم لشقيقة زوجها، شعور أقرب إلى الزمالة.

«سأقول لها هذا» فكرت رغماً عنها، «إنها دائماً في خدمتك، عندما تحتاج إليها».

28

حل الطقس البارد فجأة ببرود قاتل، وتسرّبت الرياح الباردة من تحت عتبات الأبواب، وخفقت مصاريع النوافذ بصوت داو مطرد النغم، وسقطت آخر الأوراق عن الأشجار العارية، ولم تبقَ إلا أشجار الصنوبر بأوراقها، دكناء باردة تطاول السماء الشاحبة، وتصلّبت الطرق الحمراء المحفوفرة حتى أمست بصلابة الصوان، وعصفت رياح الجوع في أنحاء جورجيا.

وتذكرت سكارلت بمرارة، حديثها مع غراندما فونتين. ففي أصيل ذات يوم منذ شهرين، يوم يبدو الآن كأنه مر منذ سنين، قالت سكارلت للسيدة العجوز إنها عرفت أسوأ ما يمكن أن يقع لها. قالت ذلك من صميم قلبها، وها هي تلك العبارة تبدو الآن كأنها غلو تلميذة مدرسة.

كانت سكارلت قبل أن ينهب رجال شيرمان تارا للمرة الثانية، تملك ثروة صغيرة من القوت والنقود، وكانت تنعم بجيران أسعد منها حظاً، وتقتني القطن الذي سيُعينها حتى الربيع. أما الآن فقد ضاع القطن، ونفد الطعام، وأصبحت النقود عديمة الفائدة لها، لأنه لم يكن هناك طعام ليشترى بها، وتردى الجيران في ضائقة أشد من ضائقتها، فلقد كانت هي على الأقل تملك البقرة والعجل والحصان والخنانيص القليلة، بينما لم يكن الجيران يمكلون شيئاً سوى القليل الذي استطاعوا إخفاءه في الغابات، أو طمره في الأرض.

كان فيرهيل، منزل آل تارلتون، قد أُحرق من أساسه، وكانت السيدة تارلتون تعيش في بيت الناظر مع بناتها الأربع، وكذلك منزل آل مونرو قرب لافجوي، سُوِّي بالأرض أيضاً، كما أُحرق جناح ميموسا الخشبي، ولم ينقذه من الانهيار إلا الستوكو[1] السميك الصلب في البيت الرئيس، والعمل الجنوني الذي قامت به نساء آل فونتين وعبيدهم، بالشراشف واللحف المبللة، أما منزل آل كالفرت فقد نجا مرة ثانية بفضل شفاعة هيلتون، الناظر الشمالي، ولكن لم يبقَ لهم حيوان واحد أو طير، ولم يبقَ عرناس ذرة في مزرعتهم.

كانت المشكلة في تارا، وفي أنحاء المقاطعة، هي القوت، فمعظم العائلات لم تكن تملك شيئاً البتة سوى بقايا محصول البطاطا الحلوة والفول، وما يستطيعون صيده في الغابات من طير أو حيوان. وكانت كل عائلة تشرك أصدقاءها الأقل حظاً في ما تملك. كما سبق لهم أن فعلوا في الأيام الأكثر خصباً. ولكن سرعان ما جاء الوقت الذي لم يبقَ فيه شيء للمشاركة.

ففي تارا، صاروا يأكلون الأرانب والسناجب والسلاور وذلك إذا وُفِّق بورك في صيده، ويتناولون في الأيام الأخرى قليلاً من الحليب والجوز البرّي وثمار البلوط والبطاطا الحلوة المشوية، وكانوا دائماً جائعين. وتراءى لسكارلت إنها تلتقي دوماً بأيدٍ ممدودة، وعيون متضرعة، هذه المناظر التي كادت تقودها إلى الجنون لأنها كانت جائعة مثلهم.

أمرت سكارلت بذبح العجل، لأنه كان يشرب كثيراً من الحليب الثمين، وأكثر الجميع في تلك الليلة من أكل اللحم الطازج حتى مرضوا. وأدركت سكارلت أن لا بد من ذبح أحد الخنانيص، ولكنها

(1) نوع من الإسمنت - (المترجمان).

كانت تؤجل الأمر من يوم إلى يوم، آملة أن تنمي تلك الحيوانات الصغيرة إلى حد النضوج، فقد كانت هذه صغيرة جداً، ولا يستفاد منها إلا القليل إذا ما ذبحت الآن، بينما إذا وفرت لفترة قصيرة أخرى، فستكون حصيلتها أوفر بكثير. وبحثت سكارلت في الليل مع ميلاني مدى الصواب في إرسال بورك إلى الخارج على الحصان مع بعض النقود الاتحادية، ليحاول شراء الطعام، ولكن الخوف من احتمال مصادرة الحصان وسلب النقود من بورك ردعمها عن إتيان ذلك. فهما لا تعرفان أين يرابط الشماليون. . . فمن الممكن أن يكونوا على بعد ألف ميل، أو ربما خلف النهر. وفي إحدى المرات، همّت سكارلت في ركوب الحصان يدفعها اليأس للبحث عن القوت، ولكن الصراخ الجنوني لجميع أفراد العائلة الخائفين عليها من الشماليين، جعلها تتخلى عن خطتها.

وكان بورك يرود بعيداً، فيغيب طول الليل في بعض المرات دون أن تسأله سكارلت إلى أين ذهب، وكان أحياناً يعود ببعض الصيد، وأحياناً ببعض عرانيس من الذرة، أو بكيس من الحمص الجاف. ومرة عاد ومعه ديك وقال إنه وجده في الغابة، فأكلته العائلة بشهية يشوبها الشعور بالإثم، إذ كانت على يقين من أن بورك كان قد سرق الديك كما كان قد سرق الحمص والذرة. ولم تمضِ برهة وجيزة على هذا الحادث، حتى طرق بورك باب مخدع سكارلت في إحدى الليالي، وكان المنزل قد غرق في النوم منذ فترة طويلة، وعرض أمامها وهو خجل، ساقه المتألمة من إصابة صغيرة، وبينما هي تضمدها له، أوضح لها بارتباك أنه اكتُشف بينما كان يحاول الدخول إلى قن دجاج في فايتفيل، فلم تسأله سكارلت عن صاحب ذلك القن، بل ربتت على كتفه برفق، والدموع في عينيها. لقد كان الزنوج مثيرين أحياناً كما كانوا خمولين أغبياء، ولكن كان بهم إخلاص لا يمكن شراؤه بالمال،

وشعور بأنهم وأسيادهم البيض شيء واحد، مما كان يجعلهم يخاطرون بأرواحهم في سبيل إيجاد طعام لهم.

كانت سرقات بورك تعتبر في أيام غير هذه مسألة خطيرة من المحتمل أن تستدعي جلده، وكانت سكارلت في وقت غير هذا تضطر لتأنيبه بصرامة عليها، على الأقل.

«تذكّري دائماً يا عزيزتي» كانت إيلين تقول لها، «إنك مسؤولة عن أخلاق الزنوج، الذي عهد اللّه بهم لعنايتك، تماماً كمسؤوليتك عن صحتهم الجسدية. ينبغي أن تدركي أنهم كالأطفال وأنه يجب حفظهم من أنفسهم كالأطفال أيضاً، وعليك دوماً أن تضربي لهم مثلاً طيباً وتكوني قدوة صالحة».

ولكنها الآن، أبعدت تلك العظة من تفكيرها، فإن تشجيعها للسرقة، وربما سرقة أناس أتعس منها حالاً، لم تعد مسألة تتعلق بالضمير. والحقيقة أن الناحية الأخلاقية من المسألة، لم تكن لتؤثر فيها إلا قليلاً، وبدلاً من تأنيبه وعقابه أسفت لإصابته فحسب.

- «ينبغي أن تكون أكثر حذراً يا بورك، فنحن لا نريد أن نخسرك. كيف نعمل من دونك؟ إنك في غاية الطيبة والوفاء، وعندما نحصل على المال ثانية، سأشتري لك ساعة ذهبية، وأنقش عليها عبارة الإنجيل: «نعماً أيها العبد الصالح والأمين»».

فأشرق وجه بورك بفعل المديح، وحك ساقه المضمدة بحذر، وقال:

- «إن هذا رائع جداً يا آنسة سكارلت، متى تتوقعين الحصول على تلك النقود؟».

- «لا أعرف يا بورك، ولكني سأحصل عليها يوماً ما بإحدى الوسائل».

ورنت إليه بنظرة خاطفة غير رائية، نظرة مريرة حادة، جعلته يضطرب متأثراً

- «يوماً ما، عندما تنتهي هذه الحرب، سيصبح في حوزتي كثير من المال، وعندئذ لن أجوع، أو أبرد ثانية، لن يجوع أو يبرد أحد منا، سنرتدي جميع الملابس الجميلة، وسنأكل الدجاج المشوي كل يوم و. . . ».

ثم صمتت، إذ كان أصرم قانون في تارا، وهو القانون الذي وضعته هي نفسها والذي كانت تنفذه بحزم، لا يبيح لأي فرد التحدث عن الطعام الشهي الذي كانوا يأكلونه في الماضي، أو الذي يمكن أن يأكلوه الآن إذا ما سنحت الفرصة.

تسلل بورك خارج الغرفة، بينما ظلت هي تحدق مكتئبة نحو البعيد. . . في الأيام الماضية، الأيام التي أمست ميتة ضائعة الآن، كانت الحياة متشابكة جداً، تزخر بالقضايا المعقدة المتشابكة. فقد كانت هناك قضية محاولة كسب قلب آشلي، ومحاولة الاحتفاظ بعشر عشاق آخرين متعلقين بها، أشقياء بحبها، وكانت هناك انحرافات خلقية صغيرة ينبغي إخفاؤها عمّن هم أكبر منها سناً، ثم كانت هناك بنات حسودات ينبغي إغاظتهن أو ملاطفتهن، وأزياء للثياب والأدوات ينبغي اختيارها، وتسريحات للشعر مختلفة ينبغي تجربتها، وهناك قضايا كثيرة كثيرة جداً كان لا بد من البتّ فيها. أما الآن، فالحياة بسيطة بصورة مدهشة، وكل ما يهمها هو إيجاد طعام كاف يرد عن عيالها غائلة الجوع، وثياب كافية تدرأ عنهم البرد، وسقف فوق رؤوسهم لا يرشح بالماء إلا قليلاً.

ولقد كان خلال هذه الأيام أن حلمت سكارلت، مرة بعد أخرى، بذلك الكابوس الرهيب الذي لازمها سنين فيما بعد، واستمر أبداً على الوتيرة ذاتها، لم تتغير تفاصيله مطلقاً، ولكن الخوف منه كان يزداد في

كل مرة، كما كان الخوف من معاناته مرة أخرى يقلق حتى ساعات يقظتها. وكانت سكارلت تتذكر تماماً حوادث ذلك اليوم الذي رأت فيه ذلك الحلم لأول مرة.

كان المطر البارد قد استمر في انهماره عدة أيام، وكان المنزل شديد البرودة بفعل الرطوبة وتيارات الهواء، وكان حطب الموقد مبللاً يبعث الدخان ويشيع القليل من الدفء، ولم يكن يوجد شيء للأكل منذ الفطور سوى الحليب، فقد نفدت البطاطا الحلوة ولم تؤتِ فخاخ بورك وشباكه صيداً، وكان لا بد من ذبح أحد الخنانيص في اليوم التالي، إذا أريد لهم أن يأكلوا شيئاً. . . وجوه متوترة جائعة، سوداء وبيضاء، كانت تشخص إليها، تطلب منها بصمت تدبير طعام. وكان عليها أن تخاطر بالحصان وترسل بورك لشراء القوت. وحتى تزداد الأمور سوءاً كان ويد مصاباً بالتهاب في الحنجرة تلازمه حمى مرتفعة، ولم يكن يوجد طبيب ولا دواء.

عهدت سكارلت بابنها لعناية ميلاني، بعد أن أعيت هي من رعايته، واضطجعت وهي جائعة في سريرها لتنام قليلاً. كانت قدماها باردتين كالثلج، فراحت تتثنى وتتقلب وهي عاجزة عن النوم، يثقلها ويهدها الخوف والقنوط. وفكرت مرة بعد مرة: «ماذا أعمل؟ إلي أين ألتجئ؟ ألا يوجد إنسان في الدنيا يستطيع مساعدتي؟». أين ذهب كل أمان الحياة؟ لماذا لم يوجد إنسان، إنسان قوي عاقل، ليأخذ الأعباء عنها. إنها لم تخلق لتحملها، إنها لم تعرف كيف تحملها. ثم أغرقت في غفوة منغصة.

ورأت نفسها في بلاد غريبة موحشة، كثيفة جداً بالضباب الدوّام بحيث لم تستطع رؤية يدها أمام وجهها. وأحست بالأرض قلقة تحت قدميها، لقد غدت بلاداً تسكنها الأرواح، بلاداً صامتة صمتاً رهيباً، وغدت هي ضائعة فيها، ضائعة مذعورة كطفل في الليل، جائعة باردة

برداً شديداً، هلعة جداً مما يكمن في الضباب حولها، حتى إنها حاولت أن تصيح فلم تستطع. كانت هناك أجرام غريبة في الضباب، تمد أصابعها لتقبض على تنورتها، لتحطها في الأرض القلقة المضطربة التي كانت تقف عليها، أياد طيفية صامتة عديمة الرحمة. ثم عرفت أنه في مكان ما، في الظلمة البهيمة المحدقة بها، يوجد ملجأ، عون، نعيم من النجدة والدفء، ولكن أين هو؟ وهل تستطيع بلوغه قبل أن تقبض عليها الأيدي وتغرسها في الميعاس؟

وفجأة رأت نفسها تركض، تركض خلال الضباب كإنسان مجنون، تبكي وتزعق، تمد ذراعيها لتقبض فقط الهواء الفارغ والضباب الرطب... أين كان الملجأ؟ إنه كان يتجنبها ولكنه كان موجوداً... مختفياً في مكان ما. لو أنها تستطيع بلوغه فقط! لو أنها تستطيع بلوغه لنجت! ولكن الرعب كان يهد ساقيها، والجوع يقودها إلى الإغماء. وصرخت صرخة يأس واحدة، واستيقظت لترى وجع ميلاني الجزع فوقها، ويدها تهزها لإيقاظها.

وراح هذا الحلم يعاودها مرة بعد مرة... كلما ذهبت للنوم بمعدة فارغة، الأمر الذي كان يتكرر دائماً. وأرعبها الأمر كثيراً حتى أصبحت تخاف النوم مع أنها كانت تطمئن نفسها وهي قلقة، أن لا وجود لشيء تخافه في الحلم، لا وجود لشيء في حلم عن الضباب ليخيفها إلى هذه الدرجة، لا شيء أبداً... ومع ذلك ظلت فكرة وقوعها في تلك البلاد المليئة بالضباب ترعبها كثيراً، بحيث بدأت تنام مع ميلاني التي ينتظر أن توقظها عندما يدل أنينها وانتفاضتها المفاجئة على أنها في قبضة الحلم مرة أخرى.

وبفعل هذا الإرهاق، أضحت نحيلة شاحبة اللون، وفقد وجهها استدارته الجميلة فبرزت عظام وجنتيها، وبذا اتضح انحراف عينيها الخضراوين وبدت سمنتها كسمنة قطة جوعى، تبحث عن فريستها.

«حسبي ما أقاسيه في النهار جرّاء كابوس أحلام الليل» فكرت بائسة، وبدأت تدخر حصة يومها من الطعام لتأكلها قبل أن تأوي للنوم مباشرة.

* * *

في فترة عيد الميلاد، توجه إلى تارا في مسيرة متثاقلة، فرانك كنيدي وجماعة من فرقة التموين، في محاولة فاشلة لجمع حبوب وحيوانات للجيش. كانت جماعة رثة الثياب زرية المنظر، تمتطي خيولاً عرجاء لاهثة كانت من السوء على درجة بيِّنة بحيث لا يمكن استعمالها في مجال أكثر نشاطاً. وكان الرجال، كخيولهم، مسرحين من خطوط الجبهة الأمامية. وباستثناء فرانك، كان كل منهم بذراع مفقودة، أو عين ذاهبة أو مفاصل متيبّسة. وكان معظمهم يرتدي المعاطف الزرقاء التي انتزعوها من الأسرى الشماليين، ولذا ظن الموجودون في تارا لهنيهة مرعبة قصيرة، أن رجال شيرمان قد عادوا إليهم.

أمضى الرجال ليلتهم في المزرعة، نائمين على أرض الردهة، متنعّمين بالاستلقاء على السجاد المخملي، إذ كان قد مضى عليهم أسابيع، منذ أن ناموا تحت سقف، أو على أي شيء ألْيَن من أوراق الصنوبر المسننة، أو الأرض القاسية. وعلى الرغم من لحاهم القذرة وأسمالهم البالية، كانوا جماعة مهذبة، غنية بالأحاديث القصيرة الممتعة، وبالفكاهات والمجاملات، وسعيدة جداً لأنها تقضي أمسية الميلاد في بيت كبير، محاطة بنساء جميلات، كما اعتادت أن تقضيها في الماضي البعيد. ورفض الرجال أن يكونوا جديين فيما يتعلق بالحرب، وراحوا يختلقون أكاذيب مثيرة ليضحكوا البنات، فجلبوا للبيت المنهوب لأول مرة، حياة المرح، جلبوا إليه الذكرى الأولى للاحتفالات التي كانت العائلة قد عرفتها في كثير من الأيام.

- « إنها تقريباً كالأيام الماضية. عندما كنا ننعم بالحفلات العائلية. أليس كذلك؟» همست سولين بسرور في أذن سكارلت. وكانت سولين قد ارتفعت إلى السماء بوجود عشيقها في البيت ثانية، وقلما استطاعت أن ترفع بصرها عن فرانك كنيدي. ودهشت سكارلت كيف أمكن أن تبدو سولين على قسط من الجمال على الرغم من الهزال الذي ما زال ملازماً لها منذ بداية مرضها. كانت وجنتاها محمرّتين، وعيناها تتألقان بنظرة مشرقة ناعمة.

«ينبغي أن تحفل به، في الحقيقة» فكرت سكارلت بازدراء «وأظن أنها تكون أقرب إلى الإنسان إذا اتفق وحظيت بزوج لها، حتى لو كان هذا الزوج هو فرانك العجوز الثرثار».

وتألقت كارين قليلاً كذلك في تلك الليلة، وزاول عينيها بعض نظرة السائر في نومه. لقد اكتشفت أن أحد الرجال كان قد عرف برنت تارلتون ورافقه يوم قُتل، فمنَّت نفسها بحديث طويل خاص معه، بعد العشاء، وعند العشاء، أدهشت ميلاني الجميع بإرغامها نفسها على الخروج من طوق حيائها والتحلي بخفة الروح في معظم الوقت، فقد ضحكت، ومزحت، وداعبت، أو كادت تداعب جندياً فاقد العين، كافأها على تصرفها بأعمال مسرفة في الشهامة وأدركت سكارلت مدى الجهد العقلي والجسدي الذي يتطلبه تصرف كهذا، لأن ميلاني كانت تعاني من آلام الخجل في حضور أي من الجنس الآخر، علاوة على أنها لم تكن قد استعادت صحتها بعد. ورغم أنها كانت تصر على أنها بصحة جيدة، وأنها كانت تقوم بعمل أكثر مما تقوم به دلسي، فقد كانت سكارلت تعلم أنها مريضة، فعندما كانت ترفع بعض الأدوات، كان وجهها يبيضّ، وكانت تجلس فجأة كيفما اتفق بعد أن تبذل أي جهد، كما لو أن ساقيها لا تقويان على حملها، ولكنها الليلة، كانت تفعل كل شيء ممكن لجعل الجنود يتمتعون بليلة عيد الميلاد، شأنها

في ذلك شأن سولين وكارين. أما سكارلت فقد كانت الوحيدة التي لم تبتهج بالضيوف.

أضاف الجنود مخصصاتهم من الذرة المحمصة ولحم الخنزير المملح، إلى العشاء المؤلف من حمص ناشف وتفاح مجفف مطبوخ، وفول، وهو العشاء الذي وضعته مامي أمامهم، وأعلنوا أنه أشهى طعام نعموا به منذ شهور. واكتظت سكارلت وهي تراقبهم يأكلون، ولم تحسدهم على لقمة ازدردوها فحسب، بل إنها أيضاً كانت قلقة كأنها تجلس على نار، خشية أن يكتشف الرجال بطريقة ما، أن بورك قد ذبح أحد الخنانيص في اليوم السابق. وكانت قد علقت الخنوص في غرفة المؤونة، بعد أن أنذرت أفراد بيتها بصرامة، أنها ستقلع عيني كل من يذكره أمام ضيوفهم، أو يذكر وجود شقيقات الخنوص الذبيح أو أشقائه سالمة في حظيرتهما بالأجمة. فقد كان في وسع هؤلاء الرجال الجائعين التهام الخنوص كله في وجبة واحدة، وكان في وسعهم أيضاً مصادرة الخنانيص الأخرى للجيش، إذا ما دروا بوجودها. وكانت سكارلت قلقة أيضاً بشأن البقرة والحصان، وتمنّت لو يكونان مخبّأين في الهور، بدلاً من كونهما مربوطين في الغابة عند أسفل المرعى، وإذا ما أخذت دائرة التموين حيواناتها فقد لا تستطيع تارا الحفاظ على حياتها خلال الشتاء، إذ لن توجد طريقة لتعويض الخسارة. أما ماذا سيأكل الجيش، فإنها لا تبالي، دع الجيش يغذي الجيش إذا وسعه الأمر، فإن من العسير جداً عليهم إطعام جماعتها.

وأضاف الرجال من مزاداتهم بعض الفطائر اليابسة كحلوى، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها سكارلت هذا النوع من القوت الحلفي، الذي كانت تروي عنه كثير من الفكاهات، بقدر ما تروي عن القمل تقريباً. كان هذا الكعك عبارة عن قطع لولبية الشكل، سوداء محترقة، من مادة تبدو كأنها خشب. وتحداها الرجال أن تقضم

قضمة، وعندما فعلت، اكتشفت أن تحت السطح الذي سوَّده الدخان خبز ذرة بلا ملح. وكان الجنود يمزجون مخصصاتهم من خبز الذرة بالماء، وبالملح أيضاً عندما كانوا يستطيعون الحصول عليه، كما كانوا يطلون الكعك بمعجون سميك ثم يشوون هذا الخليط على نار المعسكر فيصير صلباً كالحلوى الصخرية، عديم الطعم كالنشارة.

أسرعت سكارلت، بعد قضمة واحدة، وأعادت القطعة وسط دوي ضحك، والتقت عيناها بعيني ميلاني، وبانت على وجهيهما بوضوح، الفكرة ذاتها... «كيف يستطيعون الاستمرار في القتال، إذا كان ما يملكونه للأكل هو هذه المؤونة فقط؟».

كانت الوجبة على جانب كبير من المرح، وحتى جيرالد، الذي ترأس المائدة وهو شارد اللب، استطاع أن يستحضر من مؤخرة عقله المظلم شيئاً من صفات المضيف، وابتسامة حائرة. وتحدث الرجال، وابتسمت النساء ولاطفن... ولكن بينما كانت سكارلت تلتفت فجأة نحو فرانك كنيدي، تود سؤاله عن أخبار الآنسة بيتي بات، لمحت في وجهه تعبيراً جعلها تنسى ما كانت تعتزم قوله.

كانت عيناه قد فارقتا سولين وراحتا تطوفان في الغرفة، تنظران إلى عيني جيرالد الحائرتين كعيني الطفل، إلى الأرض العارية من سجادها، إلى رف الموقد المجرد من زخارفه، إلى الزبارك المرتخية والمفروشات الممزقة التي خرقتها حراب الشماليين، إلى المرآة المتشققة فوق الخزانة النصفية، إلى الإطارات الزاهية على الجدران حيث كانت تعلق الصور قبيل مجيء الغزاة، إلى المائدة الفقيرة، إلى أثواب البنات العتيقة المرقعة بشكل مناسب، إلى كيس الطحين الذي صنع تنورة لويد.

كان فرانك يتذكر تارا التي قد عرفها قبل الحرب، وعلى وجهه نظرة مضض، نظرة غضب عاجز تعب. لقد كان يحب سولين، ويميل

إلى شقيقتيها، ويحترم جيرالد ويعتمل في نفسه ولع شديد بالمزرعة. وكان فرانك قد رأى منذ توغل شيرمان في جورجيا، مناظر كثيرة مذهلة وهو يطوف في الولاية محاولاً جمع المؤن، ولكن لا شيء آلم قلبه كما آلمته تارا الآن، وودّ لو يفعل شيئاً لآل أوهارا، خصوصاً لسولين، ولكن لم يكن هناك ما يستطيع تقديمه، فراح يحرك رأسه الملتحي بلا وعي، في حركة تنمّ عن الشفقة ويحرّك لسانه بين أسنانه. وفي هذه الأثناء لمحت سكارلت نظرته، ورأى هو في عينيها بريق الكبرياء الساخط، فأطرق بعينيه إلى الأرض مكتظاً.

كانت البنات يتعطشن للأنباء، إذ لم تكن توجد خدمة بريدية منذ سقوط أتلانتا، وها قد مضت الآن أربعة أشهر وهم في جهل مطبق عن مكان الشماليين، وعن كيفية تحرك الجيش، وعما حل بأتلانتا وبالأصدقاء القدامى. وكان فرانك الذي كان بطبيعة عمله يتجول في جميع أنحاء القطاع، مفيداً كالجريدة بل أكثر فائدة منها، لأنه كان يعرف جميع الناس تقريباً من ميكون شمالاً الى أتلانتا ويتصل ببعضهم بالقربى، كان في وسعه أن يروي نتفاً من أحاديث شخصية شيقة، تحذفها الصحف دائماً. ولكي يحجب انفعاله الناجم عن افتضاح سحنته لناظري سكارلت، اندفع فرانك بسرعة يسرد الأنباء، فأخبر الحضور أن الحلفيين كانوا قد استردوا أتلانتا بعد أن أخلاها شيرمان ولكنها كانت جزءاً عديم القيمة، لأن شيرمان كان قد أحرقها إحراقاً تاماً.

- «ولكني اعتقدت أن أتلانتا احترقت ليلة غادرتها» صاحت سكارلت دهشة، «اعتقدت أن جنودنا أحرقوها».

- «لا يا آنسة سكارلت» صاح فرانك مذهولاً، «إننا لا نحرق أبداً مدينة من مدننا وأهلنا فيها، إن الذي رأيته يحترق هو المستودعات والمؤن التي لم نشأ أن يستولي الشماليون عليها، ثم المصانع

والذخيرة، هذا وحسب. وعندما احتل شيرمان المدينة كانت المنازل والمخازن لا تزال قائمة، جميلة كما ترجون، وقد أحل رجاله بها».

- «ولكن ماذا حدث للناس؟ هل... هل قتلهم؟».

- «قتل بعضاً منهم... ولكن ليس بالرصاص» قال الرجل الفقيد العين عابساً، «حالما دخل أتلانتا، أبلغ المحافظ أن على جميع القاطنين في المدينة أن يرحلوا خارجها، من دون استثناء. وكان هناك الكثير من العجزة الذين لم يستطيعوا تحمّل الرحيل، والعديد من المرضى الذين لا يجوز نقلهم والسيدات اللواتي كن... السيدات اللواتي كن لا يجوز نقلهن أيضاً، ولكن أجلاهم خلال أعظم عاصفة ماطرة رأيتها، مئات ومئات منهم، وطرحهم في الغابة قرب رف آند ريدي، ثم بعث بكلمة للجنرال هود حتى يأتي ويأخذهم. ومات الكثير منهم بداء الرئة، وبسبب عجزهم عن احتمال ذلك النوع من المعاملة».

- «ولكن لماذا فعل ذلك؟ وليس في وسعهم إيذاءه أبداً؟» صاحت ميلاني.

- «قال إنه يريد المدينة ليريح فيها رجاله وخيله» أجاب فرانك، «وقد أراحهم هناك حتى منتصف نوفمبر، ثم انتقل خارج المدينة، وأشعل النار فيها، وقد أحرق كل شيء».

- «آه، حتماً ليس كل شيء» صاحت البنات في ذعر.

كان مما لا يمكن تصوره أن تكون تلك المدينة التي عرفناها غاصة بالناس، مزدحمة بالجنود، قد ذهبت. كل البيوت الجميلة التي تعلوها الأشجار الظليلة، كل المخازن الكبيرة والفنادق الفخمة... قطعاً لا يمكن أن تكون كلها ذهبت! وبدت ميلاني على أهبة الانفجار بالبكاء، لأنها كانت قد ولدت هناك، ولم تكن تعرف لنفسها موطناً آخر. وكذلك غار قلب سكارلت لأنها كانت قد أحبت المكان حباً جماً لا يفوقه سوى حبّها لتارا.

- «تقريباً كل شيء» استدرك فرانك بسرعة، وقد أزعجه ما ينم عنه وجهاهما من جزع فحاول أن يبدو مرحاً لأنه لم يكن يعتقد بتكدير السيدات، فالسيدات الجزعات كن يجزعنه دائماً، ويجعلنه يشعر بالحيرة وفقدان الحيلة. ولم تطاوعه نفسه على أن يخبرهم عما هو أسوأ من هذا، وليطلعوا على ذلك من قبل شخص آخر.

لم يستطع أن يطلعهم على ما رآه الجيش حين عاد إلى أتلانتا: مئات ومئات من المداخن تنتصب سوداء فوق الرماد، أكواماً من حطام نصف محترق، وأكواماً منهارة من الآجر تسد الشوارع، أشجاراً كبيرة أذوتها النيران فتدلت أغصانها المحترقة السوداء نحو الأرض من الريح الباردة. وتذكّر فرانك كيف أن هذا المنظر أمرضه، وتذكّر لعنات الحلفيين المريرة عندما رأوا بقايا المدينة، ورجا ألّا تسمع السيدات بأهوال المقبرة، التي ما زال منظرها يوقعه بأحلام رهيبة. لقد فتح الجنود الشماليون اللحود أملاً بوجود جواهر مدفونة مع الموتى، ونبشوا القبور وسرقوا الأجساد ونزعوا عن التوابيت صفائح الأسماء الذهبية والفضية وجردوها من حواشيها ومقابضها الفضية، وتبعثرت الجماجم والجثث، واختلط حابلها بنابلها، وسط كسر النواويس، وغدت مكشوفة بحالة يرثى لها.

ولم يكن في وسع فرانك أن يحدثهم عن الكلاب والقطط، فالسيدات يعطفن كثيراً على هذه الحيوانات المدللة، بيد أن منظر ألوف الحيوانات الجوعى، التي تُركت بلا مأوى عندما أجلى أصحابها عن المدينة بفظاظة متناهية، قد صدم فرانك بمقدار ما هزه منظر المقبرة تقريباً، لأنه كان يحب القطط والكلاب. كانت الحيوانات مبتردة مذعورة، هائجة مستوحشة كحيوانات الغاب، القوي منها يهاجم الضعيف والضعيف ينتظر موت الضعيف كي يستطيع أكله، بينما لطخت الطيور الجارحة سماء المدينة المربدة، بقطع الأشلاء المشؤومة.

وبحث فرانك في عقله عن نبأ يهدئ من روع السيدات.

- «توجد بعض البيوت لا تزال قائمة» قال، «البيوت المشيدة فوق بعض المرتفعات بعيداً عن البيوت الأخرى فلم تبلغها النيران، وكذلك بقيت الكنائس والقاعة الماسونية وبعض المخازن أيضاً، ولكن حي الأعمال، وكل ما على جانبي السكة الحديد، وحي فايف بوينتس... أجل أيتها السيدات، كل ذلك الجزء من المدينة، سُوِّي بالأرض».

- «إذن»، صاحت سكارلت بمرارة، «ذلك المستودع الذي أورثنيه تشارلز والواقع بجانب السكة، قد ذهب أيضاً؟».

- «إذا كان على مقربة من السكة فلقد ذهب، ولكن...» وابتسم فجأة، لماذا لم يفكر في ذلك من قبل؟ «أبشرن أيتها السيدات، فبيت عمّتكن بيتي ما زال قائماً، أصيب ببعض الأضرار ولكنه ما زال قائماً».

- «ها كيف سلم؟».

- «إنه مشيد من الآجر، كما أنه يمتاز بسطحه الأردوازي الوحيد في أتلانتا، الأمر الذي منع من احتراقه كما أظن. ثم إنه يكاد يكون آخر بيت في الجهة الشمالية من المدينة، ولم تكن النار مندلعة بشدة في ذلك الاتجاه. طبعاً، لقد أتلف الشماليون الذين أقاموا فيه، كثيراً من أجزائه، حتى إنهم أحرقوا خشب الأساس ودرابزين سلالم الماهوكوني واستعملوه عوضاً عن الحطب، ولكن على كل حال، إنه لا يزال في هيئة جيدة، عندما رأيت الآنسة بيتي في الأسبوع الماضي في ميكون...».

- «رأيتها؟ كيف حالها؟».

- «حسنة تماماً، حسنة تماماً. عندما أخبرتها أن بيتها ما زال قائماً، قررت العودة إلى أتلانتا فوراً، يعني - إذا سمح لها ذلك

الزنجي العجوز- بيتر. لقد عادت جماعات كثيرة من سكان أتلانتا، لأنهم قلقوا من مصير ميكون. . . لم يحتلها شيرمان ولكن ويلسون سيبلغها سريعاً بمغيريه، وهو أسوأ من شيرمان».

- «ولكن ما أغبى أن يعودوا إليها في الوقت الذي لا توجد فيها بيوت! أين يسكنون؟».

- «إنهم يسكنون في خيام وأكواخ وغرف خشبية، يا آنسة سكارلت، وتشترك ست أو سبع عائلات منهم في كل بيت من البيوت القليلة التي ما زالت قائمة، وهم يحاولون إعادة البناء. لا تقولي إنهم أغبياء يا آنسة سكارلت، فأنت تعرفين سكان أتلانتا معرفة جيدة كما أعرفهم أنا. إنهم متعلقون جداً بمدينتهم، كتعلق الشارلستونيين بشارلستون، وسيحتاج الأمر إلى أكثر من شماليين وأكثر من حريق، ليبعدهم عنها. إن أهل أتلانتا. . . أرجو معذرتك يا آنسة ميلي. . . عنيدون كالبغال في تعلقهم بأتلانتا، ولست أعلم سبباً لذلك، إذ إنني كنت أعتقد دائماً أن تلك المدينة شديدة الزحام، صعبة العيش، ضارية الخلق، غير أنني رجل قروي المولد ولا أحب أي مدينة. واسمحن لي أن أخبركن بأن الأشخاص الذين عادوا أولاً، هم الأذكياء، إذ إن الذين سيعودون أخيراً، لن يجدوا قطعة خشب أو حجر أو آجر من بيوتهم، لأن جميع الناس ينشدون هذه الأشياء من كل أنحاء المدينة وذلك لإعادة بناء بيوتهم، فأول أمس فقط، رأيت سيدة ميريويذر والسيدة مايبل وزنجيتهما العجوز خارجات لجمع الآجر في عربة يد كما أخبرتني السيدة ميد أنها تفكر في بناء غرفة خشبية عندما يعود الدكتور ليساعدها في ذلك وأردفت أنها كانت قد أقامت في غرفة خشبية يوم قدمت إلى أتلانتا لأول مرة، يوم كانت المدينة تدعى مارتسفيل، وأن فعل ذلك ثانية لن يضايقها أبداً. بالطبع كان حديثها مجرد مزاح، ولكن ذلك يُريكن كيف ينظر الأتلانتيون إلى مدينتهم».

- «أعتقد أنهم يتمتعون بروحية عظيمة» قالت ميلاني باعتزاز، «ألا تعتقدين ذلك يا سكارلت؟».

فأطرقت هذه برأسها، وغمرها الكبرياء والسرور العابس بمدينتها المفضلة، المدينة التي كانت شديدة الزحام، صعبة العيش، ضارية الخلق، كما قال فرانك، وكان ذلك سبب حب سكارلت لها. ولم تكن ضيقة متزمتة، غارقة في الوحل كالمدن الأقدم نشأة، كانت تنعم بحيوية فائرة توافق حيوية سكارلت: «إني كأتلانتا» فكرت سكارلت «إن إخضاعي يحتاج إلى أكثر من شماليين وحريق».

- «إذا كانت العمة بيتي ستعود إلى أتلانتا، فمن الأفضل لنا أن نعود ونقيم معها يا سكارلت» قالت ميلاني قاطعة حبل تفكيرها، «فسوف تموت رعباً إن بقيت وحيدة».

- «ماذا؟ كيف يسعني مغادرة تارا يا ميلاني؟» سألت سكارلت بوجه متجهّم، «إذا كنتِ متلهفة جداً على الذهاب فاذهبي فإنني لن أمنعك».

- «لم أقصد بحديثي ذلك يا عزيزتي» صاحت ميلاني وقد خضب وجهها الكرب، «ما أغباني، طبعاً لا يسعك مغادرة تارا، و... وأظن أن العم بيتر وكوكي يستطيعان الاعتناء بعمتي».

- «لا يوجد ما يمنعك من الذهاب» قالت سكارلت باقتضاب.

- «أنت تعرفين أني لن أفارقك» أجابت ميلاني، «و... وسأخاف حتى الموت من دونك».

- «افعلي ما يناسبك. ولكني لن أعود إلى أتلانتا، فحالما تشيد بيوت قليلة فيها، سيعود شيرمان ويحرقها ثانية».

- «لن يعود»، قال فرانك وانخفض وجهه رغم ما بذل من جهد لرفعه، «إنه يتابع طريقه عبر الولاية إلى الساحل. لقد سقطت سافانا

هذا الأسبوع، ويقولون إن الشماليين يتابعون المسير إلى كارولاينا الجنوبية».

- «سافانا سقطت!».

- «أجل. . . ولِمَ الدهشة أيتها السيدات، فسافانا لم تكن تستطيع إلا الاستسلام إذ لم يكن فيها من الرجال ما يكفي للدفاع عنها، مع أنهم استخدموا كل رجل استطاعوا الحصول عليه، كل رجل كان يستطيع جر قدم وراء القدم الأخرى. هل تعرفون أنه عندما كان الشماليون يزحفون إلى ميلدجفيل، استدعى جماعتنا كل تلاميذ المدارس الحربية، من دون اعتبار لصغر سنهم. ليس هذا فحسب، بل إنهم فتحوا كذلك أبواب سجن الولاية ليحصلوا على جنود جدد. أجل يا سيداتي، لقد أطلقوا سراح كل مجرم أعلن عن عزمه على القتال، ووعدوه بالعفو إذا عاش إلى ما بعد الحرب. ولقد كظّني أن أرى أولئك التلاميذ الصغار في صفوف اللصوص والسفاحين».

- «أطلقوا سراح المجرمين علينا!؟».

- «أرجوك يا آنسة سكارلت، لا تنفعلي. إنهم بعيدون جداً عن هنا، فضلاً عن أنهم يحاربون كجنود أكفاء. وأظن أن كون الإنسان لصاً، لا يمنعه من أن يكون جندياً نادر المثال، أليس كذلك؟».

- «أعتقد أن ذلك أمر مدهش» قالت ميلاني برقّة.

- «أما أنا فلا أوافق على هذا الرأي»، قالت سكارلت بصراحة، «فهناك عدد كافٍ من اللصوص يجوبون الريف على كل حال، ألا يكفي الشماليون و. . .» وأمسكت نفسها في الوقت المناسب، ولكن الرجال ضحكوا:

- «ألا يكفي الشماليون ودائرة التموين» أتموا العبارة، بينما احمرّت هي خجلاً.

- «ولكن أين جيش الجنرال هود؟» تدخلت ميلاني بسرعة، «من المؤكد أنه كان في وسعه حماية سافانا».

- «يا آنسة ميلاني» أجاب فرانك مجفلاً مقرعاً، «لم يكن الجنرال هود في تلك المنطقة أبداً. لقد كان ولا يزال يقاتل شمالاً في تنيسي، محاولاً استدراج الشماليين خارج جورجيا».

- «أولم تنجح خطته البسيطة تلك؟» صاحت سكارلت متهكمة، «لقد ترك الشماليين اللعينين يدخلون المدينة، دون أن يكون هناك من يدافع عنا سوى تلاميذ المدارس الحربية والحرس الوطني».

- «يا ابنتي» قال جيرالد موقظاً نفسه «إنك عقوق، ستجلبين الكدر لروح أمك».

- «إنهم شماليون لعينون» صاحت سكارلت بحدة، «ولا أتوقع أن أدعوهم بلقب آخر».

وعند ذكر إيلين أحس الجميع بشعور غريب، وانقطع الحديث فجأة، وتدخلت ميلاني ثانية:

- «عندما كنت في ميكون، هل رأيت إنديا وهوني ويلكس؟ هل سمعتا، هل كانتا قد سمعتا شيئاً عن آشلي؟».

- «أرجوك يا آنسة ميلاني، إنك تعرفين أني لو سمعت أنباء عن آشلي، لركبت إلى هنا فوراً لإخبارك» قال فرانك مقرعاً... «لا، لم يصلهما أي نبأ. ولكن... اسمعي... لا تجزعي على آشلي يا آنسة ميلاني. أنا أعلم أنه قد مضى زمن طويل منذ سمعت عنه، ولكن لا يمكنك أن تتوقعي سماع شيء عن إنسان عندما يكون في السجن، أليس كذلك؟ والأحوال ليست سيئة في المعتقلات الشمالية كما هي في معتقلاتنا، ففي حوزة الشماليين الوفير من القوت والدواء والحرامات. إنهم يختلفون عنا في هذا الصدد، فنحن لا نملك ما يكفي لتغذية أنفسنا، بله أسرانا».

- «نعم بحوزة الشماليين الشيء الوفير» صاحت ميلاني بمرارة شديدة، «ولكنهم لا يقدمون شيئاً للأسرى، أنت تعرف أنهم لا يقدمون شيئاً يا سيد كنيدي، إنما تقول ذلك لتهدئة روعي فقط. أنت تعلم أن جنودنا يكادون يموتون من البرد هناك، ويتضورون جوعاً أيضاً، ويموتون من دون أطباء وعلاج، لأن الشماليين إنما يبغضوننا كثيراً! حبذا لو نستطيع مسح جميع الشماليين عن وجه الأرض. آه ، إني أعرف أن آشلي. . .».

- «لا تقولي ذلك!» صاحت سكارلت وقلبها في حلقها. فما دام أحد لم يقل إن آشلي قد مات، فإنه لا يزال في قلبها أمل ضئيل بأنه حي، ولكنها كانت تشعر بأنه لن يكون ميتاً في اعتبارها قبل أن تسمع بنبأ وفاته.

- «اسمعي يا سيدة ويلكس، لا تجزعي على زوجك» قال الرجل ذو العين الواحدة مهدئاً إياها، «لقد أسرت بعد معركة ماناساس الأولى، وتمَّت مبادلتي فيما بعد، وعندما كنت في المعتقل كانوا يغذونني بأحسن ما عندهم، دجاج مشوي وبسكويت طازج. . .».

- «أعتقد أنك كاذب» قالت ميلاني بابتسامة ذاوية، وبأول أمارة شجاعة رأتها سكارلت تظهر على ميلاني وهي تتحدث مع رجل، «وماذا تعتقد أنت؟».

- «أعتقد كذلك أيضاً» قال الرجل ذو العين الواحدة، وصفع ساقه ضاحكاً.

- «إذا دخلتم جميعاً إلى الردهة، فسأغني لكم بعض أناشيد الميلاد» قالت ميلاني وهي سعيدة بتغيير الموضوع، «لقد كان البيانو أحد الأشياء التي لم يستطع الشماليون حملها معهم. هل نغماته ناشزة جداً يا سولين؟».

- «بصورة فظيعة» أجابت سولين مومئة بابتسامة لفرانك، والسعادة بادية في وجهها.

ولكن عندما خرج الجميع من الغرفة، تخلّف فرانك جاذباً سكارلت من ردنها.

- «هل يمكن أن أتحدث إليك على انفراد؟».

ولهنيهة عصيبة، خشيت أن يطلب منها حيواناتها الحية، فأعدت نفسها لكذبة بارعة. وعندما خلت الغرفة ووقفا بجانب النار، غاضت من وجه فرانك كل البشاشة التي كانت تعمر وجهه أمام الآخرين، وبدا لسكارلت كأنه رجل هرم. كان وجهه أدكن جافاً كالأوراق التي كانت تعصف بها الريح حول المرجة في تارا، وكانت لحيته الشقراء رقيقة هزيلة يخطها الشيب، وكان يعبث بها بأظافره وهو شارد الذهن، كما كان يتنحنح بشكل مزعج قبل أن يبدأ بالكلام:

- «إني آسف جداً لوفاة أمك، يا آنسة سكارلت».

- «أرجوك، لا تتكلم عن هذا الموضوع».

- «ووالدك. . . هل أضحى بهذه الحالة منذ. . .؟».

- «نعم، إنه. . . إنه على غير طبيعته كما يمكنك أن ترى».

- «من المؤكد أنه يحبها حباً جماً».

- «آه يا سيد كنيدي، أرجوك ألّا تدعنا نتحدث. . .».

- «آسف يا آنسة سكارلت» وحرك قدميه بعصبية «الحقيقة أني أردت أن أتحدث مع أبيك في أمر، ولكني أرى الآن أن ذلك لن يجدي شيئاً».

- «ربما استطعت أن أساعدك يا سيد كنيدي، فأنت ترى. . . إني ربة البيت الآن».

- «حسناً، إني. . .» استهل فرانك حديثه وقد راح يربت لحيته

بعصبية، «الحقيقة أني... أني يا آنسة سكارلت، كنت عازماً على أن أطلب منه يد سولين».

- «هل تقصد أن تخبرني؟» صاحت سكارلت باستغراب وانفعال، «لم تطلب يد سولين من بابا إلى الآن، وأنت تلتقيها وتغازلها منذ سنين؟!».

فتخضب وجهه خجلاً، وابتسم مضطرباً، وبدا على العموم كشاب حيي خجول.

- «لم أكن ... لم أكن أعلم إن كانت ترغب فيَّ، فأنا أكبر منها بكثير و... قد كان يوجد العديد من الشبان الظريفين يحومون حول تارا...».

«ها»، فكرت سكارلت، «لقد كانوا يحومون حولي... وليس حولها!».

- «وأنا لا أعرف حتى الآن ما إذا كانت ستقبل بي، فلم يتفق لي أن سألتها، ولكن لا بد أنها تعرف شعوري... فكرت، فكرت في أن أستأذن السيد أوهارا وأبلغه الحقيقة. إنني لا أملك سنتاً واحداً الآن يا آنسة سكارلت. لقد كنت أملك نقوداً وفيرة، إذا ما سمحت لي قول ذلك، ولكني في هذه اللحظة لا أملك إلا حصاني وثيابي التي ألبسها. عندما تطوعت في الجيش بعت معظم أراضي وحولت كل نقودي إلى سندات حلفية، وأنت تعلمين ماذا تساوي هذه السندات الآن، إنها أقل قيمة من الورق الذي طُبعت عليه. وعلى كل حال، فأنا لا أملكها الآن، لأن النيران التهمتها عندما أحرق الشماليون بيت شقيقتي. إني أعلم أني أتواقح حين أطلب يد الآنسة سولين الآن، وليس معي سنت واحد... ولكن، هذه هي الحقيقة. لقد بدأت أعتقد أننا لا نعرف ما ستؤول إليه الأمور بالنسبة إلى هذه الحرب، فالأكيد أن الوضع يبدو لي كأنه نهاية العالم، ولكن لا يوجد شيء نستطيع التأكد منه و...

وفكرت أنه سيكون من العزاء العظيم لي وربما لسولين إذا ما خُطبنا لبعضنا. إنني واثق بذلك. غير أنني لن أطلب التزوج بها إلى أن يصير في وسعي الاعتناء بها يا آنسة سكارلت، وأنا لا أعرف متى سيحين ذلك، ولكن إذا كان للحب الحقيقي شأن لديك، ففي وسعك التأكد من أن الآنسة سولين ستكون غنية به، إذ لم يكن هناك شيء غيره».

نطق فرانك الكلمات الأخيرة بإباء ساذج، أثَّر في سكارلت حتى على الرغم من انفعالها. كان مما لا يحده إدراكها أن إنساناً ما يمكن أن يحب سولين التي كانت تبدو لها كتلة من الأنانية، ومن التذمر، ومما تستطيع فقط وصفه بالعناد المحض.

- «لا بأس، يا سيد كنيدي» قالت بلطف، «وأنا واثقة بأني أستطيع التكلم نيابة عن بابا. لقد كان دائماً يُقدِّر شخصك، وكان دائماً يتوقع زواج سولين بك».

- «وهل هو كذلك الآن؟» صاح فرانك والسعادة بادية على وجهه.

- «نعم حقاً» أجابت سكارلت، حاجبة ابتسامتها وهي تتذكر كم مرة هدد جيرالد بكلامه السليط على مائدة العشاء مخاطباً سولين: «والآن يا بنيتي، ألم يبتّ عشيقك المتحمس بالمسألة بعد؟ هل أسأله عن نواياه؟».

- «سأسألها هذه الليلة»، قال فرانك ووجهه يرتعش، ثم أمسك بيد سكارلت مصافحاً، «إنك لطيفة جداً يا آنسة سكارلت».

- «سأرسلها إليك» ابتسمت سكارلت واتجهت إلى الردهة. وكانت ميلاني قد بدأت العزف، وأخذت أنغام البيانو ترتفع بنشاز محزن، غير أن بعض الأوتار كانت موسيقية النغمة. وكانت ميلاني ترفع صوتها لتقود الآخرين في ترنيمة: «مع ملاك اللّه جند...».

ووقفت سكارلت صامتة. لقد كان يبدو من غير الممكن أن تكون

الحرب قد اجتاحتهم مرتين، وأنهم كانوا يعيشون في بلاد مدمرة، ويشارفون حدود الموت جوعاً، في الوقت الذي تغني فيه هذه الترنيمة المسيحية القديمة العذبة. وفجأة التفتت نحو فرانك قائلة:

- «ماذا عنيت عندما قلت إن الأمر يبدو بالنسبة إليك كأنه نهاية العالم؟».

- «سأتحدث بصراحة» قال متمهلاً، «ولكنني لا أريد أن تفزعي السيدات الأخريات بما سأقوله. إن الحرب لا يمكن أن تستمر مدة أطول، فلا يوجد أي رجال جدد لملء الصفوف، والفرار من الجيش يتفاقم أمره، يتفاقم أكثر مما يود الجيش أن يعترف به. إن الرجال لا يسعهم احتمال البقاء بعيداً عن عوائلهم في الوقت الذي يعرفون فيه أن عوائلهم تتضور جوعاً، ولذلك يعودون إلى بيوتهم ليحاولوا تأمين القوت لذويهم. ولا يسعني لومهم، بيد أن ذلك يضعف الجيش. كما أن الجيش لا يستطيع أن يقاتل بلا طعام، وليس هناك أي طعام. إني أعرف ذلك لأنه كما ترين، جمع القوت هو وظيفتي. لقد طفت شمالاً وجنوباً في هذا الإقليم منذ استرجعنا أتلانتا فلم أجد ما يكفي لغذاء طير أبي زريق. والحالة ذاتها تسود جميع المنطقة الممتدة ثلاثمئة ميل جنوباً إلى سافانا، إن الأهالي يتضورون جوعاً، والسكك الحديد مدمرة، ولا يوجد بنادق جديدة، والذخيرة تنفد، وليس من جلود قط لصنع الأحذية... وهكذا ترين، إن هذه هي النهاية تقريباً».

على أن آمال الحلف الذاوية أقلقت خاطر سكارلت أقل مما أقلقتها عبارة فرانك المتعلقة بندرة الطعام. كانت قد عزمت على إرسال بورك مع الحصان والعربة والقطع الذهبية، ونقود الولايات المتحدة ليجوب الريف بحثاً عن المؤن والقماش. ولكن إذا كان ما قاله فرانك صحيحاً...

ولكن ميكون لم تسقط، ولا بد من وجود طعام في ميكون...

وحالما يأخذ فصل التموين طريقه بأمان، مغادراً تارا، سترسل بورك إلى ميكون وستتحمل نتيجة المغامرة.

- «حسناً، دعونا لا نتحدث عن الأمور غير السارة هذه الليلة يا سيد كنيدي!» قالت، «اذهب واجلس في مكتب والدتي الصغير وسأرسل إليك سولين، وهكذا تستطيع... حسناً، وهكذا تنعم بخلوة قصيرة».

وانسل فرانك خارج الغرفة خجلاً مبتسماً، وراقبته سكارلت أثناء خروجه.

«وا أسفاه لأنه لا يستطيع أن يتزوجها الآن!» فكرت، «فذلك يعني الخلاص من فم يأكل».

29

في أبريل التالي، استسلم الجنرال جونستون، الذي كان قد أعيد إلى قيادة بقايا جيشه القديم المحطم، استسلم بهذه البقايا في كارولاينا الشمالية، وهكذا انتهت الحرب. ولكن الأخبار لم تبلغ تارا إلا بعد أسبوعين، فقد كان الجميع منهمكين جداً بالعمل، بحيث لم يستطع أحدهم إضاعة الوقت في السفر إلى الخارج وسماع الأنباء. ولمّا كان الجيران في شغل كأبناء تارا، قلّت الزيارات، وصارت الأنباء تنتشر ببطء.

كانت حراثة الربيع في أوجها، وكانت بذور القطن وبذور الحديقة التي جلبها بورك من ميكون، تبذر في الأرض. وكان بورك قد أضحى منذ قام برحلته عديم الفائدة تقريباً، فقد غدا شديد الزهو برجوعه سالماً بحمولة عربته من القماش والحبوب والدجاج ولحم الخنزير واللحم المجفف والدقيق... ومرة بعد مرة، روى قصة فراره الحرج من مآزق كثيرة، وقصة الممرات الجانبية وأزقة الريف التي سلكها في عودته إلى تارا، والطرق غير المطروقة والشعاب القديمة وممرات الخيل التي لجأ إليها. وكان قد أمضى خمسة أسابيع في الطريق، ورغم أنها كانت أسابيع قلقة بالنسبة إلى سكارلت إلا أنها لم تعنفه عند عودته لأنها سُرَّت لكونه أتم رحلته بنجاح كما سُرَّت لأنه أعاد معه الكثير من النقود التي كانت قد أعطته إياها، وأنبأها شكها الأريب أن سبب احتفاظه بهذا

الكثير يعود إلى أنه لم يشترِ الدجاج ومعظم القوت الذي جلبه. ولو صرف بورك نقودها في الوقت الذي كان يوجد فيه زرائب دجاج بلا حراسة وأفران يسيرة المنال على طول طريقه، لاعتبر ذلك عاراً عليه.

والآن، وقد صار بحوزتهم قليل من الطعام، انهمك كل شخص في تارا بالعمل، يحاول أن يسترجع للحياة بعض مظهرها الطبيعي. وكان هناك عمل لكل زوج من الأيدي، عمل كثير جداً، عمل لا ينتهي أبداً. لقد كان ينبغي إزالة السيقان الذابلة لقطن السنة الماضية، كي يفسح المجال لبذار السنة الحالية، وكان الحصان الحرون غير المعتاد على المحراث يجرجر خطاه كارهاً بين المزارع، وكذلك كان يجب نزع الأعشاب من الحديقة، ويجب بذر الحبوب، وقطع أخشاب الموقد، كما كان يجب المباشرة بتبديل الزرائب وأميال الأسيجة الطويلة التي احترقت عرضة بنيران الشماليين، ثم كان ينبغي زيارة الفخاخ التي كان ينصبها بورك لصيد الأرانب مرتين في اليوم، وكذلك وضع الطعوم مرة تلو أخرى في شباك السمك في النهر، وكان هناك توضيب الأسرَّة وكنس أرض الغرف وطبخ الطعام وغسل الصحون وعلف الخنازير والدجاج وجمع البيض، وحلب البقرة ورعايتها قرب الهور، حيث لا بد من أن يرافقها أحدهم طوال النهار خوفاً من أن يعود الشماليون أو رجال فرانك ويأخذوها. حتى ويد الصغير كانت عليه واجباته. ففي كل صباح، كان يخرج مهموكاً وفي يده سلة لجمع الأغصان وقطع الأخشاب التي تشتعل النار بها.

كان شابا آل فونتين اللذان عادا من الحرب قبل جميع رجال المقاطعة أول من حمل نبأ الاستسلام. وكان أَلِكس الذي ما زال يملك حذاءه يسير ماشياً، بينما ركب طوني الحافي القدمين على بغل عاري الظهر، لقد كان طوني ينجح دائماً في الحصول على أحسن الأشياء في تلك العائلة، وبدا الشقيقان أشد سمرة من أي وقت مضى بفعل أربع

سنوات من التعرض للشمس والريح، كما بديا أنحف قامة وأكثر صلابة، وظهرا كأنهما غريبان بفضل اللحيتين السوداوين السارحتين اللتين عادا بهما من الحرب.

وفي طريقهما إلى ميموسا، نظراً إلى اشتياقهما لبيتهما، لم يتوقفا سوى هنيهة قصيرة في تارا ليقبِّلا البنات، ويبلغانهن نبأ الاستسلام قائلين إن كل شيء قد انتهى، قد انقضى. وبدا كأنهما لا يحفلان كثيراً بهذا الأمر ولا يرغبان في الحديث عنه، وكان كل ما أرادا معرفته هو ما إذا كانت ميموسا قد أُحرقت. لقد مرّا في طريقهما جنوباً من أتلانتا بمدخنة إثر مدخنة، حيث كانت تقوم بيوت الأصدقاء، وبدا لهما أنه يكاد يكون من السذاجة أن يأملا أن يكون بيتهما قد وفّره الشماليون، ولذلك تنفسا الصعداء للنبأ المشجع وضحكا صافعين فخذيهما، عندما أخبرتهما سكارلت عن ركوب سالي الجريء وكيف أنها استأصلت سياج بيتهما.

- «إنها فتاة مقدامة» قال طوني، «وإن من سوء حظها أن جو قد قُتل، هل عندكم تبغ يا سكارلت؟»

- «لا شيء سوى تبغ الأرانب[1]، يدخنه بابا في قصبة ذرة».

- «لم أنحط إلى هذه الدرجة بعد، ولكن من المرجح أن أصلها» قال طوني.

- «هل ديميتي مونرو على ما يرام؟» سأل ألِكس متلهفاً ولكن بقليل من الاضطراب، وتذكرت سكارلت بغموض أنه قد كان يغازل شقيقة سالي الصغرى.

- «ها، نعم. إنها تعيش الآن مع عمتها هناك في فايتفيل. أنت تعرف أن بيتها في لافجوي قد أُحرق، وأن بقية عائلتها في ميكون».

---

(1) نوع من التبغ البري - (المترجمان).

- «إن ما يعنيه هو. . . هل تزوجت ديميتي مونرو أحد الضباط الشجعان في الحرس الوطني؟» قال طوني متهكّماً، بينما رمقه ألِكس بعينين حانقتين.

- «طبعاً، لم تتزوج» قالت سكارلت طربة.

- «ربما كان من الأفضل لو تزوجت» قال ألِكس متجهم الوجه، «يا للجحيم. . . أرجو عفوك يا سكارلت، ولكن كيف يستطيع رجل أن يطلب من فتاة أن تتزوج به وقد فر جميع زنوجه وضاعت حيواناته وليس معه سنت في جيبه؟».

- «أنت تعرف أن ذلك لن يزعج ديميتي» قالت سكارلت. لقد استطاعت أن تكون مخلصة لديميتي وتقول قولاً حسناً عنها لأن ألِكس فونتين لم يكن يوماً من عشاقها.

- «يا للجحيم. . . لا بأس، أرجو عفوك ثانية. ينبغي أن أكف عن الشتائم وإلا فستسلخ غراندما جلدي حتماً. . . إني لا أطلب من أي فتاة أن تتزوج متسولاً. قد لا يضايقها ذلك ولكنه يضايقني أنا».

وبينما كانت سكارلت تتحدث إلى الشابين في الشرفة الأمامية انسلت ميلاني وسولين وكارين صامتات إلى داخل البيت حالما سمعن نبأ الاستسلام. وبعد أن ذهب الشابان، متخذين طريقهما إلى البيت عبر مزارع تارا الخلفية، دخلت سكارلت فسمعت البنات ينشجن معاً فوق الكنبة في مكتب إيلين الصغير. لقد انتهى كل شيء، الحلم البراق الجميل الذي أحببنه ورَجَون تحقيقه، والقضية الوطنية التي انتزعت أصدقائهن ومحبيهن وأزواجهن والتي أفقرت عوائلهن. لقد ضاعت القضية الوطنية التي كنّ قد اعتقدن أنها لا يمكن أن تضيع أبداً.

على أن سكارلت لم تذرف دمعة واحدة، بل إنها عندما سمعت النبأ لأول وهلة فكرت: شكراً للّه، الآن لن تُسرق البقرة، الآن يسلم الحصان، الآن نستطيع إخراج الأواني الفضية من البئر ويستطيع كل منا

أن يستعمل سكينه وشوكته، الآن لن أخاف التجوال في الريف بحثاً عن شيء للأكل.

يا له من فرج عظيم! لن ينتابها الخوف بعد اليوم عند سماع وقع الحوافر! لن تستيقظ بعد اليوم في الليالي المظلمة، حابسة النفس لتصغي حائرة فيما إذا كان في الحقيقة أو في الحلم سماعها لقرقعة لقم الألجمة، لوقع الحوافر، لصوت الأوامر الفظ، ينبعث من الشماليين... وأهم من هذا كله، أن تارا قد سلمت! الآن لن يتحقق أشد كوابيس أحلامها رهبة، الآن لن تضطر إلى الوقوف على المرجة لترى الدخان يندلع من البيت الحبيب وتسمع دوي النيران عندما ينهار السقف.

نعم لقد ماتت القضية، ولكن الحرب كانت تتراءى لها دوماً أمراً أحمق، وكان السلم أفضل في رأيها. إنها لم تقف يوماً مبهورة النظر عندما كان عَلَم الحلف يرتفع فوق صاريته، ولم تحس يوماً بقشعريرة باردة عندما كانت تنشد «دكسي»[1]. إنها لم تسند خلال الحرمان، وأثناء القيام بواجبات التمريض المسقمة، وأثناء أهوال الحصار والجوع في الشهور القليلة الأخيرة، لم تسند أثناء ذلك بنار الحماس التي كانت تجعل من كل هذه المآسي تضحيات محتملة بالنسبة إلى الآخرين لو أن القضية نجحت وحسب. لقد انتهى كل هذا، وتدبّرت أمرها فيه، ولن تبكي عليه... انتهى كل شيء! الحرب التي بدت كأنها لن تنتهي، الحرب التي لم تطلبها ولم تكن راغبة فيها، شطرت حياتها شطرين، وأقامت بينهما هوة عميقة جداً بحيث صار من الصعب تذكّر تلك الأيام الهنيئة الماضية. لقد أصبح في وسعها أن تنظر إلى الماضي من دون انفعال، إلى سكارلت الجميلة بخفيها الأخضرين

---

(1) أغنية كانت تطري الجنوب وتمجّده - (المترجمان).

الناعمين من جلد الماعز، وبأهدابها المعطرة برائحة الخزامى، ولكنها تساءلت إذا كان يمكن أن تكون هي، تلك الفتاة ذاتها، سكارلت أوهارا، بأهل المقاطعة عند قدميها، بمئة عبد ينفّذون أوامرها، بثروة تارا كسور يسند ظهرها وبوالدين مشغوفين بها، متلهفين لتلبية أي رغبة من رغبات قلبها. لقد مضت سكارلت المستهترة التي لم تعرف يوماً رغبة خائبة إلا فيما يتعلق بآشلي.

في مكان ما على الطريق الطويلة المتعرجة، خلال هذه السنوات الأربع، انسلت الفتاة ذات الحقيبة وخفَّي الرقص، وبقي مكانها امرأة بعينين خضراوين حادتين، امرأة تعد البنسات وتشغل يديها بأعمال وضيعة كثيرة، امرأة لم يترك لها شيء من الحطام إلا الأرض الحمراء التي تقف عليها والتي لا تحطم.

وبينما هي واقفة في القاعة، تصغي لنشيج الفتيات، كان عقلها يقدح زناده:

- «سنزرع قطناً أكثر جداً. سأرسل بورك غداً إلى ميكون ليشتري بذوراً أخرى، فلن يحرق الشماليون القطن الآن ولن يحتاج إليه جنودنا. يا إلهي الرحيم، ينبغي أن يرتفع سعر القطن إلى السماء هذا الخريف!».

ودخلت المكتب الصغير، وجلست إلى المنضدة، دون أن تلتفت إلى الناشجات على الكنبة، ثم تناولت قلماً لتوازن بين ثمن بذور القطن الجديدة وما تبقى معها من نقود.

«لقد انتهت الحرب» فكرت ثم أفلتت القلم فجأة من يدها، إذ غمرتها سعادة فياضة: «لقد انتهت الحرب وآشلي . . . إذا كان آشلي حياً فسيكون الآن في طريقه إلى البيت!» وتساءلت ما إذا كانت ميلاني قد فكرت في هذا الأمر وهي مسترسلة في النشيج حزناً على القضية الخاسرة:

- «سرعان ما سنتلقى رسالة، لا ليس رسالة، فليس في وسعنا تلقّي رسائل، ولكن سرعان. . . آه سيطلعنا على نبأ قدومه بطريقة ما».

ولكن الأيام مرّت وغدت أسابيع ولم يصل نبأ من آشلي. وكانت الخدمة البريدية غير منتظمة في الجنوب، ومنعدمة تماماً في المقاطعات الريفية. وكان يمر بتارا من وقت إلى آخر، مسافر قادم من أتلانتا يحمل رسالة صغيرة من العمة بيتي، تلتمس باكية عودة الصبيتين، ولكن أحداً لم يأتهم بنبأ عن آشلي.

* * *

وحدث بعد الاستسلام أن كان ينشب نزاع حاد دائم بين سكارلت وسولين حول الحصان. فقد أرادت سولين، وقد زال خطر الشماليين، أن تقوم بزيارات للجيران، فشعورها بالوحدة وافتقارها إلى حياة الماضي الاجتماعية السعيدة حديا بها إلى أن تتوق إلى زيارة الأصدقاء، إن لم يكن لأي سبب آخر، فعلى الأقل لتتحقق بنفسها من أن باقي المقاطعة كان على الدرجة نفسها من السوء التي كانت عليها تارا. غير أن سكارلت وقفت عقبة كأداء في طريقها، مصرة على أن الحصان كان للعمل، ولجر الخشب من الغابات، وللحرث، ولركوب بورك أثناء بحثه عن الطعام، أما في أيام الآحاد فكان له حق الراحة وقضم العشب في المرعى، فإذا ما أرادت سولين أن تقوم بزياراتها ففي وسعها الذهاب على قدميها.

ولم تكن سولين قبل السنة الأخيرة، قد مشت طوال حياتها مسافة مئة ياردة، ولذلك لم ترحب بهذا الاقتراح ومكثت في البيت تنقّ وتردد: «آه لو أن أمي موجودة فقط!»، وعندئذ صفعتها سكارلت الصفعة الموعودة منذ زمن، وضربتها ضرباً مبرحاً، بحيث وقعت على السرير مولولة، مثيرة الذعر في أنحاء البيت. ومنذ ذلك الحين، خف نقيقها، على الأقل، في حضور سكارلت.

لقد نطقت سكارلت بالصدق عندما قالت إنها تريد أن يرتاح الحصان بيد أن ذلك كان نصف الحقيقة، أما النصف الآخر فكان يكمن في أنها كانت قد قامت بدورة زيارات في المقاطعة في أول شهر بعد الاستسلام، وقد زعزع عزيمتها منظر الأصدقاء القدامى والمزارع أكثر مما تود أن تعترف به.

كان آل فونتين أفضل حالاً من الجميع، ويعود الفضل في ذلك إلى جولات سالي الشاقة على الحصان. غير أن حالهم هذا كان حسناً إذا ما قيس بوضع جيرانهم الزري، فغراندما فونتين لم تكن قد شفيت بعد من النوبة القلبية التي انتابتها يوم قادت الأخريات في مكافحة النيران وإنقاذ البيت، وكان الدكتور فونتين العجوز يتعافى ببطء من ذراعه المبتورة، وكان ألِكس وطوني قد اتجها إلى المحراث والمجرفة بأيدٍ متوانية، وعندما رأيا سكارلت، انحنيا من فوق السياج ليصافحاها، وضحكا على عربتها الخرعة والمرارة جلية في عيونهما السوداء لأنهما كانا يضحكان على نفسيهما كما يضحكان عليها. وطلبت سكارلت منهما أن يبيعاها ذرة للبذر فوعداها بذلك، وشرعا يباحثانها بمشاكل المزرعة. وكان عندهما اثنتا عشرة دجاجة وبقرتان وخمسة خنانيص والبغل الذي جلباه من الحرب، وقد مات أحد الخنانيص مؤخراً، ولذلك كان الشابان قلقين يخشيان فقدان البقية. وضحكت سكارلت عندما سمعت أقوالاً خطيرة كهذه عن الخنازير، تصدر عن هذين الغندورين سابقاً، اللذين لم يحدث يوماً أن أعارا الحياة أي اهتمام يفوق من حيث اهتمامهما بأي ربطة عنق هي الأنسب طرازاً، ضحكت وكان ضحكها هذه المرة مريراً أيضاً.

لقد رحّب بها الجميع في ميموسا وأصرّوا على إعطائها بذور الذرة، لا بيعها إياها، واحتدت طباع الفونتينيين السريعة الهياج عندما وضعت سكارلت ليرة شمالية على المنضدة، فرفضوا استلامها

بصراحة. وأخذت سكارلت البذور ودسّت سنداً بدولار واحد في يد سالي، التي بدت كأنها فتاة تختلف عن تلك التي حيَّتها منذ ثمانية شهور، في أول عودة سكارلت إلى تارا. فقد كانت حينذاك شاحبة اللون حزينة وكان يعتريها شيء من البهجة رغم ذلك. أما الآن فقد فارقتها تلك البهجة، فبدت كأن الاستسلام قد جرّدها من كل أمل.

- «سكارلت» همست وهي تقبض على السند، «ماذا كانت فائدة كل تلك التضحيات؟ لماذا حاربنا؟ آه، يا لولدي جو التعيس! آه، يا لطفلي التعيس».

- «أنا لا أعرف لماذا حاربنا، ولا أعبأ بمعرفة ذلك» قالت سكارلت، «وأنا لست مهتمة بهذا الأمر، ولم أهتم به يوماً، فالحرب من شأن الرجال لا السيدات. وكل ما أهتم به الآن هو نتاج قطن جيد. خذي الآن هذا الدولار واشتري به ثوباً لجو، إن اللّه يعلم أنه في حاجة إليه. إنني لا أريد سلبكم الذرة، على الرغم من لطف ألِكس وطوني».

وتبعها الشابان إلى العربة وساعداها على الصعود، وكانا دمثين على الرغم من ثيابهما الرثة، مرحين مرح آل فونتين الجياش، ولكن سكارلت، وصورة الفاقة التي اعترتهما لم تفارق عينيها، كانت ترتعش وهي تقود عربتها خارج ميموسا، فلقد كلَّت من الفاقة والضيق. آه كم سيكون سرورها عظيماً لو رأت أناساً أغنياء، لا يشغل بالهم من أين ستأتي وجبة الطعام التالية!

كان كيد كالفرت في منزله في مزرعة باين بلوم. وعندما صعدت سكارلت درجات هذا المنزل القديم الذي كانت قد رقصت فيه مراراً في الأيام السعيدة، رأت الموت في وجه كيد. لقد كان هزيلاً يسعل وهو مضطجع على كرسي مريح في ضوء الشمس، وقد غطى ركبتيه بشال، ورغم ذلك فقد أشرق وجهه عندما رآها، وحاول أن ينهض

لتحيتها قائلاً إن مجرد برودة خفيفة قد استقرت في صدره من جرّاء النوم الطويل تحت المطر، على أنها سرعان ما ستزول، وعندئذ سيساهم في العمل.

أما كاثلين كالفرت التي خرجت من البيت عند سماع الأصوات، فقد التقت عيناها بعيني سكارلت من فوق رأس شقيقها، فقرأت سكارلت فيهما الحقيقة واليأس المرير، إذ كانت كاثلين تعرف ما قد يكون كيد يجهله. فقد بدت مزرعة باين بلوم في حالة متأخرة تكسوها الحشائش الضارة، وتتخللها شجيرات الصنوبر التي نبتت من البذور الساقطة. أما البيت الذي فيها فقد كان مقوَّس السقف عديم التناسق.

وكانت كاثلين متوترة الأعصاب. وكانت هي وكيد وزوجة أبيهما الشمالية وبناتها الأربع الصغيرات وهيلتون، الناظر الشمالي، قد ظلوا في البيت الصامت الذي كانت الأصوات تتصادى داخله بصورة غريبة. ولم تكن سكارلت قد مالت يوماً إلى هيلتون أكثر مما كانت تميل إلى جوناس ويلكرسون ناظر تارا، وغدا ميلها إليه أقل الآن حين تقدم نحوها متباطئاً وحيّاها كندٍّ لها. وكان يتصف سابقاً بالمركّب ذاته من الذلة والوقاحة الذي اتصف به جوناس ويلكرسون، غير أنه الآن، وقد مات السيد كالفرت وديفورد في الحرب، وعاد كيد مريضاً منها، تخلى عن ذلته. أما زوجة السيد كالفرت الثانية، فلم تكن يوماً تعرف كيف تنتزع الاحترام من الزنوج الخدم، ولذلك لم يكن من المتوقع أن تستطيع الحصول عليه من رجل أبيض:

- «لقد كان السيد هيلتون لطيفاً جداً لبقائه معنا خلال هذه الأيام الصعبة» قالت السيدة كالفرت بعصبية، ملقية نظرات سريعة على ابنة زوجها، «نعم، لطيفاً جداً. أظن أنكم سمعتم كيف أنه أنقذ بيتنا من الحريق مرتين عندما كان شيرمان هنا. أنا واثقة أني لا أعرف كيف سنتدبر أمورنا من دونه وليس معنا نقود، وكيد. . .».

وكست حمرة الخجل وجه كيد الشاحب، وحجبت أهداب كاثلين الطويلة عينيها والتجم فوها. وأدركت سكارلت أن روحيهما تتلويان في سخط عاجز لكونهما مدينَين بالجميل لناظرهما الشمالي، وبدا على السيدة كالفرت أنها تكاد تجهش بالبكاء. كانت قد ارتكبت خطأً نوعاً ما، فلقد كانت ترتكب الأخطاء دوماً. إنها لم تستطع فهم الجنوبيين وحسب، على الرغم من أنها قضت في جورجيا عشرين عاماً. لم تكن تعرف يوماً ما الذي لا يجوز قوله لأبناء زوجها، ومع ذلك كانوا دائماً مؤدبين لبقين معها، من دون اعتبار لما تقول أو تفعل. والآن ودون أن تنبس بكلمة، أقسمت أن تعود إلى أهلها في الشمال وتصحب أولادها معها، تاركة هؤلاء الغرباء العنيدين المحيرين.

لم تشعر سكارلت بعد هاتين الزيارتين بالرغبة في زيارة آل تارلتون. فالآن، وقد توفي الشبان الأربعة واحترق البيت، وحشرت العائلة نفسها في كوخ ناظر المزرعة، لم تستطع سكارلت أن تقنع نفسها بالذهاب. ولكن سولين وكارين التمستا ذلك منها، وقالت ميلاني إنه سيكون من العقوق بحق الجيرة عدم زيارة هذه العائلة والترحيب بالسيد تارلتون العائد من الحرب، وهكذا ذهبن في أحد أيام الآحاد.

وكانت هذه أسوأ الزيارات جميعاً.

فبينما كانت العربة تسير بهن بجانب حطام البيت، رأين بياتريس تارلتون ترتدي ثوباً بالياً للركوب وتحمل سوطاً تحت إبطها، وتجلس فوق ركيزة السياج العليا، على مقربة من حظيرة الخيل، تحدق كئيبة في لاشيء، وقد ربض إلى جانبها الزنجي الصغير المحني الساقين، الذي كان قد درّب خيولها، والكآبة تغمر وجهه كسيدته. أما الحظيرة، التي كانت يوماً مليئة بالمهر الأشرة وخيول السفاد الوديعة فقد أمست الآن خالية إلا من بغل واحد هو البغل الذي عاد عليه السيد تارلتون إلى البيت بعد الاستسلام.

- «أقسم إني لا أعرف ماذا أفعل بنفسي الآن، بعد أن ذهب أعزائي»، قالت السيدة تارلتون وهي تنزل عن السياج. وكان يمكن أن يظن الغريب أنها كانت تقصد أولادها الأربعة الأموات ولكن بنات تارا عرفن أن الذي كان يشغل بال السيدة تارلتون هو الخيول. «لقد ماتت كل خيولي الجميلة. آه، يا لنيلي التعسة! آه لو بقيت لي نيلي وحسب! لا شيء في الحظيرة سوى بغل حقير، بغل حقير» كررت وهي تنظر بسخط إلى الحيوان الأعجف.

- «إنها لإهانة لذكرى أعزائي الأصائل أن يحل بغل في حظيرتهم، فالبغال وليدة الحرام، إنها حيوانات غير طبيعية ولا بد أن يكون من المحرم تربيتها».

خرج جيم تارلتون الذي كانت تخفيه تماماً لحيته الكثة، خرج ليرحّب بالفتيات ويقبِّلهن، واندفعت بناته الأربع، ذوات الشعر الأحمر، في أثواب مرقعة، يتعثرن بالكلاب الاثني عشر الحمر والسود التي جرت تنبح إلى الباب إثر سماع أصوات غريبة. كان يشوب العائلة مظهر بهيج مدروس معتمد، مظهر جعل عظام سكارلت تحس بقشعريرة أوجع من مرارة ميموسا أو من الجو الموحي بالموت المخيم على باين بلوم.

أصر التارلتيون على أن تبقى البنات من أجل العشاء، قائلين إن ضيوفهم كانوا قليلين جداً في تلك الأيام وإنهم يريدون سماع كل الأخبار. ولم تكن سكارلت تود البقاء لأن الجو أمضّها، ولكن ميلاني وشقيقتيها كنّ متلهفات لإطالة الزيارة. وهكذا بقي أربعتهن لوقت العشاء، واقتصدن في أكل اللحم المجفف والحمص الناشف الذي قُدِّم لهن.

وارتفع الضحك بسبب الطعام الشحيح، وقهقهت بنات تارلتون وهنّ يروين حيلهن في موضوع الثياب، كما لو كنّ يروين أروع

الفكاهات المضحكة، وقابلتهن ميلاني في منتصف الطريق، مدهشة سكارلت بخفة روحها غير المتوقعة وذلك عندما تحدثت عن تجاربهم في تارا، ملقية ضوءاً على المصاعب التي كانوا يجابهونها. ولم تستطع سكارلت التحدث أبداً، فالغرفة كانت تبدو لناظريها شاغرة من دون الشبان التارلتيين الأربعة العظام، يسترخون في جلساتهم، يدخنون ويراودون. وإذا كانت الغرفة تبدو شاغرة لناظريها هي، فكيف كان ينبغي أن تبدو للتارلتيين الذين ظهروا بوجوه باسمة لجيرانهم؟

كانت كارين قد تكلمت قليلاً أثناء العشاء، ولكن ما إن انتهى الطعام حتى اتجهت إلى جانب السيدة تارلتون وهمست شيئاً في أذنها، فتغير وجه المرأة وغادرت الابتسامة الجافة شفتيها وهي تلفّ ذراعها حول خصر كارين النحيل ثم تركتا الغرفة تتبعهما سكارلت التي شعرت أنها لن تستطيع تحمُّل جوّ الغرفة دقيقة أخرى. سارت الاثنتان في الممر عبر الحديقة ورأت سكارلت أنهما تتجهان إلى المقبرة... فماذا تفعل؟ لن يسعها الرجوع إلى داخل البيت الآن، لأن ذلك سيبدو في منتهى الوقاحة، ولكن أي شيء تقصد كارين بسحب السيدة تارلتون خارجاً نحو قبور الشبان، في الوقت الذي كانت فيه بياتريس تجهد في أن تكون شجاعة؟

كان هناك نصبان رخاميان جديدان في الفسحة المحاطة بالآجر تحت أشجار الأرز الحزينة، جديدان تماماً بحيث إن المطر لم يلطخهما بعد بالتراب الأحمر.

- «لقد جلبناهما في الأسبوع الماضي» قالت السيدة تارلتون باعتزاز، «ذهب السيد تارلتون إلى ميكون وأحضرهما بالعربة».

أنصاب قبور! وما أكثر ما لا بد أن كلفت! وفجأة لم تشعر سكارلت بالأسف على التارلتيين كما شعرت في البدء، فأي إنسان يبدد المال على أنصاب القبور بينما الطعام باهظ الثمن بل لا يمكن

الحصول عليه تقريباً، لا يستحق العطف، ثم إن عدة سطور قد حُفرت على كل نصب، وكلما زاد الحفر عنى ذلك ثمناً أبهظ... لا! ينبغي أن يكون جميع أفراد العائلة أغبياء... ثم إنهم كذلك، تكلفوا نقوداً في سبيل جلب جثث الشبان الثلاثة إلى البيت، أما بويد فلم يعثروا على جثته، ولا على أي أثر منها.

كان بين قبري برنت وستيوارت حجر صغير نُقش عليه «لقد كانا ظريفين هنيئين في حياتهما، وفي مماتهما لم يفترقا».

وعلى الحجر الآخر اسما بويد وتوم وعبارة باللاتينية تبدأ بـ «Dulce et...»[1]، ولكن ذلك لم يعنِ شيئاً بالنسبة إلى سكارلت التي كانت قد نجحت في تجنب اللاتينية في أكاديمية فايتفيل.

كل ذلك المال في سبيل أنصاب القبور! أجل، إنهم أغبياء، وأحست بالسخط كما لو كانت أموالها الخاصة هي التي أُهدِرت.

وكانت عينا كارين تلمعان بصورة غريبة:

- «أعتقد أنه بديع» همست مومئة إلى النصب الأول.

من المنتظر أن تعتقد كارين أنه بديع، إذ إن أي شيء عاطفي يثيرها.

- «أجل» أجابت السيدة تارلتون بصوت ناعم، «فكرنا أنه موافق تماماً، فقد ماتا في الوقت نفسه قريباً، ستيوارت أولاً ثم برنت الذي رفع العلم بعد أن هوى من يد شقيقه».

وبينما البنات عائدات إلى تارا ظلت سكارلت صامتة هنيهة، تفكر في ما قد رأته في مختلف البيوت، وتتذكر كارهة، كيف كانت المقاطعة أيام عزّها، والزوار يملأون جميع المنازل الكبيرة، والنقود كثيرة، والزنوج يملأون الربوع، والحقول الجيدة العناية تزدهي بالقطن.

---

(1) معناها: محبوبان - المترجمان.

«خلال سنة أخرى، ستنمو أشجار الصنوبر الصغيرة في جميع أنحاء هذه الحقول» فكرت، ولكنها عندما تطلعت إلى الغابة المحيطة هزّت كتفيها وأردفت «كل ما نستطيع عمله من دون الزنوج، هو حفظ أجسامنا وأرواحنا معاً. لن يستطيع أيُّ إنسانٍ إدارة مزرعة كبيرة من دون الزنوج، ولن تفلح قط مزارع عديدة، وستكسو الغابات الحقول مرة ثانية، ولن يستطيع امرؤ زراعة الكثير من القطن. وماذا سيحل بأهل الريف؟ إن أهل المدن يستطيعون تدبير أمورهم بطريقة ما. لقد كانوا يتدبرون أمورهم دوماً، ولكننا نحن أهل الريف سنعود القهقرى مئة سنة، ونغدو كالرواد الأول الذين كانوا يملكون غرفاً قليلة ويحرثون فدادين قليلة، ويحافظون على حياتهم بالكد والجهد.

«لا»، فكرت مقطبة الجبين، «لن تغدو تارا كذلك، حتى لو اضطررت إلى أن أحرث بنفسي. وفي وسع هذا الإقليم كله، في وسع هذه الولاية كلها، أن تعود إلى حياة الغابات التي شاءت، غير أنني لن أدع تارا تعود إليها أبداً، ولا أنوي أن أبذر نقودي على أنصاب القبور، أو أبدد وقتي في البكاء على ضحايا الحرب وما خلّفته الحرب. إن في وسعنا تدبير الأمر تقريباً غير أنني أعرف أنه كان في وسعنا تدبير الأمور على أي حال لو لم يكن جميع الرجال ميتين. ليس فقدان الزنوج هو أسوأ ما في هذه القضية، لا، وإنما فقدان الرجال، الرجال الشباب».
وفكرت ثانية في أبناء تارلتون الأربعة وجو فونتين، وريفورد كالفرت والأخوين مونرو وكل الشبان من فايتفيل وجونسبورو، الذين كانت قد قرأت أسماءهم في قوائم المصابين.

«لو بقي عدد كافٍ من الرجال لاستطعنا تدبير الأمر بطريقة ما ولكن. . .».

وساورتها فكرة ثانية. . . هب أنها ستتزوج ثانية. طبعاً، إنها لا تريد أن تتزوج ثانية، فزواج واحد كان يكفي قطعاً. هذا فضلاً عن أن

الرجل الوحيد الذي رغبت دوماً في التزوج به هو آشلي، وآشلي متزوج، هذا إن كان لا يزال حياً. ولكن هب أنها رغبت في الزواج، من سيوجد ليتزوج بها؟ كانت الفكرة مفزعة.

- «ميلي» قالت «ماذا سيحصل بفتيات الجنوب؟».

- «ماذا تعني؟».

- «تماماً ما أقوله، ماذا سيحل بهن؟ لا يوجد من يتزوجهن، أجل يا ميلي، وذلك لأن جميع الشبان قد قضوا. سوف يوجد الألوف من الفتيات في أنحاء الجنوب اللواتي سيمتن عانسات».

- «ولن ينجبن أطفالاً أبداً» أجابت ميلاني التي كان هذا الموضوع أهم الأمور في نظرها.

من الجلي أن الفكرة لم تكن جديدة بالنسبة إلى سولين التي كانت تجلس في مؤخرة العربة، فقد شرعت تبكي فجأة، لأنها لم تكن قد سمعت من فرانك كنيدي منذ عيد الميلاد، ولم تكن تعرف ما إذا كان ذلك يعود إلى انعدام الخدمة البريدية، أو إلى أنه استهان بعواطفها فحسب ثم نسيها، أو أنه ربما قضى في الأيام الأخيرة من الحرب! إن الاحتمال الأخير أفضل حتماً من نسيانه إياها، لأنه على الأقل، كان يود بعض الجلال في أمر حبيب ميت، كما هو الحال مع كارين وإنديا ويلكس بينما لم يكن يوجد شيء من الجلال في أمر خطيبة مهجورة.

- «باسم الإله، اصمتي» قالت سكارلت.

- «آه، في وسعك الاستمرار في الحديث» ، نشجت سولين، «لأنك تزوجت وولدت طفلاً. والجميع يعرفون أن أحد الرجال يرغب في التزوج بك. ولكن انظري إلى حالتي! إنك تتصرفين بلؤم، وتلمّحين إلى أني سأغدو عانساً عندما لا أستطيع أن أجد من أتزوجه. أظن أنك مقيتة».

- «صه، إنك تعلمين كم أمقت الناس الذين يولولون طوال

الوقت، وتعرفين تمام المعرفة أن السيد كنيدي العجوز ذا اللحية الزنجبيلية ليس ميتاً، وأنه سيعود ويتزوج بك. إنه لا يملك ذوقاً أفضل من ذوقك، غير أني شخصياً أفضّل أن أصبح عانساً على أن أتزوج به».

وخيّم الصمت هنيهة على مؤخرة العربة، ثم سمعت كارين تواسي شقيقتها بتربيت ذاهل، فقد كان عقلها بعيداً جداً، يسير في الممرات التي كانت تركب فيها بجانب برنت تارلتون منذ ثلاث سنوات. وكان عيناها تبرقان ببريق مجيد.

- «ها» قالت ميلاني بحزن، «كيف سيغدو الجنوب من دون شباننا الظرفاء؟ وكيف كان سيغدو لو أنهم ظلوا على قيد الحياة؟ كان في وسعنا أن نستفيد من شجاعتهم ونشاطهم وتفكيرهم. سكارلت، ينبغي علينا جميعاً نحن اللواتي لديهن صبيان صغار أن ننشىءهم ليحلوا محل الرجال الذين قضوا، وليكونوا رجالاً شجعان مثلهم».

- «لن يكون أبداً رجال مثلهم» قالت كارين بلطف، «ولن يستطيع أحد أن يحل محلهم».

وقطعت البنات بقية رحلتهن إلى البيت صامتات.

* * *

وفي أحد الأيام، وقبل أن تكون قد انقضت فترة طويلة على هذه الجولة، جاءت كاثلين كالفرت إلى تارا، مع غروب الشمس. وكان بغلها الأعرج المتدلي الأذنين المشدود السرج كئيباً، أكثر كآبة من حيوان رأته سكارلت. وكذلك كانت كاثلين كالفرت، حزينة كالحيوان الذي تركبه، وكانت ترتدي ثوباً قطنياً مخططاً باهت اللون، من النوع الذي كان يلبسه الخدم فيما مضى. وكانت قبعتها الواقية من الشمس معقودة تحت ذقنها بقطعة من القنب. وعندما بلغت الشرفة لم تترجل، بل إن سكارلت وميلاني اللتين كانتا تتأملان العربة نزلتا الدرجات

لتقابلاها، فألفتاها شاحبة اللون شحوب كيد يوم زارتهم سكارلت، شاحبة متجهمة قصيمة كما لو أن وجهها سيتهشم إن هي تكلمت. بيد أن ظهرها كان منتصباً ورأسها مرفوعاً عندما أطرقت برأسها لتحيّيهما.

وتذكرت سكارلت فجأة يوم حفلة الباربكيو عند آل ويلكس، يوم تهامست وكاثلين عن ريت باتلر. كم كانت كاثلين نضرة جميلة في ذلك اليوم وهي تلبس تنورة الأوركندي الأزرق والورود العطرة في حقيبتها وخفّان أسودان مخمليان صغيران معقودان بشريطين حول كاحليها، بينما لا يوجد الآن أي أثر من تلك الفتاة، في هذا الشخص الجامد الراكب على البغلة.

- «لن أترجل، أشكركما» قالت، «أتيت فقط لأخبركم أني سأتزوج».

- «ماذا؟».

- «من؟».

- «كاثي، ما أعظمه من نبأ!».

- «متى؟».

- «غداً» قالت كاثلين بهدوء، وفي صوتها نغمة أماتت الابتسامتين المتلهفتين في وجهيهما، «لقد أتيت لأخبركما أني سأتزوج غداً في جونسبورو... وأنا لا أدعوكم جميعاً للحضور».

فأدركتا قصدها في صمت، وتطلعتا إليها مبهورتين، ثم تكلمت ميلاني.

- «هل هو شخص نعرفه يا عزيزتي؟».

- «نعم» قالت كاثلين باقتضاب، «إنه السيد هيلتون».

- «السيد هيلتون!».

- «أجل، السيد هيلتون، ناظرنا».

ولم تستطع سكارلت حتى إيجاد الصوت لتشعر بدهشتها، ولكن

كاثلين قالت بصوت صارم، وهي ترمق ميلاني فجأة، «إذا بكيت يا ميلي، فلن يسعني تحمل ذلك، سأموت!».

فلم تفعل ميلاني شيئاً، بل ربتت، وقد طأطأت رأسها، على قدم كاثلين، القابع داخل حذائها المخملي القبيح، المتدلي من الركاب.

- «ولا تربتي على قدمي فأنا لا أستطيع احتمال ذلك أيضاً».

أنزلت ميلاني يدها دون أن ترفع رأسها.

- «حسناً، ينبغي أن أذهب. أتيت فقط لأخبركم» وكسا وجهها ثانية القناع الشاحب الهش، ثم تناولت الزمام.

- «كيف حال كيد؟» سألت سكارلت وهي في غاية الابتهاج، ولكنها بحثت عن هذه الكلمات لتقطع الصمت الرهيب الذي ساد.

- «إنه يحتضر» قالت كاثلين باقتضاب دون أن يشوب صوتها أثر من حزن، «وسوف يموت في راحة وطمأنينة إذا استطعت تدبير الأمر، دون أن يجزع على من سيعتني بي بعد وفاته، فأنتما تعلمان أن زوجة أبي وبناتها مسافرات نهائياً إلى الشمال وعلى ذلك، ينبغي أن أتزوج».

ورفعت ميلاني بصرها والتقت عيناها بعيني كاثلين الصارمتين. كانت الدموع المتلألئة عالقة على أهداب ميلاني، وكان في عينيها فهم وإدراك. وزمّت كاثلين شفتيها أمام ميلاني في ابتسامة ملتوية، كتلك التي تصنعها شفتا طفلة شجاعة وهي تحاول ألّا تبكي. أما بالنسبة إلى سكارلت فقد كان كل شيء مذهولاً، وهي لا تزال تحاول استيعاب فكرة أن كاثلين كالفرت ستتزوج ناظراً. . . كاثلين ابنة المزارع الكبير، كاثلين التي كانت تنعم بالمعجبين أكثر من أي فتاة أخرى في المقاطعة، باستثناء سكارلت.

انحنت كاثلين واشرأبت ميلاني وهي على رؤوس أصابعها وتبادلتا القبل، ثم ساطت كاثلين البغل بشدة بحبال العنان وانطلق الحيوان العجوز.

وتبعتها ميلاني بعينيها والدموع تنهمر على وجهها، بينما وقفت سكارلت مبهورة تحدق خلف كاثلين.

- «ميلي، هل هي مجنونة؟ أنت تعرفين أنه لا يمكن أن تكون مغرمة به».

- «مغرمة؟ آه سكارلت، لا تفترضي أمراً فظيعاً كهذا، آه يا لكاثلين المسكينة! يا لكيد المسكين!».

- «يا للسخرية!» صاحت سكارلت وقد بدأت تشعر بالسخط. لقد كان من المغيظ أن تبدو ميلاني دائماً مدركة أكثر منها، إذ بدت ورطة كاثلين لها أقرب إلى الأمر المذهل منه إلى الكارثة طبعاً، لم يكن الزواج بشمالي أبيض حقير فكرة سارّة، ولكن رغم هذا، ليس في وسع فتاة أن تعيش وحيدة في مزرعة، إذ لا بد من زوج يساعدها على تدبير أمورها.

- «ميلي، إن هذا ينطبق على ما قلته في ذلك اليوم. لا يوجد من يتزوج صبايا الجنوب، ولا بد من أن يتزوجن أحداً ما».

- «لسن مرغمات على الزواج، وليس من عار في كون الفتاة عزباء. هاك العمة بيتي. آه، إني أفضل أن أرى كاثلين ميتة! إني أعلم أن كيد يفضل رؤيتها ميتة! أهذه نهاية آل كالفرت، فقط فكري ماذا... ماذا سيكون أولادهما. سكارلت، دعي بورك يسرج الحصان بسرعة واركبي وراءها وأخبريها أن تأتي وتعيش معنا».

- «يا للّه العظيم!» صاحت سكارلت مذهولة من هذا الأسلوب العملي الذي تتبرع فيه ميلاني بتارا. ولم يكن في نية سكارلت حتى إطعام فم جديد ولذا همّت بإعلان ذلك، ولكن شيئاً في وجه ميلاني الملتاع أوقف كلماتها:

- «لن تأتي يا ميلي» قالت مصلحة موقفها، «أنت تعرفين أنها لن تأتي، فهي عزيزة النفس جداً، وستعتقد أن عرضنا هو تصدُّق عليها».

- «صحيح، صحيح» قالت ميلاني مشتتة الأفكار، وهي تتأمل السحابة الصغيرة من الغبار الأحمر تختفي في أسفل الطريق.

- «لقد عشت معي عدة شهور» فكرت سكارلت وهي متجهمة الوجه، «ولم يخطر لك يوماً أنك تعيشين بالصدقة، وأظن أن ذلك لن يخطر على بالك أبداً، فأنت واحدة من هؤلاء الناس الذين لم تغيّرهم الحرب، وأنت ستستمرين في التفكير والعمل ذاتيهما، تماماً كأن شيئاً لم يقع - كأننا ما زلنا أغنياء كقارون، وكأننا نملك طعاماً أكثر مما نستطيع التصرف به، ولا أهمية لقدوم الضيوف. أظن أني سأُجبَر على إعالتك بقية عمري. ولكني لا أريد إعالة كائلين أيضاً».

30

في ذلك الصيف الدافئ الذي تلا السلم، فقدت تارا عزلتها فجأة. ولمدة شهور فيما بعد، ظل يتدفق على المزرعة سيل من الرجال الأشباح الملتحين ذوي الثياب الرثة والأقدام المقرحة والمعد الخاوية. كانوا يبلغون البيت بعد أن يعانوا مشقة صعود التلة الحمراء التربة، فينشدون الراحة على الدرجات الأمامية الظليلة، طالبين قوتاً ومأوى يقضون فيه ليلتهم. كانوا جنوداً حلفيين عائدين مشياً إلى بيوتهم، إذ كانت قطارات السكة الحديد قد حملت فلول جيش جونستون من كارولاينا الشمالية إلى أتلانتا، حيث قذفتهم هناك. ومن أتلانتا بدأوا حجَّهم على الأقدام. وبعد أن مرت موجة رجال جونستون وصل جنود جيش فرجينيا الأكفاء المنهوكين. وتبعهم جنود الفرقة الغربية الذين كانوا يشقون طريقهم جنوباً نحو بيوت يمكن ألّا تكون موجودة، وإلى عائلات يمكن أن تكون مشردة مبعثرة أو ميتة. كان معظمهم يسير على الأقدام، والقلة المحظوظة منهم تركب خيولاً وبغالاً عجفاء سمحت لهم شروط الاستسلام الاحتفاظ بها، حيوانات هزيلة، كان في وسع حتى العين العديمة الخبرة أن تتنبأ بأنها لن تبلغ فلوريدا البعيدة أو جورجيا الجنوبية.

العودة إلى البيت! العودة إلى البيت! تلك كانت الفكرة الوحيدة في عقول الجنود. كان بعضهم حزيناً صامتاً، وبعضهم الآخر مرحاً

هازئاً بالصعاب، ولكن فكرة انتهاء الحرب وعودتهم إلى البيت، كانت الشيء الوحيد الذي كان يقوي من عزائمهم. وكان القليل منهم يشعر بالمرارة، أما الباقون فقد تركوا المرارة لنسائهم ولذويهم الكبار. لقد قاتلوا قتالاً مجيداً وهزموا ولقد صمموا الآن على أن يستقروا في أراضيهم بسلام، يفلحونها في ظل العلم الذي حاربوه.

إلى البيت! إلى البيت! لم يكن في وسعهم التحدث عن شيء آخر، لا عن المعارك ولا عن الجراح والأسر والمستقبل، ففيما بعد، سيتحدثون عن المعارك وسيخبرون أطفالهم وأحفادهم عن المناورات والغارات والهجمات، عن الجوع والمسيرات القسرية والجراح. . . ولكن ليس الآن.

كان بعضهم تنقصه ذراع أو ساق أو عين، بينما كانت أجسام الكثيرين تحمل ندوب الجراح التي ستؤلمهم في الطقس الماطر إذا ما عاشوا سبعين عاماً، بيد أن هذه كانت تبدو أموراً صغيرة الآن، وستبدو بشكل آخر فيما بعد.

عجزة وشباب، ثرثارون وصامتون، مزارعون كبار وفقراء بيض لوَّحتهم الشمس، جميعهم كانوا يشتركون بشيئين، الزحار والقمل. فقد كان الجندي الحلفي قد اعتاد على وضعه المُدوّد، ولا يفكر فيه مطلقاً، بل يأخذ بالحك بلا مبالاة حتى بحضور السيدات، أما بالنسبة إلى الزحار أو «الفيضان الخبيث» كما كانت السيدات تدعونه برقة، فكان من الظاهر أنه لم يوفر أحداً، من الجندي الصغير إلى الجنرال. أربع سنوات من الجوع الشديد، أربع سنوات كانت مخصصاتهم فيها من الأطعمة الغليظة أو المخضوضرة أو الفاسدة، قد فعلت فعلها فيهم، فكان كل جندي منهم يقف بتارا وهو إما قد شفي من الزحار مؤخراً أو ما زال يعاني منه.

- «لا أحشاء سليمة في كل جيش الحلف»، علقت مامي همساً،

بينما كان العرق ينضح منها وهي تقف فوق النار تطهي خليطاً مراً من جذور العليق كان أنجح أدوية إيلين لداء كهذا، «إن رأيي هو أنه ليس الشماليون هم الذين هزموا رجالنا، بل أمعاؤهم، فليس في وسع رجل أن يقاتل وأمعاؤه تسيل ماء».

جرَّعت مامي الدواء للجميع دون أن تنظر أبداً كي تسأل أسئلة فارغة عن حالة أعضائهم الأخرى، وشرب الجميع جرعاتها بنفوس مستسلمة ووجوه منقبضة، ولربما تذكروا وهم يعصرون خدودهم، وجوهاً سوداء صارمة غير وجه مامي تارا، في أماكن بعيدة عنهم، وأيدي سوداء غير يديها، لا ترحم وهي تحمل ملاعق الدواء.

أما بصدد موضوع اختلاط الجنود بأفراد تارا، فقد كانت مامي متصلبة جداً في موقفها، فلم تسمح لأي جندي مقمل أن يدخل تارا، بل كانت تقودهم خلف دغل من الشجيرات الكثيفة وهناك تجرّدهم من بزهم وتعطيهم طستاً من الماء وصابوناً قلوياً حاداً ليغسلوا به، ثم تقدم لهم اللحف والشراشف ليغطوا أجسادهم العارية بينما تأخذ هي بغلي ثيابهم في قدر الغسيل الضخم. ورأت الفتيات أن من غير المجدي مناقشة مامي بعنف في أن تصرفها هذا كان يذل الجنود، فقد كانت تجيب بأن الفتيات سيبدون أشد ذلاً إذا ما ألفين القمل على أجسادهن.

وعندما بدأ الجنود يفدون يومياً إلى تارا، احتجت مامي على السماح لهم باستعمال غرف النوم، إذ كانت تخشى دائماً أن تفلت إحدى القملات من بين يديها. وزادت الطين بلة، أن سكارلت حوَّلت الردهة بسجاجيدها المخملية السميكة إلى غرفة نوم، قبل أن تناقش مامي الأمر... وكذلك احتجت مامي بالعنف ذاته على انتهاك قدسية سجادة الآنسة إيلين عندما سمح للجنود بالنوم عليها، ولكن سكارلت أصرت على رأيها، إذ كان لا بد لهم من أن يناموا في مكان ما. وهكذا بدأ وبر السجاد الكثيف الناعم في البلى خلال الشهور التي تلت الاستسلام،

وأخيراً بانت خيوط سداة الحياكة ولحمتها السميكة. وذلك في المواضع التي أبلتها الأقدام وخرقتها المهاميز من دون اكتراث.

وكان أفراد تارا يستفسرون بلهفة من كل جندي عن آشلي، وكانت سولين تسأل دائماً عن فرانك كنيدي بأنفة واعتزاز، ولكن لم يكن أحد من الجنود قد سمع عن أي منهما، وكذلك لم يكن لدى جميع الجنود ميل للحديث عن المفقودين، فقد كان حسبهم أنهم أحياء يرزقون، ولم يكونوا ليكلفوا أنفسهم جهد التفكير بالألوف الراقدة في قبور غير معلَّمة، ممن لن يعودوا إلى بيوتهم أبداً.

وحاولت العائلة أن تقوي من معنويات ميلاني بعد كل من خيبات الأمل هذه... طبعاً إن آشلي لم يمت في معتقل الأسرى، وإلا لكتب أحد القساوسة الشماليين لعائلته، طبعاً إنه قادم إلى البيت ولكن معتقله كان بعيداً جداً. كيف لا، وقطع مسافة كهذه يستغرق أياماً في القطار، فإذا كان آشلي يقطعها ماشياً كهؤلاء الرجال... ولكن لماذا لم يكتب؟ حسناً يا عزيزتي، أنت تعرفين حالة البريد في هذه الأيام... إنه مضطرب جداً كثير الضياع، حتى في المناطق التي أعيد تنظيم البريد فيها. ولكن هبي... هبي أنه مات في طريق عودته إلى البيت. لو حدث هذا لكتبت إلينا حتماً إحدى الشماليات عنه... النساء الشماليات! أف منهن! ميلي، يوجد بعض النساء الشماليات الطيبات. ها، أجل يوجد، فلا يمكن أن يخلق اللّه أمة بأسرها دون أن يجعل فيها بعض النساء الطيبات! سكارلت، أنت تتذكرين أننا التقينا بشمالية طيبة في ساراتوغا يوماً ما، أخبري ميلي عنها يا سكارلت.

– «طيبة! أعوذ باللّه!» أجابت سكارلت، «لقد سألتني عن عدد الكلاب التي نقتنيها لنطارد بها زنوجنا. إني أتفق مع ميلي، فأنا لم أرَ أبداً شمالياً طيباً، ذكراً كان أم أنثى. ولكن لا تبكي يا ميلي! سيأتي آشلي إلى البيت، إنها مسيرة طويلة، وربما... ليس لديه حذاء».

وعندئذ، عند التفكير في آشلي حافي القدمين، كان يمكن لسكارلت أن تذرف الدموع، فليتعثر الجنود الآخرون في ثيابهم الرثة، وبأقدامهم الملفوفة بالخيش وخرق السجاد، ولكن ليس آشلي. إنه يجب أن يأتي إلى البيت على حصان يتخطر في مشيته مرتدياً ثياباً جميلة وحذاء لماعاً، وعلى قبعته ريشة. إن من الإذلال الشديد لها أن ينحدر تفكيرها في آشلي إلى تصوره بمثل حال هؤلاء الجنود.

وبعد ظهيرة يوم من أيام يونيو، وبينما كان جميع من في تارا محتشدين في الشرفة الخلفية يراقبون بورك بلهفة وهو يقص أول بطيخة نصف ناضجة من بطيخ الموسم سمعوا وقع حوافر على حصباء الممشى الأمامي، فاتجهت برسي متوانية نحو الباب الأمامي، بينما راح الآخرون الذين بقوا في أماكنهم يتناقشون بحدة حول هل يجب تخبئة البطيخة، أو الاحتفاظ بها للعشاء إذا ثبت أن القادم عند الباب كان جندياً.

وهمست ميلي وكارين بأن الجندي الضيف ينبغي أن ينال حصته، بينما أوعزت سكارلت إلى بورك بإخفاء البطيخة بسرعة، يؤيدها في ذلك كل من سولين ومامي.

– «لا تكونا غبيتين أيتها الفتاتان! إنها لا تكفينا كلها، وإذا كان القادم جنديين أو ثلاثة من الجائعين، فلن ينال أحدنا حتى قطعة صغيرة» قالت سكارلت.

وبينما وقف بورك وقد قرَّب البطيخة الصغيرة من صدره، وهو حائر في أي هو القرار النهائي، سمعوا برسي تصرخ:

– «يا اللّه! آنسة سكارلت! آنسة ميلي! هيا أسرعا!».

– «من؟» صاحت سكارلت ووثبت من الدرجات مندفعة عبر القاعة، وميلي في إثرها تلامس كتفيها، والآخرون خلفها.

«آشلي» فكرت «آه، ربما...».

- «إنه العم بيتر، العم بيتر خادم الآنسة بيتي بات».

ركض الجميع إلى الشرفة الأمامية ورأوا الرجل الطويل الشائب، الحاكم بأمره في بيت العمة بيتي، رأوه يترجل عن حصان صغير ذنبه كذنب الفأر، وقد أسرج بجزء من لحاف.

كان وقار بيتر المعتاد يغالب في وجهه الأسود العريض سروره برؤية الأصدقاء القدامى، وكانت النتيجة أن جبينه قطب في عبوس ولكن فمه انفغر مفتوحاً كفم كلب هرم أدرد.

ونزل الجميع الدرجات جرياً ليحيوه، وصافحه البيض والسود على السواء، وأخذوا يمطرونه بالأسئلة، ولكن صوت ميلي علا جميع الأصوات:

- «عمتي ليست مريضة، أليس كذلك؟».

- «إنها في صحة جيدة، شكراً للّه»، أجاب بيتر مصوباً نظرة صارمة إلى ميلاني أولاً ثم إلى سكارلت، بحيث شعرتا فجأة بالإثم، ولكنهما لم تستطيعا معرفة السبب. «إنها في صحة جيدة ولكنها مغتاظة جداً منكما أيتها الآنستان، وإذا أردتما الصراحة، فأنا مغتاظ أيضاً».

- «لماذا يا عم بيتر، ماذا. . . ؟».

- «لا حاجة بكما إلى نشدان النجاة لنفسيكما، ألم تكتب لكما الآنسة بيتي وتكرر الكتابة لتعودا إليها؟ ألم أشاهدها أنا تكتب وأشاهدها تبكي عندما أجبتما بأن لديكما أعمالاً كثيرة في هذه الدسكرة القديمة هنا، بحيث لا يسعكما العودة؟».

- «ولكن يا عم بيتر. . . ».

- «كيف يسعكما ترك الآنسة بيتي وحدها على هذه الصورة في الوقت الذي تعرفان أنها شديدة الخوف؟ أنتما تعرفان جيداً كما أعرف أنا، أن العمة بيتي لا تستطيع العيش وحدها، ولقد ظلت ترتجف منذ

عادت من ميكون. ولقد طلبت مني أن أوضح لكم جميعاً كيف أنها لم تستطع أن تفهم ترككم جميعاً لها في وقت حاجتها».

- «كفى، صه» قالت مامي محتدة، فقد ساءها جداً أن تسمع تارا تدعى بـ«الدسكرة القديمة»، حقاً، إن الزنجي الجاهل المنشأ في المدينة لا يعرف الفرق بين الدسكرة والمزرعة: «ألسنا نحن في وقت حاجة؟ ألسنا في حاجة إلى الآنسة سكارلت والآنسة ميلي هنا، وفي حاجة ماسّة؟ لماذا لا تطلب الآنسة بيتي مساعدة أخيها إذا كانت في حاجة إلى مساعدة؟».

فرمقها العم بيتر بنظرة موهنة:

- «نحن لا علاقة لنا بالسيد هنري منذ سنين، ولقد انقضى على انقطاع العلاقة بيننا وبينه مدة طويلة بحيث لا يسعنا استئنافها الآن»، والتفت ثانية نحو الفتاتين اللتين كانت تحاولان كتم ابتسامتيهما، «أما أنتما أيتها الآنستان، فينبغي أن تشعرا بالخزي لترككما الآنسة المسكينة بيتي وحدها، وقد توفي نصف أصدقائهما، وبقي النصف الآخر في ميكون، ثم إن أتلانتا تعج بالجنود الشماليين والزنوج المحررين الحقيرين».

تحملت الفتاتان التأنيب بوجهين هادئين رصينين أطول مدة ممكنة، ولكن فكرة إرسال العمة بيتي للعم بيتر كي يؤنبهما ويعود بهما يداً بيد إلى أتلانتا، كانت أكثر مما يسعهما احتماله. فانفجرتا في الضحك وتعلقت كل بكتف الأخرى لتسند نفسها. ومن الطبيعي أن وجد بورك ودلسي ومامي مخرجاً لقهقهاتهم الداوية عندما سمعوا التشهير بالذي شهّر بتارا عزيزتهم. وكذلك ضحكت سولين وكارين بصوت مرتفع، وحتى جيرالد علت وجهه ابتسامة مبهمة. وهكذا ضحك الجميع إلا بيتر، الذي نقل عبء جسده من على إحدى قدميه الكبيرتين المفلطحتين إلى القدم الأخرى في سخط بالغ.

- «ماذا أصابك أيها الزنجي؟» استوضحت مامي، «هل أصبحت هرماً جداً بحيث لا تستطيع حماية سيدتك؟».

فثارت ثائرة بيتر:

- «هرم جداً! أنا هرم جداً! لا يا سيدة، إن في وسعي حماية الآنسة بيتي كما فعلت دائماً، ألم أحمها ونحن في طريقنا إلى ميكون يوم نزوحنا؟ ألم أحمها عندما دخل الشماليون ميكون وانتابها فزع شديد بحيث ظلت مغمياً عليها طوال الوقت؟ ألم أحصل على هذا الحصان الموجود هنا لأعيدها فوقه إلى أتلانتا وأحميها هي والأواني الفضية التي ورثتها من والدها طول الطريق؟».

وبينما كان يبرئ نفسه من تهمة الشيخوخة، مد بيتر قامته إلى أعلاها، ثم قال: «أنا لا أتحدث عن الحماية، أنا أتحدث عن كيف يبدو. . .».

- «كيف يبدو من؟».

- «إني أتحدث عن كيف يبدو الأمر في أعين الناس، وهم يرون الآنسة بيتي تعيش وحدها، فالناس يتحدثون بكلام السوء عن السيدات العزباوات اللواتي يعشن وحيدات» تابع بيتر. واتضح لسامعيه أنه يعتبر بيتي بات لا تزال آنسة نضرة فاتنة في السادسة عشرة من عمرها، تجب رعايتها دفعاً لألسنة السوء. «وأنا لا أسمح أن ينتقدها الناس. لا. . . يا سيدة. . . وأنا لا أسمح لها بإدخال أحد غريب عليها، حتى ولو كان ذلك من أجل الرفقة فقط. لقد صارحتها بالقول، لا تلجئي إلى ذلك أبداً ما دمتِ تنعمين بأقارب من لحمك ودمك، وها هم أقرباؤها الذين هم من لحمها ودمها ينكرونها الآن عند الحاجة. ليست السيدة بيتي بات سوى طفلة و. . .».

وهنا ارتفعت قهقهة سكارلت وميلي أكثر من ذي قبل، وتهالكتا على الدرجات، وأخيراً مسحت ميلي دموع الفرح من عينيها.

- «يا عم بيتر المسكين، إني آسفة لضحكي هذا، آسفة حقاً وصدقاً، أرجوك سامحني. ليس في وسعنا أبداً، أنا والآنسة سكارلت، أن نعود إلى أتلانتا الآن. ربما عدت أنا في سبتمبر بعد قطاف القطن. هل أرسلتك عمتي عبر هذه الطريق كلها فقط لتعيدنا فوق تلك الكومة من العظام؟».

وارتخى شدق بيتر عند سماع هذا السؤال، واجتاحت أمائر الإثم والدهشة وجهه الأسود المجعد، ثم عادت شفته السفلى المتدلية إلى وضعها الطبيعي بالسرعة التي تعيد بها سلحفاة رأسها تحت صدفتها.

- «يا آنسة ميلي، لقد أضحيت رجلاً عجوزاً. إني أقول ذلك لأني نسيت تماماً في هذه الهنيهة السبب الذي أرسلتني الآنسة بيتي من أجله، وهو أمر هام أيضاً. لقد أحضرت رسالة إليك، إذ إن الآنسة بيتي لم تأتمن البريد ولا أي إنسان آخر سواي على حملها و...».

- «رسالة؟ لي؟ ممن؟».

- «حسناً، إنها... قالت لي الآنسة بيتي انتبه يا بيتر، بلِّغها بلطف للآنسة ميلاني، وأنا أقول...».

نهضت ميلاني من على الدرجات ويدها على قلبها:

- «آشلي! آشلي! إنه ميت!».

- «لا! لا!» صاح بيتر وقد ارتفع صوته إلى زعيق حاد، وهو يبحث في جيب صدر معطفه الرث، «إنه حي، ها هنا رسالة منه، إنه عائد إلى البيت، إنه... يا لله! امسكيها، مامي، إني...».

- «لا تلمسها أيها العجوز الأحمق!» هدرت مامي وهي تكافح لتمنع جسد ميلاني المسترخي من السقوط على الأرض، «أيها القرد التقي الأسود، بلِّغها بلطف! أنت، بورك أمسك قدميها. آنسة سكارلت، اسندي رأسها. دعونا نمددها على الكنبة في الردهة».

وعلا ضجيج صاخب عندما تجمهر الجميع عدا سكارلت حول

ميلاني المغمى عليها. وصاح الكل فزعين مهرولين إلى داخل البيت طلباً للماء والوسائد، وما هي إلا لحظة حتى كانت سكارلت قد تُركت وحدها مع العم بيتر، تُركا واقفين في الممشى، وقد تسمرت سكارلت في الأرض وعجزت عن التحرك من النقطة التي وثبت إليها عندما سمعت كلماته. كانت تحملق في الرجل العجوز الذي وقف يلوِّح بالرسالة واهن القوى، ووجهه الأسود الهرم يدعو للرثاء كوجه طفل قد غضبت عليه أمه. لقد انهارت كرامته.

ومرت هنيهة وسكارلت لا تستطيع حراكاً ولا كلاماً، على الرغم من أن عقلها كان يصرخ:

«إنه ليس ميتاً! إنه قادم إلى البيت!». ولم يكن النبأ قد حمل لها فرحاً أو أسفاً، وإنما فقط سكوناً ذاهلاً. ثم ارتفع صوت العم بيتر جلياً مهدئاً كأنه ينبعث من مكان بعيد.

- «لقد جلب هذه الرسالة إلى الآنسة بيتي السيد ويلي بور أحد أقربائنا من ميكون وقد كان في المعتقل نفسه مع السيد آشلي، واستطاع الحصول على حصان والعودة سريعاً، بينما يقطع السيد آشلي المسافة على قدميه. و. . .».

انتزعت سكارلت الرسالة من يده. لقد كانت موجهة لميلي بخط الآنسة بيتي، ولكن ذلك لم يجعل سكارلت تتردد لحظة في فضها، فشقتها ووقعت ورقة الآنسة بيتي الموجودة ضمنها على الأرض. وكان في داخل المغلف قطعة ورق مطوية، قاتمة اللون بسبب الجيب القذر الذي حُملت فيه، مهترئة عند الأطراف. وقد كُتبت عليها الكلمات التالية بخط آشلي:

«حضرة السيدة قرينة جورج آشلي ويلكس، بواسطة الآنسة سارة جين هاملتون، أتلانتا، أو تولف أوكس، جونسبورو- جورجيا».

ونشرت الورقة بأصابع مرتعشة وقرأت:

«محبوبتي، إني عائد إليك...».

وطفقت الدموع تنهمر على وجهها بحيث لم تستطع القراءة، وانتفخ قلبها إلى أن أحست أنها لن تستطيع تحمّل الفرحة، فأدنت الرسالة من صدرها وجرت تنهب درجات الشرفة الأمامية إلى القاعة، ومرّت بالردهة حيث كان جميع أفراد تارا يتدافعون جيئة وذهاباً، يعتنون بميلاني الفاقدة الوعي، ثم دخلت مكتب الآنسة إيلين حيث أغلقت الباب وأوصدته، ورمت نفسها على الكنبة العتيقة الخرعة تصرخ وتضحك وتقبِّل الرسالة:

«محبوبتي» همست «إني عائد اليك».

* * *

أدرك الجميع في تارا عقلياً أنه ما لم يتحول آشلي إلى طير ذي أجنحة، فسيحتاج إلى أسابيع، وحتى إلى شهور، كي يصل من إلينوي إلى جورجيا، ومع ذلك فقد ظلت القلوب تخفق بضراوة كلما انعطف جندي في الممشى الموصل إلى تارا. فكل جندي نحيل ملتح كان من المحتمل أن يكون آشلي، وإذا لم يكن آشلي، فلربما كان يحمل نبأ منه أو رسالة عنه من العمة بيتي. كان الجميع، سوداً وبيضاً، يندفعون إلى الشرفة الأمامية كلما سمعوا وقع أقدام، وكان منظر بزة عسكرية كافياً لأن يجعل الجميع يطيرون سراعاً من مكان الحطب أو من المرعى أو أرض القطن في سبيل الاستطلاع. وظل العمل متوقفاً تقريباً طوال شهر بعد وصول الرسالة، إذ لم يكن أحد منهم يرغب في أن يكون خارج البيت ساعة وصوله، خصوصاً سكارلت. ولذلك لم تستطع الإلحاح على الآخرين كي يواظبوا على واجباتهم في الوقت الذي كانت هي تهمل فيه واجباتها.

ولكن عندما مرت الأسابيع متباطئة ولم يأتِ آشلي ولا أي نبأ

منه، انتظمت تارا ثانية في عملها الرتيب، ولم يكن في وسع القلوب المشتاقة إلا تحمُّل المزيد من الشوق. بيد أن خوفاً مقلقاً ساور سكارلت، خوفاً من أن يكون قد وقع له سوء أثناء الطريق فجزيرة روك بعيدة جداً، ولربما كان ضعيفاً أو مريضاً عندما أطلق سراحه. وكذلك فهو لم يكن يملك مالاً، وكان يشق طريقه عبر بلاد تبغض الحلفيين. . . آه لو أنها فقط تعرف مكانه، لأرسلت له نقوداً، لأرسلت له كل بنس تملكه، وتركت العائلة تتضور جوعاً كي يستطيع هو العودة بسرعة بواسطة القطار.

«محبوبتي، إني عائد إليك».

عندما قابلت عيناها هذه الكلمات في دفقة الفرح الأولى، فهمت منها فقط أن آشلي كان عائداً إليها. ولكنها الآن، في ضوء المنطق الأكثر اتزاناً، رأت أنه كان عائداً إلى ميلاني، ميلاني التي كانت تطوف في البيت هذه الأيام، وهي تغني فرحة. وكانت سكارلت تتساءل من وقت إلى آخر، لماذا لم يكن من الممكن أن تموت ميلاني أثناء الولادة في أتلانتا، إذ لو حدث ذلك لوضعت الأمور في نصابها، ولاستطاعت أن تتزوج آشلي بعد فترة معقولة، وجعلت من نفسها أيضاً امرأة أب صالحة لبو الصغير. وعندما كانت تخطر لها مثل هذه الأفكار، لم تكن تسرع بالصلاة إلى اللّه، وتنبئه أنها لا تعني ذلك فعلاً، ذلك لأن اللّه لم يعد يخيفها أبداً.

كان الجنود يفدون إلى تارا فرادى ومثاني وعشرات، وكانوا جائعين دوماً. وفكرت سكارلت بائسة في أن أرجل الجراد قد تكون أخف وطأة من هؤلاء الرجال، ولعنت ثانية عادة الضيافة القديمة التي ازدهرت في فترة الرخاء، العادة التي لم تكن تسمح لأي مسافر عظيم أو حقير، أن يتابع رحلته من دون قضاء ليلة وتناول طعام، هو وحصانه، ثم الحظوة بأقصى رعاية يستطيع البيت تقديمها. وكانت هي

تدرك أن تلك الفترة من الرخاء قد انقضت إلى الأبد، ولكن بقية العائلة لم تدرك الحقيقة، وكذلك لم يدركها الجنود أيضاً، وهكذا كان كل جندي يكرم كأنه ضيف يصبى إليه منذ أمد طويل.

وبينما كان هذا الصف اللانهائي من الجنود يستمر في تدفقه، كان قلب سكارلت يتصلب. لقد كان الجنود يأكلون الطعام المخصص لأفواه تارا، والخضار التي أنهكت ظهرها وهي تنحني فوقها، والغذاء الذي قطعت الأميال الطويلة في سبيل شرائه. كان القوت صعب المنال، كما أن النقود التي وُجدت في حافظة الشمالي لن تدوم إلى الأبد، ولم يبقَ منها الآن سوى أوراق مالية قليلة والقطعتين الذهبيتين، فلماذا يتوجب عليها إطعام هذا الفيض من الرجال الجائعين؟ لقد انتهت الحرب، ولن يقفوا ثانية بينها وبين الخطر، ولذا أصدرت أوامرها إلى بورك بوجوب الاقتصاد في إعداد المائدة أثناء وجود جنود في البيت. واستمر تنفيذ هذا الأمر إلى أن لاحظت أن ميلاني التي لم تكن قد استعادت قوتها منذ ولادة بو، كانت تقنع بورك بأن يضع قليلاً من الطعام في صحنها ويعطي حصتها للجنود.

- «ينبغي أن تكفّي عن ذلك يا ميلاني» أنّبتها، «فأنت نفسك نصف مريضة وإذا لم تأكلي أكثر، فستمرضين في الفراش وسنضطر لتمريضك. دعي هؤلاء الرجال يجوعون، ففي وسعهم تحمُّل ذلك. لقد تحمّلوا الجوع طوال أربع سنوات ولن يضيرهم أن يتحملوا مدة قصيرة أخرى».

فالتفتت ميلاني نحوها، وقد نطق وجهها بأول تعبير عن عاطفة صريحة رأتها سكارلت في تينك العينين الصافيتين الهادئتين.

- «آه يا سكارلت، لا تؤنبيني، دعيني أفعل ذلك. أنت لا تعرفين كم يسري عني هذا العمل. كل مرة أعطي فيها حصتي لأحد الرجال المساكين، أفكر في أن من المحتمل أن تكون إحدى النساء الشماليات

في مكان ما في الطريق شمالاً، تعطي جزءاً من غذائها لزوجي آشلي، الأمر الذي يساعده على أن يعود إليّ».

«زوجي آشلي».

«محبوبتي، إني عائد إليك».

واستدارت سكارلت، ومضت بعيداً دون أن تنبس بكلمة. ولاحظت ميلاني فيما بعد ازدياد كمية الطعام على المائدة أثناء وجود الضيوف، مع أن سكارلت كان يمكن أن تحسدهم على كل لقمة يلتهمونها.

وفي الحالات التي كان الجنود فيها شديدي المرض بحيث لا يستطيعون متابعة رحلتهم، كما كان حال الكثيرين منهم، كانت سكارلت تقدم لهم الأسرَّة دونما أي ترحيب، إذ كان كل مريض يعني فماً جديداً عليها إطعامه، وكان لا بد لكل مريض من شخص يمرضه، الأمر الذي يعني خسارة عامل آخر من أفراد تارا الذين كانوا يعملون في بناء الأسيجة أو في العزق أو التعشيب أو الحرث.

وحدث يوماً أن أنزل أحد الجنود الفرسان القاصدين إلى فايتفيل، شاباً أشقر طريراً على الشرفة الأمامية لتارا. وكان الجندي قد وجده فاقد الوعي بجانب الطريق فحمله على سرج حصانه إلى تارا، أقرب مكان إليه. وفكرت البنات أن الشاب لا بد أن يكون أحد التلاميذ العسكريين الذين كانوا استدعوا من المدارس الحربية عندما اقترب شيرمان من ميلدجفيل، ولكنهن لم يعرفن الحقيقة لأنه مات دون أن يستعيد وعيه، ولم يسفر البحث في جيوبه عن أي دليل.

كان شاباً جميل الطلعة، يبدو جلياً أنه من السادة البيض، وفي مكان ما إلى الجنوب، كانت إحدى النساء تراقب الطرقات وتتساءل عن مكانه وموعد عودته، تماماً كما كانت سكارلت وميلاني، والأمل يطفر من قلبيهما، تراقبان كل رجل ملتح يصعد ممشى تارا.

دفن التلميذ الحربي في مقبرة العائلة بجانب أولاد أوهارا الثلاثة، وبكت ميلاني بكاء مراً بينما كان بورك يطمر القبر، وتساءلت في قلبها عما إذا كان بعض الغرباء يفعلون هذا الفعل ذاته بجسد آشلي الطويل.

وكان ويل بنتين جندياً آخر وصل وهو فاقد الوعي إلى تارا على سرج أحد رفاقه، كالشاب المجهول الهوية. كان ويل مريضاً جداً بداء الرئة، وقد خشيت الفتيات عندما وضعنه في السرير أن يلحق عاجلاً بالشاب الذي دفنوه في المقبرة.

كان له وجه أحد فقراء بيض جنوب جورجيا، وجه أصفر شاحب بفعل الملاريا، وشعر أحمر فاقع وعينان زرقاوان ذاويتان كانتا حتى أثناء بحران الحمى صابرتين وادعتين. وكانت إحدى ساقيه مبتورة عند الركبة وقد ثبت للجزء الباقي منها عكاز خشبي خشن الصنع. وكان من الواضح أنه من فقراء بيض الجنوب، تماماً كوضوح كون الصبي، الذي دفنوه قبل مدة وجيزة، ابن مزارع. أما كيف عرفت البنات ذلك فليس في استطاعتهن القول، فمن الأكيد أن ويل لم يكن أقذر، ولا أغزر شعراً، ولا أشد ابتلاء بالقمل من كثير من السادة المحترمين الذين أتوا تارا، ومن الأكيد أيضاً أن اللغة التي تفوّه بها أثناء بحرانه لم تكن أقل بلاغة من لغة التوأمين تارلتون، ومع ذلك فقد عرفن بحدس الغريزة، كما كنّ يعرفن الأحصنة الأصيلة من الحقيرة، أنه لم يكن من طبقتهن. بيد أن هذه المعرفة لم تمنعهن من السعي جاهدات في سبيل إنقاذه.

ولما كان قد أسقمه بقاؤه سنة كاملة في معتقل الشماليين، وأضناه سيره الطويل الوئيد على رجله الخشبية المختلة، فإنه لم يقوَ على مقاومة داء الرئة، فظل طريح الفراش أياماً، يئنّ، ويحاول النهوض، ويهذي بالحرب، ولم يحدث مرة أن سمعته ينادي أمه أو زوجته أو شقيقته أو حبيبته، الأمر الذي أقلق كارين.

- «لا بد للرجل من أن يكون له أهل» قالت، «ويبدو كأنه لا يملك قريباً في هذه الدنيا».

وعلى الرغم من نحوله كان صلب العود، ودفعه التمريض الجيد إلى العافية، وجاء اليوم الذي فتح فيه عينيه الزرقاوين الذاويتين، اللتين كانت مطلعتين تمام الاطلاع على ما يدور حولهما، فإذا بهما تقعان على كارين وهي تجلس بجانبه تقرأ تسابيحها وشمس الصباح تعكس أشعتها على شعرها الأشقر:

- «إذاً لم تكوني حلماً، رغم كل هذا» قال بصوته الواضح المعتدل، «آمل ألّا أكون أزعجتك كثيراً أيتها السيدة».

وامتدت فترة نقاهته طويلاً، وكان يضطجع ساكناً ينظر من النافذة إلى أشجار الماغنوليا، لا يكلف أحداً من سكان تارا غير القليل من الجهد. وأحبته كارين بسبب صمته المطمئن العديم الإزعاج، فكانت ترغب في الجلوس إلى جانبه خلال الأمسيات الطويلة الحارة، تروّح عليه بالمروحة دون أن تنبس بكلمة.

ولم تكن كارين تتحدث إلا قليلاً جداً هذه الأيام، وذلك عندما كانت تتحرك وانية كالشبح، لتتمم المهمات التي تقدر عليها. كانت تصلّي كثيراً، وما من مرة دخلت سكارلت غرفتها دون أن تقرع الباب إلا وجدتها جاثية على ركبتيها بجانب السرير. وكان منظرها هذا يضايق سكارلت دائماً لأنها كانت تشعر أن وقت الصلاة قد مضى، فإذا كان اللّه قد ارتأى أن من المناسب عقابهم ففي وسعه أيضاً الإحسان إليهم... إن شاء... من دون صلاة. لقد كانت الديانة دائماً بالنسبة إلى سكارلت عملية مساومة، إذ كانت تعد اللّه بأن تسلك سلوكاً حسناً مقابل توفيقه إياها. ولقد نقض اللّه الاتفاقية في رأيها مرة بعد مرة، فشعرت أنها لم تعد مدينة له الآن بشيء أبداً. وهكذا، فكلما وجدت كارين على ركبتيها في الوقت الذي كان يجب أن تنعم بقيلولتها أو تقوم

بأعمال الرتق، كانت تحس أنها (كارين) تتهرب من نصيبها من الأعباء.

وبعد ظهيرة أحد الأيام، تحدثت سكارلت في هذا الموضوع مع ويل بنتين حين استطاع الجلوس على كرسي، غير أنها وجمت عندما أجابها بصوته المنخفض:

- «دعيها تصلّي يا آنسة سكارلت، فإن ذلك يسري عنها».

- «يسري عنها؟».

- «أجل، إنها تصلّي من أجل أمك ومن أجله».

- «من هو؟».

فرنت إليها عيناه الزرقاوان الذاويتان من تحت أهداب صفراء قاتمة دون أن تشوبهما الدهشة. ولم يكن يبدو أن شيئاً يدهشه أو يثيره، فلعله كان قد رأى الكثير من المحاذير بحيث لم يعد ينذهل أبداً. وهكذا لم يبدُ غريباً بالنسبة إليه أن لا تعرف سكارلت ما يكمن في قلب شقيقتها، وتقبل الأمر بصورة طبيعية، شأنه في تقبُّل حقيقة كون كارين وجدت عزاء في الحديث معه، وهو الرجل الغريب.

- «فتاها، ذلك الشاب برنت الفلاني الذي قتل في غتيسبورغ».

- «فتاها؟» قالت سكارلت باقتضاب، «فتاها... أبداً... هو وأخوه كانا عشيقَيَّ».

- «أجل، هكذا أخبرتني. ويبدو لي أن معظم شبان المقاطعة كانوا عشاقك. بيد أن هذا لن يغير شيئاً، فلقد صار عشيقها بعد أن أعرضت عنه، لأنه عندما عاد إلى البيت في آخر إجازة له، خطبا بعضهما. ولقد أخبرتني أنه كان الفتى الوحيد الذي حفلت به. وهكذا فإن في الصلاة من أجله نوعاً من العزاء لها».

- «يا لسخرية القدر!» قالت سكارلت وقد داخل قلبها قليل من الغيرة.

وتطلعت بفضول إلى هذا الرجل النحيل، بكتفيه المنحنيتين البارزتي العظام، بشعره الأحمر، وعينيه الوادعتين المطمئنتين. . . إذن كان يعرف أموراً عن عائلتها لم تكن هي قد كلفت نفسها عناء اكتشافها، وإذن فهذا هو السبب في أن كارين تحوم وهي شاردة اللب، وتصلي طوال الوقت. . . حسناً. . . ستتغلب على هذه المحنة، فكثير من الفتيات نسين أحباءهن الموتى، بل أزواجهن الموتى أيضاً. ومن الأكيد أنها هي قد تغلبت على مصيبتها بموت تشارلز، كما أنها كانت تعرف فتاة في أتلانتا ترملت ثلاث مرات بسبب الحرب، وما زال في وسعها الاهتمام بالرجال، وقد أخبرت ويل عنها، ولكنه هز رأسه منكراً قائلاً بإصرار:

- «ليست الآنسة كارين».

كان الحديث مع ويل شيقاً عادة، لأنه لم يكن لديه إلا القليل ليتحدث عنه، ولذلك فقد كان مستمعاً واعياً تماماً. وحدثته سكارلت عن مشاكلها في التعشيب والعزق والزراعة، عن مشاكلها في تسمين الخنازير وإنسال البقرة، وقدم لها هو نصيحة خالصة جيدة لأنه كان يملك مزرعة صغيرة في جورجيا الجنوبية تضم زنجيين، وكان يعرف أن زنجييه قد تحررا الآن وأن المزرعة قد غمرتها الحشائش البرية ونبيتات الصنوبر. أما أخته، وهي قريبته الوحيدة، فكانت قد رحلت إلى تكساس مع زوجها منذ سنين وبقي هو وحيداً في هذه الدنيا. ومع ذلك فلم يبدُ أن أمراً من هذه الأمور المنغصة كان يضايقه أكثر من فقدان ساقه التي تركها في فرجينيا.

أجل، لقد كان ويل عزاء لسكارلت بعد نهاراتها الشاقة، نهارات دمدمة الزنوج ونكد سولين وسؤال جيرالد المتكرر: أين إيلين؟. واستطاعت أن تخبر ويل بكل شيء أخبرته حتى عن قتلها الشمالي، وازدهت كبرياء عندما علّق على ذلك بإيجاز: «إنه عمل جليل».

وأخيراً وجد جميع أفراد تارا طريقهم إلى غرفة ويل لعرض مشاكلهم. . . حتى مامي، التي ابتعدت عنه في أول الأمر، لأنه لم يكن من فئة البيض الممتازة ولأنه لم يكن يملك سوى زنجيين فقط.

وعندما أصبح في وسع ويل أن يمشي متداعياً في أنحاء البيت، أخذ في صنع سلال السنديان وإصلاح قطع الأثاث التي أتلفها الشماليون. وكان ماهراً في النحت، وقد اعتاد ويد الجلوس إلى جانبه لأنه كان ينحت له دمى، وهي اللعب الوحيدة التي حظي بها الصبي. ونظراً إلى وجود ويل في البيت، اطمأن الجميع إلى ترك ويد والرضيعين معه بينما يقومون هم بأعمالهم، فقد كان في وسعه الاعتناء بهم بمهارة كما كانت تفعل مامي. ولم يكن يبزّه في تهدئة زعيق الرضيعين، الأسود والأبيض، سوى ميلاني فقط.

- «لقد أحسنت إليّ كثيراً يا آنسة سكارلت» قال، «وأنا غريب وليس لي أي صلة بكم البتّة. لقد سببت لكم الكثير من المتاعب والإزعاج. وإذا لم يكن مانع لديكم فسأظل هنا وأساعدكم جميعاً في العمل كي أفي بعض جميلكم، مع أني لن أستطيع يوماً إيفاءه جميعه، لأنه لم يوجد شيء يستطيع الإنسان تقديمه ثمناً لحياته».

وهكذا مكث في تارا. ومع الأيام، وبطريقة تخلو من الفضول، انتقل جزء كبير من أعباء تارا من كتفي سكارلت إلى كتفي ويل بنتين البارزتَي العظام.

* * *

كانت أيام سبتمبر، أيام قطاف القطن، وقد جلس ويل بنتين على الدرجات الأمامية عند قدمي سكارلت في أشعة الشمس البهيجة بعد ظهيرة يوم من أيام الخريف الأولى، وكان صوته الهادئ يتحدث واهناً عن التكاليف الباهظة التي يتطلبها حلج القطن في المحلج الجديد قرب

فايتفيل. . . ومهما يكن من أمر، فإن ويل كان قد علم أثناء وجوده في فايتفيل ذلك اليوم، أن في وسعه توفير ربع تكاليف الحلج، مقابل تأجير الحصان والعربة لصاحب المحلج مدة أسبوعين. ولذلك أخر إنهاء المساومة حتى يباحث سكارلت في الأمر.

تأملت سكارلت الشخص النحيل المتكئ على عمود الشرفة والذي كان يمضغ قطعة من القش، وأدركت أن ويل كان ولا شك نعمة أرسلها اللّه، كما أعلنت مامي مراراً، وكثيراً ما كانت تتساءل كيف كان يمكن لتارا أن تعيش من دونه خلال الأشهر القليلة الماضية. إنه لم يسهب في حديثه يوماً، ولم يتباه بقوّته أبداً، ولم يبدُ عليه مرة أنه يعير كبير اهتمامه لأي من الأمور التي كانت تجري حوله، ومع ذلك فقد كان يعرف كل شيء عن كل شخص في تارا، وكان يقوم بأعماله صامتاً صابراً وبمهارة، فمع أنه كان بساق واحدة فقد كان يستطيع العمل أسرع من بورك، الأمر الذي كان عجيباً في نظر سكارلت. . . وعندما أصيبت البقرة بالقضاع ووقع الحصان بمرض غامض هدد بفقده نهائياً، سهر ويل الليالي مع الحيوانين وأنقذهما. ولقد أكسبه احترام سكارلت كونه تاجراً حاذقاً، إذ كان يستطيع الخروج في الصباح على ظهر الحصان، ومعه سلة أو سلتان من التفاح والبطاطا الحلوة والخضار، ثم يعود بالحبوب وأطوال من القماش، بالدقيق والحاجات الماسَّة الأخرى التي كانت سكارلت تعرف أنها لن تستطيع الحصول عليها رغم كونها تاجرة ماهرة.

وخطوة خطوة توصّل ويل إلى أن يتبوأ منزلة عضو في العائلة، وينام على سرير في غرفة اللبس الصغيرة التابعة لغرفة جيرالد، ولم يكن يقول شيئاً عن مغادرته لتارا، وكانت سكارلت تحرص على أن لا تسأله خشية احتمال مغادرته، وكانت أحياناً تفكر في أنه لو كان إنساناً على شيء من الوعي لرجع إلى بيته حتى لو لم يعد يملك بيتاً. ولكن، وعلى

الرغم من تفكيرها هذا، كانت ترجو من كل قلبها أن يظل في تارا مدة غير محدودة. . . فلقد كان وجود رجل في البيت أمراً مناسباً جداً.

وفكرت سكارلت أيضاً أنه إذا كانت كارين تملك عقل فأر وحسب فستدرك أن ويل كان يهتم بها، وستظل سكارلت تعترف بفضله إلى الأبد، إن هو طلب منها يد كارين. طبعاً لم يكن ويل قبل الحرب، يصلح أبداً كمرشح لائق للزواج، لأنه لم يكن من طبقة المزارعين، مع أنه لم يكن أيضاً من البيض الفقراء، بل كان رجلاً عادياً من فقراء البيض، مزارعاً صغيراً نصف مثقف، معرضاً للأخطاء النحوية، جاهلاً ببعض الآداب الرفيعة التي كان آل أوهارا يألفونها في السادة. والحقيقة أن سكارلت تساءلت ما إذا كان يمكن اعتباره سيداً بصورة جازمة ثم أجمعت رأيها على عدم إمكان ذلك، بينما دافعت عنه ميلاني بحرارة قائلة إن أي إنسان يملك قلب ويل الرحيم وتفكيره بالآخرين، لا بد من أن يكون رفيع النسب. غير أن سكارلت كانت تدرك أن إيلين كان يمكن أن يغمى عليها من جرّاء فكرة زواج إحدى بناتها برجل كهذا، ولكنها الآن، مرغمة بفعل الضرورة على أن تتخلى عن تعاليم إيلين كي لا تقلقها. لقد كان الرجال نادرين الآن، ولا بد للفتاة من أن تتزوج برجلٍ ما، ولا بد لتارا من رجل. على أن كارين التي كانت تنغمس أعمق وأعمق في كتاب صلواتها والتي كانت كل يوم تزداد بعداً عن دنيا الواقع، كانت تعامل ويل بلطف كما تعامل شقيقاً لها، وتألفه كما كانت تألف بورك.

«إذا كانت كارين تملك شيئاً من عرفان الجميل لي، جزاء ما عملته لها، فسوف تتزوجه ولا تدعه يرحل من هنا» فكرت سكارلت حانقة، «ولكن ينبغي ألّا تقضي وقتها في التحسر على شاب أحمق قد لا يكون فكر فيها جدياً».

وهكذا بقي ويل في تارا، دون أن تعرف سكارلت سبب بقائه.

ولكنها وجدت في علاقته المنظمة معها، علاقة الرجل بالرجل، أمراً ممتعاً ومعيناً. ورغم أنه كان يحترم جيرالد التائه ويصغي إلى نصائحه، فإنه كان يرجع إلى سكارلت كرأس العائلة الحقيقي.

ووافقت سكارلت على خطة تأجير الحصان حتى مع أن ذلك يعني بقاء العائلة مؤقتاً، من دون أي وسيلة للتنقل، الأمر الذي سيؤلم سولين بصفة خاصة، إذ كانت فرحتها العظمى تكمن في الذهاب إلى جونسبورو أو فايتفيل برفقة ويل وذلك أثناء خروجه في مهمة، فكانت تزين نفسها بأحسن مقتنيات العائلة وتزور الأصدقاء القدامى وتسمع كل أحاديث المقاطعة وتشعر أنها أضحت ثانية الآنسة أوهارا من تارا، وهكذا لم تفت سولين فرصة مغادرة المزرعة والتباهي بين الناس الذين كانوا يجهلون أنها كانت تعشب الحديقة وترتب الأسرَّة.

«ستضطر الآنسة المغناج (سولين) إلى البقاء من دون تطواف طوال أسبوعين» فكرت سكارلت، «وسيكون علينا تحمُّل نكدها وصراخها».

ثم جاءت ميلاني إلى الشرفة وانضمت إليهما وطفلها بين ذراعيها فأنزلته ليزحف فوق الشرشف العتيق الذي فرشته على الأرض. وكانت ميلاني منذ وصول رسالة آشلي قد قسمت وقتها بين السعادة المتألقة الشادية والتلهف القلق، ولكنها في كلا حالتي الهناء والجزع كانت نحيلة شاحبة جداً. ومع أنها كانت تقوم بنصيبها من العمل من دون تذمُّر، إلا أنها كانت تحس بالألم دائماً. وقد شخص الدكتور فونتين العجوز مرضها بأنه مرض نسائي وأيَّد الدكتور ميد أنها كان يجب ألّا تحبل ببو، وأضاف بصراحة أن حبلها بطفل سيودي بها إلى القبر.

- «عندما كنت اليوم في فايتفيل» قال ويل، «وجدت شيئاً رائعاً جداً، اعتقدت أنه يسرّكما أيتها السيدتان فأحضرته معي».

وبحث في جيب سرواله الخلفي وأخرج المحفظة التي كانت قد

صنعتها له كارين من الخام المصلب بلحاء الشجر، ثم سحب منها سنداً حلفياً.

- «إذا كنت تعتقد أن النقود الحلفية رائعة يا ويل، فأنا لا أعتقد ذلك» قالت سكارلت باقتضاب، ذلك أن مجرد منظر النقود الحلفية أثار ثائرتها.

- «لدينا ثلاثة آلاف دولار منها، موجودة الآن في محفظة والدي، وما انفكت مامي تلحّ عليّ بأن أدعها تلصقها فوق الثقوب في جدران العلية، كي تمنع تيارات الهواء، وأظن أني سأسمح لها بذلك. عندئذ نكون قد استفدنا منها بعض الشيء».

- «لقد مات قيصر الطاغية وتحوّل إلى طين» قالت ميلاني بابتسامة حزينة، «لا تفعلي ذلك يا سكارلت، احفظيها لويد فسيكون فخوراً بها يوماً ما».

- «حسناً، إني لا أعرف شيئاً عن قيصر الطاغية» قال ويل بلهجة الصبور، «غير أن ما معي يتفق مع ما قلته عن ويد يا آنسة ميلاني، إنها قصيدة ملصقة على ظهر هذا السند. أنا أعرف أن الآنسة سكارلت لا تعير كبير أهمية للشعر، ولكني ظننت أن هذه القصيدة قد تروقها».

وقلب السند، وكان قد ألصق على ظهره قصاصة ورق خشن بني من ورق اللف، مكتوب عليها بحبر محلي الصنع. وتنحنح ويل، وقرأ ببطء وصعوبة:

«العنوان: (سطور على ظهر سند حلفي)، قال:

«إنك لا تمثل شيئاً على أرض اللّه الآن، ولا شيء في المياه تحتها. . .

ولكن احفظه أيها الصديق وأَرِه للناس

كعهد لأمة مضت.

أَرِه لأولئك الذين سيصغون

للقصة التي سترويها هذه القصاصة
قصة الحرية التي ولدتها أحلام الوطنيين،
قصة أمة سقطت ومهدها العواصف».

- «ها ما أروعه! ما أفعله في النفس» صاحت ميلاني، «سكارلت، ينبغي ألّا تعطي النقود لمامي لتلصقها على جدران العلية. إنها أكثر من ورقة».

- «تماماً كما قالت هذه القصيدة: عهد أمة مضت!».

- «آه ميلاني، لا تكوني عاطفية، فالورق ورق، وليس عندنا إلا القليل منه، ولقد سئمت من سماع مامي تتذمر من شقوق العلية، وآمل أن يكون في حوزتي، عندما يكبر ويد، كثير من النقود الشمالية، كي أقدمها له بدلاً من النقود الحلفية العديمة القيمة».

رفع ويل، الذي كان أثناء هذه المناقشة يغري بو الصغير بالسند كي يزحف عبر الشرشف، رفع بصره، ثم ظلَّل عينيه ونظر نحو الممشى:

- «ضيف جديد» قال متخازراً في الشمس «جندي آخر».

وأرسلت سكارلت نظرها خلف نظره، فرأت منظراً مألوفاً، منظر رجل يلبس خليطاً رثاً من بزز زرقاء ورمادية، وقد حنى التعب رأسه وراح يجرجر قدميه ببطء.

- «ظننت أننا كدنا ننتهي من الجنود» قالت، «أرجو ألّا يكون هذا القادم خاوي البطن».

- «سيكون جائعاً»، قال ويل باقتضاب.

- «من الأفضل أن أخبر دلسي كي تضع صحناً إضافياً» قالت ميلاني، «وأن أنبه مامي بأن لا تنزع ثياب المسكين عن ظهره بسرعة».

وصمتت بصورة مفاجئة غريبة جعلت سكارلت تلتفت وتتطلع إليها، فرأت يدها النحيلة على حنجرتها، تقبض عليها كما لو كانت

تتمزق من الألم، واستطاعت سكارلت رؤية العروق تخفق متوترة تحت البشرة البيضاء. وازداد وجهها شحوباً واتسعت عيناها العسليتان اتساعاً مخيفاً.

«سيغمى عليها» فكرت سكارلت ووثبت على قدميها ممسكة بذراع ميلاني.

غير أن ميلاني نفضت يدها بسرعة خاطفة، وانطلقت تهبط الدرجات، ثم راحت تنهب ممر الحصباء نهباً، تطأ الأرض بخفة العصفور، وتنورتها الباهتة تتطاير خلفها، وذراعاها ممتدتان. ثم عرفت سكارلت الحقيقة، فنزلت عليها كالضربة، وترنحت مسندة جسدها على عمود في الشرفة، بينما رفع القادم وجهاً تكسوه لحية شقراء قذرة، وجمد في مكانه يتطلع نحو البيت، كأنه في منتهى التعب بحيث لا يستطيع التقدم خطوة أخرى. وقفز قلب سكارلت وتوقف ثم طفق يخفق، في حين ألقت ميلاني نفسها بين ذراعي الجندي القذر وهي تصيح صيحات متقطعة، وانحنى الرجل برأسه فوق رأسها، وبخفة الفرح، تقدمت سكارلت خطوتين سريعتين إلى الأمام ولكنها أوقفت عندما أطبقت يد ويل على تنورتها:

- «لا تعكري صفو اللقاء» قال بهدوء.

- «اتركني، أيها الأحمق، اتركني، إنه آشلي!».

ولكنه لم يخفف قبضته.

- «إنه زوجها، أليس كذلك؟» سأل ويل بهدوء، وعندما نظرت إليه في ذهول من الفرح والغضب الواهن، رأت في أعماق عينيه المطمئنتين، إدراكاً وشفقة.

مارغريت ميتشل

ذهبَ مع الرّيح

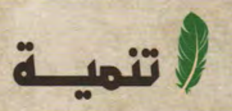
ذهب مع الريح هي الرواية الوحيدة لمارغريت ميتشل، ولكن يا لها من رواية!

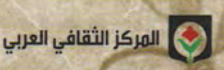
منذ صدورها عام 1936، وحصولها على جائزة بوليتزر، تتصدر هذه القصة الرائعة لائحة الروايات الأكثر قراءة في العالم، وتُعتبر من روائع الأدب العالمي.

ترسم هذه الرواية لوحة تاريخية خالدة لمجتمع الجنوب الأميركي، وتأخذنا إلى قلب الحرب الأهلية الأميركية وما جلبته من مآسٍ وتحوّلات. ولكنها أيضاً قصة حب جمعت بين سكارلت أوهارا الثائرة وريت باتلر المغامر، وأدخلتهما إلى مصاف أشهَر العشاق في تاريخ الأدب العالمي.

إنها رواية ملهمة بامتياز، تعرِّفنا إلى مجموعة من الشخصيات القويّة والرافضة للاستسلام للقدر رغم الضربات والمفاجآت التي تخبئها الحياة للإنسان أحياناً. وتجسّد شخصية سكارلت أوهارا وحدها درساً في المقاومة والبقاء وحب الحياة، فهذه الفتاة الجذابة الثرية، غير المهيأة لتصدي مصاعب الحياة، استطاعت أن تجد في طبيعتها وفي حبها لأرضها القوة اللازمة لمواجهة الحرب والمجاعة، رافضة للانهزام، ومتشبثة رغم كل شيء بأمل في المستقبل، وفي الغد، لأن «غداً يوم آخر».







الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com